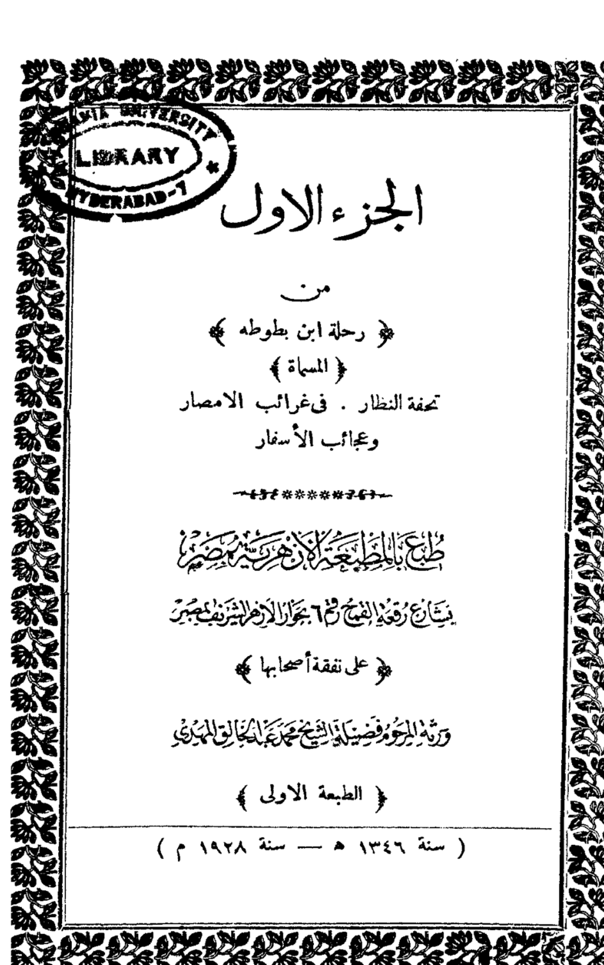
*

190314

*



OSMANIA UNIVERSITY
LIBRARY
HYDERABAD-1

الجزء الاول

من

﴿ رحلة ابن بطوطه ﴾

﴿ المسماة ﴾

تحفة النظار . فى غرائب الامصار
وعجائب الأسفار

طبع بالمطبعة الأزهرية بمصر

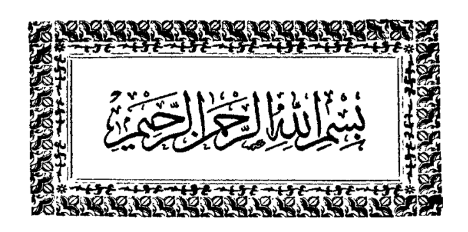
بشارع رقعة القمح رقم ٦ بجوار الازهر الشريف بمصر

﴿ على نفقة أصحابها ﴾

ورثة المرحوم فضيلة الشيخ محمد عبد الخالق المهدى

﴿ الطبعة الاولى ﴾

(سنة ١٣٤٦ هـ — سنة ١٩٢٨ م)



قال الشيخ الفقيه العالم الثقة النبيه الناسك الابر وفد الله المعتمر شرف الدين المعتمد فى سياحته على رب العالمين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم اللواتي ثم الطنجى المعروف بابن بطوطه رحمه الله ورضى عنه بمنه وكرمه آمين

الحمد لله الذى ذلل الارض لعباده ليسلكوا منها سبلا فجاجا . وجعل منها واليها تاراتهم الثلاث نباتا واعادة واخراجا . دحاها بقدرته فكانت مهادا للعباد . وأرساها بالاعلام الراسيات والاطواد . ورفع فوقها سمك السماء بغير عماد . واطلع الكواكب هداية فى ظلمات البر والبحر . وجعل القمر نورا والشمس سراجا . ثم أنزل من السماء ماء فاحيا به الارض بعد الممات . وأنبت فيهـا من كل الثمرات . وفطر أقطارها بصنوف النبات . وفجر البحرين عذبا فراتا . وملحا أجاجا . وأكمل على خلقه الانعام . بتذليـل مطايا الانعام . وتسخير المنشـآت كالاعلام . لتمتطوا من صهوة القفر ومتن البحر اثباجا . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذي أوضح للخلق منهاجا . وطلع نور هدايته وهاجا . بعثه الله تعالى رحمة للعالمين . واختاره خاتما للنبيين . وأمكن صوارمه من رقاب المشركين . حتي دخل الناس فى دين الله أفواجا . وأيده بالمعجزات الباهرات * وأنطق بتصديقه الجمادات . وأحيا بدعوته الرمم الباليات . وفجر من بين أنامله ماء ثجاجا . ورضي الله تعالى عن المتشرفين بالانتماء اليـه أصحابا وآلا وأزواجا . المقيمين قناة الدين فلا تخشى بعدهم اعوجاجا . فهم الذين آزروه على جهاد الاعداء . وظاهروه على اظهار الملة البيضاء . وقاموا بحقوقها الكريمة من الهجرة والنصرة والايواء . واقتحموا دونه نار البأس حاميـة . وخاضوا بحر الموت عجاجا . ونستوهب الله تعالى لمولانا الامام الخليفة أمير المؤمنين . المتوكل على رب العالمين . المجاهد فى سبيل الله . المؤيد بنصر الله ـــ أبى عنان فارس ابن موالينا الائمة المهتدين . الخلفاء الراشدين . نصرا يوسع الدنيا

وأهلها ابتهاجا * وسعدا يكون لزمانة الزمان علاجا * كما وهبه الله يا ساوجودا لم يدع طاغيا ولا محتاجا * وجعل بسيفه وسيبه لكل ضيقة انفراجا ﴿ وبعد ﴾ فقد قضت العقول * وحكم المعقول والمنقول * بان هذه الخلافة العلية . المجاهدة المتوكلية الفارسية . هي ظل الله الممدود على الانام وحبله الذى نه الاعتصام وفى سلك طاعته يجب الانتظام فهي التي أبرأت الدين عند اعتلاله وأغمدت سيف العدوان عند انسلاله وأصلحت الايام بعد فسادها ونفقت سوق العلم بعد كسادها وأوضحت طرق البر عند إنهاجها وسكنت أقطار الارض عند ارتجاجها وأحيت سنن المكارم بعد مماتها وأماتت رسوم المظالم بعد حياتها وأخمدت نار الفتنة عند اشتعالها ونقضت أحكام البغى عند استقلالها وشادت مبانى الحق على عما التقوي واستمسكت من التوكل على الله بالسبب الاقوى فلها العز الذى عقد ناجه على مفرق الجوزاء والمجد الذى جر أذياله على مجرة السماء والسعد الذى رد على الزمان غض شبابه والعدل الذي مد على أهل الايمان مديد أطنابه والجود الذى قطر سحابه اللجين والنضار والباس الذى فيض غمامه الدم الموار والنصر الذى تفض كتائبه الاجل والتاييد الذي بعض غنائمه الدول والبطش الذى سبق سيفه العذل والاناة التي لا يمل عندها الامل والحزم الذي يسد على الاعداء وجوه المسارب والعزم الذي يفل جموعها قبل قراع الكتائب والحلم الذي يجنى العفو من ثمر الذنوب والرفق الذى جمع على محبته بنات القلوب والعلم الذى يجلو نوره دياجى المشكلات والعمل المقيد بالاخلاص والاعمال بالنيات ﴿ ولما كانت حضرته العلية ﴾ مطمح الآمال ومسرح همم الرجال ومحط رحال الفضائل ومثابة أمن الخائف ومنية السائل توخي الزمان خدمتها ببدائع تحفه وروائع طرفه فانثال عليها العلماء انثيال جودها على الصفات وتسابق اليها الادباء تسابق عزماتها الى العدات وحج العارفون حرمها الشريف وقصد السائحون استطلاع معناها المنيف ولجا الخائفون الى الامتناع بعزجنابها واستجارت الملوك بخدمة أبوابها فهى القطب الذي عليه مدار العالم وفى القطع بتفضيلها تساوت بديهة عقل الجاهل والعالم وعن مآثرها الفائقة يسند صحاح الآثار كل مسلم وبا كمال محاسنها الرائقة يفصح كل معلم وكان ممن وفد على بابها السامي وتعدى اوشال البلاد الى بحرها الطامي الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جوال الارض ومخترق الاقاليم بالطول والعرض أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجي المعروف بابن بطوطة المعروف فى بلاد الشرقية بشمس الدين وهو الذى طاف الارض معتبرا وطوى الامصار مختبرا وباحث فرق الامم وسبر سير العرب

والعجم ثم القى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا لما علم ان لها مزية الفضل دون شرط ولا ثنيا وطوى المشارق الى مطلع بدرها بالغرب وآثرها على الاقطار إيثار التبر على الترب اختيارا بعد طول اختبار البلاد والخلق ورغبة فى اللحاق بالطائفة التى لا تزال على الحق فغمره من احسانه الجزيل وامتنانه الحفى الحفيل ما أنساه الماضى بالحال وأغناه عن طول الترحال وحقر عنده ما كان من سواه يستعظمه وحقق لديه ما كان من فضله يتوهمه فنسي ما كان ألفه من جولان البلاد وظفر بالمرعى الخصب بعد طول الارتياد ونفذت الاشارة الكريمة بان يملي ماشاهده في رحلته من الامصار. وما علق بحفظه من نوادر الاخبار .ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار . وعلمائها الاخيار . وأوليائها الابرار. فاملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر . وبهجة المسامع والنواظر . من كل غريبة أفاد باجتلائها . وعجيبة اطرف بانتحائها .وصدر الامر العالى لعبد مقامهم الكريم المنقطع الى بابهم . المتشرف بخدمة جنابهم . محمد بن محمد بن جزى الكلبي اعانه الله على خدمتهم . واوزعه شكر نعمتهم . ان يضم اطراف ما املاه . الشيخ ابو عبدالله. من ذلك فى تصنيف يكون على فوائده مشتملا . ولنيل مقاصده مكملا . متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه . معتمدا ايضاحه وتقريبه ، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف . ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريده عن الصدف .فامتثل ما امر به مبادرا. وشرع فى منهله ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادرا ونقلت معانى كلام الشيخ ابى عبد الله بالفاظ موفية للمقاصد التى قصدها. موضحة للمناحي التي اعتمدها . وربما اوردت لفظه على وضعه . فلم اخل باصله ولا فرعه . واوردت جميع ما اورده من الحكايات والاخبار . ولم اتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار . على انه سلك فى اسناد صحاحها اقوم المسالك. وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الالفاظ بذلك . وقيد المشكل من اسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط . ليكون انفع فى التصحيح والضبط .وشرحت ما امكنني شرحه من الاسما العجمية لانها تلتبس بعجمتها على الناس ويخطىء فى فك معماها معهود القياس. وانا ارجو ان يقع ما قصدته من المقام العلى ايده الله بمحل القبول. وابلغ من الاغضاء عن تقصيره المامول . فعوائدهم فى السماح جميلة . ومكارمهم بالصفح عن الهفوات كفيلة .والله تعالى يديم لهم عادة النصر والتمكين . ويعرفهم عوارف التاييد والفتح المبين

ـــ قال الشيخ ابوعبدالله ـــ كان خروجي من طنجة مسقط رأسي فى يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمدا حج بيت الله الحرام . وزيارة قبر

الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام . منفردا عن رفيق آنس بصحبته وركب أكون فى جملته لباعث على النفس شديد العزائم * وشوق الى تلك المعاهد الشريفة كامن فى الحيازم . فجزمت أمرى على هجر الاحباب من الاناث والذكور . وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور . وكان والدى بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبا ولقيت كما لقيا من الفراق نصبا * وسني يومئذ ثنتان وعشرون سنة قال ابن جزى أخبرني أبو عبد الله بمدينة غرناطة ان مولده بطنجة في يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة

(رجع) وكان ارتحالى فى ايام امير المؤمنين وناصر الدين المجاهد فى سبيل رب العالمين الذى رويت أخبار جوده موصولة الاسناد بالاسناد . وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الأشهاد . وتحلت الايام بحلى فضله . ورتع الانام فى ظل رفقه وعدله . الامام المقدس أبو سعيد ابن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذى فل حد الشرك صدق عزائمه . وأطفأت نار الكفر جداول صوارمه . وفتكت بعباد الصليب كتائبه . وكرمت فى اخلاص الجهاد مذاهبه . الامام المقدس أبو يوسف بن عبد الحق جدد الله عليهم رضوانه وسقى ضرائحهم المقدسة من صوب الحيا طلّه وتهتانه : وجزاهم أفضل الجزاء عن الاسلام والمسلمين . وابقى الملك فى عقبهم الى يوم الدين . فوصلت مدينة تلمسان وسلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسي بن عثمان بن يغمراسن بن زيان . ووافقت بها رسولى ملك افريقية السلطان أبي يحيى رحمه الله وهما قاضي الانكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن على بن ابراهيم النفزاوي . والشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي ـــ بضم الزاي نسبة الى قرية بساحل المهدية ـــ وهو أحد الفضلاء وفاته عام اربعين وفي يوم وصولى الى تلمسان خرج عنها الرسولان المذكوران فاشار علىّ بعض الاخوان بمرافقتهما فاستخرت الله عز وجل فى ذلك وأقمت بتلمسان ثلاثا فى قضاء ماربي وخرجت أجدّ السير فى آثارهما فوصلت مدينة مليانة وأدركتهما بها وذلك في إبان القيظ فلحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشرا ثم ارتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضي منهما فاقمنا ببعض المياه على مسافة أربعة أميال من مليانة ثلاثا وقضي القاضى نحبه ضحي اليوم الرابع فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزبيدي الى مليانة فقبروه بها وتركتهم هنالك وارتحلت مع رفقة من تجار تونس منهم الحاج مسعود بن المنتصر والحاج العدولى ومحمد بن الحجر فوصلنا مدينة الجزائر وأقمنا بخارجها أياما الى أن قدم الشيخ أبو عبد الله وابن القاضي فتوجهنا جميعا على منبجة الى جبل الزان ثم وصلنا الى مدينة بجاية فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها أبي عبد الله

الزواوى ونزل أبو الطيب ابن القاضى بدار الفقيه أبي عبدالله المفسر وكان أمير بجاية
اذ ذاك اباعبدالله محمد بن سيد الناس الحاجب وكان قد توفى من تجار تونس الذين صحبتهم
من مليانة محمد بن الحجر الذى تقدم ذكره وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب وأوصي
بها لرجل من أهل الجزائر يعرف با بن حديدة ليوصلها الى ورثته بتونس فانتهى خبره
لابن سيدالناس المذكور فانتزعها من يده وهذا اول ماشاهدته من ظلم عمال الموحدين
وولاتهم . ولما وصلنا الى بجاية كما ذكرته أصابتني الحمى فاشار على أبو عبدالله الزبيدى
بالاقامة فيها حتي يتمكن البرء منى فابيت وقلت ان قضي الله عز وجل بالموت فتكون
وفاتي بالطريق وانا قاصد ارض الحجاز فقال لى اما ان عزمت فبع دابتك وثقـل المتاع
وانا اعيرك دابة وخباء وتصحبنا خفيفا فاننا نجدّ السير خوف غارة العرب فى الطريق
ففعلت هذا واعارنى ماوعد به جزاه الله خيرا وكان ذلك اول ماظهر لى من الالطاف
الالهية فى تلك الوجهة الحجازية وسرنا الى ان وصلنا الى مدينة قسنطينة فنزلنا خارجها
وأصابنا مطر جود اضطرنا الى الخروج عن الاخبية ليلا الى دور هنالك فلما كان من الغد
تلقانا حاكم المدينة وهو من الشرفاء الفضلاء يسمي بابى الحسن فنظر الى ثيابى وقد لوثها
المطر فامر بغسلها فى داره وكان الاحـرام منها خلقا فبعث مكانه احراما بعلبكيا وصرّ
فى أحد طرفيه دينارين من الذهب فكان ذلك أول مافتح به علىّ فى وجهتي ورحلنـا
الى ان وصلنا مدينة بونه ونزلنا بداخلها وأقمنا بها أياما ثم تركنا بها من كان فى صحبتنـا
من التجار لاجل الخـوف فى الطريق وتجردنا للسير وواصلنا الجد واصابتني الحمي فكنت
أشد نفسى بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف ولا يمكنني النزول من
الخوف الى ان وصلنا مدينة تونس فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبدالله الزبيدى ولقـاء
أبي الطيب ابن القاضي ابى عبدالله النفزاوي فاقبل بعضهم على بعض بالسلام والسـؤال
ولم يسلم على احد لعـدم معرفتى بهم فوجدت من ذلك فى النفس مالم املك معه سوابق
العبرة واشتد بكائي فشعر بحالى بعض الحجـاج فاقبل علىّ بالسلام والايناس ومازال
يؤنسني بحديثه حتي دخلت المدينة ونزلت منها بمدرسة الكتبيين — قال ابن جزي أخبرنى
شيخي قاضى الجماعة اخطب الخطباء أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم السلمي هو ابن
الحاج البلفيقي انه جرى له مثل هذه الحكاية قال قصدت مدينة بلش من بلاد الاندلس
فى ليلة عيد برسم رواية الحديث المسلسل بالعيد عن أبي عبدالله ابن الكماد وحضرت
المصلى مع الناس فلما فرغت الصلاة والخطبة أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام وأنا

فى ناحية لا يسلم على أحد فقصد الى شيخ من أهل المدينة المذكورة وأقبل على بالسلام والايناس وقال نظرت اليك فرأيتك منتبذا عن الناس لا يسلم عليك أحد فعرفت انك غريب فاحببت ايناسك جزاه الله خيرا (رجع)

— ذكر سلطان تونس —

وكان سلطان تونس عند دخولى اليها السلطان أبا يحيى ابن السلطان أبي زكريا يحيى ابن السلطان أبي اسحاق ابراهيم ابن السلطان أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن ابي حفص رحمه الله . وكان بتونس جماعة من اعلام العلماء منهم قاضي الجماعة بها ابو عبد الله محمد بن قاضى الجماعة أبي العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الانصاري الخزرجى البلنسي الاصل ثم التونسى هو ابن الغماز . ومنهم الخطيب ابو اسحق ابراهيم بن حسين ابن على بن عبد الرفيع الربعى وولى أيضاً قضاء الجماعة فى خمس دول. ومنهم الفقيه أبو على عمر بن على بن قداح الهوّاري وولى أيضاً قضاءها وكان من اعلام العلماء ومن عوائده انه يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها الى بعض اساطين الجامع الاعظم المعروف بجامع الزيتونة ويستفتيه الناس فى المسائل فلما أفتي في أربعين مسألة انصرف عن مجلسه ذلك واظلني بتونس عيد الفطر فحضرت المصلى وقد احتفل الناس لشهود عيدهم وبرزوا فى أجمل هيئة وأكمل شارة ووافى السلطان أبو يحيى المذكور راكباً وجميع أقاربه وخواصه وخدام مملكته مشاة على أقدامهم فى ترتيب عجيب وصليت الصلاة وانقضت الخطبة وانصرف الناس الى منازلهم وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخه يعرف بأبي يعقوب السوسي من أهل أقلمن بلاد افريقية وأكثره المصامدة فقد مونى قاضياً بينهم وخرجنا من تونس فى أواخر شهر ذي القعدة سالكين طريق الساحل فوصلنا الى بلدة سوسة وهى صغيرة حسنة مبنية على شاطيء البحر بينها وبين مدينة تونس أربعون ميلا. ثم وصلنا الى مدينة صفاقس وبخارج هذه البلدة قبر الامام أبي الحسن اللخمى المالكى مؤلف كتاب التبصرة فى الفقه قال ابن جزى فى بلدة صفاقس يقول على بن حبيب التنوخى (كامل)

سقيا لارض صفاقس * ذات المصانع والمصلى
محي القصير الى الخليج * فقصرها السامي المعلى
بلد يكاد يقول حين * تزوره أهلا وسهلا
وكأنه والبحر يحسر تارة عنه ويملا

صب يريد زيارة * فاذا رأى الرقباء ولى

وفى عكس ذلك يقول الاديب البارع أبو عبـد الله محمد بن أبى تميم وكان من المجيدين المكثرين (رجز)

صفاقس لاصفا عيش لساكنها * ولا سقي أرضها غيث اذا انسكبا
ناهيك من بلدة من حل ساحتها * عاني بها العادبين الروم والعربا
كم ضل فى البر مسلوبا بضاعته * وبات فى البحر يشكو الاسر والعطبا
قد عاين البحر من لوم لقاطنها * فكلما هـم ان يدنو لهـا هربا

(رجع) ثم وصلنا الى مدينة قابس ونزلنا بداخلها وأقمنا بها عشراً لتوالى نزول الامطار. قال ابن جزي فى ذكر قابس يقول بعضهم (رجز)

لهفى على طيب ليال خلت * بجانب البطحاء من قابس
كأن قلبي عند تذكارها * جذوة نار بيـد قابس

(رجع) ثم خرجنا من مدينة قابس قاصدين طرابلس وصحبنا فى بعض المراحل اليها نحو مائة فارس أو يزيدون وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب وتحامت مكانهم وعصمنا الله منهم وأظلنا عيد الاضحي فى بعض تلك المراحل . وفى الرابع بعده وصلنا الى مدينة طرابلس فاقمنا بها مدة وكنت عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمناء تونس فبنيت عليها بطرابلس ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم من عام ستة وعشرين ومعى أهلي وفى صحبتي جماعة من المصامدة وقد رفعت العلم وتقدمت عليهم وأقام الركب فى طرابلس خوفا من البرد والمطر وتجاوزنا ـــ مسلاتة ومسراتة وقصور سرت ـــ وهنالك أرادت طوائف العرب الايقاع بنا ثم صرفتهم القدرة وحالت دون ماراموه من اذايتنا ثم توسـطنا الغابة وتجاوزناها الى قصر برصيصا العابد الى قبة سـلام وأدركنا هنالك الركب الذين تخلفوا بطرابلس ووقع بيني وبـين صهرى مشاجرة أوجبت فراق بنته وتزوجت بنتا لبعض طلبة فاس وبنيت بها بقصر الزعافية وأولمت وليمة حبست لهـا الركب يوما وأطعمتهم. ثم وصلنا فى اول جمادى الاولى الى مدينة الاسكندرية حرسها الله وهى الثغر المحروس . والقطر المانوس . العجيبة الشان . الاصيلة البنيان . بها ماشئت من تحسين وتحصين . وما ثرد نيا ودين . كرمت مغانيها . ولطفت معانيها وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها . فهي الفريدة تجلى سناها . والخريدة تجلى فى حلاها . الزاهية بجمالهـا المغرب . الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب . فكل بديعة بها اجتلاؤها.

وكل طرفة فاليها انتهاؤها . وقدوصفها الناس فأطنبوا . وصنفوا في عجائبها فاغربوا وحسب المشرف الى ذلك ما سطره أبو عبيد في كتاب المسالك

— ذكر أبوابها ومرساها —

ولمدينة الاسكندرية أربعة أبواب . باب السدرة واليه يشرع طريق المغرب . وباب رشيد . وباب البحر . والباب الاخضر وليس يفتح الا يوم الجمعة فيخرج الناس منه الى زيارة القبور ولها المرسى العظيم الشان ولم أر في مراسى الدنيا مثله الا ما كان من مرسى كولم وقاليقوط ببلاد الهند ومرسى الكفار بسرادق ببلاد الاتراك ومرسي الزيتون ببلاد الصين وسيقع ذكرها

— ذكر المنار —

قصدت المنار في هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدما . وصفته انه بناء مربع ذاهب في الهواء وبابه مرتفع على الارض وازاء بابه بناء بقدر ارتفاعه وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها الى بابه فاذا أزيلت لم يكن له سبيل وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار وداخل المنار بيوت كثيرة وعرض الممر بداخله تسعة أشبار وعرض الحائط عشرة أشبار وعرض المنار من كل جهة من جهاته الاربع مائة وأربعون شبرا وهو على تل مرتفع . ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد في بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات الى أن يتصل البحر بسور البلد فلا يمكن التوصل الى المنار في البر الا من المدينة وفي هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الاسكندرية وقصدت المنار عند عودي الى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود الى بابه. وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع في بناء منار مثله بازائه فعاقه الموت عن اتمامه

— ذكر عمود السواري —

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها المسمي عندهم بعمود السواري وهو متوسط في غابة نخل وقد امتاز عن شجراتها سموا وارتفاعاً وهو قطعة واحدة محكمة النحت قد اقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ولا يتحقق من وضعه. قال ابن جزى أخبرني بعض اشياخي الرحالين ان أحد الرماة بالاسكندرية صعد الى أعلي ذلك العمود ومعه قوسه وكنانته واستقر هنالك وشاع خبره فاجتمع الجم الغفير لمشاهدته وطال العجب منه وخفي على الناس وجه احتياله وأظنه كان خائفا أو طالب حاجة فانتج له فعله الوصول الى قصده

لغرابة ماأتى به . وكيفية احتياله في صعوده انه رمى بنشابة قد عقد فوقها خيطا طويلا وعقد بطرف الخيط حبلا وثيقا فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه ووقعت من الجهة الموازية للرامى فصار الخيط معترضا على أعلى العمود فجذبه حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخيط فاوسطه من احدى الجهتين فى الارض وتعلق به صاعداً من الجهة الاخري واستقر باعلاه وجذب الحبل واستصحب من احتمله فلم يهتد الناس لحيلته وعجبوا من شأنه (رجع) وكان أمير الاسكندرية فى عهد وصولى اليها يسمي بصلاح الدين وكان فيها أيضاً فى ذلك العهد سلطان افريقية المخلوع وهو زكرياء أبو يحيي بن أحمد بن أبى حفص المعروف باللحيانى وأمر الملك الناصر بانزاله بدار السلطنة من اسكندرية وأجرى له مائة درهم فى كل يوم . وكان معه أولاده عبد الواحد ومصرى واسكندرى وحاجبه أبو زكرياء بن يعقوب ووزيره أبو عبد الله بن ياسين . وبالاسكندرية توفى اللحيانى المذكور وولده الاسكندرى وبقي المصرى بها الى اليوم . قال ابن جزي من الغريب ما اتفق من صدق الزجر فى اسمى ولدي اللحياني الاسكندري والمصرى فمات الاسكندري بها وعاش المصري دهرا طويلا بها وهي من بلاد مصر (رجع) وتحول عبد الواحد لبلاد الاندلس والمغرب وافريقية وتوفى هنالك بجزيرة جربة

— ذكر بعض علماء الاسكندرية —

فمنهم قاضيها عماد الدين الكندي إمام من أئمة علم اللسان وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم لم أرفى مشارق الارض ومغاربها عمامة اعظم منها رأيته يوما قاعداً في صدر محراب وقد كادت عمامته ان تملأ المحراب . ومنهم فخر الدين بن الريغى وهو أيضا من القضاة بالاسكندرية فاضل من أهل العلم

— حكاية —

يذكر ان جد القاضى فخر الدين الريغى كان من أهل ريغة واشتغل بطلب العلم ثم رحل الى الحجاز فوصل الاسكندرية بالعشي وهو قليل ذات اليد فاحب أن لا يدخلها حتى يسمع فالا حسنا فقعد قريبا من بابها الى ان دخل جميع الناس وجاء وقت سد الباب ولم يبق هنالك سواه فاغتاظ الموكل بالباب من ابطائه وقال متهكما ادخل ياقاضى فقال قاض ان شاء الله ودخل الى بعض المدارس ولازم القراءة وسلك طريق الفضلاء فعظم صيته وشهر اسمه وعرف بالزهد والورع واتصلت أخباره بملك مصر واتفق ان توفى قاضى الاسكندرية وبها اذذاك الجم الغفير من الفقهاء والعلماء وكلهم متشوف للولاية وهو من بينهم لا يتشوف لذلك فبعث اليه السلطان بالتقليد وهو ظهير القضاء وأتاه البريد بذلك

فامر خديمه أن ينادي فى الناس من كانت له خصومة فليحضر لها وقعد للفصل بين الناس فاجتمع الفقهاء وسواهم الى رجل منهم كانوا يظنون ان القضاء لا يتعداه وتفاوضوا فى مراجعة السلطان في أمره ومخاطبته بان الناس لا يرتضونه وحضر لذلك أحد الحذاق من المنجمين فقال لهم لا تفعلوا ذلك فانى عدلت طالع ولايته وحققته فظهر لى انه يحكم أربعين سنة فاضربوا عما هموا به من المراجعة فى شأنه وكان أمره على ماظهر للمنجم. وعرف فى ولايته بالعدل والنزاهة. ومنهم وجيه الدين الصنهاجي من قضاتها مشتهر بالعلم والفضل. ومنهم شمس الدين ابن بنت التنيسى فاضل شهير الذكر. ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسى من كبار أولياء الله تعالى يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه اذا سلم من صلاته ومنهم الامام العالم الزاهد الخاشع الورع (خليفة) صاحب المكاشفات — كرامة له —

أخبرنى بعض الثقات من أصحابه قال رأى الشيخ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال ياخليفة زرنا فرحل الى المدينة الشريفة وأتى المسجد الكريم فدخل من باب السلام وحيا المسجد وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعد مستنداً الي بعض سوارى المسجد ووضع رأسه على ركبتيه وذلك يسمي عند المتصوفة الترفيق فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة وآنية فيها لبن وطبقا فيه تمر فاكل هو وأصحابه وانصرف عائداً الى الاسكندرية ولم يحج تلك السنة. ومنهم الامام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الاعرج من كبار الزهاد وافراد العباد لقيته أيام مقامى بالاسكندرية وأقمت فى ضيافته ثلاثا

— ذكر كرامة له —

دخلت عليه يوما فقال لى أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد فقلت له نعم اني أحب ذلك ولم يكن حينئذ خطر بخاطري التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصين فقال لا بد لك ان شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكرياء بالسند وأخي برهان الدين بالصين فاذا بلغتهم فابلغهم مني السلام فعجبت من قوله وألقى فى روعى التوجه الى تلك البلاد ولم أزل أجول حتي لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه ولما ودعته زودني دراهم لم تزل عندى محوطة ولم أحتج بعد الى انفاقها الى ان سلبها مني كفار الهنود فيما سلبوه لى فى البحر. ومنهم الشيخ ياقوت الحبشي من افراد الرجال وهو تلميذ أبي العباس المرسى وأبو العباس المرسى تلميذ ولى الله تعالى أبي الحسن الشاذلى الشهير ذى الكرامات الجليلة والمقامات العالية

— كرامة لأبي الحسن الشاذلى — أخبرنى الشيخ ياقوت عن شيخه أبي العباس المرسى

ان أبا الحسن كان يحج فى كل سنة و يجعل طريقه على صعيد مصر و يجاور بمكة شهر رجب وما بعده الى انقضاء الحج و يزور القبر الشريف و يعود على الدرب الكبير الى بلده فلما كان فى بعض السنين وهي آخر سنة خرج فيها قال لخديمه استصحب فأسا وقفة وحنوطا وما يجهز به الميت فقال له الخديم ولماذا ياسيدى فقال له فى حميثرا سوف ترى وحميثرا فى صعيد مصر فى صحراء عيذاب و بها عين ماء زعاق وهي كثيرة الضباع فلما بلغا حميثرا اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين وقبضه الله عز وجل فى آخر سجدة من صلاته ودفن هناك وقد زرت قبره وعليه تبرية مكتوب فيها اسمه و نسبه متصلا بالحسن ابن على رضى الله عنه

— ذكر حزب البحر المنسوب اليه — كان يسافر فى كل سنة كما ذكرناه على صعيد مصر و بحر جدة فكان اذا ركب السفينة يقرؤه فى كل يوم وتلامذته الى الآن يقرؤنه فى كل يوم وهو هذا — يا ألله يا على ياعظيم ياحليم ياعليم أنت ربى . وعلمك حسبي . فنعم الرب ربي . ونعم الحسب حسبي . تنصر من تشاء وأنت العزيز الرحيم . نسألك العصمة فى الحركات والسكنات والكلمات والارادات والخطرات من الشكوك والظنون والاوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب فقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ليقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله الا غرورا فثبتنا وانصرنا وسخر لنا هذا البحر كما سخرت البحر لموسي عليه السلام وسخرت النار لابراهيم عليه السلام وسخرت الجبال والحديد لداود عليه السلام وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان عليه السلام وسخر لنا كل بحر هو لك في الارض والسماء والملك والملكوت وبحر الدنيا وبحر الآخرة وسخر لنا كل شيء يامن بيده ملكوت كل شيء كهيعص حم عسق انصرنا فانك خير الناصرين وافتح لنا فانك خير الفاتحين واغفر لنا فانك خير الغافرين وارحمنا فانك خير الراحمين وارزقنا فانك خير الرازقين واهدنا ونجنا من القوم الظالمين وهب لنا ريحا طيبة كما هى فى علمك وانشرها علينا من خزائن رحمتك واحملنا بها حمل الكرامة مع السلامة والعافية فى الدين والدنيا والآخرة انك على كل شيء قدير اللهم يسر لنا أمورنا مع الراحة لقلوبنا وأبداننا والسلامة والعافية فى ديننا ودنيانا وكن لنا صاحبا في سفرنا وخليفة فى أهلنا واطمس على وجوه أعدائنا وامسخهم على مكانتهم فلا يستطيعون المضى ولا المجيء الينا ولو نشاء لطمسنا على اعينهم فاستبقوا الصراط فانى يبصرون ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون يس الى فهم لا يبصرون شاهت الوجوه وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما طس طسم حم عسق مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ

لا يبغيان حم حم حم حم حم حم حم حم الامروجاء النصرفعلينا لا ينصرون حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله الاهو اليه المصير بسم الله بابنا تبارك حيطاننا يس سقفنا كهيعص كفايتنا حم عسق حمايتنا فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ستر العرش مسبول علينا وعين الله ناظرة الينا بحول الله لايقدر علينا والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ فالله خير حافظا وهو ارحم الراحمين ان ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين فان تولوا فقل حسبي الله لا إله الاهو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شيء فى الارض ولا فى السماء وهو السميع العليم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم — وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

— حكاية —

ومما جرى بمدينة الاسكندرية سنة سبع وعشرين وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها الله انه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة وكان والى الاسكندرية رجلا يعرف بالكركى فذهب الى حماية الروم وأمر بالمسلمين فحضروا بين فصيلى باب المدينة وأغلق دونهم الابواب نكالا لهم فانكر الناس ذلك وأعظموه وكسروا الباب وثاروا الى منزل الوالى فتحصن منهم وقاتلهم من أعلاه وطير الحمام بالخبر الى الملك الناصر فبعث أميرا يعرف بالجمالى ثم اتبعه أميرا يعرف بطوغان جبار قاسى القلب متهم فى دينه يقال انه كان يعبد الشمس فدخلا اسكندرية وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها كاولاد الكوبك وسواهم وأخذ منهم الاموال الطائلة وجعلت فى عنق عماد الدين القاضى جامعة حديد ثم ان الاميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلا وجعلوا كل رجل قطعتين وصلبوهم صفين وذلك فى يوم جمعة وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور وشاهدوا مصارع القوم فعظمت حسرتهم وتضاعفت أحزانهم وكان فى جملة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر يعرف بابن رواحة وكان له قاعة معدة للسلاح فمتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الاسلحة وبالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثير من أهلها فزل لسانه وقال للاميرين أنا أضمن هذه المدينة وكل مايحدث فيها أطالب به وأحوط على السلطان مرتبات العساكر والرجال فانكر الاميران قوله وقالا انما تريد الثورة على السلطان وقتلاه وانما كان قصده رحمه الله إظهار النصح والخدمة للسلطان فكان فيه حتفه. وكنت سمعت أيام اقامتي بالاسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع المنفق من الكون أبي عبدالله المرشدي وهو من كبار الاولياء المكاشفين انه منقطع بمنية بنى مرشد

له هنالك زاوية هو منفرد فيها لا خديم له ولا صاحب ويقصده الامراء والوزراء وتاتيه الوفود من طوائف الناس فى كل يوم فيطعمهم الطعام وكل واحد منهم ينوي أن يأكل عنده طعاما أو فاكهة أو حلوي فيأتى لكل واحد بما نواه وربما كان ذلك فى غير ابانه ويأتيه الفقهاء لطلب الخطة فيولى ويعزل وذلك كله من أمره مستفيض متواتر وقد قصده الملك الناصر مرات بموضعه فخرجت من مدينة الاسكندرية قاصداً هذا الشيخ نفعنا الله به ووصلت قرية تروجة (وضبطها بفتح التاء الفوقية والراء وواو وجيم مفتوحة) وهي على مسيرة نصف يوم من مدينة الاسكندرية قرية كبيرة بها قاض ووال وناظر ولاهلها مكارم أخلاق ومروءة صحبت قاضيها صفى الدين وخطيبها فخر الدين وفاضلا من أهلها يسمي بمبارك وينعت بزين الدين ونزلت بها على رجل من العباد الفضلاء كبير القدر يسمى عبد الوهاب وأضافني ناظرها زين الدين بن الواعظ وسالني عن بلدي وعن مجباه فاخبرته ان مجباه نحو اثني عشر ألفا من دينار الذهب فعجب وقال لى رأيت هذه القرية فان مجباها اثنان وسبعون ألف دينار ذهباً وانما عظمت مجابي ديار مصر لان جميع أملاكها لبيت المال ثم خرجت من هذه القرية فوصلت مدينة دمنهور وهي مدينة كبيرة جبايتها كثيرة ومحاسنها أثيرة أم مدن البحيرة باسرها وقطبها الذي عليه مدار أمرها (وضبطها بدال مهملة وميم مفتوحتين ونون ساكنة وهاء مضمومة وواو وراء) وكان قاضيها فى ذلك العهد فخر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية وتولى قضاء الاسكندرية لما عزل عنها عماد الدين الكندى بسبب الواقعة التى قصصناها وأخبرني الثقة أن ابن مسكين أعطي خمسة وعشرين ألف درهم وصرفها من دنانير الذهب ألف دينار على ولاية القضاء بالاسكندرية ثم رحلنا الى مدينة فوا وهذه المدينة عجيبة المنظر حسنة المخبر بها البساتين الكثيرة والفوائد الخطيرة الاثيرة) وضبطها بالفاء والواو المفتوحتين مع تشديد الواو) بها قبر الشيخ الولى أبى النجاة الشهير الاسم خبير تلك البلاد وزاوية الشيخ أبى عبد الله المرشدى الذى قصدته بقربة من المدينة يفصل بينها خليج هنالك فلما وصلت المدينة تعديتها ووصلت الى زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر وسلمت عليه ووجدت عنده الامير سيف الدين يلملك وهو من الخاصكية (وأول اسمه ياء آخر الحروف ولامه الاولى مسكنة والثانية مفتوحة مثل الميم والعامة تقول فيه الملك فيخطئون) ونزل هذا الامير بعسكره خارج الزاوية ولما دخلت على الشيخ رحمه الله قام الى وعانقني وأحضر طعاما فواكلني وكانت عليه جبة صوف سوداء فلما حضرت صلاة العصر قدمني للصلاة امامه

وكذلك لكل ماحضرني عنده حين اقامتي معه من الصلاة. ولما أردت النوم قال لى اصعد الى سطح الزاوية فنم هنالك وذلك أوان القيظ فقلت للامير بسم الله فقال لى ومامنا الا له مقام معلوم فصعدت السطح فوجدت به حصيرا ونطعاً وآنية للوضوء وجرة ماء وقدحا للشرب فنمت هنالك

— كرامة لهذا الشيخ — رأيت ليلتي تلك وأنا نائم بسطح الزاوية كأني على جناح طائر عظيم يطير بي في سمت القبلة يتيامن ثم يشرق ثم يذهب في ناحية الجنوب ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق وينزل في أرض مظلمة خضراء ويتركني بها فعجبت من هذه الرؤيا وقلت في نفسي ان كاشفني الشيخ برؤياي فهو كما يحكى عنه فلما غدوت لصلاة الصبح قدمني اماما لها ثم أتاه الامير يلملك فوادعه وانصرف ووادعه من كان هنالك من الزوار وانصرفوا أجمعين من بعد أن زودهم كعيكات صغارا ثم سبحت سبحة الضحى ودعاني وكاشفني برؤياي فقصصتها عليه فقال سوف تحج وتزور النبي صلى الله عليه وسلم وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند وتبقى بها مدة طويلة وستلقى بها أخي دلشاد الهندي ويخلصك من شدة تقع فيها ثم زودني كعيكات ودراهم ووادعته وانصرفت ومنذ فارقته لم ألق في أسفاري الاخيرا وظهرت على بركاته ثم لم الق فيمن لقيته مثله الا الولي سيدي محمدا المولة بارض الهند ثم رحلنا الى مدينة النحرارية وهي رحبة الفناء حديثة البناء أسواقها حسنة الرؤيا (وضبطها بفتح النون وحاء مهمل مسكن وراء ين) وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدى وولده في خدمة ملك الهند وسنذكره . وقاضيها صدر الدين سليمان المالكي من كبار المالكية سفر عن الملك الناصر الى العراق وولى قضاء البلاد الغربية وله هيئة جميلة وصورة حسنة. وخطيبها شرف الدين السخاوي من الصالحين. ورحلت منها الى مدينة ابيار وهى قديمة البناء أرجة الارجاء كثيرة المساجد ذات حسن زائد (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الباء الموحدة وياء آخر الحروف وألف وراء) وهي بمقربة من النحرارية ويفصل بينهما النيل وتصنع بابيار ثياب حسان تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها . ومن الغريب قرب النحرارية منها والثياب التي تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عند أهلها . ولقيت بابيار قاضيها عز الدين المليحي الشافعي وهو كريم الشمائل كبير القدر حضرت عنده مرة يوم الركبة وهم يسمون ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان وعادتهم فيه ان يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي ويقف على الباب نقيب المتعممين وهو ذو شارة وهيئة حسنة فاذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه تلقاه ذلك

النقيب ومشى بين يديه قائلا بسم الله سيدنا فلان الدين فيسمع القاضي ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب في موضع يليق به فاذا تكاملوا هنالك ركب القاضي وركب من معه أجمعين وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان وينتهون الى موضع مرتفع خارج المدينة وهو مرتقب الهلال عندهم وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش فينزل فيه القاضي ومن معه فيرتقبون الهلال ثم يعودون الى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضي الى داره ثم ينصرفون هكذا فعلهم في كل سنة. ثم توجهت الى مدينة المحلة الكبيرة وهي جليلة المقدار حسنة الآثار كثير أهلها جامع بالمحاسن شملها واسمها بين ولهذه المدينة قاضي القضاة ووالي الولاة. وكان قاضي قضاتها أيام وصولي اليها في فراش المرض ببستان له على مسافة فرسخين من البلد. وهو عز الدين بن الاشمرين فقصدت زيارته صحبة نائبه الفقيه أبي القاسم بن بنون المالكي التونسي وشرف الدين الدميري قاضي محلة منوف وأقمنا عنده يوما وسمعت منه وقد جرى ذكر الصالحين ان على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلاد البرلس ونسترو وهي بلاد الصالحين وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات فقصدت تلك البلاد ونزلت بزاوية الشيخ المذكور وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار والطير البحري والحوت المعروف بالبوري ومدينتهم تسمي ملطين وهي على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر المعروفة ببحيرة تنيس ونسترو بمقربة منها نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوي من الصالحين وكانت تنيس بلدا عظيما شهيرا وهى الآن خراب قال ابن جزي (تنيس بكسر التاء المثناة والنون المشددة وياء وسين مهمل) واليه ينسب الشاعر المجيد ابو الفتح بن وكيع وهو القائل في خليجها (بسيط)

قم فاسقني والخليج مضطرب * والريح تثني ذوائب القصب
كانها والرياح تعطفها * صب قنا سندسية العذب
والجو فى حلة ممسكة * قد طرزتها البروق بالذهب

(ونستر وبفتح النون واسكان السين وراء مفتوحة وواو مسكن) — والبرلس بباء موحدة وراء وآخره سين مهملة وقيده بعضهم بضم حروفه الاول الثلاث وتشديد اللام وقيده ابو بكر بن نقطة بفتح الاولين — وهو على البحر. ومن غريب ما اتفق به ماحكاه أبو عبد الله الرازى عن أبيه ان قاضي البرلس وكان رجلا صالحا خرج ليلة الى النيل فبينما لسبغ الوضوء وصلى ماشاء ان يصلي اذ سمع قائلا يقول

لولا رجال لهم سرد يصوموا نا * وآخرون لهم ورد يقوموا نا
لزلزلت أرضكم من تحتكم سحرا * لا نكم قوم سوء لا تبالونا

قال فتجوزت فى صلاتى وأدرت طرفى فما رأيت احدا ولا سمعت حسا فعلمت ان ذلك زاجر من الله تعالى (رجع) ثم سافرت فى أرض رملة الى مدينة دمياط وهى مدينة فسيحة الاقطار متنوعة الثمار عجيبة الترتيب آخذة من كل حسن بنصيب والناس يضبطون اسمها باعجام الذال وكذلك ضبطه الامام أبو محمد عبدالله بن على الرشاطى وكان شرف الدين الامام العلامة أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطى امام المحدثين يضبطها باهمال الدال ويتبع ذلك بان يقول خلاف الرشاطى وغيره وهو أعرف بضبط اسم بلده ومدينة دمياط على شاطىء النيل وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها الى النيل وشجر الموز بها كثير يحمل ثمره الى مصر فى المراكب وغنمها سائمة هملا بالليل والنهار ولهذا يقال فى دمياط سورها حلوى وكلابها غنم واذا دخلها أحد لم يكن له سبيل الى الخروج عنها الا بطابع الوالى فمن كان من الناس معتبرا طبع له فى قطعة كاغد يستظهر به لحراس بابها وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به والطير البحري بهذه المدينة كثير متناهى السمن وبها الالبان الجاموسية التي لا مثل لها فى عذوبة الطعم وطيب المذاق وبها الحوت البورى يحمل منها الى الشام وبلاد الروم ومصر وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل تسمي البرزخ بها مسجد وزاوية لقيت بها شيخها المعروف بابن قفل وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين الاخيار قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكرا. ودمياط هذه حديثة البناء والمدينة القديمة هي التي خربها الافرنج على عهد الملك الصالح وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوى قدوة الطائفة المعروفة بالقرندرية وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم ويسكن الزاوية في هذا العهد الشيخ فتح التكرورى

— حكاية —

يذكر ان السبب الداعى للشيخ جمال الدين الساوي الى حلق لحيته وحاجبيه انه كان جميل الصورة حسن الوجه فعلقت به امرأة من أهل ساوة وكانت تراسله وتعارضه فى الطرق وتدعوه لنفسها وهو يمتنع ويتهاون فلما أعياها أمره دست له عجوزُ اتصدت له ازاء دار على طريقه الى المسجد وبيدها كتاب مختوم فلما مربها قالت له ياسيدى أتحسن القراءة قال نعم قالت له هذا الكتاب وجهه الى ولدي واحب ان تقرأه على فقال لها نعم فلما فتح الكتاب قالت له ياسيدى ان لولدي زوجة وهى باسطوان الدار فلو تفضلت بقراءته بين

بابي الدار بحيث تسمعها فاجابها لذلك فلما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب وخرجت المرأة وجواريها فتعلقن به وأدخلنه الى داخل الدار وراودته المرأة عن نفسه فلما رأى ان لا خلاص له قال لها اني حيث تريدين فاريني بيت الخلاء فارته اياه فادخل معه الماء وكانت عنده موسى حديدة فحلق لحيته وحاجبيه وخرج عليها فاستقبحت هيئته واستنكرت فعله وأمرت باخراجه وعصمه الله بذلك فبقي على هيئته فيما بعد وصار كل من يسلك طريقته يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه

(كرامة لهذا الشيخ) يذكر انه لما قصد مدينة دمياط لزم مقبرتها وكان بها قاض يعرف بابن العميد فخرج يوما الى جنازة بعض الاعيان فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة فقال له انت الشيخ المبتدع فقال له وانت القاضي الجاهل تمر بدابتك بين القبور وتعلم ان حرمة الانسان ميتا كحرمته حيا فقال له القاضي وأعظم من ذلك حلقك لحيتك فقال له اياي تعني وزعق الشيخ ثم رفع رأسه فاذا هو ذو لحية سوداء عظيمة فعجب القاضي ومن معه ونزل اليه عن بغلته ثم زعق ثانية فاذا هو ذو لحية بيضاء حسنة ثم زعق ثالثة ورفع رأسه فاذا هو بلا لحية كهيئته الاولى فقبل القاضي يده وتلمذ له وبنى له زاوية حسنة وصحبه ايام حياته ثم مات الشيخ فدفن بزاويته ولما حضرت القاضي وفاته أوصى أن يدفن بباب الزاوية حتى يكون كل داخل الى زيارة الشيخ يطأ قبره وبخارج دمياط المزار المعروف بشطا (بفتح الشين المعجمة والطاء المهملة) وهو ظاهر البركة يقصده أهل الديار المصرية وله أيام في السنة معلومة لذلك وبخارجها أيضا بين بساتينها موضع يعرف بالمنية فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان قصدت زاويته وبت عنده وكان بدمياط أيام اقامتي بها وال يعرف بالمحسني من ذوى الاحسان والفضل بني مدرسة على شاطي النيل بها كان نزولي في تلك الايام وتأكدت بيني وبينه مودة ثم سافرت الى مدينة فارسكور وهي مدينة على ساحل النيل (والكاف الذى في اسمها مضموم) ونزلت بخارجها ولحقني هنالك فارس وجهه الى الامير المحسني فقال لي ان الامير سال عنك وعرف بسيرتك فبعث اليك بهذه النفقة ودفع الى جملة دراهم جزاه الله خيرا ثم سافرت الى مدينة أشمون الرمان (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الشين المعجم) ونسبت الى الرمان لكثرته بها ومنها يحمل الى مصر وهي مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خليج النيل ولها قنطرة خشب ترسو المراكب عندها فاذا كان العصر رفعت تلك الخشب وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة وبهذه البلدة قاضي القضاة ووالى الولاة ثم سافرت عنها الى مدينة سمنود وهي على شاطىء

النيل كثيرة المراكب حسنة الاسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ (وضبط اسمها بفتح السين المهمل والميم وتشديد النون وضمها وواو ودال مهمل) ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعدا الى مصر ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض ولا يفتقر راكب النيل الى استصحاب الزاد لانه مهما أراد النزول بالشاطىء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك والاسواق متصلة من مدينة الاسكندرية الى مصر ومن مصر الى مدينة أسوان من الصعيد ثم وصلت الى مدينة مصر هي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الاوتاد ذات الاقاليم العريضة والبلاد الاريضة المتناهية فى كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة مجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف والقادر وبها ماشئت من عالم وجاهل وجاد وهازل وحليم وسفيه ووضيع ونبيه وشريف ومشروف ومنكر ومعروف تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها شبابها يجد على طول العهد وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد قهرت قاهرتها الامم وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم ولها خصوصية النيل التي جل خطرها واغناها عن أن يستمد القطر قطرها وأرضها مسيرة شهر لمجد السير كريمة التربة مؤنسة لذوى الغربة قال ابن جزى وفيها يقول الشاعر (طويل)

لعمرك ما مصر بمصر وانما * هي الجنة الدنيا لمن يتبصر
فاولادها الولدان والحور عينها * وروضتها الفردوس والنيل كوثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض

شاطىء مصر جنة * ما مثلها من بلد
لا سيما مذ زخرفت * بنيلها المطرد
وللرياح فوقه * سوابغ من زرد
مسرودة ما مسها * داودها بمبرد
سائلة هواؤها * يرعد عارى الجسد
والفلك كالافلاك بين حادر ومصعد

(رجع) ويقال ان بمصر من السقائين على الجمال اثني عشر الف سقاء وان بها ثلاثين الف مكار وان بنيلها من المراكب ستة وثلاثين الفا للسلطان والرعية تمر صاعدة الى الصعيد ومنحدرة الى الاسكندرية ودمياط بانواع الخيرات والمرافق وعلى ضفة النيل

مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان النزهة والتفرج وبه البساتين الكثيرة الحسنة وأهل مصر ذو طرب وسرور ولهو شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك اياما

— ذكر مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستانات والزوايا —

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر تقام فيه الجمعة والطريق يعترضه من شرق الى غرب وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الامام أبو عبد الله الشافعى وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها — واما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنة وقد أعد فيه من المرافق والادوية مالا يحصر. يذكر أن مجباه الف دينار كل يوم — وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقة والامراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الاعاجم وهم اهل ادب ومعرفة بطريقة التصوف ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب امورهم عجيب * ومن عوائدهم فى الطعام انه ياتى خديم الزاوية الى الفقراء صباحا فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام فاذا اجتمعوا للاكل جعلوا لكل انسان خبزه ومرقه فى اناء على حدة لا يشاركه فيه احد وطعامهم مرتان فى اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهرى من ثلاثين درهما للواحد فى الشهر الى عشرين ولهم الحلاوة من السكر فى كل ليلة جمعة والصابون لغسل أثوابهم والاجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح وهم أعزاب وللمتزوجين زوايا على حدة ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية واجتماعهم بقبة داخل الزاوية * ومن عوائدهم ان يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به واذا صلوا صلاة الصبح قرؤا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ثم يؤتي بنسخ من القرآن العظيم مجزأة فيأخذ كل فقير جزأ و يختمون القرآن ويذكرون ثم يقرأ القراء على عادة اهل المشرق ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر * ومن عوائدهم مع القادم انه ياتى باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط وعلى كاهله سجادة وبيمناه العكاز وبيسراه الابريق فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه فيخرج اليه ويساله من أى البلاد أتى وباى الزوايا نزل فى طريقه ومن شيخه فاذا عرف صحة قوله ادخله الزاوية وفرش له سجادته فى موضع يليق به وأراه موضع الطهارة فيجدد الوضوء ويأتي الى سجادته فيحل وسطه ويصلى ركعتين ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم * ومن عوائدهم أنهم اذا كان

يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها الى المسجد ويفرشها لهم هنالك ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم فيأتون المسجد ويصلى كل واحد على سجادته فاذا فرغوا من الصلاة قرؤا القرآن على عادتهم ثم ينصرفون مجتمعين الى الزاوية ومعهم شيخهم

— ذكر قرافة مصر ومزاراتها —

ولمصر القرافة العظيمة الشان فى التبرك بها وقد جاء فى فضلها أثر أخرجه القرطبي وغيره لانها من جملة الجبل المقطم الذى وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور ويبنون بها البيوت ويرتبون القراء يقرؤن ليلا ونهارا بالاصوات الحسان ومنهم من يبني الزاوية والمدرسة الى جانب التربة ويخرجون فى كل ليلة جمعة الى المبيت بها باولادهم ونسائهم ويطوفون على المزارات الشهيرة ويخرجون أيضا للمبيت بها ليلة النصف من شعبان ويخرج أهل الاسواق بصنوف المآكل . ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشان حيث رأس الحسين بن على عليهما السلام وعليه رباط ضخم عجيب البناء على أبوابه حلق الفضة وصفائحها أيضا كذلك وهو موفي الحق من الاجلال والتعظيم. ومنها تربة السيدة نفيسة بنت الحسن الانور بن زيد بن على بن الحسين بن على عليهم السلام وكانت مجابة الدعوة مجتهدة فى العبادة وهذه التربة أنيقة البناء مشرقة الضياء عليها رباط مقصود. ومنها تربة الامام أبي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي رضى الله عنه وعليها رباط كبير ولها جراية ضخمة وبها القبة الشهيرة البديعة الاتقان العجيبة البنيان المتناهية الاحكام المفرطة السمو وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعا وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين مالا يضبطه الحصر وبها عدد جم من الصحابة وصدور السلف والخلف رضي الله تعالى عنهم مثل عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز وأصبغ بن الفرج وابني عبد الحكم وأبي القاسم بن شعبان وأبي محمد عبد الوهاب لكن ليس لهم بها اشتهار ولا يعرفهم الا من له بهم عناية والشافعى رضي الله عنه ساعده الجد فى نفسه وانباعه وأصحابه فى حياته ومماته فظهر من أمره مصداق قوله (كامل)

الجد يدني كل أمر شاسع * والجد يفتح كل باب مغلق

— ذكر نيل مصر —

ونيل مصر يفضل أنهار الارض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس فى المعمور مثلها ولا يعلم نهر يزدرع عليه ما يزدرع على النيل

وليس فى الارض نهر يسمى بحرا غيره قال الله تعالى فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم فسماه يما وهو البحر وفى الحديث الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل ليلة الاسراء الى سدرة المنتهى فاذا فى أصلها أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فسال عنها جبريل عليه السلام فقال اما الباطنان ففى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات وفى الحديث ايضا ان النيل والفرات وسيحون وجيحون كل من أنهار الجنة ومجري النيل من الجنوب الى الشمال خلافا لجميع الانهار * ومن عجائبه ان ابتداء زيادته فى شدة الحر عند نقص الانهار وجفوفها وابتداء نقصه حين زيادة الانهر وفيضها ونهر السند مثله فى ذلك وسياتى ذكره وأول ابتداء زيادته فى حزيران وهو يونيه فاذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعا تم خراج السلطان فان زاد ذراعا كان الخصب في العام والصلاح التام فان بلغ ثمانية عشر ذراعا أضر بالضياع وأعقب الوباء وان نقص ذراعا عن ستة عشر نقص خراج السلطان وان نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد والنيل أحد انهار الدنيا الخمسة الكبار وهى النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون وتماثلها انهار خمسة أيضا نهر السند ويسمي بنج اب ونهر الهند ويسمى الكنك واليه تحج الهنود واذا حرقوا امواتهم رموا برمادهم فيه ويقولون هو من الجنة ونهر الجون بالهند ايضا ونهر اتل بصحراء قفجق وعلى ساحله مدينة السرا ونهر السر وبارض الخطا وعلى ضفته مدينة خان بالق ومنها ينحدر الى مدينة الخنسا ثم الى مدينة الزيتون بارض الصين وسيذكر ذلك كله فى مواضعه ان شاء الله والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ولا يعبر نهر منها الا فى السفن شتاء وصيفا وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فاذا مد أترعها فاضت على المزارع

ذكر الاهرام والبرابي

وهى من العجائب المذكورة على مر الدهور وللناس فيها كلام كثير وخوض فى شأنها وأولية بنائها ويزعمون ان جميع العلوم التى ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هرمس الاول الساكن بصعيد مصر الاعلى ويسمي اخنوخ وهو ادريس عليه السلام وانه أول من تكلم فى الحركات الفلكية والجواهر العلوية واول من بنى الهياكل ومجد الله تعالى فيها وانه انذر الناس بالطوفان وخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع فبني الاهرام والبرابى وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة ويقال ان دار العلم والملك بمصر مدينة منف وهى على بريد من الفسطاط فلما بنيت الاسكندرية انتقل الناس اليها وصارت دار العلم والملك الى ان أتى الاسلام فاختط عمرو بن العاص رضى الله

عنه مدينة الفسطاط فهي قاعدة مصر الى هذا العهد والاهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت متناهي السمو مستدير متسع الاسفل ضيق الاعلى كالشكل المخروط ولا أبواب لها ولا تعلم كيفية بنائها . ومما يذكر في شانها ان ملكا من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته وأوجبت عنده انه بني تلك الاهرام بالجانب الغربي من النيل لتكون مستودعا للعلوم ولجثة الملوك وانه سال المنجمين هل يفتح منها موضع فاخبروه انها تفتح من الجانب الشمالي وعينوا له الموضع الذي تفتح منه ومبلغ الانفاق في فتحه فامر أن يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه انه ينفق في فتحه واشتد في البناء فاتمه في ستين سنة وكتب عليها بنينا هذه الاهرام في ستين سنة فليهدمها من يريد ذلك في ستمائة سنة فان الهدم أيسر من البناء فلما أفضت الخلافة الى أمير المؤمنين المامون اراد هدمها فاشار عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل فلج في ذلك وأمر أن تفتح من الجانب الشمالي فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق حتي فتحت الثلمة التي بها الى اليوم ووجدوا بازاء النقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أنفق في النقب فوجدهما سواء فطال عجبه من ذلك ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعا

— ذكر سلطان مصر —

وكان سلطان مصر على عهد دخولي اليها الملك الناصر ابو الفتح محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي وكان قلاوون يعرف بالالفي لان الملك الصالح اشتراه بالف دينار ذهبا وأصله من قفجق وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة وكفاه شرفا انماؤه لخدمة الحرمين الشريفين ومايفعله في كل سنة من افعال البر التي تعين الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء وتحمل من تاخر اوضعف المشي في الدربين المصري والشامي وبني زاوية عظيمة بسرياقص خارج القاهرة لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقراء والمساكين خليفة الله في ارضه القائم من الجهاد بنفله وفرضه أبو عنان أيد الله امره وأظهره وسنى له الفتح المبين ويسره بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء حرسها الله لانظير لها في المعمور في اتقان الوضع وحسن البناء والنقش في الجص بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله وسياتي ذكر ما عمره أيده الله من المدارس والمرستان والزوايا ببلاده حرسها الله وحفظها بدوام ملكه

ــ ذكر بعض أمراء مصر ــ

منهم ساقي الملك الناصر وهو الامير بكتمور (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة وكاف مسكن وتاء معلوة مضمومة وآخره راء) وهو الذي قتله الملك الناصر بالسم وسيذكر ذلك . ومنهم نائب الملك الناصر ارغون الدوادار وهو الذي يلي بكتمور في المنزلة (وضبط اسمه بفتح الهمزة واسكان الراء وضم الغين المعجمة) ومنهم طشط المعروف بحمص أخضر (واسمه بطاءين مهملين مضمومين وبينهما شين معجم) وكان من خيار الامراء وله الصدقات الكثيرة على الايتام من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن وله الاحسان العظيم للحرافيش وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ودعارة . وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا باسفل القلعة ونادوا بلسان واحد يا أعرج النحس يعنون الملك الناصر أخرجه فاخرجه من محبسه وسجنه مرة أخرى ففعل الايتام مثل ذلك فاطلقه * ومنهم وزير الملك الناصر يعرف بالجمالي بفتح الجيم . ومنهم بدر الدين بن البابه . ومنهم جمال الدين نائب الكرك .ومنهم تقزدمور (واسمه بضم التاء المعلوة وضم القاف وزاء مسكن ثم دال مضموم وميم مثله وآخره راء) ودمور بالتركية الحديد . ومنهم بهادر الحجازى (واسمه بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء) ومنهم قوصون (وسمه بفتح القاف وصاد مهمل مضموم). ومنهم بشتك (واسمه بفتح الباء الموحدة واسكان الشين المعجم وتاء معلوة مفتوحة) وكل هؤلاء يتنافسون في أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا .ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه القاضي فخر الدين القبطي وكان نصرانيا من القبط فاسلم وحسن اسلامه وله المكارم العظيمة والفضائل التامة ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر وله الصدقات الكثيرة والاحسان الجزيل . ومن عادته أن يجلس عشى النهار في مجلس له باسطوان داره على النيل ويليه المسجد فاذا حضر المغرب صلى في المسجد وعاد الى مجلسه وأوتي بالطعام ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائنا من كان فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له ومن كان طالب صدقة أمر مملوكا له يدعي بدر الدين واسمه لؤلؤ بان يصحبه الى خارج الدار وهنالك خازنه معه صرر الدراهم فيعطيه ماقدر له ويحضر عنده في ذلك الوقت الفقهاء ويقرأ بين يديه كتاب البخارى فاذا صلى العشاء الاخيرة انصرف الناس عنه

ــ ذكر القضاة بمصر في عهد دخولي اليها ــ

فمنهم قاضي القضاة الشافعية وهو اعلاهم منزلة وأكبرهم قدرا واليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم وهو القاضي الامام العالم بدر الدين بن جماعة وابنه عز الدين هو الآن متولى ذلك

ومنهم قاضي القضاة المالكية الامام الصالح تقي الدين الاخنائي ومنهم قاضي القضاة الحنفية الامام العالم شمس الدين الحريري وكان شديد السطوة لا تاخذه في الله لومة لائم وكانت الامراء تخافه ولقد ذكر لي ان الملك الناصر قال يوما لجلسائه اني لا أخاف من أحد الا من شمس الدين الحريري. ومنهم قاضي القضاة الحنبلية ولا أعرفه الآن الا انه كان يدعي بعز الدين

— حكاية —

كان الملك الناصر رحمه الله يقعد للنظر في المظالم ورفع قصص المشتكين كل يوم اثنين وخميس ويقعد القضاة الاربعة عن يساره وتقرأ القصص بين يديه ويعين من يسال صاحب القصة عنها وقد سلك مولانا أمير المؤمنين ناصر الدين أيده الله في ذلك مسلكا لم يسبق اليه ولا مزيد في العدل والتواضع عليه وهو سؤاله بذاته الكريمة لكل متظلم وعرضه بين يديه المستقيمة أبى الله ان يحضرها سواه أدام الله أيامه. وكان رسم القضاة المذكورين ان يكون أعلاهم منزلة في الجلوس قاضي الشافعية ثم قاضي الحنفية ثم قاضي المالكية ثم قاضي الحنبلية فلما توفي شمس الدين الحريري وولي مكانه برهان الدين بن عبد الحق الحنفي أشار الامراء على الملك الناصر بان يكون مجلس المالكي فوقه وذكروا ان العادة جرت بذلك قديما اذ كان قاضي المالكية زين الدين بن مخلوف يلي قاضي الشافعية تقي الدين بن دقيق العيد فامر الملك الناصر بذلك فلما علم به قاضي الحنفية غاب عن شهود المجلس أنفة من ذلك فانكر الملك الناصر مغيبه وعلم ما قصده فامر باحضاره فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده وأقعده حيث نفذ أمر السلطان مما يلي قاضي المالكية واستمر حاله على ذلك

— ذكر بعض علماء مصر وأعيانها —

فمنهم شمس الدين الاصبهاني امام الدنيا في المعقولات. ومنهم شرف الدين الزواوي المالكي. ومنهم برهان الدين بن بنت الشاذلي نائب قاضي القضاة بجامع الصالح ومنهم ركن الدين بن القوبع التونسي من الائمة في المعقولات ومنهم شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية. ومنهم بهاء الدين بن عقيل فقيه كبير. ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي وهو أعلمهم بالنحو ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفي ومنهم برهان الدين الصفاقسي. ومنهم قوام الدين الكرماني وكان سكناه باعلى سطح الجامع الازهر وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه ويدرس فنون العلم ويفتي في المذاهب ولباسه عباءة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء ومن عادته أن يذهب بعد صلاة العصر الى مواضع الفرج والنزاهات منفردا عن أصحابه ومنهم السيد الشريف شمس الدين بن بنت الصاحب تاج الدين

ابن حناء. ومنهم شيخ شيوخ القراء بديار مصر مجد الدين الاقصرائي نسبة الى اقصرا من بلاد الروم ومسكنه سر يا قص . ومنهم الشيخ جمال الدين الحويزائي والحويزا على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة ومنهم نقيب الاشراف بديار مصر السيد الشريف المعظم بدر الدين الحسيني من كبار الصالحين. ومنهم وكيل بيت المال المدرس بقية الامام الشافعي مجد الدين بن حرمي . ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهرتي من كبار الفقهاء وله بمصر رياسة عظيمة وجاه

— ذكر يوم المحمل بمصر —

وهو يوم دوران الجمل يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فيه القضاة الاربعة ووكيل بيت المال والمحتسب وقد ذكرنا جميعهم ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ويقصدون جميعا باب القلعة دار الملك الناصر فيخرج اليهم المحمل على جمل وأمامه الامير المعين لسفر الحجاز فى تلك السنة ومعه عسكره والسقاؤن على جمالهم ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينتي القاهرة ومصر والحداة يحدون أمامهم ويكون ذلك فى رجب فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الاشواق وتتحرك البواعث ويلقي الله تعالى العزيمة على الحج فى قلب من يشاء من عباده فيأخذون فى التاهب لذلك والاستعداد ثم كان سفري من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف فبت ليلة خروجي بالرباط الذي بناه الصاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين وهو رباط عظيم بناه على مفاخر عظيمة وآثار كريمة أودعها فيه وهي قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والميل الذى كان يكتحل به والدرفش وهو الاشفا الذى كان يخصف به نعله ومصحف امير المؤمنين علي بن أبي طالب الذى بخط يده رضى الله عنه ويقال ان الصاحب اشترى ماذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة الف درهم وبنى الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة نفعه الله تعالى بقصده المبارك. ثم خرجت من الرباط المذكور ومررت بمنية القائد وهي بلدة صغيرة على ساحل النيل ثم سرت منها الى مدينة بوش (وضبطها بضم الباء الموحدة وآخرها شين معجم) وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتانا ومنها يجلب الى سائر الديار المصرية والى افريقية ثم سافرت منها فوصلت الى مدينة دلاص (وضبط اسمها بفتح الدال المهملة وآخره صاد مهمل) وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضا كمثل التي ذكرنا قبلها ويحمل أيضا منها الى ديار مصر وافريقية ثم سافرت منها الى مدينة ببا (وضبط اسمها بباءين موحدتين اولاهما مكسورة) ثم سافرت منها الى مدينة البهنسا وهى مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة (وضبط

اسمها بفتح الموحدة واسكان الهاء وفتح النون والسين) وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة وممن لقيته بها قاضيها العالم شرف الدين وهو كريم النفس فاضل ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمي ونزلت عنده وأضافني ثم سافرت منها الى مدينة منية ابن خصيب وهي مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة مبنية على شاطىء النيل وحق حقيق لها على بلاد الصعيد التفضيل بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد وكانت في القديم منية عامل مصر لخصيب

— حكاية خصيب —

يذكر ان أحد الخلفاء من بني العباس رضي الله عنهم غضب على أهل مصر فآلى أن يولي عليهم أحقر عبيده وأصغرهم شأنا قصد الارذالهم والتنكيل بهم وكان خصيب احقرهم اذ كان يتولى تسخين الحمام فخلع عليه وأمره على مصر وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء ويقصدهم بالاذاية حسبما هو المعهود ممن ولي عن غير عهد بالعز فلما استقر خصيب بمصر سار في أهلها أحسن سيرة وشهر بالكرم والايثار فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه فيجزل العطاء لهم ويعودون الى بغداد شاكرين لما أولاهم وان الخليفة افتقد بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه فسأله عن مغيبه فاخبره انه قصد خصيبا وذكر له ما أعطاه خصيب وكان عطاء جزيلا فغضب الخليفة وأمر بسمل عيني خصيب واخراجه من مصر الى بغداد وان يطرح في أسواقها فلما ورد الامر بالقبض عليه حيل بينه وبين دخول منزله وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشأن فخبأها عنده وخاطها في ثوب له ليلا وسملت عيناه وطرح في أسواق بغداد فمر به بعض الشعراء فقال له يا خصيب اني كنت قصدتك من بغداد الى مصر مادحا لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها وأحب ان تسمعها فقال كيف بسماعها وأنا على ما تراه فقال انما قصدي سماعك لها وأما العطاء فقد أعطيت الناس واجزلت جزاك الله خيرا قال فافعل فانشده (كامل)

أنت الخصيب وهذه مصر ❊ فتدفقا فكلا كما بحر

فلما أتى على آخرها قال له افتق هذه الخياطة ففعل ذلك فقال له خذ الياقوتة فأبى فاقسم عليه أن يأخذها فاخذها وذهب بها الى سوق الجوهريين فلما عرضها عليهم قالوا له ان هذه لا تصلح الا للخليفة فرفعوا أمرها الى الخليفة فامر الخليفة باحضار الشاعر واستفهمه عن شان الياقوتة فاخبره بخبرها فتاسف على ما فعله بخصيب وأمر بمثوله بين يديه واجزل له العطاء وحكمه فيما يريد فرغب ان يعطيه هذه المنية ففعل ذلك وسكنها خصيب الى ان توفي وأورثها عقبه الى أن انقرضوا وكان قاضي هذه المنية أيام دخولي اليها

فخر الدين النويري المالكي وواليها شمس الدين امير خير كريم دخلت يوما الحمام بهذه البلدة فرأيت الناس بها لا يستترون فعظم ذلك علي وأتيته فاعلمته بذلك فامرني أن لا أبرح وأمر باحضار المكترين للحمامات وكتبت عليهم العقود انه متى دخل أحد الحمام دون مئزر فانهم يؤاخذون على ذلك واشتد عليهم اعظم الاشتداد ثم انصرفت عنه وسافرت من منية ابن خصيب الى مدينة منلوي وهي صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان النون وفتح اللام وكسر الواو) وقاضيها الفقيه شرف الدين الدميري (بفتح الدال المهمل وكسر الميم) الشافعي وكبارها قوم يعرفون ببني فضيل بني احدهم جامعا انفق فيه صميم ماله وبهذه المدينة احدي عشرة معصرة للسكر ومن عوائدهم انهم لا يمنعون فقيرا من دخول معصرة منها فياتي الفقير بالخبزة الحارة فيطرحها في القدر التي يطبخ السكر فيها ثم يخرجها وقد امتلأت سكرا فينصرف بها وسافرت من منلوي المذكورة الى مدينة منفلوط وهي مدينة حسن رواؤها مؤنق بناؤها على ضفة النيل شهيرة البركة (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان النون وفتح الفاء وضم اللام وآخرها طاء مهمل)

— حكاية — اخبرني اهل هذه المدينة ان الملك الناصر رحمه الله أمر بعمل منبر عظيم محكم الصنعة بديع الانشاء برسم المسجد الحرام زاده الله شرفا وتعظيما فلما تم عمله أمر أن يصعد به في النيل ليجاز الى بحر جدة ثم الى مكة شرفها الله فلما وصل المركب الذي احتمله الى منفلوط وحاذى مسجدها الجامع وقف وامتنع من الجرى مع مساعدة الريح فعجب الناس من شانه اشد العجب واقاموا اياما لا ينهض بهم المركب فكتبوا بخبره الى الملك الناصر رحمه الله فامر ان يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط ففعل ذلك وقد عاينته بها ويصنع بهذه المدينة شبه العسل يستخرجونه من القمح ويسمونه النيدا يباع باسواق مصر وسافرت من هذه المدينة الى مدينة اسيوط وهي مدينة رفيعة اسواقها بديعة (وضبط اسمها بفتح الهمزة والسين المهملة والياء آخر الحروف وواو وطاء مهملة) وقاضيها شرف الدين ابن عبد الرحيم الملقب (بحاصل ماثم) لقب شهر به واصله ان القضاة بديار مصر والشام بايديهم الاوقاف والصدقات لابناء السبيل فاذا اتي فقير لمدينة من المدن قصد القاضي بها فيعطيه ماقدر له فكان هذا القاضي اذا اتاه الفقير يقول له حاصل ماثم اى لم يبق من المال الحاصل شيء فلقب بذلك ولزمه وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين بن الصباغ أضافني بزاويته وسافرت منها الى مدينة اخميم وهي مدينة عظيمة اصيلة البنيان عجيبة الشان بها البربى المعروف باسمها وهو مبني بالحجارة في داخله نقوش وكتابة للاوائل لا تفهم في

هذا العهد وصور الافلاك والكواكب ويزعمون انها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب وبها صور الحيوانات وسواها وعند الناس فى هذه الصور أكاذيب لا يعرج عليها وكان باخميم رجل يعرف بالخطيب أمر على هدم بعض هذه البرابى وابتنى بحجارتها مدرسة وهو رجل موسر معروف باليسار ويزعم حساده أنه استفاد ما بيده من المال من ملازمته لهذه البرابي ونزلت من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبي العباس بن عبد الظاهر وبها تربة جده عبد الظاهر وله من الاخوة ناصر الدين ومجد الدين وواحد الدين ومن عادتهم ان يجتمعوا جميعا بعد صلاة الجمعة ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده وقاضى المدينة الفقيه مخلص وسائر وجوه أهلها فيجتمعون للقرآن ويذكرون الله الى صلاة العصر فاذا صلوها قرأوا سورة الكهف ثم انصرفوا وسافرت من اخميم الى مدينة (هو) مدينة كبيرة بساحل النيل (وضبطها بضم الهاء) نزلت منها بمدرسة تقى الدين بن السراج ورأيتهم يقرأون بها فى كل يوم بعد صلاة الصبح حزبا من القرآن ثم يقرأون أوراد الشيخ أبى الحسن الشاذلى وحزب البحر. وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسنى من كبار الصالحين (كرامة له) دخلت الى هذا الشريف متبركا برؤيته والسلام عليه فسألني عن قصدى فاخبرته أني أريد حج البيت الحرام على طريق جدة فقال لى لا يحصل لك هذا فى هذا الوقت فارجع وإنما تحج أول حجة على الدرب الشامي فانصرفت عنه ولم أعمل على كلامه ومضيت فى طريق حتى وصلت الى عيذاب فلم يتمكن لى السفر فعدت راجعا إلى مصر ثم الى الشام وكان طريقي فى أول حجاتي على الدرب الشامى حسبما أخبرنى الشريف نفع الله به. ثم سافرت الى مدينة قنا وهي صغيرة حسنة الاسواق (وضبط اسمها بقاف مكسورة ونون) وبها قبر الشريف الصالح الولى صاحب البراهين العجيبة والكرامات الشهيره عبد الرحيم القناوي رحمة الله عليه ورأيت بالمدرسة السيفية منها حفيده شهاب الدين احمد وسافرت من هذا البلد الى مدينة قوص (وهي بضم القاف) مدينة عظيمة لها خيرات عميمة بساتينها مورقة واسواقها مونقة ولها المساجد الكثيرة والمدارس الاثيره وهي منزل ولاة الصعيد وبخارجها زاوية الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار وزاوية الافرم وبها اجتماع الفقراء المتجردين فى شهر رمضان من كل سنة ومن علمائها القاضى جمال الدين بن السديد والخطيب بها فتح الدين بن دقيق العيد أحد الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق فى ذلك لم أر من يماثله الا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبرى وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين الشاطى وسيقع ذكرهما ومنهم الفقيه بهاء الدين بن عبد العزيز المدرس بمدرسة المالكية ومنهم الفقيه برهان الدين

ابراهيم الاندلسى له زاوية عالية ثم سافرت الى مدينة الاقصر (وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الصاد المهمل) وهي صغيرة حسنة وبها قبر الصالح العابد أبى الحجاج الاقصرى وعليه زاوية. وسافرت منها الى مدينة أرمنت (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الراء وميم مفتوحة ونون ساكنة وتاء فوقية) وهي صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل أضافني قاضيها وأنسيت اسمه ثم سافرت منها الى مدينة أسنا (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان السين المهمل ونون) مدينة عظيمة متسعة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع لها أسواق حسان وبساتين ذات أفنان قاضيها قاضى القضاة شهاب الدين بن مسكين أضافني واكرمني وكتب الى نوابه باكرامي وبها من الفضلاء الشيخ الصالح نور الدين على والشيخ الصالح عبد الواحد المكناسى وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقوص. ثم سافرت منها الى مدينة أدفو (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الدال المهمل وضم الفاء) وبينها وبين مدينة أسنا مسيرة يوم وليلة فى صحراء ثم جزنا النيل من مدينة أدفو الى مدينة العطواني ومنها اكترينا الجمال وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدغيم (بالغين المعجمة) فى صحراء لا عمارة بها الا أنها آمنة السبل وفى بعض منازلها نزلنا حميثرا حيث قبر ولى الله ابى الحسن الشاذلى وقد ذكرنا كرامته فى أخباره انه يموت بها وأرضها كثيرة الضباع ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع ولقد قصدت رحلى ضبع منها فمزقت عدلا كان به واجترت منه حراب تمر وذهبت به فوجدناه لما أصبحنا ممزقا ما كولا معظم ما كان فيه ثم لما سرنا خمسة عشر يوما وصلنا الى مدينة عيذاب وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ويحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر وأهلها البجاة وهم سود الالوان يلتحفون ملاحف صفرا ويشدون على رؤسهم عصائب يكون عرض العصابة منها أصبعا وهم لا يورثون البنات وطعامهم البان الابل ويركبون المهارى ويسمونها الصهب وثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها الملك البجاة وهو يعرف بالحدربي (بفتح الحاء المهمل واسكان الدال وراء مفتوحة وباء موحدة وياء) وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلانى شهير البركة رأيته وتبركت به وبها الشيخ الصالح موسي والشيخ المسن محمد المراكشى زعم انه ابن المرتضى ملك مراكش وان سنه خمس وتسعون سنة ولما وصلنا الى عيذاب وجدنا الحدربى سلطان البجاة يحارب الاتراك وقد خرق المراكب وهرب الترك امامه فتعذر سفرنا فى البحر فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم الي صعيد مصر فوصلنا الى مدينة قوص التى تقدم ذكرها وانحدرنا منها فى النيل وكان أوان

مده فوصلنا بعدمسيرة ثمان من قوص الى مصر فبت بمصر ليلة واحدة وقصدت بلاد الشام وذلك فى منتصف شعبان سنة ست وعشرين فوصلت الى مدينة بلبيس (وضبط اسمها بفتح للوحدة الاولى وفتح الثانية ثم ياء آخر الحروف مسكنة وسين مهملة) وهي مدينة كبيرة ذات بساتين كثيرة ولم ألق بها من يجب ذكره. ثم وصلت الى الصالحية ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها مثل السوادة والورادة والمطيلب والعريش والخروبة وبكل منزل منها فندق وهم يسمونه الخان ينزله المسافرون بدوابهم وبخارج كل خان ساقيه للسبيل وحانوت يشترى منها المسافر مايحتاجه لنفسه ودابته ومن منازلها قطيا المشهورة وهي (بفتح القاف وسكون الطاء وياء آخر الحروف مفتوحة وألف) والناس يبدلون ألفها هاء تانيث وبها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود ومجباها فى كل يوم ألف دينار من الذهب ولا يجوز عليها أحد من الشام الا ببراءة من مصر ولا الى مصر الا ببراءة من الشام احتياطا على أموال الناس وتوقيا من الجواسيس العراقيين وطريقها فى ضمان العرب قد وكلوا بحفظه فاذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر ثم ياتي الامير صباحا فينظر الى الرمل فان وجد به أثرا طالب العرب باحضار مؤثره فيذهبون فى طلبه فلا يفوتهم فياتون به الامير فيعاقبه بماشاء وكان بها فى عهد وصولي اليها عز الدين استاذ الدار اقماري من خيار الامراء أضافني وأكرمني واباح الجواز لمن كان معي وبين يديه عبد الجليل المغربى الوقاف وهو يعرف المغاربة وبلادهم فيسال من ورد منهم من أى البلاد هو لئلا يلبس عليهم فان المغاربة لا يعترضون فى جوازهم على قطيا. ثم سرناحتي وصلنا الى مدينة غزة وهي أول بلاد الشام مما يلى مصر متسعة الاقطار كثيرة العمارة حسنة الاسواق بها المساجد العديدة والاسوار عليها وكان بها مسجد جامع حسن والمسجد الذي تقام الآن به الجمعة فيها بناء الامير المعظم الجاولى وهو انيق البناء محكم الصنعة ومنبره من الرخام الابيض وقاضي غزة بدر الدين السلختى الحوراني ومدرسها علم الدين بن سالم وبنو سالم كبراء هذه المدينة. ومنهم شمس الدين قاضى القدس ثم سافرت من غزة الى مدينة الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليما وهي مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار مشرقة الانوار حسنة المنظر عجيبة المخبر فى بطن واد ومسجدها أنيق الصنعة محكم العمل بديع الحسن سامي الارتفاع مبني بالصخر المنحوت فى أحد أركانه صخرة أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبرا ويقال ان سليمان عليه السلام أمر الجن ببنائه وفى داخل المسجد الغار المكرم المقدس فيه قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب صلوات الله على

نبينا وعليهم ويقابلها قبور ثلاثة هي قبور أزواجهم وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل الى مسلك ضيق يفضي الي ساحة مفروشة بالرخام فيها صور القبور الثلاثة ويقال انها محاذية لها وكان هنالك مسلك الى الغار المبارك وهو الآن مسدود وقد نزلت بهذا الموضع مرات ومما ذكره أهل العلم دليلا على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك ما نقلته من كتاب علي بن جعفر الرازى الذي سماه المسفر للقلوب عن صحة قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب أسند فيه الى ابي هريرة قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم لما أسرى بي الى بيت المقدس مر بي جبريل على قبر ابراهيم فقال انزل فصل ركعتين فان هنا قبر أبيك ابراهيم ثم مر بي على بيت لحم وقال انزل فصل ركعتين فان هنا ولد أخوك عيسى عليه السلام ثم أتى بي الى الصخرة وذكر بقية الحديث ولما لقيت بهذه المدينة المدرس الصالح المعمر الامام الخطيب برهان الدين الجعبري أحد الصلحاء المرضيين والأئمة المشهورين سالته عن صحة كون قبر الخليل عليه السلام هنالك فقال لى كل من لقيته من أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور ابراهيم واسحاق ويعقوب على نبينا وعليهم السلام وقبور زوجاتهم ولا يطعن فى ذلك الا أهل البدع وهو نقل الخلف عن السلف لا يشك فيه * ويذكر أن بعض الائمة دخل الى هذا الغار ووقف عند قبر سارة فدخل شيخ فقال له أى هذه القبور هو قبر ابراهيم فاشار له الى قبره المعروف ثم دخل شاب فساله كذلك فاشار له اليه ثم دخل صبي فساله أيضاً فاشار له اليه فقال الفقيه أشهد أن هذا قبر ابراهيم عليه السلام لاشك ثم دخل الى المسجد فصلى به وارتحل من الغد وبداخل هذا المسجد أيضاً قبر يوسف عليه السلام وبشرقى حرم الخليل تربة لوط عليه السلام وهى على تل مرتفع يشرف منه غور الشام وعلى قبره أبنية حسنة وهو فى بيت منها حسن البناء مبيض ولا ستور عليه وهنالك بحيرة لوط وهى أجاج يقال انها موضع ديار قوم لوط وبمقربة من تربة لوط مسجد اليقين وهو على تل مرتفع له نور واشراق ليس لسواه ولا يجاوره الا دار واحدة يسكنها قيمه وفى المسجد بمقربة من بابه موضع منخفض فى حجر صلد قد هيئ فيه صورة محراب لا يسع الا مصليا واحدا ويقال ان ابراهيم سجد فى ذلك الموضع شكراً لله تعالى عند هلاك قوم لوط فتحرك موضع سجوده وساخ في الارض قليلا وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن على عليهما السلام وباعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام فى احدهما مكتوب منقوش بخط بديع بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ما ذرأ وبرأ وعلى خلقه كتب الفناء وفى رسول الله أسوة هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين رضى الله عنه

وفى اللوح الآخر منقوش صنعه محمد بن أبي سهل النقاش بمصر وتحت ذلك هذه الابيات

أسكنت من كان فى الاحشاء مسكنه　　بالرغم منى بين الترب والحجر
ياقبر فاطمة بنت ابن فاطمة　　بنت الائمة بنت الانجم الزهر
ياقبر مافيك من دين ومن ورع　　ومن عفاف ومن صون ومن خفر

ثم سافرت من هذه المدينة الى القدس فزرت فى طريقي اليه تربة يونس عليه السلام وعليها بنية كبيرة ومسجد وزرت أيضا بيت لحم موضع ميلاد عيسي عليه السلام وبه اثر جذع النخلة وعليه عمارة كثيرة والنصاري يعظمونه أشد التعظيم ويضيفون من نزل به ثم وصلنا الى بيت المقدس شرفه الله ثالث المسجدين الشريفين فى رتبة الفضل ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ومعرجه الى السماء والبلدة كبيرة منيفة مبنية بالصخر المنحوت وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب جزاه الله عن الاسلام خيرا لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها ثم استنقض الملك الظاهر هدمه خوفا ان يقصدها الروم فيتمنعوا بها ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم وجلب لها الماء في هذا العهد الامير سيف الدين تنكيز امير دمشق

— ذكر المسجد المقدس —

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن يقال انه ليس على وجه الارض مسجد أكبر منه وان طوله من شرق الى غرب سبعمائة واثنتان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية وعرضه من القبلة الى الجوف اربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعا وله ابواب كثيرة فى جهاته الثلاث واما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها الا بابا واحدا وهو الذى يدخل منه الامام والمسجد كله فضاء غير مسقف الا المسجد الاقصى فهو مسقف فى النهاية من احكام العمل واتقان الصنعة مموه بالذهب والاصبغة الرائقة وفي المسجد مواضع سواه مسقفة

— ذكر قبة الصخرة —

وهى من أعجب المباني وأتقنها واغربها شكلا قد توفر حظها من المحاسن وأخذت من كل بديعة بطرف وهى قائمة على نشز فى وسط المسجد يصعد اليها فى درج رخام ولها أربعة أبواب والدائر بها مفروش بالرخام أيضا محكم الصنعة وكذلك داخلها وفى ظاهرها وباطنها من انواع الزواقة ورائق الصنعة مايعجز الواصف وأكثر ذلك مغشى بالذهب فهى تتلألأ نورا وتلمع لمعان البرق يحار بصر متاملها فى محاسنها ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها وفى وسط القبة الصخرة الكريمة التي جاء ذكرها فى الآثار فان النبي صلى الله عليه وسلم

عرج منها الى السماء وهي صخرة صماء ارتفاعها نحو قامة وتحتها مغارة في مقدار بيت صغير ارتفاعها نحو قامة أيضا ينزل اليها على درج وهنالك شكل محراب وعلى الصخرة شبا كان اثنان محكما العمل يغلقان عليها أحدهما وهو الذي يلي الصخرة من حديد بديع الصنعة والثاني من خشب وفي القبة درقة كبيرة من حديد معلقة هنالك والناس يزعمون انها درقة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

— ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف —

فمنها بعدوة الوادي المعروف بوادى جهنم في شرقي البلد على تل مرتفع هنالك بنية يقال انها مصعد عيسى عليه السلام الى السماء ومنها أيضا قبر رابعة البدوية منسوبة الى البادية وهي خلاف رابعة العدوية الشهيرة وفي بطن الوادى المذكور كنيسة يعظمها النصاري ويقولون ان قبر مريم عليها السلام بها وهنالك أيضا كنيسة أخري معظمة يحجها النصارى وهي التي يكذبون عليها ويعتقدون ان قبر عيسى عليه السلام بها وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين وضروب من الاهانة يتحملها على رغم أنفه وهنالك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به

— ذكر بعض فضلاء القدس —

فمنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزى (بفتح الغين) وهو من أهل غزة وكبرائها ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسى ومنهم المحدث المفتي شهاب الدين الطبرى ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي نزيل القدس ومنهم الشيخ الزاهد أبو على حسن المعروف بالمحجوب من كبار الصالحين ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغي ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أرز الروم وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعي صحبته ولبست منه خرقة التصوف ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عسقلان وهو خراب قد عاد رسوما طامسة واطلالا دارسة وقل بلد جمع من المحاسن ما جمعته عسقلان اتقانا وحسن وضع وأصالة مكان وجمعا بين مرافق البر والبحر وبها المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن على عليه السلام قبل ان ينقل الى القاهرة وهو مسجد عظيم سامى العلو فيه جب للماء أمر ببنائه بعض العبيديين وكتب ذلك على بابه وفي قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر لم يبق منه الاحيطانه وفيه أساطين رخام لا مثل لها في الحسن وهي ما بين قائم وحصيد ومن جملتها اسطوانة حمراء عجيبة يزعم الناس ان النصارى احتملوها الى بلادهم ثم فقدوها فوجدت في موضعها بعسقلان وفي القبلة من هذا المسجد بئر تعرف ببئر ابراهيم عليه السلام ينزل اليها في

درج متسعة ويدخل منها الى بيوت وفى كل جهة من جهاتها الاربع عين تخرج من أسراب مطوية بالحجارة وماؤها عذب وليس بالغزير ويذكر الناس من فضائلها كثيرا وبظاهر عسقلان وادي النمل ويقال انه المذكور فى الكتاب العزيز وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والاولياء مالا يحصر لكثرته أوقفنا عليهم قيم المزار المذكور وله جراية يجريها له ملك مصر مع ما يصل اليه من صدقات الزوار — ثم سافرت منها الى مدينة الرملة وهى فلسطين مدينة كبيرة كثيرة الخيرات حسنة الاسواق وبها الجامع الابيض ويقال ان فى قبلته ثلاثمائة من الانبياء مدفونين عليهم السلام وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسى ثم خرجت منها الى مدينة نابلس وهي مدينة عظيمة كثيرة الاشجار مطردة الانهار من أكثر بلاد الشام زيتونا ومنها يحمل الزيت الى مصر ودمشق وبها تصنع حلواء الخروب وتجلب الى دمشق وغيرها (وكيفية عملها) ان يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه الحلواء ويجلب ذلك الرب أيضا الى مصر والشام وبها البطيخ المنسوب اليها وهو طيب عجيب والمسجد الجامع فى نهاية من الاتقان والحسن وفى وسطه بركة ماء عذب — ثم سافرت منها الى مدينة عجلون (وهي بفتح العين المهملة) وهى مدينة حسنة لها أسواق كثيرة وقلعة خطيرة ويشقها نهر ماؤه عذب — ثم سافرت منها بقصد اللاذقية فمررت بالغور وهو واد بين تلال به قبر أبي عبيدة بن الجراح أمين هذه الامة رضى الله عنه زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لابناء السبيل — وبتنا هنالك ليلة — ثم وصلنا الى القصير وبه قبر معاذ بن جبل رضى الله عنه تبركت أيضا بزيارته ثم سافرت على الساحل فوصلت الى مدينة عكة وهي خراب وكانت عكة قاعدة بلاد الافرنج بالشام ومرسى سفنهم وتشبه قسطنطينية العظمي وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر يقال ان الله تعالى أخرج منها البقر لآدم عليه السلام وينزل اليها فى درج وكان عليها مسجد بقي منه محرابه وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام — ثم سافرت منها الى مدينة صور وهي خراب وبخارجها قرية معمورة وأكثر اهلها أرفاض ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء فاتى بعض اهل تلك القرية ليتوضا فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه ولم يتمضمض ولا استنشق ثم مسح بعض رأسه فاخذت عليه فى فعله فقال لى ان البناء انما يكون ابتداؤه من الاساس ومدينة صور هى التي يضرب بها المثل فى الحصانة والمنعة لان البحر محيط بها من ثلاث جهاتها ولها بابان أحدهما للبر والثانى للبحر ولبابها الذى يشرع للبر أربعة فصلات كلها فى ستائر محيطة بالباب وأما الباب الذى للبحر فهو بين برجين عظيمين وبناؤها ليس فى بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شانا

منه لان البحر محيط بها من ثلاث جهاتها وعلى الجهة الرابعة سور تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة لا سبيل الى الداخل هنالك ولا الى الخارج الا بعد حطها وكان عليها الحراس والامناء فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج الا على علم منهم وكان لعكة أيضا ميناء مثلها ولكنها لم تكن تحمل الا السفن الصغار — ثم سافرت منها الى مدينة صيدا وهى على ساحل البحر حسنة كثيرة الفواكه يحمل منها التين والزبيب والزيت الى بلاد مصر نزلت عند قاضيها كمال الدين الاشموني المصرى وهو حسن الاخلاق كريم النفس — ثم سافرت منها الى مدينة طبرية وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق منها الا رسوم تنبيء عن ضخامتها وعظم شانها وبها الحمامات العجيبة لها بيتان أحدهما للرجال والثانى للنساء وماؤها شديد الحرارة ولها البحيرة الشهيرة طولها نحو ستة فراسخ وعرضها ازيد من ثلاثة فراسخ وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الانبياء فيه قبر شعيب عليه السلام وبنته زوج موسى الكليم عليه السلام وقبر سليمان عليه السلام وقبر يهودا وقبر روبيل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم وقصدنا منها زيارة الجب الذي ألقى فيه يوسف عليه السلام وهو فى صحن مسجد صغير وعليه زاوية والجب كبير عميق شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر وأخبرنا قيمه ان الماء ينبع منه أيضا ثم سرنا الى مدينة بيروت وهى صغيرة حسنة الاسواق وجامعها بديع الحسن ويجلب منها الى ديار مصر الفواكه والحديد وقصدنا منها زيارة أبي يعقوب يوسف الذى يزعمون انه من ملوك المغرب وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز وعليه زاوية يطعم بها الوارد والصادر ويقال ان السلطان صلاح الدين وقف عليها الاوقاف وقيل السلطان نور لدين وكان من الصالحين ويذكر انه كان ينسج الحصر ويقتات بثمنها

— حكاية أبي يعقوب يوسف المذكور —

يحكي انه دخل مدينة دمشق فمرض بها مرضا شديدا واقام مطروحا بالاسواق فلما برىء من مرضه خرج الى ظاهر دمشق ليلتمس بستانا يكون حارساله فاستؤجر لحراسة بستان للملك نور الدين واقام فى حراسته ستة اشهر فلما كان فى اوان الفاكهة أتى السلطان الى ذاك البستان وأمر وكيل البستان أبا يعقوب ان ياتي برمان ياكل منه السلطان فاتاه برمان فوجده حامضا فامره ان ياتي بغيره ففعل ذاك فوجده أيضا حامضا فقال له الوكيل اتكون فى حراسة هذا البستان منذ ستة اشهر ولا تعرف الحلو من الحامض فقال انما استاجرتني على الحراسة لا على الاكل فاتى الوكيل الى الملك فاعلمه بذلك فبعث اليه الملك

وكان قد رأى في المنام انه يجتمع مع أبي يعقوب وتحصل له منه فائدة فتفرس انه هو فقال له أنت أبو يعقوب قال نعم فقام اليه وعانقه وأجلسه الى جانبه ثم احتمله الى مجلسه فاضافه بضيافة من الحلال المكتسب بكد يمينه وأقام عنده أياما ثم خرج من دمشق فاراً بنفسه في أوان البرد الشديد فاتي قرية من قراها وكان بها رجل من الضعفاء فعرض عليه النزول عنده ففعل وصنع له مرقة وذبح دجاجة فاتاه بها وبخبز شعير فاكل من ذلك ودعا للرجل وكان عنده جملة أولاد منهم بنت قد آن بناء زوجها عليها ومن عوائدهم في تلك البلاد ان البنت يجهزها أبوها ويكون معظم الجهاز أواني النحاس وبه يتفاخرون وبه يتبايعون فقال أبو يعقوب للرجل هل عندك شيء من النحاس قال نعم قد اشتريت منه لتجهيز هذه البنت قال ائتني به فاتاه به فقال له استعر من جيرانك ما أمكنك منه ففعل وأحضر ذلك بين يديه فاوقد عليه النيران وأخرج صرة كانت عنده فيها الاكسير فطرح منه على النحاس فعاد كله ذهبا وتركه في بيت مقفل وكتب كتابا الى نور الدين ملك دمشق يعلمه بذلك وينبهه على بناء مارستان للمرضى من الغرباء ويوقف عليه الاوقاف ويبني الزوايا بالطرق ويرضى أصحاب النحاس ويعطي صاحب البيت كفايته وقال له في آخر الكتاب وان كان ابراهيم بن أدهم قد خرج عن ملك خراسان فانا قد خرجت من ملك المغرب وعن هذه الصنعة والسلام وفر من حينه وذهب صاحب البيت بالكتاب الى الملك نور الدين فوصل الملك الى تلك القرية واحتمل الذهب بعد ان أرضى أصحاب النحاس وصاحب البيت وطلب أبا يعقوب فلم يجد له أثرا ولا وقع له على خبر فعاد الى دمشق وبنى المارستان المعروف باسمه الذى ليس في المعمور مثله ـ ثم وصلت الى مدينة طرابلس وهي احدى قواعد الشام وبلدانها الضخام تخترقها الأنهار . وتحفها البساتين والأشجار . ويكنفها البحر بمرافقه العميمه والبر بخيراته المقيمه . ولها الاسواق العجيبة . والمسارح الخصيبة . والبحر على ميلين منها وهي حديثة البناء ـ وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملكها الروم زمانا فلما استرجعها الملك الظاهر خربت واتخذت هذه الحديثة وبهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الاتراك وأميرها طيلان الحاجب المعروف بملك الامراء ومسكنه منها بالدار المعروفة بدار السعادة ومن عوائده ان يركب في كل يوم اثنين وخميس ويركب معه الامراء والعساكر ويخرج الى ظاهر المدينة فاذا عاد اليها وقارب الوصول الى منزله ترجل الامراء ونزلوا عن دوابهم ومشوا بين يديه حتى يدخل منزله وينصرفون وتضرب الطبلخانة عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم وتوقد المشاعل وممن كان بها من الاعلام كاتب السر بهاء

الدين بن غانم احد الفضلاء الحسباء معروف بالسخاء والكرم وأخوه حسام الدين هو شيخ القدس الشريف وقد ذكرناه وأخوهما علاء الدين كاتب السر بدمشق. ومنهم وكيل بيت المال قوام الدين بن مكين من أكابر الرجال . ومنهم قاضي قضاتها شمس الدين بن النقيب من أعلام علماء الشام. وبهذه المدينة حمامات حسان منها حمام القاضي القرمي وحمام سندمور وكان سندمور أمير هذه المدينة ويذكر عنه أخبار كثيرة في الشدة على أهل الجنايات منها ان امرأة شكت اليه بان أحد مماليكه الخواص تعدي عليها في لبن كانت تبيعه فشربه ولم تكن لها بينة فامر به فوسط فخرج اللبن من مصرانه. وقد اتفق مثل هذه الحكاية للعتريس أحد أمراء الملك الناصر أيام إمارته على عيذاب واتفق مثلها للملك كبك سلطان تركستان ـ ثم سافرت من طرابلس الى حصن الاكراد وهو بلد صغير كثير الاشجار والانهار باعلى تل وبه زاوية تعرف بزاوية الابراهيمي نسبة الى بعض كبراء الامراء ونزلت عند قاضيها ولا أحقق الآن اسمه ـ ثم سافرت الى مدينة حمص وهي مدينة مليحة أرجاؤها مونقة وأشجارها مورقة وأنهارها متدفقة واسواقها فسيحة الشوارع وجامعها متميز بالحسن الجامع وفي وسطه بركة ماء وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم وبخارج هذه المدينة قبر خالد ابن الوليد سيف الله ورسوله وعليه زاوية ومسجد وعلى القبر كسوة سوداء وقاضي هذه المدينة جمال الدين الشريشي من أجمل الناس صورة واحسنهم سيرة ثم سافرت منها الى مدينة حماة احدي أمهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة ذات الحسن الرائق والجمال الفائق تحفها البساتين والجنات عليها النواعير كالافلاك الدائرات يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي ولها ربض سمي بالمنصورية اعظم من المدينة فيه الاسواق الحافلة والحمامات الحسان وبحماة الفواكه الكثيرة ومنها المشمش اللوزي اذا كسرت نواته وجدت في داخلها لوزة حلوة قال ابن جزى وفي هذه المدينة ونهرها ونواعيرها وبساتينها يقول الاديب الرحال نور الدين ابو الحسن على بن موسى بن سعيد العنسي العماري الغرناطي نسبة لعمار بن ياسر رضي الله عنه (طويل)

حمى الله من شطي حماة مناظرا * وقفت عليها السمع والفكر والطرفا
تغني حمام أو تميل خمائل * وتزهي مباني تمنع الواصف الوصفا
يلومونني أن أعصى الصون والنهى * وأطيع الكأس واللهو والقصفا
اذا كان فيها النهر عاص فكيف لا * أحاكيه عصيانا وأشربها صرفا
وأشدو لدى تلك النواعر شدوها * وأغلبها رقصاً وأشبهها غرفا

تئن و تذرى دمعها فكأنها * تهيم بمرآها و تسالها العطفا

و لبعضهم فى نواعيرها ذاهبا مذهب التورية (طويل)

وناعورة رقت لعظم خطيئتى * وقد عاينت قصدى من المنزل القاصي

بكت رحمة لى ثم باحت بشجوها * وحسبك ان الخشب تبكى على العاصى

ولبعض المتاخرين فيها أيضاً من التورية (كامل)

ياسادة سكنوا حماة وحقكم * ماحلت عن تقوي وعن اخلاصي

والطرف بعدكم اذا ذكر اللقا * يجري المدامع طائعاً كالعاصي

(رجع)- ثم سافرت الى مدينة المعرة التى ينتسب اليها الشاعر أبو العلاء المعري وكثير سواه من الشعراء قال ابن جزى وانما سميت بمعرة النعمان لان النعمان بن بشير الانصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي له ولد أيام امارته على حمص فدفنه بالمعرة فعرفت به وكانت قبل ذلك تسمي ذات القصور وقيل ان النعمان جبل مطل عليها سميت به (رجع) والمعرة مدينة كبيرة حسنة أكثر شجرها التين والفستق ومنها يحمل الى مصر والشام وبخارجها على فرسخ منها قبر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ولا زاوية عليه ولا خديم له * وسبب ذلك انه وقع فى بلاد صنف من الرافضة ارجاس يبغضون العشرة من الصحابة رضى الله عنهم ولعن مبغضهم ويبغضون كل من اسمه عمر وخصوصا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما كان من فعله فى تعظيم على رضى الله عنه- ثم سرنا منها الى مدينة سرمين وهى حسنة كثيرة البساتين وأكثر شجرها الزيتون وبها يصنع الصابون الاجرى ويجلب الى مصر والشام ويصنع بها أيضا الصابون المطيب لغسل الايدى ويصبغونه بالحمرة والصفرة ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسب اليها وأهلها سبابون يبغضون العشرة ومن العجب أنهم لا يذكرون لفظ العشرة وينادى سماسرتهم بالاسواق على السلع فاذا بلغوا الى العشرة قالوا تسعة وواحد وحضر بها بعض الاتراك يوما فسمع سمسارا ينادى تسعة وواحد فضربه بالدبوس على رأسه وقال قل عشرة بالدبوس وبها مسجد جامع فيه تسع قباب ولم يجعلوها عشرة قياما بمذهبهم القبيح- ثم سرنا الى مدينة حلب المدينة الكبري والقاعدة العظمى قال أبو الحسين بن جبير فى وصفها قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير خطابها من الملوك كثير ومحلها من النفوس أثير فكم هاجت من كفاح وسل عليها من بيض الصفاح لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع فنزهت حصانة من ان ترام أو تستطاع منحوتة الاجزاء موضوعة على نسبة اعتدال واستواء قد طاولت الايام

والاعوام ووسعت الخواص والعوام اين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها في جميعهم ولم يبق إلا بناؤها فيا عجبا لبلاد تبقي ويذهب ملاكها ويهلكون ولا يقضى هلاكها وتخطب بعدهم فلا يتعذر املاكها وترام فيتيسر باهون شيء ادراكها هذه حلب كم ادخلت ملوكها في خبركان ونسخت صرف الزمان بالمكان أنث اسمها فتحلت بحلية الغوان واتت بالعذر فيمن دان وانجلت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان هيهات سيهرم شبابها ويعدم خطابها ويسرع فيها بعد حين خرابها وقلعة حلب تسمى الشهباء وبداخلها جبلان ينبع منهما الماء فلا تخاف الظما ويطيف بها سوران وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء وسورها متداني الابراج وقد انتظمت بها العلالي العجيبة المفتحة الطيقان وكل برج منها مسكون والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد وبها مشهد يقصده بعض الناس يقال ان الخليل عليه السلام كان يتعبد به وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك ابن طوق التي علي الفرات بين الشام والعراق ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب حاصر هذه القلعة اياما ونكص عنها خائباً قال ابن جزي وفي هذه القلعة يقول الخالدي شاعر سيف الدولة

وخرقاء قد قامت على من يرومها * بمرقبها العالي وجانبها الصعب
يجر عليها الجواجيب غمامة * ويلبسها عقداً بانجمه الشهب
اذا ماسرى برق بدت من خلاله * كما لاحت العذراء من خلل السحب
فكم من جنود قد أماتت بغصة * وذي سطوات قد أبانت على عقب

وفيها يقول أيضاً وهو من بديع النظم (بسيط)

وقلعة عانق العنقاء سافلها * وجاز منطقة الجوزاء عاليها
لا تعرف القطر اذ كان الغمام لها * أرضاً توطا قطريه مواشيها
اذا الغمامة راحت غاض ساكنها * حياضها قبل ان تهمى عواليها
يعد من أنجم الافلاك مرقبها * لو انه كان يجري في مجاريها
ردت مكايد أقوام مكايدها * ونصرت لدواهيهم دواهيها

وفيها يقول جمال الدين علي بن أبي المنصور (كامل)

كادت لبون سموها وعلوها * تستوقف الفلك المحيط الدائرا
وردت قواطنها المجرة منهلا * ورعت سوابقها النجوم زواهرا
ويظل صرف الدهر منها خائفا * رجلا فما يمسى اليها حاضرا

(رجع) و يقال فى مدينة حلب حلب ابراهيم لان الخليل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه كان يسكنها وكانت له الغنم الكثيرة فكان يسقي الفقراء والمساكين والواردوالصادر من البانها فكانوا يجتمعون و يسالون حلب ابراهيم فسميت بذلك وهي من أعز البلاد التي لا نظير لها فى حسن الوضع واتقان الترتيب واتساع الاسواق وانتظام بعضها ببعض وأسواقها مسقفة بالخشب فاهلها دائما فى ظل ممدود وقيسار يتها لا تماثل حسنا وكبرا وهي تحيط بمسجدها وكل سماط منها محاذ لباب من أبواب المسجد ومسجدها الجامع من أجمل المساجد فى صحنه بركة ماء و يطيف به بلاط عظيم الاتساع ومنبرها بديع العمل مرصع بالعاج والآبنوس و بقرب جامعها مدرسة مناسبة له فى حسن الوضع واتقان الصنعة ينسب لامراء بني حمدان وبالبلد سواها ثلاث مدارس و بها مارستان وأما خارج المدينة فهو بسيط أفيح عريض به المزارع العظيمة وشجرات الاعناب منتظمة به والبساتين على شاطيء نهرها وهو النهر الذى يمر بحماة و يسمى العاصي وقيل انه سمي بذلك لانه يخيل لناظره انه جريانه من أسفل الى علو والنفس تجد فى خارج مدينة حلب انشراحا وسرورا ونشاطا لا يكون فى سواها وهي من المدن التى تصلح للخلافة قال ابن جزى أطنبت الشعراء فى وصف محاسن حلب وذكر داخلها وخارجها وفيها يقول أبو عبادة البحتري (كامل)

يا برق أسفر عن قويق فطرتي * حلب فاعلى القصر من بطياس
عن منبت الورد المعصفر صبغة * فى كل ضاحية ومجني الآس
أرض اذا استوحشتكم بتذكر * حشدت على فاكثرت ايناسى

وقال فيها الشاعر المجيد أبو بكر الصنوبرى (متقارب)

سقى حلب المزن مغني حلب * فكم وصلت طربا بالطرب
وكم مستطاب من العيش لذ * بها اذ بها العيش لم يستطب
اذا نشر الزهر أعلامه * بها ومطارفه والعذب
غدا وحواشيه من فضة * تروق وأوساطه من ذهب

وقال فيها أبو العلاء المعرى (خفيف)

حلب للورّاد جنة عدن * وهي للغادرين نار سعير
والعظيم العظيم يكبر فى عيـ * ـنيه منها قدر الصغير الصغير
فقويق فى أنفس القوم بحر * وحصاة منه مكان ثبير

وقال فيها أبو الفتيان بن جبوس

ياصاحبي اذا أعيا كاسقمى * فلقياني نسيم الريح من حلب
من البلاد التي كان الصبا سكننا * فيها وكان الهوا العذرى من أربى

وقال فيها أبو الفتح كشاجم (متقارب)

وما أمتعت جارها بلدة * كما أمتعت حلب جارها
بها قد تجمع ماتشتهى * فزرها فطوبى لمن زارها

وقال فيها أبو الحسن على بن موسى بن سعيد الغرناطي العنسى (خفيف)

حادى العيس كم تنيخ المطايا * سق بروحى من بعدهم فى سياق
حلب انها مقر غرامى * ومرامى وقبلة الاشواق
لك خلاجوشن وبطياس والعبد * ومن كل وابل غيداق
كم بها مرتع لطرف وقلب * فيه سق المنى بكاس دهاق
وتغنى طيورها لارتياح * وتثنى غصونها للعناق
وعلوا الشهباء حيث استدارت * أنجم الافق حولها كالنطاق

(رجع) و بحلب ملك الامراء أرغون الدوادار أكبر أمراء الملك الناصر وهو من الفقهاء موصوف بالعدل لكنه بخيل والقضاة بحلب أربعة للمذاهب الاربعة فمنهم القاضي كمال الدين بن الزملكانى شافعي المذهب عالى الهمة كبير القدر كريم النفس حسن الاخلاق متفنن بالعلوم وكان الملك الناصر قد بعث اليه ليوليه قضاء القضاة بحضرة ملكه فلم يقض له ذلك وتوفى ببلبيس وهو متوجه اليها ولما ولي قضاء حلب قصدته الشعراء من دمشق وسواها وكان فيمن قصده شاعر الشام شهاب الدين أبو بكر محمد ابن الشيخ المحدث شمس الدين أبي عبد الله محمد بن نباتة القرشي الاموي الفارقى فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة اولها (كامل)

اسفت لفقدك جلق الفيحاء * وتباشرت لقدومك الشهباء
وعلا دمشق وقدرحلت كآبة * وعلا ربا حلب سنا وسناء
قد اشرقت دار سكنت فناءها * حتى غدت ولنورها لألاء
ياسائرا سبق المكارم والعلي * ممن يبخل عنده الكرماء
هذا كمال الدين لذ بجنابه * تنعم فثم الفضل والنعماء
قاضى القضاة اجل من ايامه * تغنى بها الايتام والفقراء
قاض زكا اصلا وفرعا فاعتلى * شرفت به الآباء والابناء
من الاله علي بنى حلب به * لله وضع الفضل حيث يشاء

كشف المعمي فهمه و بيانه * فكأنما ذاك الذكاء ذكاء
ياحاكم الحكام قدرك سابق * عن ان تسرك رتبة شماء
ان المناصب دون همتك التى * فى الفضل دون محلها الجوزاء
لك فى العلوم فضائل مشهورة * كالصبح شق له الظلام ضياء
ومناقب شهد العدو بفضلها * والفضل ماشهدت به الاعداء

وهي أزيد من خمسين بيتا وأجازه عليها بكسوة ودراهم وانتقد عليه الشعراء ابتداءه بلفظ أسفت قال ابن جزي وليس كلامه فى هذه القصيدة بذاك وهو فى المقطعات أجود منه فى القصائد واليه انتهت الرياسة فى الشعر على هذا العهد فى جميع بلاد المشرق وهو من ذرية الخطيب أبى يحيي عبد الرحيم بن نباتة منشى الخطب الشهيرة ومن بديع مقطعاته فى التورية قوله — كامل —

علقتها غيداء حالية العلى * تجنى على عقل المحب وقلبه
بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم * فغدت مطوقة بما بخلت به

(رجع) ومن قضاة حلب قاضى قضاة الحنفية الامام المدرس ناصر الدين بن العديم حسن الصورة والسيرة أصيل مدينة حلب — كامل —

تراه اذا ماجئته متهللا * كانك تعطيه الذي أنت سائله

ومنهم قاضي قضاة المالكية لاأذكره كان من الموثقين بمصر وأخذ الخطة عن غير استحقاق ومنهم قاضى قضاة الحنابلة لاأذكر اسمه وهو من أهل صالحية دمشق ونقيب الاشراف بحلب بدر الدين بن الزهراء ومن فقهائها شرف الدين بن العجمي وأقاربه هم كبراء مدينة حلب ـ ثم سافرت منها الى مدينة تيزين وهي على طريق قنسرين (وضبط اسمها بتاء معلوة مكسورة وياء مد وزاى مكسورة وياء مد ثانية ونون) وهى حديثة اتخذها التركمان وأسواقها حسان ومساجدها فى نهاية من الاتقان وقاضيها بدر الدين العسقلاني وكانت مدينة قنسرين قديمة كبيرة ثم خربت ولم يبق الا رسومها ثم سافرت الى مدينة انطاكية وهى مدينة عظيمة أصلية وكان عليها سور محكم لانظير له فى أسوار بلاد الشام فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها وانطاكية كثيرة العمارة ودورها حسنة البناء كثيرة الاشجار والمياه وبخارجها نهر العاصى وبها قبر حبيب النجار رضى الله عنه وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر شيخها الصالح المعمر محمد بن على سنه ينيف على المائة وهو ممتع بقوته دخلت عليه مرة فى بستان له وقد جمع حطبا ورفعه على كاهله ليأتى به منزله بالمدينة

ورأيت ابنه قد أناف على الثمانين الا انه محدودب الظهر لا يستطيع النهوض ومن يراهما يظن الوالد منهما ولدا والولد والدا ثم سافرت الى حصن بغراس (وضبط اسمه بباء موحدة مضمومة وغين معجمة مسكنة وراء وآخره سين مهمل) وهو حصن منيع لا يرام عليه البساتين والمزارع ومنه يدخل الى بلاد سيس وهي بلاد كفار الارمن وهم رعية الملك الناصر يؤدون اليه مالا ودراهمهم فضة خالصة تعرف بالبغلية وبها تصنع الثياب الدبزية وأمير هذا الحصن صارم الدين بن الشيباني وله ولد فاضل اسمه علاء الدين وابن أخ اسمه حسام الدين فاضل كريم يسكن الموضع المعروف بالرصص (بضم الراء والصاد المهمل الاول) ويحفظ الطريق الى بلاد الارمن

— حكاية —

شكا الارمن مرة الى الملك الناصر من الامير حسام الدين وزوروا عليه أمورا لا تليق فنفذ أمره لامير الامراء بحلب ان يخنقه فلما توجه الامير بلغ ذلك صديقا له من كبار الامراء فدخل على الملك الناصر وقال يا خوندان الامير حسام الدين هو من خيار الامراء ينصح المسلمين ويحفظ الطريق وهو من الشجعان والارمن يريدون الفساد فى بلاد المسلمين فيمنعهم ويقهرهم وانما أرادوا اضعاف شوكة المسلمين بقتله ولم يزل به حتى أنفذ أمرا ثانيا بسراحه والخلع عليه ورده لموضعه ودعا الملك الناصر بريديا يعرف بالافوش وكان لا يبعث الا فى مهم أمره بالاسراع والجد فى السير فسار من مصر الى حلب فى خمس وهى مسيرة شهر فوجد امير حلب قد أحضر حسام الدين وأخرجه الى الموضع الذى يخنق به الناس فخلصه الله تعالى وعاد الى موضعه ولقيت هذا الامير ومعه قاضى بغراس شرف الدين الحموي بموضع يقال له العمق متوسط بين انطاكية وتيزين و بغراس ينزله التركمان بمواشيهم لخصبه وسعته ثم سافرت الى حصن القصير تصغير قصر وهو حصن حسن أميره علاء الدين الكردى وقاضيه شهاب الدين الارمنتى من أهل الديار المصرية ــ ثم سافرت الى حصن الشغر بكاس (وضبط اسمه بضم الشين المعجم واسكان الغين المعجم وضم الراء والباء الموحدة وآخره سين مهملة) وهو منيع فى رأس شاهق اميره سيف الدين الطنطاش فاضل وقاضيه جمال الدين بن شجرة من أصحاب ابن تيمية ــ ثم سافرت الى مدينة صهيون وهى مدينة حسنة بها الانهار المطردة والاشجار المورقة ولها قلعة جيدة واميرها يعرف بالابراهيمي وقاضيها محيي الدين الحمصي وبخارجها زاوية فى وسط بستان فيها الطعام للوارد والصادر وهي على قبر الصالح العابد عيسى البدوى رحمه الله وقد زرت قبره ثم سافرت منها فمررت بحصن القدموس (وضبط اسمه بفتح القاف واسكان الدال المهمل

وضم الميم وآخره سين مهمل) ثم بحصن المينقة (وضبط اسمه بفتح الميم واسكان الياء وفتح النون والقاف) ثم بحصن العليقة واسمه على لفظ واحدة العليق ثم بحصن مصياف (وصاده مهملة) ثم بحصن الكهف وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الاسماعيلية ويقال لهم الفداوية ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عنه من اعدائه بالعراق وغيرها ولهم المرتبات واذا أراد السلطان ان يبعث احدهم الى اغتيال عدوله أعطاه ديته فان سلم بعد تأتى مايراده منه فهى له وان أصيب فهى لولده ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا الى قتله وربما لم تصح حيلهم فقتلوا كما جرى لهم مع الامير قراسنقور فانه لما هرب الى العراق بعث اليه الملك الناصر جملة منهم فقتلوا ولم يقدروا عليه لاخذه بالحزم

— حكاية —

كان قراسنقور من كبار الامراء وممن حضر قتل الملك الاشرف أخى الملك الناصر وشارك فيه ولما تمهد الملك للملك الناصر وقر به القرار واشتدت أواخى سلطانه جعل يتتبع قتلة اخيه فيقتلهم واحدا واحدا اظهارا للاخذ بثار أخيه وخوفا أن يتجاسروا عليه بما تجاسروا علي أخيه وكان قراسنقور أمير الامراء بحلب فكتب الملك الناصر الى جميع الامراء أن ينفروا بعساكرهم وجعل لهم ميعاداً يكون فيه اجتماعهم بحلب ونزولهم عليها حتي يقبضوا عليه فلما فعلوا ذلك خاف قراسنقور على نفسه وكان له ثمانمائة مملوك فركب فيهم وخرج على العساكر صباحا فاخترقهم وأعجزهم سبقا وكانوا في عشرين ألفاً وقصد منزل أمير العرب مهنا بن عيسى وهو على مسيرة يومين من حلب وكان مهنا فى قنص له فقصد بيته ونزل عن فرسه وألقي العمامة في عنق نفسه ونادي الجوار ياأمير العرب وكانت هنالك أم الفضل زوج مهنا وبنت عمه فقالت له قد اجرناك وأجرنا من معك فقال انما أطلب اولادى ومالى فقالت له لك ماتحب فانزل فى جوارنا ففعل ذلك واتي مهنا فاحسن نزله وحكمه فى ماله فقال انما احب اهلى ومالى الذى تركته بحلب فدعا مهنا باخوته وبنى عمه فشاورهم فى امره فمنهم من اجابه الى ماأراد ومنهم من قال له كيف نحارب الملك الناصر ونحن فى بلاده بالشام فقال لهم مهنا أما انا فافعل لهذا الرجل مايريده وأذهب معه الى سلطان العراق وفى أثناء ذلك ورد عليهم الخبر بان أولاد قراسنقور سيروا على البريد الى مصر فقال مهنا لقراسنقور أما اولادك فلا حيلة فيهم واما مالك فنجتهد فى خلاصه فركب فيمن أطاعه من اهله واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفا وقصدوا حلب فاحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها واستخلصوا منها مال قراسنقور ومن بقى من أهله ولم

يتعدوا الى سوى ذلك وقصدوا ملك العراق وصحبهم أمير حمص الافرم ووصلوا الى الملك محمد خدابنده سلطان العراق وهو بموضع مصيفه المسمي قراباغ (بفتح القاف والراء والباء الموحدة والغين المعجمة) وهو ما بين السلطانية وتبريز فأكرم نزلهم وأعطى مهنا عراق العرب وأعطي قراسنقور مدينة مراغة من عراق العجم وتسمى دمشق الصغيرة وأعطى الافرم همدان وأقاموا عنده مدة مات فيها الافرم وعاد مهنا الى الملك الناصر بعد مواثيق وعهود أخذها منه وبقي قراسنقور على حاله وكان الملك الناصر يبعث له الفداوية مرة بعد مرة فمنهم من يدخل عليه داره فيقتل دونه ومنهم من يرمي بنفسه عليه وهو راكب فيضربه ويقتل بسببه من الفداوية جماعة وكان لا يفارق الدرع أبدا ولا ينام الا في بيت العود والحديد فلما مات السلطان محمد وولى ابنه ابو سعيد وقع ما سنذكره من امر الجوبان كبير امرائه وفرار ولده الدمرطاش الى الملك الناصر ووقعت المراسلة بين الملك الناصر وبين ابي سعيد واتفقا على ان يبعث ابو سعيد الى الملك الناصر برأس قراسنقور ويبعث اليه الملك الناصر برأس الدمرطاش فبعث الملك الناصر برأس الدمرطاش الى ابي سعيد فلما وصله امر بحمل قراسنقور اليه فلما عرف قراسنقور بذلك اخذ خاتما كان له مجوفا في داخله سم ناقع فنزع فصه وامتص ذلك السم فمات لحينه فعرف ابو سعيد بذلك الملك الناصر ولم يبعث له برأسه ثم سافرت من حصون الفداوية الى مدينة جبلة وهي ذات انهار مطردة واشجار والبحر على نحو ميل منها وبها قبر الولي الصالح الشهير ابراهيم بن ادهم رضي الله عنه وهو الذي نبذ الملك وانقطع الى الله تعالى حسبما شهر ذلك ولم يكن ابراهيم من بيت ملك كما يظنه الناس انما ورث الملك عن جده أبي أمه وأما أبوه أدهم فكان من الفقراء الصالحين السائحين المتعبدين الورعين المنقطعين

— حكاية أدهم —

يذكر انه مر ذات يوم ببساتين مدينة بخارى وتوضأ من بعض الانهار التي تتخللها فاذا بتفاحة يحملها ماء النهر فقال هذه لا خطر لها فأكلها ثم وقع في خاطره من ذلك وسواس فعزم على ان يستحل من صاحب البستان فقرع باب البستان فخرجت اليه جارية فقال لها ادعي لي صاحب المنزل فقالت انه لامرأة فقال استأذني لي عليها ففعلت فاخبر المرأة بخبر التفاحة فقالت له ان هذا البستان نصفه لي ونصفه للسلطان والسلطان يومئذ ببلخ وهي مسيرة عشرة من بخاري وأحلته المرأة من نصفها وذهب الى بلخ فاعترض السلطان في موكبه فاخبره الخبر واستحله فامره ان يعود اليه من الغد وكان للسلطان بنت بارعة الجمال قد

خطبها ابناء الملوك فتمنعت وحببت اليها العبادة وحب الصالحين وهي تحب أن تتزوج من ورع زاهد في الدنيا فلما عاد السلطان إلى منزله أخبر بنته بخبر أدهم وقال ما رأيت أورع من هذا ياتي من بخارى الى بلخ لاجل نصف تفاحة فرغبت في تزوجه فلما أتاه من الغد قال لا أحلك إلا أن تتزوج ببنتي فانقاد لذلك بعد استعصاء وتمنع فتزوج منها فلما دخل عليها وجدها متزينة والبيت مزين بالفرش وسواها فعمد الى ناحية من البيت وأقبل على صلاته حتي أصبح ولم يزل كذلك سبع ليال وكان السلطان ما أحله قبل فبعث اليه أن يحله فقال لا أحلك حتي يقع اجتماعك بزوجتك فلما كان الليل واقعها ثم اغتسل وقام الى الصلاة فصاح صيحة وسجد في مصلاه فوجد ميتا رحمه الله وحملت منه فولدت ابراهيم ولم يكن لجده ولد فاسند الملك اليه وكان من تخليه عن الملك ما اشتهر وعلى قبر ابراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء وبها الطعام للصادر والوارد وخادمها ابراهيم الجمحى من كبار الصالحين والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام ويقيمون بها ثلاثا ويقوم بها خارج المدينة سوق عظيم فيه من كل شيء ويقدم الفقراء المتجردون من الآفاق بحضور هذا الموسم وكل من ياتي من الزوار لهذه التربة يعطي لخادمها شمعة فيجتمع من ذلك قناطير كثيرة وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية الذين يعتقدون أن على بن أبي طالب إله وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون وكان الملك الظاهر ألزمهم بناء المساجد بقراهم فبنوا بكل قرية مسجدا بعيدا عن العمارة ولا يدخلونه ولا يعمرونه وربما آوت اليه مواشيهم ودوابهم وربما وصل الغريب اليهم فينزل بالمسجد ويؤذن للصلاة فيقولون له لا تنهق علفك ياتيك وعددهم كثير

— حكاية —

ذكر لي أن رجلا مجهولا وقع ببلاد هذه الطائفة فادعى الهداية وتكاثروا عليه فوعدهم بتملك البلاد وقسم بينهم بلاد الشام وكان يعين لهم البلاد ويامرهم بالخروج اليها ويعطيهم من ورق الزيتون ويقول لهم استظهروا بها فانها كالاوامر لكم فاذا خرج احدهم إلى بلد أحضره أميرها فيقول له إن الامام المهدى أعطاني هذا البلد فيقول له أين الامر فيخرج ورق الزيتون فيضرب ويحبس ثم إنه أمرهم بالتجهيز لقتال المسلمين وان يبدأوا بمدينة جبلة وأمرهم ان ياخذوا عوض السيوف قضبان الآس ووعدهم أنها تصير في أيديهم سيوفا عند القتال فغدروا مدينة جبلة وأهلها في صلاة الجمعة فدخلوا الدور وهتكوا الحريم وثار المسلمون من مسجدهم فاخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاؤوا واتصل الخبر باللاذقية فاقبل أميرها بهادر عبد الله بعسكره وطيرت الحمام إلى طرابلس فاتي أمير الامراء

بعساكره وأتبعوهم حتي قتلوا منهم نحـو عشرين الفا وتحصن الباقون بالجبال وراسلوا ملك الامراء والتزموا ان يعطوه دينارا عن كل رأس انهو حاول ابقاءهم وكان الخبر قد طير به الحمام الى الملك الناصر وصدر جوابه ان يحمل عليهم السيف فراجعـه ملك الامراء وألقى له انهم عمال المسلمين فى حراثة الارض وانهم ان قتلوا ضعف المسلمـون لذلك فامر بالابقاء عليهم ـ ثم سافرت الى مدينة اللاذقية وهى مدينة عتيقة على ساحل البحر يزعمون انها مدينه الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا وكنت انما قصدتها لزيارة الولى الصالح عبد المحسن الاسكندرى فلما وصلتها وجدته غائبا بالحجاز الشريف فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيد البجائى ويحيي السلاوي وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء أحد فضلاء الشام وكبرائها صاحب الصدقات والمكارم وكان قد عمر لهما زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر وقاضيها الفقيه الفاضل جلال الدين عبد الحق المصرى المالكي فاضل كريم تعلق بطيلان ملك الامراء فولاه قضاءها

— حكاية —

كان باللاذقية رجـل يعرف بابن المؤيد هجاء لا يسلم أحـد من لسانه متهم فى دينـه مستخف يتكلم بالقبائح من الالحاد فعرضت له حاجة عند طيـلان ملك الامراء فلم يقضها له فقصد مصر وتقول عليه أمورا شنيعة وعاد الى اللاذقية فكتب طيلان الى القاضى جلال الدين ان يتحيل فى قتله بوجه شرعى فدعاه القـاضى الى منزله وباحثه واستخرج كامن الحاده فتكلم بعظائم أيسرها يوجب القتل وقد اعد القاضى الشهود خلف الحجاب فكتبوا عقدا بمقاله وثبت عند القاضي وسجن واعلم ملك الامراء بقضيته ثم اخرج من السجن وخنق على بابه ثم لم يلبث ملك الامراء طيلان ان عزل عن طرابلس ووليها الحاج قرطية من كبار الامراء وممن تقدمت له فيها الولاية وبينه وبين طيلان عداوة فجعل يتبع سقطاته وقام لديه اخوة ابن المؤيد شاكين من القاضى جلال الدين فامر به وبالشهود الذين شهدوا على ابن المؤيد فاحضروا وامر بخنقهم وأخرجوا الى ظاهر المدينة حيث يخنق الناس واجلس كل واحد منهم تحت مخنقه ونزعت عمائمهم ومن عادة امراء تلك البلاد انه متي امر احدهم بقتل احد من الناس يمر الحاكم من مجلس الامـير سبقا عـلي فرسه الى حيث المامور بقتله ثم يعود الى الامير فيكرر استئذانه يفعل ذلك ثلاثا فاذا كان بعد الثلاث انفذ الامر فلما فعل الحاكم ذلك قامت الامراء فى المرة الثالثة وكشفوا رؤسهم وقالوا ايها الامير هذه سبة فى الاسلام يقتل القاضى والشهود فقبل الامير شفاعتهن وخـلى سبيلهم

وبخارج اللاذقيـة الدير المعروف بدير الفاروص وهو أعظم دير بالشام ومصر يسكنه الرهبان ويقصده النصارى من الآفاق وكل من نزل به من المسلمين فالنصاري يضيفونه وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل والكبر وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين لا يدخلها أحد ولا يخرج منها حتي تحط له السلسلة وهي من أحسن المراسى بالشام — ثم سافرت الى حسن المرقب وهو من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك ومبناه على جبل شامخ وخارجه ربض ينزله الغرباء ولا يدخلون قلعته وافتتحه من أيدى الروم الملك المنصور قلاوون وعليه ولد ابنه الملك الناصر وكان قاضيه برهان الدين المصرى من أفاضل القضاة وكرمائهم ثم سافرت الى الجبل الاقرع وهو أعلى جبل بالشام وأول ما يظهر منها من البحر وسكانه التركمان وفيه العيون والانهار وسافرت منه الى جبل لبنان وهو من أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوافرة ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى والزهاد والصالحين وهو شهير بذلك ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه

— حكاية —

أخبرني بعض الصالحين الذين لقيتهم به قال كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء أيام البرد الشديد فاوقدنا نارا عظيمة وأحدقنا بها فقال بعض الحاضرين يصلح لهذه النار ما يشوى فيها فقال أحد الفقراء ممن تزدريه الاعين ولا يعبأ به إني كنت عند صلاة العصر بمتعبد ابراهيم بن ادهم فرأيت بمقربة منه حمار وحش قد أحدق الثلج به من كل جانب وأظنه لا يقدر على الحراك فلو ذهبتم اليه لقدرتم عليه وشويتم لحمه فى هذه النار قال فقمنا اليه في خمسة رجال فلقيناه كما وصف الينا فقبضناه واتينا به أصحابنا وذبحناه واشوينا لحمه فى تلك النار وطلبنا الفقير الذى نبه عليه فلم نجده ولا وقعنا له على أثر فطال عجبنا منه ثم وصلنا من جبل لبنان الى مدينة بعلبك وهى حسنة قديمة من أطيب مدن الشام تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيفة وتخترق ارضها الانهار الجارية وتضاهى دمشق فى خيراتها المتناهية وبها من حب الملوك ما ليس فى سواها وبها يصنع الدبس المنسوب اليها وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد وتكسر القلة التى يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالملبن ويسمونها أيضا بجلد الفرس وهى كثيرة الالبان وتجلب منها الى دمشق وبينهما مسيرة يوم للمجد وأما الرفاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزبداني كثيرة الفواكه ويغدون منها الى دمشق ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة اليها من الاحرام وغيره ويصنع

بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد وهم يسمون الصحاف بالدسوت وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع في جوفها وأخرى في جوفها الى أن يبلغوا العشرة يخيل لرائيها انها صحفة واحدة وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرة واحدة في جوف واحدة ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل في حزامه واذا حضر طعاما مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه انها ملعقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسعة. وكان دخولي ابعلبك عشية النهار وخرجت منها بالغدو لفرط اشتياقي الى دمشق ووصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين الى مدينة دمشق الشام فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسنا وتتقدمها جمالا وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها ولا ابدع مما قاله ابو الحسين بن جبير رحمه الله تعالى في ذكرها قال وأما دمشق فهي جنة المشرق . ومطلع نورها المشرق . وخاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها . وعروس المدن التي اجتليناها . قد تحلت بازاهير الرياحين . وتجلت في حلل سندسية من البساتين . وحلت : موضع الحسن بالمكان المكين . وتزينت في منصتها أجمل تزيين . وتشرفت بان آوي المسيح عليه السلام وأمه منها الى ربوة ذات قرار ومعين . ظل ظليل : وماء سلسبيل ، تنساب مذانبه انسياب الاراقم بكل سبيل . ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل : تتبرج لناظريها بمجتلي صقيل . وتناديهم هلموا الى معرس للحسن ومقيل . وقد سئمت ارضها كثرة الماء . حتي اشتاقت الى الظماء . فتكاد تناديك بها الصم الصلاب . أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . وقد أحدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر . والاكمام بالثمر . وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر . وكل موضع لحظت بجهاتها الاربع نضرته اليانعة قيد البصر . ولله صدق القائلين عنها . ان كانت الجنة في الارض فدمشق لاشك فيها . وان كانت في السماء فهي تساميها وتحاذيها . قال ابن جزى وقد نظم بعض شعرائها في هذا المعنى فقال (خفيف)

ان تكن جنة الخلود بارض * فدمشق ولا تكون سواها
أو تكن في السماء فهي عليها * قد أبدت هواءها وهواها
بلد طيب ورب غفور * فاغتنمها عشية وضحاها

وذكرها شيخنا المحدث الرحال شمس الدين ابو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسي الوادي أشي نزيل تونس ونص كلام ابن جبير ثم قال ولقد أحسن فيما وصف

منها وأجاد . وتوق الانفس للتطلع على صورتها بما أفاد . هذا وان لم تكن له بها اقامة . فيعرب عنها بحقيقة علامة . ولا وصف ذهبيات أصيلها . وقد حان من الشمس غروبها ولا ازمان جفو لها المنوعات . ولا أوقات سرورها المنبهات . وقد اختص من قال . الفيتها كما تصف الألسن . وفيها ماتشتهيه الانفس وتلذ الاعين . قال ابن جزي والذى قالته الشعراء فى وصف محاسن دمشق لايحصر كثرة وكان والدى رحمه الله كثيرا ماينشد فى وصفها هذه الابيات وهى لشرف الدين بن محسن رحمه الله تعالى (طويل)

دمشق بنا شوق اليها مبرح * وان لج واش أو ألح عذول
بلاد بها الحصباء در وتربها * عبير وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق * وصح نسيم الروض وهو عليل

وهذا من النمط العالى من الشعر وقال فيها عرقلة الدمشقى الكلبي (كامل)

الشام شامة وجنة الدنيا كما * انسان مقلتها الغضيضة جاق
من آسها لك جنة لاتنقضى * ومن الشقيق جهنم لاتحرق

وقال أيضا فيها

أما دمشق فجنات معجلة * للطالبين بها الولدان والحور
ماصاح فيها على أوتاره قمر * الا يغنيه قمرى وشحرور
ياحبذا ودروع الماء تنسجها * أنامل الريح الا أنها زور

وله فيها أشعار كثيرة سوى ذلك وقال فيها أبوالوحش سبع بن خلف الاسدي (رجز)

سقي دمشق الله غيثا محسنا * من مستهل ديمة دهاقها
مدينة ليس يضاهى حسنها * فى سائر الدنيا ولا آفاقها
تود زوراء العراق انها * منها ولا تعزى الى عراقها
فارضها مثل السماء بهجة * وزهرها كالزهر فى أشراقها
نسيم روضها متي ماقد سري * فك أخا الهموم من وثاقها
قد رتع الربيع فى ربوعها * وسيقت الدنيا الى أسواقها
لاتسام العيون والانوف من * رؤيتها يوما ولا استنشاقها

ومما يناسب هذا القاضى الفاضل عبد الرحمن البيسانى فيها من قصيدة وقد نسبت أيضا لابن المنير (كامل)

يابرق هل لك فى احتمال تحية * عذبت فصارت مثل مائك سلسلا

باكر دمشق بمشق الحيا * زهر الرياض مرصعا ومكللا
واجرر بجيرون ذيولك واختصص * مغنى تازر بالعلا وتسربلا
حيث الحيا الربعي محلول الحبا * والوابل الربعي مفرى الكلا

وقال فيها أبو الحسن علي بن موسى بن سعد العنسي الغرناطي المدعو نور الدين (بسيط)

دمشق منزلنا حيث النعيم بدا * مكملا وهو في الآفاق مختصر
القصب راقصة والطير صادحة * والزهر مرتفع والماء منحدر
وقد تجلت من اللذات أوجهها * لكنها بظلال الدوح تستتر
وكل واد به موسى يفجره * وكل روض على حافاته الخضر

وقال ايضا فيها

خيم بجلق بين الكأس والوتر * في جنة هي ملء السمع والبصر
ومتع الطرف في مرأى محاسنه * وروض الفكر بين الروض والنهر
وانظر الى ذهبيات الاصيل بها * واسمع الى نغمات الطير في الشجر
وقل لمن لام في لذاته بشرا * دعني فانك عندي من سوقة البشر

وقال فيها ايضا (كامل)

اما دمشق فجنة * ينسى بها الوطن الغريب
لله ايام السبوت * بها ومنظرها العجيب
انظر بعينك هل ترى * الا محبا اوحبيب
في موطن غني الحمام * به على رقص القضيب
وغدت ازاهر روضه * تختال في فرح وطيب

واهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملا انما يخرجون الى المنتزهات وشطوط الانهار ودوحات الاشجار بين البساتين النضرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم الى الليل وقد طال بنا الكلام في محاسن دمشق فلنرجع الى كلام الشيخ ابي عبد الله

ـــ ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بني امية ـــ

وهو اعظم مساجد الدنيا احتفالا واتقنها صناعة وابدعها حسنا وبهجة وكمالا ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه وكان الذى تولى بناءه واتقانه امير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ووجه الى ملك الروم بقسطنطينية يامره ان يبعث اليه الصناع فبعث اليه اثني عشر الف صانع وكان موضع المسجد كنيسة فلما افتتح المسلمون دمشق دخل خالد بن الوليد

رضي الله عنه من احدي جهاتها بالسيف فانتهى الى نصف الكنيسة ودخل أبو عبيدة بن
الجراح رضي الله عنه من الجهة الغربية صلحا فانتهى الى نصف الكنيسة فصنع المسلمون
من نصف الكنيسة الذى دخلوه عنوة مسجداً وبقي النصف الذى صالحوا عليه كنيسة
فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة فى المسجد طلب من الروم ان يبيعوا منه كنيستهم
تلك بما شاؤا من عوض فابوا عليه فانتزعها من أيديهم وكانوا يزعمون أن الذي يهدمها يجن
فذكروا ذلك للوليد فقال انا اول من يجن فى سبيل الله وأخذ الفأس وجعل يهدم
بنفسه فلما رآى المسلمون ذلك تتابعوا على الهدم واكذب الله زعم الروم وزين هذا
المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تخالطها أنواع الاصبغة الغريبة الحسن وذرع
المسجد فى الطول من الشرق الى الغرب مائتا خطوة وهي ثلاثمائة ذراع وعرضه من
القبلة الى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة وهي مائتا ذراع وعدد شمسات الزجاج
الملونة التي فيه أربع وسبعون وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق الى غرب سعة كل بلاط
منها ثمان عشرة خطوة وقد قامت على أربع وخمسين سارية وثماني ارجل حصية تتخللها
وست ارجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون قد صور فيها اشكال محاريب وسواها وهي
تقل قبة الرصاص التي امام المحراب المسماة بقبة النسر كانهم شبهوا المسجد نسرا طائرا
والقبة رأسه وهي من أعجب مباني الدنيا ومن أى جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة
النسر ذاهبة فى الهواء منيفة على جميع مباني البلد وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته
الشرقية والغربية والجوفية سعة كل بلاط منها عشر خطا وبها من السواري ثلاث وثلاثون
ومن الارجل أربع عشرة وسعة الصحن مائة ذراع وهو من أجمل المناظر وأتمها حسنا
وبها يجتمع أهل المدينة بالعشايا فمن قارئ ومحدث وذاهب ويكون انصرافهم بعد العشاء
الاخيرة واذا لقي أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحبا له اسرع كل منهما نحو صاحبه
وحط رأسه وفى هذا الصحن ثلاث من القباب احداها فى غربيه وهى اكبرها وتسمى
قبة عائشة أم المؤمنين وهى قائمة على ثمان سوار من الرخام مزخرفة بالفصوص والاصبغة
الملونة مسقفة بالرصاص يقال ان مال الجامع كان يختزن بها وذكر لى أن فوائد مستغلات
الجامع وجبايته نحو خمسة وعشرين الف دينار ذهبا فى كل سنة والقبة الثانية من شرقى
الصحن على هيئة الاخري الا انها اصغر منها قائمة على ثمان من سوارى الرخام وتسمي
قبة زين العابدين والقبة الثالثة فى وسط الصحن وهي صغيرة مثمنة من رخام عجيب محكم
الالصاق قائمة على أربع سوارى من الرخام الناصع وتحتها شباك حديد فى وسطه أنبوب

نحاس يمج الماء الى علو فيرتفع ثم ينثني كانه قضيب لجين وهم يسمونهم قفص الماء ويستحسن الناس وضع افواههم فيه للشرب وفي الجانب الشرقي من الصحن باب يفضي الى مسجد بديع الوضع يسمى مشهد على بن أبي طالب رضي الله عنه ويقابله من الجهة الغربية حيث يلتقي البلاطان الغربي والجوفي موضع يقال ان عائشة رضي الله عنها سمعت الحديث هنالك وفي قبلة المسجد المقصورة العظمى التي يؤم فيها امام الشافعية وفي الركن الشرقي منها ازاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه الى الشام وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم وهنالك يحلف الناس غرماءهم ومن ادعوا عليه شيئاً وعن يسار المقصورة محراب الصحابة ويذكر اهل التاريخ انه اول محراب وضع في الاسلام وفيه يؤم امام المالكية وعن يمين المقصورة محراب الحنفية وفيه يؤم امامهم ويليه محراب الحنابلة وفيه يؤم امامهم ولهذا المسجد ثلاث صوامع احداها بشرقيه وهي من بناء الروم وبابها داخل المسجد وباسفلها مطهرة وبيوت للوضوء يغتسل فيها المعتكفون والملتزمون للمسجد ويتوضؤن والصومعة الثانية بغربيه وهي أيضاً من بناء الروم والصومعة الثالثة بشماله وهي من بناء المسلمين وعدد المؤذنين به سبعون مؤذنا وفي شرقي المسجد مقصورة كبيرة فيها صهريج ماء وهي لطائفة الزيالعة السودان وفي وسط المسجد قبر زكريا عليه السلام وعليه تابوت معترض بين اسطوانتين مكسو بثوب حرير اسود معلم فيه مكتوب بالابيض (يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى) وهذا المسجد شهير الفضل وقرأت في فضائل دمشق عن سفيان الثوري ان الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة وفي الاثر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يعبد الله فيه بعد خراب الدنيا اربعين سنة ويقال ان الجدار القبلي منه وضعه نبي الله هود عليه السلام وان قبره به وقد رأيت على مقربة من مدينة ظفار اليمن بموضع يقال له الاحقاف بنية فيها قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر صلى الله عليه وسلم ومن فضائل هذا المسجد انه لايخلو عن قراءة القرآن والصلاة الا قليلا من الزمان كما سنذكره والناس يجتمعون به كل يوم اثر صلاة الصبح فيقرأون سبعا من القرآن ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمي الكوثرية يقرأون فيها من سورة الكوثر الى آخر القرآن وللمجتمعين على هذه القراءة مرتبات تجري لهم وهم نحو ستمائة انسان ويدور عليهم كاتب الغيبة فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته وفي هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لايخرجون منه مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يفترون

عن ذلك ويتوضؤن من المطاهر التي بداخل الصومعة الشرقية التي ذكرناها وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسالوهم شيئاً من ذلك وفي هـذا المسجد أربعة أبواب باب قبلي يعرف بباب الزيادة وباعلاه قطعة من الرمح الذي كانت فيه راية خالد بن الوليد رضى الله عنه ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم ومنه يذهب الى دار الخيل وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين وهي سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي من احسن اسواق دمشق وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه ودور قومه وكانت تسمي الخضراء فهدمها بنو العباس رضي الله عنهم وصار مكانها سوقا وباب شرقى وهو أعظم ابواب المسجد ويسمى بباب جيرون وله دهليز عظيم يخرج منه الى بلاط عظيم طويل امامه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طوال وفي جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين رضي الله عنه وبازائه مسجد صغير ينسب الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وبه ماء جار وقد انتظمت امام البلاط درج ينحدر فيها الى الدهليز وهو كالخندق العظيم يتصل بباب عظيم الارتفاع تحته أعمدة كالجذوع طوال وبجانبي هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع اواني الزجاج العجيبة وفي الرحبة المتصلة بالباب الاول دكاكين لكبار الشهود منها دكانان للشافعية وسائرها لاصحاب المذاهب يكون في الدكان منها الخمسة والستة من العدول والعاقد للانكحة من قبل القاضى وسائر الشهود مفترقون في المدينـة وبمقربة من هـذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والاقلام والمداد وفي وسط الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لا سقف لها تقلها أعمدة رخام وفي وسط الحوض أنبوب نحاس يزعج الماء بقوة فيرتفع في الهواء أزيد من قامة الانسان يسمونه الفوارة منظره عجيب وعن يمين الخارج من باب جيرون وهو باب الساعات غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة لها ابواب على عـدد ساعات النهار والابواب مصبوغ باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة فاذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الاخضر ظاهرا والظاهر الاصفر باطنا ويقال ان بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عنـد مضى الساعات والباب الغربي يعرف بباب البريد وعن يمين الخارج منـه مدرسة للشافعية وله دهليز فيه حوانيت للشماعين وسماط لبيع الفواكه وباعلاه باب يصعد اليـه في درج له اعمدة سامية في الهواء وتحت الدرج سقايتان عن يمين وشمال مستديرتان والباب الجوفي يعرف بباب النطفانيين وله دهليز عظيم وعن يمين الخارج

منه خانقاة تعرف بالشميصانية في وسطها صهريج ماء ولها مطاهر يجري فيها الماء ويقال انها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وعلى كل باب من ابواب المسجد الاربعة دار وضوء يكون فيها نحو مائة بيت تجري فيها المياه الكثيرة

— ذكر الائمة بهذا المسجد —

وائمته ثلاثة عشر اماما أولهم امام الشافعية وكان في عهد دخولي اليها امامهم قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني من كبار الفقهاء وهو الخطيب بالمسجد وسكناه بدار الخطابة ويخرج من باب الحديد ازاء المقصورة وهو الباب الذي كان يخرج منه معاوية رضي الله عنه وقد تولى جلال الدين بعد ذلك قضاء القضاة بالديار المصرية بعد ان أدي عنه الملك الناصر نحو مائة الف درهم كانت عليه دينا بدمشق واذا سلم امام الشافعية من صلاته أقام الصلاة امام مشهد علي ثم امام مشهد الحسين ثم امام الكلاسة ثم امام مشهد أبي بكر ثم امام مشهد عمر ثم امام مشهد عثمان رضي الله عنهم أجمعين ثم امام المالكية وكان امامهم في عهد دخولي اليها الفقيه أبو عمر بن أبي الوليد بن الحاج التجيبي القرطبي الاصل الغرناطي المولد نزيل دمشق وهو يتناوب الامامة مع أخيه رحمهما الله ثم امام الحنفية وكان امامهم في عهد دخولي اليها الفقيه عماد الدين الحنفي المعروف بابن الرومي وهو من كبار الصوفية وله شياخة الخانقاة الخاتونية وله أيضا خانقاة بالشرف الاعلى ثم امام الحنابلة وكان في ذلك العهد الشيخ عبد الله الكفيف أحد شيوخ القراءة بدمشق ثم بعد هؤلاء خمسة أئمة لقضاء الفوائت فلا تزال الصلاة في هذا المسجد من أول النهار الى ثلث الليل وكذلك قراءة القرآن وهذا من مفاخر هذا الجامع المبارك

— ذكر المدرسين والمعلمين به —

ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم والمحدثون يقرؤن كتب الحديث على كراسي مرتفعة وقراء القرآن يقرؤن بالاصوات الحسنة صباحا ومساء وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم الى سارية من سوارى المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم وهم لا يكتبون القرآن في الالواح تنزيها لكتاب الله تعالى وانما يقرؤن القرآن تلقينا ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الاشعار وسواها فينصرف الصبي من التعليم الى التكتيب وبذلك جاد خطه لان المعلم للخط لا يعلم غيره ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين بن الفركاح الشافعي ومنهم العالم الصالح نور الدين أبو اليسر بن الصائغ من المشتهرين بالفضل والصلاح ولما ولي القضاء بمصر جلال الدين القزويني وجه

الى ابي اليسر الخلعة والامر بقضاء دمشق فامتنع من ذلك ومنهم الامام العالم شهاب الدين
ابن جهيل من كبار العلماء هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها خوفا من ان يقلده
القضاء فاتصل ذلك بالملك الناصر فولى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب
العارفين لسان المتكلمين علاء الدين القونوى وهو من كبار الفقهاء ومنهم الامام الفاضل
بدر الدين على السخاوى المالكى رحمة الله عليهم أجمعين

— ذكر قضاة دمشق —

قد ذكرنا قاضى القضاة الشافعي بها جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى وأما قاضي
المالكية فهو شرف الدين بن خطيب الفيوم حسن الصورة والهيئة من كبار الرؤساء وهو شيخ
شيوخ الصوفيـة والنائب عنه فى القضاء شمس الدين بن القفصي ومجلس حكمه بالمدرسة
الصمصامية وأما قاضى قضاة الحنفية فهو عماد الدين الحورانى وكان شديد السطوة واليـه
يتحاكم النساء وأزواجهن وكان الرجل اذا سمع اسم القاضي الحنفى أنصف من نفسه قبل
الوصول اليـه وأما قاضى الحنابلة فهو الامام الصالح عز الدين بن مسلم من خيار القضاة
ينصرف على حمار له ومات بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما لما توجه للحجاز
الشريف

— حكاية —

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدين بن تيمية كبير الشام يتكلم فى الفنون الا
ان فى عقله شيا وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ويعظهم على المنبر وتكلم مرة بامر
انكـره الفقهاء ورفعوه الى الملك الناصر فامر باشخاصه الى القاهرة وجمع القضـاة
والفقهاء بمجلس الملك الناصر وتكلم شرف الدين الزواوى المالكى وقال ان هذا الرجل قال
كذا وكذا وعدد ما أنكر على ابن تيمية وأحضر العقود بذلك ووضعها بين يدي قاضي
القضاة وقال قاضي القضاة لابن تيمية ماتقول قال لااله الا الله فاعاد عليه فاجاب بمثل
قوله فامر الملك الناصر بسجنه فسجن أعواما وصنف فى السجن كتابا فى تفسير القرآن
سماه بالبحر المحيط فى نحو أربعين مجلدا ثم ان أمـه تعرضت للملك الناصر وشكت اليـه
فامر باطلاقه الى ان وقع منه مثل ذلك ثانية وكنت اذ ذاك بدمشق فحضرته يوم الجمعة
وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم فكان من جملة كلامه ان قال ان الله ينزل الى سماء
الدنيا كنزولى هذا ونزل درجة من درج المنبر فعارضه فقيه مالكى يعرف بابن الزهراء وأنكر
ماتكلم به فقامت العامة الى هذا الفقيه وضربوه بالايدي والنعال ضربا كثيرا حتي سقطت
عمامته وظهر على رأسه شاشية حرير فانكروا عليه لباسها واحتملوه الى دار عز الدين بن

مسلم قاضي الحنابلة فامر بسجنه وعزره بعد ذلك فانكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ورفعوا الامر الى ملك الامراء سيف الدين تنكيز وكان من خيار الامراء وصلحائهم فكتب الى الملك الناصر بذلك وكتب عقدا شرعيا على ابن تيمية بامور منكرة منها ان المطلق بالثلاث في كلمة واحدة لا تلزمه الا طلقة واحدة ومنها المسافر الذي ينوي بسفره زيارة القبر الشريف زاده الله طيبا لا يقصر الصلاة وسوى ذلك مما يشبهه وبعث العقد الى الملك الناصر فامر بسجن ابن تيمية بالقلعة فسجن بها حتى مات في السجن

— ذكر مدارس دمشق —

اعلم أن للشافعية بدمشق جملة من المدارس أعظمها العادلية وبها يحكم قاضي القضاة وتقابلها المدرسة الظاهرية وبها قبر الملك الظاهر وبها جلوس نواب القاضي ومن نوابه فخر الدين القبطي كان والده من كتاب القبط وأسلم ومنهم جمال الدين بن جملة وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك وعزل لامر أوجب عزله

— حكاية —

كان بدمشق الشيخ الصالح ظهير الدين العجمي وكان سيف الدين تنكيز ملك الامراء يتتلمذ له ويعظمه فحضر يوما بدار العدل عند ملك الامراء وحضر القضاة الاربعة فحكى قاضي القضاة جمال الدين بن جملة حكاية فقال له ظهير الدين كذبت فانف القاضي من ذلك وامتعض له فقال للامير كيف يكذبني بحضرتك فقال له الامير احكم عليه وسلمه اليه وظنه أنه يرضي بذلك فلا يناله بسوء فاحضره القاضي بالمدرسة العادلية وضربه مائتي سوط وطيف به على حمار في مدينة دمشق ومناد ينادي عليه فمتى فرغ من ندائه ضربه على ظهره ضربة وهكذا العادة عندهم فبلغ ذلك ملك الامراء فانكره أشد الانكار وأحضر القضاة والفقهاء فاجمعوا على خطأ القاضي وحكمه بغير مذهبه فان التعزير عند الشافعي لا يبلغ به الحد وقال قاضي القضاة المالكية شرف الدين قد حكمت بتفسيقه فكتب الى الملك الناصر بذلك فعزله وللحنفية مدارس كثيرة وأكبرها مدرسة السلطان نور الدين وبها يحكم قاضي القضاة الحنفية وللمالكية بدمشق ثلاث مدارس احداها الصمصامية وبها سكن قاضي القضاة المالكية وقعوده للاحكام والمدرسة النورية عمرها السلطان نور الدين محمود بن زنكي والمدرسة الشرابشية عمرها شهاب الدين الشرابشي التاجر وللحنابلة مدارس كثيرة أعظمها المدرسة النجمية

— ذكر أبواب دمشق —

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب منها باب الفراديس ومنها باب الجابية ومنها الباب الصغير وفيما بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجم من الصحابة والشهداء فمن بعدهم قال محمد بن جزى لقد أحسن بعض المتاخرين من أهل دمشق فى قوله (رجز)

دمشق فى أوصافها * جنة خلد راضيه
أما ترى أبوابها * قد جعلت ثمانيه

—— ذكر بعض المشاهد والمزارات بها ——

فمنها بالمقبرة التي بين البابين باب الجابية والباب الصغير قبر أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين وقبر أخيها أمير المؤمنين معاوية وقبر بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم أجمعين وقبر أويس القرنى وقبر كعب الاحبار رضى الله عنهما ووجدت فى كتاب المعلم فى شرح صحيح مسلم للقرطبي ان جماعة من الصحابة صحبهم أويس القرنى من المدينة الى الشام فتوفى فى أثناء الطريق فى برية لا عمارة فيها ولا ماء فتحيروا فى أمره فنزلوا فوجدوا حنوطا وكفنا وماء فعجبوا من ذلك وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ثم ركبوا فقال بعضهم كيف نترك قبره بغير علامة فعادوا للموضع فلم يجدوا للقبر من أثر قال ابن جزي ويقال ان أويسا قتل بصفين مع علىّ عليه السلام وهو الاصح ان شاء الله ويلى باب الجابية باب شرقي عنده جبانة فيها قبر أبيّ بن كعب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها قبر العابد الصالح أرسلان المعروف بالباز الاشهب

—— حكاية فى سبب تسميته بذلك ——

يحكى أن الشيخ الولى أحمد الرفاعى رضى الله عنه كان مسكنه بام عبيدة بمقربة من مدينة واسط وكانت بين ولى الله تعالى أبي مدين شعيب بن الحسين وبينه مؤاخاة ومراسلة ويقال ان كل واحد منهما كان يسلم على صاحبه صباحاً ومساءً فيرد عليه الآخر وكانت للشيخ أحمد نخيلات عند زاويته فلما كان فى إحدى السنين جذها على عادته وترك عذقا منها وقال هذا برسم أخي شعيب فحج الشيخ أبو مدين تلك السنة واجتمعا بالموقف الكريم بعرفة ومع الشيخ احمد خديمه رسلان فتفاوضا الكلام وحكى الشيخ حكاية العذق فقال له رسلان عن امرك ياسيدى آتيه به فاذن له فذهب من حينه واتاه به ووضعه بين ايديهما فاخبر اهل الزاوية انهم رأوا عشية يوم عرفة بازا اشهب قد انقض على النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به فى الهواء وبغربي دمشق جبانة تعرف بقبور الشهداء فيها قبر ابي الدرداء وزوجته ام الدرداء وقبر فضالة بن عبيد وقبر واثلة بن الاسقع وقبر سهل بن حنظلة من

الذين بايعوا تحت الشجرة رضى الله عنهم اجمعين وبقرية تعرف المنيحة شرقي دمشق وعلى اربعة اميال منها قبر سعد بن عبادة رضى الله عنه وعليه مسجد صغير حسن البناء وعلى رأسه حجر فيه مكتوب هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبقربه قبلى البلد وعلى فرسخ منها مشهد ام كلثوم بنت على بن ابى طالب من فاطمة عليهم السلام ويقال ان اسمها زينب وكناها النبي صلى الله عليه وسلم أم كلثوم لشبهها بخالتها ام كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه مسجد كريم وحوله مساكن وله اوقاف ويسميه اهل دمشق قبر الست ام كلثوم وقبر آخر يقال انه قبر سكينة بنت الحسين بن على عليه السلام وبجامع النيرب من قرى دمشق فى بيت بشرقيه قبر يقال انه قبر ام مريم عليها السلام وبقرية تعرف بداريا غربي البلد وعلى اربعة اميال منها قبر ابى مسلم الخولاني وقبر ابى سليمان الداراني رضى الله عنهما ومن مشاهد دمشق الشهيرة البركة مسجد الأقدام وهو فى قبلى دمشق على ميلين منها على قارعة الطريق الأعظم الآخذ الى الحجاز الشريف والبيت المقدس وديار مصر وهو مسجد عظيم كثير البركة وله اوقاف كثيرة ويعظمه اهل دمشق تعظيما شديداً والأقدام التى ينسب اليها هي اقدام مصورة في حجر هنالك يقال انها اثر قدم موسى عليه السلام وفى هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه كان بعض الصالحين يرى المصطفى صلى الله عليه وسلم فى النوم فيقول له هاهنا قبر اخي موسي عليه السلام وبقربة من هذا المسجد علي الطريق موضع يعرف بالكثيب الاحمر وبقربة من بيت المقدس وأريحاء موضع يعرف بالكثيب الاحمر تعظمه اليهود

— حكاية —

شاهدت ايام الطاعون الاعظم بدمشق فى اواخر شهر ربيع الثاني سنة تسع واربعين من تعظيم اهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه وهو ان ملك الامراء نائب السلطان أرغون شاه أمر مناديا ينادي بدمشق ان يصوم الناس ثلاثة أيام ولا يطبخ أحد بالسوق ما يؤكل نهارا واكثر الناس بها انما يأكلون الطعام الذى يصنع بالسوق فصام الناس ثلاثة أيام متوالية كان آخرها يوم الخميس — ثم اجتمع الامراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها فى الجامع حتى غص بهم وباتوا ليلة الجمعة به ما بين مصل وذاكر وداع — ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعاً على اقدامهم وبايديهم المصاحف والامراء حفاة وخرج جميع اهل البلد ذكورا واناثا صغارا وكبارا وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ومعهم النساء والولدان وجميعهم باكون متضرعون متوسلون الى الله بكتبه وأنبيائه

وقصدوا مسجد الاقدام وأقاموا به فى تضرعهم ودعائهم الى قرب الزوال وعادوا الى البلد فصلوا الجمعة وخفف الله تعالى عنهم ماانتهى عدد الموتى الى ألفين فى اليوم الواحد وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر الى أربعة وعشرين ألفاً فى يوم واحد وبالباب الشرقى من دمشق منارة بيضاء يقال انها التى ينزل عيسى عليه السلام عندها حسبما ورد فى صحيح مسلم

— ذكر أرباض دمشق —

وتدور بدمشق من جهاتها ماعدا الشرقية أرباض فسيحة الساحات دواخلها املح من داخل دمشق لاجل الضيق الذى فى سككها وبالجهة الشمالية منها ربض الصالحية وهى مدينة عظيمه لها سوق لا نظير لحسنه وفيها مسجد جامع ومارستان وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر موقوفه على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول وتجرى لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس وبداخل البلد أيضا مدرسه مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجا وأهل الصالحية كلهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه

— ذكر قاسيون ومشاهده المباركة —

وقاسيون جبل فى شمال دمشق والصالحية فى سفحه وهو شهير البركة لانه مصعد الانبياء عليهم السلام ومن مشاهده الكريمة الغار الذى ولد فيه ابراهيم الخليل عليه السلام وهو غار مستطيل ضيق عليه مسجد كبير وله صومعة عالية ومن ذلك الغار رأى الكوكب والقمر والشمس حسبما ورد فى الكتاب العزيز وفى ظهر الغار مقامه الذى كان يخرج اليه وقد رأيت ببلاد العراق قرية تعرف ببرص (بضم الباء الموحدة وآخرها صاد مهمل) ما بين الحلة وبغداد يقال ان مولد ابراهيم عليه السلام كان بها وهى بمقربة من بلد ذي الكفل عليه السلام وبها قبره ومن مشاهده بالغرب منه مغارة الدم وفوقها بالجبل دم هابيل بن آدم عليه السلام وقد أبقى الله منه في الحجارة أثرا محمرا وهو الموضع الذي قتله أخوه به واجتره الى المغارة ويذكران تلك المغارة صلى فيها ابراهيم وموسي وعيسى وأيوب ولوط صلى الله عليهم أجمعين وعليها مسجد متقن البناء يصعد اليه على درج وفيه بيوت ومرافق للسكني ويفتح فى كل يوم اثنين وخميس والشمع والسرج توقد فى المغارة ومنها كهف باعلى الجبل ينسب لآدم عليه السلام وعليه بناء وأسفل منه مغارة تعرف بمغارة الجوع يذكر انه آوى اليها سبعون من الانبياء عليهم السلام وكان عندهم رغيف فلم يزل يدور عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعا صلى الله عليهم وعلى هذه المغارة مسجد مبني والسرج توقد به ليلا ونهارا ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة

ويذكران فيما بين باب الفراديس وجامع قاسيون مدفن سبعمائة نبي وبعضهم يقول سبعين ألفا وخارج المدينة المقبرة العتيقة وهي مدفن الانبياء والصالحين وفي طرفها مما يلي البساتين أرض منخفضة غلب عليها الماء يقال انها مدفن سبعين نبيا وقد عادت قرارا للماء ونزهت من ان يدفن فيها أحد

— ذكر الربوة والقرى التي توإليها —

وفي آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله ذات القرار والمعين ومأوى المسيح عيسي وأمه عليهما السلام وهي من اجمل مناظر الدنيا ومتنزهاتها وبها القصور المشيدة والمباني الشريفة والبساتين البديعة والمأوى المبارك مغارة صغيرة في وسطها كالبيت الصغير وازاءها بيت يقال انه مصلي الخضر عليه السلام يبادر الناس الى الصلاة فيها وللمأوى باب حديد صغير والمسجد يدور به وله شوارع دائرة وسقاية حسنة ينزل لها الماء من علو وينصب في شاذروان في الجدار يتصل بحوض من رخام ويقع فيه الماء ولا نظير له في الحسن وغرابة الشكل وبقرب ذاك مطاهر للوضوء يجري فيها الماء وهذه الربوة المباركة هي رأس بساتين دمشق وبها منابع مياهها وينقسم الماء الخارج منها على سبعة انهار كل نهر آخذ في جهة ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم وأكبر هذه الانهار النهر المسمى بتورة وهو يشق تحت الربوة وقد نحت له مجري في الحجر الصلد كالغار الكبير وربما انغمس ذوا الجسارة من العوامين في النهر من اعلي الربوة واندفع في الماء حتي يشق مجراه ويخرج من أسفل الربوة وهي مخاطرة عظيمة وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد ولها من الحسن واتساع مسرح الابصار ماليس لسواها وتلك الانهار السبعة تذهب في طرق شتى فتحار الاعين في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها وجمال الربوة وحسنها التام أعظم من ان يحيط به الوصف ولها الاوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين والرباع تقام منها وظائفها الامام والمؤذن والصادر والوارد وباسفل الربوة قرية النيرب وقد تكاثرت بساتينها وتكاثفت ظلالها وتدانت اشجارها فلا يظهر من بنائها الا ماسما ارتفاعه ولها حمام مليح ولها جامع بديع مفروش صحنه بفصوص الرخام وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ومطهرة فيها بيوت عدة يجري فيها الماء وفي القبلي من هذه القرية قرية المزة وتعرف بمزة كلب نسبة الى قبيلة كلب بن وبرة بن ثعلب ابن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وكانت اقطاعا لهم واليها ينسب الامام حافظ الدنيا جمال الدين يوسف بن الزكي الكلبي المزي وكثير سواه من العلماء وهي من اعظم

قرى دمشق بها جامع كبير عجيب وسقاية معينة وأكثر قرى دمشق فيها الحمامات والمساجد الجامعة والاسواق وسكانها كأهل الحاضرة في مناحيهم وفي شرقي البلد قرية تعرف ببيت الاهية وكانت فيها كنيسة يقال ان آزركان ينحت فيها الاصنام فيكسرها الخليل عليه السلام وهي الآن مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخام الملونة المنظمة باعجب نظام وأزين التئام

— ذكر الاوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعوائدهم —

والاوقاف بدمشق لاتحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ومنها أوقاف على تجهيز البنات الى أزواجهن وهي اللواتي لاقدرة لاهلهن على تجهيزهن ومنها أوقاف لفكاك الاسارى ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها مايأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها لان أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان بين ذلك ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير

— حكاية —

مررت يوما ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الاواني فجمعها وذهب الرجل معه اليه فاراه اياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن وهذا من أحسن الاعمال فان سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير لاجل ذلك فكان هذا الوقف جبرا للقلوب جزى الله خيرا من تسامت همته في الخير الى مثل هذا وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد وهم يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون اليهم بالاموال والاهلين والاولاد وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لابد أن يتأتى له وجه من المعاش من امامة مسجد أو قراءة بمدرسة أو ملازمة مسجد يجيء اليه فيه رزقه أو قراءة القرآن أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة فمن كان بها غريبا على خير لم يزل مصونا عن بذل وجهه محفوظا عما يزرى بالمروءة ومن كان من اهل المهنة والخدمة فله أسباب أخر من حراسة بستان أو أمانة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم الى التعليم ويروح ومن أراد طلب العلم او التفرغ للعبادة وجد الاعانة التامة على ذلك ومن فضائل أهل دمشق أنه لايفطر أحد منهم في ليالى رمضان وحده البتة فمن كان من الامراء والقضاة

والكبراء فانه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ومن كان من الضعفاء والبادية فانهم يجتمعون كل ليلة فى دار أحدهم أوفى مسجد ويأتى كل أحد بما عنده فيفطرون جميعا ولما وردت دمشق وقعت بيني وبين نور الدين السخاوي مدرس المالكية صحبة فرغب مني ان أفطر عنده فى ليالى رمضان فحضرت عنده أربع ليالى ثم اصابتني الحمى فغبت عنه فبعث فى طلبي فاعتذرت بالمرض فلم يسعنى عذرا فرجعت اليه وبت عنده فلما اردت الانصراف بالغد منعني من ذلك وقال لى احسب دارى كانها دارك أودار أبيك أو أخيك وأمر باحضار طبيب وان يصنع لى بداره كل مايشتهيه الطبيب من دواء أوغذاء وأقمت كذلك عنده الى يوم العيد وحضرت المصلى وشفانى الله تعالى مما اصابني وقدكان ماعندي من النفقة نفد فعلم بذلك فاكترى لي جمالا وأعطاني الزاد وسواه وزادني دراهم وقال لى تكون لما عسى ان يعتريك من امرمهم جزاه الله خيرا وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمي عماد الدين القيصرانى من عادته انه متى سمع ان مغربيا وصل الى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن اليه فان عرف منه الدين والفضل امره بملازمته وكان يلازمه منهم جماعة وعلى هذه الطريقة ايضا كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره وكان بها فاضل من كبرائها وهو الصاحب عز الدين القلانسي له مآثر ومكارم وفضائل وإيثار وهو ذو مال عريض وذكروا ان الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجميع أهل دولته ومماليكه وخواصه ثلاثة أيام فسماه اذ ذاك بالصاحب ومما يؤثر من فضائلهم ان أحد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت أوصى ان يدفن بقبلة الجامع المكرم ويخفى قبره وعين أوقافا عظيمة لقراء يقرأون سبعا من القرآن الكريم فى كل يوم إثر صلاة الصبح بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضى الله عنهم حيث قبره فصارت قراءة القرآن على قبره لا تنقطع أبدا وبقى ذلك الرسم الجميل بعده مخلدا ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد انهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس وجامع بني أمية وسواها ويقف بهم أئمتهم كاشفى رؤسهم داعين خاضعين خاشعين ملتمسين البركة ويتوخون الساعة التى يقف فيها وفد الله تعالى وحجاج بيته بعرفات ولا يزالون فى خضوع ودعاء وابتهال وتوسل الى الله تعالى بحجاج بيته الى ان تغيب الشمس فينفرون كما ينفر الحاج باكين على ماحرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات داعين الى الله تعالى ان يوصلهم اليها ولا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه ولهم أيضا فى اتباع الجنائز رتبة عجيبة وذلك انهم يمشون

امام الجنازة والقراء يقرؤن القرآن بالاصوات الحسنة والتلاحين المبكية التي تكاد النفوس تطير لها رقة وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع قبالة المقصورة فان كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراءة الى موضع الصلاة عليه وان كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد وأدخلوا الجنازة وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن بمقربة من باب البريد فيجلسون وامامهم ربعات القرآن يقرؤن فيها ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من كبار البلدة وأعيانها ويقولون بسم الله فلان الدين من كمال وجمال وشمس وبدر وغير ذلك فاذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون افتكروا واعتبروا صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ويصفونه بصفات من الخير ثم يصلون عليه ويذهبون به الى مدفنه ولاهل الهند رتبة عجيبة في الجنائز أيضا زائدة على ذلك وهي انهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة ويكسي القبر بالاكسية الفاخرة وتوضع حوله الرياحين من الورد والنسرين والياسمين وذلك النوار لا ينقطع عندهم ويأتون باشجار الليمون والاترج ويجعلون فيها حبوبها ان لم تكن فيها ويجعل صيوان يظلل الناس تحوه ويأتي القضاة والامراء ومن يماثلهم فيقعدون ويقابلهم القراء ويؤتى بالربعات الكرام فيأخذ كل واحد منهم جزأ فاذا تمت القراءة من القراء بالاصوات الحسان يدعو القاضي ويقوم قائما ويخطب خطبة معدة لذلك ويذكر فيها الميت ويرثيه بابيات شعر ويذكر اقاربه ويعزيهم عنه ويذكر السلطان داعيا له وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويحطون رؤسهم الى سمت الجهة التي بها السلطان ثم يقعد القاضي ويأتون بماء الورد فيصب على الناس صبا يبدأ بالقاضي ثم من يليه كذلك الى ان يعم الناس أجمعين ثم يؤتى باواني السكر وهو الجلاب محلولا بالماء فيسقون الناس منه ويبدؤن بالقاضي ومن يليه ثم يؤتي بالتنبول وهم يعظمونه ويكرمون من يأتي لهم به فاذا أعطى السلطان أحدا منه فهو أعظم من اعطاء الذهب والخلع واذا مات الميت لم يأكل أهله التنبول الا في ذلك اليوم فيأخذ القاضي أو من يقوم مقامه أوراقا منه فيعطيها لولي الميت فيأكلها وينصرفون حينئذ وسيأتي ذكر التنبول ان شاء الله تعالى

— ذكر سماعي بدمشق ومن أجازني من أهلها —

سمعت بجامع بني أمية عمره الله بذكره جميع صحيح الامام ابي عبد الله محمد بن اسمعيل الجعفي البخاري رضي الله عنه على الشيخ المعمر رحلة الآفاق ملحق الاصاغر بالاكابر شهاب الدين احمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن حسن بن علي بن بيان الدين

مقريء الصالحي المعروف بابن الشحنة الحجازي في أربعة عشر مجلسا أولها يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان المعظم سنة ست وعشرين وسبعمائة وآخرها يوم الاثنين الثامن والعشرين منه بقراءة الامام الحافظ مؤرخ الشام علم الدين أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الاشبيلي الاصل الدمشقي في جماعة كبيرة كتب أسماءهم محمد بن طغريل ابن عبد الله بن الغزال الصيرفي بسماع الشيخ أبي العباس الحجازي لجميع الكتاب من الشيخ الامام سراج الدين أبي عبد الله الحسين بن أبي بكر المبارك بن محمد بن يحيى بن علي بن المسيح بن عمران الربيعي البغدادي الزبيدي الحنبلي في أواخر شوال وأوائل ذي القعدة من سنة ثلاثين وستمائة بالجامع المظفري بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق وباجازته في جميع الكتاب من الشيخين أبي الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن الحسين بن الخلف القطيعي المؤرخ وعلي بن أبي بكر بن عبد الله بن روبة القلانسي العطار البغدادي ومن باب غيرة النساء ووجدهن الى آخر الكتاب من أبي المنجا عبد الله بن عمر بن علي بن زيد بن اللتي الخزاعي البغدادي بسماع أربعتهم من الشيخ سديد الدين أبي الوقت عبد الاول بن عيسى بن شعيب بن ابراهيم السجزي الهروي الصوفي في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ببغداد قال اخبرنا الامام جمال الاسلام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر ابن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الدوادي قراءة عليه وانا أسمع ببوشنج سنة خمس وستين وأربعمائة قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حوية بن يوسف بن أيمن السرخسي قراءة عليه وأنا أسمع في صفر سنة احدي وثمانين وثلاثمائة قال أخبرنا عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر بن ابراهيم الفربري قراءة عليه وأنا أسمع سنة ست عشرة وثلاثمائة بفربر قال اخبرنا الامام أبو عبد الله محمد بن اسمعيل البخاري رضي الله عنه سنة ثمان وأربعين ومائتين بفربر ومرة ثانية بعدها سنه ثلاث وخمسين وممن أجازني من أهل دمشق اجازة عامة الشيخ أبو العباس الحجازي المذكور سبق الى ذلك وتلفظ لي به — ومنهم الشيخ الامام شهاب الدين أحمد بن عبد الله ابن أحمد بن محمد المقدسي ومولده في ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين وستمائة — ومنهم الشيخ الامام الصالح عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن النجدي — ومنهم امام الأئمة جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف المزني الكلبي حافظ الحفاظ ومنهم الشيخ الامام علاء الدين علي بن يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي والشيخ الامام الشريف محيي الدين يحيي بن محمد بن علي العلوي. ومنهم الشيخ

الامام المحدث مجد الدين القاسم بن عبد الله بن أبي عبد الله بن المعلي الدمشقي ومولده سنة أربع وخمسين وستمائة . ومنهم الشيخ الامام العالم شهاب الدين أحمد بن ابراهيم بن فلاح بن محمد الاسكندرى . ومنهم الشيخ الامام ولى الله تعالى شمس الدين بن عبد الله ابن تمام والشيخان الاخوان شمس الدين محمد وكمال الدين عبد الله ابنا ابراهيم بن عبد الله بن أبي عمر المقدسي والشيخ العابد شمس الدين محمد بن أبي الزهراء بن سالم الهكارى. والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الحراني. والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي كل هؤلاء أجازني إجازة عامة في سنة ست وعشرين بدمشق ولما استهل شوال من السنة المذكورة خرج الركب الحجازي الى خارج دمشق ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة فاخذت في الحركة معهم وكان أمير الركب سيف الدين الجوبان من كبار الامراء وقاضيه شرف الدين الاذرعي الحوراني وحج في تلك السنة مدرس المالكية صدر الدين الغماري وكان سفرى مع طائفة من العرب تدعي العجارمة أميرهم محمد بن رافع كبير القدر في الامراء وارتحلنا من الكسوة الى قرية تعرف بالصنمين عظيمة ثم ارتحلنا منها الى بلدة زرعة وهى صغيرة من بلاد حوران نزلنا بالقرب منها ثم ارتحلنا الى مدينة بصرى وهى صغيرة ومن عادة الركب ان يقيم بها اربعا ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مآربه والى بصرى وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعث فى تجارة خديجة وبها مبرك ناقته قد بني عليه مسجد عظيم ويجتمع أهل حوران لهذه المدينة ويتزود الحاج منها ثم يرحلون الى بركة زيرة (زيرا) ويقيمون عليها يوما ثم يرحلون الى اللجون وبها الماء الجارى ثم يرحلون الى حصن الكرك وهو من اعجب الحصون وأمنعها وأشهرها ويسمى بحصن الغراب والوادي يطيف به من جميع جهاته وله باب واحد قد نحت المدخل اليه فى الحجر الصلد ومدخل دهليزه كذلك وبهذا الحصن يتحصن الملوك واليه يلجؤن فى النوائب وله لجأ الملك الناصر لانه ولى الملك وهو صغير السن فاستولى على التدبير مملوكه سلار النائب عنه فاظهر الملك الناصر انه يريد الحج ووافقه الامراء على ذلك فتوجه الى الحج فلما وصل عقبة أيلة لجأ الى الحصن وأقام به اعواما الى ان قصده امراء الشام واجتمعت عليه المماليك وكان قد ولى الملك فى تلك المدة بيبرس الششنكير وهو أمير الطعام وتسمي بالملك المظفر وهو الذى بني الخانقاه البيبرسية بمقربة من خانقاة سعيد السعداء التى بناها صلاح الدين بن أيوب فقصده الملك الناصر بالعساكر ففر بيبرس الى الصحراء فتبعته العساكر وقبض عليه وأتي به الى الملك الناصر

فامر بقتله فقتل وقبض على سلار وحبس فى جب حتى مات جوعا ويقال انه اكل جيفة من الجوع نعوذ بالله من ذلك واقام الركب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثنية وتجهزوا لدخول البرية. ثم ارتحلنا الى معان وهو آخر بلاد الشام ونزلنا من عقبة الصوان الى الصحراء التي يقال فيها داخلها مفقود وخارجها مولود وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حيج وهى حسيان لا عمارة بها. ثم الى وادى بلدح ولا ماء به. ثم الى تبوك وهو الموضع الذى غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها عين ماء كانت تبض بشيء من الماء فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضأ منها جادت بالماء المعين ولم تزل الى هذا العهد ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن عادة حجاج الشام اذا وصلوا منزل تبوك أخذوا اسلحتهم وجردوا سيوفهم وحملوا على المنزل وضربوا النخيل بسيوفهم ويقولون هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروي منها جميعهم ويقيمون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين العلا وتبوك ومن عادة السقائين انهم ينزلون على جوانب هذه العين ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملؤن الروايا والقرب ولكل امير اوكبير حوض يسقي منه جماله وجمال اصحابه ويملأ رواياهم وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقي جمله وملء قربته بشيء معلوم من الدراهم ثم يرحل الركب من تبوك ويجدون السير ليلا ونهارا خوفا من هذه البريه وفي وسطها الوادى الاخيضر كانه وادى جهنم اعاذنا الله منها واصاب الحجاج به فى بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي تهب فانتشفت المياه وانتهت شربة الماء الى ألف دينار ومات مشتريها وبائعها وكتب ذلك فى بعض صخر الوادى ومن هنالك ينزلون بركة المعظم وهى ضخمة نسبتها الى الملك المعظم من اولاد ايوب ويجتمع بها ماء المطر فى بعض السنين وربما جف فى بعضها وفى الخامس من ايام رحيلهم عن تبوك يصلون الى بئر الحجر حجر ثمود وهى كثيرة الماء ولكن لا يردها احد من الناس مع شدة عطشهم اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بها فى غزوة تبوك فاسرع براحلته وامر ان لا يسقى منها احد ومن عجن به اطعمه الجمال وهنالك ديار ثمود فى جبال من الصخر الاحمر منحوتة لها عتب منقوشة يظن رائيها انها حديثة الصنعة وعظامهم نخرة فى داخل تلك البيوت ان فى ذلك لعبرة ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هنالك وبينهما اثر مسجد يصلى الناس فيه وبين الحجر والعلا نصف يوم أو دونه والعلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين

النخل والمياه المعينة يقيم بها الحجاج أربعا يتزودون و يغسلون ثيابهم ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد و يستصحبون قدر الكفاية وأهل هذه القرية أصحاب أمانة واليها ينتهي تجار نصارى الشام لا يتعدونها و يبايعون الحجاج بها الزاد وسواه ثم يرحل الركب من العلا فينزلون في غدر حيلهم الوادي المعروف بالعطاس وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة هبت بعض السنين على الركب فلم يخلص منهم الا اليسير وتعرف تلك السنة سنة الامير الجالقي ومنه ينزلون هدية وهي حسيان ماء بواد يحفرون به فيخرج الماء وهو زعاق وفي اليوم الثالث ينزلون بظاهر البلد المقدس الكريم الشريف

— طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم —

وفي عشي ذلك اليوم دخلنا الحرم الشريف وانتهينا الى المسجد الكريم فوقفنا بباب السلام مسلمين وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذي حن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة وأدينا حق السلام على سيد الاولين والآخرين وشفيع العصاة والمذنبين الرسول النبي الهاشمي الابطحي محمد صلى الله عليه وسلم تسليما وشرف وكرم وحق السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبي بكر الصديق وابي حفص عمر الفاروق رضى الله عنهما وانصرفنا الى رحلنا مسرورين بهذه النعمة العظمى مستبشرين بنيل هذه المنة الكبرى حامدين الله تعالى على البلوغ الى معاهد رسوله الشريفة ومشاهده العظيمة المنيفة داعين أن لا يجعل ذلك آخر عهدنا بها وان يجعلنا ممن قبلت زيارته وكتبت في سبيل الله سفرته

— ذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروضته الشريفة —

المسجد المعظم مستطيل تحفه من جهاته الاربع بلاطات دائرة به ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها في الجهة القبلية مما يلي الشرق من المسجد الكريم وشكلها عجيب لا يتاتى تمثيله وهي مدورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الازمان وفي الصفحة القبلية منها مسمار فضة هو قبالة الوجه الكريم وهنالك يقف الناس للسلام مستقبلين الوجه الكريم مستدبرين القبلة فيسلمون و ينصرفون يمينا الى وجه أبي بكر الصديق ورأس أبي بكر رضى الله عنه عند قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ينصرفون الى عمر بن الخطاب ورأس عمر عند كتفي أبي بكر رضى الله عنهما وفي

الجوفي من الروضة المقدسة زادها الله طيبا حوض صغير مرخم في قبلته شكل محراب يقال
انه كان بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما و يقال أيضاً هو قبرها والله
أعلم وفي وسط المسجد الكريم دفة مطبقة على وجه الارض مقفلة على سرداب له درج
يفضي إلى دار أبي بكر رضي الله عنه خارج المسجد وعلى ذلك السرداب كان طريق بنته
عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إلى داره ولا شك انه هو الخوخة التي ورد ذكرها في
الحديث وأمر النبي صلى الله عليه وسلم تسليما بابقائها وسد ما سواها وبازاء دار أبي بكر
رضي الله عنه دار عمر ودار ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما و بشرقي المسجد الكريم
دار إمام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه و بمقربة من باب السلام سقاية
ينزل اليها على درج ماؤها معين وتعرف بالعين الزرقاء

— ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم —

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة الشريفة دار الهجرة يوم الاثنين
الثالث عشر من شهر ربيع الاول فنزل على بني عمرو بن عوف واقام عندهم ثنتين وعشرين
ليلة وقيل أربع عشرة ليلة وقيل أربع ليال ثم توجه الى المدينة فنزل على بني النجار بدار
ابي أيوب الانصاري رضي الله عنه وأقام عنده سبعة أشهر حتي بني مساكنه ومسجده
وكان موضع المسجد مربد السهل وسهيل ابني رافع بن أبي عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن
غانم بن مالك بن النجار وهما يتيمان في حجر أسعد بن زرارة رضى الله عنهم أجمعين وقيل
كانا في حجر أبي أيوب رضى الله عنه فابتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ذلك
المربد وقيل بل أرضاهما أبو أيوب عنه وقيل انهما وهباه لرسول الله صلى الله عليه وسلم
تسليما فبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما المسجد وعمل فيه مع أصحابه وجعل عليه
حائطا ولم يجعل له سقفا ولا أساطين وجعله مربعا طوله مائة ذراع وعرضه مثل ذلك
وقيل ان عرضه كان دون ذلك وجعل ارتفاع حائطه قدر القامة فلما اشتد الحر تكلم
أصحابه في تسقيفه فاقام له أساطين من جذوع النخل وجعل سقفه من جريدها فلما
أمطرت السماء وكف المسجد فكلم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما رسول
الله صلى الله عليه وسلم في عمله بالطين فقال كلا عريش كعريش موسى أو ظلة كظلة
موسى والامر أقرب من ذلك قيل وما ظلة موسى قال صلى الله عليه وسلم كان اذا قام
أصاب السقف رأسه وجعل للمسجد ثلاثة أبواب ثم سد الجنوبي منها حين حولت القبلة
و بقي المسجد على ذلك حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وحياة أبي بكر رضى الله

عنه فلما كانت أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه زاد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وقال لولا اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما يقول ينبغي ان نزيد في المسجد مازدت فيه فانزل أساطين الخشب وجعل مكانها أساطين اللبن وجعل الاساس حجارة الى القامة وجعل الابواب ستة منها في كل جهة ماعدا القبلة بابان وقال في باب منها ينبغي ان يترك هذا للنساء فما رؤي فيه حتي اتي الله عز وجل وقال لوزدنا في هذ المسجد حتي يبلغ الجبانة لم يزل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد عمر ان يدخل في المسجد موضعا للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضي عنهما فمنعه منه وكان فيه ميزان يصب في المسجد فنزعه عمر وقال انه يؤذي الناس فنازعه العباس وحكما بينهما أبي بن كعب رضي الله عنهما فاتيا داره فلم ياذن لهما الا بعد ساعة ثم دخلا اليه فقال كانت جاريتي تغسل رأسي فذهب عمر ليتكلم فقال له ابي دع أبا الفضل يتكلم لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فقال العباس خطة خطها لي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبنيتها معه وما وضعت الميزاب الا ورجلاي على عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء عمر فطرحه وأراد ادخالها في المسجد فقال أبي ان عندي من هذا علما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما يقول أراد داود عليه السلام أن يبني بيت الله المقدس وكان فيه بيت ليتيمين فراودهما على البيع فابيا ثم رادها فباعاه ثم قاما بالغبن فرد البيع واشتراه منهما ثم رداه كذلك فاستعظم داود الثمن فاوحى الله اليه ان كنت تعطي من شيء هولك فانت أعلم وان كنت تعطيهما من رزقنا فاعطهما حتي يرضيا وان أغنى البيوت عن مظلمة بيت هولي وقد حرمت عليك بناءه فقال يارب فاعطه سليمان فاعطاه سليمان عليه السلام فقال عمر من لي بان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما قاله فخرج أبي الى قوم من الانصار فاثبتوا له ذلك فقال عمر رضي الله عنه أما اني لولم أجد غيرك أخذت قولك ولكنني احببت ان اثبت . ثم قال للعباس رضي الله عنه والله لاترد الميزاب الا وقدماك على عاتقي ففعل العباس ذلك . ثم قال أما إذا أثبتت لي فهي صدقة لله فهدمها عمر وأدخلها في المسجد . ثم زاد فيه عثمان رضي الله عنه وبناه بقوة وباشره بنفسه فكان يظل فيه نهاره وبيضه وأتقن محله بالحجارة المنقوشة ووسعه من جهاته الاجهة الشرق منها وجعل له سواري حجارة مثبتة باعمدة الحديد والرصاص وسقفه بالساج وصنع له محرابا وقيل ان مروان هو أول من بني المحراب وقيل عمر بن عبد العزيز في خلافة الوليد — ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك تولى ذلك عمر بن عبد العزيز فوسعه

وحسنه وبالغ في اتقانه وعمله بالرخام والساج المذهب وكان الوليد بعث الى ملك الروم انى أريد ان أبني مسجد نبينا صلى الله عليه وسلم تسليما فاعنى فيه فبعث اليه الفعلة وثمانين الف مثقال من الذهب وأمر الوليد بادخال حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تسليما فيه فاشترى عمر من الدور مازاده في ثلاث جهات من المسجد فلما صار الى القبلة امتنع عبيد الله ابن عبد الله بن عمر من بيع دار حفصة وطال بينهما الكلام حتي ابتاعها عمر على أن لهم ما بقى منها وعلى أن يخرجوا من باقيها طريقا الى المسجد وهي الخوخة التى في المسجد وجعل عمر للمسجد اربع صوامع فى أربعة أركانه وكانت إحداها مطلة على دار مروان فلما حج سليمان بن عبد الملك نزل بها فاطل عليه المؤذن حين الاذان فامر بهدمها وجعل عمر المسجد محرابا ويقال هو من أحدث المحراب . ثم زاد في المهدى بن ابى جعفر المنصور وكان ابوهم بذلك ولم يقض له وكتب اليه الحسن بن زيد يرغبه فى الزيارة فيه من جهة الشرق ويقول انه إن زيد فى شرقيه توسطت الروضة الكريمة المسجد الكريم فاتهمه ابو جعفر بانه انما اراد هدم دار عثمان رضي الله عنه فكتب اليه اني قد عرفته الذي اردت فاكفف عن دار عثمان وامر ابو جعفر ان يظلل الصحن ايام القيظ بستور تنشر على حبال ممدودة على خشب تكون فى الصحن لتكن المصلين من الحر وكان طول المسجد فى بناء الوليد مائتى ذراع فبلغه المهدى الى ثلاثمائة ذراع وسوى المقصورة بالارض وكانت مرتفعة عنها بمقدار ذراعين وكتب اسمه على مواضع من المسجد ثم امر الملك المنصور قلاوون ببناء دار للوضوء عند باب السلام فتولى بناءها الامير الصالح علاء الدين المعروف بالاقمر واقامها متسعة الفناء تستدير بها البيوت واجرى اليها الماء واراد ان يبني بمكة شرفها الله تعالى مثل ذلك فلم يتم له فبناه ابنه الملك الناصر بين الصفا والمروة وسيذكر ان شاء الله وقبلة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما قبلة قطع لانه صلى الله عليه وسلم تسليما اقامها وقيل اقامها جبريل عليه السلم وقيل كان يشير جبريل له الى سمتها وهو يقيمها وروى ان جبريل عليه السلام اشار الى الجبال فتواضعت فتنحت حتي بدت الكعبة فكان صلى الله عليه وسلم تسليما يبني وهو ينظر اليها عيانا وبكل اعتبار فهى قبلة قطع وكانت القبلة أول ورود النبي صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة الى بيت المقدس ثم حوات الى الكعبة بعد ستة عشر شهرا وقيل بعد سبعة عشر شهراً

— ذكر المنبر الكريم —

وفى الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما كان يخطب الى جذع نخلة

بالمسجد فلما صنع له المنبر وتحول اليه حن الجذع حنين الناقة الى حوارها وروي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما نزل اليه فالتزمه فسكن وقال لو لم أالتزمه لحن الى يوم القيامة واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم فروى ان تميما الدارى رضى الله عنه هو الذى صنعه وقيل ان غلاما للعباس رضى الله عنه صنعه وقيل غلام لامرأة من الانصار وورد ذلك فى الحديث الصحيح وصنع من طرفاء الغابة وقيل من الاثل وكان له ثلاث درجات فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد على علياهن ويضع رجليه الكريمتين فى وسطاهن فلما ولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه قعد على وسطاهن وجعل رجليه على أولاهن فلما ولى عمر رضى الله عنه جلس على أولاهن وجعل رجليه على الارض وفعل ذلك عثمان رضى الله عنه صدرا من خلافته ثم ترقى الى الثالثة ولما ان صار الامر الى معاوية رضي الله عنه أراد نقل المنبر الى الشام فضج المسلمون وعصفت ريح شديدة وخسفت الشمس و بدت النجوم نهارا وأظلمت الارض فكان الرجل يصادم الرجل ولا يتبين مسلك فلما رأى ذلك معاوية تركه وزاد فيه ست درجات من أسفله فبلغ تسع درجات

— ذكر الخطيب والامام بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم —

وكان الامام بالمسجد الشريف فى عهد دخولى الى المدينة بهاء الدين بن سلامة من كبار أهل مصر وينوب عنه العالم الصالح الزاهد بقية المشايخ عز الدين الواسطى نفع الله به وكان يخطب قبله و يقضى بالمدينة الشريفة سراج الدين عمر المصرى — حكاية — يذكر أن سراج الدين هذا أقام فى خطة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو أربعين سنة ثم انه أراد الخروج بعد ذلك الى مصر فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ثلاث مرات فى كل مرة ينهاه عن الخروج منها وأخبره باقتراب أجله فلم ينته عن ذلك وخرج فمات بموضع يقال له سويس على مسيرة ثلاث من مصر قبل ان يصل اليها نعوذ بالله من سوء الخاتمة وكان ينوب عنه الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون رحمه الله وأبناؤه الآن بالمدينة الشريفة أبو محمد عبد الله مدرس المالكية و نائب الحكم وأبو عبد الله محمد وأصلهم من مدينة تونس ولهم بها حسب واصالة وتولى الخطابة والقضاء بالمدينة الشريفة بعد ذلك جمال الدين الاسيوطى من أهل مصر وكان قبل ذلك قاضيا بحصن الكرك

— ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به —

وخدام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الاحابيش وسواهم وهم على هيآت

حسان وصور نظاف وملابس ظراف وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام وهو في هيئة الامراء الكبار ولهم المرتبات بديار مصر والشام ويؤتى اليهم بها في كل سنة ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الامام المحدث الفاضل جمال الدين المطري من مطرية قرية بمصر وولده الفاضل عفيف الدين عبدالله والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد الغرناطي المعروف بالتراس قديم المجاورة وهو الذي جب نفسه خوفا من الفتنة

— حكاية —

يذكر ان أبا عبدالله الغرناطي كان خديما لشيخ يسمي عبد الحميد العجمي وكان الشيخ حسن الظن به يطمئن اليه باهله وماله ويتركه متى سافر بداره فسافر مرة وتركه على عادته بمنزله فعلقت به زوجة الشيخ عبدالحميد وراودته عن نفسه فقال اني أخاف الله ولا أخون من ائتمنني على أهله وماله فلم تزل تراوده وتعارضه حتي خاف علي نفسه الفتنة فجب نفسه وغشي عليه ووجده الناس على تلك الحالة فعالجوه حتي بريء وصار من خدام المسجد الكريم ومؤذنا به ورأس الطائفتين وهو باق بقيد الحياة الى هذا العهد

— ذكر المجاورين بالمدينة الشريفة —

منهم الشيخ الصالح الفاضل ابو العباس أحمد بن محمد مرزوق كثير العبادة والصوم والصلاة بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما صابراً محتسباً وكان ربما جاور بمكة المعظمة رأيته بها في سنة ثمان وعشرين وهو اكثر الناس طوافا كنت اعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحر بالمطاف والمطاف مفروش بالحجارة السود وتصير بحر الشمس كانها الصفائح المحماة ولقد رأيت السقائين يصبون الماء عليها فما يجاوز الموضع الذى يصب فيه الا ويلتهب الموضع من حينه واكثر الطائفين في ذلك الوقت يلبسون الجوارب وكان أبو العباس بن مرزوق يطوف حافي القدمين ورأيته يوما يطوف فاحببت ان أطوف معه فوصلت المطاف وأردت استلام الحجر الاسود فلحقني لهب تلك الحجارة واردت الرجوع بعد تقبيل الحجر فما وصلته الا بعد جهد عظيم ورجعت فلم أطف وكنت أجعل بجادي على الارض وأمشي عليه حتى بلغت الرواق وكان في ذلك العهد بمكة وزير غرناطة وكبيرها أبو القاسم محمد بن محمد بن الفقيه ابى الحسن سهل بن مالك الازدي وكان يطوف كل يوم سبعين أسبوعا ولم يكن يطوف في وقت القائلة لشدة الحر وكان ابن مرزوق يطوف في شدة القائلة زيادة عليه. ومن المجاورين بالمدينة كرمها الله الشيخ الصالح العابد سعيد المراكشي الكفيف. ومنهم الشيخ ابو مهدي عيسى بن حزرون المكناسي

— حكاية —

جاور الشيخ أبو مهدي بمكة سنة ثمان وعشرين وخرج الى جبل حراء مع جماعة

من المجاورين فلما صعدوا الجبل ووصلوا لمتعبد النبي صلى الله عليه وسلم تسليما و نزلوا عنه تأخر أبو مهدي عن الجماعة ورأى طريقا في الجبل فظنه قاصرا فسلك عليه ووصل أصحابه الى أسفل الجبل فانتظروه فلم يأت فتطلعوا فيما حولهم فلم يروا له أثرا فظنوا أنه سبقهم فمضوا الى مكة شرفها الله تعالى ومر عيسى على طريقه فافضى به الى جبل آخر وتاه عن الطريق وأجهده العطش والحر وتمزقت نعله فكان يقطع من ثيابه ويلف على رجليه الى ان ضعف عن المشي واستظل بشجرة ام غيلان فبعث الله اعرابيا على جمل حتى وقف عليه فاعلمه بحاله فاركبه واوصله الى مكة وكان على وسطه هميان فيه ذهب فسلمه اليه واقام نحو شهر لا يستطيع القيام على قدميه وذهبت جلدتهما ونبتت لهما جلدة أخرى وقد جرى مثل ذلك لصاحب لي اذكره ان شاء الله. ومن المجاورين بالمدينة الشريفة أبو محمد الشروي من القراء المحسنين وجاور بمكة في السنة المذكورة وكان يقرأ بها كتاب الشفاء للقاضي عياض بعد صلاة الظهر وأم في التراويح بها ومن المجاورين بها الفقيه ابو العباس الفاسي مدرس المالكية بها وتزوج ببنت الشيخ الصالح شهاب الدين الزرندي — حكاية —

يذكر ان أبا العباس الفاسي تكلم يوما مع بعض الناس فانتهى به الكلام الى ان تكلم بعظيمة ارتكب فيها بسبب جهله بعلم النسب وعدم حفظه للسانه مركبا صعبا عفا الله عنه فقال ان الحسين بن على بن أبي طالب عليهما السلام لم يعقب فبلغ كلامه الى أمير المدينة طفيل ابن منصور بن جماز الحسني فانكر كلامه وحق انكاره واراد قتله فكلم فيه فنفاه عن المدينة ويذكرانه بعث من اغتاله والى الآن لم يظهر له أثر نعوذ بالله من عثرات اللسان وزلله

— ذكر أمير المدينة الشريفة —

كان أمير المدينة كبيش بن منصور بن جماز وكان قد قتل عمه مقبلا ويقال انه توضأ بدمه ثم ان كبيشا خرج سنة سبع وعشرين الى الفلاة في شدة الحر ومعه أصحابه فادركتهم القائلة في بعض الايام فتفرقوا تحت ظلال الاشجار فما راعهم الا وابناء مقبل في جماعة من عبيدهم ينادون يالثارات مقبل فقتلوا كبيش بن منصور صبرا ولعقوا دمه وتولى بعده أخوه طفيل بن منصور الذى ذكرنا أنه نفى أبا العباس الفاسي

— ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة —

فمنها بقيع الغرقد وهو بشرقي المدينة المكرمة ويخرج اليه على باب يعرف بباب البقيع فاول مايلقى الخارج اليه على يساره عند خروجه من الباب قبر صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنهما وهي عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وام الزبير بن العوام رضى الله عنه

وامامها قبر امام المدينة أبي عبدالله مالك بن انس رضى الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء وأمامه قبر السلالة الطاهرة المقدسة النبوية الكريمة ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وعليه قبة بيضاء وعن يمينها تربة عبدالرحمن بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وهو المعروف بابي شحمة وبازائه قبر عقيل بن ابي طالب رضي الله عنه وقبر عبدالله بن ذى الجناحين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما وبازائهم روضة يذكران قبور أمهات المؤمنين بها رضى الله عنهن ويليها روضة فيها قبر العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر الحسن بن على بن أبي طالب عليهم السلام وهي قبة ذاهبة في الهواء بديعة الاحكام عن يمين الخارج من باب البقيع ورأس الحسن الى رجلى العباس عليهما السلام وقبراهما مرتفعان عن الارض متسعان مغشيان بالواح بديعة الالصاق مرصعة بصفائح الصفر البديعة العمل وبالبقيع قبور المهاجرين والانصار وسائر الصحابة رضى الله عنهم الا انها لا يعرف أكثرها وفي آخر البقيع قبر أمير المؤمنين أبى عمر عثمان بن عفان رضى الله عنه وعليه قبة كبيرة وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت اسد بن هاشم ام على بن ابى طالب رضي الله عنها وعن ابنها ومن المشاهد الكريمة قباء وهو قبلى المدينة على نحو ميلين منها والطريق بينهما فى حدائق النخل وبه المسجد الذى اسس على التقوى والرضوان وهو مسجد مربع فيه صومعة بيضاء طويلة تظهر على البعدوفى وسطه مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم تسليما يتبرك الناس بالصلاة فيه وفى الجهة القبلية من صحنه محراب على مسطبة هو اول موضع ركع فيه النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وفي قبلى المسجد دار كانت لابى أيوب الانصاري رضى الله عنه ويليها دور تنسب لابى بكر وعمر وفاطمة وعائشة رضى الله عنهم وبازائه بئر اريس وهى التى عاد ماؤها عذبا لما تفل فيه النبي صلى الله عليه وسلم تسليما بعد أن كان أجاجا وفيها وقع الخاتم الكريم من عثمان رضى الله عنه ومن المشاهد قبة حجر الزيت بخارج المدينة الشريفة يقال إن الزيت رشح من حجر هنالك للنبي صلى الله عليه وسلم تسليما. والى جهة الشمال منه بئر بضاعة . وبازائها جبل الشيطان حيث صرخ يوم أحد وقال قتل نبيكم وعلى شفير الخندق الذى حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عند تحزب الاحزاب حصن خرب يعرف بحصن العزاب يقال ان عمر بناه لعزاب المدينة وامامه الى جهة الغرب بئر رومة التي اشترى أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه نصفها بعشرين الفا ومن المشاهد الكريمة أحد وهو الجبل المبارك الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما إن أحدا جبل يحبنا ونحبه وهو بجوار

المدينة الشريفة على نحو فرسخ منها وبازائه الشهداء المكرمون رضى الله عنهم وهنالك قبر حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضى الله عنه وحوله الشهداء المستشهدون فى أحد رضي الله عنهم وقبورهم لقبلى أحد وفى طريق أحد مسجد ينسب لعلى بن أبي طالب رضى الله عنه ومسجد ينسب الى سلمان الفارسي رضي الله عنه ومسجد الفتح حيث أنزلت سورة الفتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وكانت اقامتنا بالمدينة الشريفة فى هذه الوجهة أربعة أيام وفي كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم والناس قد حلقوا فى صحنه حلقا وأوقدوا الشمع الكثير وبينهم ربعات القرآن الكريم يتلونه وبعضهم يذكرون الله وبعضهم فى مشاهدة التربة الطاهرة زادها الله طيبا والحداة بكل جانب يترنمون بمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وهكذا دأب الناس فى تلك الليالى المباركة ويجودون بالصدقات الكثيرة على المجاورين والمحتاجين وكان فى صحبتى فى هذه الوجهة من الشام الى المدينة الشريفة رجل من أهلها فاضل يعرف بمنصور بن شكل واضافنى بها واجتمعنا بعد ذلك بحلب وبخارى وكان فى صحبتى أيضاً قاضى الزيدية شرف الدين قاسم بن سنان وصحبني أيضاً أحد الصلحاء الفقراء من أهل غرناطة يسمي على ابن حجر الاموى

— حكاية —

لما وصلنا الي المدينة كرمها الله على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام ذكر لى على بن حجر المذكور انه رأى تلك الليلة فى النوم قائلا يقول له اسمع مني واحفظ عني (طويل)

هنيأً لكم يازائرين ضريحه * أمنتم به يوم المعاد من الرجس

وصلتم الى قبر الحبيب بطيبة * فطوبي لمن يضحى بطيبة أو يمسى

وجاور هذا الرجل بعد صحبه بالمدينة ثم رحل الى مدينة دهلى قاعدة بلاد الهند فى سنة ثلاث وأربعين فنزل فى جواري وذكرت حكاية رؤياه بين يدي ملك الهند فامر باحضاره فحضر بين يديه وحكى له ذلك فاعجبه واستحسنه وقال له كلاما جميلا بالفارسية وأمر بانزاله وأعطاه ثلاثمائة تنكة من ذهب ووزن التنكة من دنانير المغرب دينار ان ونصف دينار وأعطاه فرسا محلى السرج واللجام وخلعة وعين له مرتباً فى كل يوم وكان هنالك فقيه طيب من أهل غرناطة ومولده ببجاية يعرف هنالك بجمال الدين المغربى فصحبه على بن حجر المذكور وواعده على أن يزوجه بنته وأنزله بدويرة خارج داره واشترى جارية وغلاما وكان يترك الدنانير فى مفرش ثيابه ولا يطمئن بها لاحد فاتفق الغلام والجارية على أخذ ذلك الذهب وأخذاه وهربا فلما اتى الدار لم يجدهما أثرا ولا

للذهب فامتنع من الطعام والشراب واشتد به المرض أسفا على ماجرى عليه فعرضت قضيته بين يدى الملك فامر أن يخلف له ذلك فبعث ذلك اليه من يعلمه بذلك فوجده قد مات رحمه الله تعالى وكان رحيلنا من المدينة نريد مكة شرفها الله تعالى فنزلنا بقرب مسجد ذي الحليفة الذى أحرم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبالمدينة منه على خمسة أميال وهو منتهى حرم المدينة وبا لقرب منه وادى العقيق وهنالك تجردت من مخيط الثياب واغتسلت ولبست ثوب احرامى وصليت ركعتين واحرمت بالحج مفرداً ولم أزل ملبيا فى كل سهل وجبل وصعود وحدور الى أن أتيت شعب على عليه السلام وبه نزلت تلك الليلة — ثم رحلنا منه ونزلنا بالروحاء وبها بئر تعرف ببئر ذات العلم ويقال ان عليا عليه السلام قاتل بها الجن — ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء وهو واد معمور فيه ماء ونخل وبنيان وقصر يسكنه الشرفاء الحسنيون وسواهم وفيها حصن كبير وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة — ثم رحلنا منه ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم تسليما وأنجز وعده الكريم واستاصل صناديد المشركين وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة وبها حصن منيع يدخل اليه من بطن واد بين جبال وببدر عين فوارة يجرى ماؤها وموضع القليب الذي سحب به أعداء الله المشركون هو اليوم بستان وموضع الشهداء رضى الله عنهم خلفه وجبل الرحمة الذي نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه الى الصفراء وبازائه جبل الطبول وهو شبه كثيب الرمل ممتد ويزعم أهل تلك البلدة انهم يسمعون هنالك مثل أصوات الطبول فى كل ليلة جمعة وموضع عريش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان به يوم بدر يناشد ربه جل وتعالى متصل بسفح جبل الطبول وموضع الوقيعة امامه وعند نخل القليب مسجد يقال له مبرك ناقة النبى صلى الله عليه وسلم تسليما وبين بدر والصفراء نحو بريد فى واد بين جبال تطرد فيه العيون وتتصل حدائق النخل ورحلنا من بدر الى الصحراء المعروفة بقاع البزواء وهي برية يضل بها الدليل . ويذهل عن خليله الخليل . مسيرة ثلاث وفى منتهاها وادى رابغ يتكون فيه بالمطر غدران يبقى بها الماء زمانا طويلا ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب وهو دون الجحفة وسرنا من رابغ ثلاثا الى خليص ومررنا بعقبة السويق وهى على مسافة نصف يوم من خليص كثيرة الرمل والحجاج يقصدون شرب السويق بها ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك ويسقونه الناس مخلطا بالسكر والامراء يملؤن منه الاحواض ويسقونها الناس ويذكران رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بها ولم يكن مع أصحابه طعام فاخذ من رملها فاعطاهم اياه فشربوه

سويقا ثم نزلنا بركة خليص وهى فى بسيط من الارض كثيرة حدائق النخل لها حصن مشيد فى قنة جبل وفى البسيط حصن خرب وبها عين فوارة قد صنعت لها أخاديد فى الارض وسربت الى الضياع وصاحب خليص شريف حسنى النسب وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقا عظيمة يجلبون اليها الغنم والتمر والادام ثم رحلنا الى عسفان وهى فى بسيط من الارض بين جبال وبها آبار ماء معين تنسب احداها الى عثمان بن عفان رضى الله عنه والمدرج المنسوب الى عثمان أيضا على مسافة نصف يوم من خليص وهو مضيق بين جبلين وفى موضع منه بلاط على صورة درج واثر عمارة قديمة وهنالك بئر تنسب الى على عليه السلام ويقال انه احدثها وبعسفان حصن عتيق وبرج مشيد قد اوهنه الخراب وبه من شجر المقل كثير ثم رحلنا من عسفان ونزلنا بطن مرو يسمى ايضا مر الظهران وهو واد مخصب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة تسقى تلك الناحية ومن هذا الوادي تجلب الفواكه والخضر الى مكة شرفها الله تعالى ثم ادلجنا من هذا الوادى المبارك والنفوس مستبشرة ببلوغ آمالها مسرورة بحالها ومآلها فوصلنا عند الصباح الى البلد الامين مكة شرفها الله تعالى فوردنا منها على حرم الله تعالى ومبوإ خليله ابراهيم ومبعث صفيه محمد صلى الله عليه وسلم ودخلنا البيت الحرام الشريف الذى من دخله كان آمنا من باب بنى شيبة وشاهدنا الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما وهي كالعروس تجلى على منصة الجلال وترفل فى برود الجمال محفوفة بوفود الرحمان موصلة الى جنة الرضوان وطفنا بها طواف القدوم واستلمنا الحجر الكريم وصلينا ركعتين بمقام ابراهيم وتعلقنا باستار الكعبة عند الملتزم بين الباب والحجر الاسود حيث يستجاب الدعاء وشربنا من ماء زمزم وهو لما شرب له حسبما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم تسليما ثم سعينا بين الصفا والمروة ونزلنا هنالك بدار بمقربة من باب ابراهيم والحمد لله الذى شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم وجعلنا ممن بلغته دعوة الخليل عليه الصلاة والتسليم ومتع أعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم والحجر الكريم وزمزم والحطيم ومن عجائب صنع الله تعالى انه طبع القلوب على النزوع الى هذه المشاهد المنيفة والشوق الى المثول بمعاهدها الشريفة وجعل حبها متمكنا فى القلوب فلا يحلها أحد الا أخذت بمجامع قلبه ولا يفارقها الا أسفا لفراقها متولها لبعاده عنها شديد الحنين اليها ناويا لتكرار الوفادة عليها فارضها المباركة نصب الاعين ومحبتها حشو القلوب حكمة من الله بالغة وتصديقا لدعوة خليله عليه السلام والشوق يحضرها وهى نائية ويمثلها وهى غائبة ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق

و يعانيه من العناء وكم من ضعيف يرى الموت عيانا دونها و يشاهد التلف في طريقها فاذا جمع الله بها شمله تلقاها مسرورا مستبشرا كانه لم يذق لها مرارة ولا كابد محنة ولا نصبا انه لامر إلهي وصنع رباني ودلالة لا يشوبها لبس ولا تغشاها شبهة ولا يطرقها تمويه وتعز في بصيرة المستبصرين وتبدو في فكرة المتفكرين ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الارجاء والمثول بذلك الفناء فقد انعم الله عليه النعمة الكبرى وخوله خير الدارين الدنيا والاخرى فحق عليه ان يكثر الشكر على ما خوله و يديم الحمد على ما أولاه جعلنا الله تعالى ممن قبلت زيارته وربحت في قصدها تجارته وكتبت في سبيل الله آثاره ومحيت بالقبول أوزاره بمنه وكرمه

ذكر مدينة مكة المعظمة

وهي مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة في بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل اليها وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ والاخشبان من جبالها هما جبل أبي قبيس وهو في جهة الجنوب منها وجبل قعيقعان وهو في جهة منها وفي الشمال منها الجبل الاحمر ومن جهة أبي قبيس أجياد الاكبر وأجياد الاصغر وهما شعبان والخندمه وهي جبل وستذكر (والمناسك كلها منى وعرفة والمزدلفة) بشرقي مكة شرفها الله ولمكة من الابواب ثلاثة باب المعلى باعلاها وباب الشبيكة من أسفلها و يعرف ايضا بباب الزاهر وبباب العمرة وهو الى جهة المغرب وعليه طريق المدينة الشريفة ومصر والشام وجدة ومنه يتوجه الى التنعيم وسيذكر ذلك وباب المسفل وهو من جهة الجنوب ومنه دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم الفتح ومكة شرفها الله كما اخبر الله في كتابه العزيز حاكيا عن نبيه الخليل بواد غير ذي زرع ولكن سبقت لها الدعوة المباركة فكل طرفة تجلب اليها وثمرات كل شيء تجبى لها ولقد اكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب مالا نظير له في الدنيا وكذلك البطيخ المجلوب اليها لا يماثله سواه طيبا وحلاوة واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم وكل ما يفترق في البلاد من السلع فيها اجتماعه وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادي نخلة وبطن مر لطفا من الله بسكان حرمه الامين ومجاوري بيته العتيق

ذكر المسجد الحرام شرفه الله وكرمه

والمسجد الحرام في وسط البلد وهو متسع الساحة طوله من شرق الى غرب ازيد من اربعمائة ذراع حكى ذلك الازرقي وعرضه يقرب من ذلك والكعبة العظمى في وسطه

ومنظره بديع ومرآه جميل لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه ولا يحيط الواصف بحسن كماله وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا وسقفه على أعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف باتقن صناعة وأجملها وقد انتظمت بلاطاته الثلاثة انتظاما عجيبا كانها بلاط واحد وعدد سواريه الرخامية أربعمائة واحدي وتسعون سارية ماعدا الجصية التي في دار الندوة المزيدة في الحرم وهي داخلة في البلاط الآخذ في الشمال ويقابلها المقام مع الركن العراقي وفضاؤها متصل يدخل من هذا البلاط اليه ويتصل بجدار هذا البلاط مساطب تحت قسي حنايا يجلس بها المقرئون والنساخون والخياطون وفي جدار البلاط الذي يقابله مساطب تماثلها وسائر البلاطات تحت جداراتها مساطب بدون حنايا وعند باب ابراهيم مدخل من البلاط الغربي فيه سوارى جصية وللخليفة المهدى محمد بن الخليفة أبي جعفر المنصور رضي الله عنهما آثار كريمة في توسيع المسجد الحرام وإحكام بنائه وفي أعلى جدار البلاط الغربي مكتوب أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين اصلحه الله بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارته في سنة سبع وستين ومائة

ـــ ذكر الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيما وتكريما ـــ

والكعبة ماثلة في وسط المسجد وهي بنية مربعة ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعا ومن الجهة الرابعة التي بين الحجر الاسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعا وعرض صفحتها التي من الركن العراقى الى الحجر الاسود أربعة وخمسون شبرا وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن اليماني الى الركن الشامي وعرض صفحتها التي من الركن العراقى الى الركن الشامى من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبرا وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامى الى الركن العراقى وأما خارج الحجر فانه مائة وعشرون شبرا والطواف انما هو خارج الحجر وبناؤها بالحجارة الصم السمر قد ألصقت بابدع الالصاق وأحكمه وأشده فلا تغيرها الايام ولا تؤثر فيها الازمان وباب الكعبة المعظمة في الصفح الذي بين الحجر الاسود والركن العراقى وبينه وبين الحجر الاسود عشرة أشبار وذلك الموضع هو المسمي بالملتزم حيث يستجاب الدعاء وارتفاع الباب عن الارض أحد عشر شبرا ونصف شبر وسعته ثمانية أشبار وطوله ثلاثة عشر شبرا وعرض الحائط الذى ينطوى عليه خمسة أشبار وهو مصفح بصفائح الفضة بديع الصنعة وعضادتاه وعتبته العليا مصفحات بالفضة وله نقارتان كبيرتان من فضة عليهما قفل ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة ويفتح في يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورسمهم في

فتحه ان يضعوا كرسيا شبه المنبر له درج وقوائم خشب لها أربع بكرات يجرى الكرسي عليها ويلصقونه الى جدار الكعبة الشريفة فيكون درجه الاعلى متصلا بالعتبة الكريمة ثم يصعد كبير الشيبيين وبيده المفتاح الكريم ومعه السدنة فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمي بالبرقع بخلال مايفتح رئيسهم الباب فاذا فتحه قبل العتبة الشريفة ودخل البيت وحده وسد الباب وأقام قدر مايركع ركعتين ثم يدخل سائر الشيبيين ويسدون الباب أيضا ويركعون ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول وفي أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بابصار خاشعة وقلوب ضارعة وأيد مبسوطة الى الله تعالى فاذا فتح كبروا ونادوا اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك ياأرحم الراحمين وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كذلك وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خطا وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة يقابل الاوسط منها نصف عرض الصفح الذى بين الركنين العراقى والشامى وستور الكعبة الشريفة من الحرير الاسود مكتوب فيها بالابيض وهي تتلألأ عليها نورا واشراقا وتكسو جميعها من الاعلى الى الارض ومن عجائب الآيات في الكعبة الكريمة ان بابها يفتح والحرم غاص بأمم لا يحصيها الا الله الذى خلقهم ورزقهم فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم ومن عجائبها أنها لا تخلو عن طائف أبدا ليلا ولا نهارا ولم يذكر أحد انه رآها قط دون طائف ومن عجائبها ان حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله فاذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها الى احدي الجهات ولم يعلها ويقال انه لا ينزل عليها طائر الا اذا كان به مرض فاما ان يموت لحينه أو يبرأ من مرضه فسبحان الذى خصها بالتشريف والتكريم وجعل لها المهابة والتعظيم

ـــ ذكر الميزاب المبارك ـــ

والميزاب في أعلى الصفح الذى على الحجر وهو من الذهب وسعته شبر واحد وهو بارز بمقدار ذراعين والموضع الذي تحت الميزاب مظنة استجابة الدعاء وتحت الميزاب في الحجر قبر اسماعيل عليه السلام وعليه رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب متصلة برخامة خضراء مستديرة وكلتاهما سعتها مقدار شبر ونصف شبر وكلتاهما غريبة الشكل رائقة المنظر والى جانبه مما يلى الركن العراقى قبر أمه هاجر عليها السلام وعلامته رخامة خضراء مستدير سعتها مقدار شبر ونصف وبين القبرين سبعة اشبار

ـــ ذكر الحجر الاسود ـــ

وأما الحجر الاسود فارتفاعه عن الارض ستة أشبار فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله والصغير يتطاول اليه وهو ملصق فى الركن الذي الى جهة المشرق وسعته ثلثا شبر وطوله شبر وعقد ولا يعلم قدر ما دخل منه فى الركن وفيه أربع قطع ملصقة ويقال ان القرمطي لعنه الله كسره وقيل ان الذى كسره سواه ضربه بدبوس فكسره وتبادر الناس الى قتله وقتل بسببه جماعة من المغاربة وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم فتجتلي منه العيون حسنا باهرا ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم ويود لاثمه أن لا يفارق لثمه خاصية مودعة فيه وعناية ربانية به وكفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم انه يمين الله فى أرضه نفعنا الله باستلامه ومصافحته واوفد عليه كل شيق اليه وفى القطعة الصحيحة من الحجر الاسود مما يلى جانبه الموالى لمين مستلمه نقطة بيضاء صغيرة مشرقة كأنها خال فى تلك الصحيفة البهية وتري الناس اذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحاما على تقبيله فقلما يتمكن أحد من ذلك الا بعد المزاحمة الشديدة وكذلك يصنعون عند دخول البيت الكريم ومن عند الحجر الاسود ابتداء الطواف وهو أول الاركان التي يلقاها الطائف فاذا استلمه تقهقر عنه قليلا وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ومضى فى طوافه ثم يلقى بعده الركن العراقى وهو الى جهة الشمال ثم ياتى الركن الشامى وهو الى جهة الغرب ثم يلقي الركن اليمانى وهو الى جهة الجنوب ثم يعود الى الحجر الاسود وهو الى جهة الشرق

— ذكر المقام الكريم —

إعلم ان بين باب الكعبة شرفها الله وبين الركن العراقي موضعا طوله اثنا عشر شبرا وعرضه نحو النصف من ذلك وارتفاعه نحو شبرين وهو موضع المقام فى مدة ابراهيم عليه السلام ثم صرفه النبي صلى الله عليه وسلم الى الموضع الذى هو الآن مصلى وبقي ذلك الموضع شبه الحوض واليه ينصب ماء البيت الكريم اذا غسل وهو موضع مبارك يزدحم الناس للصلاة فيه وموضع المقام الكريم يقابل ما بين الركن العراقي والباب الكريم وهو الى الباب أميل وعليه قبة تحتها شباك حديد متجاف عن المقام الكريم قدر ما تصل أصابع الانسان اذا أدخل يده من ذلك الشباك الى الصندوق والشباك مقفل ومن ورائه موضع محوز قد جعل مصلى لركعتى الطواف وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما لما دخل المسجد أتى البيت فطاف به سبعا ثم أتى المقام فقرأ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وركع خلفه ركعتين وخلف المقام مصلى امام الشافعية فى الحطيم الذي هنالك

— ذكر الحجر والمطاف —

ودور جدار الحجر تسع وعشرون خطوة وهي أربعة وتسعون شبرا من داخل الدائرة وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الالصاق وارتفاعه خمسة أشبار ونصف شبر وسعته أربعة أشبار ونصف شبر وداخل الحجر بلاط واسع مفروش بالرخام المجزع المنظم المعجز الصنعة البديع الاتقان وبين جدار الكعبة الشريفة الذى تحت الميزاب وبين ما يقابله من جدار الحجر على خط استواء أربعون شبرا وللحجر مدخلان أحدهما بينه وبين الركن العراقي وسعته ستة أذرع وهذا الموضع هو الذى تركته قريش من البيت حين بنته كما جاءت الآثار الصحاح والمدخل الآخر عند الركن الشامى وسعته أيضاً ستة أذرع وبين المدخلين ثمانية وأربعون شبرا وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود محكمة الالصاق وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا الا في الجهة التي تقابل المقام الكريم فانها امتدت اليه حتى أحاطت به وسائر الحرم مع البلاطات مفروش برمل ابيض وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة

— ذكر زمزم المباركة —

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الاسود وبينهما أربع وعشرون خطوة والمقام الكريم عن يمين القبة ومن ركنها اليه عشر خطا وداخل القبة مفروش بالرخام الابيض وتنور البئر المباركة في وسط القبة مائلا الى الجدار المقابل للكعبة الشريفة وهو من الرخام البديع الالصاق مفروغ بالرصاص ودوره أربعون شبرا وارتفاعه أربعة اشبار ونصف شبر وعمق البئر احدى عشرة قامة وهم يذكرون ان ماءها يتزايد في كل ليلة جمعة وباب القبة الى جهة الشرق وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر وعمقها مثل ذلك وارتفاعها عن الارض نحو خمسة أشبار تملأ ماء للوضوء وحولها مسطبة يقعد الناس عليها للوضوء ويلي قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة الى العباس رضي الله عنه وبابها الى جهة الشمال وهى الآن يجعل بها ماء زمزم في قلال يسمونها الدوارق وكل دورق له مقبض واحد وتترك بها ليبرد فيها الماء فيشرب به الناس وبها اختزان المصاحف الكريمة والكتب التي للحرم الشريف وبها خزانة تحتوى على تابوت مبسوط متسع فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضى الله عنه منتسخ سنة ثمان عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما واهل مكة اذا أصابهم قحط اوشدة اخرجوا هذا المصحف الكريم وفتحوا باب الكعبة الشريفة ووضعوه على العتبة الشريفة ووضعوه في مقام ابراهيم عليه السلام واجتمع الناس كاشفين رؤسهم داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الكريم فلا ينفصلون الا وقد تداركهم الله برحمته وتغمدهم بلطفه ويلي قبة العباس رضى الله تعالى عنه

على انحراف منها القبة المعروفة بقبة اليهودية

﴿ ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة ﴾

وأبواب المسجد الحرام شرفه الله تعالى تسعة عشر بابا وأكثرها مفتحة على أبواب كثيرة فمنها باب الصفا وهو مفتح على خمسة أبواب وكان قديما يعرف بباب بني مخزوم وهو أكبر أبواب المسجد ومنه يخرج الى المسعي و يستحب للوافد على مكة أن يدخل المسجد الحرام شرفه الله من باب بني شيبة و يخرج بعد طوافه من باب الصفا جاعلا طريقه بين الاسطوانتين اللتين أقامهما أمير المؤمنين المهدي رحمه الله علما على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما الى الصفا ومنها باب اجياد الاصغر مفتح على بابين ومنها باب الخياطين مفتح على بابين ومنها باب العباس رضي الله عنه مفتح على ثلاثة أبواب ومنها باب النبي صلى الله عليه وسلم تسليما مفتح على بابين ومنها باب بني شيبة وهو في ركن الجدار الشرقى من جهة الشمال أمام باب الكعبة الشريفة متياسرا وهو مفتح على ثلاثة أبواب وهو باب بني عبد شمس ومنه كان دخول الخلفاء ومنها باب صغير ازاء باب بني شيبة لا اسم له وقيل يسمي باب الرباط لانه يدخل منه لرباط السدرة ومنها باب الندوة و يسمى بذلك ثلاثة ابواب اثنان منتظمان والثالث في الركن الغربي من دار الندوة ودار الندوة قد جعلت مسجدا شارعا في الحرم مضافا اليه وهي تقابل الميزاب ومنها باب صغير لدار العجلة محدث ومنها باب السدرة واحد ومنها باب العمرة واحد وهو من أجل أبواب الحرم ومنها باب ابراهيم واحد والناس يختلفون في نسبته فبعضهم ينسبه الى ابراهيم الخليل عليه السلام والصحيح أنه منسوب الى ابراهيم الخوزي من الاعاجم ومنها باب الحزورة مفتح على بابين ومنها باب أجياد الاكبر مفتح على بابين ومنها باب ينسب الى أجياد أيضا مفتح على بابين وباب ثالث ينسب اليه مفتح على بابين و يتصل بباب الصفا ومن الناس من ينسب البابين من هذه الاربعة المنسوبة لاجياد الى الدقاقين * وصوامع المسجد الحرام خمس احداهن على ركن أبي قبيس عند باب الصفا والاخرى على ركن باب بني شيبة والثالثة على باب دار الندوة والرابعة على ركن باب السدرة والخامسة على ركن أجياد و بمقربة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر الذى تنسب اليه الدراهم المظفرية باليمن وهو كان يكسو الكعبة الى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون و بخارج باب ابراهيم زاوية كبيرة فيها دار امام المالكية الصالح أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل وعلى باب ابراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو قد صنع في

داخلها من غرائب صنع الجص ما يعجز عنه الوصف وبازاء هذا الباب عن يمين الداخل اليه كان يقعد الشيخ العابد جلال الدين محمد بن احمد الافشهرى وخارج باب ابراهيم رباط تدسبه كنسبته وعنده أيضا دار الشيخ الصالح دانيال العجمي الذى كانت صدقات العراق فى أيام السلطان أبي سعيد تاتى على يديه وبمقربة منه رباط الموفق وهو من أحسن الرباطات سكنته أيام مجاورتى بمكة المعظمة وكان به فى ذلك العهد الشيخ الصالح أبو عبد الله الزواوي المغربي وسكن به أيضا الشيخ الصالح الطيار سعادة الجرانى ودخل يوما الى بيته بعد صلاة العصر فوجد ساجدا مستقبل الكعبة الشريفة ميتا من غير مرض كان به رضي الله عنه وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامى نحوا من أربعين سنة وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربي من كبار الصالحين دخلت عليه يوما فلم يقع بصرى فى بيته على شيء سوى حصير فقلت له فى ذلك فقال لى أستر على ما رأيت . وحول الحرم الشريف دور كثيرة لها مناظر وسطوح يخرج منها الى سطح الحرم وأهلها فى مشاهدة البيت الشريف على الدوام ودور لها أبواب تفضى الى الحرم منها دار زبيدة زوج الرشيد أمير المؤمنين ومنها دار العجلة ودار الشرابي وسواها ومن المشاهد الكريمة بمقربة من المسجد الحرام قبة الوحي وهى فى دار خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها بمقربة من باب النبي صلي الله عليه وسلم وفى البيت قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام وبمقربة منها دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه ويقابلها جدار مبارك فيه حجر مبارك بارز طرفه من الحائط يستلمه الناس ويقال انه كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ويذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم تسليما جاء يوما الى دار أبي بكر الصديق ولم يكن حاضرا فنادي به النبي صلى الله عليه وسلم تسليما فنطق ذلك الحجر وقال يا رسول الله انه ليس بحاضر

— ذكر الصفا والمروة —

ومن باب الصفا الذى هو أحد أبواب المسجد الحرام الى الصفا ست وسبعون خطوة وسعة الصفا سبع عشرة خطوة وله أربع عشرة درجة علياهن كانها مسطبة وبين الصفا والمروة اربعمائة وثلاث وتسعون خطوة منها من الصفا الى الميل الاخضر ثلاث وتسعون خطوة ومن الميل الاخضر الى الميلين الاخضرين خمس وسبعون خطوة ومن الميلين الاخضرين الى المروة ثلاثمائة وخمس وعشرون خطوة والمروة خمس درجات وهي ذات قوس واحد كبير وسعة المروة سبع عشرة خطوة والميل الاخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التى على الركن الشرقى من الحرم عن يسار الساعي الى المروة والميلان الاخضران هما ساريتان خضراوان ازاء باب على من ابواب الحرم أحدهما فى جدار الحرم عن يسار

الخارج من الباب والاخرى تقابلها و بين الميل الاخضر والميلين الاخضرين يكون الرمل ذاهباً وعائداو بين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه والساعون بين الصفا والمروة لايكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة وليس بمكة سوق منتظمة سوي هذه الا البزازون والعطارون عند باب بني شيبة و بين الصفا والمروة دار العباس رضى الله عنه وهى الآن رباط يسكنه المجاورون عمره الملك الناصر رحمه الله و بني أيضا دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين وجعل لها بابين أحدهما فى السوق المذكور والآخر فى سوق العطارين وعليها ربع يسكنه خدامها وتولى بناء ذلك الامير علاء الدين بن هلال وعن يمين المروة دار أمير مكة سيف الدين عطيفة بن أبى نمى وسنذكره

— ذكر الجبانة المباركة —

وجبانة مكة خارجة باب المعلى و يعرف ذلك الموضع أيضاً بالحجون واياه عني الحارث ابن مضاض الجرهمي بقوله — طويل —

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالى والجدود العواثر

و بهذه الجبانة مدفن الجم الغفير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والاولياء الا أن مشاهدهم دثرت وذهب عن أهل مكة علمها فلا يعرف منها الا القليل فمن المعروف منها قبر أم المؤمنين ووزير سيد المرسلين خديجة بنت خويلد أم أولاد النبى صلى الله عليه وسلم تسليما كلهم ماعدا ابراهيم وجدة السبطين الكريمين صلوات الله وسلامه على النبى صلى الله عليه وسلم تسليما وعليهم أجمعين و بمقربة منه قبر الخليفة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وعبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهم أجمعين وفيها الموضع الذى صلب فيه عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما وكان به بنية هدمها أهل الطائف غيرة منهم لما كان يلحق حجاجهم المبير من اللعن وعن يمين مستقبل الجبانة مسجد خراب يقال انه المسجد الذي بايعت الجن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وعلى هذه الجبانة طريق الصاعد الى عرفات وطريق الذاهب الى الطائف والى العراق

— ذكر بعض المشاهد خارج مكة —

فمنها الحجون وقد ذكرناه و يقال أيضاً ان الحجون هو الجبل المطل على الجبانة ومنها المحصب وهو أيضاً الابطح وهو يلى الجبانة المذكورة وفيه خيف بنى كنانة الذى

نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ومنها ذو طوي وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التي بالحصحاص دون ثنية كداء ويخرج منه الى الاعلام الموضوعة حجزا بين الحل والحرم وكان عبدالله بن عمر رضى الله عنه اذا قدم مكة شرفها الله تعالى يبيت بذى طوى ثم يغتسل منه ويغدو الى مكة و يذكر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فعل ذلك ومنها ثنية كدي (بضم الكاف) وهي باعلى مكة ومنها دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع الى مكة ومنها ثنية كداء (بفتح الكاف) و يقال لها الثنية البيضاء وهي باسفل مكة ومنها اخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عام الوداع وهي بين جبلين وفى مضيقها كوم حجارة موضوع علي الطريق وكل من يمر به يرجمه بحجر و يقال انه قبر أبي لهب وزوجه حمالة الحطب و بين هذه الثنية و بين مكة بسيط سهل ينزله الركب اذا صدروا عن مني و بمقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة شرفها الله مسجد بازائه حجر موضوع على الطريق كأنه مسطبة يعلوه حجر آخر كان فيه نقش فدثر رسمه يقال ان النبي صلى الله عليه وسلم تسليما قعد بذلك الموضع مستريحا عند مجيئه من عمرته فيتبرك الناس بتقبيله و يستندون اليه ومنها التنعيم وهو على فرسخ من مكة ومنه يعتمر أهل مكة وهو أدني الحل الى الحرم ومنه اعتمرت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها حين بعثها رسول الله صلي الله عليه وسلم تسليما فى حجة الوداع مع أخيها عبد الرحمن رضي الله عنه وأمره أن يعمرها من التنعيم و بنيت هنالك مساجد ثلاثة على الطريق تنسب كلها الى عائشة رضى الله عنها وطريق التنعيم طريق فسيح والناس يتحرون كنسه في كل يوم رغبة فى الاجر والثواب لان من المعتمرين من يمشي فيه حافيا وفى هذا الطريق الآبار العذبة التي تسمي الشبيكة ومنها الزاهر وهو على نحو ميلين من مكة على طريق التنعيم وهو موضع علي جانبي الطريق فيه أثر دور و بساتين وأسواق وعلي جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الشرب وأواني الوضوء يملؤها خديم ذلك الموضع من آبار الزاهر وهى بعيدة القعر جدا والخديم من الفقراء المجاورين وأهل الخير يعينونه على ذلك لما فيه من المرفقة للمعتمرين من الغسل والشرب والوضوء وذوطوى يتصل بالزاهر

ذكر الجبال المطيفة بمكة

فمنها جبل أبي قبيس وهو فى جهة الجنوب والشرق من مكة حرسها الله وهو أحد الاخشبين وادنى الجبال من مكة شرفها الله ويقابل ركن الحجر الاسود وبأعلاه مسجد وأثر رباط وعمارة وكان الملك الظاهر رحمه الله أراد أن يعمره وهو مطل على الحرم الشريف وعلى

جميع البلد ومنه يظهر حسن مكة شرفها الله وجمال الحرم واتساعه والكعبة المعظمة ويذكر أن جبل أبي قبيس هو أول جبل خلقه الله تعالى وفيه استودع الحجر زمان الطوفان وكانت قريش تسميه الامين لأنه أدي الحجر الذى استودع فيه الى الخليل ابراهيم عليه السلام ويقال إن قبر آدم عليه السلام به وفي جبل أبي قبيس موضع موقف النبي صلى الله عليه وسلم حين انشق له القمر ومنها قعيقعان وهو أحد الاخشبين ومنها الجبل الاحمر وهو في جهة الشمال من مكة شرفها الله ومنها الخندمة وهو جبل عند الشعبين المعروفين باجياد الاكبر وأجياد الاصغر ومنها جبل الطير وهو على أربعة عن جهتي طريق التنعيم يقال انها الجبال التي وضع عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثم دعاها حسبما نص الله في كتابه العزيز وعليها أعلام من حجارة ومنها جبل حراء وهو في الشمال من مكة شرفها الله تعالى على نحو فرسخ منها وهو مشرف على منى ذاهب في الهواء عالي القنة وكان رسول الله صلي الله عليه وسلم يتعبد فيه كثيرا قبل المبعث وفيه أتاه الحق من ربه وبدا الوحي وهو الذي اهتز تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أثبت فما عليك الا نبي وصديق وشهيد واختلف فيمن كان معه يومئذ وروي ان العشرة كانوا معه وقد روي أيضاً أن جبل ثبير اهتز تحته أيضاً ومنها جبل ثور وهو على مقدار فرسخ من مكة شرفها الله تعالى على طريق اليمن وفيه الغار الذي آوى اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما حين خروجه مهاجرا من مكة شرفها الله ومعه الصديق رضى الله عنه حسبما ورد في الكتاب العزيز وذكر الازرقي في كتابه أن الجبل المذكور نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وقال الي يا محمد الى الى فقد آويت قبلك سبعين نبياً فلما دخل رسول الله الغار واطمأن به وصاحبه الصديق معه نسجت العنكبوت من حينها على باب الغار وصنعت الحمامة عشا وفرخت فيه باذن الله تعالى فانتهي المشركون ومعهم قصاص الاثر الى الغار فقالوا ها هنا انقطع الاثر ورأوا العنكبوت قد نسج على فم الغار والحمام مفرخة فقالوا ما دخل احد هنا وانصرفوا فقال الصديق يارسول الله لو ولجوا علينا منه قال كنا نخرج من هنا وأشار بيده المباركة الى الجانب الآخر ولم يكن فيه باب فانفتح فيه باب للحين بقدرة الملك الوهاب والناس يقصدون زيارة هذا الغار المبارك فيرومون دخوله من الباب الذى دخل منه النبي صلى الله عليه وسلم تبركا بذلك فمنهم من يتاتى له ومنهم من لا يتاتى له وينشب فيه حتي يتناول بالجذب العنيف ومن الناس من يصلي أمامه ولا يدخله وأهل تلك البلاد يقولون انه من

كان لرشدة دخله ومن كان لزنيـة لم يقدر على دخوله ولهـذا يتحاماه كثير من النـاس لانه مخجل فاضح قال ابن جزي اخـبرني بعض أشياخنا الحجاج الا كيـاس ان سبب صعـوبة الدخول اليه هو ان بداخله مما يلي هذا الشق الذي يدخل منه حجرا كبيرا معترضاً فمن دخـل من ذلك الشق منبطحا على وجهه وصل رأسه الى ذلك الحجر فـلم يمكنه التولج ولا يمكنه ان ينطوى الى العلو ووجهه وصـدره يليان الارض فذلك هو الذى ينشب ولا يخلص الا بعد الجهـد والجبذ الى خارج ومن دخل منه مستلقيـا على ظهره امكنه لانه اذا وصل رأسه الى الحجر المعترض رفع رأسه واستوى قاعدا فكان ظهره مستندا الى الحجر المعترض وأوسطه فى الشق ورجلاه من خارج الغار ثم يقوم قائما بداخل الغار (رجع)

﴿ حكاية ﴾

ومما اتفق بهذا الجبل لصاحبين من أصحابي احدهما الفقيه المكرم أبو محمد عبد الله ابن فرحان الافريقي التوزرى والآخر أبو العباس أحمـد الاندلسى الوادي آشي انهما قصدا (الغار) فى حين مجاورتهما بمكة شرفها الله تعالى فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وذهبا منفردين لم يستصحبا دليلا عارفا بطريقه فتاها وضلا طريق الغار وسلكا طريقا سواها منقطعة وذلك فى اوان اشتداد الحر وحمي القيظ فلما نفد ما كان عندهما من الماء وهما لم يصلا الى الغار اخذا فى الرجوع الى مكة شرفها الله تعالى فوجدا طريقا فاتبعاه وكان يفضى الى جبل آخر واشتد بهما الحر وأجهدهما العطش وعاينـا الهلاك وعجز الفقيه أبو محمد بن فرحان عن المشي جملة والقى بنفسه الى الارض ونجا الاندلسى بنفسـه وكان فيه فضل قوة ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى أفضى به الطريق الى أجياد فدخـل الى مكة شرفها الله تعالى وقصدنى واعلمني بهذه الحادثة وبما كان من امر عبد الله التوزرى وانقطاعه فى الجبل وكان ذلك فى آخر النهار ولعبد الله المذكور ابن عم اسمه حسن وهو من سكان وادى نخلة وكان اذذاك بمكة فاعلمته بما جرى على ابن عمه وقصدت الشيخ الصالح الامام اباعبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بخليل امام المالكية نفع الله به فاعلمته بخبره فبعث جماعة من أهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب فى طلبه وكان من أمر عبد الله التوزرى انه لما فارقه رفيقه لجأ الى حجر كبير فاستظل بظله وأقام على هذه الحالة من الجهد والعطش والغربان تطير فوق رأسه وتنتظر موته فلما انصرم النهـار وأتي الليل وجد فى نفسه قوة ونعشه برد الليل فقام عند الصباح على قدميه ونزل من الجبل الى بطن واد حجبت الجبـال عنه الشمس فلم يزل ماشيا الى أن بدت له دابة فقصد

قصدها فوجد خيمة للعرب فلما رآها وقع الى الارض ولم يستطع النهوض فرأته صاحبة الخيمة وكان زوجها قد ذهب الى ورد الماء فسقته ما كان عندها من الماء فلم يروو جاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرو وأركبه حماراله وقدم به مكة فوصلها عند صلاة العصر من اليوم الثانى متغيرا كانه قام من قبر

﴿ ذكر أميري مكة ﴾

وكانت امارة مكة فى عهد دخولى اليها للشريفين الاجلين الاخوين أسد الدين رميثة وسيف الدين عطيفة ابنى الامير ابي نمى بن أبى سعد بن على بن قتادة الحسنيين ورميثة أكبرهما سنا ولكنه كان يقدم اسم عطيفة في الدعاء له بمكة لعدله ولرميثة من الاولاد أحمد وعجلان وهو أمير مكة فى هذا العهد وتقية وسند وأم قاسم ولعطيفة من الاولاد محمد ومبارك ومسعود ودار عطيفة عن يمين المروة ودار أخيه رميثة برباط الشرابي عند باب بني شيبة وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب من كل يوم

ــــ ذكر اهل مكة وفضائلهم ــــ

ولاهل مكة الافعال الجميلة والمكارم التامة والاخلاق الحسنة والايثار الى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء ومن مكارمهم أنهم متى صنع احدهم وليمة يبدأ فيها باطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالافران حيث يطبخ الناس أخبازهم فاذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله الى منزله فيتبعه المساكين فيعطى لكل واحد منهم ماقسم له ولا يردهم خائبين ولو كانت له خبزة واحدة فانه يعطى ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر ومن افعالهم الحسنة ان الايتام الصغار يقعدون بالسوق ومع كل واحد منهم قفتان كبرى وصغرى وهم يسمون القفة مكتلا فياتى الرجل من أهل مكة الى السوق فيشترى الحبوب واللحم والخضر ويعطى ذلك للصبي فيجعل الحبوب فى احدى قفتيه واللحم والخضر فى الاخرى ويوصل ذلك الى دار الرجل ليهيا لهطعامه منها ويذهب الرجل الى طوافه وحاجته فلا يذكر ان احدا من الصبيان خان الامانة فى ذلك قط بل يؤدي ماحمل على أتم الوجوه ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس وأهل مكة لهم ظرف ونظافة فى الملابس وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم ابدا ناصعة ساطعة ويستعملون الطيب كثيرا ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الاراك الاخضر ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف وهن يكثرن التطيب حتى ان احداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيبا وهن يقصدن الطواف

بالبيت في كل ليلة جمعة فيا تين في أحسن زى وتغلب على الحرم رائحة طيبهن وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا ولاهل مكة عوائد حسنة في الموسم وغيره سنذكرها ان شاء الله تعالى اذا فرغنا من ذكر فضلائها ومجاوريها

— ذكر قاضي مكة وخطيبها وامام الموسم وعلمائها وصلحائها —

قاضي مكة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد ابن الامام العالم محيي الدين الطبرى وهو فاضل كثير الصدقات والمواساة للمجاورين حسن الأخلاق كثير الطواف والمشاهدة للكعبة الشريفة يطعم الطعام الكثير في المواسم المعظمة وخصوصا في مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فانه يطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وفقراءها وخدام الحرم الشريف وجميع المجاورين وكان سلطان مصر الملك الناصر رحمه الله يعظمه كثيرا وجميع صدقاته وصدقات امرائه تجرى على يديه وولده شهاب الدين فاضل وهو الآن قاضي مكة شرفها الله وخطيب مكة الامام بمقام ابراهيم عليه السلام الفصيح المصقع وحيد عصره بهاء الدين الطبرى وهو أحد الخطباء الذين ليس بالمعمور مثلهم بلاغة وحسن بيان وذكر لى انه ينشىء لكل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد وأمام الموسم وامام المالكية بالحرم الشريف هو الشيخ الفقيه العالم الصالح الخاشع الشهير ابو عبد الله محمد ابن الفقيه الامام الصالح الورع أبي زيد عبد الرحمن وهو المشتهر بخليل نفع الله به وأمتع ببقائه وأهله من تلاد الجريد من افريقية ويعرفون بها ببني حيون وهم من كبارها ومولده ومولد أبيه بمكة شرفها الله وهو أحد الكبار من أهل مكة بل واحدها وقطبها باجماع الطوائف على ذلك مستغرق العبادة في جميع أوقاته حيي كريم النفس حسن الاخلاق كثير الشفقة لا يرد من ساله خائبا

— حكاية مباركة —

رأيت أيام مجاورتي بمكة شرفها الله وأنا اذذاك ساكن منها بالمدرسة المظفرية رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما في النوم وهو قاعد بمجلس التدريس من المدرسة المذكورة بجانب الشباك الذى تشاهد منه الكعبة الشريفة والناس يبايعونه فكنت أرى الشيخ أبا عبد الله المدعو بخليل قد دخل وقعد القرفصاء بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وجعل يده في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أبايعك على كذا وكذا وعدد أشياء منها وأن لا أرد من بيتي مسكينا خائبا وكان ذلك آخر كلامه فكنت أعجب من قوله وأقول في نفسي كيف يقول هذا ويقدر عليه مع كثرة فقراء مكة واليمن والزيالعة والعراق والعجم ومصر والشام وكنت أراه حين ذلك لابسا جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة

با لقفطان كان يلبسها فى بعض الاوقات فلما صليت الصبح غدوت عليه واعلمته برؤياي فسر بها وبكى وقال لى تلك الجبة أهداها بعض الصالحين لجدى فانا ألبسها تبركا ومارأيته بعد ذلك يرد سائلا خائبا وكان يامر خدامه يخبزون الخبز ويطبخون الطعام وياتون به الى بعد صلاة العصر من كلّ يوم وأهل مكة لا ياكلون فى اليوم الامرة واحدة بعد العصر ويقتصرون عليها الى مثل ذلك الوقت ومن أراد الاكل فى سائر النهار أكل التمر ولذلك صحت أبدانهم وقلت فيهم الامراض والعاهات وكان الشيخ خليل متزوجا بنت القاضى نجم الدين الطبرى فشك فى طلاقها وفارقها وتزوجها بعده الفقيه شهاب الدين النويري من كبار المجاورين وهو من صعيد مصر وأقامت عنده اعواما وسافر بها الى المدينة الشريفة ومعها أخوها شهاب الدين فحنث فى يمين بالطلاق ففارقها على ضنانته بها وراجعها الفقيه خليل بعد سنين عدة ومن أعلام مكة امام الشافعية شهاب الدين بن البرهان ومنهم امام الحنفية شهاب الدين أحمد بن على من كبار أئمة مكة وفضلائها يطعم المجاورين وأبناء السبيل وهو أكرم فقهاء مكة ويدان فى كل سنة أربعين ألف درهم وخمسين ألفا فيؤدبها الله عنه وامراء الاتراك يعظمونه ويحسنون الظن به لانه امامهم ومنهم امام الحنابلة المحدث الفاضل محمد بن عثمان البغدادي الاصل المكى المولد وهو نائب القاضى نجم الدين والمحتسب بعد قتل تقى الدين المصرى والناس يهابونه لسطوته

— حكاية —

كان تقى الدين المصرى محتسبا بمكة وكان له دخول فيما يعنيه وفيما لا يعنيه فاتفق فى بعض السنين ان أتى أمير الحاج بصبي من ذوى الدعارة بمكة قد سرق بعض الحجاج فامر بقطع يده فقال له تقي الدين ان لم تقطعها بحضرتك والا غلب أهل مكة خدامك عليه فاستنقذوه منهم وخلصوه فامر بقطع يده فى حضرته فقطعت وحقدها لتقي الدين ولم يزل يتربص به الدوائر ولا قدرة له عليه لانه حسبا من الاميرين رميثة وعطيفة والحسب عندهم ان يعطى أحدهم هدية من عمامة اوشاشية بمحضر الناس تكون جوارا لمن اعطيته ولا تزول حرمتها معه حتى يريد الرحلة والتحول عن مكة فاقام تقي الدين بمكة أعواما ثم عزم على الرحلة وودع الاميرين وطاف طواف الوداع وخرج من باب الصفا فلقيه صاحبه الاقطع وتشكى له ضعف حاله وطلب منه مايستعين به على حاجته فانتهره تقي الدين وزجره فاستل خنجرا له يعرف عندهم بالجنبية وضربه ضربة واحدة كان فيها حتفه ومنهم الفقيه الصالح زين الدين الطبري شقيق نجم الدين المذكور من أهل الفضل والاحسان للمجاورين ومنهم الفقيه المبارك محمد بن فهد القرشى من فضلاء مكة وكان ينوب عن القاضى نجم الدين بعد وفاة الفقيه

محمد بن عثمان الحنبلي ومنهم العدل الصالح محمد بن البرهان زاهد ورع مبتلى بالوسواس رأيته يوما يتوضأ من بركة المدرسة المظفرية فيغسل ويكرر ولما مسح رأسه أعاد مسحه مرات ثم لم يقنعه ذلك فغطس رأسه في البركة وكان اذا أراد الصلاة ربما صلى الامام الشافعي وهو يقول نويت نويت فيصلي مع غيره وكان كثير الطواف والاعتمار والذكر

— ذكر المجاورين بمكة —

فمنهم الامام العالم الصالح الصوفي المحقق العابد عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليمني الشافعي الشهير باليافعي كثير الطواف آناء الليل وأطراف النهار وكان اذا طاف من الليل يصعد الى سطح المدرسة المظفرية فيقعد مشاهد الكعبة الشريفة الى ان يغلبه النوم فيجعل تحت رأسه حجرا وينام يسيرا ثم يجدد الوضوء ويعود لحاله من الطواف حتى يصلي الصبح وكان متزوجا ببنت الفقيه العابد شهاب الدين بن البرهان وكانت صغيرة السن فلا تزال تشكو الى أبيها حالها فيامرها بالصبر فاقامت معه على ذلك سنين ثم فارقته ومنهم الصالح العابد نجم الدين الاصفوني كان قاضيا ببلاد الصعيد فانقطع الى الله تعالى وجاور بالحرم الشريف وكان يعتمر في كل يوم من التنعيم ويعتمر في رمضان مرتين في اليوم اعتمادا على ما في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم تسليما انه قال عمرة في رمضان تعدل حجة معي ومنهم الشيخ الصالح العابد شمس الدين محمد الحلبي كثير الطواف والتلاوة من قدماء المجاورين مات بمكة شرفها الله ومنهم الصالح أبو بكر الشيرازي المعروف بالصامت كثير الطواف أقام بمكة أعواما لا يتكلم فيها ومنهم الصالح خضر العجمي كثير الصوم والتلاوة والطواف ومنهم الشيخ الصالح برهان الدين العجمي الواعظ كان ينصب له كرسي تجاه الكعبة الشريفة فيعظ الناس ويذكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع ياخذ بمجامع القلوب ومنهم الصالح المجود برهان الدين ابراهيم المصري مقرىء مجيد ساكن رباط السدرة ويقصده أهل مصر والشام بصدقاتهم ويعلم الايتام كتاب الله تعالى ويقوم بمؤنهم ويكسوهم ومنهم الصالح العابد عز الدين الواسطي من أصحاب الاموال الطائلة يحمل اليه من بلده المال الكثير في كل سنة فيبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين ويتولى حملها الى بيوتهم بنفسه ولم يزل ذلك دابه الى ان توفي ومنهم الفقيه الصالح الزاهد أبو الحسن علي بن رزق الله الانجري من أهل قطر طنجة من كبار الصالحين جاور بمكة أعواما وبها وفاته كانت بينه وبين والدي صحبة قديمة ومتى أتى بلدنا طنجة نزل عندنا وكان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهارا ويأوي بالليل الى مسكنه برباط ربيع وهو من أحسن

الرباطات بمكة بداخله بئر عذبة لا تماثلها بئر بمكة وسكانه الصالحون وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيما شديدا وينذرون له النذور وأهل الطائف ياتونه بالفواكه ومن عادتهم ان كل من له بستان من النخيل والعنب والفرسك وهو الخوخ والتين وهم يسمونه الخمط يخرج منه العشر لهذا الرباط ويوصلون ذلك اليه على جمالهم ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان ومن لم يف بذلك نقصت فواكهه في السنة الآتية وأصابتها الجوائح

— حكاية في فضله —

أتي يوما غلمان الامير أبي نمي صاحب مكة الى هـذا الرباط ودخلوا بخيل الامير وسقوها من تلك البئر فلما عادوا بالخيل الى مرابطها أصابتها الاوجاع وضربت بانفسها الارض وبرؤسها وأرجلها واتصل الخبر بالامير أبي نمي فاتي باب الرباط بنفسه واعتذر الى المساكين الساكنين به واستصحب واحدا منهم فمسح على بطون الدواب بيده فاراقت ما كان في أجوافها من ذلك الماء وبرئت مما أصابها ولم يتعرضوا بعدها للرباط الا بالخير ومنهم الصالح المبارك أبو العباس الغماري من أصحاب أبي الحسن بن رزق الله وسكن رباط ربيع ووفاته بمكة شرفها الله ومنهم الصالح أبو يعقوب يوسف من بادية سبتة كان خديما للشيخين المذكورين فلما توفيا صار شيخ الرباط بعدهما ومنهم الصالح السائح السالك أبو الحسن على بن فرغوس التلمساني ومنهم الشيخ سعيد الهندي شيخ رباط كلالة

— حكاية —

كان الشيخ سعيد قد قصد ملك الهند محمد شاه فاعطاه مالا عظيما قدم به مكة فسجنه الامير عطيفة وطلبه باداء المال فامتنع فعذب بعصر رجليه فاعطي خمسة وعشرين ألف درهم نقرة وعاد الى بلاد الهند ورأيته بها ونزل بدار الامير سيف الدين غدا بن هبة الله بن عيسي بن مهنى أمير عرب الشام وكان غدا ساكنا ببلاد الهند متزوجا باخت ملكها وسيذكر أمره فاعطى ملك الهند للشيخ سعيد جملة مال وتوجه صحبة حاج يعرف بوشل من ناس الامير غدا وجهه الامير المذكور لياتيه ببعض ناسه ووجه معه أموالا وتحفا منها الخلعة التي خلعها عليه ملك الهند ليلة زفافه باخته وهي من الحرير الازرق مزركشة بالذهب ومرصعة بالجوهر بحيث لا يظهر لونها لغلبة الجوهر عليها وبعث معه خمسين ألف درهم ليشتري له الخيل العتاق فسافر الشيخ سعيد صحبة وشل واشتريا سلعا بما عندهما من الاموال فلما وصلا جزيرة سقطرة المنسوب اليها الصبر السقطري خرج عليهما لصوص الهند في مراكب كثيرة فقاتلوهم قتالا شديدا مات فيه من الفريقين جملة وكان وشل راميا فقتل

منهم جماعة ثم تغلب السراق عليهم وطعنوا وشلا طعنة مات منها بعد ذلك وأخذوا ما كان عندهم وتركوا لهم مركبهم بآلة سفره وزاده فذهبوا الى عدن ومات بها وشل وعادة هؤلاء السراق أنهم لا يقتلون احدا إلا حين القتال ولا يغرقونه وانما ياخذون ماله ويتركونه يذهب بمركبه حيث شاء ولا ياخذون المماليك لانهم من جنسهم وكان الحاج سعيد قد سمع من ملك الهند انه يريد اظهار الدعوة العباسية ببلده كمثل مافعله ملوك الهند ممن تقدمه مثل السلطان شمس الدين للمش واسمه « بفتح اللام الاولى واسكان الثانية وكسر الميم وشين معجم » وولده ناصر الدين ومثل السلطان جلال الدين فيروزشاه والسلطان غياث الدين بلبن وكانت الخلع تاتي اليهم من بغداد فلما توفي وشل قصد الشيخ سعيد الى الخليفة أبي العباس ابن الخليفة أبي الربيع سليمان العباسي بمصر وأعلمه بالامر فكتب له كتابا بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند فاستصحب الشيخ سعيد الكتاب وذهب الى اليمن واشترى بها ثلاث خلع سودا وركب البحر الى الهند فلما وصل كنبايت وهي على مسيرة أربعين يوما من دهلي حضرة ملك الهند كتب صاحب الخبر الى الملك يعلمه بقدوم الشيخ سعيد وأن معه أمر الخليفة وكتابه فورد الامر ببعثه الى الحضرة مكرما فلما قرب من الحضرة بعث الامراء والقضاة والفقهاء لتلقيه ثم خرج هو بنفسه لتلقيه فتلقاه وعانقه ودفع له الامر فقبله ووضعه على رأسه ودفع له الصندوق الذي فيه الخلع فاحتمله الملك على كاهله خطوات ولبس احدى الخلع وكسا الاخرى الامير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف ابن عبد العزيز بن الخليفة المنتصر العباسي وكان مقيما عنده وسيذكر خبره وكسا الخلعة الثالثة الامير قبولة الملقب بالملك الكبير وهو الذي يقوم على رأسه ويشرد عنه الذباب وأمر السلطان فخلع على الشيخ سعيد ومن معه وأركبه على الفيل ودخل المدينة كذلك والسلطان أمامه على فرسه وعن يمينه وشماله الاميران اللذان كساهما الخلعتين العباسيتين والمدينة قد زينت بانواع الزينة وصنع بها احدى عشرة قبة من الخشب كل قبة منها أربع طبقات في كل طبقة طائفة من المغنيين رجالا ونساء والراقصات وكلهم مماليك السلطان والقبة مزينة بثياب الحرير المذهب أعلاها وأسفلها وداخلها وخارجها وفي وسطها ثلاثة أحواض من جلود الجواميس مملوءة ماء قد حل فيه الجلاب يشرب به كل وارد وصادر لا يمنع منه أحد وكل من يشرب منه يعطى بعد ذلك خمس عشرة ورقة من أوراق التنبول والفوفل والنورة فيأكلها فتطيب نكهته وتزيد في حمرة وجهه ولثاته وتقمع عنه الصفراء وتهضم ما أكل من الطعام ولما ركب الشيخ سعيد على الفيل فرشت له ثياب الحرير بين يدي الفيل

يطؤ عليها الفيل من باب المدينة الى دار السلطان و أنزل بدار تقرب من دار الملك و بعث
له أموالا طائلة و جميع الاثواب المعلقة والمفروشة بالقباب والموضوعة بين يدى الفيل
لا تعود الى السلطان بل يأخذها أهل الطرب وأهل الصناعات الذين يصنعون القباب
و خدام الاحواض وغيرهم وهكذا فعلهم متى قدم السلطان من سفر وأمر الملك بكتاب
الخليفة ان يقرأ على المنبر بين الخطبتين فى كل يوم جمعة وأقام الشيخ سعيد شهراً ثم بعث
معه الملك هدايا الى الخليفة فوصل كنبايت وأقام بها حتى تيسرت أسباب حركته فى البحر
وكان ملك الهند قد بعث أيضاً من عنده رسولا الى الخليفة وهو الشيخ رجب البرقعى
أحد شيوخ الصوفية وأصله من مدينة القرم من صحراء قبجق و بعث معه هدايا للخليفة
منها حجر ياقوت قيمته خمسون ألف دينار وكتب له يطلب منه أن يعقد له النيابة عنه
ببلاد الهند والسند و يبعث لها سوادا من يظهر له هكذا نص عليه كتابه اعتقاداً منه فى
الخلافة وحسن نية وكان للشيخ رجب أخ بديار مصر يدعى بالامير سيف الدين الكاشف
فلما وصل رجب الى الخليفة أبى أن يقرأ الكتاب ويقبل الهدية الا بحضر الملك
الصالح اسماعيل ابن الملك الناصر فأشار سيف الدين على أخيه رجب ببيع الحجر فباعه
واشترى بثمنه وهو ثلاثمائة الف درهم اربعة أحجار وحضر بين يدى الملك الصالح
ودفع له الكتاب وأحد الاحجار ودفع سائرها لامرائه واتفقوا على أن يكتب الملك الهند
بما طلبه فوجهوا الشهود الى الخليفة واشهد على نفسه انه قدمه نائبا عنه ببلاد الهند وما
يليها و بعث الملك الصالح رسولا من قبله وهو شيخ الشيوخ بمصر ركن الدين العجمي
ومعه الشيخ رجب وجماعة من الصوفية وركبوا بحر فارس من الابلة الى هرمز وسلطانها
يومئذ قطب الدين تمتهن طوران شاه فاكرم مثواهم وجهز لهم مركبا الي بلاد الهند
فوصلوا مدينة كنبايت والشيخ سعيد بها وأميرها يومئذ مقبول التلنكى أحد خواص ملك
الهند فاجتمع الشيخ رجب بهذا الاميرو قال له ان الشيخ سعيدا انما جاءكم بالتزوير والخاتم التى
ساقها انما اشتراها بعدن فينبغي أن تثقفوه و تبعثوه لخوندعالم وهو السلطان فقال له الامير
الشيخ سعيد معظم عند السلطان فما يفعل به هذا الابامره ولكني أبعثه معكم ليري فيه
السلطان رأيه وكتب الامير بذلك كله الى السلطان وكتب به أيضا صاحب الاخبار فوقع
فى نفس السلطان تغير وانقبض عن الشيخ رجب لكونه تكلم بذلك على رؤس الاشهاد
بعد ماصدر من السلطان للشيخ سعيد من الاكرام ماصدر فمنع رجب من الدخول عليه
وزادفى اكرام الشيخ سعيد ولما دخل شيخ الشيوخ على السلطان قام اليه وعانقه وأكرما

وكان ‌من ‌يدخل اليه يقوم له وبقي الشيخ سعيد المذكور بارض الهند معظما مكرما وبها تركته سنة ثمان وأربعين وكان بمكة ايام مجاورتي بها حسن المغربي المجنون وأمره غريب وشانه عجيب وكان قبل ذلك صحيح العقل خديما للولي الله تعالى نجم الدين الاصبهاني أيام حياته

—— حكايته —— كان حسن المجنون كثير الطواف بالليل وكان يرى في طوافه بالليل فقيراً يكثر الطواف ولا يراه بالنهار فلقيه ذلك الفقير ليلة وساله عن حاله وقال له ياحسن ان أمك تبكي عليك وهي مشتاقة الى رؤيتك وكانت من اماء الله الصالحات أفتحب أن تراها قال له نعم ولكني لا قدرة لي على ذلك فقال له نجتمع ها هنا في الليلة المقبلة ان شاء الله تعالى فلما كانت الليلة المقبلة وهي ليلة الجمعة وجده حيث واعده فطافا بالبيت ماشاء الله ثم خرج وهو في أثره الى باب المعلى فامره أن يسد عينيه ويمسك بثوبه ففعل ذلك ثم قال بعد ساعة أتعرف بلدك قال نعم قال ها هو هذا ففتح عينيه فاذا به على دار أمه فدخل عليها ولم يعلمها بشيء مما جرى واقام عندها نصف شهر وأظن أن بلده مدينة أسفي ثم خرج الى الجبانة فوجد الفقير صاحبه فقال له كيف أنت فقال ياسيدي اني اشتقت الى رؤية الشيخ نجم الدين وكنت خرجت على عادتي وغبت عنه هذه الايام واحب ان تردني اليه فقال له نعم وواعده الجبانة ليلا فلما وافاه بها امره أن يفعل كفعله في مكة شرفها الله من تغميض عينيه والامساك بذيله ففعل ذلك فاذا به في مكة شرفها الله وأوصاه ان لا يحدث نجم الدين بشيء مما جري ولا يحدث به غيره فلما دخل على نجم الدين قال له أين كنت ياحسن في غيبتك فابي أن يخبره فعزم عليه فأخبره بالحكاية فقال أرني الرجل فاتى معه ليلا وأتى الرجل على عادته فلما مر بهما قال له ياسيدي هو هذا فسمعه الرجل فضرب بيده على فمه وقال أسكت أسكتك الله فخرس لسانه وذهب عقله وبقي بالحرم مولها يطوف بالليل والنهار من غير وضوء ولا صلاة والناس يتبركون به ويكسونه واذا جاع خرج الى السوق التي بين الصفا والمروة فيقصد حانوتا من الحوانيت فيأكل منها ما احب لا يصده أحد ولا يمنعه بل يسر كل من أكل له شيئا وتظهر له البركة والنماء في بيعه وربحه ومتى أتى السوق تطاول أهلها باعناقهم اليه كل منهم يحرص علي ان يا كل من عنده لما جربوه من بركته وكذلك فعله مع السقائين متي أحب ان يشرب ولم يزل دأبه كذلك الى سنة ثمان وعشرين فحج فيها الامير سيف الدين يلملك فاستصحبه معه الى ديار مصر فانقطع خبره نفع الله تعالى به

—— ذكر عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم ——

فمن عادتهم أن يصلي أول الائمة امام الشافعية وهو المقدم من قبل أولي الامر وصلاته

خلف المقام الكريم مقام ابراهيم الخليل عليه السلام فى حطيم له هنالك بديع وجمهور الناس بمكة على مذهبه والحطيم خشبتان موصول ما بينهما باذرع شبه السلم تقابلهما خشبتان على صفتها وقد عقدت على أرجل مجصصة وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد يعلق منها قناديل زجاج فاذا صلى الامام الشافعى صلى بعده امام المالكية في محراب قبالة الركن اليماني و يصلي امام الحنبلية معه فى وقت واحد مقابلا ما بين الحجر الاسود والركن اليماني ثم يصلي امام الحنفية قبال الميزاب المكرم تحت حطيم له هنالك و يوضع بين ايدى الائمة فى محاريبهم الشمع وترتيبهم هكذا فى الصلوات الاربع وأما صلاة المغرب فانهم يصلونها في وقت واحد كل امام يصلى بطائفته ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط فربما ركع المالكى بركوع الشافعى وسجد الحنفى بسجود الحنبلى وتراهم مصيخين كل واحد الى صوت المؤذن الذى يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو

— ذكر عادتهم فى الخطبة وصلاة الجمعة —

وعادتهم فى يوم الجمعة أن يلصق المنبر المبارك الى صفح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الاسود والركن العراقى ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم فاذا خرج الخطيب أقبل لابسا ثوب سواد معتما بعمامة سوداء و عليه طيلسان اسود كل ذلك من كسوة الملك الناصر وعليه الوقار والسكينة وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يتمسكهما رجلان من المؤذنين و بين يديه أحد القومة فى يده الفرقعة و هي عود فى طرفه جلد رقيق مفتول ينقضه فى الهواء فيسمع له صوت عال يسمعه من بداخل الحرم وخارجه فيكون اعلاما بخروج الخطيب ولا يزال كذلك الى ان يقرب من المنبر فيقبل الحجر الاسود ويدعو عنده ثم يقصد المنبر والمؤذن الزمزمى وهو رئيس المؤذنين بين يديه لابسا السواد وعلى عاتقه السيف ممسكاله بيده وتركز الرايتان عن جانبي المنبر فاذا صعد أول درج من درج المنبر قلده المؤذن السيف فيضرب بنصل السيف ضربة فى الدرج يسمع بها الحاضرين ثم يضرب فى الدرج الثانى ضربة ثم فى الثالث أخرى فاذا استوى فى عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة ووقف داعيا بدعاء خفى مستقبل الكعبة ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله ويرد عليه الناس ثم يقعد ويؤذن المؤذنون فى أعلى قبة زمزم فى حين واحد فاذا فرغ الاذان خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم و يقول فى أثنائها اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف و يشير باصبعه الى البيت الكريم اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ما وقف بعرفة واقف ويترضى عن الخلفاء

الاربعة وعن سائر الصحابة وعن عمي النبي صلى الله عليه وسلم وسبطيه وأمهما وخديجة جدتهما على جميعهم السلام ثم يدعو للملك الناصر ثم للسلطان المجاهد نور الدين على ابن الملك المؤيد داود ابن الملك المظفر يوسف بن على بن رسول ثم يدعو للسيدين الشريفين الحسنيين أميرى مكة سيف الدين عطيفة وهو أصغر الاخوين ويقدم اسمه لعدله واسد الدين رميثة ابني ابى نمي بن ابى سعد بن على بن قتادة وقد دعا لسلطان العراق مرة ثم قطع ذلك فاذا فرغ من خطبته صلى وانصرف والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة امامه اشعارا بانقضاء الصلاة ثم يعاد المنبر الى مكانه ازاء المقام الكريم

— ذكر عادتهم فى استهلال الشهور —

وعادتهم في ذلك ان ياتي امير مكة فى اول يوم من الشهر وقواده يحفون به وهو لابس البياض معتم متقلد سيفا وعليه السكينة والوقار فيصلى عند المقام الكريم ركعتين ثم يقبل الحجر ويشرع فى طواف اسبوع ورئيس المؤذنين على اعلى قبة زمزم فعندما يكمل الامير شوطا واحدا ويقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له والتهنئة بدخول الشهر رافعا بذلك صوته ثم يذكر شعرا فى مدحه ومدح سلفه الكريم ويفعل به هكذا فى السبعة اشواط فاذا فرغ منها ركع عند الملتزم ركعتين ثم ركع خلف المقام ايضا ركعتين ثم انصرف ومثل هذا سواء يفعل اذا أراد سفرا واذا قدم من سفر أيضا

— ذكر عادتهم فى شهر رجب —

واذا هل هلال رجب امر امير مكة بضرب الطبول والبوقات اشعارا بدخول الشهر ثم يخرج فى اول يوم منه راكبا ومعه أهل مكة فرسانا ورجالا على ترتيب عجيب وكلهم بالاسلحة يلعبون بين يديه والفرسان يجولون ويجرون والرجالة يتواثبون ويرمون بحرابهم الى الهواء ويلقفونها والامير رميثة والامير عطيفة معهما اولادهما وقوادهما مثل محمد بن ابراهيم وعلى واحمد ابني صبيح وعلى بن يوسف وشداد بن عمر وعامر الشرق ومنصور بن عمر وموسى المزرق وغيرهم من كبار أولاد الحسن ووجوه القواد وبين ايديهم الرايات والطبول والدبادب وعليهم السكينة والوقار ويصيرون حتى ينتهوا الى الميقات ثم ياخذون فى الرجوع على معهود ترتيبهم الى المسجد الحرام فيطوف الامير بالبيت والمؤذن الزمزمي باعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط على ما ذكرناه من عادته فاذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم وصلى عند المقام وتمسح به وخرج الى المسعى فسعى راكبا والقواد يحفون به والحرابة بين يديه ثم يسير الى منزله وهذا اليوم عندهم عيد من الاعياد ويلبسون فيه أحسن

الثياب ويتنافسون فى ذلك

— ذكر عمرة رجب —

وأهل مكة يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذى لا يعهد مثله وهى متصلة ليلا ونهارا وأوقات الشهر كله معمورة بالعبادة وخصوصا أول يوم منه ويوم خمسة عشر والسابع والعشرين فانهم يستعدون لها قبل ذلك بايام شاهدتهم فى ليلة السابع والعشرين منه وشوارع مكة قد غصت بالهوادج عليها كساء الحرير والكتان الرفيع كل أحد يفعل بقدر استطاعته والجمال مزينة مقلدة بقلائد الحرير واستار الهوادج ضافية تكاد تمس الارض فهى كالقباب المضروبة ويخرجون الى ميقات التنعيم فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج والنيران مشعلة بجنبتي الطريق والشمع والمشاعل أمام الهوادج والجبال تجيب بصدى اهلال المهللين فترق النفوس وتنهمل الدموع فاذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت خرجوا الى السعي بين الصفا والمروة بعد مضي شىء من الليل والمسعى متقد السرج غاص بالناس والساعيات فى هوادجهن والمسجد الحرام يتلألأ نورا وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة الاكمية لانهم يحرمون بها من أكمة أمام مسجد عائشة رضي الله عنها بمقدار غلوة على مقربة من المسجد المنسوب الى على رضى الله عنه والاصل فى هذه العمرة ان عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشيا حافيا معتمرا ومعه أهل مكة وذلك فى اليوم السابع والعشرين من رجب وانتهى الى الاكمة فاحرم منها وجعل طريقه على ثنية الحجون الى المعلى من حيث دخل المسلمون يوم الفتح فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة الى هذا العهد وكان يوم عبد الله مذكورا أهدي فيه بدنا كثيرة واهدي اشراف مكة وأهل الاستطاعة منهم وأقاموا اياما يطعمون ويطعمون شكرا لله تعالى على ماوهبهم من التيسير والمعونة فى بناء بيته الكريم على الصفة التى كان عليها فى أيام الخليل صلوات الله عليه ثم لما قتل ابن الزبير نقض الحجاج الكعبة وردها الى بنائها فى عهد قريش وكانوا اقتصروا فى بنائها وأبقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك لحدثان عهدهم بالكفر ثم اراد الخليفة أبو جعفر المنصور ان يعيدها الى بناء ابن الزبير فنهاه مالك رحمه الله عن ذلك وقال يا أمير المؤمنين لا تجعل البيت ملعبة للملوك متى أراد أحدهم أن يغير دفعل فتركه على حاله سدا للذريعة وأهل الجهات الموالية لمكة مثل بجيلة وزهران وغامد يبادرون لحضور عمرة رجب ويجلبون الى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز فترخص الاسعار بمكة ويرغد عيش أهلها وتعمهم المرافق ولولا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة فى شظف من العيش ويذكر انهم متى أقاموا ببلادهم ولم ياتوا بهذه الميرة أجدبت بلادهم

ووقع الموت فى مواشيهم ومتي أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم وظهرت فيها البركة ونمت أموالهم فهم اذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسل عنها اجتمعت نساؤهم فاخرجنهم وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الامين وبلاد السرو التي يسكنها بجيلة وزهران وغامد وسواهم من القبائل مخصبة كثيرة الاعناب وافرة الغلات وأهلها فصحاء الالسن لهم صدق نية وحسن اعتقادوهم اذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها متعلقين باستارها داعين بادعية تتصعد لرقتها القلوب وتدمع العيون الجامدة فترى الناس حولهم باسطى أيديهم مؤمنين على أدعيتهم ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم ولا استلام الحجر لـتزاحمهم على ذلك وهم شجعـان انجاد ولبـاسهم الجـلود واذا وردوا مكة هابت اعراب الطريق مقدمهم وتجنبوا اعتراضهم ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم وذكر ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكرهم وأثنى عليهم خيرا وقال علموهم الصـلاة يعلموكم الدعاء وكفاهم شرفا دخولهم فى عموم قوله صلى الله عليـه وسلم الايمـان يمان والحكمة يمانية وذكر ان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان يتحرى وقت طوافهم ويدخل فى جملتهم تبركا بدعائهم وشانهم عجيب كله وقد جاء في أثر زاحموهم فى الطواف فان الرحمة تنصب عليهم صبا

— ذكر عاداتهم فى ليلة النصف من شعبان —

وهذه الليلة من الليالى المعظمة عند أهل مكة يبادرون فيها الى أعمال البر من الطواف والصلاة جماعات وأفذاذا والاعتمار ويجتمعون فى المسجد الحرام جماعات لكل جماعة امام ويوقدون السرج والمصابيح والمشاعل ويقابل ذلك ضوء القمر يتلألأ الارض والسماء نورا ويصلون مائة ركعة يقرؤن فى كل ركعة بام القرآن وسورة الاخلاص يكررونهما عشرا وبعض الناس يصلون فى الحجر منفردين وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف وبعضهم قد خرجوا للاعتمار

— ذكر عاداتهم في شهر رمضان المعظم —

واذا أهل هلال رمضان تضرب الطبول والدبادب عند أمير مكة ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل حتي يتلألأ الحرم نورا ويسطع بهجة واشراقا وتتفرق الائمة فرقا وهم الشافعية والحنفية والحنبلية والزيدية وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع ولا تبقى فى الحرم زاوية ولا ناحية الا وفيها قارىء يصلي بجماعته فيرتج المسجد لاصوات القراء وترق النفوس وتحضر القلوب وتهمل الاعين ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة فى

الحجر منفردا والشافعية أكثر الائمة اجتهادا وعاداتهم انهم اذا أكملوا التراويح المعتادة وهي عشرون ركعة يطوف امامهم وجماعته فاذا فرغ من الاسبوع ضربت الفرقعة التي ذكرنا أنها تكون بين يدى الخطيب يوم الجمعة كان ذلك اعلاما بالعودة الى الصلاة ثم يصلى ركعتين ثم يطوف أسبوعا هكذا الى ان يتم عشرين ركعة أخري ثم يصلون الشفع والوتر و ينصرفون وسائر الائمة لا يزيدون على العادة شيا واذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمى التسحير فى الصومعة التي بالركن الشرقى من الحرم فيقوم داعيا ومذكرا ومحرضا على السحور والمؤذنون فى سائر الصوامع فاذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه وقد نصبت في أعلي كل صومعة خشبة علي رأسها عود معترض قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يقدان فاذا قرب الفجر ووقع الايذان بالقطع مرة بعد مرة حط القنديلان وابتدأ المؤذنون بالاذان وأجاب بعضهم بعضا ولديار مكة شرفها الله سطوح فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الاذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر حتي اذا لم يبصرهما أقلع عن الاكل وفى كل ليلة وتر من ليالى العشر الاواخر من رمضان يختمون القرآن ويحضر الختم القاضي والفقهاء والكبراء و يكون الذى يختم بهم أحد أبناء كبراء أهل مكة فاذا ختم نصب له منبر مزين بالحرير وأوقد الشمع وخطب فاذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس الى منزله فاطعمهم الاطعمة الكثيرة والحلاوات وكذلك يصنعون فى جميع ليالى الوتر وأعظم تلك الليالى عندهم ليلة سبع وعشرين واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالى و يختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم وتقام ازاء حطيم الشافعية خشب عظام توصل بالحطيم وتعرض بينها ألواح طوال وتجعل ثلاث طبقات وعليها الشمع وقنديل الزجاج فيكاد يغشى الابصار شعاع الانوار و يتقدم الامام فيصلي فريضة العشاء الآخرة ثم يبتدئ قراءة سورة القدر واليها يكون انتهاء قراءة الائمة فى الليلة التي قبلها وفى تلك الساعة يمسك جميع الائمة عن التراويح تعظيما لختمة المقام و يحضرونها متبركين فيختم الامام فى تسليمتين ثم يقوم خطيبا مستقبل المقام فاذا فرغ من ذلك عاد الائمة الى صلاتهم وانفض الجمع ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين فى المقام المالكى فى منظر مختصر وعن المباهاة منزه موقر فيختم و يخطب

ذكر عادتهم فى شوال

وعادتهم فى شوال وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله و يسرجون المصابيح والشمع على نحو فعلهم فى ليلة سبع وعشرين من رمضان وتوقد السرج فى الصوامع من جميع جهاتها و يوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذي باعلى

أبي قبيس و يقيم المؤذنون ليلتهم تلك فى تهليل و تكبير وتسبيح والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء فاذا صلوا صلاة الصبح أخذوا فى أهبة العيد ولبسوا أحسن ثيابهم وبادروا لاخذ مجالسهم بالحرم الشريف به يصلون صلاة العيد لانه لاموضع أفضل منه ويكون أول من يبكر الى المسجد الشيبيون فيفتحون باب الكعبة المقدسة و يقعد كبيرهم فى عتبتها و سائرهم بين يديه الى ان ياتي أمير مكة فيتلقونه و يطوف بالبيت أسبوعا والمؤذن الزمزمي فوق سطح قبة زمزم على العادة رافعا صوته بالثناء عليه والدعاء له ولاخيه كما ذكر ثم ياتي الخطيب بين الرايتين السوداوين والفرقعة أمامه وهو لابس السواد فيصلى خلف المقام الكريم ثم يصعد المنبر و يخطب خطبة بليغة ثم اذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار و يقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجا ثم يخرجون الى مقبرة باب المعلي تبركا بمن فيها من الصحابة وصدور السلف ثم ينصرفون

— ذكر احرام الكعبة —

وفى اليوم السابع والعشرين من شهر ذى القعدة تشمر أستار الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما الى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الاربع صونا لها من الايدى أن تنتهبها و يسمون ذلك احرام الكعبة وهو يوم مشهود بالحرم الشريف ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتي تنقضي الوقفة بعرفة

— ذكر شعائر الحج وأعماله —

واذا كان فى أول يوم شهر ذى الحجة تضرب الطبول والدبادب فى أوقات الصلوات بكرة وعشية اشعارا بالموسم المبارك ولا تزال كذلك الى يوم الصعود الى عرفات فاذا كان اليوم السابع من ذى الحجة خطب الخطيب اثر صلاة الظهر خطبة بليغة يعلم الناس فيها مناسكهم و يعلمهم بيوم الوقفة فاذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود الى مني وأمراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمني وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق فى ايقاد الشمع ولكن الفضل فى ذلك لاهل الشام دائما فاذا كان اليوم التاسع رحلوا من مني بعد صلاة الصبح الى عرفة فيمرون فى طريقهم بوادي محسر و يهرولون وذلك سنة ووادي محسر هو الحد ما بين مزدلفة ومني ومزدلفة بسيط من الارض فسيح بين جبلين وحولها مصانع وصهاريج للماء مما بنته زبيدة ابنة جعفر بن ابى جعفر المنصور زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد و بين مني وعرفة خمسة أميال وكذلك بين مني ومكة ايضا خمسة اميال ولعرفة ثلاثة اسماء وهي عرفة وجمع والمشعر الحرام وعرفات

بسيط من الارض فسيح افيح تحدق به جبال كثيرة وفي آخر بسيط عرفات جبل الرحمة وفيه الموقف وفيما حوله والعلمان قبله بنحو ميل وهما الحد ما بين الحل والحرم و بمقربة منهما مما يلي عرفة بطن عرنة الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه ويجب التحفظ منه ويجب أيضاً الامساك عن النفور حتى يتمكن سقوط الشمس فان الجمالين ربما استحثوا كثيراً من الناس وحذروهم الزحام في النفر واستدرجوهم الى أن يصلوا بهم بطن عرنة فيبطل حجهم وجبل الرحمة التي ذكرناه قائم في وسط بسيط جمع منقطع عن الجبال وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض وفي أعلاه قبة تنسب الى أم سلمة رضي الله عنها وفي وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات وفي قبليه جدار فيه محاريب منصوبة يصلي فيه الناس وفي أسفل هذا الجبل عن يسار المستقبل للكعبة دار عتيقة البناء تنسب الى آدم عليه السلام وعن يسارها الصخرات التي كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم عندها وحول ذلك صهاريج وجباب للماء و بمقربة منه الموضع الذي يقف فيه الامام و يخطب ويجمع بين الظهر والعصر وعن يسار العلمين للمستقبل أيضاً وادي الاراك وبه أراك أخضر يمتد في الارض امتداداً طويلا واذا حان وقت النفر أشار الامام المالكي بيده ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها الارض وترجف الجبال فياله موقفاً كريماً ومشهداً عظيماً ترجو النفوس حسن عقباه وتطمح الآمال الى نفحات رحماه جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه وكانت وقفتي الاولى يوم الخميس سنة ست وعشرين وأمير الركب المصري يومئذ أرغون الدوادار نائب الملك الناصر وحجت في تلك السنة ابنة الملك الناصر وهي زوجة أبي بكر بن أرغون المذكور وحجت فيها زوجة الملك الناصر المسماة بالخوندة وهي بنت السلطان المعظم محمد اوزبك ملك السرا وخوارزم وأمير الركب الشامي سيف الدين الجوبان ولما وقع النفر بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة فصلينا بها المغرب والعشاء جمعاً بينهما حسبما جرت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها الى منى بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام ومزدلفة كلها موقف الا وادي محسر ففيه تقع الهرولة حتى يخرج عنه ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار وذلك مستحب ومنهم من يلقطها حول مسجد الخيف والامر في ذلك واسع ولما انتهى الناس الى منى بادروا لرمي جمرة العقبة ثم نحروا وذبحوا ثم حلقوا وحلوا من كل شيء الا النساء والطيب حتى يطوفوا طواف الافاضة ورمي هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر ولما

رموها توجه أكثر الناس بعد أن ذبحوا وحلقوا الى طواف الافاضة ومنهم من أقام الى اليوم الثاني وفي اليوم الثاني رمى الناس عند زوال الشمس بالجمرة الاولى سبع حصيات وبالوسطى كذلك ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار الى مكة شرفها الله بعد أن كمل لهم رمي تسع وأربعين حصاة وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمي سبعين حصاة

ـــ ذكر كسوة الكعبة ـــ

وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصرى الى البيت الكريم فوضعت في سطحه فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبيون في أسبالها على الكعبة الشريفة وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما الآية وفي سائر جهاتها طرز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن وعليها نور لائح مشرق من سوادها ولما كسيت شمرت أذيالها صونا من أيدى الناس والملك الناصر هو الذى يتولى كسوة الكعبة الكريمة ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة ومايحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل سنة وفي هذه الايام تفتح الكعبة الشريفة في كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقي وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامي والمصرى أربعة أيام فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلا فمن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكيين اعطوه الفضة والثياب وكذلك يعطون المشاهدين الكعبة الشريفة وربما وجدوا انسانا نائما فجعلوا في فيه الذهب والفضة حتى يفيق ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيرا وأكثروا الصدقة حتى رخص سوم الذهب بمكة وانتهي صرف المثقال الى ثمانية عشر درهما نقرة لكثرة ماتصدقوا به من الذهب وفي هذه السنة ذكر اسم السلطان أبي سعيد ملك العراق على المنبر وقبة زمزم

ـــ ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله تعالى ـــ

وفي الموفى عشرين لذى الحجة خرجت من مكة صحبة أمير ركب العراق البهلوان محمد الحويح بحاء ين مهملين وهو من أهل الموصل وكان يلي امارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قلندر وكان شهاب الدين سخيا فاضلا عظيم الحرمة عند سلطانه يحلق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية ولما خرجت من مكة شرفها الله تعالى في صحبة الامير

البهلوان المذكور اكتري لى شقة محارة الى بغداد ودفع اجارتها من ماله وأنزلني فى جواره وخرجنا بعد طواف الوداع الى بطن مر فى جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والاعاجم لا يحصى عديدهم تموج بهم الارض موجا ويسيرون سير السحاب المتراكم فمن خرج عن الركب لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس وفى هذا الركب نواضح كثيرة لابناء السبيل يستقون منها الماء وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الادوية والاشربة والسكر لمن يصيبه مرض واذا نزل الركب طبخ الطعام فى قدور نحاس عظيمة تسمي الدسوت وأطعم منها أبناء السبيل ومن لازاد معه وفى الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لاقدرة له على المشي كل ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد ومكارمه قال ابن جزى كرم الله هذه الكنية الشريفة فما أعجب أمرها فى الكرم وحسبك بمولانا بحر المكارم ورافع رايات الجود الذي هو آية فى الندى والفضل أمير المسلمين أبي سعيد ابن مولانا قامع الكفار والآخذ للاسلام بالثار أمير المسلمين أبي يوسف قدس الله أرواحهم الكريمة وأبقى الملك فى عقبهم الطاهر الى يوم الدين (رجع) وفى هذا الركب الاسواق الحافلة والمرافق العظيمة وانواع الاطعمة والفواكه وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل امام القطار والمحارات فترى الارض تتلألأ نوارا والليل قد عاد نهارا ساطعا ثم رحلنا من بطن مر الى عسفان ثم الى خليص ثم رحلنا أربع مراحل ونزلنا وادى السمك ثم رحلنا خمسا ونزلنا فى بدر وهذه المراحل ثنتان فى اليوم احداهما بعد الصبح والاخري بالعشي ثم رحلنا من بدر فنزلنا الصفراء وأقمنا بها يوما مستريحين ومنها الى المدينة الشريفة مسيرة ثلاث ثم رحلنا فوصلنا الى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحصلت لنا زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانيا وأقمنا بالمدينة كرمها الله تعالى ستة أيام واستصحبنا منها الماء لمسيرة ثلاث ورحلنا عنها فنزلنا فى الثالثة بوادى العروس فتزودنا منه الماء من حسيات يحفرون عليها فى الارض فينبطون ماء عذبا معينا ثم رحلنا من وادي العروس ودخلنا أرض نجد وهو بسيط من الارض مد البصر فتنسمنا نسيمة الطيب الارج ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعسيلة ثم رحلنا عنه ونزلنا ماء يعرف بالنقرة فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة ثم رحلنا الى ماء يعرف بالقارورة وهي مصانع مملوءة بماء المطر مما صنعته زبيدة ابنة جعفر رحمها الله ونفعها وهذا الموضع هو وسط أرض نجد فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقي التربة معتدل فى كل فصل ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجر وفيه مصانع للماء وربما جفت فحفر عن الماء فى الجفار

ثم رحلنا ونزلنا سميرة وهي أرض غائرة فى بسيط فيه شبه حصن مسكون وماؤها كثير فى آبار الا انه زعاق ويأتى عرب تلك الارض بالغنم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب الخام ولا يبيعون بسوى ذلك ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المخروق وهو فى بيداء من الارض وفى أعلاه ثقب نافذ تخرقه الريح ثم رحلنا منه الى وادى الكروش ولا ماء به ثم اسرينا ليلا وصبحنا حصن فيد وهو حصن كبير فى بسيط من الارض يدور به سور وعليه ربض وساكنوه عرب يتعيشون مع الحاج فى البيع والتجارة وهنالك يترك الحجاج بعض أزوادهم حين وصولهم من العراق الى مكة شرفها الله تعالى فاذا عادوا وجدوه وهو نصف الطريق من مكة الى بغداد ومنه الى الكوفة مسيرة اثني عشر يوما فى طريق سهل به المياه فى المصانع ومن عادة الركب ان يدخلوا هذا الموضع على تعبئة وأهبة للحرب ارهابا للعرب المجتمعين هنالك وقطعا لاطماعهم عن الركب وهنالك لقينا أميرى العرب وهما فياض وحيار واسمه (بكسر الحاء واهماله وياء آخر الحروف) وهما أبناء الامير مهنى بن عيسى ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة فظهر منهما المحافظة على الحاج والرحال والحوطة لهم وأتى العرب بالجمال والغنم فاشترى منهم الناس ماقدروا عليه ثم رحلنا ونزلنا الموضع المعروف الاجفر ويشتهر باسم العاشقين جميل وبثينة ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء ثم أسرينا ونزلنا زرود وهى بسيط من الارض فيه رمال منهالة وبه دور صغار قد اداروها شبه الحصن وهنالك آبار ماء ليست بالعذبة ثم رحلنا ونزلنا الثعلبية ولها حصن خرب بازائه مصنع هائل ينزل اليه فى درج وبه من ماء المطر ما يعم الركب ويجتمع من العرب بهذا الموضع جمع عظيم فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن ومن هذا الموضع الى الكوفة ثلاث مراحل ثم رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم وهو مشهد على الطريق عليه كوم عظيم من حجارة وكل من مر به رجمه ويذكران هذا المرجوم كان رافضيا فسافر مع الركب يريد الحج فوقعت بينه وبين اهل السنة من الاتراك مشاجرة فسب بعض الصحابة فقتلوه بالحجارة وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك وبه مصنع كبير يعم جميع الركب مما بنته زبيدة رحمة الله عليها وكل مصنع أو بركة أو بئر بهذه الطريق التي بين مكة وبغداد فهى من كريم آثارها جزاها الله خيرا ووفى لها أجرها ولولا عنايتها بهذه الطريق ما سلكها أحد ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالمشقوق فيه مصنعان بهما الماء العذب الصافى وأراق الناس ما كان عندهم من الماء وتزودوا منهما ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالتنانير وفيه مصنع ممتلئ بالماء ثم أسرينا منه

واجتزنا ضحوة بزمالة وهي قرية معمورة بها قصر للعرب ومصنعان للماء وآبار كثيرة وهي من مناهل هذا الطريق ثم رحلنا فنزلنا الهيثمين وفيه مصنعان للماء ثم رحلنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان وصعدنا العقبة في اليوم الثاني وليس بهذا الطريق وعر سواها على انها ليست بصعبة ولا طائلة ثم نزلنا موضعا يسمي واقصة فيه قصر كبير ومصانع للماء معمور بالعرب وهو آخر مناهل هذا الطريق وليس فيما بعده الى الكوفة منهل مشهور الا مشارع ماء الفرات وبه يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ويهني الناس بعضهم بعضا بالسلامة ثم نزلنا موضعا يعرف بلورة فيه مصنع كبير للماء ثم نزلنا موضعا يعرف بالمساجد فيه ثلاث مصانع ثم نزلنا موضعا يعرف بمنارة القرون وهي منارة في بيداء من الارض بائنة الارتفاع مجللة بقرون الغزلان ولا عمارة حولها ثم نزلنا موضعا يعرف بالعذيب وهو واد خصب عليه عمارة وحوله فلاة خصبة فيها مسرح للبصر ثم نزلنا القادسية حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفرس التي أظهر الله فيها دين الاسلام وأذل المجوس عبدة النار فلم تقم لهم بعدها قائمة واستأصل الله شأفتهم وكان أمير المسلمين يومئذ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وكانت القادسية مدينة عظيمة افتتحها سعد رضي الله عنه وخربت فلم يبق منها الآن الا مقدار قرية كبيرة وفيها حدائق النخل وبها مشارع من ماء الفرات ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنجف وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناسا وأتقنها بناء ولها أسواق حسنة نظيفة دخلناها من باب الحضرة فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين والقيسارية ثم سوق العطارين ثم باب الحضرة حيث القبر الذي يزعمون انه قبر علي عليه السلام وبازائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة وحيطانها بالقاشاني وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن

ذكر الروضة والقبور التي بها

ويدخل من باب الحضرة الى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم ومن تلك المدرسة يدخل الى باب القبة وعلى بابها الحجاب والنقباء والطواشية فعند ما يصل الزائر يقوم اليه أحدهم أو جميعهم وذلك على قدر الزائر فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له ويقولون عن أمركم يا أمير المؤمنين هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله للروضة العلية فان أذنتم له والا رجع وان لم يكن أهلا لذلك فانتم أهل المكارم والستر ثم يأمرونه بتقبيل العتبة وهي من الفضة وكذلك

العضادتان ثم يدخل القبة وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه وبها قناديل الذهب والفضة منها الكبار والصغار وفي وسط القبة مسطبة مربعة مكسوة بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل مسمرة بمسامير الفضة قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء وارتفاعها دون القامة وفوقها ثلاثة من القبور يزعمون ان أحدها قبر آدم عليه الصلاة والسلام والثاني قبر نوح عليه الصلاة والسلام والثالث قبر علي رضى الله تعالى عنه وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وانواع الطيب يغمس الزائر يده في ذلك ويدهن به وجهه تبركا وللقبة باب آخر عتبته أيضاً من الفضة وعليه ستور من الحرير الملون يفضي الى مسجد مفروش بالبسط الحسان مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير وله أربعة أبواب عتباتها فضة وعليها ستور الحرير وأهل هذه المدينة كلهم رافضية وهذه الروضة ظهرت لها كرامات ثبت بها عندهم أن بها قبر علي رضى الله عنه فمنها ان في ليلة السابع والعشرين من رجب وتسمي عندهم ليلة المحيا يؤتى الى تلك الروضة بكل مقعد من العراقين وخراسان وبلاد فارس والروم فيجتمع منهم الثلاثون والاربعون ونحو ذلك فاذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح المقدس والناس ينتظرون قيامهم وهم ما بين مصل وذاكر وتال ومشاهد للروضة فاذا مضي من الليل نصفه أو ثلثاه أو نحو ذلك قام الجميع اصحاء من غير سوء وهم يقولون لا اله الا الله محمد رسول الله علي ولى الله وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقاة ولم أحضر تلك الليلة لكني رأيت بمدرسة الضياف ثلاثة من الرجال أحدهم من أرض الروم والثاني من أصبهان والثالث من خراسان وهم مقعدون فاستخبرتهم عن شأنهم فاخبروني انهم لم يدركوا ليلة المحيا وانهم منتظرون أوانها من عام آخر وهذه الليلة يجتمع لها الناس من البلاد ويقيمون سوقا عظيمة مدة عشرة أيام وليس بهذه المدينة مغرم ولا مكاس ولا وال وانما يحكم عليهم نقيب الاشراف وأهلها تجار يسافرون في الاقطار وهم أهل شجاعة وكرم ولا يضام جارهم صحبتهم في الاسفار فحمدت صحبتهم لكنهم غلوا في علي رضي الله عنه ومن الناس في بلاد العراق وغيرها من يصيبه المرض فينذر للروضة نذرا اذا برىء ومنهم من يمرض رأسه فيصنع رأسا من ذهب أو فضة ويأتى به إلى الروضة فيجعله النقيب في الخزانة وكذلك اليد والرجل وغيرها من الاعضاء وخزانة الروضة عظيمة فيها من الاموال مالا يضبط لكثرته

—— ذكر نقيب الاشراف ——

ونقيب الاشراف مقدم من ملك العراق ومكانه عنده مكين ومنزلته رفيعة وله ترتيب

الامراء الكبار فى سفره وله الاعلام والاطبال وتضرب الطبلخانة عند بابه مساء وصباحا واليه حكم هذه المدينة ولا والى بها سواه ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره وكان النقيب فى عهد دخولى اليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوى نسبة الى بلدة آوة من عراق العجم أهلها رافضة وكان قبله جماعة يلى كل واحد منهم بعد صاحبه منهم جلال الدين ابن الفقيه ومنهم قوام الدين بن طاووس ومنهم ناصر الدين مطهر بن الشريف الصالح شمس الدين محمد الاوهرى من عراق العجم وهو الآن بارض الهند من ندماء ملكها ومنهم أبو غرة بن سالم بن مهنى بن جماز بن شيحة الحسيني المدنى

— حكاية —

كان الشريف أبو غرة قد غلب عليه فى أول أمره العبادة و تعلم العلم واشتهر بذلك وكان ساكنا بالمدينة الشريفة كرمها الله فى جوار ابن عمه منصور بن جماز أمير المدينة ثم إنه خرج عن المدينة واستوطن العراق وسكن منها بالحلة فمات النقيب قوام الدين بن طاوس فاتفق أهل العراق على تولية أبي غرة نقابة الاشراف وكتبوا بذلك الى السلطان أبى سعيد فامضاه ونفذله اليرليغ وهو الظهير بذلك و بعثت له الخلعة والاعلام والطبول على عادة النقباء ببلاد العراق فغلبت عليه الدنيا وترك العبادة والزهد و تصرف فى الاموال تصرفا قبيحاً فرفع أمره الى السلطان فلما علم بذلك أعمل السفر مظهرا انه يريد خراسان قاصدا زيارة قبر على بن موسى الرضا بطوس وكان قصده الفرار فلما زار قبر على بن موسى قدم هراة وهى آخر بلاد خراسان وأعلم أصحابه أنه يريد بلاد الهند فرجع أكثرهم عنه وتجاوز هو أرض خراسان الى السند فلما جاز وادي السند المعروف بنج آب ضرب طبوله وانفاره فراع ذلك أهل القرى وظنوا أن التتر أتوا للاغارة عليهم وأجفلوا الى المدينة المسماة بأوجا وأعلموا أميرها بما سمعوه فركب فى عساكره واستعد للحرب و بعث الطلايع فرأوا نحو عشرة من الفرسان وجماعة من الرجال والتجار ممن صحب الشريف فى طريقه معهم الاطبال والاعلام فسألوهم عن شأنهم فأخبروهم ان الشريف نقيب العراق أتى وافدا على ملك الهند فرجع الطلايع الى الامير وأخبروه بكيفية الحال فاستضعف عقل الشريف لرفعه العلامات وضربه الطبول فى غير بلاده ودخل الشريف مدينة أوجا وأقام بها مدة تضرب الاطبال على باب داره غدوة وعشيا وكان مولعا بذلك ويذكر أنه كان فى أيام نقابته بالعراق تضرب الاطبال على رأسه فاذا أمسك النقار عن الضرب يقول له زد نقرة يا نقار حتي لقب بذلك وكتب صاحب مدينة أوجا الى ملك الهند بخبر الشريف وضربه الاطبال بالطريق وعلى باب داره غدوة وعشيا ورفعه الاعلام وعادة أهل

الهند أن لا يرفع علما ولا يضرب طبلا الا من أعطاه الملك ذلك ولا يفعله الا فى السفر وأما فى حال الاقامة فلا يضرب الطبل الا على باب الملك خاصة بخلاف مصر والشام والعراق فان الطبول تضرب على أبواب الامراء فلما بلغ خبره ملك الهند كره فعله وأنكره وفعل فى نفسه ثم خرج الامير الى حضرة الملك وكان الامير كشلى خان والخان عندهم أعظم الامراء وهو الساكن بملتان كرسى بلاد السند وهو عظيم القدر عند ملك الهند يدعوه بالعم لانه كان ممن أعان أباه السلطان غياث الدين تغلق شاه على قتال السلطان ناصر الدين خسرو شاه فقدم على حضرة ملك الهند فخرج الملك الى لقائه فاتفق ان كان وصول الشريف فى ذلك اليوم وكان الشريف قد سبق الامير باميال وهو على حاله من ضرب الاطبال فلم يرعه الا السلطان فى موكبه فتقدم الشريف الى السلطان فسلم عليه وسأله السلطان عن حاله وما الذى جاء به فاخبره ومضى السلطان حتي اتي الامير كشلى خان وعاد الى حضرته ولم يلتفت الى الشريف ولا أمر له بانزال ولا غيره وكان الملك عازما على السفر الى مدينة دولة أباد وتسمي أيضاً بالكتكة (بفتح الكافين والتاء المعلوة التي بينهما) وتسمي أيضاً بالدويجر (دوكير) وهى على مسيرة أربعين يوما من مدينة دهلى حضرة الملك فلما شرع فى السفر بعث الى الشريف بخمسمائة دينار دراهم وصرفها من ذهب المغرب مائة وخمسة وعشرون ديناراً وقال لرسوله اليه قل له ان أراد الرجوع الى بلاده فهذا زاده وان أراد السفر معنا فهي نفقته فى الطريق وان أراد الاقامة بالحضرة فهي نفقته حتي نرجع فاغتم الشريف لذلك وكان قصده ان يجزل له العطاء كما هى عادته مع أمثاله واختار السفر صحبة السلطان وتعلق بالوزير احمد بن اياس المدعو بخواجة جهان وبذلك سماه الملك وبه يدعوه هو وبه يدعوه سائر الناس فان من عادتهم انه متى سمي الملك احداً باسم مضاف الى الملك من عماد او ثقة اوقطب او باسم مضاف الى الجهان من صدر وغيره فبذلك يخاطبه الملك وجميع الناس ومن خاطبه بسوى ذلك لزمته العقوبة فتاكدت المودة بين الوزير والشريف فأحسن اليه ورفع قدره ولاطف الملك حتي حسن فيه رأيه وأمر له بقريتين من قرى دولة أباد وامره ان تكون اقامته بها وكان هذا الوزير من أهل الفضل والمروءة ومكارم الاخلاق والمحبة فى الغرباء والاحسان اليهم وفعل الخير واطعام الطعام وعمارة الزوايا فاقام الشريف يستغل القريتين ثمانية أعوام وحصل من ذلك مالا عظيما ثم أراد الخروج فلم يمكنه فانه من خدم السلطان لا يمكنه الخروج الا باذنه وهو محب في الغرباء فقليلا ما يأذن لاحدهم فى السراح فاراد الفرار

من طريق الساحل فرد منه وقدم الحضرة ورغب من الوزير أن يحاول قضية انصرافه فتلطف الوزير فى ذلك حتى اذن له السلطان فى الخروج عن بلاد الهند واعطاه عشرة آلاف دينار من دراهمهم و صرفها من ذهب المغرب الفان وخمسمائة دينار فاتى بها في بدرة فجعلها تحت فراشه ونام عليها لحبته فى الدنانير وفرحه بها وخوفه أن يتصل لاحد من اصحابه بشيء منها فانه كان بخيلا فاصابه وجع في جنبه بسبب رقاده عليها ولم يزل يتزايد به وهو آخذ فى حركة سفره الى أن توفى بعد عشرين يوما من وصول البدرة اليه واوصى بذلك المال للشريف حسن الجرانى فتصدق بجملته على جماعة من الشيعة المقيمين بدهلى من أهل الحجاز والعراق و أهل الهند لا يورثون بيت المال ولا يتعرضون لمال الغرباء ولا يسالون عنه ولو بلغ ماعسى أن يبلغ وكذلك السودان لا يتعرضون لمال الابيض ولا ياخذونه انما يكون عند الكبار من أصحابه حتى ياتى مستحقه وهذا الشريف أبو غرة له أخ اسمه قاسم سكن غرناطة مدة و بها تزوج بنت الشريف أبي عبد الله بن ابراهيم الشهير بالمكى ثم انتقل الى جبل طارق فسكنه الى ان استشهد بوادى كرة من نظر الجزيرة الخضراء وكان بهمة من البهم لا يصطلي بناره خرق المعتاد فى الشجاعة وله فيها أخبار شهيرة عند الناس وترك ولدين هما فى كفالة ربيبهما الشريف الفاضل أبي عبد الله محمد ابن أبي القاسم بن نفيس الحسيني الكربلائى الشهير ببلاد المغرب بالعراقى وكان تزوج أمهما بعد موت أبيهما وهو محسن لهما جزاه الله خيرا

ولما تحصلت لنا زيارة أمير المؤمنين على عليه السلام سافر الركب الى بغداد وسافرت الى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة وهم أهل تلك البلاد ولهم شوكة عظيمة وباس شديد ولا سبيل للسفر فى تلك الاقطار الا فى صحبتهم فاكتريت جملا على يد أمير تلك القافلة شامر بن دراج الخفاجى و خرجنا من مشهد على عليه السلام فنزلنا الخورنق موضع سكنى النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بني ماء السماء وبه عمارة و بقايا قباب ضخمة فى فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات ثم رحلنا عنه فنزلنا موضعا يعرف بقائم الواثق وبه أثر قرية خربة ومسجد خرب لم يبق منه الا صومعته ثم رحلنا عنه آخذين مع جانب الفرات بالموضع المعروف بالعذار وهو غابة قصب فى وسط الماء يسكنها اعراب يعرفون بالمعادى وهم قطاع الطريق رافضية المذهب خرجوا على جماعة من الفقراء تاخروا عن رفقتنا فسلبوهم حتى النعال والكشاكل وهم يتحصنون بتلك الغابة و يمتنعون بها ممن يريدهم والسباع بها كثيرة ورحلنا مع هذا العذار ثلاث مراحل ثم وصلنا مدينة واسط

— مدينة واسط —

وهي حسنة الاقطار كثيرة البساتين والاشجار بها اعلام يهدى الخير شاهدهم وتهدى الاعتبار مشاهدهم و أهلها من خيار أهل العراق بل هم خيرهم على الاطلاق أكثرهم يحفظون القرآن الكريم و يجيدون تجويده بالقراءة الصحيحة واليهم ياتى أهل بلاد العراق برسم تعلم ذلك وكان فى القافلة التي وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا برسم تجويد القرآن على من بها من الشيوخ وبها مدرسة عظيمة حافلة فيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعلم القرآن عمرها الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي وهو من كبار أهلها وفقهائها و يعطي لكل متعلم بها كسوة فى السنة ويجري له نفقته فى كل يوم و يقعد هو واخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة وقد لقيته وأضافني وزودنى تمرا ودراهم ولما نزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثا بخارجها للتجارة فسنح لى زيارة قبر الولى أبي العباس أحمد الرفاعى وهو بقرية تعرف بام عبيدة على مسيرة يوم من واسط فطلبت من الشيخ تقي الدين أن يبعث معى من يوصلني اليها فبعث معى ثلاثة من عرب بني أسد وهم قطان تلك الجهة واركبني فرساله وخرجت ظهرا فبت تلك الليلة بحوش بنى اسد ووصلنا فى ظهر اليوم الثاني الى الرواق وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء وصادفنا به قدوم الشيخ أحمد كوجك حفيد ولى الله أبي العباس الرفاعى الذي قصدنا زيارته وقد قدم من موضع سكناه من بلاد الروم برسم زيارته قبر جده واليه انتهت الشياخة بالرواق ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف و أخذ الفقراء فى الرقص ثم صلوا المغرب وقدموا السماط وهو خبز الارز والسمك واللبن والتمر فاكلوا الناس ثم صلوا العشاء الآخرة وأخذوا فى الذكر والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده المذكور ثم أخذوا فى السماع وقد اعدوا احمالا من الحطب فاججوها نارا ودخلوا فى وسطها يرقصون ومنهم من يتمرغ فيها ومنهم من يا كلها بفمه حتى أطفؤها جميعها وهذا دأبهم وهذه الطائفة الاحمدية مخصوصون بهذا وفيهم من ياخذ الحية العظيمة فيعض باسنانه على رأسها حتي يقطعه

— حكايه —

كنت مررت بموضع يقال له أفقانبور من عمالة هزار أمروها وبينها وبين دهلى حضرة الهند مسيرة خمس وقد نزلنا بها على نهر يعرف بنهر السرور وذلك فى أوان الشكال والشكال عندهم هو المطر وينزل فى إبان القيظ وكان السيل ينحدر فى هذا النهر من جبال قراجيل فكل من يشرب منه من انسان أو بهيمة يموت لنزول المطر على الحشائش المسمومة فقمنا على النهر أربعة أيام لا يقربه أحد ووصل الى هنالك جماعة من الفقراء فى أعناقهم

أطواق الحديد وفي أيديهم وكبيرهم رجل أسود حالك اللون وهم من الطائفة المعروفة بالحيدرية فباتوا عندنا ليلة وطلب مني كبيرهم أن آتيه بالحطب ليوقدوه عند رقصهم فكلفت والى تلك الجهة وهو عزيز المعروف بالخمار (وسيأتى ذكره) أن ياتي بالحطب فوجه منه نحو عشرة احمال فاضرموا فيه النار بعد صلاة العشاء الآخرة حتى صارت جمرا واخذوا في السماع ثم دخلوا فى تلك النار فما زالوا يرقصون و يتمرغون فيها وطلب مني كبيرهم قميصاً فاعطيته قميصا في النهاية من الرقة فلبسه وجعل يتمرغ به في النار و يضربها باكامه حتى طفئت تلك النار وخمدت وجاء الى بالقميص والنار لم تؤثر فيه شيا البتة فطال عجبي منه ولما حصلت لى زيارة الشيخ أبي العباس الرفاعي نفع الله به عدت الى مدينة واسط فوجدت الرفقة التي كنت فيها قد رحلت فلحقتها فى الطريق و نزلنا ماء يعرف بالهضيب ثم رحلنا و نزلنا بوادي الكراع وليس به ماء ثم رحلنا ونزلنا موضعاً يعرف بالمشيرب ثم رحلنا منه ونزلنا بالقرب من البصرة ثم رحلنا فدخلنا ضحوة النهار الى مدينة البصرة

— مدينة البصرة —

فنزلنا بها رباط مالك بن دينار وكنت رأيت عند قدومى عليها على نحو ميلين منها بناء عاليا مثل الحصن فسألت عنه فقيل له هو مسجد على بن أبى طالب رضى الله عنه وكانت البصرة من اتساع الخطة وانفساح الساحة بحيث كان هذا المسجد فى وسطها وبينه الآن وبينها ميلان وكذلك بينه وبين السور الاول المحيط بها نحو ذلك فهو متوسط بينهما ومدينة البصرة احدي أمهات العراق الشهيرة الذكر فى الآفاق الفسيحة الارجاء المؤنقة الافناء ذات البساتين الكثيرة والفواكه الاثيرة توفر قسمها من النضارة والخصب لما كانت مجمع البحرين الاجاج والعذب وليس في الدنيا أكثر نخلا منها فيباع التمر في سوقها بحساب أربعة عشر رطلا عراقية بدرهم ودرهمهم ثلث النقرة ولقد بعث الى قاضيها حجة الدين بقوصرة تمر يحملها الرجل على تكلف فاردت بيعها فبيعت بتسعة دراهم أخذ الحمال منها ثلثها عن أجرة حملها من المنزل الى السوق ويصنع بها من التمر عسل يسمي السيلان وهو طيب كانه الجلاب والبصرة ثلاث محلات احداها محلة هذيل وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الاثير من الكرماء الفضلاء أضافنى وبعث الى بثياب ودراهم والمحلة الثانية محلة بني حرام كبيرها السيد الشريف مجد الدين موسى الحسني ذو مكارم وفواضل أضافنى وبعث الى التمر والسيلان والدراهم والمحلة الثالثة محلة العجم كبيرها جمال الدين ابن اللوكى وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق وايناس للغريب وقيام بحقه فلا يستوحش فيما بينهم غريب

وهم يصلون الجمعة في مسجد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الذي ذكرته ثم يسد فلا ياتونه الا في الجمعة وهذا المسجد من أحسن المساجد وصحنه متناهي الانفساح مفروش بالحصباء الحمراء التي يؤتى بها من وادي السباع وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان رضي الله عنه يقرأ فيه لما قتل وأثر تغيير الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم)

— حكاية اعتبار —

شهدت مرة بهذا المسجد صلاة الجمعة فلما قام الخطيب به الى الخطبة وسردها لحن فيها لحنا كثيرا جليا فعجبت من أمره وذكرت ذلك للقاضي حجة الدين فقال لي ان هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئاً من علم النحو وهذه عبرة لمن تفكر فيها سبحان مغير الاشياء ومقلب الامور وهذه البصرة التي الى أهلها انتهت رياسة النحو وفيها أصله وفرعه ومن أهلها امامه الذي لا ينكر سبقه لا يقيم خطيبها خطبة الجمعة على دؤبه عليها ولهذا المسجد سبع صوامع احداها الصومعة التي تتحرك بزعمهم عند ذكر على بن أبي طالب رضي الله عنه صعدت اليها من أعلى سطح المسجد ومعي بعض أهل البصرة فوجدت في ركن من أركانها مقبض خشب مسمرا فيها كأنه مقبض مملسة البناء فجعل الرجل الذي كان معي يده في ذلك المقبض وقال بحق رأس أمير المؤمنين على رضي الله عنه تحركي وهز المقبض فتحركت الصومعة فجعلت انا يدي في المقبض وقلت له وأنا أقول بحق رأس أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تحركي وهززت المقبض فتحركت الصومعة فعجبوا من ذلك وأهل البصرة على مذهب السنة والجماعة ولا يخاف من يفعل مثل فعلي عندهم ولو جري مثل هذا بمشهد على أو مشهد الحسين أو بالحلة أو بالبحرين أو قم أو قاشان أو ساوة أو آوة أو طوس لهلك فاعله لانهم رافضة غالية قال ابن جزى قد عاينت بمدينة برشانة من وادى المنصورة من بلاد الاندلس حاطها الله صومعة تهتز من غير أن يذكر لها أحد من الخلفاء أو سواهم وفي صومعة المسجد الاعظم بها وبناؤها ليس بالقديم وهي كاحسن ما أنت راء من الصوامع حسن منظر واعتدالا وارتفاعا لا ميل فيها ولا زيغ صعدت اليها مرة ومعي جماعة من الناس فاخذ بعض من كان معي بجوانب جامورها وهزوها فاهتزت حتى أشرت اليهم أن يكفوا فكفوا عن هزها (رجع)

— ذكر المشاهد المباركة بالبصرة —

فمنها مشهد طلحة بن عبيد الله أحد العشرة رضي الله عنهم وهو بداخل المدينة وعليه قبة ومسجد وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر وأهل البصرة يعظمونه تعظيما شديداً

وحق له ومنها مشهد الزبير بن العوام حوارى رسول الله صلى عليه وسلم وابن عمته رضى الله عنهما وهو بخارج البصرة ولا قبة عليه وله مسجد وزاوية فيها الطعام لابناء السبيل ومنها قبر حليمة السعدية أم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة رضى الله عنها والي جانبها قبر ابنها رضيع رسول الله صلي الله عليه وسلم ومنها قبر أبى بكرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه قبة وعلى ستة أميال منها بقرب وادي السباع قبر أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا سبيل لزيارته الا فى جمع كثيف لكثرة السباع وعدم العمران ومنها قبر الحسن بن أبى الحسن البصري سيد التابعين رضى الله عنه ومنها قبر محمد بن سيرين رضى الله عنه ومنها قبر محمد بن واسع رضى الله عنه ومنها قبر عتبة الغلام رضي الله عنه ومنها قبر مالك بن دينار رضى الله عنه ومنها قبر حبيب العجمي رضى الله عنه ومنها قبر سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه وعلي كل قبر منها قبة مكتوب فيها اسم صاحب القبر ووفاته وذلك كله داخل السور القديم وهى اليوم بينها وبين البلد نحو ثلاثة أميال وبها سوى ذلك قبور الجم الغفير من الصحابة والتابعين المستشهدين يوم الجمل وكان أمير البصرة حين ورودى عليها يسمي بركن الدين العجمى التوريزى أضافني فاحسن الى والبصرة على ساحل الفرات والدجلة وبها المد والجزر كمثل ماهو بوادى سلا من بلاد المغرب وسواه والخليج المالح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها فاذا كان المد غلب الماء المالح علي العذب واذا كان الجزر غلب الماء الحلو علي المالح فيستسقي أهل البصرة الماء لدورهم ولذلك يقال ان ماءهم زعاق قال ابن جزي وبسبب ذلك كان هواء البصرة غير جيد وألوان أهلها مصفرة كاسفة حتي ضرب بهم المثل وقال بعض الشعراء وقد أحضرت بين يدي الصاحب اترجة (سريع)

لله أترج غدا بيننا * معبرا عن حال ذى عبرة

لما كسا الله ثياب الضنا * أهل الهوى وساكني البصرة

(رجع) ثم ركبت من ساحل البصرة في صنبوق وهو القارب الصغير الى الابلة وبينها وبين البصرة عشرة أميال فى بساتين متصلة ونخيل مظلة عن اليمين واليسار والبياعة فى ظلال الاشجار يبيعون الخبز والسمك والتمر واللبن والفواكه وفيما بين البصرة والابلة متعبد سهل بن عبد الله التسترى فاذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون الماء مما يحاذيه من الوادى ويدعون عند ذلك تبركا بهذا الولى رضي الله عنه والنواتية يجرفون فى هذه البلاد وهم قيام وكانت الابلة مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس فخربت وهي الآن

قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمها ثم ركبنا فى الخليج الخارج من بحر فارس فى مركب صغير لرجل من أهل الابلة يسمي بمغامس وذلك فيما بعد المغرب فصبحنا عبادان وهي قرية كبيرة في سبخة لا عمارة بها وفيها مساجد كثيرة ومتعبدات ور باطات للصالحين و بينها و بين الساحل ثلاثة أميال قال ابن جزي عبادان كانت بلدا فيما تقدم وهي مجدبة لا زرع بها وانما يجلب اليها والماء أيضا بها قليل وقد قال فيها بعض الشعراء (سريع)

من مبلغ اندلسا انني * حللت عبادان أقصى الثرا
أوحش ما أبصرت لكنني * قصدت فيها ذكرها فى الورى
الخبز فيها يتهادونه * وشربة الماء بها تشترى

(رجع) وعلى ساحل البحر منها رابطة تعرف بالنسبة الى الخضر والياس عليهما السلام و بازائها زاوية يسكنها أربعة من الفقراء باولادهم يخدمون الرابطة والزاوية و يتعيشون من فتوحات الناس وكل من يمر بهم يتصدق عليهم وذكر لى أهل هذه الزاوية ان بعبادان عابدا كبير القدر ولا أنيس له ياتى هذا البحر مرة فى الشهر فيصطاد فيه مايقوته شهرا ثم لا يري الا بعد تمام شهر وهو على ذلك منذ أعوام فلما وصلنا عبادان لم يكن لى شان الا طلبه فاشتغل من كان معي بالصلاة فى المساجد والمتعبدات وانطلقت طالبا له فجئت مسجدا خربا فوجدته يصلي فيه فجلست فى جانبه فاوجز فى صلاته ولما سلم أخذ بيدى وقال لى بلغك الله مرادك فى الدنيا والآخرة فقد بلغت بحمد الله مرادي فى الدنيا وهو السياحة فى الارض و بلغت من ذلك مالم يبلغه غيرى فيما أعلمه و بقيت الاخري والرجاء قوى فى رحمة الله وتجاوزه و بلوغ المراد من دخول الجنة ولما أتيت أصحابى أخبرتهم خبر الرجل وأعلمتهم بموضعه فذهبوا اليه فلم يجدوه ولا وقعوا له على خبر فعجبوا من شانه وعدنا بالعشى الى الزاوية فبتنا بها ودخل علينا أحد الفقراء الاربعة بعد صلاة العشاء الآخرة ومن عادة ذلك الفقير أن ياتى عبادان كل ليلة فيسرج السرج بمساجدها ثم يعود الى زاويته فلما وصل الى عبادان وجد الرجل العابد فاعطاه سمكة طرية وقال له اوصل هذه الى الضيف الذى قدم اليوم فقال لنا الفقير عند دخوله علينا من رأى منكم الشيخ اليوم فقلت له أنا رأيته فقال يقول لك هذه ضيافتك فشكرت الله على ذلك وطبخ لنا الفقير تلك السمكة فاكلنا منها اجمعون وما أكلت قط سمكا أطيب منها وهجس في خاطرى الاقامة بقية العمر فى خدمة ذلك الشيخ ثم صرفتني النفس اللجوج عن ذلك ثم ركبنا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجول ومن عادتي فى سفري أن لا أعود على طريق

سلكتها ماأمكنني ذلك وكنت احب قصد بغداد العراق فاشار على بعض أهل البصرة بالسفر الى أرض اللور ثم الى عراق العجم ثم الى عراق العرب فعملت بمقتضي اشارته ووصلنا بعد أربعة أيام الى بلدة ماجول على وزن فاعول وجيمها معقودة وهى صغيرة على ساحل هذا الخليج الذى ذكرنا انه يخرج من بحر فارس وأرضها سبخة لا شجر فيها ولا نبات ولها سوق عظيمة من أكبر الاسواق وأقمت بها يوما واحدا ثم اكتريت دابة لركوبي من الذين يجلبون الحبوب من رامز الى ماجول وسرنا ثلاثا فى صحراء يسكنها الاكراد فى بيوت الشعر ويقال ان أصلهم من العرب ثم وصلنا الى مدينة رامز وأول حروفها (راء وآخرها زاي وميمها مكسورة) وهي مدينة حسنة ذات فواكه وأنهار ونزلنا بها عند القاضى حسام الدين محمود ولقيت عنده رجلا من أهل العلم والدين والورع هندى الاصل يدعي بهاء الدين ويسمي اسماعيل وهو من أولاد الشيخ بهاء الدين أبى زكريا الملتانى وقرأ على مشايخ توريز وغيرها وأقمت بمدينة رامز ليلة واحدة ثم رحلنا منها ثلاثا فى بسيط فيه قرى يسكنها الاكراد وفى كل مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء وحلواؤهم من رب العنب مخلوط بالدقيق والسمن وفى كل زاوية الشيخ والامام والمؤذن والخادم للفقراء والعبيد والخدم يطبخون الطعام ثم وصلت الى مدينة تستر وهي آخر البسيط من بلاد اتابك وأول الجبال مدينة كبيرة رائقة نضرة وبها البساتين الشريفة والرياض المنيفة ولها المحاسن البارعة والاسواق الجامعة وهي قديمة البناء افتتحها خالد بن الوليد والى هذه المدينة ينسب سهل بن عبد الله ويحيط بها النهر المعروف بالازرق وهو عجيب فى نهاية من الصفا شديد البرودة في أيام الحر ولم أر كزرقته الا نهر بلخشان ولها باب واحد للمسافرين يسمي دروازة دسبول والدروازة عندهم الباب ولها ابواب غيره شارعة الى النهر وعلى جانبي النهر البساتين والدواليب والنهر عميق وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد والحلة قال ابن جزى وفى هذا النهر يقول بعضهم (كامل)

انظر لشاذر وان تستر واعجب * من جمعه ماء لرى بلاده

كملك قوم جمعت امواله * فغدا يفرقه على اجناده

والفواكه بتستر كثيرة والخيرات متيسرة غزيرة ولا مثل لاسواقها فى الحسن وبخارجها تربة معظمة يقصدها اهل تلك الاقطار للزيارة وينذرون لها النذور ولها زاوية بها جماعة من الفقراء وهم يزعمون انها تربة زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب وكان

نزولى من مدينة تستر في مدرسة الشيخ الامام الصالح المتفنن شرف الدين موسى ابن الشيخ الصالح الامام العالم صدر الدين سليمان وهو من ذرية سهل بن عبد الله وهذا الشيخ ذو مكارم وفضائل جامع بين العلم والدين والصلاح والايثار وله مدرسة وزاوية وخدامها فتيان له اربعة سنبل وكافور وجوهر وسرور احدهم موكل باوقاف الزاوية والثاني متصرف فيما يحتاج اليه من النفقات فى كل يوم والثالث خديم السماط بين ايدى الواردين ومرتب الطعام لهم والرابع موكل بالطباخين والسقائين والفراشين فقمت عنده ستة عشر يوما فلم أرا عجب من ترتيبه ولا أرغد من طعامه يقدم بين يدى الرجل ما يكفى الاربعة من طعام الارز المفلفل المطبوخ فى السمن والدجاج المقلى والخبز واللحم والحلواء وهذا الشيخ من أحسن الناس صورة وأقومهم سيرة وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ولما شاهدت مجالسه فى الوعظ صغر لدي كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر ولم أاق فيمن لقيتهم مثله حضرت يوما عنده ببستان له على شاطيء النهر وقد اجتمع فقهاء المدينة وكبراؤها وأتى الفقراء من كل ناحية فاطعم الجميع ثم صلى بهم صلاة الظهر وقام خطيبا وواعظا بعد أن قرأ القراء امامه بالتلاحين المبكية والنغمات المحركة المهيجة وخطب خطبة بسكينة ووقار وتصرف فى فنون العلم من تفسير كتاب الله وإيراد حديث رسول الله والتكلم على معانيه ثم ترامت عليه الرقاع من كل ناحية ومن عادة الاعاجم أن يكتبوا المسائل في رقاع ويرمونها الى الواعظ فيجيب عنها فلما رمي اليه بتلك الرقاع جمعها فى يده وأخذ يجيب عنها واحدة بعد واحدة بابدع جواب واحسنه وحان وقت صلاة العصر فصلى بالقوم وانصرفوا وكان مجلسه مجلس علم ووعظ وبركة وتبادر التائبون فاخذ عليهم العهد وجز نواصيهم وكانوا خمسة عشر رجلا من الطلبة قدموا من البصرة برسم ذلك وعشرة رجال من عوام تستر

— حكاية —

لما دخلت هذه المدينة أصابنى مرض الحمى وهذه البلاد يحم داخلها فى زمان الحر كما يعرض فى دمشق وسواها من البلاد الكثيرة المياه والفواكه وأصابت الحمى أصحابى أيضاً فمات منهم شيخ اسمه يحيى الخراساني وقام الشيخ بتجهيزه من كل مايحتاج اليه الميت وصلى عليه وتركت بها صاحبا لى يدعى بهاء الدين الختني فمات بعد سفرى وكنت حين مرضى لا أشتهى الاطعمة التي تصنع لى بمدرسته فذكر لى الفقيه شمس الدين السندى من طلبتها طعاما فاشتهيته ودفعت له دراهم وطبخ لى ذلك الطعام بالسوق وأتي به الى فاكلت منه وبلغ ذلك الشيخ فشق عليه وأتى الى وقال لى كيف تفعل هذا وتطبخ الطعام

فى السوق وهلا أمرت الخدم أن يصنعوا لك ما اشتهيته ثم أحضر جميعهم وقال لهم جميع مايطلب منكم من أنواع الطعام والسكر وغير ذلك فاتوا اليه به وأطبخوا له ما يشاؤه وأكد عليهم فى ذلك أشد التأكيد جزاه الله خيرا ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثا فى جبال شامخة وبكل منزل زاوية كما تقدم ذكر ذلك ووصلنا الى مدينة إيذج (وضبط اسمها بكسر الهمزة وياء مد وذال معجم مفتوح وجيم) وتسمى أيضا مال الأمير وهى حضرة السلطان أتابك وعند وصولى اليها اجتمعت بشيخ شيوخها العالم الورع نور الدين الكرمانى وله النظر فى جميع الزوايا وهم يسمونها المدرسة والسلطان يعظمه ويقصد زيارته وكذلك أرباب الدولة وكبراء الحضرة يزورونه غدواً وعشياً فأكرمنى وأضافنى وأنزلني بزاوية تعرف باسم الدينورى وأقمت بها أياما وكان وصولى فى أيام القيظ وكنا نصلى صلاة الليل ثم ننام بأعلى سطحها ثم ننزل الى الزاوية ضحوة وكان فى صحبتي اثنا عشر فقيرا منهم امام وقارئان مجيدان وخادم ونحن على أحسن ترتيب

— ذكر ملك إيذج وتستر —

وملك إيذج فى عهد دخولى اليها السلطان أتابك افراسياب ابن السلطان أتابك أحمد وأتابك عندهم سمة لكل من يلى هذه البلاد من ملك وتسمى هذه البلاد بلاد اللور وولى هذا السلطان بعد أخيه أتابك يوسف وولى يوسف بعد أبيه أتابك احمد وكان أحمد المذكور ملكا صالحاً سمعت من الثقاة ببلاده انه عمر أربعمائة وستين زاوية ببلاده منها بحضرة إيذج أربع وأربعون وقسم خراج بلاده أثلاثا فالثلث منه لنفقة الزوايا والمدارس والثلث منه لمرتب العساكر والثلث لنفقته ونفقة عياله وعبيده وخدامه ويبعث منه هدية لملك العراق فى كل سنة وربما وفد عليه بنفسه وشاهدت من آثاره الصالحة ببلاده ان اكثرها فى جبال شامخة وقد نحتت الطرق فى الصخور والحجارة وسويت ووسعت بحيث تصعدها الدواب باحمالها وطول هذه الجبال مسيرة سبعة عشر فى عرض عشرة وهي شاهقة متصل بعضها ببعض تشقها الانهار وشجرها البلوط وهم يصنعون من دقيقه الخبز وفى كل منزل من منازلها زاوية يسمونها المدرسة فاذا وصل المسافر الى مدرسة منها أتي بما يكفيه من الطعام والعلف لدابته سواء طلب ذلك أولم يطلبه فان عادتهم أن ياتي خادم المدرسة فيعد من نزل بها من الناس ويعطى كل واحد منهم قرصين من الخبز ولحما وحلواء وكل ذلك من أوقاف السلطان عليها وكان السلطان أتابك احمد زاهداً صالحاً كما ذكرناه يلبس تحت ثيابه مما يلي جسده ثوب شعر

— حكاية —

قدم السلطان أتابك أحمد مرة على ملك العراق أبي سعيد فقال له بعض خواصه ان أتابك يدخل عليك وعليه الدرع وظن ثوب الشعر الذى تحت ثيابه درعا فامرهم باختبار ذلك على جهة من الانبساط ليعرف حقيقته فدخل عليه يوما فقام اليه الامير الجوبان عظيم أمراء العراق والامير سويته أمير ديار بكر والشيخ حسن الذي هو الآن سلطان العراق وامسكوا ثيابه كانهم يمازحونه ويضاحكونه فوجدوا تحت ثيابه ثوب الشعر ورآه السلطان أبو سعيد وقام اليه وعانقه وأجلسه الى جانبه وقال له سن آطا ومعناه بالتركيه أنت أبي وعوضه عن هديته باضعافها وكتب له اليرليغ وهو الظهير أن لا يطالبه بهدية بعدها هو ولا أولاده وفي تلك السنة توفي وولي ابنه أتابك يوسف عشرة أعوام ثم ولي أخوه أفراسياب ولما دخلت مدينة إيذج أردت رؤية السلطان افراسياب المذكور فلم يتات لي ذلك بسبب أنه لا يخرج الا يوم الجمعة لادمانه على الخمر وكان له ابن هو ولي عهده وليس له سواه فمرض في تلك الأيام ولما كان في إحدى الليالي أتاني أحد خدامه وسالني عن حالي فعرفته وذهب عني ثم جاء بعد صلاة المغرب ومعه طيفوران كبيران أحدهما بالطعام والآخر بالفاكهة وخريطة فيها دراهم ومعه أهل السماع بآلاتهم فقال اعملوا السماع حتى يرهج الفقراء ويدعون لابن السلطان فقلت له ان أصحابي لا يدرون بالسماع ولا بالرقص ودعونا للسلطان ولولده وقسمت الدراهم على الفقراء ولما كان نصف الليل سمعنا الصراخ والنواح وقد مات المريض المذكور ولما كان من الغد دخل علي شيخ الزاوية وأهل البلد وقالوا ان كبراء المدينة من القضاة والفقهاء والاشراف والامراء قد ذهبوا الى دار السلطان للعزاء فينبغي لك ان تذهب في جملتهم فابيت عن ذلك فعزموا علي فلم يكن لي بد من المسير فسرت معهم فوجدت مشور دار السلطان ممتلئا رجالا وصبيانا من المماليك وأبناء الملوك والوزراء والاجناد وقد لبسوا التلاليس وجلال الدواب وجعلوا فوق رؤسهم التراب والتبن وبعضهم قد جز ناصيته وانقسموا فرقتين فرقة باعلى المشور وفرقة بأسفله وتزحف كل فرقة الى جهة الاخرى وهم ضاربون بأيديهم على صدورهم قائلون خوندكارما ومعناه مولاى أنا (مولانا) فرأيت من ذلك أمرا هائلا ومنظرا فظيعا لم أعهد مثله

— حكاية —

ومن غريب ما اتفق لي يومئذ انى دخلت فرأيت القضاة والخطباء والشرفاء قد استندوا الى حيطان المشور وهو غاص بهم من جميع جهاته وهم بين باك ومتباك ومطرق وقد لبسوا فوق ثيابهم ثيابا خامة من غليظ القطن غير محكمة الخياطة بطائنها الى أعلى ووجوهها مما يلي أجسادهم وعلى رأس كل واحد منهم قطعة خرقة أومئزر أسود وهكذا يكون

فعلهم الى تمام اربعين يوما وهي نهاية الحزن عندهم وبعدها يبعث السلطان لكل من فعل ذلك كسوة كاملة فلما رأيت جهات المشور غاصة بالناس نظرت يمينا وشمالا أرتاد موضعا لجلوسي فرأيت هنالك سقيفة مرتفعة عن الارض بمقدار شبر وفي احدي زواياها رجل منفرد عن الناس قاعدٌ عليه ثوب صوف شبه اللبد يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس أيام المطر والثلج وفي الاسفار فتقدمت الى حيث الرجل وانقطع عني أصحابي لما رأوا اقدامي نحوه وعجبوا مني وانا لا علم عندي بشيء من حاله فصعدت السقيفة وسلمت على الرجل فرد على السلام وارتفع عن الارض كانه يريد القيام وهم يسمون ذلك نصف القيام وقعدت في الركن المقابل له ثم نظرت الى الناس وقد رموني بابصارهم جميعا فعجبت منهم ورأيت الفقهاء والمشايخ والاشراف مستندين الي الحائط تحت السقيفة وأشار الى أحد القضاة ان انحط الى جانبه فلم أفعل وحينئذ استشعرت انه السلطان فلما كان بعد ساعة أتى شيخ المشايخ نور الدين الكرماني الذي ذكرناه قبل فصعد الى السقيفة وسلم على الرجل فقام اليه وجلس فيما بيني وبينه فحينئذ علمت ان الرجل هو السلطان ثم جيء بالجنازة وهي بين أشجار الاترج والليمون والنارنج وقد ملؤا أغصانها بثمارها والاشجار بايدى الرجال فكان الجنازة تمشي في بستان والمشاعل في رماح طوال بين يديها والشمع كذلك فصلى عليها وذهبت الناس معها الى مدفن الملوك وهو بموضع يقال له هلافيحان على أربعة أميال من المدينة وهنالك مدرسة عظيمة يشقها النهر وبداخلها مسجد تقام فيه الجمعة وبخارجها حمام ويحف بها بستان عظيم وبها الطعام للوارد والصادر ولم أستطع ان أذهب معهم الى مدفن الجنازة لبعد الموضع فعدت الى المدرسة فلما كان بعد أيام بعث الى السلطان رسوله الذي أتاني بالضيافة أولا يدعوني اليه فذهبت معه الى باب يعرف بباب السر وصعدنا في درج كثيرة الى ان انتهينا الى موضع لافرش به لاجل ماهم فيه من الحزن والسلطان جالس فوق مخدة وبين يديه آنيتان قد غطيتا احداهما من الذهب والاخري من الفضة وكانت بالمجلس سجادة خضراء ففرشت لي بالقرب منه وقعدت عليها وليس بالمجلس الا حاجبه الفقيه محمود ونديم له لا أعرف اسمه فسالني عن حالي وبلادي وسالني عن الملك الناصر وبلاد الحجاز فاجبته عن ذلك ثم جاء فقيه كبير هو رئيس فقهاء تلك البلاد فقال لي السلطان هذا مولانا فضيل والفقيه ببلاد الاعاجم كلها انما يخاطب بمولانا وبذلك يدعوه السلطان وسواه ثم أخذ في الثناء على الفقيه المذكور وظهر لي ان السكر غالب عليه وكنت قد عرفت إدمانه على الخمر ثم قال لي باللسان العربي وكان يحسنه تكلم

فقلت له ان كنت تسمع مني أقول لك أنت من أولاد السلطان أتابك أحمد المشهور بالصلاح والزهد وليس فيك ما يقدح في سلطنتك غير هذا وأشرت الى الآنيتين فخجل من كلامي وسكت وأردت الانصراف فامرني بالجلوس وقال لي الاجتماع مع امثالك رحمة ثم رأيته يتمايل ويريد النوم فانصرفت وكنت تركت نعلي بالباب فلم أجده فنزل الفقيه محمود في طلبه وصعد الفقيه فضيل يطلبه في داخل المجلس فوجده في طاق هنالك فاتى الى به فاخجلني بره واعتذرت اليه فقبل نعلي حينئذ ووضعه على رأسه وقال لي بارك الله فيك هذا الذي قلته لسلطاننا لا يقدر أحد أن يقوله له غيرك والله اني لارجو أن يؤثر ذلك فيه ثم كان رحيلي من حضرة إيذج بعد أيام فنزلت بمدرسة السلاطين التي بها قبورهم وأقمت بها أياما وبعث الى السلطان بجملة دنانير وبعث بمثلها لاصحابي وسافرنا في بلاد هذا السلطان عشرة أيام في جبال شامخة وفي كل ليلة ننزل بمدرسة فيها الطعام فمنها ماهو في العمارة ومنها ما لا عمارة حوله ولكن يجلب اليها جميع ما تحتاج اليه وفي اليوم العاشر نزلنا بمدرسة تعرف بمدرسة كريوالرخ وهي آخر بلاد هذا الملك وسافرنا منها في بسيط من الارض كثير المياه من عمالة مدينة أصفهان ثم وصلنا الى بلدة أشتركان (وضبط اسمها بضم الهمزة واسكان الشين المعجم وضم التاء المعلوة واسكان الراء وآخره نون) وهي بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين ولها مسجد بديع يشقه النهر ثم رحلنا منها الى مدينة فيروزان واسمها كانه تثنية فيروز وهي مدينة صغيرة ذات أنهار وأشجار وبساتين وصلناها بعد صلاة العصر فرأينا أهلها قد خرجوا لتشييع جنازة وقد أوقدوا خلفها وأمامها المشاعل واتبعوها بالمزامير والمغنيين بانواع الاغاني المطربة فعجبنا من شأنهم وبتنا بها ليلة ومررنا بالغد بقرية يقال لها نيلان وهي كبيرة على نهر عظيم والى جانبه مسجد في النهاية من الحسن يصعد اليه في درج وتحفه البساتين وسرنا يومنا فيما بين البساتين والمياه والقرى الحسان الكثيرة أبراج الحمام ووصلنا بعد العصر الى مدينة أصفهان من عراق العجم (واسمها يقال بالفاء الخالصة ويقال بالفاء المعقودة المفخمة) ومدينة اصفهان من كبار المدن وحسانها الا أنها الآن قد خرب أكثرها بسبب الفتنة التي بها بين أهل السنة والروافض وهي متصلة بينهم حتى الآن فلا يزالون في قتال وبها الفواكه الكثيرة ومنها المشمش الذي لا نظير له يسمونه بقمر الدين وهم ييبسونه ويدخرونه ونواه ينكسر عن لوز حلو ومنها السفرجل الذي لا مثل له في طيب المطعم وعظم الجرم والاعناب الطيبة والبطيخ العجيب الشان الذي ليس في الدنيا مثله الا ما كان من بطيخ بخارى وخوارزم وقشره

أخضر وداخله أحمر ويدخر كما تدخر الشريحة بالمغرب وله حلاوة شديدة ومن لم يكن ألف أكله فانه فى أول أمره يسهله وكذلك اتفق لى لما أكلته باصفهان وأهل أصفهان حسان الصور وألوانهم بيض زاهرة مشوبة بالحمرة والغالب عليهم الشجاعة والنجدة وفيهم كرم وتنافس عظيم فيما بينهم فى الاطعمة تؤثر عنهم فيه أخبار غريبة وربما دعا أحدهم صاحبه فيقول له اذهب معي لنا كل نان وماس والنان بلسانهم الخبز والماس اللبن فاذا ذهب معه أطعمه أنواع الطعام العجيب مباهيا له بذلك وأهل كل صناعة يقدمون على انفسهم كبيرا منهم يسمونه الكلو وكذلك كبار المدينة من غير أهل الصناعات وتكون الجماعة من الشبان الاعزاب وتفاخر تلك الجماعات ويضيف بعضهم بعضا مظهرين لما قدروا عليه من الامكان محتفلين فى الاطعمة وسواها الاحتفال العظيم ولقد ذكر لى ان طائفة منهم أضافت أخرى فطبخوا طعامهم بنار الشمع ثم اضافتها الاخري فطبخوا طعامهم بالحرير وكان نزولى باصفهان فى زاوية تنسب للشيخ على بن سهل تلميذ الجنيد وهى معظمة يقصدها أهل تلك الآفاق ويتبركون بزيارتها وفيها الطعام للوارد والصادر وبها حمام عجيب مفروش بالرخام وحيطانه بالقاشانى وهو موقوف فى السبيل لا يلزم أحدا فى دخوله شيء وشيخ هذه الزاوية الصالح العابد الورع قطب الدين حسين ابن الشيخ الصالح ولى الله شمس الدين محمد بن محمود بن على المعروف بالرجاء واخوه العالم المفتى شهاب الدين أحمد أقمت عند الشيخ قطب الدين بهذه الزاوية الرابعة عشر يوما فرأيت من اجتهاده فى العبادة وحبه فى الفقراء والمساكين وتواضعه لهم ماقضيت منه العجب وبالغ فى اكرامي واحسن ضيافتى وكساني كسوة حسنة وساعة وصولى الزاوية بعث الى بالطعام وبثلاث بطيخات من البطيخ الذى وصفناه آنفا ولم اكن رأيته قبل ولا اكلته

— كرامة لهذا الشيخ —

دخل على يوما بموضع نزولى من الزاوية وكان ذلك الموضع يشرف على بستان للشيخ وكانت ثيابه قد غسلت فى ذلك اليوم ونشرت فى البستان ورأيت فى جملتها جبة بيضاء مبطنة تدعى عندهم هزرميخى فاعجبتنى وقلت فى نفسي مثل هذه كنت اريد فلما دخل على الشيخ نظر فى ناحية البستان وقال لبعض خدامه ائتني بذلك الثوب الهزرميخي فاتوا به فكسانى اياه فاهويت الى قدميه اقبلهما وطلبت منه ان يلبسني طاقية من رأسه ويجيزني فى ذلك بما اجازه والده عن شيوخه فالبسني اياها في الرابع عشر لجمادى الاخيرة سنة سبع وعشرين وسبعمائة بزاويته المذكورة كما لبس من والده شمس الدين ولبس والده من أبيه تاج الدين محمود ولبس محمود من أبيه شهاب الدين على الرجاء ولبس على من الامام

شهاب الدين ابي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردى ولبس عمر من الشيخ الكبير ضياء الدين ابي النجيب السهروردى ولبس ابو النجيب من عمه الامام وجيه الدين عمر ولبس عمر من والده محمد بن عبد الله المعروف بعمويه ولبس محمد من الشيخ اخي فرج الزنجاني ولبس أخو فرج من الشيخ احمد الدينورى ولبس أحمد من الامام ممشاد الدينورى ولبس ممشاد من الشيخ المحقق علي بن سهل الصوفي ولبس علي من ابي القاسم الجنيد ولبس الجنيد من سرى السقطي ولبس سرى السقطي من داود الطائي ولبس داود من الحسن بن أبي الحسن البصرى ولبس الحسن بن ابي الحسن البصري من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال ابن جزى هكذا اورد الشيخ أبو عبد الله هذا السند والمعروف فيه ان سريا السقطي صحب معروفا الكرخي وصحب معروف داود الطائي وكذلك داود الطائي بينه وبين الحسن حبيب العجمي واخو فرج الزنجاني انما المعروف انه صحب ابا العباس النهاوندي وصحب النهاوندي اباعبد الله بن خفيف وصحب ابن خفيف ابا محمد رويما وصحب رويم ابا القاسم الجنيد وأما محمد بن عبد الله عمويه فهو الذي صحب الشيخ أحمد الدينورى الاسود وليس بينهما احد والله اعلم والذى صحب اخا فرج الزنجاني هو عبد الله بن محمد بن عبد الله والد ابي النجيب (رجع) ثم سافرنا من اصفهان بقصد زيارة الشيخ مجد الدين بشيراز وبينها مسيرة عشرة ايام فوصلنا الى بلدة كليل (وضبطها بفتح الكاف وكسر اللام وياء مد) وبينها وبين اصفهان مسيرة ثلاثة وهى بلدة صغيرة ذات انهار وبساتين وفواكه رأيت التفاح يباع فى سوقها خمسة عشر رطلا عراقية بدرهم ودرهمهم ثلث النقرة ونزلنا منها بزاوية عمرها كبير هذه البلدة المعروف بخواجه كافى وله مال عريض قد أعانه الله على انفاقه فى سبيل الخيرات من الصدقة وعمارة الزوايا واطعام الطعام لابناء السبيل ثم سرنا من كليل يومين ووصلنا الى قرية كبيرة تعرف بصوماء وبها زاوية فيها الطعام للوارد والصادر عمرها خواجه كافى المذكور ثم سرنا منها الى يزدخاص (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف واسكان الزاي وضم الدال المهمل وخاء معجم وألف وصاد مهمل) بلدة صغيرة متقنة العمارة حسنة السوق والمسجد الجامع بها عجيب مبنى بالحجارة مسقف بها والبلدة على ضفة خندق فيه بساتينها ومياهها وبخارجها رباط ينزل به المسافرون عليه باب حديد وهو فى النهاية من الحصانة والمنعة وبداخله حوانيت يباع فيها كل ما يحتاجه المسافرون وهذا الرباط عمره الامير محمد شاه ينجو والد السلطان أبي اسحاق ملك شيراز وفى يزدخاص يصنع الجبن اليزدخاصي ولا نظير له فى طيبه وزن الجبنة منه

من اوقيتين الى أربع ثم سرنا منها على طريق دشت الروم وهى صحراء يسكنها الاتراك ثم سافرنا الى مايين (واسمها بياءين مسفوانين أولاهما مكسورة) وهي بلدة صغيرة كثيرة الانهار والبساتين حسنة الاسواق وأكثر أشجارها الجوز ثم سافرنا منها الى مدينة شيراز وهى مدينة أصلية البناء فسيحة الارجاء شهيرة الذكر منيفة القدر لها البساتين المونقة والانهار المتدفقة والاسواق البديعة والشوارع الرفيعة وهى كثيرة العمارة متقنة المبانى عجيبة الترتيب وأهل كل صناعة فى سوقها لايخالطهم غيرهم وأهلها حسان الصور نظاف الملابس وليس فى المشرق بلدة تدانى مدينة دمشق فى حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها وحسن صور ساكنيها إلا شيراز وهى فى بسيط من الارض تحف بها البساتين من جميع الجهات وتشقها خمسة أنهار أحدها النهر المعروف بركن آباد وهو عذب الماء شديد البرودة فى الصيف سخن في الشتاء فينبعث من عين فى سفح جبل هنالك يسمى القليعة ومسجدها الاعظم يسمى بالمسجد العتيق وهو من أكبر المساجد ساحة وأحسنها بناء وصحنه متسع مفروش بالمرمر يغسل في أوان الحر كل ليلة ويجتمع فيه كبار أهل المدينة كل عشية ويصلون به المغرب والعشاء وبشماله باب يعرف بباب حسن يفضى الى سوق الفاكهة وهي من أبدع الاسواق وأنا أقول بتفضيلها على سوق باب البريد من دمشق وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف وخصوصا نساؤها وهن يلبسن الخفاف ويخرجن ملتحفات متبرقعات فلا يظهر منهن شيء ولهن الصدقات والايثار ومن غريب حالهن انهن يجتمعن لسماع الواعظ في كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الاعظم فربما اجتمع منهن الالف والالفان بأيديهن المراوح يروحن بها على انفسهن من شدة الحر ولم ار اجتماع النساء فى مثل عددهن فى بلدة من البلاد وعند دخولى الى مدينة شيراز لم يكن لى هم الا قصد الشيخ القاضي الامام قطب الاولياء فريد الدهر ذى الكرامات الظاهرة مجد الدين اسماعيل بن محمد بن خداد ومعنى خداد عطية الله فوصلت الى المدرسة المجدية المنسوبة اليه وبها سكناه وهي من عمارته فدخلت اليه رابع أربعة من أصحابى ووجدت الفقهاء وكبار أهل المدينة فى انتظاره فخرج الى صلاة العصر ومعه محب الدين وعلاء الدين ابنا أخيه شقيقه روح الدين أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وهما نائباه في القضاء لضعف بصره وكبر سنه فسلمت عليه وعانقنى وأخذ بيدى الى أن وصل الى مصلاه فأرسل يدى وأوما الى أن أصلي الى جانبه ففعلت وصلى صلاة العصر ثم قرىء بين يديه من كتاب المصابيح وشوارق الانوار للصاغانى وطالعه نائباه بما جرى لديهما من القضايا وتقدم كبار

المدينة للسلام عليه وكذلك عادتهم معه صباحاً ومساء ثم سألني عن حالى وكيفية قدومى وسألني عن المغرب ومصر والشام والحجاز فأخبرته بذلك وأمر خدامه فانزلونى بدويرة صغيرة بالمدرسة وفى غد ذلك اليوم وصل اليه رسول ملك العراق السلطان أبي سعيد وهو ناصر الدين الدرقندى من كبار الامراء خراسانى الاصل فعند وصوله اليه نزع شاشيته عن رأسه وهم يسمونها الكلا وقبل رجل القاضي وقعد بين يديه ممسكا اذن نفسه بيده وهكذا فعل أمراء التتر عند ملوكهم وكان هذا الامير قد قدم في نحو خمسمائة فارس من مماليكه وخدامه وأصحابه ونزل خارج المدينة ودخل الى القاضى فى خمسة نفر ودخل مجلسه وحده منفرداً تأدبا

— حكاية هى السبب في تعظيم هذا الشيخ وهى من الكرامات الباهرة —

كان ملك العراق السلطان محمد خدابنده قد صحبه فى حال كفره فقيه من الروافض الامامية يسمي جمال الدين بن مطهر فلما أسلم السلطان المذكور وأسلمت باسلامه التتر زاد فى تعظيم هذا الفقيه فزين له مذهب الروافض وفضله على غيره وشرح له حال الصحابة والخلافة وقرر لديه ان أبا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله وان عليا ابن عمه وصهره فهو وارث الخلافة ومثل له ذلك بما هو مألوف عنده من ان الملك الذى بيده انما هو ارث عن أجداده وأقاربه مع حدثان عهد السلطان بالكفر وعدم معرفته بقواعد الدين فأمر السلطان بحمل الناس على الرفض وكتب بذلك الى العراقين وفارس واذربيجان واصفهان وكرمان وخراسان وبعث الرسل الى البلاد فكان أول بلاد وصل اليها ذلك بغداد وشيراز واصفهان فأما أهل بغداد فامتنع أهل باب الازج منهم وهم أهل السنة وأكثرهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل وقالوا لا سمع ولا طاعة وأتوا المسجد الجامع يوم الجمعة فى السلاح وبه رسول السلطان فلما صعد الخطيب المنبر قاموا اليه وهم نحو اثنى عشر ألفا فى سلاحهم وهم حماة بغداد والمشار اليهم فيها فحلفوا له انه ان غير الخطبة المعتادة أو زاد فيها أو نقص منها فانهم قاتلوه وقاتلو رسول الملك ومستسلمون بعد ذلك لما شاءه الله وكان السلطان أمر بأن تسقط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ولا يذكر الا اسم على ومن تبعه كعمار رضى الله عنهم فخاف الخطيب من القتل وخطب الخطبة المعتادة وفعل أهل شيراز واصفهان كفعل أهل بغداد فرجعت الرسل الى الملك فاخبروه بما جرى فى ذلك فأمر أن يؤتي بقضاة المدن الثلاث فكان أول من أتى به منهم القاضى مجد الدين قاضي شيراز والسلطان اذذاك فى موضع يعرف بقراباغ وهو موضع مصيفه فلما وصل

القاضي أمر أن يرمي به الى الكلاب التي عنده وهي كلاب ضخام في أعناقها السلاسل معدة لاكل بني آدم فاذا أوتي بمن يسلط عليه الكلاب جعل في رحبة كبيرة مطلقا غير مقيد ثم بعثت تلك الكلاب عليه فيفر امامها ولا مفر له فتدركه فتمزقه وتاكل لحمه فلما أرسلت الكلاب على القاضي مجد الدين ووصلت اليه بصبصت اليه وحركت أذنابها بين يديه ولم تهجم عليه بشيء فبلغ ذلك السلطان فخرج من داره حافي القدمين فاكب على رجلي القاضي يقبلهما وأخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من الثياب وهي أعظم كرامات السلطان عندهم واذا خلع ثيابه كذلك علي أحد كانت شرفا له ولبنيه وأعقابه يتوارثونه مادامت تلك الثياب أو شيء منها وأعظمها في ذلك السراويل ولما خلع السلطان ثيابه على القاضي مجد الدين أخذ بيده وادخله الى داره وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به ورجع السلطان عن مذهب الرفض وكتب الى بلاده ان يقر الناس على مذهب أهل السنة والجماعة وأجزل العطاء للقاضي وصرفه الى بلاده مكرما معظما وأعطاه في جملة عطاياه مائة قرية من قرى جمكان وهو خندق بين جبلين طوله أربعة وعشرون فرسخا يشقه نهر عظيم والقرى منتظمة بجانبيه وهو أحسن موضع بشيراز ومن قراه العظيمة التي تضاهي المدن قرية ميمن وهي للقاضي المذكور ومن عجائب هذا الموضع المعروف بجمكان ان نصفه مما يلي شيراز وذلك مسافة اثني عشر فرسخا شديد البرد وينزل فيه الثلج وأكثر شجره الجوز والنصف الآخر مما يلي بلاد هنج وبال وبلاد اللار في طريق هرمز شديد الحر وفيه شجر النخيل وقد تكرر لي لقاء القاضي مجد الدين ثانية حين خروجي من الهند قصدته من هرمز متبركا بلقائه وذلك سنة ثمان وأربعين وبين هرمز وشيراز مسيرة خمسة وثلاثين يوما فدخلت عليه وهو قد ضعف عن الحركة فسلمت عليه فعرفني وقام الي فعانقني ووقعت يدي على مرفقه وجلده لاصق بالعظم لا لحم بينهما وأنزلني بالمدرسة حيث أنزلني أول مرة وزرته يوما فوجدت ملك شيراز السلطان أبا اسحاق وسيقع ذكره قاعدا بين يديه ممسكا باذن نفسه وذلك هو غاية الادب عندهم ويفعله الناس اذا قعدوا بين يدي الملك وأتيته مرة أخرى الى المدرسة فوجدت بابها مسدودا فسالت عن سبب ذلك فاخبرت ان أم السلطان وأخته نشات بينهما خصومة في ميراث فصرفهما الى القاضي مجد الدين فوصلتا اليه الى المدرسة وتحاكمتا عنده وفصل بينهما بواجب الشرع وأهل شيراز لا يدعونه الا بالقاضي وانما يقولون له مولانا أعظم وكذلك يكتبون في التسجيلات والعقود التي تفتقر الى ذكر اسمه فيها وكان آخر عهدي به في شهر ربيع

الثاني من عام ثمانية وأربعين وسبعمائة ولاحت على أنواره وظهرت لي بركاته نفع الله به وبامثاله

ـــ ذكر سلطان شيراز ـــ

وسلطان شيراز في عهد قدومي عليها الملك الفاضل أبو اسحاق بن محمد شاه ينجو سماه أبوه باسم الشيخ أبي اسحاق الكازروني نفع الله به وهو من خيار السلاطين حسن الصورة والسيرة والهيئة كريم النفس جميل الاخلاق متواضع صاحب قوة وملك كبير وعسكره ينيف على خمسين ألفا من الترك والاعاجم وبطانته الادنون اليه أهل اصفهان وهو لا يأتمن أهل شيراز على نفسه ولا يستخدمهم ولا يقربهم ولا يبيح لاحد منهم حمل السلاح لانهم أهل نجدة وباس شديد وجراءة على الملوك ومن وجد بيده السلاح منهم عوقب ولقد شاهدت مرة رجلا تجره الجنادرة وهم الشرط الى الحاكم وقد ربطوه في عنقه فسالت عن شانه فاخبرت انه وجدت في يده قوس بالليل فذهب السلطان المذكور إلى قهر أهل شيراز وتفضيل الاصفهانيين عليهم لانه يخافهم على نفسه وكان ابو محمد شاه ينجو واليا على شيراز من قبل ملك العراق وكان حسن السيرة محببا الى أهلها فلما توفى ولى السلطان ابو سعيد مكانه الشيخ حسينا وهو ابن الجوبان امير الامراء وسياتي ذكره وبعث معه العساكر الكثيرة فوصل الى شيراز وملكها وضبط مجابيها وهي من أعظم بلاد الله مجبى ذكر لي الحاج قوام الدين الطمغجي وهو والى المجبى بها انه ضمنها بعشرة آلاف دينار دراهم في كل يوم وصرفها من ذهب المغرب الفان وخمسمائة دينار ذهبا وأقام بها الامير حسين مدة ثم أراد القدوم على ملك العراق وقبض على أبي اسحاق بن محمد شاه ينجو وعلى أخويه ركن الدين ومسعود بك وعلى والدته طاش خاتون واراد حملهم الى العراق ليطلبوا باموال ابيهم فلما توسطوا السوق بشيراز كشفت طاش خاتون وجهها وكانت متبرقعة حياء ان ترى في تلك الحال فان عادة نساء الاتراك أن لا يغطين وجوههن واستغاثت باهل شيراز وقالت أهكذا يا أهل شيراز أخرج من بينكم وأنا فلانة زوجة فلان فقام رجل من النجارين يسمي بهلوان محمود قد رأيته بالسوق حين قدومي على شيراز فقال لا نتركها تخرج من بلدنا ولا نرضي بذلك فتابعه الناس على قوله وثارت عامتهم ودخلوا في السلاح وقتلوا كثيرا من العسكر واخذوا الاموال وخلصوا المرأة وأولادها وفر الامير حسين ومن معه وقدم على السلطان أبي سعيد مهزوما فاعطاه العساكر الكثيفة وأمره بالعود الى شيراز والتحكم في أهلها بما شاء فلما بلغ أهلها ذلك علموا انهم لا طاقة لهم به فقصدوا القاضي مجد الدين وطلبوا منه ان يحقن دماء الفريقين ويوقع الصلح فخرج الى

الامير حسن فترجل له الامير عن فرسه وسلم عليه ووقع الصلح ونزل الامير حسين ذلك اليوم خارج المدينة فلما كان من الغد برز أهلها للقائه فى اجمل ترتيب وزينوا البلد واوقدوا الشمع الكثير ودخل الامير حسين فى ابهة وحفل عظيم وسار فيهم باحسن سيرة فلما مات السلطان ابو سعيد وانقرض عقبه وتغلب كل امير على ما بيده خافهم الامير حسين على نفسه وخرج عنهم وتغلب السلطان ابو اسحاق عليها وعلى اصفهان وبلاد فارس وذلك مسيرة شهر ونصف شهر واشتدت شوكته وطمحت همته الى تملك ما يليه من البلاد فبدأ بالاقرب منها وهى مدينة يزد مدينة حسنة نظيفة عجيبة الاسواق ذات أنهار مطردة وأشجار نضيرة وأهلها تجار شافعية المذهب فحاصرها وتغلب عليها وتحصن الامير مظفر شاه ابن الامير محمد شاه ابن مظفر بقلعة على ستة أميال منها منيعة تحدق بها الرمال فحاصره بها فظهر من الامير مظفر من الشجاعة ما خرق المعتاد ولم يسمع بمثله فكان يضرب على عسكر السلطان أبى اسحاق ليلا ويقتل ماشاء ويخرق المضارب والفساطيط ويعود الى قلعته فلا يقدر على النيل منه وضرب ليلة على دوار السلطان وقتل هنالك جماعة وأخذ من عتاق خيله عشرة وعاد الى قلعته فامر السلطان ان تركب فى كل ليلة خمسة آلاف فارس ويصنعون له الكمائن ففعلوا ذلك وخرج على عادته فى مائة من اصحابه فضرب على العسكر وأحاطت به الكمائن وتلاحقت العساكر فقاتلهم وخلص الى قلعته ولم يصب من اصحابه الا واحد أتي به الى السلطان أبي اسحاق فخلع عليه وأطلقه وبعث معه أمانا لمظفر لينزل اليه فابى ذلك ثم وقعت بينهما المراسلة ووقعت له محبة فى قلب السلطان أبى اسحاق لما رأى من شجاعته فقال أريد أن أراه فاذا رأيته انصرفت عنه فوقف السلطان فى خارج القلعة ووقف هو ببابها وسلم عليه فقال له السلطان انزل على الامان فقال له مظفر انى عاهدت الله أن لا أنزل اليك حتى تدخل أنت قلعتى وحينئذ أنزل اليك فقال له افعل ذلك فدخل اليه السلطان فى عشرة من اصحابه الخواص فلما وصل باب القلعة ترجل مظفر وقبل ركابه ومشى بين يديه مترجلا فادخله داره وأكل من طعامه ونزل معه الى المحلة راكبا فاجلسه السلطان الى جانبه وخلع عليه ثيابه وأعطاه مالا عظيما ووقع الاتفاق بينهما ان تكون الخطبة باسم السلطان أبى اسحاق وتكون البلاد لمظفر وأبيه وعاد السلطان الى بلاده وكان السلطان أبو اسحاق طمح ذات مرة الى بناء ايوان كايوان كسرى وأمر أهل شيراز ان يتولوا حفر اساسه فاخذوا فى ذلك وكان أهل كل صناعة يباهون كل من عداهم فانتهوا فى المباهاة الى ان صنعوا القفاف لنقل التراب من الجلد وكسوها ثياب الحرير المزركش وفعلوا

نحوذلك في براذع الدواب واخراجها وصنع بعضهم القوس من الفضة وأوقدوا الشمع الكثير وكانوا حين الحفر يلبسون أجمل ثيابهم ويربطون فوط الحرير على أوساطهم والسلطان يشاهد أفعالهم من منظرة له وقد شاهدت هذا المبنى وقد ارتفع عن الارض نحو ثلاثة أذرع ولما بني أساسه رفع عن أهل المدينة التخديم فيه وصارت الفعلة تخدم فيه بالاجرة ويحشر لذلك آلاف منهم وسمعت والى المدينة يقول ان معظم مجباها ينفق في ذلك البناء وقد كان الموكل به الامير جلال الدين بن الفلكى التوريزى وهو من الكبار كان أبوه نائبا عن وزير السلطان أبي سعيد المسمي على شاه جيلان ولهذا الامير جلال الدين الفلكى أخ فاضل اسمه هبة الله و يلقب بهاء الملك وفد على ملك الهند حين وفودى عليه ووفد معنا شرف الملك أمير بخت فخلع ملك الهند علينا جميعاً وقدم كل واحد فى شغل يليق به وعين لنا المرتب والاحسان وسنذكر ذلك وهذا السلطان أبو اسحاق يريد التشبه بملك الهند المذكور في الايثار واجزال العطايا ولكن أين الثريا من الثري او اعظم ما تعرفنا من عطيات أبي اسحاق انه اعطى الشيخ زاده الخراساني الذى أتاه رسولا عن ملك هراة سبعين الف دينار وأما ملك الهند فلم يزل يعطى اضعاف ذلك لمن لا يحصى كثرة من أهل خراسان وغيرهم

— حكاية —

ومن عجيب فعل ملك الهند مع الخراسانيين انه قدم عليه رجل من فقهاء خراسان هروى الدار من سكان خوارزم يسمي بالامير عبدالله بعثته الخاتون ترابك زوج الامير قطلودمور صاحب خوارزم بهدية الى ملك الهند المذكور فقبلها وكافأ عنها باضعافها وبعث ذلك اليها واختار رسولها المذكور الاقامة عنده فصيره في ندمائه فلما كان ذات يوم قال له ادخل الى الخزانة فارفع منها قدرما تستطيع ان تحمله من الذهب فذهب الى داره فاتي بثلاث عشرة خريطة وجعل فى كل خريطة قدرما وسعته وربط كل خريطة بعضو من أعضائه وكان صاحب قوة وقام بها فلما خرج عن الخزانة وقع ولم يستطع النهوض فامر السلطان بوزن ماخرج به فكان جملته ثلاثة عشر منا بمنان دهلى والمن الواحد منها خمسة وعشرون رطلا مصرية فامره ان ياخذ جميع ذلك فاخذه وذهب به

— حكاية تناسبها —

اشتكي مرة امير بخت الملقب بشرف الملك الخراساني وهو الذى تقدم ذكره آنفا بحضرة ملك الهند فاتاه الملك عائدا ولما دخل عليه اراد القيام فحلف له الملك أن لا ينزل عن كته والكت هو السرير ووضع للسلطان متكأة يسمونها المورة فقعد عليها ثم دعا بالذهب والميزان فجيء بذلك وأمر المريض ان يقعد في احدى كفتى الميزان فقال ياخوند عالم

لوعلمت انك تفعل هذا للبست على ثيابا كثيرة فقال له البس الآن جميع ماعندك من الثياب فلبس ثيابه المعدة للبرد المحشوة بالقطن وقعد فى كفة الميزان ووضع الذهب فى الكفة الاخرى حتى رجحه الذهب وقال له خذ هذا فتصدق به على رأسك وخرج عنه

— حكاية تناسبها — وفد عليه الفقير عبد العزيز الاردويلى وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق وتفقه فيه فجعل مرتبه مائة دينار دراهم فى اليوم وصرف ذلك خمسة وعشرون دينارا ذهبا وحضر مجلسه يوما فسأله السلطان عن حديث فسرد له أحاديث كثيرة فى ذلك المعنى فاعجبه حفظه وحلف له برأسه أنه لا يزول من مجلسه حتى يفعل معه ما يراه ثم نزل الملك عن مجلسه فقبل قدميه وامر باحضار صينية من ذهب وهى مثل الطيفور الصغير وامر ان يأتى فيها الف دينار من الذهب واخذها السلطان بيده فصبها عليه وقال هى لك من الصينيه * ووفد عليه مرة رجل خراسانى يعرف بابن الشيخ عبد الرحمن الاسفراينى وكان أبوه نزل بغداد فأعطاه خمسين الف دينار دراهم وخيلا وعبيداً وخلعا * وسنذكر كثيراً من أخبار هذا الملك عند ذكر بلاد الهند وانما ذكرنا هذا لما قدمناه من ان السلطان أبا إسحق يريد التشبه به فى العطايا وهو وان كان كريما فاضلا فلا يلحق بطبقة ملك الهند فى الكرم والسخاء

— ذكر بعض المشاهد بشيراز —

فنها مشهد أحمد بن موسى أخى على الرضا بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم وهو مشهد معظم عند أهل شيراز يتبركون به ويتوسلون الى الله تعالى بفضله وبنت عليه طاش خاتون أم السلطان أبى اسحاق مدرسة كبيرة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر والقراء يقرؤن القرآن على التربة دائما ومن عادة الخاتون أنها تاتى الى هذا المشهد فى كل ليلة اثنين ويجتمع فى تلك الليلة القضاة والفقهاء والشرفاء وشيراز من أكثر بلاد الله شرفاء سمعت من الثقات ان الذين لهم بها المرتبات من الشرفاء الف وأربعمائة ونيف بين صغير وكبير ونقيبهم عضد الدين الحسينى فاذا حضر القوم بالمشهد المبارك المذكور ختموا القرآن قراءة فى المصاحف وقرأ القراء بالاصوات الحسنة وأتى بالطعام والفواكه والحلواء فاذا أكل القوم وعظ الواعظ ويكون ذلك كله من بعد صلاة الظهر الى العشى والخاتون فى غرفة مطلة على المسجد لها شباك ثم تضرب الطبول والانفار والبوقات على باب التربة كما يفعل عند أبواب الملوك * ومن المشاهد بها مشهد الامام القطب الولى أبى عبد الله بن خفيف المعروف عندهم بالشيخ وهو قدوة بلاد فارس كلها ومشهده معظم عندهم يأتون اليه بكرة وعشيا فيتمسحون به وقد رأيت القاضى مجد الدين أتاه زائراً واستلمه وتاتى الخاتون الى هذا المسجد

فى كل ليلة جمعة وعليه زاوية ومدرسة ويجتمع به القضاة والفقهاء ويفعلون به كفعلهم فى مشهد أحمد بن موسي وقد حضرت الموضعين جميعاً وتربة الامير محمد شاه ينجو والد السلطان أبى اسحاق متصلة بهذه التربة والشيخ أبو عبد الله بن خفيف كبير القدر فى الاولياء شهير الذكر وهو الذى أظهر طريق جبل سرنديب بجزيرة سيلان من أرض الهند

— كرامة لهذا الشيخ —

يحكى أنه قصد مرة جبل سرنديب ومعه نحو ثلاثين من الفقراء فاصابتهم مجاعة فى طريق الجبل حيث لا عمارة وتاهوا عن الطريق وطلبوا من الشيخ ان يأذن لهم فى القبض على بعض الفيلة الصغار وهى فى ذلك المحل كثيرة جداً ومنه تحمل الى حضرة ملك الهند فنهاهم الشيخ عن ذلك فغلب عليهم الجوع فتعدوا قول الشيخ وقبضوا على فيل صغير منها وذكوه وأكلوا لحمه وامتنع الشيخ من أكله فلما ناموا تلك الليلة اجتمعت الفيلة من كل ناحية وأتت اليهم فكانت تشم الرجل منهم وتقتله حتى أتت على جميعهم وشمت الشيخ ولم تتعرض له وأخذه فيل منها ولف عليه خرطومه ورمى به على ظهره وأتى به الموضع الذي فيه العمارة فلما رآه أهل تلك الناحية عجبوا منه واستقبلوه ليتعرفوا امره فلما قرب منهم أمسكه الفيل بخرطومه ووضعه عن ظهره الى الارض بحيث يرونه فجؤا اليه وتمسحوا به وذهبوا به الى ملكهم فعرفوه خبره وهم كفار وأقام عندهم أياما وذلك الموضع على خور يسمي خور الخيزران والخور هو النهر وبذلك الموضع مغاص الجوهر ويذكر ان الشيخ غاص فى بعض تلك الايام بحضر ملكهم وخرج وقد ضم يديه معاً وقال للملك اختر ما فى احداها فاختار ما فى اليمني فرمي اليه بما فيها وكانت ثلاثة أحجار من الياقوت لا مثل لها وهي عند ملوكهم فى التاج يتوارثونها وقد دخلت جزيرة سيلان هذه وهم مقيمون على الكفر الا أنهم يعظمون فقراء المسلمين ويؤونهم الى دورهم ويطعمونهم الطعام ويكونون فى بيوتهم بين أهليهم وأولادهم خلافا لسائر كفار الهند فانهم لا يقربون المسلمين ولا يطعمونهم فى آنيتهم ولا يسقونهم فيها مع انهم لا يؤذونهم ولا يهجونهم ولقد كنا نضطر الى ان يطبخ لنا بعضهم اللحم فياتون به فى قدورهم ويقعدون على بعد منا ويأتون باوراق الموز فيجعلون عليها الارز وهو طعامهم ويصبون عليه الكوشان وهو الادام ويذهبون فنأكل منه وما فضل علينا تأكله الكلاب والطير وان أكل منه الولد الصغير الذى لا يعقل ضربوه وأطعموه روث البقر وهو الذي يطهر ذلك فى زعمهم ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح القطب روزجهان القبلى من كبار الاولياء وقبره فى مسجد

جامع يخطب فيه وبذلك المسجد يصلي القاضي مجد الدين الذى تقدم ذكره رضي الله عنه
وبهذا المسجد سمعت عليه كتاب مسند الامام أبي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي قال
أخبرتنا به وزيرة بنت عمر بن المنجا قالت اخبرنا ابو عبد الله الحسين بن أبي بكر بن المبارك
الزبيدي قال أخبرنا ابو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي قال أخبرنا ابو الحسن المكى
ابن محمد بن منصور بن علان العرضى قال أخبرنا القاضي ابو بكر احمد بن الحسن الحرشي عن
أبي العباس بن يعقوب الاصم عن الربيع بن سليمان المرادى عن الامام أبي عبد الله الشافعي
وسمعت أيضا عن القاضي مجد الدين بهذا المسجد المذكور كتاب مشارق الانوار للامام
رضى الدين أبي الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصاغاني بحق سماعه له من الشيخ
جلال الدين أبي هاشم محمد بن محمد بن أحمد الهاشمي الكوفي بروايته عن الامام نظام
الدين محمود بن محمد بن عمر الهروى عن المصنف ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح زركوب
وعليه زاوية لاطعام الطعام وهذه المشاهد كلها بداخل المدينة وكذلك معظم قبور أهلها
فان الرجل منهم يموت ولده أو زوجه فيتخذله تربة من بعض بيوت داره ويدفنه هنالك
ويفرش البيت بالحصر والبسط ويجعل الشمع الكثير عند رأس الميت ورجليه ويصنع
للبيت بابا الى ناحية الزقاق وشباك حديد فيدخل منه القراء يقرؤن بالاصوات الحسان
وليس فى معمور الارض أحسن أصواتا بالقرآن من أهل شيراز ويقوم أهل الدار بالتربة
ويفرشونها ويوقدون السرج بها فكان الميت لم يبرح وذكر لى انهم يطبخون فى كل يوم نصيب
الميت من الطعام ويتصدقون به عنه

حكاية

مررت يوما ببعض أسواق مدينة شيراز فرأيت بها مسجدا متقن البناء جميل الفرش وفيه
مصاحف موضوعة فى خرائط حرير موضوعة فوق كرسى وفى الجهة الشمالية من المسجد
زاوية فيها شباك مفتح الى جهة السوق وهنالك شيخ جميل الهيئة واللباس وبين يديه مصحف
يقرأ فيه فسلمت عليه وجلست اليه فسألنى عن مقدمى فاخبرته وسألته عن شان هذا المسجد
فاخبرنى انه هو الذي عمره ووقف عليه اوقافا كثيرة للقراء وسواهم وان تلك الزاوية التي
جلست اليه فيها هي موضع قبره ان قضى الله موته بتلك المدينة ثم رفع بساطا كان تحته والقبر
مغطى عليه الواح خشب وأرانى صندوقا كان بازائه فقال فى هذا الصندوق كفنى وحنوطى
ودراهم كنت استاجرت بها نفسى فى حفر بئر لرجل صالح فدفع لى هذه الدراهم فتركتها
لتكون نفقة مواراتي وما فضل منها يتصدق بها فعجبت من شانه وأردت الانصراف فخلف
علي وأضافني بذلك الموضع ومن المشاهد بخارج شيراز قبر الشيخ الصالح المعروف بالسعدي

وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسي وربما ألمع في كلامه بالعربي وله زاوية كان قد عمرها بذلك الموضع حسنة بداخلها بستان مليح وهي بقرب رأس النهر الكبير المعروف بركن آبادو قد صنع الشيخ هنالك أحواضا صغارا من المرمر لغسل الثياب فيخرج الناس من المدينة لزيارته ويأكلون من سماطه ويغسلون ثيابهم بذلك النهر وينصرفون وكذلك فعلت عنده رحمه الله وبمقربة من هذه الزاوية زاوية أخري تتصل بها مدرسة مبنية على قبر شمس الدين السمناني وكان من الامراء الفقهاء ودفن هنالك بوصية منه بذلك وبمدينة شيراز من كبار الفقهاء الشريف مجيد الدين وأمره في الكرم عجيب وربما جاد بكل ما عنده وبالثياب التي كانت عليه ويلبس مرقعة له فيدخل عليه كبراء المدينة فيجدونه على تلك الحال فيكسونه ومرتبه في كل يوم من السلطان خمسون دينارا دراهم ثم كان خروجي من شيراز برسم زيارة قبر الشيخ الصالح أبي اسحاق الكازروني بكازرون وهي على مسيرة يومين من شيراز فنزلنا أول يوم ببلاد الشول وهم طائفة من الاعاجم يسكنون البرية وفيهم الصالحون

— كرامة لبعضهم —

كنت يوما ببعض المساجد بشيراز وقد قعدت أتلو كتاب الله عز وجل إثر صلاة الظهر فخطر بخاطري انه لو كان لى مصحف كريم اتلوت فيه فدخل على في اثناء ذلك شاب وقال لى بكلام قوى خذ فرفعت رأسي اليه فالقى في حجري مصحفا كريما وذهب عنى فختمته ذلك اليوم قراءة وانتظرته لارده له فلم يعد الى فسالت عنه فقيل لى ذلك بهلول الشولى ولم أره بعد ووصلنا في عشي اليوم الثانى الى كازرون فقصدنا زاوية الشيخ أبي اسحاق نفع الله به وبتنا بها تلك الليلة ومن عادتهم أن يطعموا الوارد كائنا من كان من الهريسة المصنوعة من اللحم والقمح والسمن وتؤكل بالرقاق ولا يتركون الوارد عليهم للسفر حتي يقيم في الضيافة ثلاثة أيام ويعرض على الشيخ الذى بالزاوية حوائجه ويذكرها الشيخ للفقراء الملازمين للزاوية وهم يزيدون على مائة منهم المتزوجون ومنهم الاعزاب المتجردون فيختمون القرآن ويذكرون الذكر ويدعون له عند ضريح الشيخ أبي اسحاق فتقضي حاجته باذن الله وهذا الشيخ أبو اسحق معظم عند أهل الهند والصين ومن عادة ركاب بحر الصين انهم اذا تغير عليهم الهواء وخافوا اللصوص نذروا لابي اسحاق نذورا وكتب كل منهم على نفسه ما نذره فاذا وصلوا بر السلامة صعد خدام الزاوية الى المركب وأخذوا الزمام وقبضوا من كل ناذر نذره ومامن مركب ياتي من الصين او الهند الا وفيه آلاف من الدنانير فياتي الوكلاء من جهة خادم الزاوية فيقبضون ذلك ومن الفقراء من ياتي طالبا

صدقة الشيخ فيكتب له أمر بها وفيه علامة الشيخ منقوشة في قالب من الفضة فيضعون القالب في صبغ أحمر ويلصقونه بالامر فيبقى اثر الطابع فيه ويكون مضمنه ان من عنده نذر للشيخ أبي اسحق فليعط منه لفلان كذا فيكون الامر بالالف والمائة وما بين ذلك ودونه على قدر الفقير فاذا وجد من عنده شيء من النذر قبض منه وكتب له رسما في ظهر الامر بما قبضه ولقد نذر ملك الهند مرة للشيخ أبي اسحق بعشرة آلاف دينار فبلغ خبرها الى فقراء الزاوية فاتي أحدهم الى الهند وقبضها وانصرف بها الى الزاوية ثم سافرنا من كازرون الى مدينة الزيدين وسميت بذلك لان فيها قبر زيد بن ثابت وقبر زيد بن أرقم الانصاريين صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضي الله عنهما وهي مدينة حسنة كثيرة البساتين والمياه مليحة الاسواق عجيبة المساجد ولاهلها صلاح وأمانة وديانة ومن أهلها القاضي نور الدين الزيداني وكان ورد على أهل الهند فولى القضاء منها بذيبة المهل وهي جزائر كثيرة ملكها جلال الدين بن صلاح الدين صالح وتزوج باخت هذا الملك وسياتي ذكره وذكر بنته خديجة التي تولت الملك بعده بهذه الجزائر وبها توفي القاضي نور الدين المذكور ثم سافرنا منها الى الحويزاء بالزاى وهي مدينة صغيرة يسكنها العجم بينها وبين البصرة مسيرة أربع وبينها وبين الكوفة مسيرة خمس ومن أهلها الشيخ الصالح العابد جمال الدين الحويزاني شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ثم سافرنا منها قاصدين الكوفة في برية لاماء بها الا في موضع واحد يسمي الطرفاوي ووردناه في اليوم الثالث من سفرنا ثم وصلنا بعد اليوم الثاني من ورودنا عليه الى مدينة الكوفة

— مدينة الكوفة —

وهي احدى مهات البلاد العراقية المتميزة فيها بفضل المزية مثوى الصحابة والتابعين ومنزل العلماء والصالحين وحضرة على بن أبي طالب أمير المؤمنين الا ان الخراب قد استولى عليها بسبب أيدى العدوان التى امتدت اليها وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها فانهم يقطعون طريقها ولا سور عليها وبناؤها بالآجر وأسواقها حسان وأكثر ما يباع فيها التمر والسمك وجامعها الاعظم جامع كبير شريف بلاطاته سبعة قائمة على سوارى حجارة ضخمة منحوتة قد صنعت قطعا ووضع بعضها على بعض وأفرغت بالرصاص وهي مفرطة الطول وبهذا المسجد آثار كريمة فمنها بيت ازاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة يقال ان الخليل صلوات الله عليه كان له مصلي بذلك الموضع وعلى مقربة منه محراب محلق عليه باعواد الساج مرتفع وهو محراب على بن أبي طالب رضى الله عنه وهنالك ضربه

الشقى ابن ملجم والناس يقصدون الصلاة به وفى الزاوية من آخر هذا البلاط مسجد صغير محلق عليه ايضا باعواد الساج يذكر أنه الموضع الذى فار منه التنور حين طوفان نوح عليه السلام وفي ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام وازاءه بيت يزعمون أنه متعبد ادريس عليه السلام و يتصل بذلك فضاء متصل بالجدار القبلى من المسجد يقال انه موضع إنشاء سفينة نوح عليه السلام وفى آخر هذا الفضاء دار على بن أبي طالب رضى الله عنه والبيت الذى غسل فيه و يتصل به بيت يقال ايضا انه بيت نوح عليه السلام والله اعلم بصحة ذلك كله وفي الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع يصعد اليه فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضى الله عنه و بمقربة منه خارج المسجد قبر عاتكة وسكينة بنت الحسين عليه السلام وأما قصر الامارة بالكوفة الذى بناه سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه فلم يبق منه الا أساسه والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ فى الجانب الشرقى منها وهو منتظم بحدائق النخل الملتفة المتصل بعضها ببعض ورأيت بغربى جبانة الكوفة موضعا مسودا شديد السواد فى بسيط ابيض فاخبرت انه قبر الشقى ابن ملجم وان اهل الكوفة ياتون فى كل سنة بالحطب الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة ايام وعلى قرب منه قبة اخبرت انها على قبر المختار بن ابي عبيد ثم رحلنا ونزلنا بئر ملاحة وهى بلدة حسنة بين حدائق نخل ونزلت بخارجها وكرهت دخولها لان اهلها روافض ورحلنا منها الصبح ونزلنا مدينة الحلة وهي مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو بشرقيها ولها اسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات وهى كثيرة العمارة وحدائق النخل منتظمة بها داخلا وخارجا ودورها بين الحدائق ولها جسر عظيم معقود على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطين تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد مربوطة فى كلا الشطين الى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل وأهل هذه المدينة كلها إمامية إثنا عشرية وهم طائفتان احداهما تعرف بالاكراد والاخرى تعرف باهل الجامعين والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم ابدا وبمقربة من السوق الاعظم بهذه المدينة مسجد على بابه ستر حرير مسدول وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان ومن عاداتهم أنه يخرج فى كل ليلة مائة رجل من اهل المدينة عليهم السلاح و بايديهم سيوف مشهورة فياتون امير المدينة بعد صلاة العصر فياخذون منه فرسا مسرجا ملجما او بغلة كذلك و يضربون الطبول والانفار والبوقات امام تلك الدابة و يتقدمها خمسون منهم و يتبعها مثلهم و يمشي آخرون عن يمينها وشمالها و ياتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب و يقولون باسم الله يا صاحب الزمان باسم الله

ياخرج قد ظهر الفساد وكثر الظلم وهذا أوان خروجك فيفرق الله بك بين الحق والباطل ولا يزالون كذلك وهم يضربون الابواق والاطبال والانفار الى صلاة المغرب وهم يقولون ان محمد بن الحسن العسكري دخل ذلك المسجد وغاب فيه وانه سيخرج وهو الامام المنتظر عندهم وقد كان غلب على مدينة الحلة بعد موت السلطان أبي سعيد الامير أحمد بن رميثة بن أبي نمى أمير مكة وحكمها أعواما وكان حسن السيرة يحمده أهل العراق الى أن غلب عليه الشيخ حسن سلطان العراق فعذبه وقتله وأخذ الاموال والذخائر التي كانت عنده ثم سافرنا منها الى مدينة كربلاء مشهد الحسين بن على عليهما السلام وهي مدينة صغيرة تحفها حدائق النخل ويسقيها ماء الفرات والروضة المقدسة داخلها وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر وعلى باب الروضة الحجاب والقومة لا يدخل أحد الا عن إذنهم فيقبل العتبة الشريفة وهي من الفضة وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة وعلى الابواب أستار الحرير وأهل هذه المدينة طائفتان أولاد رخيك وأولاد فائز وبينهما القتال أبدا وهم جميعا امامية يرجعون الى أب واحد ولاجل فتنهم تخربت هذه المدينة ثم سافرنا منها الى بغداد.

— مدينة بغداد —

مدينة دار السلام . وحضرة الاسلام . ذات القدر الشريف . والفضل المنيف . مثوى الخلفاء . ومقر العلماء . قال أبو الحسين بن جبير رضى الله عنه وهذه المدينة العتيقة وان لم تزل حضرة الخلافة العباسية . ومثابة الدعوة الامامية القرشية . فقد ذهب رسمها . ولم يبق الا اسمها . وهى بالاضافة الى ما كانت عليه قبل انحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب اليها كالطلل الدارس . أو تمثال الخيال الشاخص . فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعى من المستوفز الغفلة والنظر . الا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين . أو العقد المنتظم بين لبتين . فهي تردها ولا تظمأ . وتتطلع منها فى مرآة صقيلة لا تصدأ . والحسن الحريمى بين هوائها ومائها ينشأ . قال ابن جزى وكأن أبا تمام حبيب بن أوس اطلع على ما آل اليه أمرها حين قال فيها (بسيط)

لقد أقام على بغداد ناعيها * فليبكها لخراب الدهر باكيها
كانت على مائها والحرب موقدة * والنار تطفأ حسنا فى نواحيها
ترجى لها عودة فى الدهر صالحة * فالآن أضمر منها اليأس راجيها
مثل العجوز التي ولت شبيبتها * وبان عنها جمال كان يحظيها

وقد نظم الناس فى مدحها وذكر محاسنها فاطنبوا * ووجدوا مكان القول ذا سعة فاطالوا وأطابوا * وفيها قال الامام القاضى أبو محمد عبدالوهاب بن على بن نصر المالكى البغدادى وأنشد نيه والدى رحمه الله مرات (بسيط)

طيب الهواء ببغداد يشوقني * قربا اليها وان عاقت مقادير
وكيف أرحل عنها اليوم اذ جمعت * طيب الهواءين ممدود ومقصور

وفيها يقول أيضا رحمه الله تعالى ورضى عنه (طويل)

سلام على بغداد فى كل موطن * وحق لها مني السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلى لها * واني بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت على برحبها * ولم تكن الأقدار فيها تساعف
وكانت كخل كنت أهوى دنوه * وأخلاقه تنائي به وتخالف

وفيها يقول أيضا مغاضبا لها وأنشد نيه والدى رحمه الله غير مامرة (بسيط)

بغداد دار لأهل المال واسعة * وللصعاليك دار الضنك والضيق
ظللت أمشي مضاعا فى أزقتها * كانني مصحف فى بيت زنديق

وفيها يقول القاضي أبو الحسن على بن النبيه من قصيدة (خفيف)

آنست بالعراق بدراً منيراً * فطوت غيهبا وخاضت هجيرا
واستطابت ريا نسائم بغدا * د فكادت لولا البري ان تطيرا
ذكرت من مسارح الكرخ روضا * لم يزل ناضرا وماء نميرا
واجتنت من ربا المحول نورا * واجتلت من مطالع التاج نورا

ولبعض نساء بغداد فى ذكرها (كامل)

آها على بغدادها وعراقها * وظبائها والسحر فى احداقها
ومجالها عند الفرات باوجه * تبدو أهلتها على أطواقها
متبخترات فى النعيم كانما * خلق الهوى العذري من اخلاقها
نفسى الفداء لها فاي محاسن * فى الدهر تشرق من سنا اشراقها

(رجع) ولبغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التى ذكرناها فى جسر مدينة الحلة والناس يعبرونهما ليلا ونهارا رجالا ونساء فهم فى ذلك فى نزهة متصلة وببغداد من المساجد التي يخطب فيها وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجدا منها بالجانب الغربى ثمانية وبالجانب الشرقى ثلاثة والمساجد سواها كثيرة جدا وكذلك المدارس الا أنها خربت وحمامات بغداد

كثيرة وهى من أبدع الحمامات وا كثرها مطلية بالقار مسطحة به فيخيل لرائيه انه رخام اسود وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تنبع أبدا به ويصير فى جوانبها كالصلصال فيجرف منها ويجلب الى بغداد وفى كل حمام منها خلوات كثيرة كل خلوة منها مفروشة بالقار مطلى نصف حائطها مما يلى الأرض به والنصف الاعلى مطلى بالجص الابيض الناصع فالضدان بها مجتمعان متقابل حسنهما وفى داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه انبوبان أحدهما يجري بالماء الحار والآخر بالماء البارد فيدخل الانسان الخلوة منها منفردا لا يشاركه أحد الا ان أراد ذلك وفى زاوية كل خلوة أيضاً حوض آخر للاغتسال فيه أيضاً انبوبان يجريان بالحار والبارد وكل داخل يعطى ثلاثا من الفوط احداها يتزر بها عند دخوله والاخري يتزر بها عند خروجه والاخري ينشف بها الماء عن جسده ولم أرهذا الاتقان كله فى مدينة سوى بغداد وبعض البلاد تقاربها فى ذلك

— ذكر الجانب الغربى من بغداد —

الجانب الغربي منها هو الذى عمر أولا وهو الآن خراب أكثره وعلى ذلك فقد بقى منه ثلاث عشرة محلة كل محلة كانها مدينة بها الحمامان والثلاثة وفى ثمان منها المساجد الجامعة ومن هذه المحلات محلة باب البصرة وبها جامع الخليفة ابى جعفر المنصور رحمه الله والمارستان فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على الدجلة وهو قصر كبير خرب بقيت منه الآثار وفى هذا الجانب الغربى من المشاهد قبر معروف الكرخى رضى الله عنه وهو فى محلة باب البصرة وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء في داخله قبر متسع السنام عليه مكتوب هذا قبر عون من أولاد على بن أبي طالب وفى هذا الجانب قبر موسي الكاظم بن جعفر الصادق والد على بن موسي الرضا والى جانبه قبر الجواد والقبران داخل الروضة عليهما دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة

— ذكر الجانب الشرقى منها —

وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الاسواق عظيمة الترتيب وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيها على حدة وفى وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التى صارت الامثال تضرب بحسنها وفى آخره المدرسة المستنصرية ونسبتها الى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبى جعفر ابن أمير المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر وبها المذاهب الأربعة لكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا ثياب

السواد معتما وعلى يمينه و يساره معيدان يعيدان كل مايمليه وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الاربعة وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء و بهذه الجهة الشرقية من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة أحدها جامع الخليفة وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم وهو جامع كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضوء والغسل لقيت بهذا المسجد الشيخ الامام العالم الصالح مسند العراق سراج الدين أبا حفص عمر بن علي بن عمر القزويني وسمعت عليه فيه جميع مسند أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن ابن الفضل بن بهرام الدارمي وذلك في شهر رجب الفرد عام سبعة وعشرين وسبعمائة قال أخبرتنا به الشيخة الصالحة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل تاج الدين أبي الحسن علي ابن علي بن أبي البدر قالت أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز الطبيب المارستاني قال أخبرنا أبو الوقت عبد الاول بن شعيب السنجري الصوفي قال أخبرنا الامام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر الداودي قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي عن ابي عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندي عن أبي محمد عبد الله ابن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي والجامع الثاني جامع السلطان وهو خارج البلد وتتصل به قصور تنسب للسلطان والجامع الثالث جامع الرصافة وبينه وبين جامع السلطان نحو الميل

— ذكر قبور الخلفاء ببغداد وقبور بعض العلماء والصالحين بها —

وقبور الخلفاء العباسيين رضي الله عنهم بالرصافة وعلى كل قبر منها اسم صاحبه فمنهم قبر المهدي وقبر الهادي وقبر الأمين وقبر المعتصم وقبر الواثق وقبر المتوكل وقبر المنتصر وقبر المستعين وقبر المعتز وقبر المهتدي وقبر المعتمد وقبر المعتضد وقبر المكتفي وقبر المقتدر وقبر القاهر وقبر الراضي وقبر المتقي وقبر المستكفي وقبر المطيع لله وقبر الطائع وقبر القائم وقبر القادر وقبر المستظهر وقبر المسترشد وقبر الراشد وقبر المقتفي وقبر المستنجد وقبر المستضيء وقبر الناصر وقبر الظاهر وقبر المستنصر وقبر المستعصم وهو آخرهم وعليه دخل التتر ببغداد بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم وانقطع من بغداد اسم الخلافة العباسية وذلك في سنة أربع وخمسين وستمائة و بقرب الرصافة قبر الامام أبي حنيفة رضي الله عنه وعليه قبة عظيمة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر وليس بمدينة بغداد اليوم زاوية يطعم الطعام فيها ماعدا هذه الزاوية فسبحان مبيد الاشياء ومغيرها و بالقرب منها قبر الامام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رضي الله عنه ولا قبة عليه ويذكرانها بنيت على قبره مرارا فتهدمت بقدرة الله تعالى وقبره عند أهل بغداد معظم وأكثرهم على مذهبه وبالقرب منه قبر أبي

بكر الشبلي من أئمة المتصوفة رحمه الله وقبر سري السقطي وقبر بشر الحافي وقبر داود الطائي وقبر أبي القاسم الجنيد رضي الله عنهم أجمعين وأهل بغداد لهم يوم في كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ويوم لشيخ آخر يليه هكذا الى آخر الاسبوع وببغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء رضى الله تعالى عنهم وهذه الجهة الشرقية من بغداد ليس بها فواكه وانما تجلب اليها من الجهة الغربية لان فيها البساتين والحدائق ووافق وصولي الى بغداد كون ملك العراق بها فلنذكره هاهنا

— ذكر سلطان العراقين وخراسان —

وهو السلطان الجليل أبو سعيد بهادرخان وخان عندهم الملك (وبهادر بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء) ابن السلطان الجليل محمد خذا بنده وهو الذى أسلم من ملوك التتر وضبط اسمه مختلف فيه فمنهم من قال ان اسمه خذابنده (بخاء معجمة مضمومة وذال معجم مفتوح) وبنده لم يختلف فيه (وهو بباء موحدة مفتوحة ونون مسكنة ودال مهمل مفتوح وهاء استراحة) وتفسيره على هذا القول عبد الله لان خذا بالفارسية اسم الله عز وجل وبنده غلام أو عبد أو ما في معناهما وقيل انما هو خربنده (بفتح الخاء المعجم وضم الراء المهمل) وتفسير خر بالفارسية الحمار فمعناه على هذا غلام الحمار فشذ ما بين القولين من الخلاف على ان هذا الاخير هو المشهور وكان الاول غيره اليه من تعصب وقيل ان سبب تسميته بهذا الاخير هو ان التتر يسمون المولود باسم أول داخل على البيت عند ولادته فلما ولد هذا السلطان كان أول داخل الزمال وهم يسمونه خربنده فسمي به وأخو خربنده هو قازغان الذى يقول فيه الناس قازان وقازغان هو القدر وقيل سمي بذلك لانه لما ولد دخلت الجارية ومعها القدر وخذابنده هو الذى أسلم وقد منا قصته وكيف أراد أن يحمل الناس لما أسلم على الرفض وقصة القاضي مجد الدين معه ولما مات ولي الملك ولده أبو سعيد بهادرخان وكان ملكا فاضلا كريما ملك وهو صغير السن ورأيته ببغداد وهو شاب أجمل خلق الله صورة لا نبات بعارضيه ووزيره اذ ذاك الامير غياث الدين محمد بن خواجه رشيد وكان ابوه من مهاجرة اليهود واستوزره السلطان محمد خذا بنده والد أبي سعيد رأيتهما يوما بحراقة في الدجلة وتسمى عندهم الشبارة وهي شبه سلورة وبين يديه دمشق خواجه ابن الامير جوبان المتغلب على أبي سعيد وعن يمينه وشماله شبارتان فيهما أهل الطرب والغناء ورأيت من مكارمه في ذلك اليوم انه تعرض له جماعة من العميان فشكوا ضعف حالهم فامر لكل واحد منهم بكسوة وغلام يقوده

ونفقة تجرى عليه ولما ولى السلطان أبوسعيد وهو صغير كما ذكرناه استولى على أمره أمير الامراء الجوبان وحجر عليه التصرفات حتى لم يكن بيده من الملك الا الاسم ويذكر انه احتاج في بعض الاعياد الى نفقة ينفقها فلم يكن له سبيل اليها فبعث الى أحد التجار فاعطاه من المال ما أحب ولم يزل كذلك الى ان دخلت عليه يوما زوجة أبيه دنيا خاتون فقالت له لو كنا نحن الرجال ما تركنا الجوبان وولده على ماهما عليه فاستفهمها عن مرادها بهذا الكلام فقالت له لقد انتهى أمر دمشق خواجه بن الجوبان أن يفتك بحرم أبيك وانه بات البارحة عند طغى خاتون وقد بعث الى وقال لى الليلة أبيت عندك وماالرأى الا أن تجمع الامراء والعساكر فاذا صعد الى القلعة مختفيا برسم المبيت أمكنك القبض عليه وابوه يكفي الله أمره وكان الجوبان اذذاك غائبا بخراسان فغلبته الغيرة وبات يدبر أمره فلما علم أن دمشق خواجه بالقلعة أمر الامراء والعساكر أن يطيفوا بها من كل ناحية فلما كان بالغدو خرج دمشق ومعه جندي يعرف بالحاج المصري فوجد سلسلة معرضة على باب القلعة وعليها قفل لم يمكنه الخروج راكبا فضرب الحاج المصرى السلسلة بسيفه فقطعها وخرجا معا فاحاطت بهما العساكر ولحق أمير من الامراء الخاصكية يعرف بمصر خواجه وفتي يعرف بلؤلؤ دمشق خواجه فقتلاه وأتيا الملك أباسعيد برأسه فرموا به بين يدى فرسه وتلك عادتهم ان يفعلوا برأس كبار أعدائهم وأمر السلطان بنهب داره وقتل من قاتل من خدامه ومماليكه واتصل الخبر بابيه الجوبان وهو بخراسان ومعه أولاده أمير حسن وهو الاكبر وطالش وجلوخان وهو أصغرهم وهو ابن أخت السلطان أبي سعيد أمه ساطي بك بنت السلطان خذابنده ومعه عساكر التتر وحاميتها فاتفقوا على قتال السلطان أبي سعيد وزحفوا اليه فلما التقى الجمعان هرب التتر الى سلطانهم وأفردوا الجوبان فلما رأى ذلك نكص على عقبيه وفر الى صحراء سجستان وأوغل فيها وأجمع على اللحاق بملك هراة غياث الدين مستجيرا به ومتحصنا بمدينته وكانت له عليه ايادسابقة فلم يوافقه ولده حسن وطالش على ذلك وقالا له انه لا يفى بالعهد وقد غدر فيروزشاه بعدان لجا اليه وقتله فابى الجوبان الا ان يلحق به ففارقه ولداه وتوجه ومعه ابنه الاصغر جلوخان فخرج غياث الدين لاستقباله وترجل له وادخله المدينة على الامان ثم غدره بعدايام وقتله وقتل ولده وبعث برأسيهما الى السلطان أبي سعيد وأما حسن وطالش فانهما قصدا خوارزم وتوجها الى السلطان محمد أوزبك فاكرم مثواهما وأنزلهما الى ان صدر منهما ما اوجب قتلهما فقتلهما وكان للجوبان ولد رابع اسمه الدمرطاش فهرب الي ديار مصر فاكرمه

الملك الناصر واعطاه الاسكندرية فابى من قبولها وقال انما اريد العساكر لاقاتل أباسعيد وكان متي بعث اليه الملك الناصر بكسوة أعطى هو للذي يوصلها اليه أحسن منها ازراء على الملك الناصر وأظهر أمورا أوجبت قتله فقتله وبعث برأسه الى أبي سعيد وقد ذكرنا قصته وقصة قراسنقور فيما تقدم ولما قتل الجوبان جيء به وبولده ميتين فوقف بهما على عرفات وحملا الى المدينة ليدفنا في التربة التي اتخذها الجوبان بالقرب من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنع من ذلك ودفن بالبقيع والجوبان هو الذى جلب الماء الى مكة شرفها الله تعالى ولما استقل السلطان أبو سعيد بالملك أراد أن يتزوج بنت الجوبان وكانت تسمى بغداد خاتون وهي من اجمل النساء وكانت تحت الشيخ حسن الذى تغلب بعد موت ابي سعيد على الملك وهو ابن عمته فامره فنزل عنها وتزوجها ابو سعيد وكانت احظى النساء لديه والنساء لدى الاتراك والتتر لهن حظ عظيم وهم اذا كتبوا امرا يقولون فيه عن أمر السلطان والخواتين ولكل خاتون من البلاد والولايات والجابي العظيمة واذا سافرت مع السلطان تكون في محلة على حدة وغلبت هذه الخاتون على أبي سعيد وفضلها على سواها وأقامت على ذلك مدة أيام ثم انه تزوج امرأة تسمي بدلشاد فاحبها حبا شديدا وهجر بغداد خاتون فغارت لذلك وسمته في منديل مسحته به بعد الجماع فمات وانقرض عقبه وغلبت أمراؤه على الجهات كما سنذكره ولما عرف الامراء ان بغداد خاتون هي التي سمته اجمعوا على قتلها وبدر لذلك الفتي الرومى خواجه لؤلؤ وهو من كبار الامراء وقدمائهم فاتاها وهي في الحمام فضربها بدبوسه وقتلها وطرحت هنالك أياما مستورة العورة بقطعة تليس واستقل الشيخ حسن بملك عراق العرب وتزوج دلشاد امرأة السلطان ابي سعيد كمثل ما كان ابو سعيد فعله من تزوج امرأته

ذكر المتغلبين على الملك بعد موت السلطان ابى سعيد

فمنهم الشيخ حسن ابن عمته الذى ذكرناه آنفا تغلب على عراق العرب جميعا ومنهم ابراهيم شاه ابن الامير سنيته تغلب علي الموصل وديار بكر ومنهم الامير ارتنا تغلب على بلاد التركمان المعروفة ايضا ببلاد الروم ومنهم حسن خواجه بن الدمرطاش بن الجوبان تغلب على تبريز والسلطانية وهمدان وقم وقاشان والرى وورامين وفرغان والكرج ومنهم الامير طغيتمور تغلب على بعض بلاد خراسان ومنهم الامير حسين ابن الامير غياث الدين تغلب على هراة ومعظم بلاد خراسان ومنهم ملك دينار تغلب علي بلاد مكران وبلاد كيج ومنهم محمد شاه ابن مظفر تغلب على يزد وكرمان وورقو ومنهم الملك قطب الدين تمهتن تغلب على هرمز

وكيش والقطيف والبحرين وقلهات ومنهم السلطان أبو اسحاق الذي تقدم ذكره تغلب على شيراز واصفهان وملك فارس وذلك مسيرة خمس وأربعين ومنهم السلطان افراسياب أتابك تغلب على ايذج وغيرها من البلاد وقد تقدم ذكره ﴿ولنعد الى ما كنا بسبيله﴾ ثم خرجت من بغداد في محلة السلطان أبي سعيد وغرضي أن أشاهد ترتيب ملك العراق في رحيله ونزوله وكيفية تنقله وسفره وعادتهم انهم يرحلون عند طلوع الفجر وينزلون عند الضحى وترتيبهم انه يأتي كل امير من الامراء بعسكره وطبوله وأعلامه فيقف في موضع لا يتعداه قد عين له إما في الميمنة أو الميسرة فاذا توافوا جميعا وتكاملت صفوفهم ركب الملك وضربت طبول الرحيل وبوقاته وأنفاره وأتى كل أمير منهم فسلم على الملك وعاد الى موقفه ثم يتقدم أمام الملك الحجاب والنقباء ثم يليهم أهل الطرب وهم نحو مائة رجل عليهم الثياب الحسنة وتحتهم مراكب السلطان وأمام أهل الطرب عشرة من الفرسان قد تقلدوا عشرة من الطبول وخمسة من الفرسان لديهم خمس صرنايات وهي تسمى عندنا بالغيطات فيضربون تلك الاطبال والصرنايات ثم يمسكون ويغني عشرة من أهل الطرب نوبتهم فاذا قضوها ضربت تلك الاطبال والصرنايات ثم أمسكوا وغني عشرة آخرون نوبتهم هكذا الى أن تتم عشر نوبات فعند ذلك يكون النزول ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الامراء وهم نحو خمسين ومن ورائه أصحاب الاعلام والاطبال والانفار والبوقات ثم مماليك السلطان ثم الامراء على مراتبهم وكل امير له اعلام وطبول وبوقات ويتولى ترتيب ذلك كله أمير جندر وله جماعة كبيرة وعقوبة من تخلف عن فوجه وجماعته ان يؤخذ تماقه فيملأ رملا ويعلق في عنقه ويمشي على قدميه حتى يبلغ المنزل فيؤتى به الى الامير فيبطح على الارض ويضرب خمسا وعشرين مقرعة على ظهره سواء كان رفيعا أو وضيعا لا يحاشون من ذلك احدا واذا نزلوا ينزل السلطان ومماليكه في محلة على حدة وتنزل كل خاتون من خواتينه في محلة على حدة ولكل واحدة منهن الامام والمؤذنون والقراء والسوق وينزل الوزراء والكتاب وأهل الاشغال على حدة وينزل كل أمير على حدة ويأتون جميعا الى الخدمة بعد العصر ويكون انصرافهم بعد العشاء الاخيرة والمشاعل بين أيديهم فاذا كان الرحيل ضرب الطبل الكبير ثم يضرب طبل الخاتون الكبرى التي هي الملكة ثم أطبال سائر الخواتين ثم طبل الوزير ثم أطبال الوزراء دفعة واحدة ثم يركب أمير المقدمة في عسكره ثم يتبعه الخواتين ثم أثقال السلطان وزاملته وأثقال الخواتين ثم أمير ثان في عسكر له يمنع الناس من الدخول فيما بين الاثقال والخواتين ثم سائر الناس وسافرت في هذه المحلة عشرة ايام ثم صحبت الامير علاء الدين محمدا الى بلدة تبريز وكان من الامراء الكبار الفضلاء فوصلنا بعد

عشرة ايام الى مدينة تبريز ونزلنا بخارجها فى موضع يعرف بالشام وهنالك قبر قازان ملك العراق وعليه مدرسة حسنة وزاوية فيها الطعام للواردو الصادر من الخبز واللحم والارز المطبوخ بالسمن والحلواء وأنزلني الامير بتلك الزاوية وهي ما بين أنهار متدفقة وأشجار مورقة وفى غد ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد ووصلنا الى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان من أحسن سوق رأيتها فى بلاد الدنيا كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى واجتزت بسوق الجوهريين فحار بصرى مما رأيته من أنواع الجواهر وهي بايدي مماليك حسان الصور عليهم الثياب الفاخرة وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير وهم بين أيدى التجار يعرضون الجواهر على نساء الاتراك وهن يشترينه كثيرا ويتنافسن فيه فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذ بالله منها ودخلنا سوق العنبر والمسك فرأينا مثل ذلك أو أعظم ثم وصلنا الى المسجد الجامع الذى عمره الوزير على شاه المعروف بجيلان وبخارجه عن يمين مستقبل القبلة مدرسة وعن يساره زاوية وصحنه مفروش بالمرمر وحيطانه بالقاشانى وهو شبه الزليج ويشقه نهر ماء وبه انواع الاشجار ودوالى العنب وشجر ياسمين ومن عاداتهم انهم يقرأون به كل يوم سورة يس وسورة الفتح وسورة عم بعد صلاة العصر فى صحن المسجد ويجتمع لذلك أهل المدينة وبتنا ليلة بتبريز ثم وصل بالغد أمر السلطان أبي سعيد الى الامير علاء الدين بان يصل اليه فعدت معه ولم الق بتبريز احدا من العلماء ثم سافرنا الى أن وصلنا محلة السلطان فاعلمه الامير المذكور بمكانى وادخلني عليه فسالنى عن بلادي وكسانى وأركبني واعلمه الامير انى أريد السفر الى الحجاز الشريف فامر لى بالزاد والركوب فى السبيل مع المحمل وكتب لى بذلك الى أمير بغداد خواجه معروف فعدت الى مدينة بغداد واستوفيت ما أمر لى به السلطان وكان قد بقي لاوان سفر الركب أزيد من شهرين فظهر لى ان اسافر الى الموصل وديار بكر لاشاهد تلك البلاد واعود الى بغداد فى حين سفر الركب فاتوجه الى الحجاز الشريف فخرجت من بغداد الى منزل على نهر دجيل وهو يتفرع عن دجلة فيسقى قرى كثيرة ثم نزلنا بعد يومين بقرية كبيرة تعرف بحربة مخصبة فسيحة ثم رحلنا فنزلنا موضعا على شط دجلة بالقرب من حصن يسمي المعشوق وهو مبنى على الدجلة وفى العدوة الشرقية من هذا الحصن مدينة سرمن رأى وتسمي أيضا سامرا ويقال لها سام راه ومعناه بالفارسية طريق سام وراه هو الطريق وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبق منها الا القليل وهى معتدلة الهواء رائقة الحسن على بلائها ودروس معالمها وفيها أيضا مشهد صاحب الزمان كما بالحلة ثم سرنا منها مرحلة ووصلنا الى مدينة تكريت وهي مدينة كبيرة فسيحة الارجاء مليحة الاسواق

كثيرة المساجد وأهلها موصوفون بحسن الاخلاق والدجلة فى الجهة الشمالية منها ولها قلعة حصينة على شط الدجلة والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا الى قرية تعرف بالعقر على شط الدجلة وباعلاها ربوة كان بها حصن وباسفلها الخان المعروف بخان الحديد له أبراج وبناؤه حافل والقرى والعمارة متصلة من هنالك الى الموصل ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالقيارة بقربة من دجلة وهنالك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار ويصنع له أحواض ويجتمع فيها فتراه شبه الصلصال على وجه الارض حالك اللون صقيلا رطبا وله رائحة طيبة وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق فتقذفه الى جوانبها فيصير أيضا قارا وبقربة من هذا الموضع عين كبيرة فاذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار فتنشف النار ما هنالك من رطوبة مائية ثم يقطعونه قطعا وينقلونه وقد تقدم لنا ذكر العين التي بين الكوفة والبصرة على هذا النحو ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ووصلنا بعدهما الى الموصل

— مدينة الموصل —

وهي مدينة عتيقة كثيرة الخصب وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشان شهيرة الامتناع عليها سور محكم البناء مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان وقد فصل بينها وبين البلد شارع متسع مستطيل من أعلى البلد الى اسفله وعلى البلد سوران اثنان وثيقان ابراجهما كثيرة متقاربة وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره قد تمكن فتحها فيه لسعته ولم أرفى اسوار البلاد مثله الا السور الذى على مدينة دهلى حضرة ملك الهند وللموصل ربض كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والاسواق وبه مسجد جامع على شط الدجلة تدور به شبابيك حديد وتتصل به مساطب تشرف على دجلة فى النهاية من الحسن والاتقان وامامه مارستان وبداخل المدينة جامعان احدهما قديم والآخر حديث وفى صحن الحديث منهما قبة فى داخلها خصة رخام مثمنة مرتفعة على سارية رخام يخرج منها الماء بقوة وانزعاج فيرتفع مقدار القامة ثم ينعكس فيكون له مرأى حسن وقيسارية الموصل مليحة لها ابواب حديد ويدور بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض متقنة البناء وبهذه المدينة مشهد جرجيس النبي عليه السلام وعليه مسجد والقبر فى زاوية منه عن يمين الداخل اليه وهو فيما بين الجامع الجديد وباب الجسر وقد حصلت لنا زيارته والصلاة بمسجده والحمد لله تعالى وهنالك تل يونس عليه السلام وعلى نحو ميل منه العين المنسوبة اليه يقال انه أمر قومه بالتطهير فيها ثم صعدوا التل ودعا ودعوا فكشف الله عنهم العذاب

و بمقربة منه قرية كبيرة يقرب منها خراب يقال انه موضع المدينة المعروفة بنينوى مدينة يونس عليه السلام وأثر السور المحيط بها ظاهر ومواضع الابواب التي هي متبينة وفي التل بنا ءعظيم ورباط فيه بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات يضم الجميع باب واحد وفي وسط الرباط بيت عليه ستر حرير وله باب مرصع يقال انه الموضع الذي به موقف يونس عليه السلام ومحراب المسجد الذي بهذا الرباط يقال انه كان بيت متعبده عليه السلام وأهل الموصل يخرجون في كل ليلة جمعة الى هذا الرباط يتعبدون فيه وأهل الموصل لهم مكارم أخلاق ولين كلام وفضيلة ومحبة في الغريب واقبال عليه وكان أميرها حين قدومي عليها السيد الشريف الفاضل علاء الدين على بن شمس الدين محمد الملقب بحيدر وهو من الكرماء الفضلاء أنزلني بداره وأجرى على الانفاق مدة مقامي عنده وله الصدقات والايثار المعروف وكان السلطان أبو سعيد يعظمه وفوض اليه امر هذه المدينة وما يليها ويركب في موكب عظيم من مماليكه وأجناده ووجوه أهل المدينة وكبراؤها يأتون للسلام عليه غدواً وعشياً وله شجاعة ومهابة وولده في حين كتب هذا في حضرة فاس مستقر الغرباء ومأوى الفرق ومحط رحال الوفود زادها الله بسعادة أيام مولانا أمير المؤمنين بهجة واشراقا وحرس أرجاءها ونواحيها ثم رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصد وهي على نهر عليه جسر مبني وبها خان كبير ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالمويلحه ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر وهي مدينة كبيرة حسنة محيط بها الوادي ولذلك سميت جزيرة أكثرها خراب ولها سوق حسنة ومسجد عتيق مبني بالحجارة محكم العمل وسورها مبني بالحجارة أيضاً وأهلها فضلاء لهم محبة في الغرباء ويوم نزولنا بها رأينا جبل الجودى المذكور في كتاب الله عز وجل الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام وهو جبل عال مستطيل ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا الى مدينة نصيبين وهي مدينة عتيقة متوسطة قد خرب أكثرها وهي في بسيط أفيح فسيح فيه المياه الجارية والبساتين الملتفة والاشجار المنتظمة والفواكه الكثيرة وبها يصنع ماء الورد الذي لا نظير له في العطارة والطيب ويدور بها نهر يعطف عليها انعطاف السوار منبعه من عيون في جبل قريب منها وينقسم انقساما فيتخلل بساتينها ويدخل منه نهر الى المدينة فيجرى في شوارعها ودورها ويخترق صحن مسجدها الاعظم وينصب في صهريجين أحدهما في وسط الصحن والآخر عند الباب الشرقي وبهذه المدينة مارستان ومدرستان وأهلها أهل صلاح ودين وصدق وامانة ولقد صدق ابو نواس في قوله

طابت نصيبين لي يوما وطبت لها * ياليت حظي من الدنيا نصيبين

قال ابن جزى والناس يصفون مدينة نصيبين بفساد الماء والوخامة وفيها يقول بعض الشعراء

لنصيبين قد عجبت وما في * دارها لي داع الى العلات

يعدم الورد أحمرا في ذراها * لسقام حتى من الوجنات

ثم رحلنا الى مدينة سنجار وهي مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والاشجار والعيون المطردة والانهار مبنية في سفح جبل تشبه بدمشق في كثرة أنهارها وبساتينها ومسجدها الجامع مشهور البركة يذكران الدعاء به مستجاب ويدور به نهر ماء ويشقه وأهل سنجار اكراد ولهم شجاعة وكرم وممن لقيته بها الشيخ الصالح العابد الزاهد عبدالله الكردي أحد المشايخ الكبار صاحب كرامات يذكر عنه أنه لا يفطر الا بعد أربعين يوما ويكون افطاره على نصف قرص من الشعير لقيته برابطة بأعلى جبل سنجار ودعالي وزودني بدراهم لم تزل عندى الى أن سلبني كفار الهنود ثم سافرنا الى مدينة دارا وهي عتيقة كبيرة بيضاء المنظر لها قلعة مشرفة وهي الآن خراب لا عمارة بها وفي خارجها قرية معمورة بها كان نزولنا ثم رحلنا منها فوصلنا الى مدينة ماردين وهي عظيمة في سطح جبل من أحسن مدن الاسلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها أسواقا بها تصنع الثياب المنسوجة اليها من الصوف المعروف بالمرعز ولها قلعة شماء من مشاهير القلاع في قنة جبلها قال ابن جزي قلعة ماردين هذه تسمي الشهباء واياها عني شاعر العراق صفي الدين عبد العزيز بن سراي الحلي بقوله في سمطه — سريع —

فدع ربوع الحلة الفيحاء * وازور بالعيس عن الزوراء

ولا تقف بالموصل الحدباء * ان شهاب القلعـة الشهباء

— محرق شيطان صروف الدهر —

وقلعة حلب تسمي الشهباء أيضاً وهذه المسمطة بديعة مدح بها الملك المنصور سلطان ماردين وكان كريما شهير الصيت ولي الملك بها نحو خمسين سنة وأدرك أيام قازان ملك التتر وصاهر السلطان خذابنده بابنته دنيا خاتون

— ذكر سلطان ماردين في عهد دخولي اليها —

وهو الملك الصالح ابن الملك المنصور الذى ذكرناه آنفا ورث الملك عن أبيه وله المكارم الشهيرة وليس بارض العراق والشام ومصر أكرم منه يقصده الشعراء والفقراء فيجزل لهم العطايا جريا على سنن أبيه قصده أبو عبدالله محمد بن جابر الاندلسي المروى الكفيف مادحا فاعطاه عشرين الف درهم وله الصـدقات والمدارس والزوايا لاطعام الطعام وله

وزير كبير القدر وهو الامام العالم وحيد الدهر وفريد العصر جمال الدين السنجاري قرأ بمدينة تبريز وأدرك العلماء الكبار وقاضي قضاته الامام الكامل برهان الدين الموصلي وهو ينتسب الى الشيخ الولي فتح الموصلي وهذا القاضي من أهل الدين والورع والفضل يلبس الخشن من ثياب الصوف الذي لا تبلغ قيمته عشرة دراهم ويعتم بنحو ذلك وكثيرا ما يجلس للاحكام بصحن مسجد خارج المدرسة كان يتعبد فيه فاذا رآه من لا يعرفه ظنه بعض خدام القاضي وأعوانه

— حكاية —

ذكر لي ان امرأة أتت هذا القاضي وهو خارج من المسجد ولم تكن تعرفه فقالت له ياشيخ أين يجلس القاضي فقال لها وما تريدين منه فقالت له ان زوجي ضربني وله زوجة ثانية وهو لا يعدل بيننا في القسم وقد دعوته الى القاضي فابى وأنا فقيرة ليس عندي ما أعطيه لرجال القاضي حتى يحضروه بمجلسه فقال لها وأين منزل زوجك فقالت بقرية الملاحين خارج المدينة فقال لها أنا أذهب معك اليه فقالت والله ما عندي شيء أعطيك اياه فقال لها وأنا لا آخذ منك شيا ثم قال لها اذهبي الى القرية وانتظريني خارجها فاني على أثرك فذهبت كما أمرها وانتظرته فوصل اليها وليس معه أحد وكانت عادته ان لا يدع أحدا يتبعه فجاءت به الى منزل زوجها فلما رآه قال لها ما هذا الشيخ النحس الذي معك فقال له نعم والله أنا كذلك ولكن أرض زوجتك فلما طال الكلام جاء الناس فعرفوا القاضي وسلموا عليه وخاف ذلك الرجل وخجل فقال له القاضي لا عليك أصلح ما بينك وبين زوجتك فارضاها الرجل من نفسه وأعطاها القاضي نفقة ذلك اليوم وانصرف لقيت هذا القاضي وأضافني بداره ثم رحلت عائدا الى بغداد فوصلت الى مدينة الموصل التي ذكرناها فوجدت ركبها بخارجها متوجهين الى بغداد وفيهم امرأة صالحة عابدة تسمي بالست زاهدة وهي من ذرية الخلفاء حجت مرارا وهي ملازمة الصوم سلمت عليها وكنت في جوارها ومعها جملة من الفقراء يخدمونها وفي هذه الوجهة توفيت رحمة الله عليها وكانت وفاتها بزرود ودفنت هنالك ثم وصلنا الى مدينة بغداد فوجدت الحاج في أهبة الرحيل فقصدت أميرها معروف خواجه فطلبت منه ما أمر لي به السلطان فعين لي شقة محارة وزاد أربعة من الرجال وماءهم وكتب لي بذلك ووجه الى أمير الركب وهو البهلوان محمد الحويج فاوصاه بي وكانت المعرفة بيني وبينه متقدمة فزادها تأكيدا ولم أزل في جواره وهو يحسن الي ويزيدني على ما أمر لي به وأصابني عند خروجنا عن الكوفة اسهال فكانوا ينزلونني من أعلى المحمل مرات كثيرة في اليوم والامير يتفقد حالي ويوصي بي ولم أزل مريضا حتى وصلت مكة حرم الله تعالى زادها الله شرفا وتعظيما

وطفت بالبيت الحرام كرمه الله تعالى طواف القدوم وكنت ضعيفا بحيث أؤدي المكتوبة قاعدا فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكبا على فرس الامير الحويج المذكور ووقفنا تلك السنة يوم الاثنين فلما نزلنا مني أخذت فى الراحة والاستقلال من مرضى ولما انقضى الحاج أقمت مجاوراً بمكة تلك السنة وكان بها الامير علاء الدين بن هلال مشيد (مشد) الدواوين مقيما لعمارة دار الوضوء بظاهر العطارين من باب بني شيبة وجاور فى تلك السنة من المصريين جماعة من كبرائهم منهم تاج الدين بن الكويك ونور الدين القاضى وزين الدين بن الاصيل وابن الخليلى وناصر الدين الاسيوطي وسكنت تلك السنة بالمدرسة المظفرية وعافانى الله من مرضى فكنت فى أنعم عيش وتفرغت للطواف والعبادة والاعتمار وأتي فى أثناء تلك السنة حجاج الصعيد وقدم معهم الشيخ الصالح نجم الدين الاصفوني وهي أول حجة حجها والاخوان علاء الدين على وسراج الدين عمر ابنا القاضي الصالح نجم الدين البالسى قاضى مصر وجماعة غيرهم فى منتصف ذي القعدة وصل الامير سيف الدين يلملك وهو من الفضلاء ووصل فى صحبته جماعة من أهل طنجة بلدى حرسها الله منهم الفقيه أبو عبدالله محمد ابن القاضي أبي العباس ابن القاضى الخطيب أبى القاسم الجراوى والفقيه أبو عبد الله بن عطاء الله والفقيه أبو محمد عبد الله الحضرى والفقيه أبو عبدالله المرسى وأبو العباس بن الفقيه أبي على البلنسى وأبو محمد ابن القابلة وأبو الحسن البيارى وأبو العباس بن تافوت وأبو الصبر أيوب الفخار وأحمد بن حكامة ومن أهل قصر المجاز الفقيه أبو زيد عبد الرحمن ابن القاضى أبى العباس بن خلوف ومن أهل القصر الكبير الفقيه أبو محمد بن مسلم وأبو اسحاق ابراهيم بن يحيي وولده ووصل فى تلك السنة الامير سيف الدين تقزدمور من الخاصكية والامير موسى بن قرمان والقاضى فخر الدين ناظر الجيش كاتب المماليك والتاج أبو اسحاق والست حدق مربية الملك الناصر وكانت لهم صدقات عميمة بالحرم الشريف واكثرهم صدقة القاضي فخر الدين وكانت وقفتنا فى تلك السنة فى يوم الجمعة من عام ثمان وعشرين ولما انقضى الحج أقمت مجاوراً بمكة حرسها الله سنة تسع وعشرين وفى هذه السنة وصل أحمد بن الامير رميثة ومبارك بن الامير عطيفة من العراق صحبة الامير محمد الحويج والشيخ زاده الحرباوي والشيخ دانيال وأتوا بصدقات عظيمة للمجاورين وأهل مكة من قبل السلطان أبي سعيد ملك العراق وفى تلك السنة ذكر اسمه في الخطبة بعد ذكر الملك الناصر ودعوا له باعلى قبة زمزم وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين ولم يوافق الامير

عطيفة على ذلك وبعث شقيقه منصورا ليعلم الملك الناصر بذلك فامر رميثة برده فرد فبعثه ثانية على طريق جده حتى أعلم الملك الناصر بذلك ووقفنا تلك السنة وهي ستة تسع وعشرين يوم الثلاثاء ولما انقضى الحج أقمت مجاورا بمكة حرسها الله سنة ثلاثين وفي موسمها وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين ايدمور أمير جندار الناصرى وسببه ذلك ان تجارا من أهل اليمن سرقوا فتشكوا الى ايدمور بذلك فقال ايدمور لمبارك بن الامير عطيفة إئت بهؤلاء السراق فقال لا أعرفهم فكيف نأتي بهم وبعد فاهل اليمن تحته حكمنا ولا حكم عليهم لك ان سرق لاهل مصر والشام شيء فاطلبني به فشتمه أيدمور وقال له ياقواد تقول لى هكذا وضربه على صدره فسقط ووقعت عمامته عن رأسه وغضب له عبيده وركب أيدمور يريد عسكره فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده ووقعت الفتنة بالحرم وكان به الامير أحمد ابن عم الملك الناصر ورمي الترك بالنشاب فقتلوا امرأة قيل انها كانت تحرض أهل مكة على القتال وركب من الركب من الاتراك وأميرهم خاص ترك فخرج اليهم القاضى والائمة والمجاورون وفوق رؤسهم المصاحف وحاولوا الصلح ودخل الحجاج مكة فاخذوا مالهم بها وانصرفوا الى مصر وبلغ الخبر الى الملك الناصر فشق عليه وبعث العساكر الى مكة ففر الامير عطيفة وابنه مبارك وخرج أخوه رميثة واولاده الى وادي نخلة فلما وصل العسكر الى مكة بعث الامير رميثة أحد اولاده يطلب له الامان ولولده فامنوا وأتي رميثة وكفنه في يده الى الامير نخلع عليه وسلمت اليه مكة وعاد العسكر الى مصر وكان الملك الناصر رحمه الله حليما فاضلا فخرجت فى تلك الايام من مكة شرفها الله تعالى قاصدا بلاد اليمن فوصلت الى حدة (بالحاء المهمل المفتوح) وهي نصب الطريق ما بين مكة وجدة (بالجيم المضموم) ثم وصلت الى جدة وهى بلدة قديمة على ساحل البحر يقال انها من عمارة الفرس وبخارجها مصانع قديمة وبها جباب للماء منقورة فى الحجر الصلد يتصل بعضها ببعض تفوت الاحصاء كثرة وكانت هذه السنة قليلة المطر وكان الماء يجلب الى جدة على مسيرة يوم وكان الحجاج يسالون الماء من أصحاب البيوت

— حكاية —

ومن غريب ما اتفق لى بجدة انه وقف على بابى سائل أعمى يطلب الماء يقوده غلام فسلم على وسماني باسمي وأخذ بيدى ولم أكن عرفته قط ولا عرفني فعجبت من شانه ثم أمسك أصبعي بيده وقال اين الفتخة وهي الخاتم وكنت حين خروجي من مكة قد لقيني بعض الفقراء وسالني ولم يكن عندي فى ذلك الحين شيء فدفعت له خاتمى فلما سالني عنه هذا

الاعمى قلت له اعطيته لفقير فقال ارجع فى طلبه فان فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الاسرار فطال تعجبي منه ومن معرفته بذلك كله والله أعلم بحاله وبجدة جامع يعرف بجامع الآبنوس معروف البركة يستجاب فيه الدعاء وكان الامير بها أبا يعقوب بن عبد الرزاق وقاضيها وخطيبها الفقيه عبد الله من أهل مكة شافعي المذهب واذا كان يوم الجمعة واجتمع الناس للصلاة أتى المؤذن وعد أهل جدة المقيمين بها فان كملوا أربعين خطب وصلى بهم الجمعة وان لم يبلغ عددهم أربعين صلى ظهرا أربعا ولا يعتبر من ليس من أهلها وان كانوا عددا كثيرا ثم ركبنا البحر من جدة فى مركب يسمونه الجلبة وكان لرشيد الدين الالفى اليمني الحبشي الاصل وركب الشريف منصور بن ابي نمى فى جلبة اخري ورغب مني ان اكون معه فلم افعل لكونه كان معه فى جلبته الجمال فخفت من ذلك ولم اكن ركبت البحر قبلها وكان هنالك جملة من اهل اليمن قد جعلوا ازوادهم وامتعتهم فى الجلب وهم متأهبون للسفر

— حكاية —

ولما ركبنا البحر امر الشريف منصور احد غلمانه ان ياتيه بعديلة دقيق وهي نصف حمل وبطة سمن ياخذهما من جلاب أهل اليمن فاخذهما واتى بهما اليه فاتانى التجار باكين وذكروا لى ان فى جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم نقرة ورغبوا مني ان اكلمه فى ردها وان ياخذ سواها فاتيته وكلمته فى ذلك وقلت له إن للتجار فى جوف هذه العديلة شيئا فقال ان كان سكرا فلا ارده اليهم وان كان سوى ذلك فهو لهم ففتحوها فوجدوا الدراهم فردها عليهم وقال لي لو كان عجلان ماردها وعجلان هو ابن اخيه رميثة وكان قد دخل فى تلك الايام دار تاجر من اهل دمشق قاصدا لليمن فذهب بمعظم ما كان فيها وعجلان هو امير مكة على هذا العهد وقد صلح حاله واظهر العدل والفضل ثم سافرنا في هذا البحر بالريح الطيبة يومين وتغيرت الريح بعد ذلك وصدتنا عن السبيل التي قصدناها ودخلت امواج البحر معنا في المركب واشتد الميد بالناس ولم نزل في اهوال حتى خرجنا فى مرسى يعرف برأس دوائر فيما بين عيذاب وسواكن فنزلنا به ووجدنا بسا حله عريش قصب على هيئة مسجد وفيه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء فشربنا منه وطبخنا ورأيت بذلك المرسي عجبا وهو خور مثل الوادي يخرج من البحر فكان الناس ياخذون الثوب و يمسكون باطرافه ويخرجون به وقد امتلأ سمكا كل سمكة منها قدر الذراع ويعرفونه بالبورى فطبخ منه الناس كثيرا واشتروا وقصدت اليناطائفة من البجاة وهم سكان تلك الارض سود الالوان لباسهم الملاحف الصفر ويشدون على رؤسهم عصائب

حمرا فى عرض الاصبع وهم أهل نجدة وشجاعة وسلاحهم الرماح والسيوف ولهم جمال يسمونها الصهب يركبونها بالسروج فاكترينا منهم الجمال وسافرنا معهم فى برية كثيرة الغزلان والبجاة لا يأكلونها فهى تأنس بالآدمي ولا تنفر منه وبعد يومين من مسيرنا وصلنا الى حي من العرب يعرفون باولاد كاهل مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم وفى ذلك اليوم وصلنا الى جزيرة سواكن وهي على نحو ستة أميال من البر ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر والماء يجلب اليها فى القوارب وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر وهى جزيرة كبيرة وبها لحوم النعام والغزلان وحمر الوحش والمعزى عندهم كثير والالبان والسمن ومنها يجلب الى مكة وحبوبهم الجرجور وهو نوع من الذرة كبير الحب يجلب منها أيضا الى مكة

— ذكر سلطانها —

وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولى اليها الشريف زيد بن أبي نمى وابوه أمير مكة وأخواه أميراها بعده وهما عطيفة ورميثة اللذان تقدم ذكرهما وصارت اليه من قبل البجاة فانهم أخواله ومعه عسكر من البجاة وأولاد كاهل وعرب جهينة وركبنا البحر من جزيرة سواكن نريد أرض اليمن وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره وانما يسافرون فيه من طلوع الشمس الى غروبها ويرسون وينزلون الى البر فاذا كان الصباح صعدوا الى المركب وهم يسمون رئيس المركب الربان ولا يزال أبداً فى مقدم المركب ينبه صاحب السكان على الاحجار وهم يسمونها النبات وبعد ستة أيام من خروجنا عن جزيرة سواكن وصلنا الى مدينة حلى (وضبط اسمها بفتح الحاء المهمل وكسر اللام وتخفيفها) وتعرف باسم ابن يعقوب وكان من سلاطين اليمن ساكنا بها قديما وهي كبيرة حسنة العمارة يسكنها طائفتان من العرب وهم بنو حرام وبنو كنانة وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين الى العبادة منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبولة الهندي من كبار الصالحين لباسه مرقعة وقلنسوة لبد وله خلوة متصلة بالمسجد فرشها الرمل لا حصير بها ولا بساط ولم أر بها حين لقائى له شيأ الا ابريق الوضوء وسفرة من خوص النخيل فيها كسر شعير يابسة وصحيفة فيها ملح وسعتر فاذا جاءه احد قدم بين يديه ذلك ويسمع به أصحابه فيأتي الكل واحد منهم بما حضر من غير تكلف شيء واذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدى الشيخ الى صلاة المغرب واذا صلوا المغرب أخذ كل واحد منهم موقفه للتنفل فلا يزالون كذلك الى صلاة العشاء الآخرة فاذا صلوا العشاء الآخرة اقاموا على الذكر الى ثلث الليل ثم انصرفوا ويعودون فى اول الثلث الثالث الى

المسجد فيتهجدون الى الصبح ثم يذكرون الى ان تحين صلاة الاشراق فينصرفون بعد صلاتها ومنهم من يقيم الى ان يصلي صلاة الضحى بالمسجد وهذا دأبهم ابدا ولقد كنت اردت الاقامة معهم باقي عمري فلم اوفق لذلك والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه

(ذكر سلطان حلي)

وسلطانها عامر بن ذؤيب من بني كنانة وهو من الفضلاء الادباء الشعراء صحبته من مكة الى جدة وكان قد حج في سنة ثلاثين ولما قدمت مدينته أنزلني وأكرمني وأقمت في ضيافته أياما وركبت البحر في مركب له فوصلت الى بلدة السرجة (وضبط اسمها بفتح السين المهمل واسكان الراء وفتح الجيم) بلدة صغيرة يسكنها جماعة من أولاد الهبي وهم طائفة من تجار اليمن أكثرهم ساكنون بصعداء ولهم فضل وكرم واطعام لابناء السبيل ويعينون الحجاج ويركبونهم في مراكبهم ويزودونهم من أموالهم وقد عرفوا بذلك واشتهروا به وكثر الله أموالهم وزادهم من فضله وأعانهم على فعل الخير وليس بالارض من يماثلهم في ذلك الا الشيخ بدر الدين النقاش الساكن ببلدة القحمة فله مثل ذلك من المآثر والايثار وأقمنا بالسرجة ليلة واحدة في ضيافة المذكورين ثم رحلنا الى مرسى الحادث ولم ننزل به ثم الى مرسي الابواب ثم الى مدينة زبيد مدينة عظيمة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها واسعة البساتين كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره وهي بربة لا شطية احدى قواعد بلاد اليمن (وهي بفتح الزاي وكسر الباء الموحدة) مدينة كبيرة كثيرة العمارة بها النخل والبساتين والمياه أملح بلاد اليمن وأجملها ولاهلها لطافة الشمائل وحسن الاخلاق وجمال الصور ولنسائها الحسن الفائق الفائت وهي وادي الحصيب الذي يذكر في بعض الآثار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ في وصيته يامعاذ اذا جئت وادي الحصيب فهرول ولاهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة وذلك انهم يخرجون في أيام البسر والرطب في كل سبت الى حدائق النخل ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء ويخرج أهل الطرب وأهل الاسواق لبيع الفواكه والحلاوات وتخرج النساء ممتطيات الجمال في المحامل ولهن مع ماذكرناه من الجمال الفائت الاخلاق الحسنة والمكارم وللغريب عندهم مزية ولا يمتنعن من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا فاذا أراد السفر خرجت معه وودعته وان كان بينهما ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له الى ان يرجع أبوه ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها واذا كان مقيما فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة لكنهن

لايخرجن عن بلدهن أبدا ولو أعطيت احداهن ماعسى ان تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل وعلماء تلك البلاد وفقهاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق لقيت بمدينة زبيد الشيخ العالم الصالح أبا محمد الصنعاني والفقيه الصوفي المحقق أبا العباس الابياني والفقيه المحدث أبا علي الزبيدي ونزلت في جوارهم فأكرموني وأضافوني ودخلت حدائقهم واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضي العالم أبي زيد عبد الرحمن الصوفي أحد فضلاء اليمن ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العجيل اليمني وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات

— كرامة —

ذكروا ان فقهاء الزيدية وكبراءهم أتوا مرة الى زيارة الشيخ أحمد بن العجيل فجلس لهم خارج الزاوية واستقبلهم أصحابه ولم يبرح الشيخ عن موضعه فسلموا عليه وصافحهم ورحب بهم ووقع بينهم الكلام في مسألة القدر وكانوا يقولون ان لا قدر وان المكلف يخلق أفعاله فقال لهم الشيخ فان كان الامر على ما تقولون فقوموا عن مكانكم هذا فأرادوا القيام فلم يستطيعوا وتركهم الشيخ على حالهم ودخل الزاوية وأقاموا كذلك واشتد بهم الحر ولحقهم وهج الشمس وضجوا مما نزل بهم فدخل أصحاب الشيخ اليه وقالوا له ان هؤلاء القوم قد تابوا الى الله ورجعوا عن مذهبهم الفاسد فخرج عليهم الشيخ فأخذ بأيديهم وعاهدهم على الرجوع الى الحق وترك مذهبهم السيء وأدخلهم زاويته فأقاموا في ضيافته ثلاثا وانصرفوا الى بلادهم وخرجت لزيارة قبر هذا الرجل الصالح وهو بقرية يقال لها غسانة خارج زبيد ولقيت ولده الصالح أبا الوليد اسماعيل فأضافني وبت عنده وزرت ضريح الشيخ وأقمت معه ثلاثا وسافرت في صحبته الى زيارة الفقيه أبي الحسن الزيلعي وهو من كبار الصالحين ويقدم حجاج اليمن اذا توجهوا للحج وأهل تلك البلاد وأعرابها يعظمونه ويحترمونه فوصلنا الى جبلة وهي بلدة صغيرة حسنة ذات نخل وفواكه وأنهار فلما سمع الفقيه أبو الحسن الزيلعي بقدوم الشيخ أبي الوليد استقبله وأنزله بزاويته وسلمت عليه معه وأقمنا عنده ثلاثة ايام في خير مقام ثم انصرفنا وبعث معنا أحد الفقراء فتوجهنا الى مدينة تعز حضرة ملك اليمن (وضبط اسمها بفتح التاء المعلوة وكسر العين المهملة وزاء) وهي من أحسن مدن اليمن وأعظمها وأهلها ذو وتجبر وتكبر وفظاظة وكذلك الغالب على البلاد التي يسكنها الملوك وهي ثلاث محلات احداها يسكنها السلطان ومماليكه وحاشيته وأرباب دولته وتسمى باسم لا أذكره والثانية يسكنها الامراء والاجناد وتسمى عدينة والثالثة يسكنها عامة الناس وبها السوق العظمى وتسمى المحالب

— ذكر سلطان اليمن —

وهو السلطان المجاهد نور الدين علي ابن السلطان المؤيد هزبر الدين داود ابن السلطان المظفر يوسف بن علي بن رسول شهر جده برسول لان أحد خلفاء بني العباس أرسله الى اليمن ليكون بها أميرا ثم استقل أولاده بالملك وله ترتيب عجيب في قعوده وركوبه وكنت لما وصلت هذه المدينة مع الفقير الذي بعثه الشيخ الفقيه أبو الحسن الزيلعي في صحبتي قصد بي الى قاضي القضاة الامام المحدث صفي الدين الطبري المكي فسلمنا عليه ورحب بنا وأقمنا بداره في ضيافته ثلاثا فلما كان في اليوم الرابع وهو يوم الخميس وفيه يجلس السلطان لعامة الناس دخل بي عليه فسلمت عليه وكيفية السلام عليه ان يمس الانسان الارض بسبابته ثم يرفعها الي رأسه ويقول أدام الله عزك ففعلت كمثل مافعله القاضي وقعد القاضي عن يمين الملك وأمرني فقعدت بين يديه فسألني عن بلادي وعن مولانا أمير المسلمين جواد الاجواد ابي سعيد رضي الله عنه وعن ملك مصر وملك العراق وملك اللور فأجبته عما سأل من أحوالهم وكان وزيره بين يديه فامره باكرامي وانزالي وترتيب قعود هذا الملك انه يجلس فوق دكانة مفروشة مزينة بثياب الحرير وعن يمينه ويساره أهل السلاح ويليه منهم أصحاب السيوف والدرق ويليهم أصحاب القسي وبين أيديهم في الميمنة والميسرة الحاجب وارباب الدولة وكاتب السر وأمير جندار على رأسه والشاوشية وهم من الجنادرة وقوف على بعد فاذاقعد السلطان صاحوا صيحة واحدة بسم الله فاذا قام فعلوا مثل ذلك فيعلم جميع من بالمشور وقت قيامه ووقت قعوده فاذا استوي قاعدا دخل كل من عادته أن يسلم عليه فسلم ووقف حيث رسم له في الميمنة أو الميسرة لا يتعدي أحد موضعه ولا يقعد الا من أمر بالقعود يقول السلطان للامير جندار مر فلانا يقعد فيتقدم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلا ويقعد على بساط هنالك بين أيدي القائمين في الميمنة والميسرة ثم يؤتى بالطعام وهو طعامان طعام العامة وطعام الخاصة فأما الطعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضي القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف وأما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والامراء ووجوه الاجناد ومجلس كل انسان للطعام معين لا يتعداه ولا يزاحم أحد منهم احدا وعلى مثل هذا الترتيب سواء هو ترتيب ملك الهند في طعامه فلا اعلم ان سلاطين الهند اخذوا ذلك عن سلاطين اليمن أم سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند وأقمت في ضيافة سلطان اليمن أياما وأحسن الي وأركبني وانصرفت مسافرا الى مدينة صنعاء وهي قاعدة بلاد اليمن الاولى مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالآجر والجص كثيرة الاشجار والفواكه والزرع معتدلة

الهواء طيبة الماء ومن الغريب ان المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة انما ينزل في أيام القيظ وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الاوان فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر وأهل المدينة ينصرفون الى منازلهم لان أمطارها وابلة متدفقة ومدينة صنعاء مفروشة كلها فاذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها وجامع صنعاء من أحسن الجوامع وفيه قبر نبي من الانبياء عليهم السلام ثم سافرت منها الى مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الاعظم والجبال تحف بها ولا مدخل اليها الا من جانب واحد وهي مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر والماء على بعد منها فربما منعته العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب وهي شديدة الحر وهي مرسى اهل الهند تأتي اليها المراكب العظيمة من كنبايت وتانه وكولم وقالقوط وفندراينه والشاليات ومنجرور وفاكنور وهنور وسندابور وغيرها وتجار الهند ساكنون بها وتجار مصر أيضا وأهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادين للسمك وللتجار منهم اموال عريضة وربما يكون لاحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الاموال ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة

﴿ حكاية ﴾ ذكر لي أن بعضهم بعث غلاما له ليشتري له كبشا وبعث آخر منهم غلاما له برسم ذلك أيضا فاتفق أنه لم يكن بالسوق في ذلك اليوم الا كبش واحد فوقعت المزايدة فيه بين الغلامين فانتهى ثمنه الى أربعمائة دينار فاخذه أحدهما وقال ان رأس مالي أربعمائة دينار فان أعطاني مولاي ثمنه فحسن والا دفعت فيه رأس مالي ونصرت نفسي وغلبت صاحبي وذهب بالكبش الى سيده فلما عرف سيده بالقضية أعتقه وأعطاه ألف دينار وعاد الآخر الى سيده خائبا فضربه وأخذ ماله ونفاه عنه ونزلت في عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفأرى فكان يحضر طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجار وله غلمان وخدام أكثر من ذلك ومع هذا كله فهم أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق يحسنون الى الغريب ويؤثرون على الفقير ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم بن عبد الله الهندي وكان والده من العبيد الحمالين واشتغل ابنه بالعلم فرأس وساد وهو من خيار القضاة وفضلائهم أقمت في ضيافته اياما وسافرت من مدينة عدن في البحر أربعة أيام ووصلت الى مدينة زيلع وهي مدينة البربرة وهم طائفة من السودان شافعية المذهب وبلادهم صحراء مسيرة شهرين اولها زيلع وآخرها مقدشو ومواشيهم الجمال ولهم أغنام مشهورة السمن وأهل زيلع سود الالوان وأكثرهم رافضة وهي مدينة

كبيرة لها سوق عظيمة الا أنها أقذر مدينة في المعمور واوحشها وأكثرها نتنا وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الابل التي ينحرونها في الازقة ولما وصلنا اليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله ولم نبت بها لقذرها ثم سافرنا منها في البحر خمس عشرة ليلة ووصلنا مقدشو (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان القاف وفتح الدال المهمل والشين المعجم واسكان الواو) وهي مدينة متناهية في الكبر وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين في كل يوم ولهم اغنام كثيرة واهلها تجار اقوياء وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها التي لا نظير لها ومنها تحمل الى ديار مصر وغيرها ومن عادة اهل هذه المدينة انه متي وصل مركب الى المرسى تصعد الصنابق وهي القوارب الصغار اليه ويكون في كل صنبوق جماعة من شبان اهلها فياتي كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام فيقدمه لتاجر من تجار المركب ويقول هذا نزيلي وكذلك يفعل كل واحد منهم ولا ينزل التاجر من المركب الا الى دار نزيله من هؤلاء الشبان الا من كان كثير التردد الى البلد وحصلت له معرفة اهله فانه ينزل حيث شاء فاذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى له ومن اشترى منه ببخس اوباع منه بغير حضور نزيله فذلك البيع مردود عندهم ولهم منفعة في ذلك ولما صعد الشبان الى المركب الذي كنت فيه جاء الي بعضهم فقال له اصحابي ليس هذا بتاجر وانما هو فقيه فصاح باصحابه وقال لهم هذا نزيل القاضي وكان فيها أحد اصحاب القاضي فعرفه بذلك فاتى الى ساحل البحر في جملة من الطلبة وبعث الى احدهم فنزلت انا واصحابي وسلمت على القاضي واصحابه وقال لي بسم الله نتوجه للسلام على الشيخ فقلت ومن الشيخ فقال السلطان وعادتهم ان يقولوا للسلطان الشيخ فقلت له اذا نزلت توجهت اليه فقال لي ان العادة اذا جاء الفقيه او الشريف او الرجل الصالح لا ينزل حتي يرى السلطان فذهبت معهم اليه كما طلبو

ذكر سلطان مقدشو

وسلطان مقدشو كما ذكرناه انما يقولون له الشيخ واسمه ابو بكر ابن الشيخ عمر وهو في الاصل من البربرة وكلامه بالمقدشي ويعرف اللسان العربي ومن عوائده انه متي وصل مركب يصعد اليه صنبوق السلطان فيسال عن المركب من اين قدم ومن صاحبه ومن ربانه وهو الرئيس وما وسقه ومن قدم فيه من التجار وغيرهم فيعرف بذلك كله ويعرض على السلطان فمن استحق ان ينزله عنده انزله ولما وصلت مع القاضي المذكور وهو يعرف بابن البرهان المصرى الاصل الى دار السلطان خرج بعض الفتيان فسلم على القاضي فقال له بلغ الامانة وعرف مولانا الشيخ ان هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز فبلغ ثم عاد

وأتى بطبق فيه أوراق التنبول والفوفل فاعطانى عشرة أوراق مع قليل من الفوفل وأعطى للقاضى كذلك وأعطي لاصحابي ولطلبة القاضي ما بقى فى الطبق وجاء بقمقم من ماء الورد الدمشقي فسكب علي وعلى القاضى وقال ان مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة وهي دار معدة لضيافة الطلبة فاخذ القاضي بيدى وجئنا الى تلك الدار وهي بمقربة من دار الشيخ مفروشة مرتبة بما تحتاج اليه ثم أتى بالطعام من دار الشيخ ومعه أحد وزرائه وهو الموكل بالضيوف فقال مولانا يسلم عليكم ويقول لكم قدمتم خير مقدم ثم وضع الطعام فاكلنا وطعامهم الارز المطبوخ بالسمن يجعلونه فى صحفة خشب كبيرة ويجعلون فوقه صحاف الكوشان وهو الادام من الدجاج واللحم والحوت والبقول ويطبخون الموز قبل نضجه فى اللبن الحليب ويجعلونه فى صحفة ويجعلون اللبن المريب فى صحفة ويجعلون عليه الليمون المصبر وعناقيد الفلفل المصبر المخلل والمملوح والزنجبيل الاخضر والعنبا وهى مثل التفاح ولكن لها نواة وهى اذا نضجت شديدة الحلاوة وتؤكل كالفاكهة وقبل نضجها حامضة كالليمون يصبرونها فى الخل وهم اذا أكلوا لقمة من الارز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات والواحد من أهل مقدشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادة لهم وهم فى نهاية من ضخامة الجسوم وسمنها ثم لما اطعمنا انصرف عنا القاضى وأقمنا ثلاثة أيام يؤتى الينا بالطعام ثلاث مرات فى اليوم وتلك عادتهم فلما كان فى اليوم الرابع وهو يوم الجمعة جاءنى القاضى والطلبة وأحد وزراء الشيخ وأتوني بكسوة وكسوتهم فوطة خز يشدها الانسان فى وسطه عوض السراويل فانهم لا يعرفونها ودراعة من المقطع المصرى معلمة وفرجية من القدسى مبطنة وعمامة مصرية معلمة وأتوا الاصحابي بكسى تناسبهم وأتينا الجامع فصلينا خلف المقصورة فلما خرج الشيخ من باب المقصورة سلمت عليه مع القاضى فرحب وتكلم بلسانهم مع القاضى ثم قال باللسان العربى قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا وآنستنا وخرج الى صحن المسجد فوقف على قبر والده وهو مدفون هنالك فقرا ودعا ثم جاء الوزراء والامراء ووجوه الاجناد فسلموا وعادتهم فى السلام كعادة أهل اليمن يضع سبابته فى الارض ثم يجعلها على رأسه ويقول أدام الله عزك ثم خرج الشيخ من باب المسجد فلبس نعليه وأمر القاضي أن ينتعل وأمرني أن أنتعل وتوجه الى منزله ماشيا وهو بالقرب من المسجد ومشى الناس كلهم حفاة ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب وكان لباسه فى ذلك اليوم فرجية قدسي أخضر وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان وهو متقلد بفوطة حرير

وهومعتم بعمامة كبيرة وضربت بين يديه الطبول والأبواق والانفار وامراء الاجناد امامه وخلفه والقاضي والفقهاء والشرفاء معه ودخل الى مشوره على تلك الهيئة وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد فى سقيفة هنالك وفرش للقاضي بساط لايجلس معه غيره عليه والفقهاء والشرفاء معه ولم يزالوا كذلك الى صلاة العصر فلما صلوا العصر مع الشيخ أتي جميع الأجنــاد ووقفوا صفوفا على قدر مراتبهــم ثم ضربت الأطبال والأنفار والأبواق والصرنايات وعندضربها لايتحرك أحد ولا يتزحزح عن مقامه ومن كان ماشيا وقف فلم يتحرك الى خلف ولا الى امام فاذا فرغ من ضرب الطبلخانة سلموا باصابعهم كاذكرناه وانصرفوا وتلك عادة لهم فى كل يوم جمعة واذا كان يوم السبت ياتي الناس الى باب الشيخ فيقعدون فى سقائف خارج الدار ويدخل القاضى والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج الى المشور الثاني فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك و يكون القاضى على دكانة وحده وكل صنف على دكانة تخصهم لا يشاركهم فيها سواهم ثم يجلس الشيخ بمجلسه ويبعث الى القاضى فيجلس عن يساره ثم يدخل الفقهاء فيقعــد كبراؤهم بين يديه وسائرهم يسلمون وينصرفون ثم يدخل الشرفاء فيقعد كبراؤهم بين يديه و يسلم سائرهم وينصرفون وان كانوا ضيوفا جلسوا عن يمينه ثم يدخل المشايخ والحجاج فيجلس كبراؤهم و يسلم سائرهم وينصرفون ثم يدخل الوزراء ثم الامراء ثم وجوه الأجناد طائفة بعد طائفة أخرى فيسلمون وينصرفون ويؤتى بالطعام فيأكل بين يدى الشيــخ القاضى والشرفاء ومن كان قاعدا بالمجلس ويأكل الشيــخ معهم وان أراد تشريف أحد من كبار أمرائه بعث اليه فاكل معهم ويأكل سائر الناس بدار الطعام وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم فى الدخول على الشيخ ثم يدخل الشيــخ الى داره ويقعد القاضى والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الامراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات فما كان متعلقا بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضي وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى وهم الوزراء والأمراء وما كان مفتقرا الى مشاورة السلطان كتبوا اليه فيه فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره وتلك عادتهم دائما ثم ركبت البحر من مدينة مقدشو متوجهــا الى بلاد السواحل قاصدا مدينة كلوا من بلاد الزنوج فوصلنــا الى جزيرة منبسى (وضبط اسمها مفتوح ونون مسكن وباء موحدة مفتوحة وسين مهمل مفتوح وياء) وهى جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين فى البحر ولا بر لها وأشجارها الموز والليمون والأترج ولهم فاكهة يسمونها الجمون وهى شبه

الزيتون ولها نوى كنواه الا انها شديدة الحلاوة ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة وانما يجلب اليهم من السواحل وأكثر طعامهم الموز والسمك وهم شافعية المذهب أهل دين وعفاف وصلاح ومساجدهم من الخشب محكمة الاتقان وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان فيستقون منها الماء بقدح خشب قد غرز فيه عود رقيق فى طول الزراع والارض حول البئر والمسجد مسطحة فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل ويكون على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وصب على يديه ويتوضا وجميع الناس يمشون حفاة الاقدام وبتنا بهذ الجزيرة ليلة وركبنا البحر الى مدينة كلوا (وضبط اسمها بضم الكاف واسكان اللام وفتح الواو) وهى مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها الزنوج المستحكو السواد ولهم شرطات فى وجوههم كما هي فى وجوه الليميين من جنادة وذكرلى بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا وان بين سفالة و يوفى من بلاد الليميين مسيرة شهر ومن يوفى يؤتي بالتبر الى سفالة ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها بالخشب وسقف بيوتها الديس والامطار بها كثيرة وهم أهل جهاد لانهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب

ــ ذكر سلطان كلوا ــ

وكان سلطانها فى عهد دخولى اليها ابو المظفر حسن ويكني أيضاً أبو المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه وكان كثير الغزو الي أرض الزنوج يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ويصرفه فى مصارفه المعينة فى كتاب الله تعالى ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة على حدة فاذا جاءه الشرفاء دفعه اليهم وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة منهم محمد بن جماز ومنصور بن لبيدة بن أبي نمي ومحمد بن شميلة بن أبي نمي واقيت بمقد شواتيل بن كبيش بن جماز وهو يريد القدوم عليه وهذا السلطان له تواضع شديد ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف

ــ حكاية من مكارمه ــ

حضرته يوم جمعة وقد خرج من الصلاة قاصدا الى داره فتعرض له أحد الفقراء اليمنيين فقال له ياأبا المواهب فقال لبيك يافقير ماحاجتك قال أعطني هذه الثياب التي عليك فقال له نعم أعطيكها قال الساعة قال نعم الساعة فرجع الى المسجد ودخل بيت الخطيب فلبس ثيابا سواها وخلع تلك الثياب وقال للفقير ادخل فخذها فدخل الفقير وأخذها وربطها

فى منديل وجعلها فوق رأسه وانصرف فعظم شكر الناس للسلطان على ماظهر من تواضعه وكرمه وأخذ ابنه ولى عهده تلك الكسوة من الفقير وعوضه عنها بعشرة من العبيد وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك فامر للفقير أيضا بعشرة رؤس من الرقيق وحملين من العاج ومعظم عطاياهم العاج وقلما يعطون الذهب ولما توفى هذا السلطان الفاضل الكريم رحمة الله عليه ولى أخوه داود فكان على الضد من ذلك اذا أتاه سائل يقول له مات الذى كان يعطي ولم يترك من بعده مايعطى ويقيم الوفود عنده الشهور الكثيرة وحينئذ يعطيهم القليل حتى انقطع الوافدون عن بابه وركبنا البحر من كلوا الى مدينة ظفار الحموض (وضبط اسمها بفتح الظاء المعجم والفاء وآخره راء مبنية على الكسر) وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي ومنها تحمل الخيل العتاق الى الهند ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح فى شهر كامل قد قطعته مرة من قالقوط من بلاد الهند الى ظفار في ثمانية وعشرين يوما بالريح الطيبة لم ينقطع لنا جرى بالليل ولا بالنهار وبين ظفار وعدن فى البر مسيرة شهر فى صحراء وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوما وبينها وبين عمان عشرون يوما ومدينة ظفار فى صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالحرجاء وهى من أقذر الاسواق وأشدها نتنا وأكثرها ذبابا لكثرة مايباع بها من الثمرات والسمك وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين وهو بها في النهاية من السمن ومن العجائب ان دوابهم انما علفها من هذا السردين وكذلك غنمهم ولم أر ذلك فى سواها وأكثر باعتها الخدم وهن يلبسن السواد وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء وكيفية سقيهم انهم يصنعون دلوا كبيرة ويجعلون لها حبالا كثيرة ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر ويصبونها فى صهريج يسقون منه ولهم قمح يسمونه العلس وهو فى الحقيقة نوع من السلت والارز يجلب اليهم من بلاد الهند وهو أكثر طعامهم ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق فى سواها وهم أهل تجارة لا عيش لهم الا منها ومن عادتهم انه اذا وصل مركب من بلاد الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان الى الساحل وصعدوا فى صنبوق الى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله وللربان وهو الرئيس وللكراني وهو كاتب المركب ويؤتي اليهم بثلاثة أفراس فيركبونها وتضرب امامهم الاطبال والابواق من ساحل البحر الى دار السلطان فيسلمون على الوزير وأمير جندار وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثا وبعد الثلاث ياكلون بدار

السلطان وهم يفعلون ذلك استجلابا لاصحاب المراكب وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء ولباسهم القطن وهو يجلب اليهم من بلاد الهند ويشدون الفوط فى أوساطهم عوض السروال وأكثرهم يشد فوطة فى وسطه ويجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحر ويغتسلون مرات فى اليوم وهى كثيرة المساجد ولهم فى كل مسجد مطاهر كثيرة معدة للاغتسال ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدا والغالب على أهلها رجالا ونساء المرض المعروف بداء الفيل وهو انتفاخ القدمين وأكثر رجالهم مبتلون بالادر والعياذ بالله ومن عوايدهم الحسنة التصافح فى المسجد أثر صلاة الصبح والعصر يستند أهل الصف الاول الى القبلة ويصافحهم الذين يلونهم وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة يتصافحون أجمعون ومن خواص هذه المدينة وعجائبها انه لا يقصدها أحد بسوء الاعاد عليه مكروه وحيل بينه وبينها وذكرلى أن السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه صاحب هرمز نازلها مرة فى البر والبحر فارسل الله سبحانه عليه ريحا عاصفا كسرت مراكبه ورجع عن حصارها وصالح ملكها وكذلك ذكرلى ان الملك المجاهد سلطان اليمن عين ابن عم له بعسكر كبير برسم انتزاعها من يد ملكها وهو أيضا ابن عمه فلما خرج ذلك الامير عن داره سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه فهلكوا جميعا ورجع الملك عن رأيه وترك حصارها وطلبها ومن الغرائب ان أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب فى شؤونهم نزلت بدار الخطيب بمسجدها الاعظم وهو عيسي ابن علي كبير القدر كريم النفس فكان له جوار مسميات باسماء خدم المغرب احداهن اسمها بخيته والاخرى زاد المال ولم أسمع هذه الاسماء فى بلد سواها وأكثر أهلها رؤسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمائم وفى كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة فى البيت يصلى عليها صاحب البيت كما يفعل أهل المغرب وأكلهم الذرة وهذا التشابه كله مما يقوى القول بان صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حمير ويقرب من هذه المدينة بين بساتينها زاوية الشيخ الصالح العابد أبي محمد بن أبي بكر بن عيسى من أهل ظفار وهذه الزاوية معظمة عندهم يأتون اليها غدوا وعشيا ويستجيرون بها فاذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه رأيت بها شخصا ذكرلى ان له بها مدة سنين مستجيرا لم يتعرض له السلطان وفى الايام التى كنت بها استجار بها كاتب السلطان واقام فيها حتى وقع بينهما الصلح أتيت هذه الزاوية فبت بها فى ضيافة الشيخين أبي العباس أحمد وأبى عبد الله محمد ابنى الشيخ أبي بكر المذكور وشاهدت لهما فضلا عظيما ولما غسلنا أيدينا من الطعام

أخذ أبو العباس منهما ذلك الماء الذي غسلنا به فشرب منه وبعث الخادم بباقيه الى أهله وأولاده فشربوه وكذلك يفعلون بمن يتوسمون فيه الخير من الواردين عليهم وكذلك أضافني قاضيها الصالح أبو هاشم عبد الملك الزبيدى وكان يتولى خدمتي وغسل يدى بنفسه ولا يكل ذلك الى غيره وبمقربة من هذه الزاوية تربة سلف السلطان الملك المغيث وهي معظمة عندهم ويستجير بها من طلب حاجة فتقضي له ومن عادة الجند انه اذا تم الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم استجاروا بهذه التربة وأقاموا في جوارها الى ان يعطوا أرزاقهم وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الاحقاف وهي منازل عاد وهنا لك زاوية ومسجد على ساحل البحر وحوله قرية لصيادى السمك وفي الزاوية قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر عليه أفضل الصلاة والسلام وقد ذكرت ان بمسجد دمشق موضعا عليه مكتوب هذا قبر هود بن عابر والاشبه أن يكون قبره بالاحقاف لانها بلاده والله أعلم ولهذه المدينة بساتين فيها موز كثير كبير الجرم وزنت بحضرى حبة منه فكان وزنها اثنتى عشرة أوقية وهو طيب المطعم شديد الحلاوة وبها أيضا التنبول والنارجيل المعروف بجوز الهند ولا يكونان الا ببلاد الهند وبمدينة ظفار هذه لشبهها بالهند وقربها منها اللهم الا أن في مدينة زبيد في بستان السلطان شجيرات من النارجيل واذ قد وقع ذكر التنبول والنارجيل فلنذكرهما ولنذكر خصائصهما

— ذكر التنبول —

والتنبول شجر يغرس كما تغرس دوالى العنب ويصنع له معرشات من القصب كما يصنع لدوالى العنب أو يغرس في مجاورة شجر النارجيل فيصعد فيها كما تصعد الدوالى وكما يصعد الفلفل ولا ثمر للتنبول وانما المقصود منه ورقه وهو يشبه ورق العليق وأطيبه الاصفر وتجتنى أوراقه في كل يوم وأهل الهند يعظمون التنبول تعظيما شديدا واذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها لا سيما ان كان أميرا أو كبيرا واعطاؤه عندهم أعظم شأنا وأدل على الكرامة من اعطاء الفضة والذهب وكيفية استعماله أن يؤخذ قبله الفوفل وهو شبه جوز الطيب فيكسر حتى يصير أطرافا صغارا ويجعله الانسان في فمه ويعلكه ثم يأخذ ورق التنبول فيجعل عليها شيئا من النورة ويمضغها مع الفوفل وخاصيته انه يطيب النكهة ويذهب بروائح الفم ويهضم الطعام ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ويفرح آكله ويعين على الجماع ويجعله الانسان عند رأسه ليلا فاذا استيقظ من نومه أو أيقظته زوجته أو جاريته أخذ منه فيذهب بما في فمه من رائحة كريهة ولقد

ذكرلي ان جواري السلطان والامراء ببلاد الهند لا يا كلن غيره وسنذكره عند ذكر بلاد الهند

— ذكر النارجيل —

وهو جوز الهند وهـذا الشجر من أغرب الاشجار شانا وأعجبها أمرا وشجره شبه شجر النخل لافرق بينهما الا أن هذه تثمر جوزاً وتلك تثمر تمرا وجوزها يشبه رأس ابن آدم لان فيها شبه العينين والفم وداخلها شبه الدماغ اذا كانت خضراء وعليها ليف شبه الشعر وهم يصنعون به حبالا يخيطون بها المراكب عوضاً من مسامير الحـديد ويصنعون منه الحبال للمراكب والجوزة منها وخصوصا التي بجزائر ذيبة المهل تكون بمقـدار رأس الآدمي ويزعمون ان حكيما من حكماء الهنـد في غابر الزمان كان متصلا بملك من المـلوك ومعظما لديه وكان للملك وزير بينه وبين هـذا الحكيم معاداة فقال الحكيم للملك ان رأس هـذا الوزير اذا قطع ودفن تخرج منـه نخلة تثمر بثمر عظيم يعود نفعه على أهل الهنـد وسواهم من أهـل الدنيا فقال له الملك فان لم يظهر من رأس الوزير ماذكرته قال ان لم يظهر فاصنع برأسي كما صنعت برأسـه فأمر الملك برأس الوزير فقطع وأخذه الحكيم وغرس نواة تمر في دماغه وعالجهـا حتي صارت شجرة وأثمرة بهـذا الجوز وهـذه الحكاية من الاكاذيب ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم ومن خواص هـذا الجوز تقوية البدن واسراع السمن والزيادة في حمرة الوجه واما الاعانة على الباءة ففعله فيها عجيب ومن عجائبه انه يكون في ابتداء أمره أخضر فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة شرب منها ماء في النهاية من الحلاوة والبرودة ومزاجه حار معين على الباءة فاذا شرب ذلك الماء أخذ قطعة القشرة وجعلها شبه الملعقة وجرد بها ما في داخل الجوزة من الطعم فيكون طعمه كطعم البيضة اذا شويت ولم يتم نضجها كل التمام ويتغذي به ومنه كان غذائي أيام اقامتي بجزائر ذيبة المهل مدة من عام ونصف عام وعجائبه انه يصنع منه الزيت والحليب والعسل فأما كيفية صناعة العسل منه فان خدام النخل منه ويسمون الفازانية يصعدون الى النخلة غدواً وعشيا اذا أرادوا أخذ مائها الذي يصنعون منه العسل وهم يسمونه الاطواق فيقطعون العذق الذي يخرج منه الثمر ويتركون منه مقدار أصبعين ويربطون عليه قدرا صغيرة فيقطر فيها الماء الذي يسيل من العذق فاذا ربطها غدوة صعد اليها عشيا ومعه قدحان من قشر الجوز المذكور أحدهما مملوء ماء فيصب ما اجتمع من ماء العذق في أحد القدحين ويغسله بالمـاء الذي في القدح الآخر وينجر من العذق قليلا ويربط عليه القدر ثانية ثم يفعل غدوة كفعله عشيا فاذا اجتمع له الكثير من ذلك المـاء طبخه كما يطبخ

ماء العنب اذا صنع منه الرب فيصير عسلا عظيم النفع طيبا فيشتري به تجار الهند واليمن والصين ويحملونه الى بلادهم ويصنعون منه الحلواء وأما كيفية صنع الحليب منه فان بكل دار شبه الكرسي تجلس فوقه المرأة ويكون بيدها عصى فى أحد طرفيها حديدة مشرفة فيفتحون فى الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة ويجرشون ما فى باطن الجوزة وكل ما ينزل منها يجتمع في صحفة حتي لا يبقى فى داخل الجوزة شيء ثم يمرس ذلك الجريش بالماء فيصير كاون الحليب بياضا ويكون طعمه كطعم الحليب ويأتدم به الناس وأما كيفية صنع الزيت فانهم يأخذون الجوز بعد نضجه وسقوطه عن شجره فيزيلون قشره وقطعونه قطعا ويجعل فى الشمس فاذا ذبل طبخوه فى القدور واستخرجوا زيته وبه يستصبحون ويأتدمون به ويجعله النساء فى شعورهن وهو عظيم النفع

— ذكر سلطان ظفار —

وهو السلطان الملك المغيث بن الملك الفائز بن عم ملك اليمن وكان أبوه أميراً على ظفار من قبل صاحب اليمن وله عليه هدية يبعثها له فى كل سنة ثم استبد الملك المغيث بملكها وامتنع من ارسال الهدية وكان من عزم ملك اليمن على محاربته وتعيين ابن عمه لذلك ووقوع الحائط عليه ما ذكرناه آنفا وللسلطان قصر بداخل المدينة يسمى الحصن عظيم فسيح والجامع بازائه ومن عادته ان تضرب الطبول والبوقات والانفار والصرنايات على بابه كل يوم بعد صلاة العصر وفى كل يوم اثنين وخميس تأتى العساكر الى بابه فيقفون خارج المشور ساعة وينصرفون والسلطان لا يخرج ولا يراه أحد الا فى يوم الجمعة فيخرج للصلاة ثم يعود الى داره ولا يمنع أحدا من دخول المشور وأمير جندار قاعد على بابه واليه ينتهى كل صاحب حاجة أو شكاية وهو يطالع السلطان ويأتيه الجواب للحين واذا أراد السلطان الركوب خرجت مراكبه من القصر وسلاحه ومماليكه الى خارج المدينة وأتى بجمل عليه محمل مستور بستر أبيض منقوش بالذهب فيركب السلطان ونديمه في فى المحمل بحيث لا يرى واذا خرج الى بستانه وأحب ركوب الفرس ركبه ونزل عن الجمل وعادته أن لا يعارضه أحد فى طريقه ولا يقف لرؤيته ولا لشكاية ولا غيرها ومن تعرض لذلك ضرب أشد الضرب فتجد الناس اذا سمعوا بخروج السلطان فروا عن الطريق وتحاموها ووزير هذا السلطان الفقيه محمد العدنى وكان معلم صبيان فعلم هذا السلطان القراءة والكتابة وعاهده على ان يستوزره ان ملك فلما ملك استوزره فلم يكن يحسنها فكان الاسم له والحكم لغيره ومن هذه المدينة ركبنا البحر نريد عمان فى مركب صغير

لرجل يعرف بعلى بن ادريس المصيرى من أهل جزيرة مصيرة وفى الثاني لركوبنا نزلنا بمرسى حاسك وبه ناس من العرب صيادون للسمك ساكنون هنالك وعندهم شجر الكندر وهو رقيق الورق واذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن ثم عاد صمغا وذلك الصمغ هو اللبان وهو كثير جدا هنالك ولا معيشة لاهل ذلك المرسي الا من صيد السمك وسمكهم يعرف باللخم (بخاء معجم مفتوح) وهو شبيه كلب البحر يشرح ويقدد و يقتات به وبيوتهم من عظام السمك وسقفها من جلود الجمال وسرنا من مرسى حاسك اربعة أيام ووصلنا الى جبل لمان (بضم اللام) وهو فى وسط البحر وباعلاه رابطة مبنية بالحجارة وسقفها من عظام السمك وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر

﴿ ذكر ولى لقيناه بهذا الجبل ﴾

ولما أرسينا تحت هذا الجبل صعدناه الى هذه الرابطة فوجدنا بها شيخا نائما فسلمنا عليه فاستيقظ وأشار برد السلام فكلمناه فلم يكلمنا وكان يحرك رأسه فاتاه أهل المركب بطعام فابى أن يقبله فطلبنا منه الدعاء فكان يحرك شفتيه ولا نعلم مايقول وعليه مرقعة وقلنسوة لبد وليس معه ركوة ولا ابريق ولا عكاز ولا نعل وقال أهل المركب انهم مارأوه قط بهذا الجبل وأقمنا تلك الليل بساحل هذا الجبل وصلينا معه العصر والمغرب وجئناه بطعام فرده وأقام يصلي الى العشاء الآخرة ثم أذن وصليناها معه وكان حسن الصوت بالقراءة مجيدا لها ولما فرغ من صلاة العشاء الآخرة أوما الينا بالانصراف فودعناه وانصرفنا ونحن نعجب من أمره ثم انى اردت الرجوع اليه لما انصرفنا فلما دنوت منه هبته وغلب على الخوف ورجعت الى أصحابي وانصرفت معهم وركبنا البحر ووصلنا بعد يومين الى جزيرة الطير وليست بها عمارة فارسينا وصعدنا اليها فوجدناها ملآنة بطيور تشبه الشقاشق الا انها أعظم منها وجاءت الناس ببيض تلك الطيور فطبخوها وأكلوها واصطادوا جملة من تلك الطيور فطبخوها دون ذكاة وأكلوها وكان يجالسنى تاجر من أهل جزيرة مصيرة ساكن بظفار اسمه مسلم فرأيته ياكل معهم تلك الطيور فانكرت ذلك عليه فاشتد خجله وقال لى ظننت انهم ذبحوها وانقطع عني بعد ذلك من الخجل فكان لايقربني حتى ادعوبه وكان طعامي فى تلك الايام بذلك المركب التمر والسمك وكانوا يصطادون بالغدو والعشى سمكا يسمى بالفارسية شير ماهي ومعناه أسد السمك لان شير هو الاسد وماهي السمك وهو يشبه الحوت المسمي عندنا بتازرت وهم يقطعونه قطعا ويشوونه ويعطون كل من فى المركب قطعة لا يفضلون أحدا على احد ولا

صاحب المركب ولا سواه ويا كلونه بالتمر وكان عندي خبز وكعك استصحبتهما من ظفار فلما نفذا كنت أقتات من تلك السمك في جملتهم وعيدنا عيد الاضحى على ظهر البحر وهبت علينا في يومه ريح عاصف بعد طلوع الفجر ودامت الى طلوع الشمس وكادت تغرقنا

﴿ كرامة ﴾

وكان معنا في المركب حاج من أهل الهند يسمى بخضر ويدعى بمولانا لانه يحفظ القرآن ويحسن الكتابة فلما رأى هول البحر لف رأسه بعباءة كانت له وتناوم فلما فرج الله ما نزل بنا قلت له يا مولانا خضر كيف رأيت قال قد كنت عند الهول أفتح عيني أنظر هل أري الملائكة الذين يقبضون الارواح جاؤا فلا أراهم فاقول الحمد لله لو كان الغرق لأتوا لقبض الارواح ثم أغلق عيني ثم أفتحها فانظر كذلك الى ان فرج الله عنا وكان قد تقدمنا مركب لبعض التجار فغرق ولم ينج منه الا رجل واحد خرج عوما بعد جهد شديد وأكلت في ذلك المركب نوعا من الطعام لم آكله قبله ولا بعده صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة طبخها من غير طحن وصب عليها السيلان وهو عسل التمر واكلناه ثم وصلنا الى جزيرة مصيرة التى منها صاحب المركب الذى كنا فيه وهى على لفظ مصير وزيادة تاء التانيث جزيرة كبيرة لا عيش لاهلها الا من السمك ولم ننزل اليها لبعد مرساها عن الساحل وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير ذكاة وأقمنا بها يوما وتوجه صاحب المركب فيه الى داره وعاد الينا ثم سرنا يوما وليلة فوصلنا الى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور ورأينا منها مدينة قلهاة فى سفح جبل فخيل لنا انها قريبة وكان وصولنا الى المرسي وقت الزوال أو قبله فلما ظهرت لنا المدينة أحببت المشي اليها والمبيت بها وكنت قد كرهت صحبة اهل المركب فسالت عن طريقها فاخبرت أني أصل اليها عند العصر فاكتريت أحد البحريين ليدلني على طريقها وصحبني خضر الهندي الذى تقدم ذكره وتركت اصحابي مع ما كان لى بالمركب ليلحقوا بي فى غد ذلك اليوم وأخذت أثوابا كانت لى فدفعتها لذلك الدليل ليكفيني مؤنة حملها وحملت فى يدي رمحا فاذا ذلك الدليل يحب ان يستولى على اثوابي فاتى بنا الى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر فاراد عبوره بالثياب فقلت له انما تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا فان قدرنا على الجواز جزنا والا صعدنا نطلب المجاز فرجع ثم رأينا رجالا جازوه عوما فتحققنا انه كان قصده ان يغرقنا ويذهب بالثياب فحينئذ اظهرت النشاط وأخذت بالحزم وشددت وسطي وكنت أهز الرمح فهابني ذلك الدليل وصعدنا حتى وجدنا مجازا ثم خرجنا الى

صحراء لاماء بها وعطشنا واشتد بنا الامر فبعث الله لنا فارسا في جماعة من أصحابه و بيد أحدهم ركوة ماء فسقاني وسقي صاحبي وذهبنا نحسب المدينة قريبة منا و بيننا و بينها خنادق نمشي فيها الاميال الكثيرة فلما كان العشى أراد الدليل أن يميل بنا الى ناحية البحر وهو لا طريق له لان ساحله حجارة فاراد أن ننشب فيها و يذهب بالثياب فقلت له انما نمشي على هذه الطريق التى نحن عليها وبينها و بين البحر نحو ميل فلما أظلم الليل قال لنا ان المدينة قريبة منا فتعالوا نمشي حتي نبيت بخارجها الى الصباح فخفت أن يتعرض لنا أحد في طريقنا ولم أحقق مقدار ما بقى اليها فقلت له انما الحق أن نخرج عن الطريق فننام فاذا أصبحنا اتينا المدينة ان شاء الله وكنت قد رأيت جملة من الرجال فى سفح جبل هنالك فخفت أن يكونوا لصوصاً وقلت التستر اولى وغلب العطش على صاحبي فلم يوافق على ذلك فخرجت عن الطريق وقصدت شجرة من شجر أم غيلان وقد أعييت وأدركني الجهد لكني أظهرت قوة وتجلداً خوف الدليل وأما صاحبي فمريض لا قوة له فجعلت الدليل بيني و بين صاحبي وجعلت الثياب بين ثوبي وجسدى وأمسكت الرمح بيدى ورقد صاحبي ورقد الدليل و بقيت ساهرا وكلما تحرك الدليل كلمته وأريته انى مستيقظ ولم نزل كذلك حتى أصبح فخرجنا الى الطريق فوجدنا الناس ذاهبين بالمرافق الى المدينة فبعثت الدليل ليأتينا بماء وأخذ صاحبي الثياب وكان بيننا و بين المدينة مهاو وخنادق فاتانا بالماء فشربنا وذلك أوان الحر ثم وصلنا الى مدينة قلهات (وضبط اسمها بفتح القاف واسكان اللام وآخره تاء مثناة) فأتيناها ونحن فى جهد عظيم وكنت قد ضاقت نعلى على رجلى حتي كاد الدم أن يخرج من تحت أظفارها فلما وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة ان قال لنا الموكل بالباب لا بدلك أن تذهب معي الى أمير المدينة ليعرف قضيتك ومن أين قدمت فذهبت معه اليه فرأيته فاضلا حسن الاخلاق وسالني عن حالى وأنزلني وأقمت عنده ستة أيام لا قدرة لى فيها على النهوض على قدمي لما لحقها من الآلام ومدينة قلهات على الساحل وهى حسنة الاسواق ولها مسجد من أحسن المساجد حيطانه بالقشاني وهو شبه الزليج وهو مرتفع ينظر منه الى البحر والمرسى وهو من عمارة الصالحة بيبي مريم ومعنى بيبي عندهم الحرة وأكلت بهذه المدينة سمكا لم آكل مثله فى إقليم من الاقاليم وكنت أفضله على جميع اللحوم فلا آكل سواه وهم يشوونه على ورق الشجر ويجعلونه على الارز ويأكلونه والارز يجلب اليهم من أرض الهند وهم أهل تجارة ومعيشتهم مما ياتى اليهم فى البحر الهندى واذا وصل اليهم مركب فرحوا به أشد

الفرح وكلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلا تأكل لا تمشي لا تفعل كذا لا وأكثرهم خوارج لكنهم لا يقدرون على اظهار مذهبهم لانهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمهتن ملك هرمز وهو من أهل السنة وبمقربة من قلهات قرية طيبي واسمها على نحو اسم الطيب اذا أضافه المتكلم لنفسه وهي من أجمل القرى وأبدعها حسنا ذات أنهار جارية وأشجار ناضرة وبساتين كثيرة ومنها تجلب الفواكه الى قلهات وبها الموز المعروف بالمرواري والمرواري بالفارسية هو الجوهري (المروارا الجوهر) وهو كثير بها ويجلب منها الى هرمز وسواها وبها أيضاً التنبول لكن ورقته صغيرة والتمر يجلب الى هذه الجهات من عمان ثم قصدنا بلاد عمان فسرنا ستة أيام في صحراء ثم وصلنا بلاد عمان في اليوم السابع وهي خصبة ذات انهار وأشجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة مختلفة الاجناس ووصلنا الى قاعدة هذه البلاد وهي مدينة نزوا (وضبط اسمها بنون مفتوح وزاي مسكن وواو مفتوح) مدينة في سفح جبل تحف بها البساتين والانهار ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة نقية وعادة أهلها انهم يأكلون في صحون المساجد يأتي كل انسان بما عنده ويجتمعون للاكل في صحن المسجد ويأكل معهم الوارد والصادر ولهم نجدة وشجاعة والحرب قائمة فيما بينهم ابداً وهم أباضية المذهب ويصلون الجمعة ظهرا أربعاً فاذا فرغوا منها قرأ الامام آيات من القرآن ونثر كلاما شبه الخطبة يرضى فيه عن ابي بكر وعمر ويسكت عن عثمان وعلي وهم اذا أرادوا ذكر علي رضي الله عنه كنوا عنه فقالوا ذكر عن الرجل اوقال الرجل ويرضون عن الشقي اللعين ابن ملجم ويقولون فيه العبد الصالح قامع الفتنة ونساؤهم يكثرن الفساد ولا غيرة عندهم ولا انكار لذلك وسنذكر حكاية إثر هذا مما يشهد بذلك

— ذكر سلطان عمان —

وسلطانها عربي من قبيلة الازد بن الغوث ويعرف بابي محمد بن نبهان وأبو محمد عندهم سمة لكل سلطان يلي عمان كما هي اتابك عند ملوك اللور وعادته ان يجلس خارج باب داره في مجلس هنالك ولا حاجب له ولا وزير ولا يمنع احدا من الدخول اليه من غريب أو غيره ويكرم الضيف على عادة العرب ويعين له الضيافة ويعطيه على قدره وله اخلاق حسنة ويؤكل على مائدته لحم الحمار الانسي ويباع بالسوق لانهم قائلون بتحليله ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد عليهم ولا يظهرونه بمحضره ومن مدن عمان مدينة زكي لم أدخلها وهي على ماذكر لي مدينة عظيمة ومنها القريات وشبا وكلبا وخورفكان

وصحار وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار ونخل وأكثر هذه البلاد في عمالة هرمز

— حكاية —

كنت يوما عند هذا السلطان أبي محمد بن نبهان فاتته امرأة صغيرة السن حسنة الصورة بادية الوجه فوقفت بين يديه وقالت له يا أبا محمد طغى الشيطان في رأسي فقال لها اذهبي واطردي الشيطان فقالت له لا أستطيع وأنا في جوارك يا أبا محمد فقال لها اذهبي فافعلي ماشئت فذكر لي لما انصرفت عنه ان هذه ومن فعل مثل فعلها تكون في جوار السلطان وتذهب للفساد ولا يقدر أبوها ولا ذو قرابتها أن يغيروا عليها وان قتلوها قتلوا بها لانها في جوار السلطان ثم سافرت من بلاد عمان الى بلاد هرمز وهرمز مدينة على ساحل البحر وتسمي أيضا موغ استان وتقابلها في البحر هرمز الجديدة وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ ووصلنا الى هرمز الجديدة وهي جزيرة مدينتها تسمي جرون (بفتح الجيم والراء وآخرها نون) وهي مدينة حسنة كبيرة لها اسواق حافلة وهي مرسي الهند والسند ومنها تحمل سلع الهند الى العراقين وفارس وخراسان وهذه المدينة سكني السلطان والجزيرة التي فيها المدينة مسيرة يوم وأكثرها سباخ وجبال ملح وهو الملح الداراني ومنه يصنعون الاواني للزينة والمنارات التي يضعون السرج عليها وطعامهم السمك والتمر المجلوب اليهم من البصرة وعمان ويقولون بلسانهم خرما وماهي لوت بادشاهي معناه بالعربي التمر والسمك طعام الملوك والماء في هذه الجزيرة له قيمة وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر وهي على بعد من المدينة ويأتون اليها بالقرب فيملؤنها ويرفعونها على ظهورهم الى البحر يوسقونها في القوارب ويأتون بها الى المدينة ورأيت من العجائب عند باب الجامع فيما بينه وبين السوق رأس سمكة كأنه رابية وعيناه كأنهما بابان فترى الناس يدخلون من احداها ويخرجون من الاخرى ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح السائح أبا الحسن الاقصاراني وأصله من بلاد الروم فاضافني وزارني والبسني ثوبا وأعطاني كم الصحبة وهو يحتبي به فيعين الجالس فيكون كانه مستند وأكثر فقراء العجم يتقلدونه وعلى ستة أميال من هذه المدينة مزار ينسب الى الخضر والياس عليهما السلام يذكر أنهما يصليان فيه وظهرت له بركات وبراهين وهنالك زاوية يسكنها أحد المشايخ يخدم بها الوارد والصادر وأقمنا عنده يوما وقصدنا من هنالك زيارة رجل صالح منقطع في آخر هذه الجزيرة قد نحت غارا اسكناه فيه زاوية ومجلس ودار صغيرة له فيها جارية وله عبيد خارج الغار يرعون بقرا له وغنما وكان هذا الرجل من كبار التجار فحج البيت وقطع

العلائق وانقطع هنالك للعبادة ودفع ماله لرجل من اخوانه يتجر له به وبتنا عنده ليلة فاحسن القرى وأجمل رضي الله تعالى عنه وسيمة الخير والعبادة لائحة عليه

ــ ذكر سلطان هرمز ــ

وهو السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه (وضبط اسمه بفتح التاء بن المعلوتين وبينهما ميم مفتوح وهاء مسكنة وآخره نون) وهو من كرماء السلاطين كثير التواضع حسن الاخلاق وعادته أن ياتي لزيارة كل من يقدم عليه من فقيه أو صالح أو شريف ويقوم بحقه ولما دخلنا جزيرته وجدناه مهيأ للحرب مشغولا بها مع ابني اخيه نظام الدين فكان في كل ليلة يتيسر للقتال والغلاء مستول على الجزيرة فاتي الينا وزيره شمس الدين محمد بن علي وقاضيه عماد الدين الشونكاري وجماعة من الفضلاء فاعتذروا بما هم عليه من مباشرة الحرب وأقمنا عندهم ستة عشر يوما فلما أردنا الانصراف قلت لبعض الاصحاب كيف ننصرف ولا نرى هذا السلطان فجئنا دار الوزير وكانت في جوار الزاوية التي نزلت بها فقلت له اني اريد السلام على الملك فقال بسم الله وأخذ بيدي فذهب بي الى داره وهي على ساحل البحر والاجفان مجلسة عندها فاذا شيخ عليه أقبية ضيقة دنسة وعلى رأسه عمامة وهو مشدود الوسط بمنديل فسلم عليه الوزير وسلمت عليه ولم اعرف انه الملك وكان الى جانبه ابن اخته وهو علي شاه بن جلال الدين الكيجي وكانت بيني وبينه معرفة فانشات احادثه وانا لا أعرف الملك فعرفني الوزير بذلك فخجلت منه لاقبالي بالحديث على ابن أخته دونه واعتذرت اليه ثم قام فدخل داره وتبعه الامراء والوزراء وأرباب الدولة ودخلت مع الوزير فوجدناه قاعدا على سرير ملكه وثيابه عليه لم يبدلها وفي يده سبحة جوهر لم تر العيون مثلها لان مغاصات الجوهر تحت حكمه فجلس أحد الامراء الى جانبه وجلست الى جانب ذلك الامير وسالني عن حالي ومقدمي وعمن لقيته من الملوك فاخبرته بذلك وحضر الطعام فاكل الحاضرون ولم ياكل معهم ثم قام فوادعته وانصرفت وسبب الحرب التي بينه وبين ابني أخيه أنه ركب البحر مرة من مدينته الجديدة برسم النزهة في هرمز القديمة وبساتينها وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ كما قدمناه فخالف عليه أخوه نظام الدين ودعى لنفسه وبايعه أهل الجزيرة وبايعته العساكر فخاف قطب الدين على نفسه وركب البحر الى مدينة قلهات التي تقدم ذكرها وهي من جملة بلاده فاقام بها شهورا وجهز المراكب وأتى الجزيرة فقاتله اهلها مع اخيه وهزموه وعاد الى قلهات وفعل ذلك مرارا فلم تكن له حيلة الا ان راسل بعض نساء أخيه فسمته ومات وأتي هو الى الجزيرة فدخلها وفر

ابنا أخيه بالخزائن والاموال والعساكر الى جزيرة قيس حيث مغاص الجوهر وصاروا يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسند ويغيرون على بلاده البحرية حتى تخرب معظمها ثم سافرنا من مدينة جرون برسم لقاء رجل صالح ببلد خنج بال فلما عدينا البحر اكترينا دواب من التركمان وهم سكان تلك البلاد ولا يسافر فيها الا معهم لشجاعتهم ومعرفتهم بالطرق وفيها صحراء مسيرة أربع يقطع بها الطريق لصوص الاعراب وتهب فيها ريح السموم فى شهرى تموز وحزيران فمن صادفته فيها قتلته ولقد ذكر لى ان الرجل اذا قتلته تلك الريح وأراد أصحابه غسله ينفصل كل عضو منه عن سائر الاعضاء وبها قبور كثيرة للذين ماتوا فيها بهذه الريح وكنا نسافر فيها بالليل فاذا طلعت الشمس نزلنا تحت ظلال الاشجار من أم غيلان ونرحل بعد العصر الى طلوع الشمس وفى هذه الصحراء وماوالاها كان يقطع الطريق بها جمال اللك (اللوك) الشهير الاسم هنالك

حكاية

كان جمال اللك من أهل سجستان أعجمى الاصل (واللك بضم اللام) معناه الاقطع وكانت يده قطعت فى بعض حروبه وكانت له جماعة كثيرة من فرسان الاعراب والاعاجم يقطع بهم الطرق وكان يبنى الزوايا ويطعم الوارد والصادر من الاموال التى يسلبها من الناس ويقال انه كان يدعو ان لا يسلط الا على من لا يزكى ماله وأقام على ذلك دهراً وكان يغير هو وفرسانه ويسلكون برارى لا يعرفها سواهم ويدفنون بها قرب الماء وروايا فاذا تبعهم عسكر السلطان دخلوا الصحراء واستخرجوا المياه ويرجع العسكر عنهم خوفا من الهلاك وأقام على هذه الحالة مدة لا يقدر عليه ملك العراق ولا غيره ثم تاب وتعبد حتى مات وقبره يزار ببلده وسلكنا هذه الصحراء الى ان وصلنا الى كورستان (وضبط اسمه بفتح الكاف واسكان الواو وراء) وهو بلد صغير فيه الانهار والبساتين وهو شديد الحر ثم سرنا منه ثلاثة أيام فى صحراء مثل التى تقدمت ووصلنا الى مدينة لار (وآخر اسمها راء) مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين ولها أسواق حسان ونزلنا منها بزاوية الشيخ العابد أبي دلف محمد وهو الذى قصدنا زيارته بخنج بال وبهذه الزاوية ولده أبو زيد عبد الرحمن ومعه جماعة من الفقراء ومن عادتهم انهم يجتمعون بالزاوية بعد صلاة العصر من كل يوم ثم يطوفون على دور المدينة فيعطاهم من كل دار الرغيف والرغيفان فيطعمون منها الوارد والصادر وأهل الدور قد ألفوا ذلك فهم يجعلونه فى جملة قوتهم ويعدونه لهم اعانة على اطعام الطعام وفى كل ليلة جمعة يجتمع بهذه الزاوية فقراء المدينة

وصلحاؤها ويأتي كل منهم بما تيسر له من الدراهم فيجمعونها وينفقونها تلك الليلة ويبيتون في عبادة من الصلاة والذكر والتلاوة وينصرفون بعد صلاة الصبح

— ذكر سلطان لار —

وبهذه المدينة سلطان يسمى بجلال الدين تركاني الاصل بعث الينا بضيافة ولم نجتمع به ولا رأيناه ثم سافرنا الى مدينة خنج بال (وضبط اسمها بضم الخاء المعجم وقد يعوض منه هاء واسكان النون وضم الجيم وباء معقودة وألف ولام) وبها سكنى الشيخ أبى دلف الذي قصدنا زيارته وبزاويته نزلنا ولما دخلت الزاوية رأيته قاعدا بناحية منها على التراب وعليه جبة صوف خضراء بالية وعلى رأسه عمامة صوف سوداء فسلمت عليه فاحسن الردوسالني عن مقدمي وبلادى وأنزلني وكان يبعث الى الطعام والفاكهة مع ولده من الصالحين كثير الخشوع والتواضع صائم الدهر كثير الصلاة ولهذا الشيخ أبى دلف شان عجيب وأمر غريب فان نفقته في هذه الزاوية عظيمة وهو يعطي العطاء الجزيل ويكسو الناس ويركبهم الخيل ويحسن لكل وارد وصادر ولم أر في تلك البلاد مثله ولا يعلم له جهة الا ما يصله من الاخوان والاصحاب حتى زعم كثير من الناس انه ينفق من الكون وفي زاويته المذكورة قبر الشيخ الولى الصالح القطب دانيال وله اسم بتلك البلاد شهير وشان في الولاية كبير وعلى قبره قبة عظيمة بناها السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه وأقمت عند الشيخ أبي دلف يوما واحدا لاستعجال الرفقة التي كنت في صحبتها وسمعت أن بالمدينة خنج بال المذكورة زاوية فيها جملة من الصالحين المتعبدين فرحت اليها بالعشى وسلمت على شيخهم وعليهم ورأيت جماعة مباركة قد أثرت فيهم العبادة فهم صفر الالوان نحاف الجسوم كثيرا والبكاء غزيرو الدموع وعند وصولى اليهم أتوا بالطعام فقال كبيرهم أدعوا لى ولدي محمدا وكان معتزلا في بعض نواحي الزاوية فجاء الينا الولد وهو كأنما خرج من قبر مما نهكته العبادة فسلم وقعد فقال له أبوه يابني شارك هؤلاء الواردين في الأكل تنل من بركاتهم وكان صائما فافطر معنا وهم شافعية المذهب فلما فرغنا من أكل الطعام دعوا لنا وانصرفنا ثم سافرنا منها إلى مدينة قيس وتسمي أيضا بسيراف وهى على ساحل بحر الهند المتصل ببحر اليمن وفارس وعدادها في كور فارس مدينة لها انفساح وسعة طيبة البقعة في دورها بساتين عجيبة فيها الرياحين والاشجار الناضرة وشرب أهلها من عيون منبعثة من جبالها وهم عجم من الفرس أشراف وفيهم طائفة من عرب بني سفاف وهم الذين يغوصون على الجوهر

— ذكر مغاص الجوهر —

ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين في خور راكد مثل الوادي العظيم فاذا كان شهر ابريل وشهر مايه تاتي اليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن يغوص شيا يكسوه من عظم الغيلم وهي السلحفاة ويصنع من هذا العظم أيضا شكلا شبه المقراض يشده على أنفه ثم يربط حبلا في وسطه ويغوص ويتفاوتون في الصبر في الماء فنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك فاذا وصل الى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الاحجار الصغار مثبتا في الرمل فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدة لذلك ويجعلها في مخلاة جلد منوطة بعنقه فاذا ضاق نفسه حرك الحبل فيحس به الرجل الممسك للحبل علي الساحل فيرفعه الى القارب فتؤخذ منه المخلاة و يفتح الصدف فيوجد في أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة فاذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر فيجمع جميعها من صغير وكبير فياخذ السلطان خمسه و الباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب وأكثرهم يكون له الدين على الغواصين فياخذ الجوهر في دينه أوما وجب له منه ثم سافرنا من سيراف الى مدينة البحرين وهي مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار وماؤها قريب المؤنة يحفر عليه بالايدي فيوجد وبها حدائق النخل والرمان والاترج ويزرع بها القطن وهي شديدة الحر كثيرة الرمال وربما غلب الرمل على بعض منازلها وكان فيما بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع فلا يوصل من عمان اليها الا في البحر وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمي أحدهما بكسير وهو في غربيها ويسمى الآخر بعوير وهو في شرقيها وبهما ضرب المثل فقيل كسير وعوير وكل غير خير ثم سافرنا الى مدينة القطيف (وضبط اسمها بضم القاف) كانه تصغير قطف وهي مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير يسكنها طوائف العرب وهم رافضية غلاة يظهرون الرفض جهارا لا يتقون أحدا ويقول مؤذنهم في أذانه بعد الشهادتين أشهد أن عليا ولي الله ويزيد بعد الحيعلتين حي على خير العمل ويزيد بعد التكبير الاخير محمد وعلي خير البشر من خالفهما فقد كفر ثم سافرنا منها الى مدينة هجر وتسمي الآن بالحسا (بفتح الحاء والسين واهمالها) وهي التي يضرب المثل بها فيقال كجالب التمر الى هجر وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها ومنه يعلفون دوابهم وأهلها عرب وأكثرهم من قبيلة عبد القيس بن أفصى ثم سافرنا منها الى مدينة اليمامة وتسمي أيضا بحجر (بفتح الحاء المهمل واسكان الجيم) مدينة حسنة خصبة ذات أنهار وأشجار

يسكنها طوائف من العرب أكثرهم من بني حنيفة وهي بلدهم قديما وأميرهم طفيل ابن غانم ثم سافرت منها فى صحبة هذا الامير برسم الحج وذلك فى سنة ثنتين وثلاثين فوصلت الى مكة شرفها الله تعالى وحج فى تلك السنة الملك الناصر سلطان مصر رحمه الله وجملة من أمرائه وهي آخر حجة حجها وأجزل الاحسان لاهل الحرمين الشريفين وللمجاورين وفيها قتل الملك الناصر أمير أحمد الذى يذكر انه ولده وقتل أيضا كبير أمرائه بكتمور الساقى

— حكاية —

ذكر ان الملك الناصر وهب لبكتمور الساقي جارية فلما أراد الدنو منها قالت له اني حامل من الملك الناصر فاعتزلها وولدت ولدا سماه بامير أحمد ونشافى حجره فظهرت نجابته واشتهر بابن الملك الناصر فلما كان فى هذه الحجة تعاهدا على الفتك بالملك الناصر وان يتولى أمير أحمد الملك وحمل بكتمور معه العلامات والطبول والكسوات والاموال فنمي الخبر الى الملك الناصر فبعث الى أمير أحمد فى يوم شديد الحر فدخل عليه وبين يديه أقداح الشرب فشرب الملك الناصر قدحا وناول أمير أحمد قدحا ثانيا فيه السم فشربه وأمر بالرحيل فى تلك الساعة ليشغل الوقت فرحل الناس ولم يبلغوا المنزل حتى مات أمير أحمد فاكترث بكتمور لموته وقطع أثوابه وامتنع من الطعام والشراب وبلغ خبره الى الملك الناصر فاتاه بنفسه ولاطفه وسلاه وأخذ قدحا فيه سم فناوله اياه وقال له بحياتى عليك إلا شربت فبردت نار قلبك فشربه ومات من حينه ووجد عنده خلع السلطنة والاموال فتحقق ما نسب اليه من الفتك بالملك الناصر ولما انقضي الحج توجهت الى جدة برسم ركوب البحر الى اليمن والهند فلم يقض لى ذلك ولا تاتى لى رفيق وأقمت بجدة نحو أربعين يوما وكان بها مركب لرجل يعرف بعبد الله التونسى يروم السفر الى القصير من عمالة قوص فصعدت اليه لأنظر حاله فلم يرضني ولا طابت نفسى بالسفر فيه وكان ذلك لطفا من الله تعالى فانه سافر فلما توسط البحر غرق بموضع يقال له رأس أبي محمد فخرج صاحبه وبعض التجار فى العشارى بعد جهد عظيم وأشرفوا على الهلاك وهلك بعضهم وغرق سائر الناس وكان فيه نحو سبعين من الحجاج ثم ركبت البحر بعد ذلك فى صنبوق برسم عيذاب فردتنا الريح الى مرسى يعرف برأس دواير وسافرنا منه فى البر مع البجاة فسلكنا صحراء كثيرة النعام والغزلان فيها عرب جهينة وبني كاهل وطاعتهم للبجاة ووردنا ماء يعرف بمفرور وماء يعرف بالجديد ونفد زادنا فاشترينا من قوم من البجاة وجدناهم بالفلاة أغناما وتزودنا لحومها ورأيت بهذه الفلاة صبيا من العرب كلمني باللسان العربي

وأخبرني ان البجاة أسروه وزعم انه منذ عام لم يأكل طعاما انما يقتات بلبن الابل ونفد لنا بعد ذلك اللحم الذى اشتريناه ولم يبق لنا زاد وكان عندى نحو حمل من التمر الصيحاني والبرني برسم الهدية لاصحابى ففرقته على الرفقة وتزودناه ثلاثا وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دواير وصلنا الى عيذاب وكان قد تقدم اليها بعض الرفقة فتلقانا أهلها بالخبز والتمر والماء وأقمنا بها أياما واكترينا الجمال وخرجنا صحبة طائفة من عرب دغيم ووردنا ماء يعرف بالجنيب ولعله (الخبيب) وحللنا بحميثرا حيث قبر ولى الله تعالى أبى الحسن الشاذلى وحصلت لنا زيارته ثانية وبتنا فى جواره ثم وصلنا الى قرية العطوانى وهى على ضفة النيل مقابلة لمدينة أدفو من الصعيد الأعلى وأجزنا النيل الى مدينة اسنا ثم الى مدينة أرمنت ثم الى الاقصر وزرنا الشيخ أبا الحجاج الاقصرى ثانية ثم الى مدينة قوص ثم الى مدينة قنا وزرنا الشيخ عبد الرحيم القناوى ثانية ثم الى مدينة هو ثم الى مدينة اخميم ثم الى مدينة أسيوط ثم الى مدينة منفلوط ثم الى مدينة منلوى ثم الى مدينة الاشمونين ثم الى مدينة منية ابن الخصيب ثم الى مدينة البهنسة ثم الى مدينة بوش ثم الى مدينة منية القائد وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد ثم الى مصر وأقمت بها أياما وسافرت على طريق بلبيس الى الشام ورافقنى الحاج عبد الله بن أبي بكر بن الفرحان التوزري ولم يزل فى صحبتى سنين الى ان خرجنا من بلاد الهند فتوفى بسندابور وسنذكر ذلك فوصلنا الى مدينة غزة ثم الى مدينة الخليل عليه السلام وتكررت لنا زيارته ثم الى بيت المقدس ثم الى مدينة الرملة ثم الى مدينة عكا ثم الى مدينة طرابلس ثم الى مدينة جبلة وزرنا ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه ثانية ثم الى مدينة اللاذقية وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد كلها ومن اللاذقية ركبنا البحر فى قرقورة كبيرة للجنويين يسمى صاحبها بمرتلمين وقصدنا بر التركية المعروف ببلاد الروم وانما نسبت الى الروم لانها كانت بلادهم فى القديم ومنها الروم الاقدمون واليونانية ثم استفتحها المسلمون وبها الآن كثير من النصاري تحت ذمة المسلمين من التركمان وسرنا فى البحر عشرا بريح طيبة وأكرمنا النصراني ولم يأخذمنا نولا وفى العاشر وصلنا الى مدينة العلايا وهي أول بلاد الروم وهذا الاقليم المعروف ببلاد الروم من أحسن أقاليم الدنيا وقد جمع الله فيه ماتفرق من المحاسن فى البلاد فأهله أجمل الناس صورا وأنظفهم ملابس وأطيبهم مطاعم وأكثر خلق الله شفقة ولذلك يقال البركة فى الشام والشفقة فى الروم وانما عنى به أهل هذه البلاد وكنا متى نزلنا بهذه البلاد زاوية أو دارا يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء وهن لا يحتجبن فاذا

سافرنا عنهم ودعونا كانهم أقاربنا وأهلنا وترى النساء باكيات لفراقنا متأسفات ومن عادتهم بتلك البلادان يخبزوا الخبز فى يوم واحد من الجمعة يعدون فيه ما يقوتهم سائرها فكان رجالهم يأتون الينا بالخبز الحارفى يوم خبزه ومعه الادام الطيب إطرافا لنا بذلك ويقولون لنا ان النساء بعثن هذا اليكم وهن يطلبن منكم الدعاء وجميع أهل هذه البلاد على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه مقيمين على السنة لاقدرى فيهم ولارافضى ولا معتزلى ولاخارجي ولامبتدع وتلك فضيلة خصهم الله تعالى بها الا انهم يأكلون الحشيش ولا يعيبون ذلك ومدينة العلايا التي ذكرناها كبيرة على ساحل البحر يسكنها التركمان و ينزلها تجار مصر واسكندرية والشام وهى كثيرة الخشب ومنها يحمل الى اسكندرية ودمياط ويحمل منها الى سائر بلاد مصر ولها قلعة باعلاها عجيبة منيعة بناها السلطان المعظم علاء الدين الرومي ولقيت بهذه المدينة قاضيها جلال الدين الارزنجانى وصعد معى الى القلعة يوم الجمعة فصلينا بها وأضافني وأكرمني وأضافنى أيضا بها شمس الدين ابن الرجيحانى الذى توفى أبوه علاء الدين بمالى من بلاد السودان

— ذكر سلطان العلايا —

وفى يوم السبت ركب معى القاضي جلال الدين وتوجهنا الى اقاء ملك العلايا وهو يوسف بك ومعني بك الملك ابن قرمان (بفتح القاف والراء) ومسكنه على عشرة أميال من المدينة فوجدناه قاعدا على الساحل وحده فوق رابية هنالك والامراء والوزراء أسفل منه والاجناد عن يمينه و يساره وهو مخضوب الشعر بالسواد فسلمت عليه وسألنى عن مقدمى فاخبرته عما سأل وانصرفت عنه و بعث الى احسانا وسافرت من هنالك الى مدينة انطالية (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان النون وفتح الطاء المهمل وألف ولام مكسور و ياء آخر الحروف) وأما التي بالشام فهي انطاكية على وزنها الا أن الكاف عوض عن اللام وهى من أحسن المدن متناهية فى اتساع الساحة والضخامة أجمل مايرى من البلاد وأكثره عمارة وأحسنه ترتيبا وكل فرقة من سكانها منفردة بأنفسها عن الفرقة الاخرى فتجار النصارى ساكنون منها بالموضع المعروف بالميناء وعليهم سور تسد أبوابه عليهم ليلا وعند صلاة الجمعة والروم الذين كانوا أهلها قديما ساكنون بموضع آخر منفردين به وعليهم أيضا سور واليهود فى موضع آخر وعليهم سور والملك وأهل دولته ومماليكه يسكنون ببلدة عليها أيضا سور يحيط بها ويفرق بينها وبين ما ذكرناه من الفرق وسائر الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمي وبها مسجد جامع ومدرسة وحمامات كثيرة

وأسواق ضخمة مرتبة بابدع ترتيب وعليها سور عظيم يحيط بها وبجميع المواضع التى ذكرناها وفيها البساتين الكثيرة والفواكه الطيبة والمشمش العجيب المسمى عندهم بقمر الدين وفى نواته لوز حلو وهو ييبس ويحمل الى ديار مصر وهو بها مستظرف وفيها عيون الماء الطيب العذب الشديد البرودة فى أيام الصيف نزلنا من هذه المدينة بمدرستها وشيخها شهاب الدين الحموى ومن عادتهم أن يقرأ جماعة من الصبيان بالاصوات الحسان بعد العصر من كل يوم فى المسجد الجامع وفى المدرسة أيضا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم

— ذكر الاخية الفتيان —

واحد الاخية أخي على لفظ الاخ اذا أضافه المتكلم الى نفسه وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية فى كل بلد ومدينة وقرية ولا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس واسرع الى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والاخذ على أيدي الظلمة وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر والاخي عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الاعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم وتلك هى الفتوة أيضاً ويبني زاوية ويجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج اليه من الآلات ويخدم اصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ويأتون اليه بعد العصر بما يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام الى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية فان ورد فى ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم وكان ذلك ضيافته لديهم ولا يزال عندهم حتى ينصرف وان لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم فاكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا الى صناعتهم بالغدو وأتوا بعد العصر الى مقدمهم بما اجتمع لهم ويسمون بالفتيان ويسمي مقدمهم كما ذكرنا الاخي ولم أر فى الدنيا أجمل أفعالا عنهم ويشبههم فى أفعالهم أهل شيراز واصفهان الا أن هؤلاء أحب فى الوارد والصادر وأعظم اكراما له وشفقة عليه وفى الثانى من يوم وصولنا الى هذه المدينة أتى احد هؤلاء الفتيان الى الشيخ شهاب الدين الحموي وتكلم معه باللسان التركى ولم أكن يومئذ أفهمه وكان عليه أثواب خلقة وعلى رأسه قلنسوة لبد فقال لى الشيخ أتعلم ما يقول هذا الرجل فقلت لا أعلم ماقال فقال لى انه يدعوك الى ضيافته أنت واصحابك فعجبت منه وقلت له نعم فلما انصرف قلت للشيخ هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ولا نريد ان نكلفه فضحك الشيخ وقال لى هذا أحد شيوخ الفتيان الاخية وهو من الخرازين وفيه كرم نفس واصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم وبنوا زاوية للضيافة وما يجتمع لهم بالنهار انفقوه بالليل فلما صليت المغرب عاد الينا ذلك الرجل

وذهبنا معه الى زاويته فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقي وفي المجلس خمسة من البياسيس والبيسوس شبه المنارة من النحاس له أرجل ثلاث وعلى رأسه شبه جلاس من النحاس وفي وسطه أنبوب للفتيلة ويملأ من الشحم المذاب والى جانبه آنية نحاس ملآنة بالشحم وفيها مقراض لاصلاح الفتيل واحدهم موكل بها ويسمى عندهم الخراجي (الجراغجي) وقد اصطف في المجلس جماعة من الشبان ولباسهم الاقبية وفي أرجلهم الاخفاف وكل واحد منهم متحزم على وسطه سكين في طول ذراعين وعلى رؤسهم قلانس بيض من الصوف باعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها في طول ذراع وعرض أصبعين فاذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخاني وسواه حسنة المنظر وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ثم أخذوا في الغناء والرقص فراقنا حالهم وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم وانصرفنا عنهم آخر الليل وتركناهم بزاويتهم

— ذكر سلطان انطالية —

وسلطانها خضر بك بن يونس بك وجدناه عند وصولنا اليها عليلا فدخلنا عليه بداره وهو في فراش المرض فكلمنا بالطف كلام وأحسنه وودعناه وبعث الينا باحسان وسافرنا الى بلدة بردور (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وضم الدال المهمل وواو وراء) وهي بلدة صغيرة كثيرة البساتين والانهار ولها قلعة في رأس جبل شاهق نزلنا بدار خطيبها واجتمعت الاخية وأرادوا نزولنا عندهم فابى عليهم الخطيب فصنعوا لنا ضيافة في بستان لاحدهم وذهبوا بنا اليها فكان من العجائب اظهارهم السرور بنا والاستبشار والفرح وهم لا يعرفون لساننا ونحن لا نعرف لسانهم ولا ترجمان فيما بيننا وأقمنا عندهم يوما وانصرفنا ثم سافرنا من هذه البلدة الى بلدة سبرتا (وضبط اسمها بفتح السين المهمل والباء الموحدة واسكان الراء وفتح التاء المعلوة والف) وهي بلدة حسنة العمارة والاسواق كثيرة البساتين والانهار لها قلعة في جبل شامخ وصلنا اليها بالعشي ونزلنا عند قاضيها وسافرنا منها الى مدينة أكريدور (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الكاف وكسر الراء وياء مد ودال مهمل مضموم وواو مد وراء) مدينة عظيمة كثيرة العمارة حسنة الاسواق ذات أنهار وأشجار وبساتين ولها بحيرة عذبة الماء يسافر المركب

فيها يومين الى أقشهر و بقشهر وغيرهما من البلاد والقرى ونزلنا منها بمدرسة تقابل الجامع الاعظم بها المدرس العالم الحاج المجاور الفاضل مصلح الدين قرأ بالديار المصرية والشام وسكن بالعراق وهو فصيح اللسان حسن البيان أطروفة من طرف الزمان اكرمنا غاية الاكرام وقام بحقنا أحسن قيام

— ذكر سلطان أكريدور —

وسلطانها أبو اسحاق بك بن الدندار بك من كبار سلاطين تلك البلاد سكن ديار مصر أيام أبيه وحج وله سير حسنة ومن عادته انه يأتي كل يوم الى صلاة العصر بالمسجد الجامع فاذا قضيت صلاة العصر استند الى جدار القبلة وقعد القراء بين يديه على مصطبة خشب عالية فقرؤا سورة الفتح والملك وعم باصوات حسان فعالة فى النفوس تخشع لها القلوب وتقشعر الجلود وتدمع العيون ثم ينصرف الى داره وأظلنا عنده شهر رمضان فكان يقعد فى كل ليلة منه على فراش لاصق بالارض من غير سرير ويستند الى مخدة كبيرة ويجلس الفقيه مصلح الدين الى جانبه وأجلس الى جانب الفقيه ويلينا أرباب دولته وامراء حضرته ثم يؤتي بالطعام فيكون أول ما يفطر عليه ثريد فى صحفة صغيرة عليه العدس مسقي بالسمن والسكر ويقدمون الثريد تبركا ويقولون ان النبي صلى الله عليه وسلم فضله على سائر الطعام فنحن نبدأ به لتفضيل النبي له ثم يؤتي بسائر الأطعمة وهكذا فعلهم فى جميع ليالي رمضان وتوفى فى بعض تلك الايام ولد السلطان فلم يزيدوا على بكاء الرحمة كما يفعله أهل مصر والشام خلافا لما قدمناه من فعل أهل اللور حين مات ولد سلطانهم فلما دفن أقام السلطان والطلبة ثلاثة أيام يخرجون الى قبره بعد صلاة الصبح وفى ثاني يوم من دفنه خرجت مع الناس فرآني السلطان ماشيا على رجلي فبعث لى بفرس واعتذر فلما وصلت المدرسة بعثت الفرس فرده وقال انما أعطيته عطية لا عارية وبعث الى بكسوة ودراهم فانصرفنا الى مدينة قل حصار (وضبط اسمها بضم القاف واسكان اللام ثم حاء مهمل مكسور وصاد مهمل وآخره راء) مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب قد نبتت فيها القصب فلا طريق لها الا طريق كالجسر مهيأ ما بين القصب والمياه لا يسع الا فارسا واحدا والمدينة على تل في وسط المياه منيعة لا يقدر عليها ونزلنا بزاوية أحد الفتيان الاخية بها

— ذكر سلطان قل حصار —

وسلطانها محمد جلبي وجلبي (بجيم معقود ولام مفتوحين وباء موحدة وياء) وتفسيره بلسان الروم سيدي وهو أخو السلطان أبي أسحاق ملك أكريدور ولما وصلنا بمدينته كان غائبا

عنها فاقمنا بها أياما ثم قدم فا كرمنا وأركبنا وزدنا وانصرفنا على طريق قرا أغاج وقرا (بفتح القاف) تفسيره أسود (وأغاج بفتح الهمزة والغين المعجم وآخره جيم) تفسيره الخشب وهي صحراء خضرة يسكنها التركمان وبعث معنا السلطان فرسانا يبلغوننا الى مدينة لاذق بسبب ان هذه الصحراء يقطع الطريق فيها طائفة يقال لهم الجرميان يذكرانهم من ذرية يزيد بن معاوية ولهم مدينة يقال لها كوتاهية فعصمنا الله منهم ووصلنا الى مدينة لاذق (وهي بكسر الذال المعجم وبعده قاف) وتسمى أيضا دون غزله وتفسيره بلد الخنازير وهي من أبدع المدن وأضخمها وفيها سبعة من المساجد لاقامة الجمعة ولها البساتين الرائقة والانهار المطردة والعيون المنبعة وأسواقها حسان وتصنع بها ثياب قطن معلمة بالذهب لامثل لها تطول أعمارها لصحة قطنها وقوة غزلها وهذه الثياب معروفة بالنسبة اليها واكثر الصناع بها نساء الروم وبها من الروم كثير تحت الذمة وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها وعلامة الروم بها القلانس الطوال منها الحمر والبيض ونساء الروم لهن عمائم كبار وأهل هذه المدينة لايغيرون المنكر بل كذلك أهل هذا الاقليم كله وهم يشترون الجوارى الروميات الحسان ويتركونهن للفساد وكل واحدة عليها وظيف لمالكها تؤديه له وسمعت هنالك أن الجواري يدخلن الحمام مع الرجال فمن أراد الفساد فعل ذلك بالحمام من غير منكر عليه وذكر لى أن القاضي بها له جوار على هذه الصورة وعند دخولنا لهذه المدينة مررنا بسوق لها فنزل الينا رجال من حوانيتهم وأخذوا باعنة خلينا ونازعهم في ذلك رجال آخرون وطال بينهم النزاع حتى سل بعضهم السكاكين على بعض ونحن لا نعلم مايقولون فخفنا منهم وظننا انهم الجرميان الذين يقطعون الطرق وان تلك مدينتهم وحسبنا انهم يريدون نهبنا ثم بعث الله لنا رجلا حاجا يعرف اللسان العربي فسألته عن مرادهم منا فقال انهم من الفتيان وان الذين سبقوا الينا أولا هم أصحاب الفتى أخي سنان والآخرون اصحاب الفتى أخي طومان وكل طائفة ترغب ان يكون نزولكم عندهم فعجبنا من كرم نفوسهم ثم وقع بينهم الصلح علي المقارعة فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولا فوقعت قرعة أخي سنان وبلغه ذلك فاتي الينا في جماعة من أصحابه فسلموا علينا ونزلنا بزاوية له وأتى بانواع الطعام ثم ذهب بنا الى الحمام ودخل معنا وتولى خدمتي بنفسه وتولى أصحابه خدمة أصحابي يخدم الثلاثة والاربعة الواحد منهم ثم خرجنا من الحمام فاتوا بطعام عظيم وحلواء وفاكهة كثيرة وبعد الفراغ من الاكل قرأ القراء آيات من الكتاب العزيز ثم أخذوا في السماع والرقص وأعلموا السلطان بخبرنا فلما كان من الغد بعث في طلبنا بالعشي

فتوجهنا اليه والي ولده كما نذكره ثم عدنا الى الزاوية فالفينا الاخى طومان وأصحابه في انتظارنا فذهبوا بنا الى زاويتهم ففعلوا فى الطعام والحمام مثل أصحابهم وزادوا عليهم ان صبوا علينا ماء الورد صبا بعد خروجنا من الحمام ثم مضوا بنا الى الزاوية ففعلوا أيضا من الاحتفال في الاطعمة والحلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الاكل ثم السماع والرقص كمثل مافعله أصحابهم أو أحسن وأقمنا عندهم بالزاوية أياما

— ذكر سلطان لاذق —

وهو السلطان ينانج بك (واسمه بياء آخر الحروف مفتوحة ثم نونين أولاهما مفتوحة والثانية مسكنة وجيم) وهو من كبار سلاطين بلاد الروم ولما نزلنا بزاوية أخى سنان كما قدمناه بعث الينا الواعظ المذكر العالم علاء الدين القسطمونى واستصحب معه خيلا بعددنا وذلك فى شهر رمضان فتوجهنا اليه وسلمنا عليه ومن عادة ملوك هذه البلاد التواضع للواردين ولين الكلام وقلة العطاء فصلينا معه المغرب وحضر طعامه فافطرنا عنده وانصرفنا وبعث الينا بدراهم ثم بعث الينا ولده مراد بك وكان ساكنا فى بستان خارج المدينة وذلك فى إبان الفاكهة وبعث أيضا خيلا على عددنا كما فعله أبوه فاتينا بستانه وأقمنا عنده تلك الليلة وكان له فقيه يترجم بيننا وبينه ثم انصرفنا غدوة وأظلنا عيد الفطر بهذه البلدة فخرجنا الى المصلى وخرج السلطان فى عساكره والفتيان الاخية كلهم بالاسلحة ولاهل كل صناعة الاعلام والبوقات والطبول والانفار وبعضهم يفاخر بعضا ويباهيه فى حسن الهيئة وكمال الشكة ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم وأحمال الخبز فيذبحون البهائم بالمقابر ويتصدقون بها وبالخبز ويكون خروجهم أولا الى المقابر ومنها الى المصلى ولما صلينا صلاة العيد دخلنا مع السلطان الى منزله وحضر الطعام فجعل للفقهاء والمشايخ والفتيان سماط على حدة وجعل للفقراء والمساكين سماط على حدة ولا يرد على بابه فى ذلك اليوم فقير ولا غني وأقمنا بهذه البلدة مدة بسبب مخاوف الطريق ثم تهيات رفقة فسافرنا معهم يوما وبعض ليلة ووصلنا الى حصن طواس واسمه (بفتح الطاء وتخفيف الواو وآخره سين مهمل) وهو حصن كبير ويذكران صهيبا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنه من أهل هذا الحصن وكان مبيتنا بخارجه ووصلنا بالغد الي بابه فسالنا أهله من أعلى السور عن مقدمنا فاخبرناهم وحينئذ خرج أمير الحصن الياس بك فى عسكره ليختبر نواحي الحصن والطريق خوفا من اغارة السراق على الماشية فلما طافوا بجهاته خرجت مواشيهم وهكذا فعلهم أبدا ونزلنا من هذا الحصن بربضة فى زاوية رجل فقير وبعث الينا أمير

الحصن بضيافة وزاد وسافرنا منه الى مغلة (وضبط اسمها بضم الميم واسكان الغين المعجم وفتح اللام) ونزلنا بزاوية أحد المشايخ بها وكان من الكرماء الفضلاء يكثر الدخول علينا بزاويته ولا يدخل الا بطعام أو فاكهة أو حلواء ولقينا بهذه البلدة ابراهيم بك ولد سلطان مدينة ميلاس وسنذكره فاكرمنا وكسانا ثم سافرنا الى مدينة ميلاس (وضبط اسمها بكسر الميم وياء مد وآخره سين مهمل) وهى من أحسن بلاد الروم وأضخمها كثيرة الفواكه والبساتين والمياه نزلنا منها بزاوية أحد الفتيان الاخية ففعل أضعاف ما فعله من قبله من الكرامة والضيافة ودخول الحمام وغير ذلك من حميد الافعال وجميل الاعمال ولقينا بمدينة ميلاس رجلا صالحا معمرا يسمى بابى الششترى ذكروا ان عمره يزيد على مائة وخمسين سنة وله قوة وحركة وعقله ثابت وذهنه جيد دعا لنا وحصلت لنا بركته

— ذكر سلطان ميلاس —

وهو السلطان المكرم شجاع الدين أرخان بك ابن المنتشا (وضبط اسمه بضم الهمزة واسكان الراء وخاء معجم وآخره نون) وهو من خيار الملوك حسن الصورة والسيرة جلساؤه الفقهاء وهم معظمون لديه وببابه منهم جماعة منهم الفقيه الخوارزمي عارف بالفنون فاضل وكان السلطان فى أيام لقائى له واجدا عليه بسبب رحلته الى مدينة اياسلوق ووصوله الى سلطانها وقبول ما أعطاه فسال مني هذا الفقيه أن أتكلم عند الملك فى شانه بما يذهب ما فى خاطره فاثنيت عليه عند السلطان وذكرت ما علمته من علمه وفضله ولم أزل به حتى ذهب ما كان يجده عليه وأحسن الينا هذا السلطان وأركبنا وزودنا وسكناه فى مدينة برجين وهى قريبة من ميلاس بينهما ميلان (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة واسكان الراء وجيم وياء مد وآخره نون) وهي جديدة على تل هنالك بها العمارات الحسان والمساجد وكان قد بنى بها مسجدا جامعا لم يتم بناؤه بعد وبهذه البلدة لقيناه ونزلنا منها بزاوية الفتي أخى على ثم انصرفنا بعد ما أحسن الينا كما قدمناه الى مدينة قونية (وضبط اسمها بضم القاف وواو مد ونون مسكن مكسور وياء آخر الحروف) مدينة عظيمة حسنة العمارة كثيرة المياه والانهار والبساتين والفواكه وبها المشمش المسمى بقمر الدين وقد تقدم ذكره ويحمل منه أيضا الى ديار مصر والشام وشوارعها متسعة جدا وأسواقها بديعة الترتيب واهل كل صناعة على حدة ويقال ان هذه المدينة من بناء الاسكندر وهي من بلاد السلطان بدر الدين بن قرمان وسنذكره وقد تغلب عليها صاحب العراق فى بعض الاوقات لقربها من بلاده التى بهذا الاقليم نزلنا منها بزاوية قاضيها ويعرف بابن قلم شاه

بوهـ ومن الفتيان وزاو يته من أعظم الزوايا وله طائفة كبيرة من التلاميذ ولهم في الفتوة سند يتصل الى امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ولباسها عندهم السراو يل كما تلبس الصوفية الخرقة وكان صنيع هـذا القاضي في اكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله واجمل وبعث ولده عوضاً عنه لدخول الحمام معنا وبهـذه المدينة تربة الشيخ الامام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا وكان كبير القدر وبأرض الروم طائفة ينتمون اليه ويعرفون باسمه فيقال لهم الجلالية كما تعرف الاحمدية بالعراق والحيدرية بخراسان وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد والصادر

— حكاية —

يذكر انه كان في ابتداء أمره فقيها مدرسا يجتمع اليه الطلبة بمدرسته بقونية فدخل يوما الى المدرسة رجل يبيع الحلواء وعلى رأسه طبق منها وهي مقطعة قطعا يبيع القطعة منها بفلس فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ هات طبقك فأخذ الحلواني قطعة منه وأعطاها للشيخ فأخذها الشيخ بيده وأكلها فخرج الحلواني ولم يطعم أحدا سوى الشيخ فخرج الشيخ في اتباعه وترك التدريس فأبطأ على الطلبة وطال انتظارهم اياه فخرجوا في طلبه فلم يعرفوا له مستقراً ثم انه عاد اليهم بعد أعوام وصار لا ينطق الا بالشعر الفارسي المتعلق الذي لا يفهم فكان الطلبة يتبعونه ويكتبون مايصدر عنه من ذلك الشعر وألفوا منه كتابا سموه المثنوي وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ويعتبرون كلامه ويعلمونه ويقرؤنه بزواياهم في ليالي الجمعات وفي هذه المدينة أيضاً قبر الفقيه أحمد الذي يذكر انه كان معلم جلال الدين المذكور ثم سافرنا الى مدينة اللارندة وهي (بفتح الراء التي بعد الالف واللام واسكان النون وفتح الدال المهمل) مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين

— ذكر سلطان اللارندة —

وسلطانها الملك بدر الدين بن قرمان (بفتح القاف والراء) وكانت قبله لشقيقه موسي فنزل عنها للملك الناصر وعوضه عنها بعوض وبعث اليها أميرا وعسكرا ثم تغلب عليها السلطان بدر الدين وبنى بها دار مملكته واستقام أمره بها ولقيت هذا السلطان خارج المدينة وهو عائد من تصيده فنزلت له عن دابتي فنزل هو عن دابته وسلمت عليه وأقبل علي ومن عادة ملوك هـذه البلاد انه اذا نزل لهم الوارد عن دابته نزلوا له وأعجبهم فعله وزادوا في اكرامه وان سلم عليهم راكبا ساءهم ذلك ولم يرضهم ويكون سببا لحرمان الوارد وقد جرى لي ذلك مع بعضهم وسأذكره ولما سلمت عليه وركب وركبت سألني عن حالي وعن مقدمي ودخلت معه المدينة فأمر بانزالي أحسن نزل وكان يبعث الطعام

الكثير والفاكهة والحلواء في طيافير الفضة والشمع وكساوا ركب واحسن ولم يطل مقامنا عنده وانصرفنا الى مدينة أقصرا (وضبطها بفتح الهمزة وسكون القاف وفتح الصاد المهمل والراء) وهى من أحسن بلاد الروم وأتقنها تحف بها العيون الجارية والبساتين من كل ناحية ويشق المدينة ثلاثة أنهار و يجرى الماء بدورها وفيها الاشجار ودوالى العنب وداخلها بساتين كثيرة وتصنع بها البسط المنسوبة اليها من صوف الغنم لامثل لها في بلد من البلاد ومنها تحمل الي الشام ومصر والعراق والهند والصين وبلاد الاتراك وهذه المدينة في طاعة ملك العراق ونزلنا منها بزاوية الشريف حسين النائب بها عن الامير أرتنا وأرتنا هو النائب عن ملك العراق فيما تغلب عليه من بلاد الروم وهذا الشريف من الفتيان وله طائفة كثيرة وأكرمنا اكراما متناهيا وفعل أفعال من تقدمه ثم رحلنا الى مدينة نكدة (وضبط اسمها بفتح النون واسكان الكاف ودال مهمل مفتوح) وهى من بلاد ملك العراق مدينة كبيرة كثيرة العمارة قد تخرب بعضها و يشقها النهر المعروف بالنهر الاسود وهو من كبار الانهار عليه ثلاث قناطر احداها بداخل المدينة وثنتان بخارجها وعليه النواعير بالداخل والخارج منها تسقي البساتين والفواكه بها كثيرة و نزلنا منها بزاوية الفتى أخي جاروق وهو الامير بها فأكرمنا على عادة الفتيان وأقمنا بها ثلاثا وسرنا منها بعد ذلك الى مدينة قيسارية وهي من بلاد صاحب العراق وهى احدى المدن العظام بهذا الاقليم بها عسكر أهل العراق واحدى خواتين الامير علاء الدين ارتنا المذكور وهي من أكرم الخواتين وأفضلهن ولها نسبة من ملك العراق وتدعى أغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعني أغا الكبير وكل من بينه و بين السلطان نسبة يدعى بذلك واسمها طغي خاتون ودخلنا اليها فقامت لنا وأحسنت السلام والكلام وامرت باحضار الطعام فأكلنا ولما انصرفنا بعثت لنا بفرس مسرج ملجم وخلعة ودراهم مع أحد غلمانها واعتذرت ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى الاخي أمير علي وهو أمير كبير من كبار الاخية بهذه البلاد وله طائفة تتبعه من وجوه المدينة وكبرائها وزاويته من أحسن الزوايا فرشا وقناديل وطعاما كثيرا واتقانا والكبراء من أصحابه وغيرهم يجتمعون كل ليلة عنده و يفعلون في اكرام الوارد أضعاف ما يفعله سواهم ومن عوائد هذه البلاد انه ما كان منها ليس به سلطان فالاخي هو الحاكم به وهو يركب الوارد و يكسوه ويحسن اليه على قدره وترتيبه في أمره ونهيه وركوبه ترتيب الملوك ثم سافرنا الى مدينة سيواس (وضبط اسمها بكسر السين المهمل وياء مد وآخره سين مهمل) وهى من بلاد ملك العراق وأعظم ماله بهذا الاقليم

من البلاد وبها منزل أمرائه وعماله مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع أسواقها غاصة الناس وبها دار مثل المدرسة تسمى دار السيادة لا ينزلها الا الشرفاء ونقيبهم ساكن بها وتجري لهم فيها مدة مقامهم الفرش والطعام والشمع وغيره فيزودون اذا انصرفوا ولما قدمنا الى هذه المدينة خرج الى لقائنا أصحاب الفتى أخي أحمد بجقجي وبجق بالتركية السكين وهذا منسوب اليه والجيمان منه معقودان بينهما قاف وباؤه مكسورة وكانوا جماعة منهم الركبان والمشاة ثم لقينا بعدهم أصحاب الفتى أخي جلبي وهو من كبار الاخية وطبقته أعلى من طبقة أخي بجقجي فطلبوا ان ننزل عندهم فلم يمكن لي ذلك لسبق الاولين ودخلنا المدينة معهم جميعا وهم يتفاخرون والذين سبقوا الينا قد فرحوا اشد الفرح بنزولنا عندهم ثم كان من صنيعهم في الطعام والحمام والمبيت مثل صنيع من تقدم وأقمنا عندهم ثلاثة في أحسن ضيافة ثم أتانا القاضي وجماعة من الطلبة ومعهم خيل الامير علاء الدين أرتنا نائب ملك العراق ببلاد الروم فركبنا اليه واستقبلنا الامير الى دهليز داره فسلم علينا ورحب وكان فصيح اللسان بالعربية وسالني عن العراقين وأصبهان وشيراز وكرمان وعن السلطان أتابك وبلاد الشام ومصر وسلاطين التركمان وكان مراده أن أشكر الكريم منهم وأذم البخيل فلم أفعل ذلك بل شكرت الجميع فسر بذلك مني وشكرني عليه ثم أحضر الطعام فاكلنا وقال تكونون في ضيافتي فقال له الفتى أخي جلبي انهم لم ينزلوا بعد بزاويتي فليكونوا عندي وضيافتك تصلهم فقال افعل فانتقلنا الى زاويته وأقمنا بها ستا في ضيافته وفي ضيافة الامير ثم بعث الامير بفرس وكسوة ودراهم وكتب لنوابه بالبلاد ان يضيفونا ويكرمونا ويزودونا وسافرنا الى مدينة أماصية (وضبط اسمها بفتح الهمزة والميم وألف وصاد مهمل مكسور وياء آخر الحروف مفتوحة) مدينة كبيرة حسنة ذات أنهار وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة وعلى أنهارها النواعير تسقي جنانها ودورها وهي فسيحة الشوارع والاسواق وملكها صاحب العراق ويقرب منها بلدة سونسي (وضبط اسمها بضم السين المهمل وواو مد ونون مضموم وسين مهمل مفتوح) وهي لصاحب العراق أيضا وبها سكنى أولاد ولي الله تعالى أبي العباس أحمد الرفاعي منهم الشيخ عز الدين وهو الآن شيخ الرواق وصاحب سجادة الرفاعي واخوته الشيخ علي والشيخ ابراهيم والشيخ يحيى أولاد الشيخ أحمد كوجك ومعناه الصغير ابن تاج الدين الرفاعي ونزلنا بزاويتهم ورأينا لهم الفضل على من سواهم ثم سافرنا الى مدينة كمش (وضبط اسمها بضم الكاف وكسر الميم وشين معجم) وهي من بلاد ملك العراق مدينة كبيرة عامرة ياتيها التجار من العراق والشام وبها معادن

الفضة وعلى مسيرة يومين منها جبال شامخة وعرة لم أصل اليها ونزلنا منها بزاوية الاخي مجد الدين وأقمنا بها ثلاثا فى ضيافته وفعل أفعال من قبله وجاء الينا نائب الامير أرتنا وبعث بضيافة وزاد وانصرفنا على تلك البلاد فوصلنا الى ارزنجان (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الراء وفتح الزاى وسكون النون وجيم وألف ونون) وهي من بلاد صاحب العراق مدينة كبيرة عامرة وأكثر سكانها الارمن والمسلمون يتكلمون بها بالتركية ولها أسواق حسنة الترتيب ويصنع بها ثياب حسان تنسب اليها وفيها معادن النحاس ويصنعون منه الاواني والبياسيس التي ذكرناها وهي شبه المنار عندنا ونزلنا منها بزاوية الفتى أخي نظام الدين وهي من أحسن الزوايا وهو أيضا من خيار الفتيان وكبارهم أضافنا أحسن ضيافة وانصرفنا الى مدينة أرز الروم وهي من بلاد ملك العراق كبيرة الساحة خربة أكثرها بسبب فتنة وقعت بين طائفتين من التركمان بها ويشقها ثلاثة أنهار وفى أكثر دورها بساتين فيها الاشجار والدوالي ونزلنا منها بزاوية الفتى أخي طومان وهو كبير السن يقال انه أناف على مائة وثلاثين سنة ورأيته يتصرف على قدميه متوكئا على عصا ثابت الذهن مواظبا للصلاة فى أوقاتها لم ننكر من نفسه شيا الا أنه لا يستطيع الصوم وخدمنا بنفسه فى الطعام وخدمنا أولاده فى الحمام وأردنا الانصراف عنه ثاني يوم نزولنا فشق عليه ذلك وأبى منه وقال ان فعلتم نقصتم حرمتي وان أقل الضيافة ثلاث فاقمنا لديه ثلاثا ثم انصرفنا الى مدينة بركي (وضبط اسمها بباء موحدة مكسورة وكاف معقود مكسور بينهما راء مسكن) ووصلنا اليها بعد العصر فلقينا رجلا من اهلها فسالناه عن زاوية الاخي بها فقال انا ادلكم علينا فاتبعناه فذهب بنا الى منزل نفسه فى بستان له فانزلنا با على سطح بيته والاشجار مظللة وذلك أوان الحر الشديد واتي الينا بانواع الفاكهة واحسن فى ضيافته وعلف دوابنا وبتنا عنده تلك الليلة وكنا قد تعرفنا ان بهذه المدينة مدرسا فاضلا يسمى بمحيي الدين فاتي بنا ذلك الرجل الذى بتنا عنده وكان من الطلبة الى المدرسة واذا بالمدرس قد اقبل راكبا على بغلة فارهة ومماليكه وخدامه عن جانبيه والطلبة بين يديه وعليه ثياب مفرجة حسان مطرزة بالذهب فسلمنا عليه فرحب بنا واحسن السلام والكلام وامسك بيدى واجلسنى الى جانبه ثم جاء القاضي عز الدين فرشتي ومعنى فرشتي الملك لقب بذلك لدينه وعفافه وفضله فقعد عن يمين المدرس واخذ فى تدريس العلوم الاصلية والفرعية ثم لما فرغ من ذلك اتى دويرة بالمدرسة فامر بفرشها وانزلنى فيها وبعث ضيافة حافلة ثم وجه الينا بعد المغرب فمضيته

اليه فوجدته فى مجلس ببستان له وهنالك صهريج ماء ينحدر اليه الماء من خصة رخام أبيض يدور بها القاشاني وبين يديه جملة من الطلبة ومماليكه وخدامه وقوف عن جانبيه وهو قاعد على مرتبة عليها أقطاع منقوشة حسنة فخلته لما شاهدته ملكا من الملوك فقام الى واستقبلني وأخذ بيدى وأجلسني الى جانبه على مرتبته وأتي بالطعام فاكلنا وانصرفنا الى المدرسة وذكر لي بعض الطلبة ان جميع من حضر تلك الليلة من الطلبة عند المدرس فعادتهم الحضور لطعامه كل ليلة وكتب هذا المدرس الى السلطان يخبره وأثنى فى كتابه والسلطان فى جبل هنالك يصيف فيه لاجل شدة الحر وذلك الجبل بارد وعادته أن يصيف فيه

— ذكر سلطان بركى —

وهو السلطان محمد بن آيدين من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلائهم ولما بعث اليه المدرس يعلمه بخبري وجه نائبه الى لآتيه فاشار على المدرس ان أقيم حتى يبعث عني ثانية وكان المدرس اذذاك قد خرجت برجله قرحة لا يستطيع الركوب بسببها وانقطع عن المدرسة ثم ان السلطان بعث فى طلبي ثانية فشق ذلك على المدرس فقال أنا لا أستطيع الركوب ومن غرضي التوجه معك لاقرر لدى السلطان مايجب لك ثم انه تحامل ولف على رجله خرقا وركب ولم يضع رجله فى الركاب وركبت أنا وأصحابي وصعدنا الى الجبل فى طريق قد نحتت وسويت فوصلنا الى موضع السلطان عند الزوال فنزلنا على نهر ماء تحت ظلال شجر الجوز وصادفنا السلطان فى قلق وشغل بال بسبب فرار ابنه الاصغر سليمان عنه الى صهره السلطان أرخان بك فلما بلغه خبر وصولنا بعث الينا ولديه خضر بك وعمر بك فسلما على الفقيه وأمرهما بالسلام على ففعلا ذلك وسألاني عن حالي ومقدمي وانصرفا وبعث الى ببيت يسمي عندهم الخرقة (خركاه) وهو عصى من الخشب تجمع شبه القبة وتجعل عليها اللبود ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح مثل البادهنج ويسد متى احتيج الى سده وأتوا بالفرش ففرشوه وقعد الفقيه وقعدت معه وأصحابه وأصحابي خارج البيت تحت ظلال شجر الجوز وذلك الموضع شديد البرد ومات لى تلك الليلة فرس من شدة البرد ولما كان من الغد ركب المدرس الى السلطان وتكلم فى شاني بما اقتضته فضائله ثم عاد الى وأعلمني بذلك وبعد ساعة وجه السلطان فى طلبنا معا فجئنا الى منزله ووجدناه قائما فسلمنا عليه وقعد الفقيه عن يمينه وأنا مما يلى الفقيه فسالني عن حالي ومقدمي وسالني عن الحجاز ومصر والشام واليمن والعراقين وبلاد الاعاجم ثم حضر الطعام فاكلنا وانصرفنا وبعث الارز والدقيق والسمن في كروش الاغنام وكذلك فعل الترك وأقمنا على تلك الحال أياما يبعث

الينا في كل يوم فنحضر طعامه وأتى يوما الينا بعد الظهر وقعد الفقيه في صدر المجلس وأنا عن
يساره وقعد السلطان عن يمين الفقيه وذلك لعزة الفقهاء عند الترك وطلب مني ان أكتب له
أحاديث من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتبتها له وعرضها الفقيه عليه في تلك
الساعة فامره ان يكتب له شرحها باللسان التركي ثم قام فخرج ورأى الخدام يطبخون لنا
الطعام تحت ظلال الجوز بغير ابزار ولا خضر فامر بعقاب صاحب خزانته وبعث بالابزار
والسمن وطالت إقامتنا بذلك الجبل فادركني الملل وأردت الانصراف وكان الفقيه أيضا
قد مل من المقام هنالك فبعث الى السلطان يخبره اني أريد السفر فلما كان من الغد بعث
السلطان نائبه فتكلم مع المدرس بالتركية ولم أكن اذ ذاك أفهمها فاجابه عن كلامه
وانصرف فقال لى المدرس أتدري ماذا قال قلت لا أعرف ما قال قال ان السلطان بعث
الى ليسالني ماذا يعطيك فقلت له عنده الذهب والفضة والخيل والعبيد فليعطه ما أحب من
ذلك فذهب الى السلطان ثم عاد الينا فقال ان السلطان يامر ان تقيما هنا اليوم وتنزلا معه
غدا الى داره بالمدينة فلما كان من الغد بعث فرسا جيدا من مراكبه ونزل ونحن معه
الى المدينة فخرج الناس لاستقباله وفيهم القاضي المذكور آنفا وسواه ودخل السلطان ونحن
معه فلما نزل بباب داره ذهبت مع المدرس الى ناحية المدرسة فدعانا وأمرنا بالدخول
معه الى داره فلما وصلنا الى دهليز الدار وجدنا من خدامه نحو عشرين صورهم فائقة
الحسن وعليهم ثياب الحرير وشعورهم مفروقة مرسلة والوانهم ساطعة البياض مشربة
بحمرة فقلت للفقيه ما هذه الصور الحسان فقال هؤلاء فتيان روميون وصعدنا مع السلطان
درجا كثيرة الى ان انتهينا الى مجلس حسن في وسطه صهريج ماء وعلى كل ركن من
أركانه صورة سبع من نحاس يمج ماء من فيه وتدور بهذا المجلس مصاطب متصلة مفروشة
وفوق احداها مرتبة السلطان فلما انتهينا اليها نحى السلطان مرتبته بيده وقعد معنا على
الانطاع وقعد الفقيه عن يمينه والقاضي مما يلي الفقيه وأنا مما يلي القاضي وقعد القراء أسفل
المصطبة والقراء لا يفارقونه حيث كان من مجالسه ثم جاؤا بصحاف من الذهب والفضة
مملوءة بالجلاب المحلول قد عصر فيه ماء الليمون وجعل فيه كعكات صغار مقسومة وفيها
ملاعق ذهب وفضة وجاؤا معها بصحاف صيني فيها مثل ذلك وفيها ملاعق خشب فمن
تورع استعمل صحاف الصيني وملاعق الخشب وتكلمت بشكر السلطان وأثنيت على الفقيه
وبالغت في ذلك فاعجب ذلك السلطان وسره

حكاية

وفي اثناء قعودنا مع السلطان اتى شيخ على رأسه عمامة لها ذؤابة فسلم عليه وقام له

القاضى و الفقيه وقعد امام السلطان فوق المصطبة والقراء أسفل منه فقلت للفقيه من هذا الشيخ فضحك وسكت ثم أعدت السؤال فقال لى هذا يهودي طبيب وكلنا محتاج اليه فلاجل هذا فعلنا ما رأيت من القيام له فاخذنى ماحدث وقدم من الامتعاض فقلت لليهودى ياملعون ابن ملعون كيف تجلس فوق قراء القرآن وأنت يهودى وشتمته ورفعت صوتى فعجب السلطان وسال عن معنى كلامي فاخبره الفقيه به وغضب اليهودى فخرج عن المجلس فى أسوإ حال ولما انصرفنا قال لى الفقيه أحسنت بارك الله فيك ان أحدا سواك لا يتجاسر على مخاطبته بذلك و لقد عرفته بنفسه

— حكاية أخرى —

وسالنى السلطان فى هذا المجلس فقال لى هل رأيت قط حجرا نزل من السماء فقلت ما رأيت ذلك ولا سمعت به فقال لى انه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء ثم دعا رجالا وأمرهم ان ياتوا بالحجر فاتوا بحجر أسود أصم شديد الصلابة له بريق قدرت ان زنته تبلغ قنطارا وأمر السلطان باحضار القطاعين فحضر أربعة منهم فامرهم أن يضربوه فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرات بمطارق الحديد فلم يؤثروا فيه شيا فعجبت من أمره وأمر برده الى حيث كان وفى ثالث يوم من دخولنا الى المدينة مع السلطان صنع صنيعا عظيما ودعا الفقهاء والمشايخ وأعيان العسكر ووجوه أهل المدينة فطعموا وقرأ القراء القرآن بالاصوات الحسان وعدنا الى منزلنا بالمدرسة وكان يوجه الطعام والفاكهة والحلواء والشمع فى كل ليلة ثم بعث الى مائة مثقال ذهبا والف درهم وكسوة كاملة وفرسا ومملوكا روميا يسمي ميخائيل وبعث لكل من أصحابى كسوة ودراهم كل هذا بمشاركة المدرس محيي الدين جزاه الله تعالى خيرا وودعنا وانصرفنا وكانت مدة مقامنا عنده بالجبل والمدينة أربعة عشر يوما ثم قصدنا مدينة تيرة وهي من بلاد هذا السلطان (وضبط اسمها بكسر التاء المعلوة وياء مد وراء) مدينة حسنة ذات أنهار وبساتين وفواكه نزلنا منها بزاوية الفتى أخى محمد وهو من كبار الصالحين صائم الدهر وله أصحاب على طريقته فاضافنا ودعا لنا وسرنا الى مدينة أياسلوق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والياء آخر الحروف وسين مهمل مضموم ولام مضموم وآخره قاف) مدينة كبيرة قديمة معظمة عند الروم وفيها كنيسة كبيرة مبنية بالحجارة الضخمة ويكون طول الحجر منها عشرة أذرع فمادونها منحوتة أبدع نحت و المسجد الجامع بهذه المدينة من أبدع مساجد الدنيا لا نظير له في الحسن وكان كنيسة للروم معظمة عندهم يقصدونها من البلاد فلما فتحت هذه المدينة جعلها المسلمون مسجدا

جامعا وحيطانه من الرخام الملون وفرشه الرخام الابيض وهو مسقف بالرصاص وفيه احدى عشرة قبة منوعة في وسط كل قبة صهريج ماء والنهر يشقه وعن جانبي النهر الاشجار المختلفة الاجناس ودوالي العنب ومعرشات الياسمين وله خمسة عشر بابا وأمير هذه المدينة خضر بك ابن السلطان محمد بن آيدين وقد كنت رأيته عند أبيه ببيركي ثم لقيته بهذه المدينة خارجها فسلمت عليه وانا راكب فكره ذلك مني وكان سبب حرماني لديه فان عادتهم اذا نزل لهم الوارد نزلوا له وأعجبهم ذلك ولم يبعث الى الا ثوبا واحدا من الحرير المذهب يسمونه النخ (بفتح النون وخاء معجم) واشتريت بهذه المدينة جارية رومية بكرا باربعين دينارا ذهبا ثم سرنا الى مدينة يزمير (وضبط اسمها بياء آخر الحروف مفتوحة وزاي مسكن وميم مكسورة وياء مد وراء) مدينة كبيرة على ساحل البحر معظمها خراب ولها قلعة متصلة باعلاها نزلنا منها بزاوية الشيخ يعقوب وهو من الاحمدية صالح فاضل ولقينا بخارجها الشيخ عزالدين بن أحمد الرفاعي ومعه زاده الاخلاطي من كبار المشايخ ومعه مائة فقير من المولهين وقد ضرب لهم الامير الاخبية وصنع لهم الشيخ يعقوب ضيافة وحضرتها واجتمعت بهم وأمير هذه المدينة عمر بك ابن السلطان محمد بن آيدين المذكور آنفا وسكناه بقلعتها وكان حين قدومنا عليها عند أبيه ثم قدم بعد خمس من نزولنا بها فكان من مكارمه ان أتى الي بالزاوية فسلم علي واعتذر وبعث ضيافة عظيمة وأعطاني بعد ذلك مملوكا روميا خماسيا اسمه نقوله وثوبين من الكمخا وهي ثياب حرير تصنع ببغداد وتبريز ونيسابور وبالصين وذكر لي الفقيه الذي يؤم به ان الامير لم يبق له مملوك سوي ذلك المملوك الذى أعطانى بسبب كرمه رحمه الله وأعطى أيضا للشيخ عزالدين ثلاثة أفراس مجهزة وآنية فضة كبيرة تسمي عندهم المشربة مملوءة دراهم وثيابا من الملف والمرعز والقسي والكمخا وجوارى وغلمانا وكان هذا الامير كريما صالحا كثير الجهاد له أجفان غزوية يضرب بها على نواحي القسطنطينية العظمي فيسبي ويغنم ويفنى ذلك كرما وجودا ثم يعود الى الجهاد الى ان اشتدت على الروم وطاته فرفعوا أمرهم الى البابا فامر نصارى جنوة وافرانسة بغزوه فغزوه وجهز جيشا من رومية وطرقوا مدينته ليلا فى عدد كثير من الاجفان وملكوا المرسى والمدينة ونزل اليهم الامير عمر من القلعة فقاتلهم فاستشهد هو وجماعة من ناسه واستقر النصاري بالبلد ولم يقدروا على القلعة لمنعتها ثم سافرنا من هذه المدينة الى مدينة مغنيسية (وضبط اسمها بميم مفتوحة وغين معجمة مسكنة ونون مكسورة وياء مد وسين مهملة مكسورة وياء آخر الحروف

مشددة) نزلنا بها عشى يوم عرفة بزاوية رجل من الفتيان وهى مدينة كبيرة حسنة فى سفح جبل و بسيطها كثير الانهار والعيون والبساتين والفواكه

— ذكر سلطان مغنيسية —

وسلطانها يسمى صاروخان ولما وصلنا الى هذه البلدة وجدناه بتربة ولده وكان قد توفى منذ أشهر فكان هو وأم الولد ليلة العيد وصبيحتها بتربته والولد قد صبر وجعل فى تابوت خشب مغشى بالحديد المقزدر وعلق فى قبة لا سقف لها لان تذهب رائحته وحينئذ تسقف القبة ويجعل تابوته ظاهراً على وجه الارض وتجعل ثيابه عليه وهكذا رأيت غيره أيضا من الملوك فعل وسلمنا عليه بذلك الموضع وصلينا معه صلاة العيد وعدنا الى الزاوية فأخذ الغلام الذى كان لى افراسنا وتوجه مع غلام لبعض الاصحاب برسم سقيها فأبطأ ثم لما كان العشى لم يظهر لهما أثر وكان بهذه المدينة الفقيه المدرس الفاضل مصلح الدين فركب معى الى السلطان وأعلمناه بذلك فبعث فى طلبهما فلم يوجدا واشتغل الناس في عيدهم وقصدا مدينة للكفار على ساحل البحر تسمي فوجة على مسيرة يوم من مغنيسية وهؤلاء الكفار فى بلد حصين وهم يبعثون هدية فى كل سنة الى سلطان مغنيسية فيقنع منهم بها لحصانة بلدهم فلما كان بعد الظهر أتى بهما بعض الاتراك وبالافراس وذكروا انهما اجتازا بهم عشية النهار فانكروا أمرهما واشتدوا عليهما حتي أقرا بما عزما عليه من الفرار ثم سافرنا من مغنيسية و بتنا ليلة عند قوم من التركمان قد نزلوا فى مرعى لهم ولم نجد عندهم ما نعلف به دوابنا تلك الليلة وبات اصحابنا يحترسون مداولة بينهم خوف السرقة فاتت نوبة الفقيه عفيف الدين التوزرى فسمعته يقرأ سورة البقرة فقلت له اذا أردت النوم فاعلمني لانظر من يحرس ثم نمت فما أيقظني الا الصباح وقد ذهب السراق بفرس لى كان يركبه عفيف الدين بسرجه ولجامه وكان من جياد الخيل اشتريته باياسلوق ثم رحلنا من الغد فوصلنا الى مدينة برغمة (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة وراء مسكنة وغين معجمة مفتوحة وميم مفتوحة) مدينة خربة لها قلعة عظيمة منيعة باعلى جبل ويقال ان افلاطون الحكيم من أهل هذه المدينة وداره تشتهر باسمه الى الآن ونزلنا منها بزاوية فقير من الاحمدية ثم جاء أحد كبراء المدينة فنقلنا الي داره وأكرمنا اكراما كثيرا

— ذكر سلطان برغمة —

وسلطانها يسمى يخشى خان بكسر الشين وخان عندهم هو السلطان و يخشى (بياء آخر الحروف وخاء معجم وشين معجم مكسور) ومعناه جيد صادفناه فى مصيف له فاعلم

بقدومنا فبعث بضيافة وثوب قدسى ثم اكتر ينامن يدلناعلى الطريق وسرنا فى جبال شامخة وعرة الى أن وصلنا الى مدينة بلى كسرى (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة ولام مكسور وياء مدوكاف مفتوح وسين مهمل مسكن وراء مكسور وياء) مدينة حسنة كثيرة العمارات مليحة الاسواق ولا جامع لها يجمع فيه وأرادوا بناء جامع خارجها متصل بها فبنوا حيطانه ولم يجعلوا له سقفا وصاروا يصلون به ويجتمعون تحت ظلال الاشجار ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى أخى سنان وهو من أفاضلهم وأتى الينا قاضيها وخطيبها الفقيه موسى

ذكر سلطان بلى كسري

ويسمي دمورخان ولا خير فيه وأبوه هو الذى بني هذه المدينة وكثرت عمارتها بمن لا خير فيه في مدة ابنه هذا والناس على دين الملك ورايته وبعث الى ثوب حرير واشتريت بهذه المدينة جارية رومية تسمي مرغليطة ثم سرنا الى مدينة برصى (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وفتح الصاد المهمل) مدينة كبيرة عظيمة حسنة الاسواق فسيحة الشوارع تحفها البساتين من جميع جهاتها والعيون الجارية وبخارجها نهر شديد الحرارة يصب في بركة عظيمة وقد بنى عليها بيتان أحدهما للرجال والآخر للنساء والمرضى يستشفون بهذه الحمة ويأتون اليها من أقاصي البلاد وهنالك زاوية للواردين ينزلون بها ويطعمون مدة مقامهم وهي ثلاثة أيام عمر هذه الزاوية أحد ملوك التركمان ونزلنا فى هذه المدينة بزاوية الفتى أخي شمس الدين من كبار الفتيان ووافقنا عنده يوم عاشوراء فصنع طعاما كثيراً ودعا وجوه العسكر وأهل المدينة ليلا وأفطروا عنده وقرأ القراء بالاصوات الحسنة وحضر الفقيه الواعظ مجد الدين القونوى ووعظ وذكر وأحسن ثم أخذوا فى السماع والرقص وكانت ليلة عظيمة الشأن وهذا الواعظ من الصالحين يصوم الدهر ولا يفطر الا فى كل ثلاثة أيام ولا يأكل الا من كد يمينه ويقال انه لم يأكل طعام أحد قط ولا منزل له ولا متاع الا ما يستتر به ولا ينام الا فى المقبرة ويعظ فى المجالس ويذكر فيتوب علي يديه في كل مجلس الجماعة من الناس وطلبته بعد هذه الليلة فلم أجده وأتيت الجبانة فلم أجده ويقال انه يأتيها بعد هجوع الناس

حكايه

لما حضرنا ليلة عاشوراء بزاوية شمس الدين وعظ بها مجد الدين من آخر الليل فصاح أحد الفقراء صيحة غشي عليه منها فصبوا عليه ماء الورد فلم يفق فأعادوا عليه ذلك فلم يفق واختلفت الناس فيه فمن قائل انه ميت ومن قائل انه مغشى عليه وأتم الواعظ كلامه وقرأ القراء وصلينا الصبح وطلعت الشمس فاختبروا حال الرجل فوجدوه فارق

الدنيارحمه الله فاشتغلوا بغسله وتكفينه وكنت فيمن حضر الصلاة عليه ودفنه وكان هذا الفقير يسمي الصياح وذكروا انه كان يتعبد بغار هنالك في جبل فمتي علم ان الواعظ مجدالدين يعظ قصده وحضر وعظه ولم يأكل طعام أحد فاذا وعظ مجدالدين يصيح ويغشى عليه ثم يفيق فيتوضا ويصلي ركعتين ثم اذا سمع الواعظ صاح يفعل ذلك مراراً في الليلة وسمي الصياح لاجل ذلك وكان أعذر اليد والرجل لا قدرة له على الخدمة وكانت له والدة تقوته من غزلها فلما توفيت اقتات من نبات الارض ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح عبدالله المصرى السائح وهو من الصالحين جال الارض الا انه لم يدخل الصين ولا جزيرة سرنديب ولا المغرب ولا الاندلس ولا بلاد السودان وقد زدت عليه بدخول هذه الاقاليم

— ذكر سلطان برصا —

وسلطانها اختيار الدين أرخان بك وأرخان (بضم الهمزة وخاء معجم) ابن السلطان عثمان جوق (وجوق بجيم معقود مضموم وآخره قاف) وتفسيره بالتركية الصغير وهذا السلطان أكبر ملوك التركمان وأكثرهم مالا وبلادا وعسكراً له من الحصون ما يقارب مائة حصن وهو في أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليها ويقيم بكل حصن منها أياما لاصلاح شؤونه وتفقد حاله ويقال انه لم يقم قط شهراً كاملا ببلد ويقاتل الكفار ويحاصره ووالده هو الذى استفتح مدينة برصا من أيدي الروم وقبره بمسجدها وكان مسجدها كنيسة للنصارى ويذكر انه حاصر مدينة برتيك نحو عشرين سنة ومات قبل فتحها فحاصرها ولده هذا الذى ذكرناه اثنتي عشرة سنة وافتتحها وبها كان لقائي له وبعث الى بدراهم كثيرة ثم سافرنا الى مدينة يزنيك (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف وإسكان الزاى وكسر النون وياء مد وكاف) وبتنا قبل الوصول اليها ليلة بقرية تدعي كرلة بزاوية فتى من الاخية ثم سرنا من هذه القرية يوما كاملا في انهار ماء على جوانبها أشجار الرمان الحلو والحامض ثم وصلنا الى بحيرة ماء تنبت القصب على ثمانية أميال من يزنيك لا يستطاع دخولها الا على طريق واحد مثل الجسر لا يسلك عليها الا فارس واحد وبذلك امتنعت هذه المدينة والبحيرة محيطة بها من جميع الجهات وهى خاوية على عروشها لا يسكن بها الا أناس قليلون من خدام السلطان وبها زوجته بيون خاتون وهى الحاكمة عليهم امرأة صالحة فاضلة وعلى المدينة أسوار أربعة بين كل سورين خندق وفيه الماء ويدخل اليها على جسور خشب متى أرادوا رفعها رفعوها وبداخل المدينة البساتين والدور والارض والمزارع فلكل انسان داره ومزرعته وبستانه مجموعة وشربها من آبار بها قريبة وبها من

جميع أصناف الفواكه والجوز والقسطل عندهم كثير جدا رخيص الثمن ويسمون القسطل قسطنة بالنون والجوز القوز بالقاف وبها العنب العذارى لم أر مثله فى سواها متناهى الحلاوة عظيم الجرم صافى اللون رقيق القشر للحبة منه نواة واحدة انزلنا بهذه المدينة الفقيه الامام الحاج المجاور علاء الدين السلطانيوكى وهو شيخ الفضلاء الكرماء ماجئت قطا لى زيارته الا أحضر الطعام وصورته حسنة وسيرته أحسن وتوجه معي الى الخاتون المذكورة فاكرمت وأضافت وأحسنت وبعد قدومنا بايام وصل الى هذه المدينة السلطان أرخان بك الذى ذكرناه وأقمت بهذه المدينة نحو أربعين يوما بسبب مرض فرس لى فلما طال على المكث تركته وانصرفت ومعي ثلاثة من أصحابى وجارية وغلامان وليس معنا من يحسن اللسان التركى ويترجم عنا وكان لنا ترجمان فارقنا بهذه المدينة ثم خرجنا منها فبتنا بقرية يقال لها مكجا (بفتح الميم والكاف والجيم) بتنا عند فقيه بها أكرمنا وأضافنا وسافرنا من عنده وتقدمتنا امرأة من الترك على فرس ومعها خديم لها وهى قاصدة مدينة ينجا ونحن في اتباع اثرها فوصلت الى واد كبير يقال له سقري كانه نسب الى سقر أعاذنا الله منها فذهبت تجوز الوادى فلما توسطته كادت الدابة تغرق بها ورمتها عن ظهرها وأراد الخديم الذى كان معها استخلاصها فذهب الوادى بهما معا وكان فى عدوة الوادى قوم رموا بانفسهم فى اثرها سباحة فاخرجوا المرأة وبها من الحياة رمق ووجدوا الرجل قد قضي نحبه رحمه الله وأخبرنا أولئك الناس ان المعدية أسفل من ذلك الموضع توجهنا اليها وهى أربع خشبات مربوطة بالحبال يجعلون عليها سروج الدواب والمتاع ويجذبها الرجال من العدوة الاخرى ويركب عليها الناس وتجاز الدواب سباحة وكذلك فعلنا ووصلنا تلك الليلة الى كاوية واسمها على مثال فاعلة من الكى نزلنا منها بزاوية أحد الاخية فكلمناه بالعربية فلم يفهم عنا وكلمنا بالتركية فلم نفهم عنه فقال اطلبوا الفقيه فانه يعرف العربية فاتي الفقيه فكلمنا بالفارسية وكلمناه بالعربية فلم يفهمها منا فقال للفتي ايشان عربي كهنا ميقوان (ميكويند) ومن عربي نواميدانم وايشان معناه هؤلاء وكهنا قديم وميقوان يقولون ومن أنا ونو جديد وميدانم تعرف وانما أراد الفقيه بهذا الكلام ستر نفسه عن الفضيحة حين ظنوا أنه يعرف اللسان العربى وهو لا يعرفه فقال لهم هؤلاء يتكلمون بالكلام العربى القديم وأنا لا أعرف الا العربى الجديد فظن الفتي ان الامر علي ماقاله الفقيه ونفعنا ذلك عنده وبالغ فى اكرامنا وقال هؤلاء تجب كرامتهم لانهم يتكلمون باللسان العربى القديم وهو لسان النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وأصحابه ولم نفهم كلام الفقيه

اذذاك لكنني حفظت لفظه فلما تعلمت اللسان الفارسي فهمت مراده وبتنا تلك الليلة بالزاوية وبعث معنا دليلا الي ينجا وضبط اسمها (بفتح الياء آخر الحروف وكسر النون وجيم) بلدة كبيرة حسنة بحثنا بها عن زاوية الاخي فوجدنا بها أحد الفقراء المولهين فقلت له هذه زاوية الاخي فقال لي نعم فسررت عند ذلك اذ وجدت من يفهم اللسان العربي فلما اختبرته أبرز الغيب انه لا يعرف من اللسان العربي الا كلمة نعم خاصة ونزلنا بالزاوية وجاء الينا أحد الطلبة بطعام ولم يكن الاخي حاضرا وحصل الانس بهذا الطالب ولم يكن يعرف اللسان العربي لكنه تفضل وتكلم مع نائب البلدة فاعطاني فارساً من أصحابه وتوجه معنا الى كينوك (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الياء وضم النون) وهي بلدة صغيرة يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين وليس بها غير بيت واحد من المسلمين وهم الحكام عليهم وهي من بلاد السلطان أرخان بك فنزلنا بدار عجوز كافرة وذلك ابان الثلج والشتاء فاحسنا اليها وبتنا عندها تلك الليلة وهذه البلدة لا شجر بها ولا دوالي العنب ولا يزدرع بها الا الزعفران وأتتنا هذه العجوز بزعفران كثير وظنت أننا تجار نشتريه منها ولما كان الصباح ركبنا وأتانا الفارس الذى بعثه الفتى معنا من كاوية فبعث معنا فارساً غيره ليوصلنا الى مدينة مطرني وقد وقع فى تلك الليلة ثلج كثير عفى الطرق فتقدمنا ذلك الفارس فاتبعنا أثره الى ان وصلنا فى نصف النهار الى قرية للتركمان فاتوا بطعام فاكلنا منه وكلمهم ذلك الفارس فركب معنا أحدهم وسلك بنا أوعارا وجبالا ومجرى ماء تكرر لنا جوازه أزيد من الثلاثين مرة فلما خلصنا من ذلك قال لنا ذلك الفارس أعطوني شيئا من الدراهم فقلنا له اذا وصلنا الى المدينة نعطيك ونرضيك فلم يرض ذلك منا أو لم يفهم عنا فاخذ قوسا لبعض أصحابي ومضي غير بعيد ثم رجع فرد الينا القوس فاعطيته شيئا من الدراهم فاخذها وهرب عنا وتركنا لا نعرف أين نقصد ولا طريق يظهر لنا فكنا نتلمح أثر الطريق تحت الثلج ونسلكه الى أن بلغنا عند غروب الشمس الى جبل يظهر الطريق به لكثرة الحجارة فخفت الهلاك على نفسي ومن معي وتوقعت نزول الثلج ليلا ولا عمارة هنالك فان نزلنا عن الدواب هلكنا وان سرينا ليلتنا لا نعرف أين نتوجه وكان لي فرس من الجياد فعملت على الخلاص وقلت فى نفسي اذا سلمت لعلي أحتال فى سلامة أصحابي فكان كذلك واستودعتهم الله تعالى وسرت وأهل تلك البلاد يبنون على القبور بيوتا من الخشب يظن رائيها انها عمارة فيجدها قبورا فظهر لى منها كثير فلما كان بعد العشاء وصلت الى البيوت فقلت اللهم اجعلها عامرة فوجدتها عامرة ووفقني

الله تعالى الى باب دار فرأيت عليها شيخاً فكلمته بالعربي فكلمني بالتركى وأشار الى بالدخول فاخبرته بشان أصحابى فلم يفهم عني وكان من لطف الله ان تلك الدار زاوية للفقراء والواقف بالباب شيخها فلما سمع الفقراء الذين بداخل الزاوية كلامى مع الشيخ خرج بعضهم وكانت بيني وبينه معرفة فسلم على وأخبرته خبر أصحابى وأشرت اليه بان يمضي مع الفقراء لاستخلاص الاصحاب ففعلوا ذلك وتوجهوا معي الى أصحابى وجئنا جميعا الى الزاوية وحمدنا الله تعالى على السلامة وكانت ليلة جمعة فاجتمع أهل القرية وقطعوا ليلتهم بذكر الله تعالى وأتي كل منهم بما تيسر له من الطعام وارتفعت المشقة ورحلنا عند الصباح فوصلنا الى مدينة مطرني عند صلاة الجمعة (وضبط اسمها بضم الميم والطاء المهملة واسكان الراء وكسر النون وياء مد) فنزلنا بزاوية أحد الفتيان الاخية وبها جماعة من المسافرين ولم نجد مربطا للدواب فصلينا الجمعة ونحن فى قلق لكثرة الثلج والبرد وعدم المربط فلقينا أحد الحجاج من أهلها فسلم علينا وكان يعرف اللسان العربى فسررت برؤيته وطلبت منه أن يدلنا على مرابط للدواب بالكراء فقال أما ربطها فى منزل فلا يتاتى لان أبواب دور هذه البلدة صغار لا تدخل منها الدواب ولكنني أدلكم على سقيفة بالسوق يربط فيها المسافرون دوابهم والذين ياتون لحضور السوق فدلنا عليها وربطنا بها دوابنا ونزل أحد الاصحاب بحانوت خال ازاءها ليحرس الدواب — حكاية —

وكان من غريب ما اتفق لنا انى بعثت أحد الخدام ليشترى التبن للدواب وبعثت أحدهم يشترى السمن فاتى أحدهما بالتبن والآخر دون شيء وهو يضحك فسالناه عن سبب ضحكه فقال انا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا منه السمن فاشار الينا بالوقوف وكلم ولدا له فدفعنا له الدراهم فابطا ساعة واتى بالتبن فاخذناه منه وقلنا له انا نريد السمن فقال هذا السمن وأبرز الغيب انهم يقولون للتبن سمن بلسان الترك وأما السمن فيسمي عندهم رباغ ولما اجتمعنا بهذا الحاج الذى يعرف اللسان العربي رغبنا منه أن يسافر معنا الى قصطمونية وبينها وبين هذه البلدة مسيرة عشر وكسوته ثوبا مصريا من ثيابي وأعطيته نفقة تركها لعياله وعينت له دابة لركوبه ووعدته الخير وسافر معنا فظهر لنا من حاله انه صاحب مال كثير وله ديون على الناس غير انه ساقط الهمة خسيس الطبع سيء الافعال وكنا نعطيه الدراهم لنفقتنا فياخذ ما يفضل من الخبز ويشتري به الابزار والخضر والملح ويمسك ثمن ذلك لنفسه وذكر لى انه كان يسرق من دراهم النفقة دون ذلك وكنا نحتمله لما كنا نكابده من عدم المعرفة بلسان الترك وانتهت حاله الى ان فضحناه وكنا نقول له فى آخر

النهار يا حاج كم سرقت اليوم من النفقة فيقول كذا فنضحك منه ونرضى بذلك ومن أفعاله الخسيسة انه مات لنا فرس فى بعض المنازل فتولى سلخ جلده بيده وباعه ومنها انا نزلنا ليلة عند أخت له فى بعض القرى فجاءت بطعام وفاكهة من الاجاص والتفاح والمشمش والخوخ كلها ميبسة وتجعل فى الماء حتى ترطب فتؤكل ويشرب ماؤها فاردنا ان نحسن اليها فعلم بذلك فقال لا تعطوها شيئاً واعطوا ذلك لى فاعطيناه ارضاء له وأعطيناها احسانا فى خفية بحيث لم يعلم بذلك ثم وصلنا الى مدينه بولى (وضبط اسمها بباء موحدة مضمومة وكسر اللام) ولما انتهينا الى قريب منها وجدنا واديا يظهر فى رأي العين صغيرا فلما دخله بعض أصحابنا وجدوه شديد الجرية والانزعاج فجازوه جميعا وبقيت جارية صغيرة خافوا من تجويزها وكان فرسى خيرا من أفراسهم فاردفتها وأخذت فى جواز الوادي فلما توسطته وقع بي الفرس ووقعت الجارية فاخرجها أصحابي وبها رمق وخلصت أنا ودخلنا المدينة فقصدنا زاوية أحد الفتيان الاخية ومن عوائدهم انه لا تزال النار موقودة فى زواياهم أيام الشتاء أبدا يجعلون فى كل ركن من أركان الزاوية موقد للنار ويصنعون لها منافس يصعد منها الدخان ولا يؤذى الزاويه ويسمونها البخارى واحدها بخيرى قال ابن جزى وقد أحسن صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحلى في قوله فى التورية وتذكرته بذكر البخيرى

ان البخيري مذ فارقتموه غدا * يحثو الرماد على كانونه الترب
لو شئتم انه يمسى أبا لهب * جاءت بغالكم حمالة الحطب

(رجع) قال فلما دخلنا الزاوية وجدنا النار موقودة فنزعت ثيابي ولبست ثيابا سواها واصطليت بالنار واتى الاخى بالطعام والفاكهة وأكثر من ذلك فلله درهم من طائفة ما أكرم نفوسهم وأشد إيثارهم واعظم شفقتهم على الغريب وألطفهم بالوارد وأحبهم فيه وأجملهم احتفالا بامره فليس قدوم الانسان الغريب عليهم الا كقدومه على احب أهله اليه وبتنا تلك الليلة بحال مرضية ثم رحلنا بالغداة فوصلنا الى مدينة كردي بولى (وضبط اسمها بكاف معقودة وفتح الراء والدال المهمل وسكون الياء وباء موحدة مضمومة وواو مدولام مكسورة وياء) وهي مدينة كبيرة فى بسيط من الارض حسنة متسعة الشوارع والاسواق من أشد البلاد بردا وهي محلات مفترقة كل محلة تسكنها طائفة لا يخالطهم غيرهم

ذكر سلطانها

وهو السلطان شاه بك من متوسطى سلاطين هذه البلاد حسن الصورة والسيرة جميل الخلق قليل العطاء صلينا بهذه المدينة صلاة الجمعة ونزلنا بزاوية منها ولقيت بها الخطيب

الفقيه شمس الدين الدمشقي الحنبلي وهو من مستوطنيها منذ سنين وله بها أولاد وهو فقيه هذا السلطان وخطيبه ومسموع الكلام عنده ودخل علينا هذا الفقيه بالزاوية فاعلمنا ان السلطان قد جاء لزيارتنا فشكرته على فعله واستقبلت السلطان فسلمت عليه وجلس فسالني عن حالي وعن مقدمي وعمن لقيته من السلاطين فاخبرته بذلك كله وأقام ساعة ثم انصرف وبعث بدابة مسرجة وكسوة وانصرفنا الى مدينة برلو (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وضم اللام) وهي مدينة صغيرة على تل تحتها خندق ولها قلعة باعلى شاهق نزلنا منها بمدرسة فيها حسنة وكان الحاج الذي سافر معنا يعرف مدرسها وطلبتها ويحضر معهم الدرس وهو على علاته من الطلبة حنفي المذهب ودعانا أمير هذه البلدة وهو علي بك ابن السلطان المكرم سليمان بادشاه ملك قصطمونية وسنذكره فصعدنا اليه الى القلعة فسلمنا عليه فرحب بنا وأكرمنا وسالني عن اسفاري وحالي فاجبته عن ذلك وأجلسني الى جانبه وحضر قاضيه وكاتبه الحاج علاء الدين محمد وهو من كبار الكتاب وحضر الطعام فاكلنا ثم قرأ القراء باصوات مبكية والحان عجيبة وانصرفنا وسافرنا بالغد الى مدينة قصطمونية (وضبط اسمها بقاف مفتوح وصاد مهمل مسكن وطاء مهمل مفتوح وميم مضمومة وواو ونون مكسور وياء آخر الحروف) وهي من أعظم المدن وأحسنها كثيرة الخيرات رخيصة الاسعار نزلنا منها بزاوية شيخ يعرف بالاطروش لثقل سمعه ورأيت منه عجبا وهو ان أحد الطلبة كان يكتب له في الهواء وتارة في الارض باصبعه فيفهم عنه ويجيبه ويحكي له بذلك الحكايات فيفهمها وأقمنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما فكنا نشتري طابق اللحم الغنمي السمين بدرهمين ونشتري خبزا بدرهمين فيكفينا ليومنا ونحن عشرة ونشتري حلواء العسل بدرهمين فتكفينا أجمعين ونشتري جوزا بدرهم وقسطلا بمثله فنأكل منها أجمعون ويفضل باقيها ونشتري حمل الحطب بدرهم واحد وذلك اوان البرد الشديد ولم أر في البلاد مدينة ارخص اسعارا منها ولقيت بها الشيخ الامام العالم المفتي المدرس تاج الدين السلطانيوكي من كبار العلماء قرأ بالعراقين وتبريز واستوطنها مدة وقرأ بدمشق وجاور بالحرمين قديما ولقيت بها العالم المدرس صدر الدين سليمان الفنيكي من اهل فنيكة من بلاد الروم واضافني بمدرسته التي بسوق الخيل ولقيت بها الشيخ المعمر الصالح دادا أمير علي دخلت عليه بزاويته بمقربة من سوق الخيل فوجدته ملقى على ظهره فاجلسه بعض خدامه ورفع بعضهم حاجبيه عن عينيه ففتحهما وكلمني بالعربي الفصيح وقال قدمت خير مقدم وسالته عن عمره فقال

كنت من أصحاب الخليفة المستنصر بالله وتوفى وأنا ابن ثلاثين سنة وعمرى الآن مائة وثلاث وستون سنة فطلبت منه الدعاء فدعا لى وانصرفت

— ذكر سلطان قصطمونية —

وهو السلطان المكرم سليمان بادشاه (واسمه بباء معقودة وألف ودال مسكن) وهو كبير السن ينيف على سبعين سنة حسن الوجه طويل اللحية صاحب وقار وهيبة يجالسه الفقهاء والصلحاء دخلت عليه بمجلسه فأجلسني الى جانبه وسألني عن حالى ومقدمي وعن الحرمين الشريفين ومصر والشام فأجبته وأمر بانزالى على قرب منه واعطانى ذلك اليوم فرسا عتيقا قرطاسى اللون وكسوة وعين لى نفقة وعلفا وأمر لى بعد ذلك بقمح وشعير نفذلى فى قرية من قري المدينة على مسيرة نصف يوم منها فلم أجد من يشتريه لرخص الاسعار فأعطيته للحاج الذي كان فى صحبتنا ومن عادة هذا السلطان ان يجلس كل يوم بمجلسه بعد صلاة العصر ويؤتى بالطعام فتفتح الابواب ولا يمنع أحد من حضرى أو بدوى أو غريب أو مسافر من الاكل ويجلس فى أول النهار جلوسا خاصا ويأتى ابنه فيقبل يديه وينصرف الى مجلس له ويأتى أرباب الدولة فيأكلون عنده وينصرفون ومن عادته فى يوم الجمعة ان يركب الى المسجد وهو بعيد عن داره والمسجد المذكور هو ثلاث طبقات من الخشب فيصلى السلطان وأرباب دولته والقاضى والفقهاء ووجوه الاجناد فى الطبقة السفلى ويصلى الافندى وهو اخو السلطان وأصحابه وخدامه وبعض أهل المدينة فى الطبقة الوسطى ويصلى ابن السلطان ولى عهده وهو أصغر أولاده ويسمى الجواد وأصحابه ومماليكه وخدامه وسائر الناس فى الطبقة العليا ويجتمع القراء فيقعدون حلقة امام المحراب ويقعد معهم الخطيب والقاضى ويكون السلطان بازاء المحراب ويقرؤن سورة الكهف بأصوات حسان ويكررون الآيات بترتيب عجيب فاذا فرغوا من قراءتها صعد الخطيب المنبر فخطب ثم صلى فاذا فرغوا من الصلاة تنفلوا وقرأ القارىء بين يدى السلطان عشرا وانصرف السلطان ومن معه ثم يقرأ القارىء بين يدى أخي السلطان فاذا أتم قراءته انصرف هو ومن معه ثم يقرأ القارىء بين يدى ابن السلطان فاذا فرغ من قراءته قام المعرف وهو المذكر فيمدح السلطان بشعر تركى ويمدح ابنه ويدعو لهما وينصرف ويأتي ابن الملك الى دار أبيه بعد ان يقبل يد عمه فى طريقه وعمه واقف فى انتظاره ثم يدخلان الى السلطان فيتقدم أخوه ويقبل يده ويجلس بين يديه ثم يأتى ابنه فيقبل يده وينصرف الى مجلسه فيقعد به مع ناسه فاذا حانت صلاة العصر صلوها جميعا وقبل أخو السلطان يده وانصرف عنه فلا يعود اليه الا فى الجمعة الاخرى وأما الولد فانه يأتى كل يوم غدوة كما ذكرناه

ثم سافرنا من هـذه المدينة ونزلنا فى زاوية عظيمة باحـدي القري من أحسن زاوية رأيتها فى تلك البلاد بناها أمير كبير تاب الى الله تعـالى يسمي فخر الدين وجعل النظر فيها لولده والاشراف لمن أقام بالزاوية من الفقراء وفوائد القرية وقف عليها وبنى بازاء الزاوية حماما للسبيل يدخله الوارد والصادر من غير شىء يلزمه وبني سوقا بالقرية ووقفه عـلى المسجد الجامع وعين من اوقاف هـذه الزاوية لكل فقير يرد من الحرمين الشريفين أو من الشام ومصر والعراقين وخراسان وسـواها كسوة كاملة ومائة درهم يوم قدومه وثلاثمائة درهم يوم سفره والنفقة أيام مقامه وهى الخبز واللحم والارز المطبوح بالسمن والحلواء ولكل فقير من بلاد الروم عشرة دراهم وضيافة ثلاثة أيام ثم انصرفنا وبتنا ليلة ثانية بزاوية فى جبل شامخ لا عمارة فيه عمرها بعض الفتيا الاخية ويعرف بنظام الدين من أهل قصطمونية ووقف عليها قرية ينفق خراجها على الوارد والصادر بهذه الزاوية وسافرنا من هذه الزاوية الى مدينة صنوب (وضبط اسمها بفتح الصاد وضم النون وآخره باء) وهى مدينة حافلة جمعت بين التحصين والتحسين يحيط بها البحر من جميع جهاتها الا واحدة وهى جهة الشرق ولها هنالك باب واحد لا يدخل اليها أحد الا باذن أميرها وأميرها ابراهيم بك ابن السلطان سليمان بادشاه الذى ذكرناه ولما استؤذن لنا عليه دخلنا البلد ونزلنا بزاوية عز الدين أخى جلبي وهي خارج باب البحر ومن هنالك يصعد الى جبل داخل فى البحر كميناء سبتة فيه البساتين والمزارع والمياه واكثر فواكه التين والعنب وهـو جبل مانع لا يستطاع الصعود اليه وفيه احدى عشرة قرية يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين وباعلاه رابطة تنسب للخضر والياس عليهما السلام لا تخلو عن متعبد وعندها عين ماء والدعاء فيها مستجاب وبسفح هذا الجبل قبر الولى الصالح الصحابى بلال الحبشي وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر والمسجد الجامع بمدينة صنوب من أحسن المساجد وفى وسطه بركة ماء عليها قبة تقلها أربع أرجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام وفوقها مجلس يصعد له على درج خشب وذلك من عمارة السلطان بروانه ابن السلطان علاء الدين الرومي وكان يصلى الجمعة بأعلى تلك القبة وملك بعده ابنه غازى جلبي فلما مات تغلب عليها السلطان سليمان المذكور وكان غازي جلبي المذكور شجاعا مقداما ووهبه الله خاصية في الصبر تحت الماء وفى قوة السباحة وكان يسافر فى الاجفان الحربية لحرب الروم فاذا كانت الملاقاة واشتغل الناس بالقتال غاص تحت الماء وبيده آلة حديد يخرق بها أجفان العدو فلا يشعرون بما حـل بهم حتى يدهمهم الغرق وطرقت مرسى بلده مرة أجفان

العدو فخرقها واسر من كان فيها وكانت فيه كفاية لا كفاء لها الا انهم يذكرون انه كان يكثر أكل الحشيش وبسببه مات فانه خرج يوما للتصيد وكان مولعا به فاتبع غزالة ودخلت له بين أشجار وزاد فى ركض فرسه فعارضته شجرة فضربت رأسه فشدخته فمات وتغلب السلطان سليمان على البلد وجعل به ابنه ابراهيم ويقال انه أيضا يأكل ما كان يأكله صاحبه على ان اهل بلاد الروم كلها لا ينكرون أكلها ولقد مررت يوما على باب الجامع بصنوب وبخارجه دكاكين يقعد الناس عليها فرأيت نفرا من كبار الاجناد وبين أيديهم خديم لهم بيده شكارة مملوءة بشيء يشبه الحناء واحدهم يأخذ منها بملعقة ويأكل وأنا أنظر اليه ولا علم لى بما فى الشكارة فسألت من كان معي فاخبرنى انه الحشيش وأضافنا بهذه المدينة قاضيها ونائب الامير بها ومعلمه ويعرف بابن عبد الرزاق — حكاية —

لما دخلنا هذه المدينة رآنا أهلها ونحن نصلى مسبلى أيدينا وهم حنفية لا يعرفون مذهب مالك ولا كيفية صلاته والمختار من مذهبه هو اسبال اليدين وكان بعضهم يري الروافض بالحجاز والعراق يصلون مسبلى أيديهم فاتهمونا بمذهبهم وسالونا عن ذلك فاخبرناهم اننا على مذهب مالك فلم يقنعوا بذلك منا واستقرت التهمة فى نفوسهم حتي بعث الينا نائب السلطان بارنب وأوصى بعض خدامه ان يلازمنا حتى يرى ما نفعل به فذبحناه وطبخناه واكلناه وانصرف الخديم اليه واعلمه بذلك فحينئذ زالت عنا التهمة وبعثوا النا بالضيافة والروافض لا يأكلون الارنب وبعد أربعة أيام من وصولنا الى صنوب توفيت أم الامير ابراهيم بها فخرجت فى جنازتها وخرج ابنها على قدميه كاشفا شعره وكذلك الامراء والمماليك وثيابهم مقلوبة وأما القاضى والخطيب والفقهاء فانهم قلبوا ثيابهم ولم يكشفوا رؤسهم بل جعلوا عليها مناديل من الصوف الاسود عوضا عن العمائم وأقاموا يطعمون الطعام أربعين يوما وهي مدة العزاء عندهم وكانت اقامتنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما ننتظر تيسير السفر فى البحر الى مدينة القرم فاكترينا مركبا للروم وأقمنا أحد عشر يوما ننتظر مساعدة الريح ثم ركبنا البحر فلما توسطناه بعد ثلاث هال علينا واشتد بنا الامر ورأينا الهلاك عيانا وكنت بالطارمة ومعي رجل من أهل المغرب يسمي أبا بكر فامرته أن يصعد الى أعلى المركب لينظر كيف البحر ففعل ذلك وأتانى بالطارمة فقال لى استودعكم الله ودهمنا من الهول مالم يعهد مثله ثم تغيرت الريح وردتنا الى مقربة من مدينة صنوب التى خرجنا منها وأراد بعض التجار النزول الى مرساها فمنعت صاحب المركب من انزاله ثم استقامت الريح وسافرنا فلما توسطنا البحر هال علينا وجرى لنا مثل المرة الاولى ثم ساعدت الريح ورأينا جبال البر وقصدنا مرسى

يسمي الكرش فاردنا دخوله فاشار الينا أناس كانوا بالجبل ان لا تدخلوا فخفنا على أنفسنا وظننا ان هنالك أجفانا للعدو فرجعنا مع البر ولما قربناه قلت لصاحب المركب أريد ان انزل هاهنا فانزلني بالساحل ورأيت كنيسة فقصدتها فوجدت بها راهبا ورأيت في أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربي عليه عمامة متقلد سيفا وبيده رمح وبين يديه سراج يوقد فقلت للراهب ماهذه الصورة فقال هذه صورة النبي علي فاعجبت من قوله وبتنا تلك الليلة بالكنيسة وطبخنا دجاجا فلم نستطع أكلها اذ كانت مما استصحبناه في المركب ورائحة البحر قد غلبت على كل ما كان فيه وهذا الموضع الذي نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بدشت قفجق (والدشت بالشين المعجم والتاء المثناة) بلسان الترك هو الصحراء وهذه الصحراء خضرة نضرة لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا أبنية ولا حطب وانما يوقدون الارواث ويسمونها الترك (بالزاي المفتوح) فترى كبراء هم يلقطونها ويجعلونها في أطراف ثيابهم ولا يسافر في هذه الصحراء الا في العجل وهي مسيرة ستة أشهر ثلاثة منها في بلاد السلطان محمد أوزبك وثلاثة في بلاد غيره ولما كان الغد من يوم وصولنا الى هذه المرسي توجه بعض التجار من أصحابنا الى من بهذه الصحراء من الطائفة المعروفة بقفجق وهم على دين النصرانية فاكترى منهم عجلة يجرها الفرس فركبناها ووصلنا الى مدينة الكفا (واسمها بكاف وفاء مفتوحتين) وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر يسكنها النصارى وأكثرهم الجنويون ولهم أمير يعرف بالدنديرو نزلنا منها بمسجد المسلمين — حكاية — ولما نزلنا بهذا المسجد أقمنا به ساعة ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية ولم أكن سمعتها قط فهالني ذلك وأمرت أصحابي أن يصعدوا الصومعة ويقرؤا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا ففعلوا ذلك فاذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح فسلم علينا واستفهمناه عن شانه فاخبرنا انه قاضي المسلمين هنالك وقال لما سمعت القراءة والاذان خفت عليكم فجئت كما ترون ثم انصرف عنا ومارأينا الاخيرا ولما كان من الغد جاء الينا الامير وصنع طعاما فاكلنا عنده وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الاسواق وكلهم كفار ونزلنا الى مرساها فرأينا مرسى عجيبا به نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري صغيرا وكبيرا وهو من مراسي الدنيا الشهيرة ثم اكترينا عجلة وسافرنا الى مدينة القرم وهي (بكسر القاف وفتح الراء) مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد أوزبك خان وعليها أمير من قبله اسمه تلكتمور وضبط اسمه (بتاء مثناة مضمومة ولام مضموم وكاف مسكن وتاء كالاولى مضمومة وميم مضمومة وواو وراء) وكان أحد خدام هذا الامير قد صحبنا في

طريقنا فعرفه بقدومنا فبعث الى مع امامه سعد الدين بفرس ونزلنا بزاوية شيخها زاده الخراساني فاكرمنا هذا الشيخ ورحب بنا وأحسن الينا وهو معظم عندهم ورأيت الناس ياتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفقيه وسواهم وأخبرني هذا الشيخ زاده ان بخارج هذه المدينة راهبا من النصارى فى دير يتعبد به ويكثر الصوم وانه انتهى الى ان يواصل أربعين يوما ثم يفطر على حبة فول وانه يكاشف بالامور ورغب مني ان أصحبه فى التوجه اليه فابيت ثم ندمت بعد ذلك على ان لم أكن رأيته وعرفت حقيقة أمره ولقيت بهذه المدينة قاضيها الاعظم شمس الدين السائلى قاضى الحنفية ولقيت بها قاضى الشافعية وهو يسمى بخضر والفقيه المدرس علاء الدين الاصي وخطيب الشافعية أبا بكر وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذى عمره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين وكان من الروم فاسلم وحسن اسلامه والشيخ الصالح العابد مظهر الدين وهو من الفقهاء المعظمين وكان الامير تلكتمور مريضا فدخلنا عليه فاكرمنا وأحسن الينا وكان على التوجه الى مدينة السرا حضرة السلطان محمد أوزبك فعملت فى السير فى صحبته واشتريت العجلات برسم ذلك

— ذكر العجلات التي يسافر عليها بهذه البلاد —

وهم يسمون العجلة عربة (بعين مهملة وراء وباء موحدة مفتوحات) وهى عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار ومنها مايجره فرسان ومنها مايجره أكثر من ذلك وتجرها أيضا البقر والجمال على حال العربة فى ثقلها أو خفتها والذى يخدم العربة يركب احدى الافراس التي تجرها ويكون عليه سرج وفى يده سوط يحركها للمشي وعود كبير يصوبها به اذا عاجت عن القصد ويجعل علي العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها الى بعض بسور جلد رقيق وهي خفيفة الحمل وتكسى باللبد أو بالملف ويكون فيها طيقان مشبكة ويري الذى بداخلها الناس ولا يرونه ويتقلب فيها كما يحب وينام ويا كل ويقرأ ويكتب وهو فى حال سيره والتى تحمل الاثقال والازواد وخزائن الاطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا وعليها قفل وجهزت لما أردت السفر عربة لركوبي مغشاة باللبد ومعي بها جارية لى وعربة صغيرة لرفيقى عفيف الدين التوزرى وعجلة كبيرة لسائر الاصحاب يجرها ثلاثة من الجمال يركب أحدها خادم العربة وسرنا فى صحبة الامير تلكتمور وأخيه عيسى وولديه قطلودمور وصارربك وسافر أيضا معه فى هذه الوجهة امامه سعد الدين والخطيب أبو بكر والقاضى شمس الدين

والفقيه شرف الدين موسى والمعرف علاء الدين وخطة هـذا المعرف أن يكون بين يدى الامير فى مجلسه فاذا أتى القاضى يقف له هـذا المعرف ويقول بصوت عال بسم الله سيدنا ومولانا قاضى القضاة والحكام مبين الفتاوى والاحكام بسم الله واذا أتى فقيه معظم أو رجل مشار اليه قال بسم الله سيدنا فلان الدين بسم الله فيتهيأ من كان حاضر الدخول الداخل ويقوم اليه ويفسح له فى المجلس وعادة الاتراك ان يسيروا فى هـذه الصحراء سيرا كسير الحجاج فى درب الحجاز يرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحى ويرحلون بعد الظهر وينزلون عشيا واذا نزلوا حلوا الخيل والابل والبقر عن العربات وسرحوها للرعى ليلا ونهارا ولا يعلف أحد دابة لا السلطان ولا غيره وخاصية هـذه الصحراء ان نباتها يقوم مقام الشعير للدواب وليست لغيرها من البلاد هـذه الخاصية ولذلك كثرت الدواب بها ودوابهم لا رعاة لها ولا حراس وذلك لشدة أحكامهم فى السرقة وحكمهم فيها انه من وجد عنده فرس مسروق كلف ان يرده الى صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله فان لم يقدر على ذلك أخذ أولاده فى ذلك فان لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة وهؤلاء الاتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ وانما يصنعون طعاما من شىء عندهم شبه الآنلى يسمونه الدوقى (بدال مهمل مضموم وواو وقاف مكسور معقود) يجعلون على النار الماء فاذا غلى صبوا عليه شيئا من الدوقى وان كان عندهم لحم قطعوه قطعا صغارا وطبخوه معه ثم يجعل لكل رجل نصيبه فى صحفة ويصبون عليه اللبن الرائب ويشربونه ويشربون عليه لبن الخيل وهم يسمونه القمز (بكسر القاف والميم والزاى المشددة) وهم أهل قوة وشدة وحسن مزاج ويستعملون فى بعض الاوقات طعاما يسمونه البورخاني وهو عجين يقطعونه قطيعات صغارا ويثقبون أوساطها ويجعلونها فى قدر فاذا طبخت صبوا عليها اللبن الرائب وشربوها ولهم نبيذ يصنعونه من حب الدوقى الذى تقدم ذكره وهم يرون أكل الحلواء عيبا ولقد حضرت يوما عند السلطان أوزبك فى رمضان فاحضرت لحوم الخيل وهى أكثر ما يأكلون من اللحم ولحوم الاغنام والرشتا وهو شبه الاطرية يطبخ ويشرب باللبن وأتيته تلك الليلة بطبق حلواء صنعها بعض اصحابي فقدمتها بين يديه فجعل أصبعه عليها وجعله على فيه ولم يزد على ذلك وأخبرنى الامير تلكتمور أن أحد الكبار من مماليك هذا السلطان وله من أولاده وأولاد أولاده نحو أربعين ولدا قال له السلطان يوما كل الحلواء وأعتقكم جميعا فابى وقال لو قتلتنى ما أكلتها ولما خرجنا من مدينة القرم نزلنا بزاوية الامير تلكتمور فى موضع يعرف بسجان فبعث الى أن أحضر عنده فركبت اليه وكان

لى فرس معدلر كوبي يقوده خديم العربة فاذا أردت ركوبه ركبته وأتيت الزاوية فوجدت الامير قد صنع بها طعاما كثيرا فيه الخبز ثم أتوا بماء أبيض في صحاف صغار فشرب القوم منه وكان الشيخ مظفر الدين يلي الامير في مجلسه وأنا اليه فقلت له ماهذا فقال هذا ماء الدهن فلم أفهم ما قال فذقته فوجدت له حموضة فتركته فلما خرجت سألت عنه فقالوا هو نبيذ يصنعونه من حب الدوقى وهم حنفية المذهب والنبيذ عندهم حلال ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوقى البوزه (بضم الباء الموحدة وواو ومدوزاى مفتوح) وانما قال لى الشيخ مظفر الدين ماء الدخن ولسانه فيه اللكنة الاعجمية فظننت انه يقول ماء الدهن وبعد مسيرة ثمانية عشر منزلا من مدينة القرم وصلنا الى ماء كثير نخوضه يوما كاملا واذا كثر خوض الدواب والعربات فى هذا الماء اشتد وحله وزاد صعوبة فذهب الامير الى راحلتي وقدمني أمامه مع بعض خدامه وكتب لى كتابا الى أمير أزاق يعلمه أني أريد القدوم على الملك ويحضه على اكرامي وسرنا حتى انتهينا الى ماء آخر نخوضه نصف يوم ثم سرنا بعده ثلاثا ووصلنا الى مدينة أزاق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والزاى وآخره قاف) وهي على ساحل البحر حسنة العمارة يقصدها الجنويون وغيرهم بالتجارات وبها من الفتيان أخي بجقجي وهو من العظماء يطعم الواردو الصادر ولما وصل كتاب القاضي تلكتمور الى أمير أزاق وهو محمد خواجه الخوارزمي خرج الى استقبالي ومعه القاضي والطلبة وأخرج الطعام فلما سلمنا عليه نزلنا بموضع أكلنا فيه ووصلنا الى المدينة ونزلنا بخارجها بمقربة من رابطة هنالك تنسب للخضر والياس عليهما السلام وخرج شيخ من أهل ازاق يسمي برجب النهر ملكى نسبة الى قرية بالعراق فاضافنا بزاوية له ضيافة حسنة وبعد يومين من قدومنا قدم الامير تلكتمور وخرج الامير محمد للقائه ومعه الامير والطلبة وأعدوا له الضيافة وضربوا ثلاث قباب متصلا بعضها ببعض احداها من الحرير الملون عجيبة والثنتان من الكتان وأداروا عليها سراجه وهى المسماة عندنا أفراج وخارجها الدهليز وهو على هيئة البرج عندنا ولما نزل الامير بسطت بين يديه شقاق الحرير يمشي عليها فكان من مكارمه وفضله أن قدمنى أمامه ليري ذلك الامير منزلتي عنده ثم وصلنا الى الخباء الاولى وهى المعدة لجلوسه وفى صدرها كرسى من الخشب لجلوسه كبير مرصع وعليه مرتبة حسنة فقدمني الامير أمامه وقدم الشيخ مظفر الدين وصعد هو فجلس فيما بيننا ونحن جميعا على المرتبة وجلس قاضيه وخطيبه وقاضى هذه المدينة وطلبتها عن يسار الكرسى على فرش فاخرة ووقف ولدا الامير تلكتمور وأخوه والامير محمد

وأولاده فى الخدمة ثم أتوا بالاطعمة من لحوم الخيل وسواها وأتوا بألبان الخيل ثم أتوا بالبوزه وبعد الفراغ من الطعام قرأ القراء بالاصوات الحسان ثم نصب منبر وصعده الواعظ وجلس القراء بين يديه وخطب خطبة بليغة ودعا للسلطان وللامير وللحاضرين يقول ذلك بالعربي ثم يفسره لهم بالتركي وفى أثناء ذلك يكرر القراء آيات من القرآن بترجيع عجيب ثم أخذوا في الغناء يغنون بالعربي ويسمونه القول ثم بالفارسي والتركي ويسمونه الملمع ثم أتوا بطعام آخر ولم يزالوا على ذلك الى العشي وكلما أردت الخروج منعني الامير ثم جاؤا بكسوة للامير وكساوى لولديه وأخيه وللشيخ مظفر الدين ولي وأتوا بعشرة أفراس للامير ولاخيه ولولديه بستة أفراس ولكل كبير من أصحابه بفرس ولي بفرس والخيل بهذه البلاد كثيرة جدا وثمنها نزر قيمة الجيد منها خمسون درهما أو ستون من دراهمهم وذلك صرف دينار من دنانيرنا أو نحوه وهذه الخيل هي التي تعرف بمصر بالاكاديش ومنها معاشهم وهي ببلادهم كالغنم ببلادنا بل أكثر فيكون للتركي منهم آلاف منها ومن عادة الترك المستوطنين تلك البلاد أصحاب الخيل انهم يضعون فى العربات التى تركب فيها نساؤهم قطعة لبد فى طول الشبر مربوطة الى عود دقيق فى طول الذراع فى ركن العربة ويجعل لكل ألف فرس قطعة ورأيت منهم من يكون له عشر قطع ومن له دون ذلك وتحمل هذه الخيل الى بلاد الهند فيكون فى الرفقة منها ستة آلاف وما فوقها وما دونها لكل تاجر المائة والمائتان فما دون ذلك وما فوقه ويستاجر التاجر لكل خمسين منها راعيا يقوم عليها ويرعاها كالغنم ويسمي عندهم القشي ويركب أحدها وبيده عصا طويلة فيها حبل فاذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذى هو راكبه ورمي الحبل فى عنقه وجذبه فيركبه ويترك الآخر للرعي واذا وصلوا بها الى أرض السند أطعموها العلف لان نبات أرض السند لا يقوم مقام الشعير ويموت لهم منها الكثير ويسرق ويغرمون عليها بارض السند سبعة دنانير فضة على الفرس بموضع يقال له ششنقار ويغرمون عليها بملتان قاعدة بلاد السند وكانوا فيما تقدم يغرمون ربع ما يجلبونه فرفع ملك الهند السلطان محمد ذلك وأمر أن يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة ومن تجار الكفار العشر ومع ذلك يبقي للتجار فيها فضل كبير لانهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم وصرفها من الذهب المغربي خمسة وعشرون دينارا وربما باعوها بضعف ذلك وضعفه وضعفيه والجياد منها تساوى خمسمائة دينار وأكثر من ذلك وأهل الهند لا يبتاعونها للجري والسبق لانهم يلبسون فى الحرب الدروع ويدرعون الخيل وانما يبتغون قوة الخيل واتساع خطاها والخيل التى يبتغونها للسبق تجلب اليهم من

اليمن وعمان وفارس ويباع الفرس منها بألف دينار الى أربعة آلاف ولما سافر الامير تلكتمور عن هذه المدينة أقمت بعده ثلاثة أيام حتي جهزلى الامير محمد خواجه آلات سفري وسافرت الى مدينة الماجر وهى (بفتح الميم وألف وجيم مفتوح معقود وراء) مدينة كبيرة من أحسن مدن الترك علي نهر كبير وبها البساتين والفوا كه الكثيرة نزلنا منها بزاوية الشيخ الصالح العابد المعمر محمد البطائحى من بطائح العراق وكان خليفة الشيخ أحمد الرفاعى رضى الله عنه وفى زاويته نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم منهم المتزوج والعزب وعيشهم من الفتوح ولاهل تلك البلاد اعتقاد حسن فى الفقراء وفى كل ليلة يأتون الى الزاوية بالخيل والبقر والغنم ويأتى السلطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبرك به ويجزلون الاحسان ويعطون العطاء الكثير وخصوصاً النساء فانهن يكثرن الصدقة و يتحرين أفعال الخير وصلينا بمدينة الماجر صلاة الجمعة فلما قضيت الصلاة صعد الواعظ عز الدين المنبر وهو من فقهاء بخارى وفضلائها وله جماعة من الطلبة والقراء يقرؤن بين يديه ووعظ وذكر وأمير المدينة حاضر وكبراؤها فقام الشيخ محمد البطائحي فقال ان الفقيه الواعظ يريد السفر ونريد له زوادة ثم خلع فرجية مرعز كانت عليه وقال هذه مني اليه فكان الحاضرون بين من خلع ثوبه ومن اعطى فرسا ومن أعطي دراهم واجتمع له كثير من ذلك كله ورأيت بقيسارية هذه المدينة يهوديا سلم على وكلمني بالعربي فسألته عن بلاده فذكر انه من بلاد الاندلس وانه قدم منها في البر ولم يسلك بحرا وأتى على طريق القسطنطينية العظمي وبلاد الروم وبلاد الجرجس وذكر ان عهده بالاندلس منذ أربعة أشهر وأخبرنى التجار المسافرون الذين لهم المعرفة بذلك بصحة مقاله ورأيت بهذه البلاد عجباً من تعظيم النساء عندهم وهن أعلى شأنا من الرجال فأما نساء الامراء فكانت أول رؤيتي لهن عند خروجي من القرم رؤية الخاتون زوجة الامير سلطية فى عربة لها وكلها مجللة بالملف الازرق الطيب وطيقان البيت مفتوحة وأبوابه وبين يديها أربع جوار فائقات الحسن بديعات اللباس وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها ولما قربت من منزل الامير نزلت عن العربة الى الارض ونزل معها نحو ثلاثين من الجواري يرفعن أذيالها ولاثوابها عرى تأخذ كل جارية بعروة ويرفعن الاذيال عن الارض من كل جانب ومشت كذلك متبخترة فلما وصلت الى الامير قام اليها وسلم عليها واجلسها الى جانبه ودار بها جوار بها وجاؤا بروايا القمز فصبت منه فى قدح وجلست على ركبتها قدام الامير وناولته القدح فشرب ثم سقت أخاه وسقاها الامير وحضر الطعام فأكلت معه

وأعطاه كسوة وانصرفت وعلى هذا الترتيب نساء الامراء وسنذكر نساء الملك فيما بعد وأما نساء الباعة والسوقة فرأيتهن واحداهن تكون فى العربة والخيل تجرها وبين يديها الثلاث والاربع من الجوارى يرفعن أذيالها وعلى رأسها البغطاق وهو أقروف مرصع بالجوهر وفى أعلاه ريش الطواويس وتكون طيقان البيت مفتحة وهي بادية الوجه لان نساء الاتراك لا يحتجبن وتأتى احداهن على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغنم واللبن فتبيعه من الناس بالسلع العطرية وربما كان مع المرأة منهن زوجها فيظنه من يراه بعض خدامها ولا يكون عليه من الثياب الا فروة من جلد الغنم وفى رأسه قلنسوة تناسب ذلك يسمونها الكلاو وتجهزنا من مدينة الماجر نقصد معسكر السلطان وكان على أربعة أيام من الماجر بموضع يقال له بش دغ ومعني بش عندهم خمسة وهو (بكسر الباء وشين معجم) ومعنى دغ الجبل وهو (بفتح الدال المهمل وغين معجم) وبهذه الجبال الخمسة عين ماء حار يغتسل منها الاتراك ويزعمون انه من اغتسل منها لم تصبه عاهة مرض وارتحلنا الى موضع المحلة فوصلناه أول يوم من رمضان فوجدنا المحلة قد رحلت فعدنا الى الموضع الذى رحلنا منه لان المحلة تنزل بالقرب منه فضربت بيتي على تل هنالك وركزت العلم أمام البيت وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك وأقبلت المحلة وهم يسمونها الأردو بضم الهمزة فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها فيها المساجد والاسواق ودخان المطبخ صاعد فى الهواء وهم يطبخون فى حال رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم فاذا بلغوا المنزل نزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الارض وهى خفيفة المحمل وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت واجتاز بنا خواتين السلطان كل واحدة بناسها على حدة ولما اجتازت الرابعة منهن وهى بنت الامير عيسى باك وسنذكرها رأت البيت باعلى التل والعلم امامه وهو علامة الوارد فبعثت الفتيان والجوارى فسلموا علي وبلغوا سلامها الي وهى واقفة تنتظرهم فبعثت اليها هدية مع بعض أصحابي ومع معرف الامير تلكتمور فقبلتها تبركا وأمرت ان أنزل فى جوارها وانصرفت وأقبل السلطان فنزل فى محلته على حدة

— ذكر السلطان المعظم محمد أوزبك خان —

واسمه محمد أوزبك (بضم الهمز وواو وزاى مسكن وباء موحدة مفتوحة) ومعني خان عندهم السلطان وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشأن رفيع المكان قاهر لاعداء الله اهل قسطنطينية العظمي مجتهد فى جهادهم وبلادهم متسعة ومدنه عظيمة منها الكفار والقرم والماجر وازاق وسرداق (سوداق) وخوارزم وحضرته السرا وهو

أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا وعظماؤها وهم مولانا أمير المؤمنين ظل الله في أرضه امام الطائفة المنصورة الذين لا يزالون ظاهرين على الحق الى قيام الساعة أيد الله أمره وأعز نصره وسلطان مصر والشام وسلطان العراق والسلطان اوزبك هذا وسلطان بلاد تركستان وماوراء النهر وسلطان الهند وسلطان الصين ويكون هذا السلطان اذا سافر في محلة على حدة معه مماليكه وأرباب دولته وتكون كل خاتون من خواتينه على حدة في محلتها فاذا أراد أن يكون عند واحدة منهن بعث اليها يعلمها بذلك فتتهيأ له وله في قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب مزينة بديعة وهي من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب وفي وسطها سرير من خشب مكسوة بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضة خالصة ورؤسها مرصعة بالجواهر ويقعد السلطان على السرير وعلى يمينه الخاتون طيطغلي وتليها الخاتون كبك وعلى يساره الخاتون بيلون وتليها الخاتون اردجي ويقف أسفل السرير على اليمين ولد السلطان تين بك وعن الشمال ولده الثاني جان بك وتجلس بين يديه ابنته إيت كججك واذا أتت احداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير وأما طيطغلي وهي الملكة واحظاهن عنده فانه يستقبلها الى باب القبة فيسلم عليها ويأخذ بيدها فاذا صعدت على السرير وجلست حينئذ يجلس السلطان وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب ويأتي بعد ذلك كبار الامراء فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين والشمال وكل انسان منهم اذا أتى مجلس السلطان يأتي معه غلام بكرسيه ويقف بين يدي السلطان أبناء الملوك من بني عمه واخوته وأقاربه ويقف في مقابلتهم عند باب القبة أولاد الامراء الكبار ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وشمال ثم يدخل الناس للسلام بالامثل فالامثل ثلاثة ثلاثة فيسلمون وينصرفون فيجلسون على بعد فاذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين ثم ينصرف سائرهن فيتبعها الى محلتها فاذا دخلت اليها انصرفت كل واحدة الى محلتها راكبة عربتها ومع كل واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل وامام العربات نحو عشرين من قواعد النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان والعربة وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان وأمام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار ركبانا ومثلهم مشاة بايديهم القضبان والسيوف مشدودة على اوساطهم وهم بين الفرسان والفتيان وهكذا ترتيب كل خاتون منهن في انصرافها ومجيئها وكان نزولي من المحلة في جوار ولد السلطان جان بك الذي يقع ذكره فيما بعد وفي الغد من يوم وصولي دخلت الى السلطان بعد صلاة العصر وقد جمع المشايخ والقضاة

والفقهاء والشرفاء والفقراء وقد صنع طعاما كثيرا وأفطرنا بمحضره وتكلم السيد الشريف نقيب الشرفاء ابن عبد الحميد والقاضي حمزة فى شانى بالخير وأشاروا على السلطان باكرامى وهؤلاء الاتراك لا يعرفون انزال الوارد ولا اجراء النفقة وانما يبعثون له الغنم والخيل للذبح وروايا القمز وتلك كرامتهم وبعد هذا بايام صليت صلاة العصر مع السلطان فلما أردت الانصراف أمرني بالقعود وجاؤا بالطعام من المشروبات كما يصنع من الدوقى ثم باللحوم المصلوقة من الغنم والخيل وفى تلك الليلة أتيت السلطان بطبق حلواء فجعل أصبعه عليه وجعله على فيه ولم يزد على ذلك

— ذكر الخواتين وترتيبهن —

وكل خاتون منهن تركب فى عربة وللبيت الذي تكون فيه قبة من الفضة المموهة بالذهب أو من الخشب المرصع وتكون الخيل التى تجر عربتها مجللة باثواب الحرير المذهب وخديم العربة الذى يركب أحد الخيل فتى يدعى القشى والخاتون قاعدة فى عربتها وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى أولوخاتون (بضم الهمزة واللام) ومعني ذلك الوزيرة وعن شمالها امرأة من القواعد أيضا تسمي كججك خاتون (بضم الكاف والجيم) ومعني ذلك الحاجبة وبين يديها ست من الجوارى الصغار يقال لهن البنات فائقات الجمال متناهيات الكمال ومن ورائها ثنتان منهن تستند اليهن وعلى رأس الخاتون البغطاق وهو مثل التاج الصغير مكلل بالجواهر وباعلاه ريش الطواويس وعليها ثياب حرير مرصعة بالجوهر شبه المنوت (الملوطة) التي يلبسها الروم وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير مزركشة الحواشي بالذهب والجوهر وعلى رأس كل واحدة من البنات الكلا وهو شبه الاقروف وفى أعلاها دائرة ذهب مرصعة بالجوهر وريش الطواويس من فوقها وعلى كل واحدة ثوب حرير مذهب يسمى النخ ويكون بين يدى الخاتون عشرة او خمسة عشر من الفتيان الروميين والهنديين وقد لبسوا ثياب الحرير المذهب المرصعة بالجواهر وبيد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة أو يكون من عود ملبس بهما وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة فى كل عربة الثلاث والاربع من الجواري الكبار والصغار ثيابهن الحرير وعلى رؤسهن الكلا وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة يجرها الجمال والبقر تحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها ومع كل عربة غلام موكل بها متزوج بجارية من الجواري التى ذكرنا فان العادة عندهم انه لا يدخل بين الجوارى من الغلمان الا من كان له بينهن زوجة وكل خاتون فهى على هذا الترتيب ولنذكرهن على الانفراد

— ذكر الخاتون الكبرى —

والخاتون الكبرى هى الملكة أولدي السلطان جان بك وتين بك وسنذكرهما وليست أم ابنته إيت كججك وأمها كانت الملكة قبل هذه واسم هذه الخاتون طيطغلي (بفتح الطاء المهملة الاولى واسكان الياء آخر الحروف وضم الطاء الثانية واسكان الغين المعجمة وكسر اللام وياء مد) وهى أحظى نساء هذا السلطان عنده وعندها يبيت أكثر لياليه ويعظمها الناس بسبب تعظيمه لها والافهى أبخل الخواتين وحدثني من أعتمده من العارفين باخبار هذه الملكة ان السلطان يحبها للخاصية التي فيها وهى انه يجدها كل ليلة كأنها بكر وذكر لى غيره انها من سلالة المرأة التي يذكر ان الملك زال عن سليمان عليه السلام بسببها ولما عاد اليه ملكه أمر ان توضع بصحراء لا عمارة فيها فوضعت بصحراء قفجق وان رحم هذه الخاتون شبه الحلقة خلقة وكذلك كل من هو من نسل المرأة المذكورة ولم أر بصحراء قفجق ولا غيرها من أخبر انه رأى امرأة على هذه الصورة ولا سمع بها الا هذه الخاتون اللهم الا ان بعض أهل الصين أخبرنى ان بالصين صنفا من نسائها على هذه الصورة ولم يقع بيدى ذلك ولا عرفت له حقيقة وفى غد اجتماعى بالسلطان دخلت الى هذه الخاتون وهي قاعدة فيما بين عشر من النساء القواعد كانهن خديمات لها وبين يديها نحو خمسين جارية صغارا يسمون البنات وبين أيديهن طيافير الذهب والفضة مملوءة بحب الملوك وهن ينقينه وبين يدى الخاتون صينية ذهب مملوءة منه وهى تنقيه فسلمنا عليها وكان فى جملة أصحابى قاريء يقرأ القرآن على طريقة المصريين بطريقة حسنة وصوت طيب فقرأ ثم أمرت ان يؤتي بالقمز فاتي به فى أقداح خشب لطاف خفاف فاخذت القدح بيدها وناولتنى اياه وتلك نهاية الكرامة عندهم ولم أكن شربت القمز قبلها ولكن لم يمكني الا قبوله وذقته ولا خير فيه ودفعته لاحد أصحابي وسالتنى عن كثير من حال سفرنا فاجبناها ثم انصرفنا عنها وكان ابتداؤنا بها لاجل عظمتها عند الملك

— ذكر الخاتون الثانية التي تلى الملكة —

واسمها كبك خاتون (بفتح الكاف الاولى وكسر الباء الموحدة) ومعناه بالتركية النخالة وهى بنت الامير نغطى (واسمه بنون وغين معجمة وطاء مهملة مفتوحات وياء مسكنة) وأبوها حي مبتلى بعلة النقرس وقد رأيته وفى غد دخولنا على الملكة دخلنا على هذه الخاتون فوجدناها على مرتبة تقرأ فى المصحف الكريم وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد ونحو عشرين من البنات يطرزن ثيابا فسلمنا عليها وأحسنت فى السلام والكلام وقرأ قارئنا

فاستحسنته وأمرت بالقمز فاحضروناولتني القدح بيدها كمثل مافعلته الملكة وانصرفنا عنها

ــــ ذكر الخاتون الثالثة ــــ

واسمها بيلون (بباء موحدة وياء آخر الحروف كلاهما مفتوح ولام مضموم وواو مدو نون) وهي بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تكفور ودخلنا على هذه الخاتون وهي قاعدة على سرير مرصع قوائمه فضة وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونوبيات منهن قائمات وقاعدات والفتيان على رأسها والحجاب بين يديها من رجال الروم فسألت عن حالنا ومقدمنا وبعد أوطاننا وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها رقة منها وشفقة وأمرت بالطعام فاحضروا أكلنا بين يديها وهي تنظر الينا ولما أردنا الانصراف قالت لا تنقطعوا عنا وترددوا الينا وطالبونا بحوائجكم وأظهرت مكارم الاخلاق وبعثت في أثرنا بطعام وخبز كثير وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة وثلاثة من جياد الخيل وعشرة من سائرها ومع هذه الخاتون كان سفري الى القسطنطينية العظمى كما نذكره بعد

ــــ ذكر الخاتون الرابعة ــــ

واسمها أردوجا (بضم الهمزة واسكان الراء وضم الدال المهمل وجيم وألف) وأردو بلسانهم المحلة وسميت بذلك لولادتها في المحلة وهي بنت الامير الكبير عيسى بك أمير الالوس (بضم الهمز واللام) ومعناه أمير الامراء وأدركته حيا وهو متزوج ببنت السلطان إيت كججك وهذه الخاتون من أفضل الخواتين وألطفهن شمائل وأشفقهن وهي التي بعثت الي لما رأت بيتي على التل عند جواز المحلة كما قدمناه دخلنا عليها فرأينا من حسن خلقها وكرم نفسها مالا مزيد عليه وأمرت بالطعام فاكلنا بين يديها ودعت بالقمز فشرب أصحابنا وسألت عن حالنا فاجبناها ودخلنا أيضا الى أختها زوجة الامير علي بن أرزق

ــــ ذكر بنت السلطان المعظم أوزبك ــــ

واسمها إيت كججك وإيت (بكسر الهمزة وياء مدو تاء مثناة وكججك بضم الكاف وضم الجيمين ومعنى اسمها الكلب الصغير فان إيت هو الكلب وكججك هو الصغير وقد قدمنا ان الترك يسمون بالفال كما تفعل العرب وتوجهنا الى هذه الخاتون بنت الملك وهي في محلة منفردة على نحو ستة أميال من محلة والدها فامرت باحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف ابن عبد الحميد وجماعة الطلبة والمشايخ والفقهاء وحضر زوجها الامير عيسى الذي بنته زوجة السلطان فقعد معها على فراش واحد وهو معتل بالنقرس فلا يستطيع التصرف على قدميه ولا ركوب الفرس وانما يركب العربة واذا اراد الدخول على السلطان انزله خدامه وادخلوه

الى المجلس محمولا وعلى هذه الصورة رأيت أيضا الامير نغطى وهو أبو الخاتون الثانية وهذه العلة فاشية فى هؤلاء الاتراك ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المكارم وحسن الاخلاق مالم نره من سواها وأجزلت الاحسان وأفضلت جزاها الله خيرا

— ذكر ولدي السلطان —

وهما شقيقان وأمهما جميعا الملكة طيطغلى التي قدمنا ذكرها والاكبر منهما اسمه تين بك (بتاء معلوة مكسورة وياء مدو نون مفتوح) وبك معناه الامير وتين معناه الجسد فكأن اسمه أمير الجسد واسم أخيه جان بك (بفتح الجيم وكسر النون) ومعني جان الروح فكأنه يسمى أمير الروح وكل واحد منهما له محلة على حدة وكان تين بك من أجمل خلق الله صورة وعهد له أبوه بالملك وكانت له الحظوة والتشريف عنده ولم يرد الله ذلك فانه لما مات أبوه ولى يسيرا ثم قتل لامور قبيحة جرت له وولى أخوه جان بك وهو خير منه وأفضل وكان السيد الشريف ابن عبد الحميد هو الذى تولى تربية جان بك وأشار على هو والقاضى حمزة والامام بدر الدين القوامي والامام المقريء حسام الدين البخارى وسواهم حين قدومي أن يكون نزولى بمحلة جان بك المذكور لفضله ففعلت ذلك

— ذكر سفري الى مدينة بلغار —

وكنت سمعت بمدينة بلغار فأردت التوجه اليها لأرى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضا فى عكس ذلك الفصل وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر فطلبت منه من يوصلني اليها فبعث معى من أوصلني اليها وردني اليه ووصلتها فى رمضان فلما صلينا المغرب أفطرنا وأذن بالعشاء فى أثناء إفطارنا فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر إثر ذلك وكذلك يقصر النهار بها فى فصل قصره أيضاً وأقمت بها ثلاثا

— ذكر أرض الظلمة —

وكنت أردت الدخول الى أرض الظلمة والدخول اليها من بلغار وبينهما أربعون يوما ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى والسفر اليها لا يكون الا فى عجلات صغار تجرها كلاب كبار فان تلك المفازة فيها الجليد فلا يثبت قدم الآدمى ولا حافر الدابة فيها والكلاب لها الاظفار فتثبت أقدامها فى الجليد ولا يدخلها الا الاقوياء من التجار الذين يكون لاحدهم مائة عجلة أو نحوها موفرة بطعامه وشرابه وحطبه فانها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر والدليل بتلك الارض هو الكلب الذي قد سار فيها مرارا كثيرة وتنتهى قيمته الى ألف دينار ونحوها وتربط العربة الى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب ويكون

هو المقدم وتتبعه سائر الكلاب بالعربات فاذا وقف وقفت وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره واذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولا قبل بني آدم والا غضب الكلب وفر وترك صاحبه للتلف فاذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك وعادوا الى منزلهم المعتاد فاذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم فيجدون بازائه من السمور والسنجاب والقاقم فان أرضى صاحب المتاع ما وجده ازاء متاعه أخذه وان لم يرضه تركه فيزيدونه وربما رفعوا متاعهم أعني أهل الظلمة وتركوا متاع التجار وهكذا بيعهم وشراؤهم ولا يعلم الذين يتوجهون الى هنالك من يبايعهم ويشاريهم أمن الجن هو أم من الانس ولا يرون أحدا والقاقم هو أحسن أنواع الفراء وتساوي الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار وصرفها من ذهبنا مائتان وخمسون وهي شديدة البياض من جلد حيوان صغير في طول الشبر وذنبه طويل يتركونه في الفروة على حاله والسمور دون ذلك تساوي الفروة منه أربعمائة دينار فما دونها ومن خاصية هذه الجلود انه لا يدخلها القمل وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلا بفرواتهم عند العنق وكذلك تجار فارس والعراقين وعدت من مدينة بلغار مع الامير الذي بعثه السلطان في صحبتي فوجدت محلة السلطان على الموضع المعروف ببش دغ وذلك في الثامن والعشرين من رمضان وحضرت معه صلاة العيد وصادف يوم العيد يوم الجمعة

— ذكر ترتيبهم في العيد —

ولما كان صباح يوم العيد ركب السلطان في عساكره العظيمة وركبت كل خاتون عربتها ومعها عساكرها وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها اذ هي الملكة على الحقيقة ورثت الملك من أمها وركب أولاد السلطان كل واحد في عسكره وكان قد قدم لحضور العيد قاضي القضاة شهاب الدين السايلي ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ فركبوا وركب القاضي حمزة والامام بدر الدين القوامي والشريف ابن عبد الحميد وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تين بك ولي عهد السلطان ومعهم الاطبال والاعلام فصلى بهم القاضي شهاب الدين وخطب أحسن خطبة وركب السلطان وانتهى الى برج خشب يسمى عندهم الكشك فجلس فيه ومعه خواتينه ونصب برج ثان دونه فجلس فيه ولي عهده وابنته صاحبة التاج ونصب برجان دونهما عن يمينه وشماله فيهما أبناء السلطان وأقاربه ونصبت الكراسي للامراء وأبناء الملوك وتسمى الصندليات عن يمين البرج وشماله فجلس كل واحد على كرسيه ثم نصبت طبلات للرمي لكل أمير طومان طبلة مختصة به

وأمير طومان عندهم هو الذي يركب له عشرة آلاف فكان الحاضرون من أمراء طومان سبعة عشر يقودون مائة وسبعين الفا وعسكره أكثر من ذلك ونصب لكل أمير شبه منبر فقعد عليه وأصحابه يلعبون بين يديه فكانوا على ذلك ساعة ثم أتي بالخلع فخلعت على كل أمير خلعة وعند ما يلبسها يأتي الى أسفل برج السلطان فيخدم وخدمته ان يمس الارض بركبته اليمني ويمد رجله تحتها والأخرى قائمة ثم يؤتى بفرس مسرج ملجم فيرفع حافره ويقبل فيه الامير ويقوده بنفسه الى كرسيه وهنالك يرتبه ويقف مع عسكره ويفعل هذا الفعل مع كل أمير منهم ثم ينزل السلطان على البرج ويركب الفرس وعن يمينه ابنه ولى العهد وتليه بنته الملكة إيت كججك وعن يساره ابنه الثاني وبين يديه الخواتين الاربع في عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب والخيل التي تجرها مجللة بالحرير المذهب وينزل جميع الامراء الكبار والصغار وأبناء الملوك والوزراء والحجاب وأرباب الدولة فيمشون بين يدى السلطان على أقدامهم الى أن يصل الى الوطاق والوطاق (بكسر الواو) وهو أفراج وقد نصبت هنالك باركة (باركاه) عظيمة والباركة عندهم بيت كبير له أربعة أعمدة من الخشب مكسوة بصفائح الفضة الموهة بالذهب وفى أعلى كل عمود جامور من الفضة المذهبة له بريق وشعاع وتظهر هذه الباركة على البعد كانها ثنية ويوضع عن يمينها ويسارها سقائف من القطن والكتان ويفرش ذلك كله بفرش الحرير وينصب فى وسط الباركة السرير الاعظم وهم يسمونه التخت وهو من خشب مرصع وأعواده مكسوة بصفائح فضة مذهبة وقوائمه من الفضة الخالصة الموهة وفوقه فرش عظيم وفى وسط هذا السرير الاعظم مرتبة يجلس بها السلطان والخاتون الكبرى وعن يمينه مرتبة جلست بها بنته إيت كججك ومعها الخاتون اردواجا وعن يساره مرتبة جلست بها الخاتون بيلون ومعها الخاتون كبك ونصب عن يمين السرير كرسي قعد عليه تين بك ولد السلطان ونصب عن شماله كرسى قعد عليه جان بك ولده الثاني ونصبت كراسى عن اليمين والشمال جلس فوقها ابناء الملوك والامراء الكبار ثم الامراء الصغار مثل امراء هزارة وهم الذين يقودون ألفا ثم أتي بالطعام على موائد الذهب والفضة وكل مائدة يحملها أربعة رجال وأكثر من ذلك وطعامهم لحوم الخيل والغنم مسلوقة وتوضع بين يدى كل أمير مائدة ويأتى الباورجى وهو مقطع اللحم وعليه ثياب حرير وقد ربط عليها فوطة حرير وفى حزامه جملة سكاكين فى أغمادها ويكون لكل أمير باورجي فاذا قدمت المائدة قعد بين يدى أميره ويؤتى بصحفة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء فيقطع الباورجي اللحم قطعا

صغارا ولهم في ذلك صنعة في قطع اللحم مختلطا بالعظم فانهم لا يأكلون منه الا ما اختلط بالعظم ثم يؤتي باواني الذهب والفضة للشرب وأكثر شربهم نبيذ العسل وهم حنفية المذهب يحللون النبيذ فاذا أراد السلطان أن يشرب أخذت بنته القدح بيدها وخدمت برجلها ثم ناولته القدح فشرب ثم تاخذ قدحا آخر فتناوله للخاتون الكبرى فتشرب منه ثم تناول لسائر الخواتين على ترتيبهن ثم ياخذ ولي العهد القدح ويخدم ويناوله أباه فيشرب ثم يناول الخواتين ثم أخته ويخدم جميعهن ثم يقوم الولد الثاني فياخذ القدح ويسقي اخاه ويخدم له ثم يقوم الامراء الكبار فيسقي كل واحد منهم ولي العهد ويخدم له ثم يقوم أبناء الملوك فيسقي كل واحد منهم هذا الابن الثاني ويخدم له ثم يقوم الامراء الصغار فيسقون أبناء الملوك ويغنون أثناء ذلك بالموالية وكانت قد نصبت قبة كبيرة أيضا إزاء المسجد للقاضي والخطيب والشريف وسائر الفقهاء والمشايخ وأنا معهم فاوتينا بموائد الذهب والفضة يحمل كل واحدة أربعة من كبار الاتراك ولا يتصرف في ذلك اليوم بين يدى السلطان الا الكبار فيامرهم برفع ما أراد من الموائد الى من أراد فكان من الفقهاء من أكل ومنهم من تورع عن الاكل في موائد الفضة والذهب ورأيت مد البصر عن اليمين والشمال من العربات عليها روايا القمز فامر السلطان بتفريقها على الناس فاتوا الى بعربة منها فاعطيتها لجيراني من الاتراك ثم أتينا المسجد ننتظر صلاة الجمعة فابطا السلطان فمن قائل انه لا ياتي لان السكر قد غلب عليه ومن قائل انه لا يترك الجمعة فلما كان بعد تمكن الوقت أتى وهو يتمايل فسلم على السيد الشريف وتبسم له وكان يخاطبه بآطا وهو الاب بلسان التركية ثم صلينا الجمعة وانصرف الناس الى منازلهم وانصرف السلطان الى الباركة فبقي على حاله الى صلاة العصر ثم انصرف الناس أجمعون وبقي مع الملك تلك الليلة خواتينه وبنته ثم كان رحيلنا مع السلطان والمحلة لما انقضي العيد فوصلنا الى مدينة الحاج ترخان ومعنى ترخان عندهم الموضع المحرر من المغارم (وهو بفتح المثناة وسكون الراء وفتح الخاء المعجم وآخره نون) والمنسوب اليه هذه المدينة هو حاج من الصالحين تركي نزل بموضعها وحرر له السلطان ذلك الموضع فصار قرية ثم عظمت وتمدنت وهي من أحسن المدن عظيمة الاسواق مبنية على نهر أتل وهو من أنهار الدنيا الكبار وهنالك يقيم السلطان حتي يشتد البرد ويجمد هذا النهر وتجمد المياه المتصلة به ثم يامر أهل تلك البلاد فياتون بالالآف من احمال التبن فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر والتبن هنالك لا تاكله الدواب لانه يضرها وكذلك ببلاد الهند وانما أكلها الحشيش الاخضر لخصب البلاد.

ويسافرون بالعربات فوق هذا النهر والمياه المتصلة به ثلاث مراحل وربما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء فيغرقون ويهلكون ولما وصلنا مدينة الحاج ترخان رغبت الخاتون بيلون ابنة ملك الروم من السلطان أن يأذن لها في زيارة أبيها لتضع حملها عنده وتعود اليه فاذن لها ورغبت منه أن يأذن لي في التوجه صحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى فمنعني خوفا علي فلاطفته وقلت له انما أدخلها في حرمتك وجوارك فلا أخاف من أحد فاذن لي وودعناه ووصلني بالف وخمسمائة دينار وخلعة وأفراس كثيرة وأعطتني كل خاتون منهن سبائك الفضة وهم يسمونها صوم (بفتح الصاد المهمل) واحدتها صومة وأعطت بنته أكثر منهن وكستني واركبتني واجتمع لي من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور جملة

ذكر سفري الى القسطنطينية

وسافرنا في العاشر من شوال في صحبة الخاتون بيلون وتحت حرمتها ورحل السلطان في تشييعها مرحلة ورجع هو والملكة وولي عهده وسافر سائر الخواتين في صحبتها مرحلة ثانية ثم رجعن وسافر صحبتها الامير بيدره في خمسة الآف من عسكره وكان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس منهم خدامها من المماليك والروم نحو مائتين والباقون من الترك وكان معها من الجواري نحو مائتين وأكثرهن روميات وكان لها من العربات نحو أربعمائة عربة ونحو ألفي فرس لجرها وللركوب ونحو ثلثمائة من البقر ومائتين من الجمال لجرها وكان معها من الفتيان الروميين عشرة ومن الهنديين مثلهم وقائدهم الاكبر يسمي بسنبل الهندي وقائد الروميين يسمي بميخائيل ويقول له الاتراك لؤلؤ وهو من الشجعان الكبار وتركت أكثر جواريها واثقالها بمحلة السلطان اذ كانت قد توجهت برسم الزيارة ووضع الحمل وتوجهنا الى مدينة أكك وهي (بضم الهمزة وفتح الكاف الاولى) مدينة متوسطة حسنة العمارة كثيرة الخيرات شديدة البرد وبينها وبين السرا حضرة السلطان مسيرة عشر وعلى يوم من هذه المدينة جبال الروس وهم نصارى شقر الشعور زرق العيون قباح الصور أهل غدر وعندهم معادن الفضة ومن بلادهم يؤتي بالصوم وهي سبائك الفضة التي بها يباع ويشتري في هذه البلاد ووزن الصومعة منها خمس أوقى ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة الى مدينة سرادق (وضبط اسمها بضم السين المهمل وسكون الراء وفتح الدال المهمل وآخره قاف) وهي من مدن دشت قفجق على ساحل البحر ومرساها من أعظم المراسي وأحسنها وبخارجها البساتين والمياه وينزلها الترك وطائفة من الروم تحت ذمتهم وهم أهل الصنائع وأكثر بيوتها خشب وكانت هذه المدينة

كبيرة فخرب معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك وكانت الغلبة للروم فانتصر للترك أصحابهم وقتلوا الروم شر قتلة ونفوا أكثرهم وبقي بعضهم تحت الذمة الى الآن وكانت الضيافة تحمل الى الخاتون فى كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر والدوقي والقمز وألبان البقر والغنم والسفر فى هذه البلاد مضحى ومعشى وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره الى آخر حد بلاده تعظيما لها لانها خوفا عليها لان تلك البلاد آمنة ثم وصلنا الى البلدة المعروفة باسم باباسلطوق وبابا عندهم بمعناه عند البربر سواء الا انهم يفخمون الباء وسلطوق (بفتح السين المهمل واسكان اللام وضم الطاء المهمل وآخره قاف) ويذكرون ان سلطوق هذا كان مكاشفا لكن يذكر عنه أشياء ينكرها الشرع وهذه البلدة آخر بلاد الاتراك بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوما فى برية غير معمورة منها ثمانية أيام لا ماء بها يتزود لها الماء ويحمل فى الروايا والقرب على العربات وكان دخولنا اليها فى أيام البرد فلم نحتج الى كثير من الماء والاتراك يرفعون الالبان فى القرب ويخلطونها بالدوقي المطبوخ ويشربونها فلا يعطشون واخذنا من هذه البلدة فى الاستعداد للبرية واحتجت الى زيادة افراس فاتيت الخاتون فاعلمتها بذلك وكنت أسلم عليها صباحا ومساء ومتى أتتها ضيافة تبعث الى بالفرسين والثلاثة وبالغنم فكنت أترك الخيل لاذبحها وكان من معي من الغلمان والخدام يأكلون مع أصحابنا الاتراك فاجتمع لى نحو خمسين فرسا وامرت لى الخاتون بخمسة عشر فرسا وأمرت وكيلها ساروجة الرومى ان يختارها سمانا من خيل المطبخ وقالت لا تخف فان احتجت الى غيرها زدناك ودخلنا البرية فى منتصف ذى القعدة فكان سيرنا من يوم فارقنا السلطان الى اول البرية تسعة عشر يوما واقامتنا خمسة ورحلنا من هذه البرية ثمانية عشر يوما مضحى ومعشى ومارأينا الاخيرا والحمد لله ثم وصلنا بعد ذلك الى حصن مهتولى وهو أول عمالة الروم (وضبط اسمه بفتح الميم وسكون الهاء وضم التاء المعلوة وواو مد ولام مكسور وياء) وكانت الروم قد سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها فوصلنا الى هذا الحصن كفالى بقوله الرومى فى عسكر عظيم وضيافة عظيمة وجاءت الخواتين والدايات من دار ابيها ملك القسطنطينية وبين مهتولى والقسطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوما منها ستة عشر يوما الى الخليج وستة منه الى القسطنطينية ولا يسافر من هذا الحصن الا بالخيل والبغال وتترك العربات به لاجل الوعر والجبال وجاء كفالى المذكور ببغال كثيرة وبعث الى الخاتون بستة منها وأوصت أمير ذلك الحصن بمن تركته من أصحابى وغلمانى مع العربات والاثقال فامر لهم بدار ورجع الامير بيدرة بعساكر ولم يسافر مع الخاتون الا ناسه

وتركت مسجدها بهـذا الحصن وارتفع حـكم الاذان وكان يؤتى اليها بالخمور في الضيافة فتشرب بها وبالخنازير وأخبرني بعض خواصها انها أكلتها ولم يبق معها من يصلى الا بعض الاتراك كان يصلى معنا وتغيرت البواطن لدخولنا فى بلاد الكفر ولكن الخاتون أوصت الامير كفالى باكرامي ولقد ضرب مرة بعض مماليكه لما ضحك من صلاتنا ثم وصلنا حصن مسلمة بن عبد الملك وهو بسفح جبل على نهر زخار يقال له اصطفيلي ولم يبق من هذا الحصن الا آثاره وبخارجه قرية كبيرة ثم سرنا يومين ووصلنا الى الخليج وعلى ساحله قرية كبيرة فوجدنا فيه المد فاقمنا حتى كان الجزر وخضناه وعرضه نحو ميلين ومشينا أربعة أميال فى رمال ووصلنا الخليج الثانى فخضناه وعرضه نحو ثلاثة أميال ثم مشينا نحو ميلين في حجارة ورمل ووصلنا الخليج الثالث وقد ابتدأ المد فتبعنا فيه وعرضه ميل واحد فعرض الخليج كله مائية ويابسه اثنا عشر ميلا وتصير ماء كلها في أيام المطر فلا تخاض الا فى القوارب وعلى ساحل هـذا الخليج الثالث مدينة الفنيكة (واسمها بفاء مفتوحة ونون وياء مدوكاف مفتوح) وهى صغيرة لكنها حسنة مانعة وكنائسها وديارها حسان والانهار تخرقها والبساتين تحفها ويدخر بها العنب والاجاص والتفاح والسفرجل من السنة الى الاخرى وأقمنا بهـذه المدينة ثلاثا والخاتون فى قصر لابيها هنالك ثم قدم أخوها شقيقها واسمه كفالى قراس في خمسة آلاف فارس شاكين السلاح ولما أرادوا لقاء الخاتون ركب أخوها المذكور فرسا أشهب ولبس ثيابا بيضاء وجعل على رأسه مظللا مكللا بالجواهر وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم لابسين البياض أيضا وعليهم مظللات مزركشة بالذهب وجعل بين يديه مائة من المشائين ومائة فارس قد أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم وكل واحد منهم يقود فرسا مسرجا مدرعا عليه شكة فارس من البيضة المجوهرة والدروع والتركش والقوس والسيف وبيده رمح فى طرفه رأسه راية وأكثر تلك الرماح مكسوة بصفائح الذهب والفضة وتلك الخيل المقودة هى مراكب ابن السلطان وقسم فرسانه على أفواج كل فوج فيه مائتا فارس ولهم أمير قد قدم أمامه عشرة من الفرسان شاكين فى السلاح وكل واحد منهم يقود فرسا وخلفه عشرة من العلامات ملونة بأيدى عشرة من الفرسان وعشرة أطبال يتقلدها عشرة من الفرسان ومعهم ستة يضربون الابواق والانفار والصرنايات وهي الغيطات وركبت الخاتون في مماليكها وجواريها وفتيانها وخدامها وهم نحو خمسمائة عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب المرصعة وعلى الخاتون حلة يقال لها النخ ويقال لهـا أيضاً النسيج مرصعة بالجوهر وعلى

رأسها تاج مرصع وفرسها مجلل بجل حرير مزركش بالذهب وفي يده ورجليه خلاخل الذهب وفي عنقه قلائد مرصعة وعظم السرج مكسو ذهبا مكلل جوهرا وكان التقاؤها في بسيط من الارض على نحو ميل من البلد وترجل لها أخوها لانه أصغر سنا منها وقبل ركابها وقبلت رأسه وترجل الامراء وأولاد الملوك وقبلوا جميعا ركابها وانصرفت مع أخيها وفي غد ذلك اليوم وصلنا الى مدينة كبيرة على ساحل البحر لا أثبت الآن اسمها ذات أنهار وأشجار نزلنا بخارجها ووصل أخو الخاتون ولي العهد في ترتيب عظيم وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرع وعلى رأسه تاج وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء الا أن الحفل أعظم والجمع أكثر وتلاقت معه أخته في مثل زيها الاول وترجلا جميعا وأوتي بخباء حرير فدخلا فيه فلا أعلم كيفية سلامهما ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية فلما كان بالغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان ركبانا ومشاة في أحسن زي وأجمل لباس وضربت عند الصبح الاطبال والابواق والانفار وركبت العساكر وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون وأرباب الدولة والخواص وعلى رأس الملك رواق يحمله جملة من الفرسان ورجال بايديهم عصي طوال في أعلى كل عصي شبه كرة من جلد يرفعون بها الرواق وفي وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصي ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر وكثر العجاج ولم أقدر على الدخول فيما بينهم فلزمت أثقال الخاتون وأصحابها خوفا على نفسي وذكر لي انها لما قربت من أبويها ترجلت وقبلت الارض بين أيديهما ثم قبلت حافري فرسيهما وفعل كبار أصحابها مثل فعلها في ذلك وكان دخولنا عند الزوال أو بعده الى القسطنطينية العظمى وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها ولما وصلنا الباب من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائدهم فوق دكانه وسمعتهم يقولون سرا كنوا سرا كنوا ومعناه المسلمون ومنعونا من الدخول فقال لهم أصحاب الخاتون انهم من جهتنا فقالوا لا يدخلون الا باذن فاقمنا بالباب وذهب بعض أصحاب الخاتون فبعث من أعلمها بذلك وهي بين يدي والدها فذكرت له شاننا فامر بدخولنا وعين لنا دارا بمقربة من دار الخاتون وكتب لنا أمرا بان لا نعترض حيث نذهب من المدينة ونودي بذلك في الاسواق وأقمنا بالدار ثلاثا تبعث الينا الضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والفرش وفي اليوم الرابع دخلنا على السلطان

ذكر سلطان القسطنطينية

واسمه تكفور (بفتح التاء المثناة وسكون الكاف وضم الفاء وواو وراء) ابن السلطان جرجيس وأبوه السلطان جرجيس بقيد الحياة لكنه تزهد وترهب وانقطع للعبادة في الكنائس وترك الملك لولده وسنذكره وفي اليوم الرابع من وصولنا الى القسطنطينية بعثت الي الخاتون الفتى سنبل الهندي فاخذ بيدي وأدخلني الى القصر فجزنا أربعة أبواب في كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم وقائدهم على دكانة مفروشة فلما وصلنا الى الباب الخامس تركني الفتى سنبل ودخل ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين ففتشوني لئلا يكون معي سكين وقال لي القائد تلك عادة لهم لا بد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام غريب أو بلدي وكذلك الفعل بارض الهند ثم لما فتشوني قام الموكل بالباب فاخذ بيدي وفتح الباب وأحاط بي أربعة من الرجال أمسك اثنان بكمي واثنان من ورائي فدخلوا بي الى مشور كبير حيطانه بالفسيفساء قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد وفي وسطه ساقية ماء ومن جهتيها الاشجار والناس واقفون يمينا ويسارا سكوتا لا يتكلم أحد منهم وفي وسط المشور ثلاثة رجال وقوف أسلمني أولئك الاربعة اليهم فامسكوا بثيابي كما فعل الآخرون وأشار اليهم رجل فتقدموا بي وكان أحدهم يهوديا فقال لي بالعربي لا تخف فهكذا عادتهم ان يفعلوا بالوارد وأنا الترجمان وأصلي من بلاد الشام فسألته كيف أسلم فقال قل السلام عليكم ثم وصلت الى قبة عظيمة والسلطان على سريره وزوجته أم هذه الخاتون بين يديه وأسفل السرير الخاتون واخوتها وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة وكلهم بالسلاح فاشار الي قبل السلام والوصول اليه بالجلوس هنية ليسكن روعي ففعلت ذلك ثم وصلت اليه فسلمت عليه وأشار الي ان اجلس فلم أفعل وسألني عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدسة وعن القمامة وعن مهد عيسى وعن بيت لحم وعن مدينة الخليل عليه السلام ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم فاجبته عن ذلك كله واليهودي يترجم بيني وبينه فاعجبه كلامي وقال لا ولادها كرموا هذا الرجل وأمنوه ثم خلع علي خلعة وأمر لي بفرس مسرج ملجم ومظلة من التي يجعلها الملك فوق رأسه وهي علامة الامان وطلبت منه ان يعين من يركب معي بالمدينة في كل يوم حتى أشاهد عجائبها وغرائبها وأذكرها في بلادي فعين لي ذلك ومن العوائد عندهم ان الذي يلبس خلعة الملك ويركب فرسه يطاف به في أسواق المدينة بالابواق والانفار والاطبال ليراه الناس وأكثر ما يفعل ذلك بالاتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك لئلا يؤذون فطافوا بي في الاسواق

— ذكر المدينة —

وهي متناهية في الكبر منقسمة بقسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر على شكل وادي سلا من بلاد المغرب وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت وهو الآن يعبر في القوارب واسم هذا النهر أبسمى (بفتح الهمزة واسكان الباء الموحدة وضم السين المهمل وكسر الميم وياء مد) وأحد القسمين من المدينة يسمي اصطنبول (بفتح الهمزة واسكان الصاد وفتح الطاء المهملتين وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو مد ولام) وهو بالعدوة الشرقية من النهر وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل وأكثر الصناع والباعة بها النساء والمدينة في سفح جبل داخل في البحر نحو تسعة أميال وعرضه مثل ذلك أو أكثر وفي أعلاه قلعة صغيرة وقصر السلطان والسور يحيط بهذا الجبل وهو مانع لا سبيل لاحد اليه من جهة البحر وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة والكنيسة العظمى هي في وسط هذا القسم من المدينة وأما القسم الثاني منها فيسمى الغلطة (بغين معجمة ولام وطاء مهمل مفتوحات) وهو بالعدوة الغربية من النهر شبيه برباط الفتح في قربه من النهر وهذا القسم خاص بنصارى الافرنج يسكنونه وهم أصناف فمنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومية وأهل افرانسة وحكمهم الى ملك القسطنطينية يقدم عليهم منهم من يرتضونه ويسمونه القمص وعليهم وظيفة في كل عام لملك القسطنطينية وربما استعصوا عليه فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابا وجميعهم أهل تجارة ومرساهم من أعظم المراسى رأيت به نحو مائة جفن من القراقر وسواها من الكبار وأما الصغار فلا تحصى كثرة وأسواق هذا القسم حسنة الا ان الاقذار غالبة عليها ويشقها نهر صغير قذر نجس وكنائسهم قذرة لا خير فيها

— ذكر الكنيسة العظمى —

وانما نذكر خارجها وأما داخلها فلم أشاهده وهي تسمى عندهم أياصوفيا (بفتح الهمزة والياء آخر الحروف والف وصاد مضموم وواو مد وفاء مكسورة وياء كالاولى وألف) ويذكر انها من بناء آصف بن برخياء وهو ابن خالة سليمان عليه السلام وهي من أعظم كنائس الروم وعليها سور يطيف بها فكأنها مدينة وأبوابها ثلاثة عشر بابا ولها حرم هو نحو ميل عليه باب كبير ولا يمنع أحد من دخوله وقد دخلته مع والد الملك الذي يقع ذكره وهو شبه مشور مسطح بالرخام وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة لها حائطان مرتفعان

نحو ذراع مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش باحسن صنعة والاشجار منتظمة عن جهتي الساقية ومن باب الكنيسة الى باب هذا المشور معرش من الخشب مرتفع عليه دوالى العنب وفى أسفله الياسمين والرياحين وخارج باب هذا المشور قبة خشب كبيرة فيها طبلات خشب يجلس عليها خدام ذلك الباب وعن يمين القبة مساطب وحوانيت أكثرها من الخشب يجلس بها قضاتهم وكتاب دواوينهم وفى وسط تلك الحوانيت قبة خشب يصعد اليها على درج خشب وفيها كرسى كبير مطبق بالملف يجلس فوقه قاضيهم وسنذكره وعن يسار القبة التى على باب هـذا المشور سوق العطارين والساقية التى ذكرناها تنقسم قسمين احدهما يمر بسوق العطارين والآخر يمر باسوق حيث القضاة والكتاب وعلى باب الكنيسة سقائف يجلس بها خدامها الذين يقمون طرقها ويوقدون سرجها ويغلقون أبوابها ولا يدعون أحدا يدخلها حتى يسجد للصليب الاعظم عندهم الذى يزعمون انه بقية من الخشبة التى صلب عليها شبيه عيسى عليه السلام وهـو على باب الكنيسة مجعول فى جعبة ذهب طولها نحو عشرة أذرع وقد عرضوا عليها جعبة ذهب مثلها حتى صارت صليبا وهـذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب وحلقتاه من الذهب الخالص وذكر لى ان عدد من بهـذه الكنيسة من الرهبان والقسيسين ينتهي الى آلاف وان بعضهم من ذرية الحواريين وان بداخلها كنيسة مختصة بالنساء فيها من الابكار المنقطعات للعبادة أزيد من ألف وأما القواعد من النساء فاكثر من ذلك كله ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس ان يؤتوا كل يوم صباحا الى زيارة هـذه الكنيسة ويأتى اليها البابا مرة فى السنة واذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك الى لقائه ويترجل له وعنـد دخول المدينة يمشى بين يديه على قدميه ويأتيه صباحا ومساء للسلام عليه طول مقامه بالقسطنطينية حتى ينصرف

ــــ ذكر المانستارات بقسطنطينية ــــ

والمانستار على مثل لفظ المـارستان الا أن نونه متقدمة وراءه متاخرة وهـو عنـدهم شبه الزاوية عنـد المسلمين وهـذه المانستارات بها كثيرة فمنها مانستار عمره الملك جرجيس والد ملك القسطنطينية وسنذكره وهـو بخارج اصطنبول مقابل الغلطة ومنها مانستاران خارج الكنيسه العظمي عن يمين الداخل اليها وهما فى داخل بستان يشقهما نهر ماء واحدهما للرجال والآخر للنساء وفى كل واحد منهما كنيسة ويدور بهما البيوت للمتعبدين والمتعبدات وقد حبس على كل واحد منهما احباس لكسوة المتعبدين ونفقتهم بناهما أحـد الملوك ومنها مانستاران عن يسار الداخل الى الكنيسة العظمى على مثل هذين الآخرين ويطيف

بهما بيوت واحدهما يسكنه العميان والثاني يسكنه الشيوخ الذين لا يستطيعون الخدمة ممن بلغ الستين أونحوها ولكل واحد منهم كسوته ونفقته من أوقاف معينة لذلك وفى داخل كل مانستار منها دويرة لتعبد الملك الذى بناه وأكثر هؤلاء الملوك اذا بلغ الستين أوالسبعين بنى مانستارا ولبس المسوح وهى ثياب الشعر وقلد ولده الملك واشتغل بالعبادة حتى يموت وهم يحتفلون فى بناء هذه المانستارات ويعملونها بالرخام والفسيفساء وهى كثيرة بهذه المدينة ودخلت مع الرومى الذى عينه الملك للركوب معى الى مانستار يشقه نهر وفيه كنيسة فيها نحو خمسمائة بكر عليهن المسوح ورؤسهن محلوقة فيها قلانس اللبد ولهن جمال فائق وعليهن أثر العبادة وقد قعد صبى على منبر يقرأ لهن الانجيل بصوت لم أسمع قط أحسن منه وحوله ثمانية من الصبيان على منابر ومعهم قسيسهم فلما قرأ هذا الصبى قرأ صبى آخر وقال لى الرومي ان هؤلاء البنات من بنات الملوك وهبن أنفسهن لخدمة هذه الكنيسة وكذلك الصبيان القراء ولهم كنيسة أخرى خارج تلك الكنيسة ودخلت معه أيضا الى كنيسة فى بستان فوجدنا بها نحو خمسمائة بكر أو أزيد وصبى يقرأ لهن على منبر وجماعة صبيان معه على منابر مثل الاولين فقال لى الرومى هؤلاء بنات الوزراء والامراء يتعبدن بهذه الكنيسة ودخلت معه الى كنائس فيها ابكار من وجوه أهل البلد والى كنائس فيها العجائز والقواعد من النساء والى كنائس فيها الرهبان يكون في الكنيسة منها مائة رجل وأكثر وأقل وأكثر أهل هذه المدينة رهبان ومتعبدون وقسيسون وكنائسها لا تحصى كثرة وأهل المدينة من جندى وغيره صغير وكبير يجعلون على رؤسهم المظلات الكبار شتاء وصيفا والنساء لهن عمائم كبار

—— ذكر الملك المترهب جرجيس ——

وهذا الملك ولى الملك لابنه وانقطع للعبادة وبنى مانستارا كما ذكرناه خارج المدينة على ساحلها وكنت يوما مع الرومي المعين للركوب معي فاذا بهذا الملك ماش على قدميه وعليه المسوح وعلى رأسه قلنسوة لبد وله لحية بيضاء طويلة ووجهه حسن عليه أثر العبادة وخلفه وامامه جماعة من الرهبان وبيده عكاز وفى عنقه سبحة فلما رآه الرومى نزل وقال لى انزل فهذا والد الملك فلما سلم عليه الرومي ساله عني ثم وقف وبعث لى فجئت اليه فاخذ بيدى وقال لذلك الرومي وكان يعرف اللسان العربى قل لهذا السراكنو يعني المسلم أنا أصافح اليد التى دخلت بيت المقدس والرجل التى مشت داخل الصخرة والكنيسة العظمى التى تسمى قمامة وبيت لحم وجعل يده على قدمي ومسح بها وجهه فعجبت من

اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم ثم أخذ بيدي ومشيت معه فسألني عن بيت المقدس ومن فيه من النصاري واطال السؤال ودخلت معه الى حرم الكنيسة الذي وصفناه آنفا ولما قارب الباب الاعظم خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه وهو من كبارهم في الرهبانية ولما رآهم أرسل يدي فقلت له أريد الدخول معك الى الكنيسة فقال للترجمان قل له لا بد لداخلها من السجود للصليب الاعظم فان هذا مما سنته الاوائل ولا يمكن خلافه فتركته ودخل وحده ولم أره بعدها

— ذكر قاضي القسطنطينية —

ولما فارقت الملك المترهب المذكور دخلت سوق الكتاب فرآني القاضي فبعث الى أحد أعوانه فسأل الرومي الذي معي فقال له انه من طلبة المسلمين فلما عاد اليه وأخبره بذلك بعث الى أحد أصحابه وهم يسمون القاضي النجشي كفالي فقال لي النجشي كفالي يدعوك فصعدت اليه الى القبة التي تقدم ذكرها فرأيت شيخاً حسن الوجه واللمة عليه لباس الرهبان وهو الملف الاسود وبين يديه نحو عشرة من الكتاب يكتبون فقام الى وقام أصحابه وقال أنت ضيف الملك ويجب علينا اكرامك وسألني عن بيت المقدس والشام ومصر وأطال الكلام وكثر عليه الازدحام وقال لي لا بد لك أن تأتي الى داري فاضيفك فانصرفت عنه ولم ألقه بعد

— ذكر الانصراف عن القسطنطينية —

ولما ظهر لمن كان في صحبة الخاتون من الاتراك انها علي دين أبيها وراغبة في المقام معه طلبوا منها الاذن في العودة الى بلادهم فأذنت لهم وأعطتهم عطاء جزيلا وبعثت معهم من يوصلهم الى بلادهم أميراً يسمي ساروجة الصغير في خمسمائة فارس وبعثت عني فاعطتني ثلاثمائة دينار من ذهبهم وهم يسمونه البربرة وليس بالطيب والفي درهم بندقية وشقة ملف من عمل البنات وهو أجود أنواعه وعشرة أثواب من حرير وكتان وصوف وفرسين وذلك من عطاء أبيها وأوصت بي ساروجة وودعتها وانصرفت وكانت مدة مقامي عندهم شهرا وستة أيام وسافرنا صحبة ساروجة فكان يكرمني حتى وصلنا الى آخر بلادهم حيث تركنا أصحابنا وعرباتنا فركبنا العربات ودخلنا البرية ووصل ساروجة معنا الى مدينة باباسلطوق وأقام بها ثلاثا في الضيافة وانصرفت الى بلاده وذلك في اشتداد البرد وكنت ألبس ثلاث فروات وسروالين احدهما مبطن وفي رجلي خف من صوف وفوقه خف مبطن بثوب كتان وفوقه خف من البرغالي وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب

وكنت أتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار فما تقطر من الماء قطرة الا جمدت لحينها واذا غسلت وجهي يصل الماء الى لحيتي فيجمد فاحركها فيسقط منها شبه الثلج والماء الذى ينزل من الانف يجمد على الشارب وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ماعلى من الثياب حتى يركبني أصحابي ثم وصلت الى مدينة الحاج ترخان حيث فارقنا السلطان أوزبك فوجدناه قد رحل واستقر بحضرة ملكه فسافرنا على نهر اتل وما يليه من المياه ثلاثا وهي جامدة وكنا اذا احتجنا الماء قطعنا قطعاً من الجليد وجعلناه فى القدر حتي يصير ماء فنشرب منه ونطبخ به ووصلنا الى مدينة السرا (وضبط اسمها بسين مهمل وراء مفتوحة وألف) وتعرف بسرا بركة وهى حضرة السلطان أوزبك ودخلنا على السلطان فسأ لنا عن كيفية سفرنا وعن ملك الروم ومدينته فأعلمناه وأمر باجراء النفقة علينا وانزلناو مدينة السرا من أحسن المدن متناهية الكبر فى بسيط من الارض تغص بأهلها كثرة حسنة الاسواق متسعة الشوارع وركبنا يوما مع بعض كبرائها وغرضنا التطوف عليها ومعرفة مقدارها وكان منزلنا فى طرف منها فركبنا منه غدوة فما وصلنا لآخرها الا بعد الزوال فصلينا الظهر وأكلنا طعاما فما وصلنا الى المنزل الا عند المغرب ومشينا يوما فى عرضها ذاهبين وراجعين فى نصف يوم وذلك فى عمارة متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين وفيها ثلاثة عشر مسجداً لاقامة الجمعة أحدها للشافعية وأما المساجد سوى ذلك فكثير جداً وفيها طوائف من الناس منهم المغل وهم أهل البلاد والسلاطين وبعضهم مسلمون ومنهم الاص وهم مسلمون ومنهم القفجق والجركس والروس والروم وهم نصارى وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها أسواقها والتجار والغرباء من أهل العراقين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطا على أموال التجار وقصر السلطان بها يسمي ألطون طاش وألطون (بفتح الهمزة وسكون اللام وضم الطاء المهمل وواو مد ونون) ومعناه الذهب وطاش (بفتح الطاء المهمل وشين معجم) ومعناه حجر وقاضى هذه الحضرة بدر الدين الاعرج من خيار القضاة وبها من مدرسى الشافعية الفقيه الامام الفاضل صدر الدين سليمان اللكزى أحد الفضلاء وبها من المالكية شمس الدين المصري وهو ممن يطعن فى ديانته وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين أضافنا بها وأكرمنا وبها زاوية الفقيه الامام العالم نعمان الدين الخوارزمي رأيته بها وهو من فضلاء المشايخ حسن الاخلاق كريم النفع شديد التواضع شديد السطوة على أهل الدنيا يأتي اليه السلطان أوزبك زائرا فى كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم اليه ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه ألطف كلام ويتواضع له والشيخ بضد

ذلك وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان فانه يتواضع لهم ويكلمهم بالطف كلام ويكرمهم واكرمني جزاه الله خيرا وبعث الى بغلام تركى وشاهدت له بركة

— كرامة له —

كنت أردت السفر من السرا الى خوارزم فنهاني عن ذلك وقال لى أقم أياما وحينئذ تسافر فنازعتني النفس ووجدت رفقة كبيرة آخذة فى السفر فيهم تجار اعرفهم فاتفقت معهم على السفر فى صحبتهم وذكرت له ذلك فقال لى لا بد لك من الاقامة فعزمت على السفر فابق لى غلام اقمت بسببه وهذه من الكرامات الظاهرة ولما كان بعد ثلاث وجد بعض أصحابي ذلك الغلام الآبق بمدينة الحاج ترخان فجاء به الي فحينئذ سافرت الى خوارزم وبينها وبين حضرة السرا صحراء مسيرة أربعين يوما لا تسافر فيها الخيل لقلة الكلاء وانما تجر العربات بها الجمال فسرنا من السرا عشرة أيام فوصلنا الى مدينة سرا جوق وجوق (بضم الجيم المعقود وواو وقاف) ومعنى جوق صغير فكانهم قالوا سرا الصغيرة وهي علي شاطىء نهر كبير زخار يقال له الوصو (بضم الهمزة واللام وواو مد وضم الصاد المهمل وواو) ومعناه الماء الكبير وعليه جسر من قوارب كجسر بغداد والى هذه المدينة انتهي سفرنا بالخيل التى تجر العربات وبعناها بها تجر بحساب أربعة دنانير دراهم للفرس وأقل من ذلك لاجل ضعفها ورخصها بهذه المدينة واكترينا الجمال لجر العربات وبهذه المدينة زاوية لرجل صالح معمر من الترك يقال له اطا (بفتح الهمزة والطاء المهمل) ومعناه الوالد اضافنا بها ودعا لنا وأضافنا أيضا قاضيها ولا أعرف اسمه ثم سرنا منها ثلاثين يوما سيرا جادا لا ننزل الا ساعتين احداهما عند الضحى والاخري عند المغرب وتكون الاقامة قدر ما يطبخون الدوقى ويشربونه وهو يطبخ من غلية واحدة ويكون معهم الخليع من اللحم يجعلونه عليه ويصبون عليه اللبن وكل انسان انما ينام أو ياكل فى عربته حال السير وكان لى فى عربتى ثلاث من الجوارى ومن عادة المسافرين فى هذه البرية الاسراع لقلة أعشابها والجمال التى تقطعها يهلك معظمها وما يبقى منها لا ينتفع به الا فى سنة أخرى بعد ان يسمن والماء فى هذه البرية فى مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة وهو ماء المطر والحسيان ثم لما سلكنا هذه البرية وقطعناها كما ذكرناه وصلنا الى خوارزم وهى أكبر مدن الاتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها لها الاسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة والمحاسن الاثيرة وهي ترتج بسكانها لكثرتهم وتموج بهم موج البحر ولقد ركبت بها يوما ودخلت السوق فلما توسطته وبلغت منتهي الزحام فى موضع يقال له الشهور (بفتح الشين

المعجم واسكان الواو) لم أستطع ان أجوز ذلك الموضع لكثرة الازدحام وأرت الرجوع فما أمكنني لكثرة الناس فبقيت متحيرا وبعد جهد شديد رجعت وذكر لي بعض الناس ان تلك السوق يخف زحامها يوم الجمعة لانهم يسدون سوق القيسارية وغيرها من الاسواق فركبت يوم الجمعة وتوجهت الى المسجد الجامع والمدرسة وهذه المدينة تحت إمرة السلطان أوزبك وله فيها أمير كبير يسمى قطلودمور وهو الذي عمر هذه المدرسة وماممها من المواضع المضافة وأما المسجد فعمرته زوجته الخاتون الصالحة ترابك وترا (بضم التاء المعلوة وفتح الراء وألف) وبك (بفتح الباء الموحدة والكاف) وبخوارزم مارستان له طبيب شامي يعرف بالصهيوني نسبة الى صهيون من بلاد الشام ولم أرفي بلاد الدنيا أحسن أخلاقا من أهل خوارزم ولا أكرم نفوسا ولا أحب فى الغرباء ولهم عادة جميلة فى الصلاة لم أرها لغيرهم وهي ان المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلما لهم بحضور الصلاة فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الامام بمحضر الجماعة وفى كل مسجد درة معلقة برسم ذلك ويغرم خمسة دنانير تنفق فى مصالح المسجد أو تطعم للفقراء والمساكين ويذكرون ان هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان وبخارج خوارزم نهر جيحون أحد الانهار الاربعة التي من الجنة وهو يجمد فى أوان البرد كما يجمد نهر أتل ويسلك الناس عليه وتبقى مدة جموده خمسة أشهر وربما سلكوا عليه عند أخذه فى الذوبان فهلكوا ويسافر فيه أيام الصيف بالمراكب الى ترمذ ويجلبون منها القمح والشعير وهي مسيرة عشر للمنحدر وبخارج خوارزم زاوية مبنية على تربة الشيخ نجم الدين الكبرى وكان من كبار الصالحين وفيها الطعام للوارد والصادر وشيخهم المدرس سيف الدين بن عصبة من كبار أهل خوارزم وبها أيضا زاوية شيخها الصالح المجاور جلال الدين السمرقندي من كبار الصالحين أضافنا بها وبخارجها قبر الامام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري وعليه قبة وزمخشر قرية على مسافة أربعة أميال من خوارزم ولما أتيت هذه المدينة نزلت بخارجها وتوجه بعض أصحابي الى القاضي الصدر أبي حفص عمر البكري فبعث الى نائبه نور الاسلام فسلم على ثم عاد اليه ثم أتى القاضي فى جماعة من صحابه فسلم على وهو فتي السن كبير الفعال وله نائبان احدهما نور الاسلام المذكور والآخر نور الدين الكرماني من كبار الفقهاء وهو الشديد فى احكامه القوي فى ذات الله تعالى ولما حصل الاجتماع بالقاضي قال لي ان هذه المدينة كثيرة الزحام ودخولكم نهارا لا يتاتي وسياتي اليكم نور الاسلام لتدخلوا معه من آخر الليل ففعلنا ذلك ونزلنا بمدرسة جديدة

ليس بها أحد ولما كان بعد صلاة الصبح أتى الينا القاضي المذكور ومعه من كبار المدينة جماعة منهم مولانا همام الدين ومولانا زين الدين المقدسي ومولانا رضي الدين يحيي ومولانا فضل الله الرضوى ومولانا جلال الدين العمادى ومولانا شمس الدين السنجرى امام أميرها وهم اهل مكارم وفضائل والغالب على مذهبهم الاعتزال لكنهم لا يظهرونه لان السلطان أوزبك وأميره على هذه المدينة قطلودمور من أهل السنة وكنت أيام اقامتى بها أصلي الجمعة مع القاضى أبى حفص عمر المذكور بمسجده فاذا فرغت الصلاة ذهبت معه الى داره وهي قريبة من المسجد فادخل معه الى مجلسه وهو من أبدع المجالس فيه الفرش الحافلة وحيطانه مكسوة بالملف وفيه طيقان كثيرة وفى كل طاق منها أوانى الفضة المموهة بالذهب والاواني العراقية وكذلك عادة أهل تلك البلاد ان يصنعوا فى بيوتهم ثم ياتى بالطعام الكثير وهو من أهل الرفاهية والمال الكثير والرباع وهو سلف الامير قطلودمور متزوج باخت امرأته واسمها جيجا أغا وبهذه المدينة جماعة من الوعاظ والمذكرين أكبرهم مولانا زين الدين المقدسي والخطيب مولانا حسام الدين المشاطي الخطيب المصقع أحد الخطباء الاربعة الذين لم أسمع فى الدنيا أحسن منهم

— وأمير خوارزم —

هو الامير الكبير قطلودمور وقطلو (بضم القاف وسكون الطاء المهمل وضم اللام) ودمور (بضم الدال المهمل والميم وواو مدوراه) ومعنى اسمه الحديد المبارك لان قطلو هو المبارك ودمور هو الحديد وهذا الامير ابن خالة السلطان المعظم محمد أوزبك وأكبر أمرائه وهو واليه على خراسان وولده هارون بك متزوج بابنة السلطان المذكور التي أمها الملكة طيطغلي المتقدم ذكرها وامرأته الخاتون ترابك صاحبة المكارم الشهيرة ولما أتانى القاضي مسلما على كما ذكرته قال لى ان الامير قد علم بقدومك وبه بقية مرض يمنعه من الاتيان اليك فركبت مع القاضى الى زيارته وأتينا داره فدخلنا مشورا كبيرا أكثر بيوته خشب ثم دخلنا مشورا صغيرا فيه قبة خشب مزخرفة قد كسيت حيطانها بالملف الملون وسقفها بالحرير المذهب والامير على فرش له من الحرير وقد غطي رجليه لما بهما من النقرس وهي علة فاشية فى الترك فسلمت عليه وأجلسنى الى جانبه وقعد القاضي والفقهاء وسالني عن سلطانه الملك محمد أوزبك وعن الخاتون بيلون وعن أبيها وعن مدينة القسطنطينية فاعلمته بذلك كله ثم أتي بالموائد فيها الطعام من الدجاج المشوية والكراكى وافراخ الحمام وخبز معجون بالسمن يسمونه الكليجا والكعك والحلوى ثم أتي بموائد أخرى فيها

الفواكه من الرمان المحبب فى أوانى الذهب والفضة ومعه ملاعق الذهب وبعضه فى أوانى الزجاج العراقي ومعه ملاعق الخشب ومن العنب والبطيخ العجيب ومن عوائد هذا الامير ان ياتى القاضى فى كل يوم الى مشوره فيجلس بمجلس معدله ومعه الفقهاء وكتابه ويجلس فى مقابلته أحد الامراء الكبراء ومعه ثمانية من كبراء امراء الترك وشيوخهم يسمون الارغجية (يارغوجى) ويتحاكم الناس اليهم فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضى وما كان من سواها حكم فيها أولئك الامراء وأحكامهم مضبوطة عادلة لانهم لا يتهمون بميل ولا يقبلون رشوة ولما عدنا الى المدرسة بعد الجلوس مع الامير بعث الينا الارز والدقيق والغنم والسمن والابزار وأحمال الحطب وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم وكذلك الهند وخراسان وبلاد العجم وأما الصين فيوقدون فيها حجارة تشتعل فيها النار كما تشتعل فى الفحم ثم اذا صارت رمادا عجنوه بالماء وجففوه بالشمس وطبخوا بها ثانية كذلك حتى يتلاشى

— حكاية ومكرمة لهذا القاضى والامير —

صليت فى بعض أيام الجمع على عادتى بمسجد القاضي أبي حفص فقال لى ان الامير آمر لك بخمسمائة درهم وأمر أن يصنع لك دعوة ينفق فيها خمسمائة درهم أخرى يحضرها المشايخ والفقهاء والوجوه فلما أمر بذلك قلت له أيها الامير تصنع دعوة يأكل من حضرها لقمة أو لقمتين لو جعلت له جميع المال كان أحسن له للنفع فقال افعل ذلك وقد أمر لك بالالف كاملة ثم بعثها الامير صحبة امامه شمس الدين السنجرى فى خريطة يحملها غلامه وصرفها من الذهب المغربي ثلاثمائة دينار وكنت قد اشتريت ذلك اليوم فرسا أدهم اللون بخمسة وثلاثين دينارا دراهم وركبته فى ذهابى الى المسجد فما أعطيت ثمنه الا من تلك الالف وتكاثرت عندى الخيل بعد ذلك حتى انتهت الى عدد لا أذكره خيفة مكذب يكذب به ولم تزل حالى فى الزيادة حتى دخلت أرض الهند وكانت عندي خيل كثيرة لكني كنت أفضل هذا الفرس وأوثره وأربطه امام الخيل وبقى عندى الى انقضاء ثلاث سنين ولما هلك تغيرت حالى وبعثت الى الخاتون جيجا أغا امرأة القاضى مائة دينار دراهم وصنعت لى أختها ترابك زوجة الامير دعوة جمعت لها الفقهاء ووجوه المدينة بزاويتها التى بنتها وفيها الطعام للوارد والصادر وبعثت الى بفروة سمور وفرس جيد وهى من أفضل النساء وأصلحهن وأكرمهن جزاها الله خيرا

— حكاية —

ولما انفصلت من الدعوة التى صنعت لى هذه الخاتون وخرجت عن الزاوية تعرضت

الى بالباب امرأة عليها ثياب دنسة وعلى رأسها مقنعة ومعها نسوة لا أذكر عددهن فسلمت على فرددت عليها السلام ولم أقف معها ولا التفت اليها فلما خرجت أدركني بعض الناس وقال لى ان المرأة التي سلمت عليك هي الخاتون فخجلت عند ذلك وأردت الرجوع اليها فوجدتها قد انصرفت فأبلغت اليها السلام مع بعض خدامها واعتذرت عما كان مني لعدم معرفتي بها

— ذكر بطيخ خوارزم —

و بطيخ خوارزم لا نظير له في بلاد الدنيا شرقا ولا غربا الا ما كان من بطيخ بخاري ويليه بطيخ أصفهان وقشره أخضر وباطنه أحمر وهو صادق الحلاوة وفيه صلابة ومن العجائب انه يقدد وييبس في الشمس ويجعل في القواصر كما يصنع عندنا بالشريحة وبالتين المالقي ويحمل من خوارزم الى أقصى بلاد الهند والصين وليس في جميع الفواكه اليابسة أطيب منه وكنت أيام اقامتي بدهلي من بلاد الهند متى قدم المسافرون بعثت من يشتري لى منهم قديد البطيخ وكان ملك الهند اذا أتى اليه بشيء منه بعث الى به لما يعلم من محبتي فيه ومن عادته انه يطرف الغرباء بفواكه بلادهم ويتفقدهم بذلك

— حكاية —

كان قد صحبني من مدينة السرى الى خوارزم شريف من أهل كربلاء يسمى على بن منصور وكان من التجار فكنت أكلفه أن يشتري لى الثياب وسواها فكان يشتري لى الثوب بعشرة دنانير و يقول اشتريته بثمانية ويحاسبني بالثمانية ويدفع الدينارين من ماله وأنا لا علم لى بفعله الى أن تعرفت ذلك على ألسنة الناس وكان مع ذلك قد أسلفني دنانير فلما وصل الى احسان أمير خوارزم رددت اليه ما أسلفنيه وأردت أن أحسن بعده اليه مكافأة لأفعاله الحسنة فأبى ذلك وحلف أن لا تفعل وأردت ان أحسن الى فتى كان له اسمه كافور فحلف أن لا أفعل وكان أكرم من لقيته من العراقيين وعزم على السفر معي الى بلاد الهند ثم ان جماعة من أهل بلده وصلوا الى خوارزم برسم السفر الى الصين فأخذ في السفر معهم فقلت له في ذلك فقال هؤلاء أهل بلدي يعودون الى أهلي وأقاربي و يذكرون اني سافرت الى الهند برسم الكدية فيكون سبة على لا أفعل ذلك وسافر معهم الى الصين فبلغني بعد وأنا بأرض الهند انه لما بلغ الى مدينة المالق وهي آخر البلاد التي من عمالة ماوراء النهر وأول بلاد الصين أقام بها و بعث فتى له بما كان عنده من المتاع فابطأ الفتى عليه وفي أثناء ذلك وصل من بلده بعض التجار ونزل معه في فندق واحد فطلب منه الشريف أن يسلفه شيئاً بخلال ما يصل فتاه فلم يفعل ثم أكد قبيح ما صنع في عدم التوسعة على الشريف بأن أراد الزيادة عليه في المسكن الذى كان له في الفندق فبلغ ذلك

الشريف فاغتم منه ودخل الى بيته فذبح نفسه فأدرك وبه رمق واتهموا غلاما كان له بقتله فقال لهم لا تظلموه فانى انا فعلت ذلك بنفسى ومات من يومه غفر الله له وكان قد حكى لى عن نفسه انه أخذ مرة من بعض تجار دمشق ستة آلاف درهم قراضا فلقيه ذلك التاجر بمدينة حماة من أرض الشام فطلبه بالمال وكان قد باع ماشتري به من المتاع بالدين فاستحيا من صاحب المال ودخل الى بيته وربط عمامته بسقف البيت وأراد أن يخنق نفسه وكان فى أجله تأخير فتذكر صاحباً له من الصيارفة فقصده وذكر له القضية فسلفه مالا دفعه للتاجر ولما أردت السفر من خوارزم اكتريت جمالا واشتريت محارة وكان عديلى بها عفيف الدين التوزرى وركب الخدام بعض الخيل وجللنا باقيها لاجل البرد ودخلنا البرية التى بين خوارزم وبخارى وهى مسيرة ثمانية عشر يوما فى رمال لا عمارة بها الا بلدة واحدة فودعت الامير قطلودمور وخلع على خلعة وخلع على القاضي أخرى وخرج مع الفقهاء لوداعي وسرنا أربعة أيام ووصلنا الى مدينة الكات وليس بهذه الطريق عمارة سواها (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون اللام وآخره تاء مثناة) وهى صغيرة حسنة نزلنا خارجها على بركة ماء قد جمدت من البرد فكان الصبيان يلعبون فوقها ويزلقون عليها وسمع بقدومي قاضى الكات ويسمي صدر الشريعة وكنت قد لقيته بدار قاضي خوارزم فجاء الى مسلماً مع الطلبة وشيخ المدينة الصالح العابد محمود الخيوقي ثم عرض على القاضى الوصول الى أمير تلك المدينة فقال له الشيخ محمود القادم ينبغي له أن يزار وان كانت لنا همة نذهب الى أمير المدينة ونأتي به ففعلوا ذلك وأتى الامير بعد ساعة فى اصحابه وخدامه فسلمنا عليه وكان غرضنا تعجيل السفر فطلب منا الاقامة وصنع دعوة جمع لها الفقهاء ووجوه العساكر وسواهم ووقف الشعراء يمدحونه وأعطاني كسوة وفرسا جيداً وسرنا على الطريق المعروفة بسيباية وفى تلك الصحراء مسيرة ست دون ماء ووصلنا بعد ذلك الى بلدة وبكنة (وضبط اسمها بفتح الواو واسكان الباء الموحدة وكاف ونون) وهي على مسيرة يوم واحد من بخاري بلدة حسنة ذات انهار وبساتين وهم يدخرون العنب من سنة الى سنة وعندهم فاكهة يسمونها العلو (الآلو) بالعين المهملة وتشديد اللام فييبسونه ويجلبه الناس الى الهند والصين ويجعل عليه الماء ويشرب ماؤه وهو أيام كونه أخضر حلو فاذا يبس صار فيه يسير حموضة ولحميته كثيرة ولم أر مثله بالاندلس ولا بالمغرب ولا بالشام ثم سرنا فى بساتين متصلة وأنهار وأشجار وعمارة يوما كاملا ووصلنا الى مدينة بخارى التي ينتسب اليها امام المحدثين أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري

وهذه المدينة كانت قاعدة ماوراء نهر جيحون من البلاد وخربها اللعين تنكيز التترى جد ملوك العراق فمساجدها الآن ومدارسها واسواقها خربة الا القليل وأهلها أذلاء وشهادتهم لا تقبل بخوارزم وغيرها لاشتهارهم بالتعصب ودعوي الباطل وانكار الحق وليس بها اليوم من الناس من يعلم شيئا من العلم ولا من له عناية به

— ذكر أولية التتر وتخريبهم بخارى وسواها —

كان تنكيز خان حدادا بارض الخطا وكان له كرم نفس وقوة وبسطة فى الجسم وكان يجمع الناس ويطعمهم ثم صارت له جماعة فقدموه على أنفسهم وغلب على بلده وقوى واشتدت شوكته واستفحل أمره فغلب على مالك الخطا ثم على ملك الصين وعظمت جيوشه وتغلب على بلاد الختن وكاشغر والمالق وكان جلال الدين سنجر بن خوارزم شاه ملك خوارزم وخراسان وماوراء النهر له قوة عظيمة وشوكة فهابه تنكيز وأحجم عنه ولم يتعرض له فاتفق ان بعث تنكيز تجارا بامتعة الصين والخطا من الثياب الحريرية وسواها الى بلدة أطرار (بضم الهمزة) وهى آخر عمالة جلال الدين فبعث اليه عامله عليها معلما بذلك واستاذنه ما يفعل فى أمرهم فكتب اليه يامره أن ياخذ أموالهم ويمثل بهم ويقطع أعضاءهم ويردهم الى بلادهم لما أراد الله تعالى من شقاء أهل بلاد المشرق ومحنتهم رأيا فائلا وتدبيرا سيئا مشؤما فلما فعل ذلك تجهز تنكيز بنفسه فى عساكر لا تحصى كثرة برسم غزو بلاد الاسلام فلما سمع عامل اطرار بحركته بعث الجواسيس ليا توه بخبره فذكر ان احدهم دخل محلة بعض أمراء تنكيز فى صورة سائل فلم يجد من يطعمه ونزل الى جانب رجل منهم فلم ير عنده زادا ولا أطعمه شيا فلما أمسى أخرج مصرانا يابسة عنده فبلها بالماء وفصد فرسه وملاها بدمه وعقدها وشواها بالنار فكانت طعامه فعاد الى اطرار فاخبر عاملها بامرهم وأعلمه ان لا طاقة لاحد بقتالهم فاستمد مليكه جلال الدين فامده بستين ألفا زائدة على من كان عنده من العساكر فلما وقع القتال هزمهم تنكيز ودخل مدينة اطرار بالسيف فقتل الرجال وسبي الذراري وأتى جلال الدين بنفسه لمحاربته فكانت بينهم وقائع لا يعلم فى الاسلام مثلها وآل الامر الى ان تملك تنكيز ماوراء النهر وخرب بخارى وسمرقند وترمذ وعبر النهر وهو نهر جيحون الى مدينة بلخ فتملكها ثم الى الباميان (الباميان) فتملكها وأوغل فى بلاد خراسان وعراق العجم فثار عليه المسلمون فى بلخ وفى ماوراء النهر فكر عليهم ودخل بلخ بالسيف وتركها خاوية على عروشها ثم فعل مثل ذلك فى ترمذ فخربت ولم تعمر بعد لكنها بنيت مدينة على ميلين منها هى التى تسمى اليوم ترمذ

وقتل أهل اليا ميان (البا ميان) وهدمها باسرها الاصومعة جا معها وعفا عن أهل بخارى
وسمرقند ثم عاد بعد ذلك الى العراق وانتهى أمر التتر حتي دخلوا حضرة الاسلام ودار
الخلافة بغداد بالسيف وذبحوا الخليفة المستعصم بالله العباسى رحمه الله

(قال ابن جزى) أخبرنا شيخنا قاضي القضاة أبو البركات ابن الحاج أعزه الله قال سمعت
الخطيب اباعبد الله بن رشيد يقول لقيت بمكة نور الدين ابن الزجاج من علماء العراق ومعه
ابن أخ له فتفاوضنا الحديث فقال لى هلك فى فتنة التتر بالعراق أربعة وعشرون ألف رجل
من أهل العلم ولم يبق منهم غيرى وغير ذلك واشار الى ابن أخيه

(رجع) قال ونزلنا من بخارى بربضها المعروف بفتح أباد حيث قبر الشيخ العالم العابد
الزاهد سيف الدين الباخرزى وكان من كبار الاولياء وهذه الزاوية المنسوبة لهذا الشيخ
حيث نزلنا عظيمة لها أوقاف ضخمة يطعم منها الوارد والصادر وشيخها من ذريته وهو الحاج
السياح يحيي الباخرزى وأضافني هذا الشيخ بداره وجمع وجوه أهل المدينة وقرأ القراء
بالاصوات الحسان ووعظ الواعظ وغنوا بالتركى والفارسى على طريقة حسنة ومرت لنا
هنالك ليلة بديعة من أعجب الليالى ولقيت بها الفقيه العالم الفاضل صدر الشريعة وكان قد قدم
من هراة وهو من الصلحاء الفضلاء وزرت ببخارى قبر الامام العالم أبي عبد الله البخارى
مصنف الجامع الصحيح شيخ المسلمين رضى الله عنه وعليه مكتوب هذا قبر محمد بن
اسماعيل البخارى وقد صنف من الكتب كذا وكذا وكذلك على قبور علماء بخارى
أسماؤهم وأسماء تصانيفهم وكنت قيدت من ذلك كثيرا وضاع مني في جملة ماضاع لي لما
سلبني كفار الهند فى البحر ثم سافرنا من بخارى قاصدين معسكر السلطان الصالح المعظم
علاء الدين طرمشيرين وسنذكره فمررنا على نخشب البلدة التي ينسب اليها الشيخ أبو تراب
النخشبي وهي صغيرة تحف بها البساتين والمياه فنزلنا بخارجها بدار لاميرها وكان عندي
جارية قد قاربت الولادة وكنت أردت حملها الى سمرقند لتلدها فاتفق انها كانت في
المحمل فوضع المحمل علي الجمل وسافر أصحابنا من الليل وهي معهم والزاد وغيره من أسبابي
وأقمت أنا حتي ارتحل نهارا مع بعض من معي فسلكوا طريقا وسلكت طريقا سواها
فوصلنا عشية النهار الى محلة السلطان المذكور وقد جعنا فنزلنا على بعد من السوق واشترى
بعض أصحابنا ماسد جوعتنا وأعار بعض التجار خباء بتنا به تلك الليلة ومضي أصحابنا من
الغد فى البحث عن الجمال وباقى الاصحاب فوجدوهم عشيا وجاؤا بهم وكان السلطان غائبا عن
المحلة فى الصيد فاجتمعت بنائبه الامير تقبغا فانزلنى بقرب مسجده وأعطاني خرقة (خركاه)

وهي شبه الخباء وقدذكرنا صفتها فيما تقدم فجعلت الجارية في تلك الخرقة فولدت تلك الليلة مولوداو أخبروني أنه ولد ذكرولم يكن كذلك فلما كان بعد العقيقة أخبرني بعض الاصحاب ان المولود بنت فاستحضرت الجواري فسالتهن فاخبرنني بذلك وكانت هذه البنت مولودة في طالع سعد فرأيت كل مايسرني ويرضيني منذولدت وتوفيت بعد وصولي الى الهند بشهرين وسيذكرذلك واجتمعت بهذه المحلة بالشيخ الفقيه العابد مولانا حسام الدين الياغي (بالياء آخرالحروف والغين المعجمة) ومعناه بالتركية الثائر وهو من أهل أطرار وبالشيخ صهر السلطان

— ذكر سلطان ماوراء النهر —

وهو السلطان المعظم علاء الدين طرمشيرين (وضبط اسمها بفتح الطاء المهمل وسكون الراء وفتح الميم وكسر الشين المعجم وياء مدوراء مكسور وياء مد ثانية ونون) وهو عظيم المقدار كثيرا لجيوش والعساكر ضخم المملكة شديد القوة عادل الحكم وبلاده متوسطة بين أربعة من ملوك الدنيا الكبار وهم ملك الصين وملك الهند وملك العراق والملك أوزبك وكلهم يهادونه ويعظمونه ويكرمونه وولي الملك بعد أخيه الجكطى (وضبط اسمه بفتح الجيم المعقودة والكاف والطاء المهمل وسكون الياء) وكان الجكطي هذا كافرا وولي بعد أخيه الاكبر كبك وكان كبك هذا كافرا ايضاً لكنه كان عادل الحكم منصفا للمظلومين يكرم المسلمين ويعظمهم

— حكاية —

يذكر ان هذا الملك كبك تكلم يوما مع الفقيه الواعظ المذكر بدر الدين الميداني فقال له أنت تقول ان الله ذكر كل شيء في كتابه العزيز قال نعم فقال اين اسمي فيه فقال هو في قوله تعالى في اى صورة ماشاء ركبك فاعجبه ذلك وقال يخشي ومعناه بالتركية جيد فاكرمه اكراما كثيرا وزاد في تعظيم المسلمين

— حكاية —

ومن احكام كبك ماذكر ان امرأة شكت له باحد الامراء وذكرت انها فقيرة ذات اولاد وكان لها لبن تقوتهم بثمنه فاغتصبه ذلك الامير وشربه فقال لها انا اوسطه فان خرج اللبن من جوفه مضى لسبيله والا وسطتك بعده فقالت المرأة قد حللته ولا اطلبه بشيء فامر به فوسط فخرج اللبن من بطنه ولنعد لذكر السلطان طرمشيرين ولما اقمت بالمحلة وهم يسمونها الاردو أياما ذهبت يوما لصلاة الصبح بالمسجد على عادتي فلما صليت ذكر لي بعض الناس ان السلطان بالمسجد فلما قام عن مصلاه تقدمت للسلام عليه وقام الشيخ حسن والفقيه حسام الدين الياغي واعلماه بحالي وقدومي منذ ايام فقال لي بالتركية

خش ميسن يخشى ميسن قطلوا يوسن ومعني خش ميسن فى عافية انت ومعنى يخشى ميسن جيد أنت ومعنى قطلوا يوسن مبارك قدومك وكان عليه فى ذلك الحين قبا قدسي أخضر وعلي رأسه شاشية مثله ثم انصرف الى مجلسه راجلا والناس يتعرضون له بالشكايات فيقف لكل مشتك منهم صغيرا أو كبيرا ذكرا أو انثي ثم بعث عنى فوصلت اليه وهو فى خرقة والناس خارجها ميمنة وميسرة والامراء منهم على الكراسى واصحابهم وقوف على رؤسهم وبين ايديهم وسائر الجند قد جلسوا صفوفا وامام كل واحد منهم سلاحه وهم اهل النوبة يقعدون هنالك الى العصر ويأتى آخرون فيقعدون الى آخر الليل وقد صنعت هنالك سقائف من ثياب القطن يكونون بها ولما دخلت الى الملك بداخل الخرقة وجدته جالسا على كرسى شبه المنبر مكسو بالحرير المزركش بالذهب وداخل الخرقة ملبس بثياب الحرير المذهب والتاج المرصع بالجوهر واليواقيت معلق فوق رأس السلطان بينه وبين رأسه قدر ذراع والامراء الكبار علي الكراسى عن يمينه ويساره وأولاد الملوك بأيديهم المذاب بين يديه وعند باب الخرقة النائب والوزير والحاجب وصاحب العلامة وهم يسمون آل طمغي وآل (بفتح الهمزة) معناه الاحمر وطمغى (بفتح الطاء المهمل وسكون الميم والغين المعجم المفتوح) ومعناه العلامة وقام الى اربعتهم حين دخولى ودخلوا معى فسلمت عليه وسالني وصاحب العلامة يترجم بيني وبينه عن مكة والمدينة والقدس شرفها الله وعن مدينة الخليل عليه السلام وعن دمشق ومصر والملك الناصر وعن العراقين وملكهما وبلاد الاعاجم ثم أذن المؤذن بالظهر فانصرفنا وكنا نحضر معه الصلوات وذلك ايام البرد الشديد المهلك فكان لا يترك صلاة الصبح والعشاء فى الجماعة ويقعد للذكر بالتركيا بعد صلاة الصبح الى طلوع الشمس ويأتي اليه كل من فى المسجد فيصافحه ويشد بيده على يده وكذلك يفعلون فى صلاة العصر وكان اذا أوتي بهدية من زبيب أو تمر والتمر عزيز عندهم وهم يتبركون به يعطى منها بيده لكل من فى المسجد

— حكاية —

ومن فضائل هذا الملك انه حضرت صلاة العصر يوما ولم يحضر السلطان فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها قبالة المحراب حيث جرت عادته ان يصلي وقال للامام حسام الدين الياغى ان مولانا يريد ان تنتظره بالصلاة قليلا ريثما يتوضا فقام الامام المذكور وقال نماز ومعناه الصلاة برأى خدا أو برأى طرمشيرين أى الصلاة لله او لطرمشيرين ثم أمر المؤذن باقامة الصلاة وجاء السلطان وقد صلى منها ركعتان فصلي الركعتين الآخرتين حيث انتهي به القيام وذلك فى الموضع الذي تكون فيه أنعلة الناس عند باب المسجد وقضى مافاته وقام الى الامام

ليصافحه وهو يضحك وجلس قبالة المحراب والشيخ الامام الى جانبه وأنا الى جانب الامام فقال لى اذا مشيت الى بلادك فحدث إن فقيرا من فقراء الاعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك وكان هذا الشيخ يعظ الناس فى كل جمعة ويامر السلطان بالمعروف وينهاه عن المنكر وعن الظلم ويغلظ عليه القول والسلطان ينصت لكلامه ويبكى وكان لا يقبل من عطاء السلطان شيئا ولم يأكل قط من طعامه ولا لبس من ثيابه وكان هذا الشيخ من عباد الله الصالحين وكنت كثيرا ما أرى عليه قباء قطن مبطنا بالقطن محشوا به وقد بلى وتمزق وعلى رأسه قلنسوة لبد يساوى مثلها قيراطا ولا عمامة عليه فقلت له فى بعض الايام يا سيدي ما هذا القباء الذى أنت لابسه انه ليس بجيد فقال لى يا ولدى ليس هذا القباء لى وانما هو لابنتي فرغبت منه ان يأخذ بعض ثيابي فقال لى عاهدت الله منذ خمسين سنة ان لا أقبل من أحد شيئا ولو كنت أقبل من أحد لقبلت منك ولما عزمت على السفر بعد مقامى عند هذا السلطان أربعة وخمسين يوما أعطانى السلطان سبعمائة دينار دراهم وفروة سمور تساوى مائة دينار طلبتها منه لاجل البرد ولما ذكرتها له أخذ أكمامى وجعل يقبلها بيده تواضعا منه وفضلا وحسن خلق وأعطانى فرسين وجملين ولما أردت وداعه أدركته فى أثناء طريقه الى متصيده وكان اليوم شديد البرد جدا فو الله ماقدرت على أن أنطق بكلمة لشدة البرد ففهم ذلك وضحك وأعطانى يده وانصرفت وبعد سنتين من وصولى الى أرض الهند بلغنا الخبر بان الملأ من قومه وأمرائه اجتمعوا باقصي بلاده المجاورة للصين وهنالك معظم عساكره وبايعوا ابن عم له اسمه بوزن أغلى وكل من كان من أبناء الملوك فهم يسمونه أغلى (بضم الهمزة وسكون الغين المعجمة وكسر اللام) وبوزن (بضم الباء الموحدة وضم الزاي) وكان مسلما الا انه فاسد الدين سيء السيرة وسبب بيعتهم له وخلعهم لطرمشيرين ان طرمشيرين خالف أحكام جدهم تنكيز اللعين الذي خرب بلاد الاسلام وقد تقدم ذكره وكان تنكيز ألف كتابا في أحكامه يسمى عندهم اليساق (بفتح الياء آخر الحروف والسين المهمل وآخره قاف) وعندهم انه من خالف أحكام هذا الكتاب فخلعه واجب ومن جملة أحكامه انهم يجتمعون يوما في السنة يسمونه الطوي ومعناه يوم الضيافة ويأتي أولاد تنكيز والامراء من أطراف البلاد ويحضر الخواتين وكبار الاجناد وان كان سلطانهم قد غير شيئا من تلك الاحكام يقوم اليه كبراؤهم فيقولون له غيرت كذا وغيرت كذا وفعلت كذا وقد وجب خلعك ويأخذون بيده ويقيمونه عن سرير الملك ويقعدون غيره من أبناء تنكيز وان كان أحد الامراء الكبار أذنب ذنبا فى

بلاده حكموا عليه بما يستحقه وكان السلطان طرمشيرين قد أبطل حكم هذا اليوم
ومحا رسمه فانكروه عليه أشد الانكار وأنكروا عليه أيضا كونه أقام أربع سنين فيما
يلى خراسان من بلاده ولم يصل الى الجهة التي توالى الصين والعادة ان الملك يقصد تلك
الجهة في كل سنة فيختبر أحوالها وحال الجند بها لان أصل ملكهم منها ودار الملك هي
مدينة المالق فلما بايعوا بوزن أتى في عسكر عظيم وخاف طرمشيرين على نفسه من
أمرائه ولم يامنهم فركب في خمسة عشر فارسا يريد بلاد غزنة وهي من عمالته وواليها
كبير أمرائه وصاحب سره برنطيه وهذا الامير محب في الاسلام والمسلمين قد عمر في
عمالته نحو أربعين زاوية فيها الطعام للوارد والصادر وتحت يده العساكر العظيمة ولم أر
قط فيمن رأيته من الآدميين بجميع بلاد الدنيا أعظم خلقة منه فلما عبر نهر جيحون
وقصد طريق بلخ رآه بعض الاتراك من أصحاب ينقي ابن أخيه كبك وكان السلطان
طرمشيرين المذكور قتل أخاه كبك المذكور وبقي ابنه ينقي ببلخ فلما أعلمه التركي بخبره
قال ما فر الا لأمر حدث عليه فركب في أصحابه وقبض عليه وسجنه ووصل بوزن الى
سمرقند وبخارى فبايعه الناس وجاءه ينقي بطرمشيرين فيذكر انه لما وصل الى نسف
بخارج سمرقند قتل هنالك ودفن بها وخدم تربته الشيخ شمس الدين كردن بريدا
وقيل انه لم يقتل كما سنذكره وكردن (بكاف معقودة وراء مسكن ودال مهمل مفتوح
ونون) ومعناه العنق وبريدا (بضم الباء الموحدة وكسر الراء وياء مدود دال مهمل)
معناه المقطوع ويسمي بذلك لضربة كانت في عنقه وقد رأيته بارض الهند ويقع ذكره
فيما بعد ولما ملك بوزن هرب ابن السلطان طرمشيرين وهو بشاى أغل (أغلى) وأخته
وزوجها فيروز الى ملك الهند فعظمهم وأنزلهم منزلة علية بسبب ما كان بينه وبين
طرمشيرين من الود والمكاتبة والمهاداة وكان يخاطبه بالاخ ثم بعد ذلك أتي رجل من
أرض السند وادعي انه هو طرمشيرين واختلف الناس فيه فسمع بذلك عماد الملك سرتيز
غلام ملك الهند ووالى بلاد السند ويسمي ملك عرض وهو الذى تعرض بين يديه
عساكر الهند واليه أمرها ومقره بملتان قاعدة السند فبعث اليه بعض الاتراك العارفين به
فعادوا اليه وأخبروه انه هو طرمشيرين حقا فامر له بالسراجة وهي افراج فضرب خارج
المدينة ورتب له ما يرتب لمثله وخرج لاستقباله وترجل له وسلم عليه وأتى في خدمته الى
السراجة فدخلها راكبا كعادة الملوك ولم يشك أحد انه هو وبعث الى ملك الهند بخبره
فبعث اليه الامراء يستقبلونه بالضيافات وكان في خدمة ملك الهند حكيم ممن خدم طرمشيرين

فيما تقدم وهو كبير الحكماء بالهند فقال للملك أنا أتوجه اليه وأعرف حقيقة أمره فاني كنت عالجت له دملا تحت ركبته وبقي أثره وبه أعرفه فأتى اليه ذلك الحكيم واستقبله مع الامراء ودخل عليه ولازمه لسابقته عنده وأخذ يغمز رجليه وكشف عن الاثر فشتمه وقال له تريد ان تنظر الى الدمل الذى عالجته ها هو ذا وأراه أثره فتحقق انه هو وعاد الى ملك الهند فاعلمه بذلك ثم ان الوزير خواجه جهان أحمد بن اياس وكبير الامراء قطلوخان معلم السلطان أيام صغره دخلا على ملك الهند وقالا له ياخوند عالم هذا السلطان طرمشيرين قد وصل وصح انه هو وهاهنا من قومه نحو أربعين ألفا وولده وصهره أرأيت ان اجتمعوا عليه مايكون من العمل فوقع هذا الكلام بموقع منه عظيم وامر ان يؤتى بطرمشيرين معجلا فلما دخل عليه امر بالخدمة كسائر الواردين ولم يعظم وقال له السلطان ياماذركاني وهي شتمة قبيحة كيف تكذب وتقول انك طرمشيرين وطرمشيرين قد قتل وهذا خادم تربته عندنا والله لولا المعرة لقتلتك ولكن أعطوه خمسة آلاف دينار واذهبوا به الى دار بشاي اغلي واخته ولدي طرمشيرين وقولوا لهم ان هذا الكاذب يزعم انه والدكم فدخل عليهم فعرفوه وبات عندهم والحراس يحرسونه واخرج بالغد وخافوا ان يهلكوا بسببه فانكروه ونفي عن بلاد الهند والسند فسلك طريق كيج ومكران وأهل البلاد يكرمونه ويضيفونه ويهادونه ووصل الى شيراز فاكرمه سلطانها أبو اسحق واجرى له كفايته ولما دخلت عند وصولي من الهند الى مدينة شيراز ذكر لي انه باق بها واردت لقاءه ولم أفعل لانه كان في دار لا يدخل اليه احد الا باذن من السلطان ابي اسحاق فخفت مما يتوقع بسبب ذلك ثم ندمت على عدم لقائه

(رجع الحديث الى بوزن) وذلك انه لما ملك ضيق على المسلمين وظلم الرعية واباح للنصارى واليهود عمارة كنائسهم فضج المسلمون من ذلك وتربصوا به الدوائر واتصل خبره بخليل ابن السلطان اليسور المهزوم على خراسان فقصد ملك هراة وهو السلطان حسين ابن السلطان غياث الدين الغوري فاعلمه بما كان في نفسه وسأل منه الاعانة بالعساكر والمال على أن يشاطره الملك اذا استقام له فبعث معه الملك حسين عسكرا عظيما وبين هراة وترمذ تسعة أيام فلما سمع أمراء السلطان بقدوم خليل تلقوه بالسمع والطاعة والرغبة في جهاد العدو وكان أول قادم عليه علاء الملك خداوندزاده صاحب ترمذ وهو أمير كبير شريف حسيني النسب فاتاه في أربعة آلاف من المسلمين فسر به وولاه وزارته وفوض اليه أمره وكان من الابطال وجاء الامراء من كل ناحية واجتمعوا على خليل

والتقى مع بوزن فمالت العساكر الى خليل وأسلموا بوزن وأتوا به أسيراً فقتله خنقا باوتار القسي وتلك عادة لهم انهم لا يقتلون من كان من أبناء الملوك الا خنقا واستقام الملك لخليل وعرض عساكره بسمرقند فكانوا ثمانين ألفا عليهم وعلى خيلهم الدروع فصرف العسكر الذي جاء به من هراة وقصد بلاد المالق فقدم التتر على أنفسهم واحداً منهم والقوه على مسيرة ثلاث من المالق بمقربة من اطراز (طراز) وحمي القتال وصبر الفريقان فحمل الامير خداوندزاده وزيره في عشرين ألفا من المسلمين حملة لم يثبت لها التتر فانهزموا واشتد فيهم القتل وأقام خليل بالمالق ثلاثا وخرج الى استئصال من بقي من التتر فاذعنوا له بالطاعة وجاز الى تخوم الخطا والصين وفتح مدينة قراقرم ومدينة بش بالغ وبعث اليه سلطان الخطا بالعساكر ثم وقع بينهما الصلح وعظم أمر خليل وهابته الملوك وأظهر العدل ورتب العساكر بالمالق وترك بها وزيره خداوندزاده وانصرف الى سمرقند وبخارى ثم ان الترك أرادوا الفتنة فسعوا الى خليل بوزيره المذكور وزعموا انه يريد الثورة ويقول انه أحق بالملك لقرابته من النبي صلى الله عليه وسلم وكرمه وشجاعته فبعث واليا الى المالق عوضاً عنه وأمره أن يقدم عليه في نفر يسير من أصحابه فلما قدم عليه قتله عند وصوله من غير تثبت فكان ذلك سبب خراب ملكه وكان خليل لما عظم أمره بغى على صاحب هراة الذي أورثه الملك وجهزه بالعساكر والمال فكتب اليه أن يخطب في بلاده باسمه ويضرب الدنانير والدراهم على سكته فغاظ ذلك الملك حسينا وأنف منه وأجابه بأقبح جواب فتجهز خليل لقتاله فلم توافقه عساكر الاسلام ورأوه باغيا عليه وبلغ خبره الى الملك حسين فجهز العساكر مع ابن عمه ملك ورنا والتقى الجمعان فانهزم خليل وأتى به الى الملك حسين أسيراً فمن عليه بالبقاء وجعله في دار وأعطاه جارية واجرى عليه النفقة وعلى هذا الحال تركته عنده في أواخر سنة سبع وأربعين عند خروجي من الهند ❁ ولنعد الى ما كنا بسبيله ❁ ولما ودعت السلطان طرمشيرين سافرت الى مدينة سمرقند وهي من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا مبنية على شاطىء واد يعرف بوادي القصارين عليه النواعير تسقي البساتين وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج ولهم عليه مساطب ومجالس يقعدون عليها ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات وكانت على شاطئه قصور عظيمة وعمارة تنبىء عن علو همم أهلها فدثر أكثر ذلك وكذلك المدينة خرب كثير منها ولا سور لها ولا أبواب عليها وفي داخلها البساتين وأهل سمرقند لهم مكارم اخلاق ومحبة في الغريب وهم خير من أهل بخارى وبخارج سمرقند قبر قثم بن

العباس بن عبد المطلب رضى الله عن العباس وعن ابنه وهـو المستشهد حين فتحها ويخرج أهل سمرقند كل ليلة اثنين وجمعة الى زيارته والتتر ياتون لزيارته وينذرون له النذور العظيمة ويأتون اليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير فيصرف ذلك فى النفقة على الوارد والصادر وخـدام الزاوية والقبر المبارك وعليـه قبة قائمة على أربع أرجـل ومع كل رجل ساريتان من الرخام منها الخضر والسود والبيض والحمر وحيطان القبـة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب وسقفها مصنوع بالرصاص وعلى القبر خشب الآبنوس المرصع مكسو الاركان بالفضة وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة وفرش القبة بالصوف والقطن وخارجها نهر كبير يشق الزاوية التى هنالك وعلى حافتيه الاشجار ودوالى العنب والياسمين وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر ولم يغير التتر أيام كفرهم شيئا من حال هـذا الموضع المبارك بل كانوا يتبركون به لما يرون له من الآيات وكان الناظر فى كل حال هذا الضريح المبارك وما يليه حين نزولنا به الامير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن يوسف ابن الخليفة المستنصر بالله العباسي قدمه لذلك السلطان طرمشيرين لما قدم عليه من العراق وهو الآن عنـد ملك الهند وسياتى ذكره ولقيت بسمرقند قاضيها المسمي عنـدهم صدر الجهان وهو من الفضلاء ذوى المكارم وسافر الى بلاد الهند بعد سفرى اليها فادركته منيته بمدينة ملتان قاعدة بلاد السند

— حكاية —

لما مات هـذا القاضي بملتان كتب صاحب الخبر بامره الى ملك الهند وانه قدم برسم بابه فاخترم دون ذلك فلما بلغ الخبر الى الملك أمر أن يبعث الى أولاده عدد من آلاف الدنانير لا اذكره الآن وأمر أن يعطي لاصحابه ما كان يعطى لهم لو وصلوا مسه وهـو بقيد الحياة ولملك الهند في كل بلد من بلاده صاحب الخبر يكتب له بكل مايجري فى ذلك البلد من الامور وبمن يرد عليه من الواردين واذا أتي الوارد كتبوا من أي البلاد ورد وكتبوا اسمه ونعته وثيابه وأصحابه وخيله وخدامه وهيئته من الجلوس والماكل وجميع شؤنه وتصرفاته ومايظهر منـه من فضيلة أوضدها فلا يصل الوارد الى الملك الا وهـو عارف بجميع حاله فتكون كرامته على مقدار مايستحقه وسافرنا من سمرقند فاجتزنا ببلدة نسف واليها ينسب أبو حفص عمر النسفى مؤلف كتاب المنظومة فى المسائل الخلافية بين الفقهاء الاربعة رضى الله عنهم ثم وصلنا الى مدينة ترمذ التي ينسب اليها الامام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي مؤلف الجامع الكبير في السنن وهي مدينة كبيرة حسنة العمارة والاسواق تخترقها الانهار وبها البساتين الكثيرة والعنب والسفرجل بها كثير متناهي الطيب

واللحوم بها كثيرة وكذلك الالبان وأهلها يغسلون رؤسهم في الحمام باللبن عوضاً عن الطفل ويكون عند كل صاحب حمام أوعية كبار مملوءة لبنا فاذا دخل الرجل الحمام أخذ منها في اناء صغير فغسل رأسه وهو يرطب الشعر ويصقله وأهل الهند يجعلون في رؤسهم زيت السمسم ويسمونه الشيراج ويغسلون الشعر بعده بالطفل فينعم الجسم ويصقل الشعر ويطيله وبذلك طالت لحى أهل الهند ومن سكن معهم وكانت مدينة ترمذ القديمة مبنية على شاطىء جيحون فلما خربها تنكيز بنيت هذه الحديثة على ميلين من النهر وكان نزولنا بها بزاوية الشيخ الصالح عزيزان من كبار المشايخ وكرمائهم كثير المال والرباع والبساتين ينفق على الوارد والصادر من ماله واجتمعت قبل وصولي الى هذه المدينة بصاحبها علاء الملك خداوند زاده وكتب لي اليها بالضيافة فكانت تحمل الينا أيام مقامنا بها في كل يوم ولقيت أيضا قاضيها قوام الدين وهو متوجه لرؤية السلطان طرمشيرين وطالب للاذن له في السفر الى بلاد الهند وسياتي ذكر لقائي له بعد ذلك ولاخويه ضياء الدين وبرهان الدين بملتان وسفرنا جميعا الى الهند وذكر أخويه الآخرين عماد الدين وسيف الدين ولقائي لهما بحضرة ملك الهند وذكر ولديه وقدومهما على ملك الهند بعد قتل أبيهما وتزويجهما بنتي الوزير خواجه جهان وماجري في ذلك كله ان شاء الله تعالى ثم اجزنا نهر جيحون الى بلاد خراسان وسرنا بعد انصرافنا من ترمذ واجازة الوادي يوما ونصف يوم في صحراء ورمال لا عمارة بها الى مدينة بلخ وهي خاوية على عروشها غير عامرة ومن رآها ظنها عامرة لاتقان بنائها وكانت ضخمة فسيحة ومساجدها ومدارسها باقية الرسوم حتى الآن ونقوش مبانيها مدخلة باصبغة اللازورد والناس ينسبون اللازورد الى خراسان وانما يجلب من جبال بدخشان التي ينسب اليها الياقوت البدخشي والعامة يقولون البلخش وسياتي ذكرها ان شاء الله تعالى وخرب هذه المدينة تنكيز اللعين وهدم من مسجدها نحو الثلث بسبب كنز ذكر له انه تحت سارية من سواريه وهو من أحسن مساجد الدنيا وافسحها ومسجد رباط الفتح بالمغرب يشبهه في عظم سواريه ومسجد بلخ اجمل منه في سوى ذلك

— حكاية —

ذكر لي بعض أهل التاريخ أن مسجد بلخ بنته امرأة كان زوجها أميرا ببلخ لبني العباس يسمى داود بن على فاتفق ان الخليفة غضب مرة على أهل بلخ لحادث احدثوه فبعث اليهم من يغرمهم مغرما فادحا فلما بلغ الى بلخ أتى نساؤها وصبيانها الى تلك المرأة التي بنت المسجد وهي زوج أميرهم وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المغرم فبعثت الى الامير الذي

قدم برسم تغريمهم بثوب لها مرصع بالجوهر قيمته أكثر مما أمر بتغريمه فقالت له اذهب بهذا الثوب الى الخليفة فقد أعطيته صدقة عن أهل بلخ لضعف حالهم فذهب به الى الخليفة والقي الثوب بين يديه وقص عليه القصة فخجل الخليفة وقال أتكون المرأة أكرم منا وأمره يرفع المغرم عن أهل بلخ وبالعودة اليها ايرد المرأة ثوبها وأسقط عن أهل بلخ خراج سنة فعاد الامير الى بلخ وأتي منزل المرأة وقص عليها مقالة الخليفة ورد عليها الثوب فقالت له أوقع بصر الخليفة على هذا الثوب قال نعم قالت لا البس ثوبا وقع عليه بصر غير ذي محرم مني وأمرت ببيعه فبني منه المسجد والزاوية ورباط في مقابلته مبني بالكذان وهو عامر حتى الآن وفضل من ثمن الثوب مقدار ثلثه فذكر انها أمرت بدفنه تحت بعض سوارى المسجد ليكون هنالك متيسرا ان احتيج اليه خرج فاخبر تنكير بهذه الحكاية فامر بهدم سوارى المسجد فهدم منها نحو الثلث ولم يجد شيا فترك الباقى على حاله وبخارج بلخ قبر يذكر انه قبر عكاشة بن محصن الاسدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما الذى يدخل الجنة بلا حساب وعليه زاوية معظمة بها كان نزولنا وبخارجها بركة ماء عجيبة عليها شجرة جوز عظيمة ينزل الواردون في الصيف تحت ظلالها وشيخ هذه الزاوية يعرف بالحاج خرد وهو الصغير من الفضلاء وركب معنا وأرانا مزارات هذه المدينة منها قبر حزقيل النبي عليه السلام وعليه قبة حسنة وزرنا بها أيضا قبورا كثيرة من قبور الصالحين لا أذكرها الآن ووقفنا على دار ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه وهي دار ضخمة مبنية بالصخر الابيض الذى يشبه الكذان وكان زرع الزاوية مقترنا بها وقد سدت عليه فلم ندخلها وهي بمقربة من المسجد الجامع ثم سافرنا من مدينة بلخ فسرنا في جبال قوهأستان (قهستان) سبعة أيام وهى قري كثيرة عامرة بها المياه الجارية والاشجار المورقة وأكثرها شجر التين وبها زوايا كثيرة فيها الصالحون المنقطعون الى الله تعالى وبعد ذلك كان وصولنا الى مدينة هراة وهى أكبر المدن العامرة بخراسان ومدن خراسان العظيمة أربع ثنتان عامرتان وهما هراة ونيسابور وثنتان خربتان وهما بلخ ومرو ومدينة هراة كبيرة عظيمة كثيرة العمارة ولاهلها اصلاح وعفاف وديانة وهم على مذهب الامام أبي حنيفة رضى الله عنه وبلدهم طاهر من الفساد

— ذكر سلطان هراة —

وهو السلطان المعظم حسين ابن السلطان غياث الدين الغورى صاحب الشجاعة المأثورة والتاييد والسعادة ظهر له من انجاد الله تعالى وتاييده فى موطنين اثنين مايقضي منه

العجب أحدهما عند ملاقاة جيشه للسلطان خليل الذى بغي عليه وكان منتهى أمره حصوله أسيرا في يديه والموطن الثاني عنده ملاقاته بنفسه لمسعود سلطان الرافضة وكان منتهي أمره تبديده وفراره وذهاب ملكه وولى السلطان حسين الملك بعد أخيه المعروف بالحافظ وولى أخوه بعد أبيه غياث الدين

— حكاية الرافضة —

كان بخراسان رجلان أحدهما يسمي بمسعود والآخر يسمي بمحمد وكان لهما خمسة من الاصحاب وهم من الفتاك ويعرفون بالعراق بالشطار ويعرفون بخراسان بسرا بداران (سربداران) ويعرفون بالمغرب بالصقورة فاتفق سبعتهم على الفساد وقطع الطرق وسلب الاموال وشاع خبرهم وسكنوا جبلا منيعا بقربة من مدينة بيهق وتسمي ايضا مدينة سيزار (سبزوار) وكانوا يكمنون بالنهار ويخرجون بالليل والعشي فيضربون على القرى ويقطعون الطرق ويأخذون الاموال وانثال عليهم أشباههم من أهل الشر والفساد فكثر عددهم واشتدت شكواهم وهابهم الناس وضربوا على مدينة بيهق فملكوها ثم ملكوا سواها من المدن واكتسبوا الاموال وجندوا الجنود وركبوا الخيل وتسمي مسعود بالسلطان وصار العبيد يفرون عن مواليهم اليه فكل عبد فر منهم يعطيه الفرس والمال وان ظهرت له شجاعة أمره على جماعة فعظم جيشه واستفحل أمره وتمذهب جميعهم بمذهب الرفض وطمحوا الى استئصال أهل السنة بخراسان وان يجعلوها كلمة واحدة رافضية وكان بمشهد طوس شيخ من الرافضة يسمى بحسن وهو عندهم من الصلحاء فوافقهم على ذلك وسموه بالخليفة وأمرهم بالعدل فاظهروه حتي كانت الدراهم والدنانير تسقط في معسكرهم فلا يلتقطها أحد حتي يأتي ربها فيأخذها وغلبوا على نيسابور وبعث اليهم السلطان طغيتمور بالعساكر فهزموه ثم بعث اليهم نائبه أرغون شاه فهزموه وأسروه ومنوا عليه ثم غزاهم طغيتمور بنفسه في خمسين الفا من التتر فهزموه وملكوا البلاد وتغلبوا على سرخس والزاوه وطوس وهي من أعظم بلاد خراسان وجعلوا خليفتهم بمشهد على بن موسى الرضى وتغلبوا على مدينة الجام ونزلوا بخارجها وهم قاصدون مدينة هراة وبينها وبينهم مسيرة ست فلما بلغ ذلك الملك حسينا جمع الامراء والعساكر وأهل المدينة واستشارهم هل يقيمون حتي يأتي القوم أو يمضون اليهم فيناجزونهم فوقع إجماعهم على الخروج اليهم وهم قبيلة واحدة يسمون الغورية ويقال انهم منسوبون الى غور الشام وان اصلهم منها فتجهز واجمعوا واجتمعوا من أطراف البلاد وهم ساكنون بالقري وبصحراء مر غيس (بدغيس) وهي مسيرة اربع لا يزال عشبها اخضر ترعى منه ماشيتهم وخيلهم واكثر

شجرها الفستق ومنها يحمل الى أرض العراق وعضدهم أهل مدينة سمنان ونفروا اجميع الى الرافضة وهم مائة وعشرون ألفا ما بين رجالة وفرسان يقودهم الملك حسين واجتمعت الرافضة في مائة وخمسين ألفا من الفرسان وكانت الملاقاة بصحراء بوشنج وصبر الفريقان معا ثم كانت الدائرة على الرافضة وفر سلطانهم مسعود وثبت خليفتهم حسن في عشرين ألفا حتى قتل وقتل أكثرهم وأسر منهم نحو أربعة آلاف وذكر لي بعض من حضر هذه الوقيعة ان ابتداء القتال كان في وقت الضحى وكانت الهزيمة عند الزوال ونزل الملك حسين بعد الظهر فصلى وأتي بالطعام فكان هو وكبراء أصحابه يأكلون وسائرهم يضربون أعناق الأسرى وعاد الى حضرته بعد هذا الفتح العظيم وقد نصر الله السنة على يديه وأطفأ نار الفتنة وكانت هذه الوقيعة بعد خروجي من الهند عام ثمانية وأربعين ونشأ بهراة رجل من الزهاد والصلحاء الفضلاء واسمه نظام الدين مولانا وكان أهل هراة يحبونه ويرجعون الى قوله وكان يعظهم ويذكرهم وتوافقوا معه على تغيير المنكر وتعاقد معهم على ذلك خطيب المدينة المعروف بملك ورنا وهو ابن عم الملك حسين ومتزوج بزوجة والده وهي من أحسن الناس صورة وسيرة والملك يخافه على نفسه وسنذكر خبره وكانوا متى علموا بمنكر ولو كان عند الملك غيروه

— حكاية —

ذكر لي انهم تعرفوا يوما ان بدار الملك حسين منكرا فاجتمعوا لتغييره وتحصن منهم بداخل داره فاجتمعوا على الباب في ستة آلاف رجل فخاف منهم فاستحضر الفقيه وكبار البلد وكان قد شرب الخمر فاقاموا عليه الحد بداخل قصره وانصرفوا عنه

— حكاية هي سبب قتل الفقيه نظام الدين المذكور —

كانت الاتراك المجاورون لمدينة هراة الساكنون بالصحراء وملكهم طغيتمور الذي مر ذكره وهم نحو خمسين ألفا يخافهم الملك حسين ويهدي لهم الهدايا في كل سنة ويداريهم وذلك قبل هزيمته للرافضة وأما بعد هزيمته للرافضة فتغلب عليهم ومن عادة هؤلاء الاتراك التردد الى مدينة هراة وربما شربوا بها الخمر وأتاها بعضهم وهو سكران فكان نظام الدين يحد من وجد منهم سكرانا وهؤلاء الاتراك أهل نجدة وباس ولا يزالون يضربون على بلاد الهند فيسبون ويقتلون وربما سبوا بعض المسلمات اللاتي يكن بارض الهند ما بين الكفار فاذا خرجوا بهن الى خراسان يطلق نظام الدين المسلمات من أيدي الترك وعلامة النسوة المسلمات بارض الهند ترك ثقب الاذن والكافرات آذانهن مثقوبات فاتفق مرة ان أميرا من أمراء الترك يسمي تمور الطي سبي امرأة وكلف بها كلفا شديدا فذكرت انها

مسلمة فانتزعها الفقيه من يده فبلغ ذلك من التركي مبلغا عظيما وركب في آلاف من أصحابه وأغار على خيل هراة وهي في مرعاها بصحراء مرغيس (بدغيس) واحتملوها فلم يتركوا لاهل هراة ما يركبون ولا ما يحلبون وصعدوا بها الى جبل هنالك لا يقدر عليهم فيه ولم يجد السلطان ولا جنده خيلا يتبعونهم بها فبعث اليهم رسولا يطلب منهم رد ما أخذوه من الماشية والخيل ويذكرهم العهد الذي بينهم فاجابوا بانهم لا يردون ذلك حتى يمكنوا من الفقيه نظام الدين فقال السلطان لا سبيل الى هذا وكان الشيخ أبو أحمد الجستي حفيد الشيخ مودود الجستي له بخراسان شان عظيم وقوله معتبر لديهم فركب في جماعة خيل من أصحابه ومماليكه فقال أنا أحمل الفقيه نظام الدين معي الى الترك ليرضوا بذلك ثم أرده فكان الناس مالوا الى قوله ورأي الفقيه نظام الدين اتفاقهم على ذلك فركب مع الشيخ أبي أحمد ووصل الى الترك فقام اليه الامير تمور الطي وقال له أنت أخذت امرأتي مني وضربه بدبوسه فكسر دماغه فخر ميتا فسقط في أيدي الشيخ أبي أحمد وانصرف من هنالك الى بلده ورد الترك ما كانوا أخذوه من الخيل والماشية وبعد مدة قدم ذلك التركي الذي قتل الفقيه على مدينة هراة فلقيه جماعة من أصحاب الفقيه فتقدموا اليه كانهم مسلمون عليه وتحت ثيابهم السيوف فقتلوه وفر أصحابه ولما كان بعد هذا بعث الملك حسين ابن عمه ملك ورنا الذي كان رفيق الفقيه نظام الدين في تغيير المنكر رسولا الى ملك سجستان فلما حصل بها بعث اليه أن يقيم هنالك ولا يعود اليه فقصد بلاد الهند ولقيته وأنا خارج منها بمدينة سيوستان من السند وهو أحد الفضلاء وفي طبعه حب الرياسة والصيد والبزاة والخيل والمماليك والاصحاب واللباس الملوكي الفاخر ومن كان على هذا الترتيب فانه لا يصلح حاله بارض الهند فكان من أمره ان ملك الهند ولاه بلدا صغيرا وقتله به بعض أهل هراة المقيمين بالهند بسبب جارية وقيل ان ملك الهند دس عليه من قتله بسعي الملك حسين في ذلك ولاجله خدم الملك حسين ملك الهند بعد موت ملك ورنا المذكور وهاداه ملك الهند وأعطاه مدينة بكار من بلاد السند ومجباها خمسون الف من دنانير الذهب في كل سنة (ولنعد) الى ما كنا بسبيله فنقول سافرنا من هراة الى مدينة الجام وهي متوسطة حسنة ذات بساتين و أشجار وعيون كثيرة وأنهار واكثر شجرها التوت والحرير بها كثير وهي تنسب الى الولي العابد الزاهد شهاب الدين احمد الجامي وسنذكر حكايته وحفيده الشيخ احمد المعروف بزاده الذي قتله ملك الهند والمدينة الآن لاولاده وهي محررة من قبل السلطان ولهم بها نعمة وثروة وذكر لي من اثق به ان السلطان أبا سعيد

ملك العراق قدم خراسان مرة ونزل على هذه المدينة و بها زاوية الشيخ فأضافه ضيافة عظيمة وأعطى لكل خباء بمحلته رأس غنم ولكل أربعة رجال رأس غنم ولكل دابة بالمحلة من فرس و بغل وحمار علف ليلة فلم يبق في المحلة حيوان الا وصلته ضيافته

— حكاية الشيخ شهاب الدين الذى تنسب اليه مدينة الجام —

يذكر انه كان صاحب راحة مكثرا من الشرب وكان له من الندماء نحو ستين وكانت لهم عادة أن يجتمعوا يوما في منزل كل واحد منهم فتدور النوبة على أحدهم بعد شهرين و بقوا على ذلك مدة ثم ان النوبة وصلت يوما الى الشيخ شهاب الدين فعقد النوبة ليلة النوبة وعزم على اصلاح حاله مع ربه وقال في نفسه ان قلت لاصحابي انى قد تبت قبل اجتماعهم عندى ظنوا ذلك عجزا عن مؤنتهم فأحضر ما كان يحضر مثله قبل من مأكولات ومشروب وجعل الخمر في الزقاق وحضر أصحابه فلما أرادوا الشرب فتحوا زقا فذاقه أحدهم فوجده حلوا ثم فتحوا ثانيا فوجدوه كذلك ثم ثالثا فوجدوه كذلك فكلموا الشيخ في ذلك فخرج لهم عن حقيقة أمره وصدقهم سن بكره وعرفهم بتوبته وقال لهم والله ماهذا الا الشراب الذى كنتم تشربونه فيما تقدم فتابوا جميعا الى الله تعالى و بنوا تلك الزاوية وانقطعوا بها لعبادة الله تعالى وظهر لهذا الشيخ كثير من الكرامات والمكاشفات ثم سافرنا من الجام الى مدينة طوس وهي من أكبر بلاد خراسان وأعظمها بلد الامام الشهير أبي حامد الغزالي رضي الله عنه و بها قبره ورحلنا منها الى مدينة مشهد الرضا وهو على بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنهم وهي أيضا مدينة كبيرة ضخمة كثيرة الفواكه والمياه والارجاء الطاحنة وكان بها الطاهر محمد شاه والطاهر عندهم بمعني النقيب عند أهل مصر والشام والعراق وأهل الهند والسند وتركستان يقولون السيد الاجل وكان أيضا بهذا المشهد القاضي الشريف جلال الدين لقيته بأرض الهند والشريف على وولداه أمير هند ودولة شاه وصحبوني من ترمذ الى بلاد الهند وكانوا من الفضلاء والمشهد المكرم عليه قبة عظيمة في داخل زاوية تجاورها مدرسة ومسجد وجميعها مليح البناء مصنوع الحيطان بالقاشاني وعلى القبر دكانة خشب ملبسة بصفائح الفضة وعليه قناديل فضة معلقة وعتبة باب القبة فضة وعلى بابها ستر حرير مذهب وهي مبسوطة بأنواع البسط وازاء هذا القبر قبر هارون الرشيد أمير المؤمنين رضي الله عنه وعليه دكانة يضعون عليها الشمعدانات التي يعرفها أهل المغرب بالحسك والمنائر واذا دخل الرافضي للزيارة ضرب

قبر الرشيد برجله وسلم على الرضا ثم سافرنا الى مدينة سرخس واليها ينسب الشيخ الصالح لقمان السرخسي رضى الله عنه ثم سافرنا منها الى مدينة زاوة وهي مدينة الشيخ الصالح قطب الدين حيدر واليه تنسب طائفة الحيدرية من الفقراء وهم الذين يجعلون حلق الحديد في أيديهم وأعناقهم وآذانهم ويجعلونها أيضافي ذكورهم حتى لا يتأتى لهم النكاح ثم رحلنا منها فوصلنا الى مدينة نيسابور وهي احدى المدن الاربع التي هي قواعد خراسان ويقال لها دمشق الصغيرة لكثرة فواكهها وبساتينها ومياهها وحسنها وتخترقها أربعة من الانهار وأسواقها حسنة متسعة ومسجدها بديع وهو في وسط السوق ويليه أربع من المدارس يجرى بها الماء الغزير وفيها من الطلبة خلق كثير يقرؤن القرآن والفقه وهي من حسان مدارس تلك البلاد ومدارس خراسان والعراقين ودمشق وبغداد ومصر وان بلغت الغاية من الاتقان والحسن فكلها تقصر عن المدرسة التي عمرها مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله المجاهد في سبيل الله عالم الملوك واسطة عقد الخلفاء العادلين أبو عنان وصل الله سعده ونصر جنده وهي التي عند القصبة من حضرة فاس حرسها الله تعالى فانها لا نظير لها سعة وارتفاعا ونقش الجص بها لا قدرة لاهل المشرق عليه ويصنع بنيسابور ثياب الحرير من النخ والكمخاء وغيرها وتحمل منها الى الهند وفي هذه المدينة زاوية الشيخ الامام العالم القطب العابد قطب الدين النيسابوري أحد الوعاظ العلماء الصالحين نزلت عنده فأحسن القرى وأكرم ورأيت له البراهين والكرامات العجيبة

— كرامة له —

كنت قد اشتريت بنيسابور غلاما تركيا فرآه معي فقال لي هذا الغلام لا يصلح لك فبعه فقلت له نعم وبعت الغلام في غد ذلك اليوم واشتراه بعض التجار وودعت الشيخ وانصرفت فلما حللت بمدينة بسطام كتب الى بعض أصحابي من نيسابور وذكر ان الغلام المذكور قتل بعض أولاد الاتراك وقتل به وهذه كرامة واضحة لهذا الشيخ رضى الله عنه وسافرت من نيسابور الى مدينة بسطام التي ينسب اليها الشيخ العارف أبو يزيد البسطامي الشهير رضى الله عنه وبهذه المدينة قبره ومعه في قبة واحدة أحد أولاد جعفر الصادق رضي الله عنه وببسطام أيضا قبر الشيخ الصالح الولى أبي الحسن الخرقاني وكان نزولي من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبي يزيد البسطامي رضى الله عنه ثم سافرت من هذه المدينة على طريق هندخير الى قندوس وبغلان وهي قرى فيها مشايخ وصالحون وبها البساتين والانهار فنزلنا بقندوس على نهر ماء به زاوية لاحد شيوخ الفقراء من أهل مصر يسمي بشير سياه

ومعنى ذلك الاسد الاسود وأضافنا بها والي تلك الارض وهو من أهل الموصل وسكناه بستان عظيم هنالك وأقمنا بخارج هذه القرية نحو أربعين يوما لرعي الجمال والخيل وبها مراعي طيبة واعشاب كثيرة والامن بها شامل بسبب شدة احكام الامير برنطيه وقد قدمنا ان أحكام الترك في من سرق فرسا أن يعطى معه تسعة مثله فان لم يجد ذلك أخذ فيها أولاده فان لم يكن له أولاد ذبح ذبح الشاة والناس يتركون دوابهم مهملة دون راع بعد أن يسم كل واحد دوابه في افخاذها وكذلك فعلنا في هذه البلاد واتفق ان تفقدنا خيلنا بعد عشر من نزولنا بها ففقدنا منها ثلاثة أفراس ولما كان بعد نصف شهر جاءنا التتر بها الى منزلنا خوفا على أنفسهم من الاحكام وكنا نربط في كل ليلة ازاء أخبيتنا فرسين لما عسي أن يقع بالليل ففقدنا الفرسين ذات ليلة وسافرنا من هنالك وبعد ثنتين وعشرين ليلة جاؤا بهما الينا في أثناء طريقنا وكان أيضا من أسباب اقامتنا خوف الثلج فان باثناء الطريق جبلا يقال له هندوكوش ومعناه قاتل الهنود لان العبيد والجوارى الذين يؤتى بهم من بلاد الهند يموت هنالك الكثير منهم لشدة البرد وكثرة الثلج وهو مسيرة يوم كامل وأقمنا حتى تمكن دخول الحر وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل وسلكنا به جميع نهارنا الى الغروب وكنا نضع اللبود بين ايدى الجمال تطا عليها لئلا تغرق في الثلج ثم سافرنا الى موضع يعرف بأندر وكانت هنالك فيما تقدم مدينة عفى رسمها ونزلنا بقرية عظيمة فيها زاوية لاحد الفضلاء ويسمي بمحمد المهروى ونزلنا عنده وأكرمنا وكان متى غسلنا أيدينا من الطعام يشرب الماء الذى غسلناها به لحسن اعتقاده وفضله وسافر معنا الي ان صعدنا جبل هندوكوش المذكور ووجدنا بهذا الجبل عين ماء حاره فغسلنا منها وجوهنا فتقشرت وتألمنا لذلك ثم نزلنا بموضع يعرف ببنج هير ومعنى بنج خمسة وهير الجبل فمعناه خمسة جبال وكانت هنالك مدينة حسنة كثيرة العمارة على نهر عظيم أزرق كانه بحر ينزل من جبال بدخشان وبهذه الجبال يوجد الياقوت الذى يعرفه الناس بالبلخش وخرب هذه البلاد تنكيز ملك التتر فلم تعمر بعد وبهذه المدينة مزار الشيخ سعيد المكي وهو معظم عندهم ووصلنا الى جبل بشاى (وضبطه بفتح الباء المعقودة والشين المعجم وألف وياء ساكنة) وبه زاوية الشيخ الصالح أطا أولياء وأطا (بفتح الهمزة) معناه بالتركية الاب وأولياء باللسان العربي فمعناه أبو الاولياء ويسمي أيضا سيصد صاله وسيصد (بسين مهمل مكسور وياء مد وصاد مهمل مفتوح ودال مهمل) ومعناه بالفارسية ثلاثمائة وصاله (ساله) (بفتح الصاد المهمل واللام) معناه عام وهم يذكرون ان عمره ثلاثمائة وخمسون

حاماو لهم فيـه اعتقاد حسن و ياتون لزيارته من البلاد و القرى و يقصده السلاطين و الخواتين
وأكرمنا وأضافنا ونزل على نهر عنـد زاويته ودخلنا اليـه فسلمت عليه وعانقني وجسمه
رطب لم أر ألين منـه ويظن رائيه ان عمره خمسون سنة وذكر لي انه في كل مائة سنة
ينبت له الشعر والاسنان وانه رآى أبارهم الذي قبره بملتان من السند وسالته عن رواية
حديث فاخبرني بحكايات وشككت في حاله والله أعلم بصدقه ثم سافرنا الى برون (وضبطها
بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخرها نون) وفيها لقيت الامير برنطية وضبط
اسمها بضم الباء وضم الراء وسكون النون وفتح الطاء المهمل وياء آخر الحروف مسكن
وهاء) وأحسن الي وأكرمني وكتب الى نوابه بمدينة غزنة في اكرامي وقد تقدم ذكره
وذكر ما أعطي من البسطة في الجسم وكان عنـده جماعة من المشايخ والفقراء اهـل الزوايا
ثم سافرنا الى قرية الجرخ (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقودة واسكان الراء وخاء معجم)
وهي كبيرة لها بساتين كثيرة وفواكهها طيبة قدمناها في أيام الصيف ووجدنا بها جماعة من
الفقراء والطلبة وصلينا بها الجمعة وأضافنا أميرها محمد الجرخي ولقيته بعد ذلك بالهند ثم سافرنا
الى مدينة غزنة وهي بلد السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين الشهير الاسم وكان من كبار
السلاطين يلقب بيمين الدولة وكان كثير الغزو الى بلاد الهند وفتح بها المدائن والحصون وقبره
بهذه المدينة عليه زاوية وقد خرب معظم هذه البلدة ولم يبق منها الا يسير وكانت كبيرة وهي
شـديدة البرد والساكنون بها يخرجون عنها أيام البرد الى مدينة القندهار وهي كبيرة مخصبة
ولم أدخلها وبينهما مسيرة ثلاث ونزلنا بخارج غزنة في قرية هنالك على نهر ماء تحت قلعتها
وأكرمنا أميرها مرذك أغا ومرذك (بفتح الميم وسكون الراء وفتح الذال المعجم) ومعناه
الصغير وأغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعناه الكبير الاصل ثم سافرنا الى كابل وكانت فيما
سلف مدينة عظيمة وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الاعاجم يقال لهم الافغان ولهم جبال
وشعاب وشوكة قوية وأكثرهم قطاع الطريق وجبلهم الكبير يسمي كوه سليمان ويذكران نبي
الله سليمان عليه السلام صعد ذلك الجبل فنظر الى أرض الهند وهي مظلمة فرجع ولم يدخلها
فسمي الجبل به وفيه يسكن ملك الافغان وبكابل زاوية الشيخ اسماعيل الافغاني تلميذ الشيخ
عباس من كبار الاولياء ومنها رحلنا الى كرماش وهي حصن بين جبلين تقطع به الافغان وكنا
حين جوازنا عليه نقاتلهم وهم بسفح الجبل ونرميهم بالنشاب فيفرون وكانت رفقتنا مخفة
ومعهم نحو أربعة آلاف فرس وكانت لي جمال انقطعت عن القافلة لاجلها ومعي جماعة
بعضهم من الافغان وطرحنا بعض الزاد وتركنا أحمال الجمال التي أعيت بالطريق وعادت به

اليها خيلنا بالغد فاحتملتها ووصلنا الى القافلة بعد العساء الآخرة فبتنا بمنزل ششغار وهي آخر العمارة مما يلي بلاد الترك و من هنا دخلنا البرية الكبرى وهي مسيرة خمس عشرة لا تدخل الا فى فصل واحد وهو بعد نزول المطر بارض السند والهند وذلك فى أوائل شهر يوليـة وتهب فى هذه البرية ريح السموم القاتلة التى تعفن الجسوم حتى ان الرجل اذا مات تنفسخ أعضاؤه وقد ذكرنا ان هذا الريح تهب أيضا فى البرية بين هرمز وشيراز وكانت تقدمت امامنا رفقة كبيرة فيها خداوندزاده قاضى ترمذ فمات لهم جمال وخيل كثيرة ووصلت رفقتنا سالمة بحمد الله تعالى الى بنج آب وهو ماء السند وبنج (بفتح الباء الموحدة وسكون النون والجيم) ومعناه خمسة وآب (بهمزة مفتوحة ممدودة وباء موحدة) ومعناه الماء فمعني ذلك الاودية الخمسة وهى تصب فى النهر الاعظم وتسقي تلك النواحى وسنذكرها ان شاء الله تعالى وكان وصولنا لهذا النهر سلخ ذي الحجة واستهل علينا تلك الليلة هلال المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ومن هنا لك كتب المخبرون بخبرنا الى أرض الهند وعرفوا ملكها بكيفية أحوالنا وها هنا ينتهى بنا الكلام في هذا السفر والحمد لله رب العالمين

﴿ تم الجزء الاول ويليه الجزء الثاني ﴾

﴿تذييل﴾ يقول مصححه وحيث انتهينا من رحلة الشيخ المغربي المعروف بابن بطوطة الى هذا الحد وهو أول جلد وقد شرع رحمه الله تعالى فى ذكر ماشاهده من العجائب والغرائب ببلاد الهند وهو ثانى جلد رأينا من المفيد ان نورد هنا عبارة توجد فى مقدمة ابن خلدون رحمه الله تعالى مما يتعلق بهذا القصد تتميما للفائدة وتقييدا للشاردة ونصها بفصها ﴿ورد على المغرب لعهد السلطان أبى عنان من ملوك بنى مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلى حاضرة ملك الهند واتصل بملكها لذلك العهد وهو السلطان محمد شاه وكان له منه مكان واستعمله فى خطة القضاء بمذهب المالكية فى عمله ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان أبى عنان وكان يحدث عن شان رحلته ومارأي من العجائب بممالك الارض واكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند وياتى من أحواله بما يستغربه السامعون مثل ان ملك الهند اذا خرج للسفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر يدفع لهم من عطائه وانه عند رجوعه من سفره يدخل فى يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة الى صحراء البلد ويطوفون به وينصب امامه فى ذلك المحفل منجنيقات على الظهر يرمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس الى ان يدخل ايوانه وأمثال هذه الحكايات فتناجى الناس فى الدولة بتكذيبه ولقيت أنا يومئذ فى بعض الايام وزير السلطان فارس بن وداد البعيد الصيت ففاوضته فى هذا الشان وأريته انكار اخبار ذلك الرجل لما استفاض فى الناس من تكذيبه فقال الوزير فارس اياك ان تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما انك لم تره فتكون كابن الوزير الناشىء فى السجن وذلك ان وزيرا اعتقله سلطانه فمكث في السجن سنين ربي فيها ابنه في ذلك المحبس فلما أدرك وعقل سال عن اللحمان التي كان يتغذى بها فاذا قال له أبوه هذا لحم الغنم يقول وما الغنم فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها فيقول ياأبت تراها مثل الفار فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفار وكذا فى لحم البقر والابل اذلم يعاين فى محبسه الا الفار فيحسبها كلها أبناء جنس للفار وهذا كثيرا ما يعتري الناس فى الاخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الاغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الانسان الى اصوله وليكن مهيمنا على نفسه ومميزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل فى نطاق الامكان قبله وماخرج عنه رفضه وليس مرادنا الامكان العقلى المطلق فان نطاقه أوسع شى فلا يفرض حدا بين الواقعات وانما مرادنا الامكان بحسب المادة التى للشي فاذا نظرنا أصل الشي وجنسه وفصله ومقدار عظمه وقوته أجرينا الحكم فى نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على ماخرج عن نطاقه وقل ربي زدنى علما﴾ (اه بحروفه)

الجزء الثاني

من

﴿ رحلة ابن بطوطه ﴾

﴿ المسماة ﴾

تحفة النظار . فى غرائب الامصار
وعجائب الاسفار

طبع بالمطبعة الأزهرية بمصر

بشارع رقعة القمح رقم ٦ بجوار الأزهر الشريف بمصر

﴿ على نفقة أصحابها ﴾

ورثة المرحوم فضيلة الشيخ محمد عبد الخالق المهدى

﴿ الطبعة الاولى ﴾

(سنة ١٣٤٦ هـ — سنة ١٩٢٨ م)

*



﴿ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ﴾

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطه رحمه الله تعالى

ولما كان بتاريخ الغرة من شهر الله المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة وصلنا الى وادى السند المعروف ببنج آب ومعنى ذلك المياه الخمسة وهذا الوادي من أعظم أودية الدنيا وهو يفيض فى أوان الحر فيزرع أهل تلك البلاد على فيضه كما يفعل أهل الديار المصرية فى فيض النيل وهذا الوادى هو أول عمالة السلطان المعظم محمد شاه ملك الهند والسند ولما وصلنا الى هذا النهر جاء الينا أصحاب الاخبار الموكلون بذلك وكتبوا بخبرنا الى قطب الملك أمير مدينة ملتان وكان أمير أمراء السند على هذا العهد مملوك للسلطان يسمى سرتيز وهو عرض المماليك وبين يديه تعرض عساكر السلطان ومعنى اسمه الحاد الرأس لان سر (بفتح السين المهملة وسكون الراء) هو الرأس وتيز (بتاء معلوة وياء مد وزاى) معناه الحاد وكان فى حين قدومنا بمدينة سيوستان من السند وبينها وبين ملتان مسيرة عشرة أيام وبين بلاد السند وحضرة السلطان مدينة دهلى مسيرة خمسين يوما واذا كتب المخبرون الى السلطان من بلاد السند يصل الكتاب اليه فى خمسة أيام بسبب البريد

— ذكر البريد —

والبريد ببلاد الهند صنفان فاما بريد الخيل فيسمونه الولاق (اولاق) (بضم الواو وآخره قاف) وهو خيل تكون للسلطان فى كل مسافة أربعة أميال وأما بريد الرجالة فيكون فى مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب ويسمونها الداوة (بالدال المهمل والواو) والداوة هي ثلث ميل والميل عندهم يسمى الكروة (بضم الكاف والراء) وترتيب ذلك ان يكون فى كل ثلث ميل قرية معمورة ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين

للحركة قد شدوا أوساطهم وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين باعلاها جلاجل نحاس فاذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الاخرى وخرج يشتد بمنتهى جهده فاذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا له فاذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ومر بأقصى جهده وهو يحرك المقرعة حتى يصل الى الداوة الأخرى ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب الى حيث يراد منه وهذا البريد أسرع من بريد الخيل وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند من فواكه خراسان يجعلونها فى الاطباق و يشتدون بها حتى تصل الى السلطان وكذلك يحملون أيضا الكبار من ذوي الجنايات يجعلون الرجل منهم على سرير و يرفعونه فوق رؤسهم و يسيرون به شدا وكذلك يحملون الماء لشرب السلطان اذا كان بدولة أباد يحملونه من نهر الكنك الذي تحج الهنود اليه وهو على مسيرة أربعين يوما منها واذا كتب المخبرون الى السلطان بخبر من يصل الى بلاده استوعبوا الكتاب وأمعنوا فى ذلك وعرفوه أنه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا وكتبوا اعداد أصحابه وغلمانه وخدامه ودوابه وترتيب حاله فى حركته وسكونه وجميع تصرفاته لا يغادرون من ذلك كله شيأ فاذا وصل الوارد الى مدينة ملتان وهى قاعدة بلاد السند أقام بها حتى ينفذ أمر السلطان بقدومه ومايجرى له من الضيافة وانما يكرم الانسان هنالك بقدر مايظهر من أفعاله وتصرفاته وهمته اذ لا يعرف هنالك ماحسبه ولا آباؤه ومن عادة ملك الهند السلطان أبي المجاهد محمد شاه اكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة ومعظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته واصهاره غرباء ونفذ أمره بان يسمي الغرباء فى بلاده بالاعزة فصار لهم ذلك اسما علما ولا بد لكل قادم على هذا الملك من هدية يهديها اليه و يقدمها وسيلة بين يديه فيكافئه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة وسيمر من ذكر هدايا الغرباء اليه كثير ولما تعود الناس ذلك منه صار التجار الذين ببلاد السند والهند يعطون لكل قادم على السلطان الآلاف من الدنانير دينا و يجهزونه بما يريد أن يهديه اليه أو يتصرف فيه لنفسه من الدواب للركوب والجمال والامتعة و يخدمونه باموالهم وأنفسهم و يقفون بين يديه كالحشم فاذا وصل الى السلطان أعطاه العطاء الجزيل فقضى ديونهم ووفاهم حقوقهم فنفقت تجارتهم وكثرت أرباحهم وصار لهم ذلك عادة مستمرة ولما وصلت الى بلاد السند سلكت ذلك المنهج واشتريت من التجار الخيل والجمال والماليك وغير ذلك ولقد اشتريت من تاجر عراقى من أهل تكريت يعرف بمحمد الدورى بمدينة غزنة نحو ثلاثين فرسا وجملا عليه حمل من النشاب فانه مما يهدى الى السلطان وذهب التاجر المذكور الى خراسان ثم عاد

الى الهند وهنا لك تقاضى مني ماله واستفاد بسببي فائدة عظيمة وعاد من كبار التجار ولقيته بمدينة حلب بعد سنين كثيرة وقد سلبني الكفار مما كان بيدى فلم ألق منه خيرا

— ذكر الكركدن —

ولما أجزنا نهر السند المعروف بپنج آب دخلنا غيضة قصب لسلوك الطريق لانه في وسطها فخرج علينا الكركدن وصورته انه حيوان اسود اللون عظيم الجرم رأسه كبير متفاوت الضخامة ولذلك يضرب به المثل فيقال الكركدن رأس بلا بدن وهو دون الفيل ورأسه أكبر من رأس الفيل باضعاف وله قرن واحد بين عينيه طوله نحو ثلاثة اذرع وعرضه نحو شبر ولما خرج علينا عارضه بعض الفرسان في طريقه فضرب الفرس الذى كان تحته بقرنه فانفذ فخذه وصرعه وعاد الى الغيضة فلم نقدر عليه وقد رأيت الكركدن مرة ثانية في هذا الطريق بعد صلاة العصر وهو يرعي نبات الارض فلما قصدناه هرب منا ورأيته مرة اخرى ونحن مع ملك الهند دخلنا غيضة قصب وركب السلطان على الفيل وركبنا معه الفيلة ودخلت الرجالة والفرسان فاثاروه وقتلوه واستاقوا رأسه الى المحلة وسرنا من نهر السند يومين ووصلنا الى مدينة جناني (وضبط اسمها بفتح الجيم والنون الاولى وكسر الثانية) مدينة كبيرة حسنة على ساحل نهر السند لها اسواق مليحة وسكانها طائفة يقال لهم السامرة استوطنوها قديما واستقر بها اسلافهم حين فتحها على أيام الحجاج بن يوسف حسبما أثبت المؤرخون في فتح السند وأخبرني الشيخ الامام العالم العامل الزاهد العابد ركن الدين ابن الشيخ الفقيه الصالح شمس الدين ابن الشيخ الامام العابد الزاهد بهاء الدين زكريا القرشي وهو أحد الثلاثة الذين أخبرني الشيخ الولى الصالح برهان الدين الاعرج بمدينة الاسكندرية اني سالقاهم في رحلتي فلقيتهم والحمد لله ان جده الاعلى كان يسمى بمحمد بن قاسم القرشي وشهد فتح السند في العسكر الذى بعثه لذلك الحجاج بن يوسف أيام امارته على العراق وأقام بها وتكاثرت ذريته وهؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا ياكلون مع أحد ولا ينظر اليهم أحد حين ياكلون ولا يصاهرون أحدا من غيرهم ولا يصاهرهم أحد وكان لهم في هذا العهد أمير يسمى ونار (بضم الواو وفتح النون) وسنذكر خبره ثم سافرنا من مدينة جناني الى ان وصلنا الى مدينة سيوستان (وضبط اسمها بكسر السين الاول المهمل وياء مد وواو مفتوح وسين مكسور وتاء معلوة وآخره نون) وهي مدينة كبيرة وخارجها صحراء ورمال لا شجر بها الا شجر أم غيلان ولا يزرع على نهرها شيء ما عدا البطيخ وطعامهم الذرة والجلبان ويسمونه المشنك (بميم وشين معجم مضمومين ونون مسكن) ومنه يصنعون الخبز وهي كثيرة السمك والالبان الجاموسية

وأهلها يأكلون السقنقور وهي دويبة شبيهة بأم حبين التي يسميها المغاربة حنيشة الجنة الا أنها لا ذنب لها ورأيتهم يحتفرون الرمل ويستخرجونها منه ويشقون بطنها ويرمون بما فيه ويحشونه بالكركم وهم يسمونه زردشوبه ومعناه العود الاصفر وهو عندهم عوض الزعفران ولما رأيت تلك الدويبة وهم يأكلونها استقذرتها فلم آكلها ودخلنا هذه المدينة في احتدام القيظ وحرها شديد فكان أصحابي يقعدون عريانين يجعل أحدهم فوطة على وسطه وفوطة على كتفيه مبلولة بالماء فما يمضي اليسير من الزمان حتى تيبس تلك الفوطة فيبلها مرة أخرى وهكذا أبدا ولقيت بهذه المدينة خطيبها المعروف بالشيباني وأراني كتاب أمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لجده الاعلى بخطابة هذه المدينة وهم يتوارثونها من ذلك العهد الى الآن

(ونص الكتاب) هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لفلان وتاريخه سنة تسع وتسعين وعليه مكتوب بخط أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الحمد لله وحده على ما أخبرني الخطيب المذكور ولقيت بها أيضا الشيخ المعمر محمد البغدادي وهو بالزاوية التي على قبر الشيخ الصالح عثمان المرندي وذكر ان عمره يزيد على مائة وأربعين سنة وانه حضر لقتل المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس رضي الله عنهم لما قتله الكافر هلاون ابن تنكيز التتري وهذا الشيخ على كبر سنه قوي الجثة يتصرف على قدميه

— حكاية —

كان يسكن بهذه المدينة الامير ونار السامري الذي تقدم ذكره والامير قيصر الرومي وهما في خدمة السلطان ومعهما نحو ألف وثمانمائة فارس وكان يسكن بها كافر من الهنود اسمه رتن (بفتح الراء وبفتح التاء المعلوة والنون) وهو من الحذاق بالحساب والكتابة فوفد على ملك الهند مع بعض الامراء فاستحسنه السلطان وسماه عظيم السند وولاه بتلك البلاد وأقطعه سيوستان وأعمالها وأعطاه المراتب وهي الاطبال والعلامات كما يعطى كبار الامراء فلما وصل الى تلك البلاد عظم على ونار وقيصر وغيرهم تقديم الكافر عليهم فاجمعوا على قتله فلما كان بعد أيام من قدومه أشاروا عليه بالخروج الى احواز المدينة ليتطلع على أمورها فخرج معهم فلما جن الليل أقاموا ضجة بالمحلة وزعموا ان السبع ضرب عليها وقصدوا مضرب الكافر فقتلوه وعادوا الى المدينة فاخذوا ما كان بها من مال السلطان وذلك اثنا عشر لكا واللك مائة ألف دينار وصرف اللك عشرة آلاف دينار من ذهب الهند وصرف الدينار الهندي ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب وقدموه على أنفسهم ونار المذكور وسموه ملك فيروز وقسم الاموال على العسكر ثم خاف على نفسه لبعده

عن قبيلته فخرج فيمن معه من أقاربه وقصد قبيلته وقدم الباقون من العسكر على أنفسهم قيصر الرومي واتصل خبرهم بعماد الملك سرتيز مملوك السلطان وهو يومئذ أمير أمراء السند وسكناه بملتان فجمع العساكر وتجهز في البر وفي نهر السند وبين ملتان وسيوستان عشرة أيام وخرج اليه قيصر فوقع اللقاء وانهزم قيصر ومن معه اشنع هزيمة وتحصنوا بالمدينة فحصرهم ونصب المجانيق عليهم واشتد عليهم الحصار فطلبوا الامان بعد أربعين يوما من نزوله عليهم فاعطاهم الامان فلما نزلوا اليه غدرهم وأخذ أموالهم وأمر بقتلهم فكان كل يوم يضرب أعناق بعضهم ويوسط بعضهم ويسلخ آخرين منهم ويملأ جلودهم تبنا ويعلقها على السور فكان معظمه عليه تلك الجلود مصلوبة ترعب من ينظر اليها وجمع رؤسهم في وسط المدينة فكانت مثل التل هنالك ونزلت بتلك المدينة إثر هذه الوقيعة بمدرسة فيها كبيرة وكنت أنام على سطحها فاذا استيقظت من الليل أرى تلك الجلود المصلوبة فتشمئز النفس منها ولم تطب نفسي بالسكنى بالمدرسة فانتقلت عنها وكان الفقيه الفاضل العادل علاء الملك الخراساني المعروف بفصيح الدين قاضي هراة في متقدم التاريخ قد وفد على ملك الهند فولاه مدينة لاهري واعمالها من بلاد السند وحضر هذه الحركة مع عماد الملك سرتيز بمن معه من العساكر فعزمت على السفر معه الى مدينة لاهري وكان له خمسة عشر مركبا قدم بها في نهر السند تحمل اثقاله فسافرت

— ذكر السفر في نهر السند وترتيب ذلك —

وكان للفقيه علاء الملك في جملة مراكبه مركب يعرف بالاهورة (بفتح الهمزة والهاء وسكون الواو وفتح الراء) وهي نوع من الطريدة عندنا الا انها أوسع منها وأقصر وعلى نصفها معرش من خشب يصعد له على درج وفوقه مجلس مهيأ لجلوس الامير ويجلس اصحابه بين يديه ويقف المماليك يمنة ويسرة والرجال يقذفون وهم نحو اربعين ويكون مع هذه الاهورة أربعة من المراكب عن يمينها ويسارها اثنان منها فيهما مراتب الامير وهي العلامات والطبول والابواق والانفار والصرنايات وهي الغيطات والآخران فيهما اهل الطرب فتضرب الطبول والابواق نوبة ويغني المغنون نوبة ولا يزالون كذلك من أول النهار الى وقت الغداء فاذا كان وقت الغداء انضمت المراكب ووصل بعضها ببعض ووضعت بينهما الاصقالات وأتى أهل الطرب الى أهورة الامير فيغنون الى أن يفرغ من أكله ثم ياكلون واذا انقضى الاكل عادوا الى مركبهم وشرعوا أيضا في المسير على ترتيبهم الى الليل فاذا كان الليل ضربت المحلة على شاطىء النهر ونزل الامير الى مضاربه ومد

السماط وحضر الطعام معظم العسكر فاذا صلوا العشاء الاخيرة سمر السمار بالليل نوبا فاذا أتم أهل النوبة منهم نوبتهم نادى منادمنهم بصوت عال ياخوند ملك قد مضى من الليل كذا من الساعات ثم يسمر أهل النوبة الاخري فاذا أتموها نادي مناديهم أيضا معلما بما مر من الساعات فاذا كان الصبح ضربت الابواق والطبول وصليت صلاة الصبح وأتي بالطعام فاذا فرغ الا كل أخذوا فى المسير فان أراد الامير ركوب النهر ركب على ماذ كرناه من الترتيب وان أراد المسير فى البر ضربت الاطبال والابواق وتقدم حجابه ثم تلاهم المشاؤون بين يديه ويكون بين أيدى الحجاب ستة من الفرسان عند ثلاثة منهم أطبال قد تقلدوها وعند ثلاثة صرنايات فاذ أقبلوا على قرية أوما هو من الارض مرتفع ضربوا تلك الاطبال والصرنايات ثم تضرب أطبال العسكر وأبواقه ويكون عن يمين الحجاب ويسارهم المغنون يغنون نوبا فاذا كان وقت الغداء نزلوا وسافرت مع علاء الملك خمسة أيام ووصلنا الى موضع ولايته وهو مدينة لاهرى (وضبط اسمها بفتح الهاء وكسر الراء) مدينة حسنة على ساحل البحر الكبير وبها يصب نهر السند فى البحر فيلتقى بها بحران ولها مرسى عظيم ياتى اليه أهل اليمن وأهل فارس وغيرهم وبذلك عظمت جباياتها وكثرت أموالها أخبرنى الامير علاء الملك المذكور ان مجبي هذه المدينة ستون لكا فى السنة وقد ذكرنا مقدار اللك وللامير من ذلك ثم (نيم) ده يك ومعناه نصف العشر وعلى ذلك يعطى السلطان البلاد لعماله ياخذون منها لانفسهم نصف العشر

— ذكر غريبة رأيتها بخارج هذه المدينة —

وركبت يوما مع علاء الملك فانتهينا الى بسيط من الارض على مسافة سبعة أميال منها يعرف بتارنا فرأيت هنالك مالا يحصره العد من الحجارة على مثل صور الآدميين والبهايم وقد تغير كثير منها ودثرت أشكاله فيبقى منه صورة رأس اورجل أوسواها ومن الحجارة أيضا على صورة الحبوب من البر والحمص والفول والعدس وهنالك آثار سور وجدرات دور ثم رأينا رسم دار فيها بيت من حجارة منحوتة وفى وسطه دكانة حجارة منحوتة كانها حجر واحد عليها صورة آدمي الاان رأسه طويل وفمه فى جانب من وجهه ويداه خلف ظهره كالمكتوف وهنالك مياه شديدة النتن وكتابة على بعض الجدرات بالهندى وأخبرنى علاء الملك ان أهل التاريخ يزعمون ان هذا الموضع كانت فيه مدينة عظيمة أكثر أهلها الفساد فمسخوا حجارة وان ملكهم هو الذى على الدكانة فى الدار التي ذكرناها وهي الى الآن تسمى دار الملك وان الكتابة التى فى بعض الحيطان هنالك

بالهندي هي تاريخ هلاك أهل تلك المدينة وكان ذلك منذ ألف سنة أونحوها وأقمت بهذه المدينة مع علاء الملك خمسة أيام ثم احسن فى الزاد وانصرفت عنه الى مدينة بكار (بفتح الباء الموحدة) وهى مدينة حسنة يشقها خليج من نهر السندوفي وسط ذلك الخليج زاوية حسنة فيها الطعام للوارد والصادر عمرها كشلوخان ايام ولايته على بلاد السند وسيقع ذكره ولقيت بهذه المدينة الفقيه الامام صدر الدين الحنفى ولقيت بها قاضيها المسمى بابي حنيفة ولقيت بها الشيخ العابد الزاهد شمس الدين محمد الشيرازي وهو من المعمرين ذكرلى ان سنه يزيد على مائة وعشرين عاما ثم سافرت من مدينة بكار فوصلت الى مدينة اوجه (وضبط اسمها بضم الهمزة وفتح الجيم) وهي مدينة كبيرة على نهر السند لها اسواق حسنة وعمارة جيدة وكان الامير بها اذذاك الملك الفاضل الشريف جلال الدين الكيجي احد الشجعان الكرماء وبهذه المدينة توفي بعد سقطة سقطها عن فرسه

— مكرمة لهذا الملك —

ونشات بيني وبين هذا الملك الشريف جلال الدين مودة وتاكدت بيننا الصحبة والمحبة واجتمعنا بحضرة دهلى فلما سافر السلطان الى دولة أبادكما سنذكره وأمرني بالاقامة بالحضرة قال لى جلال الدين انك تحتاج الى نفقة كبيرة والسلطان تطول غيبته فخذ قريتي واستغلها حتى أعود ففعلت ذلك واستغليت منها نحو خمسة آلاف دينار جزاه الله احسن جزائه ولقيت بمدينة اوجه الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حيدر العلوى والبسني الخرقة وهو من كبار الصالحين ولم يزل الثوب الذي البسنيه معى الى ان سلبني كفار الهنود فى البحر ثم سافرت من اوجه الى مدينة ملتان (وضبط اسمها بضم الميم وتاء معلوة) وهى قاعدة بلاد السند ومسكن امير امرائه وفى الطريق اليها على مسافة عشرة اميال منها الوادى المعروف بخسرو آباد وهو من الاودية الكبار لايجاز الا فى المركب وبه يبحث عن امتعة المجتازين اشد البحث وتفتش رحالهم وكانت عادتهم فى حين وصولنا اليها ان ياخذوا الربع من كل مايجلبه التجار و ياخذوا على كل فرس سبعة دنانير مغرما ثم بعد وصولنا للهند بسنتين رفع السلطان تلك المغارم وامر ان لا يؤخذ من الناس الا الزكاة والعشر لما بايع للخليفة ابى العباس العباسى ولما اخذنا فى اجازة هذا الوادى وفتشت الرحال عظم علي تفتيش رحلى لانه لم يكن فيه طائل وكان يظهر فى اعين الناس كبيرا فكنت اكره ان يطلع عليه ومن لطف الله تعالى ان وصل احد كبار الاجناد من جهة قطب الملك صاحب ملتان فامر ان لا يعرض لى ببحث ولا تفتيش فكان كذلك فحمدت

الله على ماهياه لي من لطائفه وبتنا تلك الليلة على شاطىء الوادي وقدم علينا في صبيحتها ملك البريد واسمه دهقان وهو سمرقندى الاصل وهو الذى يكتب للسلطان باخبار تلك المدينة وعمالتها وما يحدث بها ومن يصل اليها فتعرفت به ودخلت في صحبته الى أمير ملتان

— ذكر أمير ملتان وترتيب حاله —

وأمير ملتان هو قطب الملك من كبار الامراء وفضلائهم لما دخلت عليه قام الى وصافحني وأجلسني الى جانبه وأهديت له مملوكا وفرسا وشيئا من الزبيب واللوز وهو من أعظم ما يهدى اليهم لانه ليس ببلادهم وانما يجلب من خراسان وكان جلوس هذا الامير على دكانة كبيرة عليها البسط وعلى مقربة منه القاضي ويسمى سالار والخطيب ولا أذكر اسمه وعن يمينه ويساره أمراء الاجناد وأهل السلاح وقوف على رأسه والعساكر تعرض بين يديه وهنالك قسي كثيرة فاذا أتى من يريد ان يثبت في العسكر راميا أعطى قوسا من تلك القسي ينزع فيها وهي متفاوتة في الشدة فعلي قدر نزعه يكون مرتبه ومن أراد أن يثبت فارسا فهنالك طبلة منصوبة فيجرى فرسه ويرميها برمحه وهنالك أيضا خاتم معلق في حائط صغير فيجري فرسه حتي يحاذيه فان رفعه برمحه فهو الجيد عندهم ومن أراد أن يثبت راميا فارسا فهنالك كرة موضوعة في الارض فيجري فرسه ويرميها وعلى قدر ما يظهر من الانسان في ذلك من الاصابة يكون مرتبه ولما دخلنا على هذا الامير وسلمنا عليه كما ذكرناه أمر بانزالنا في دار خارج المدينة هي لاصحاب الشيخ العابد ركن الدين الذى تقدم ذكره وعادتهم أن لا يضيفوا أحدا حتى ياتي أمر السلطان بتضييفه

— ذكر من اجتمعت به في هذه المدينة من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند —

فمنهم خداوندزاده قوام الدين قاضي ترمذ قدم باهله وولده ثم ورد عليه بها اخوته عماد الدين وضياء الدين وبرهان الدين ومنهم مبارك شاه أحد كبار سمرقند ومنهم أرن بغا أحد كبار بخارى ومنهم ملك زاده ابن أخت خداوندزاده ومنهم بدر الدين الفصال وكل واحد من هؤلاء معه أصحابه وخدامه وأتباعه ولما مضى من وصولنا الى ملتان شهران وصل أحد حجاب السلطان وهو شمس الدين البوشنجي والملك محمد الهروى الكتوال بعثهما السلطان لاستقبال خداوندزاده وقدم معهم ثلاثة من الفتيان بعثتهم المخدومة جهان وهي أم السلطان لاستقبال زوجة خداوندزاده المذكور وأتوا بالخلع لهما ولاولادهما ولتجهيز من قدم من الوفود وأتوا جميعا الى وسالوني لماذا قدمت فاخبرتهم انى قدمت للاقامة في خدمة خوند عالم وهو السلطان وبهذا يدعي في بلاده وكان أمر أن لا يترك

أحـد ممن ياتي من خراسان يدخـل بلاد الهنـد الان كال برسم الاقامة فلمـا أعلمتهم انى قدمت للاقامة استدعوا القاضي والعدول وكتبوا عقدا على وعلى من أراد الاقامة من أصحابي وأبى بعضهم من ذلك وتجهزنا للسفر الى الحضرة وبين ملتان وبينهـا مسيرة أربعين يوما فى عمارة متصلة وأخرج الحاجب وصاحبه الذى بعث معه مايحتـاج اليه فى ضيافة قوام الدين واستصحبوا من ملتان نحو عشرين طباخا وكان الحاجب يتقدم ليلا الى كل منزل فيجهز الطعـام وسواه فما يصـل خداوندزاده حتي يكون الطعـام متيسرا وينزل كل واحد ممن ذكرناهم من الوفود على حدة بمضاربه وأصحابه وربما حضروا الطعام الذى يصنع لخـداوندزاده ولم أحضره انا الامرة واحـدة وترتيب ذلك الطعـام انهم يجعلون الخبز وخبزهم الرقاق وهو شبـه الجراديق ويقطعـون اللحم المشوى قطعا كبارا بحيث تكون الشاة اربع قطع أوستا ويجعلون أمام كل رجل قطعة ويجعلون اقراصا مصنـوعة بالسمن تشبه الخبز المشرك ببـلادنا ويجعلون فى وسطها الحلواء الصابونيـة ويغطون كل قرص منها برغيف حلواء يسمونه الخشتي ومعناه الاجري مصنـوع من الدقيق والسكر والسمن ثم يجعلون اللحم المطبوخ بالسمن والبصل والزنجبيل الاخضر فى صحاف صينية ثم يجعلون شيا يسمونه سموسك وهو لحـم مهروس مطبوخ باللوز والجوز والفستق والبصل والابازير موضوع في جوف رقاقة مقلوة بالسمن يضعون أمام كل انسان خمس قطع من ذلك اواربعا ثم يجعلون الارز المطبوخ بالسمن وعليه الدجاج ثم يجعلون لقيمات القاضي ويسمونها الهاشمي ثم يجعلون القاهرية ويقف الحاجب على السماط قبـل الاكل ويخـدم الى الجهة التى فيها السلطان ويخـدم جميع من حضر لخدمته والخدمة عنـدهم حط الرأس نحو الركـوع فاذا فعلوا ذلك جلسوا للأكل ويؤتى باقداح الذهب والفضة والزجاج مملوءة بماء النبات وهو الجلاب محلولا في الماء ويسمون ذلك الشربة ويشربونه قبل الطعام ثم يقول الحاجب بسم الله فعند ذلك يشرعون فى الأكل فاذا أكلـوا أتوا بأكواز الفقـاع فاذا شربوه أتوا بالتنبـول والفوفل وقد تقـدم ذكرهما فاذا أخـذوا التنبـول والفـوفل قال الحاجب بسم الله فيقـومون ويخدمون مثل خدمتهم أولا وينصرفون وسافرنا من مدينة ملتان وهم يجرون هذا الترتيب على حسب ماسطرناه الى ان وصلنا الى بلاد الهنـد وكان اول بلد دخلنـاه مدينة ابوهر (بفتح الهاء) وهى اول تلك البلاد الهندية صغيرة حسنة كثيرة العمارة ذات انهار واشجار وليس هنالك من اشجار بلادنا شىء ماعدا النبـق لكنه عنـدهم عظيم الجرم تكون الحبة منه بمقدار حبة العفص شـديد

الحلاوة ولهم اشجار كثيرة ليس يوجد منها شيء ببلادنا ولا بسواها

ذكر اشجار بلاد الهند وفواكهها

فمنها العنبة (بفتح العين وسكون النون وفتح الباء الموحدة) وهي شجرة تشبه أشجار النارنج الا أنها أعظم اجراما وأكثر أوراقا وظلها أكثر الظلال غير انه ثقيل فمن نام تحته وعك وثمرها على قدر الاجاص الكبير فاذا كان أخضر قبل تمام نضجه أخذوا ماسقط منه وجعلوا عليه الملح وصيروه كما يصير الليم والليمون ببلادنا وكذلك يصيرون أيضا الزنجبيل الاخضر وعناقيد الفلفل ويأكلون ذلك مع الطعام يأخذون باثر كل لقمة يسيرا من هذه المملوحات فاذا نضجت العنبة في أوان الخريف اصفرت حباتها فأكلوها كالتفاح فبعضهم يقطعها بالسكين وبعضهم يمصها مصا وهي حلوة يمازج حلاوتها يسير حموضة ولها نواة كبيرة يزرعونها فتنبت منها الاشجار كما تزرع نوى النارنج وغيرها ومنها الشكى والبركى (بفتح الشين المعجم وكسر الكاف وفتح الباء الموحدة وكسر الكاف أيضا) وهي أشجار عادية أوراقها كأوراق الجوز وثمرها يخرج من أصل الشجرة فما اتصل منه بالارض فهو البركى وحلاوته أشد ومطعمه أطيب وما كان فوق ذلك فهو الشكى وثمره يشبه القرع الكبار وجلوده تشبه جلود البقر فاذا اصفر في أوان الخريف قطعوه وشقوه فيكون في داخل كل حبة المائة والمائتان فما بين ذلك من حبات تشبه الخيار بين كل حبة وحبة صفاق أصفر اللون ولكل حبة نواة تشبه الفول الكبير واذا شويت تلك النواة أو طبخت يكون طعمها كطعم الفول اذ ليس يوجد هنالك ويدخرون هذه النوى في التراب الاحمر فتبقى الى سنة أخرى وهذا الشكى والبركى هو خير فاكهة ببلاد الهند ومنها التندو (بفتح التاء المثناة وسكون النون وضم الدال) وهو ثمر شجر الآبنوس وحباته في قدر حبات المشمش ولونها وهو شديد الحلاوة ومنها الجومون (بضم الجيم المعقودة) وأشجاره عادية ويشبه ثمرة الزيتون وهو أسود اللون ونواه واحدة كالزيتون ومنها النارنج الحلو وهو عندهم كثير وأما النارنج الحامض فعزيز الوجود ومنه صنف ثالث يكون بين الحلو والحامض وثمره على قدر الليم وهو طيب جدا وكنت يعجبني أكله ومنها المهوا (بفتح الميم والواو) وأشجاره عادية وأوراقه كأوراق الجوز الا ان فيها حمرة وصفرة وثمره مثل الاجاص الصغير شديد الحلاوة وفي أعلى كل حبة منه حبة صغيرة بمقدار حبة العنب مجوفة وطعمها كطعم العنب الا أن الاكثار من أكلها يحدث في الرأس صداعا ومن العجب ان هذه الحبوب اذا يبست في الشمس كان مطعمها كطعم التين وكنت آكلها عوضا من التين اذ لا يوجد ببلاد

الهند وهم يسمون هذه الحبة الانكور (بفتح الهمزة وسكون النون وضم الكاف المعقودة والواو والراء) وتفسيره بلسانهم العنب والعنب بارض الهند عزيز جدا ولا يكون بها الا في مواضع بحضرة دهلي وبلاد أخر ويثمر مرتين في السنة ونوى هذا الثمر يصنعون منه الزيت ويستصبحون به ومن فواكههم فاكهة يسمونها كسيرا (بفتح الكاف وكسر السين المهمل وياء مد وراء) يحفرون عليها الارض وهي شديدة الحلاوة تشبه القسطل وببلاد الهند من فواكه بلادنا الرمان ويثمر مرتين في السنة ورأيته ببلاد جزائر ذيبة المهل لا ينقطع له ثمر وهم يسمونه أنار (بفتح الهمزة والنون) وأظن ذلك هو الاصل في تسمية الجلنار فان جل بالفارسية الزهر ونار الرمان

— ذكر الحبوب التي يزرعها أهل الهند ويقتاتون بها —

وأهل الهند يزدرعون مرتين في السنة فاذا نزل المطر عندهم في أوان القيظ زرعوا الزرع الخريفي وحصدوه بعد ستين يوما من زراعته ومن هذه الحبوب الخريفية عندهم الكذرو (بضم الكاف وسكون الذال المعجم وضم الراء وبعدها واو) وهو نوع من الدخن وهذا الكذرو هو أكثر الحبوب عندهم ومنها القال (بالقاف) وهو شبه انلى ومنها الشاماخ (بالشين والخاء المعجمتين) وهو أصغر حبا من القال وربما نبت هذا الشاماخ من غير زراعة وهو طعام الصالحين وأهل الورع والفقراء والمساكين يخرجون لجمع ما نبت منه من غير زراعة فيمسك أحدهم قفة كبيرة بيساره وتكون بيمناه مقرعة يضرب بها الزرع فيسقط في القفة فيجمعون منه ما يقتاتون به جميع السنة وحب هذا الشاماخ صغير جدا واذا جمع جعل في الشمس ثم يدق في مهاريس الخشب فيطير قشره ويبقى لبه أبيض ويصنعون منه عصيدة يطبخونها بحليب الجواميس وهي أطيب من خبزه وكنت آكلها كثيرا ببلاد الهند وتعجبني ومنها الماش وهو نوع من الجلبان ومنها المنج (بميم مضموم ونون وجيم) وهو نوع من الماش الا أن حبوبه مستطيلة ولونه صافي الخضرة ويطبخون المنج مع الارز ويأكلونه بالسمن ويسمونه كشرى (بالكاف والشين المعجم والراء) وعليه يفطرون في كل يوم وهو عندهم كالحريرة ببلاد المغرب ومنها اللوبيا وهي نوع من الفول ومنها الموت (بضم الميم) وهو مثل الكذرو الا أن حبوبه أصغر وهو من علف الدواب عندهم وتسمن الدواب باكله والشعير عندهم لا قوة له وانما علف الدواب من هذا الموت أو الحمص يجرشونه ويبلونه بالماء ويطعمونه الدواب ويطعمونها عوضا من القصيل أوراق الماش بعد ان تسقى الدابة السمن عشرة أيام في كل يوم مقدار

ثلاثة أرطال أو أربعة ولا تركب فى تلك الايام وبعد ذلك يطعمونها أوراق الماش كما ذكرنا شهرا أو نحوه وهذه الحبوب التى ذكرناها هي الخريفية واذا حصدها بعد ستين يوما من زراعتها ازدرعوا الحبوب الربيعية وهي القمح والشعير والحمص والعدس وتكون زراعتها فى الارض التي كانت الحبوب الخريفية مزدرعة فيها وبلادهم كريمة طيبة التربة وأما الارز فانهم يزرعونه ثلاث مرات فى السنة وهو من أكبر الحبوب عندهم ويزدرعون السمسم وقصب السكر مع الحبوب الخريفية التي تقدم ذكرها ﴿ ولنعد ﴾ الى ما كنا بسبيله فاقول سافرنا من مدينة أبوهر فى صحراء مسيرة يوم فى أطرافها جبال منيعة يسكنها كفار الهنود وربما قطعوا الطريق وأهل بلاد الهند أكثرهم كفار فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين يسكنون القرى ويكون عليهم حاكم من المسلمين يقدمه العامل أو الخديم الذى تكون القرية في اقطاعه ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق

— ذكر غزوة لنا بهذا الطريق وهي أول غزوة شهدتها ببلاد الهند —

ولما أردنا السفر من مدينة أبوهر خرج الناس منها أول النهار وأقمت بها الى نصف النهار فى لة من أصحابي ثم خرجنا ونحن اثنان وعشرون فارسا منهم عرب ومنهم أعاجم فخرج علينا فى تلك الصحراء ثمانون رجلا من الكفار وفارسان وكان أصحابي ذوى نجدة وعتى فقاتلناهم أشد القتال فقتلنا أحد الفارسين منهم وغنمنا فرسه وقتلنا من رجالهم نحو اثني عشر رجلا واصابتني نشابة وأصابت فرسى نشابة ثانية ومن الله بالسلامة منها لان نشابهم لا قوة لها وجرح لاحد اصحابنا فرس عوضناه له بفرس الكافر وذبحنا فرسه المجروح فاكله الترك من أصحابنا وأوصلنا تلك الرؤس الى حصن أبى بكهر فعلقناها على سوره وكان وصولنا فى نصف الليل الى حصن أبى بكهر المذكور (وضبط اسمه بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف وفتح الهاء وآخره راء) وسافرنا منه فوصلنا بعد يومين الى مدينة أجودهن (وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الجيم وفتح الدال المهمل والهاء وآخره نون) مدينة صغيرة هى للشيخ الصالح فريد الدين البذاوانى الذى أخبرنى الشيخ الصالح الولى برهان الدين الاعرج بالاسكندرية انى سالقاه فلقيته والحمد لله وهو شيخ ملك الهند وأنعم عليه بهذه المدينة وهذا الشيخ مبتلى بالوسواس والعياذ بالله فلا يصافح أحدا ولا يدنو منه واذا ألصق ثوبه بثوب أحد غسل ثوبه دخلت زاويته ولقيته وأبلغته سلام الشيخ برهان الدين فعجب وقال أنا دون ذلك ولقيت ولديه الفاضلين معز الدين وهو أكبرهما ولما مات أبوه تولى الشياخة بعده وعلم الدين وزرت قبر جده القطب الصالح فريد الدين البذاوانى منسوبة

الى مدينة بذاون بلد السنبل (وهي بفتح الباء الموحدة والذال المعجم وضم الواو وآخرها نون) ولما أردت الانصراف عن هذه المدينة قال لي علم الدين لابد لك من رؤية والدي فرأيته وهو في أعلى سطح له وعليه ثياب بيض وعمامة كبيرة لها ذؤابة وهي مائلة الى جانب ودعا لي وبعث الى بسكر ونبات

— ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار —

ولما انصرفت عن هذا الشيخ رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ومعهم بعض أصحابنا فسألتهم ما الخبر فاخبروني ان كافرا من الهنود مات وأججت النار لحرقه وامرأته تحرق نفسها معه ولما احترقا جاء أصحابي وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة والناس يتبعونها من مسلم وكافر والاطبال والابواق بين يديها ومعها البراهمة وهم كبراء الهنود واذا كان ذلك ببلاد السلطان استاذنوا السلطان في إحراقها فياذن لهم فيحرقونها ثم اتفق بعد مدة اني كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار تعرف بابجري وأميرها مسلم من سامرة السند وعلى مقربة منها الكفار العصاة فقطعوا الطريق يوما وخرج الامير المسلم لقتالهم وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات فاتفقن على إحراق أنفسهن واحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب اليه غير واجب لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها احرز أهل بيتها شرفا بذلك ونسبوا الى الوفاء ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها ولكنها لاتكره على احراق نفسها ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاتي ذكرناهن على احراق انفسهن أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب كانهن يودعن الدنيا وياتي اليهن النساء من كل جهة وفي صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس فركبته وهي متزينة متعطرة وفي يمناها جوزة نارجيل تلعب بها وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها والبراهمة يحفون بها وأقاربها معها وبين يديها الاطبال والابواق والانفار وكل انسان من الكفار يقول لها ابلغي السلام الى أبي أو أخي أو أمي أوصاحبي وهي تقول نعم وتضحك اليهم وركبت مع أصحابي لارى كيفية صنعهن في الاحتراق فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال وانتهينا الى موضع مظلم كثير المياه والاشجار متكاثف الظلال وبين اشجاره أربع قباب في كل قبة صنم من الحجارة وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال وتزاحمت الاشجار فلا تتخللها

الشمس فكان ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم اعاذنا الله منها ولما وصلن الى تلك القباب نزلن الى الصهريج وانغمسن فيه وجردن ماعليهن من ثياب وحلى فتصدقن به وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط فربط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج فى موضع منخفض وصب عليها روغن كنجت (كنجد) وهو زيت الجلجلان فزاد فى اشتعالها وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بايديهم حزم من الحطب الرقيق ومعهم نحو عشرة بايديهم خشب كبار وأهل الاطبال والابواق وقوف ينتظرون مجىء المرأة وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بايديهم لئلا يدهشها النظر اليها فرأيت احداهن لما وصلت الى تلك الملحفة نزعتها من أيدى الرجال بعنف وقالت لهم مارا ميترسانى ازاطش (آ تش) من ميدانم أواطش است رها كنى ماراوهى تضحك ومعنى هذا الكلام أبالنار تخوفوني أنا اعلم انها نار محرقة ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار ورمت بنفسها فيها وعند ذلك ضربت الاطبال والانفار والابواق ورمى الرجال ما بايديهم من الحطب عليها وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك وارتفعت الاصوات وكثر الضجيج ولما رأيت ذلك كدت اسقط عن فرسي لولا أصحابى تداركوني بالماء فغسلوا وجهى وانصرفت وكذلك يفعل أهل الهند أيضا فى الغرق يغرق كثير منهم انفسهم فى نهر الكنك وهو الذى اليه يحجون وفيه يرمى برماد هؤلاء المحرقين وهم يقولون انه من الجنة واذا أتى احدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره لا تظنوا انى اغرق نفسي لاجل شيء من امور الدنيا أولقلة مال انما قصدى التقرب الى كساى وكساى (بضم الكاف والسين المهمل) اسم الله عز وجل بلسانهم ثم يغرق نفسه فاذا مات أخرجوه واحرقوه ورموا برماده فى البحر المذكور (ولنعد) الى كلامنا الاول فنقول سافرنا من مدينة أجودهن فوصلنا بعد مسيرة اربعة أيام منها الى مدينة سرستي (وضبط اسمها بسينين مفتوحين بينهما راء ساكنة ثم تاء مثناة مكسورة وياء) مدينة كبيرة كثيرة الارز وأرزها طيب ومنها يحمل الى حضرة دهلى ولها مجبى كثير جدا اخبرنى الحاجب شمس الدين البوشنجي بمقداره وأنسيته ثم سافرنا منها الى مدينة حانسى (وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة وألف ونون ساكن وسين مهمل مكسور وياء) وهى من احسن المدن وأتقنها واكثرها عمارة ولها سور عظيم ذكروا ان بانيه رجل من كبار سلاطين الكفار يسمى توره (بضم التاء المعلوة وفتح الراء) وله عندهم حكايات واخبار ومن هذه المدينة كمال الدين صدر الجهان

قاضي قضاة الهند وأخوه قطلوخان معلم السلطان وأخواهما نظام الدين وشمس الدين الذى انقطع الى الله وجاور بمكة حتى مات ثم سافرنا من حانسى فوصلنا بعد يومين الى مسعود أباد وهى على عشرة أميال من حضرة دهلى وأقمنا بها ثلاثة أيام وحانسى ومسعود أباد هما للملك المعظم هوشنج (بضم الهاء وفتح الشين المعجم وسكون النون وبعدها جيم) ابن الملك كمال كرك وكرك (بكافين معقودين أولاهما مضمومة) ومعناه الذئب وسيأتي ذكره وكان سلطان الهند الذي قصدنا حضرته غائبا عنها بناحية مدينة قنوج وبينها وبين حضرة دهلى عشرة أيام وكانت بالحضرة والدته وتدعى المخدومة جهان وجهان اسم الدنيا وكان بها أيضا وزيره خواجه جهان المسمى باحمد بن اياس الرومي الاصل فبعث الوزير الينا أصحابه ليتلقونا وعين للقاء كل واحد منا من كان من صنفه فكان من الذين عينهم للقائي الشيخ البسطامى والشريف المازندرانى وهو حاجب الغرباء والفقيه علاء الدين الملتانى المعروف بقنره بضم القاف وفتح النون وتشديدها) وكتب الى السلطان بخبرنا وبعث الكتاب مع الدواة وهي بريد الرجالة حسبما ذكرناه فوصل الى السلطان وأتاه الجواب فى تلك الايام الثلاثة التي أقمناها بمسعود أباد وبعد تلك الايام خرج الى لقائنا القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الامراء وهم يسمون الامراء ملوكا فحيث يقول أهل ديار مصر وغيرها الامير يقولون هم الملك وخرج الى لقائنا الشيخ ظهير الدين الزنجاني وهو كبير المنزلة عند السلطان ثم رحلنا من مسعود أباد فنزلنا بمقربة من قرية تسمى بالم (بفتح الباء المعقودة وفتح اللام) وهي للسيد الشريف ناصر الدين مطهر الاوهرى أحد ندماء السلطان وممن له عنده الحظوة التامة وفى غد ذلك اليوم وصلنا الى حضرة دهلى قاعدة بلاد الهند (وضبط اسمها بكسر الدال المهمل وسكون الهاء وكسر اللام) وهى المدينة العظيمة الشان الضخمة الجامعة بين الحسن والحصانة وعليها السور الذى لا يعلم له فى بلاد الدنيا نظير وهى أعظم مدن الهند بل مدن الاسلام كلها بالمشرق

— ذكر وصفها —

ومدينة دهلى كبيرة الساحة كثيرة العمارة وهى الآن اربع مدن متجاورات متصلات احداها المسماة بهذا الاسم دهلى وهى القديمة من بناء الكفار وكان افتتاحها سنة أربع وثمانين وخمسمائة والثانية تسمى سيرى (بكسر السين المهمل والراء وبينهما ياء مد) وتسمى أيضا دار الخلافة وهى التي أعطاها السلطان لغياث الدين حفيد الخليفة المستنصر العباسى لما قدم عليه وبها كان سكنى السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين وسنذكرهما والثالثة

تسمي تغلق أباد باسم بانيها السلطان تغلق والد سلطان الهند الذى قدمنا عليه وكان سبب بنائه لها انه وقف يوما بين يدى السلطان قطب الدين فقال له ياخوند عالم كان ينبغي ان تبنى هنا مدينة فقال له السلطان متهكما اذا كنت سلطانا فابنها فكان من قدر الله أن كان سلطانا فبناها وسماها باسمه والرابعة تسمى جهان بناه وهي مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند الآن الذى قدمنا عليه وهو الذى بناها وكان أراد ان يضم هذه المدن الاربع تحت سور واحد فبني منه بعضا وترك بناء باقيه لعظم ما يلزم فى بنائه

— ذكر سور دهلي وابوابها —

والسور المحيط بمدينة دهلي لا يوجد له نظير عرض حائطه أحد عشر ذراعا وفيه بيوت يسكنها السمار وحفاظ الابواب وفيها مخازن للطعام ويسمونها الانبارات ومخازن للعدد ومخازن المجانيق والرعادات ويبقى الزرع بها مدة طائلة لا يتغير ولا تطرقه آفة ولقد شاهدت الارز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود ولكن طعمه طيب ورأيت أيضا الكذرو يخرج منها وكل ذلك من اختزان السلطان بلبن منذ تسعين سنة ويمشي فى داخل السور الفرسان والرجال من أول المدينة الى آخرها وفيه طيقان مفتحة الى جهة المدينة يدخل منها الضوء وأسفل هذا السور مبنى بالحجارة وأعلاه بالآجر وابراجه كثيرة متقاربة ولهذه المدينة ثمانية وعشرون بابا وهم يسمون الباب دروازة فمنها دروازة بذاون وهى الكبرى ودروازة المندوى وبها رحبة الزرع ودروازة جل (بضم الجيم) وهى موضع البساتين ودروازة شاه اسم رجل ودروازة بالم اسم قرية قد ذكرناها ودروازة نجيب اسم رجل ودروازة كمال كذلك ودروازة غزنة نسبة الى مدينة غزنة التى فى طرف خراسان وبخارجها مصلى العيد وبعض المقابر ودروازة البجالصة (بفتح الباء والجيم والصاد المهمل) وبخارج هذه الدروازة مقابر دهلي وهى مقبرة حسنة يبنون بها القباب ولا بد عند كل قبر من محراب وان كان لا قبة له ويزرعون بها الاشجار المزهرة مثل قل شنبه (كل شنبو) وريبول (راي بيل) والنسرين وسواها والازاهير هنالك لا تنقطع فى فصل من الفصول

— ذكر جامع دهلي —

وجامع دهلي كبير الساحة حيطانه وسقفه وفرشه كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة أبدع نحت ملصقة بالرصاص أتقن الصاق ولا خشبة به أصلا وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة ومنبره أيضا من الحجر وله أربعة من الصحون وفى وسط الجامع العمود الهائل الذى لا يدري من أى المعادن هو وذكر لى بعض حكمائهم انه يسمى هفت جوش (بفتح الهاء وسكون

الفاء وتاء معلوة وجيم مضموم وآخره شين معجم) ومعنى ذلك سبعة معادن وانه مؤلف منها
وقد جلي من هذا العمود مقدار السبابة ولذلك المجلو منه بريق عظيم ولا يؤثر فيه الحديد
وطوله ثلاثون ذراعا وادرنا به عمامة فكان الذى أحاط بدائرته منها ثمان أذرع وعند الباب
الشرقي من أبواب المسجد صنمان كبيران جدا من النحاس مطروحان بالارض قد ألصقا
بالحجارة ويطأ عليهما كل داخل الى المسجد أو خارج منه وكان موضع هـذا المسجد بدخانة
وهو بيت الاصنام فلما افتتحت جعل مسجدا وفى الصحن الشمالى من المسجد الصومعة التى
لا نظير لها فى بلاد الاسلام وهي مبنية بالحجارة الحمر خلافا فالحجارة سائر المسجد فانها بيض
وحجارة الصومعة منقوشة وهى سامية الارتفاع وفحلها من الرخام الابيض الناصع
وتفافيحها من الذهب الخالص وسعة ممرها بحيث تصعد فيه الفيلة حدثني من أثق به انه رأى
الفيل حين بنيت يصعد بالحجارة الى أعلاها وهي من بناء السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن
السلطان غياث الدين بلبن وأراد السلطان قطب الدين أن يبني بالصحن الغربي صومعة أعظم
منها فبنى مقدار الثلث منها واخترم دون تمامها وأراد السلطان محمد اتمامها ثم ترك ذلك تشاؤما
وهذه الصومعة من عجائب الدنيا فى ضخامتها وسعة ممرها بحيث تصعده ثلاثة من الفيلة
متقارنة وهذا الثلث المبنى منها مساو لارتفاع جميع الصومعة التى ذكرنا انها بالصحن الشمالى
وصعدتها مرة فرأيت معظم دور المدينة وعاينت الاسوار على ارتفاعها وسموها منحطة
وظهر لى الناس في أسفلها كانهم الصبيان الصغار ويظهر لناظرها من أسفلها ان ارتفاعها
ليس بذلك لعظم جرمها وسعتها وكان السلطان قطب الدين أراد أن يبني أيضا مسجدا
جامعا بسيرى المسماة دار الخلافة فلم يتم منه غير الحائط القبلى والمحراب وبناؤه بالحجارة
البيض والسود والحمر والخضر ولو كمل لم يكن له مثل فى البلاد وأراد السلطان محمد اتمامه
وبعث عرفاء البناء ليقدروا النفقة فيه فزعموا انه ينفق فى اتمامه خمسة وثلاثون لكا فترك
ذلك استكثارا له وأخبرني بعض خواصه انه لم يتركه استكثاراً لكنه تشاءم به لما كان
السلطان قطب الدين قد قتل قبل تمامه

ـــ ذكر الحوضين العظيمين بخارجها ـــ

وبخارج دهلى الحوض العظيم المنسوب الى السلطان شمس الدين للمش ومنه يشرب أهل
المدينة وهو بالقرب من مصلاها وماؤها يجتمع من ماء المطر وطوله نحو ميلين وعرضه
على النصف من طوله والجهة الغربية منه من ناحية المصلى مبنية بالحجارة مصنوعة أمثال
الدكاكين بعضها أعلى من بعض وتحت كل دكان درج ينزل عليها الى الماء وبجانب كل دكان

قبة حجارة فيها مجالس للمتنزهين والمتفرجين وفى وسط الحوض قبة عظيمة من الحجارة المنقوشة مجعولة طبقتين فاذا كثر الماء فى الحوض لم يكن سبيل اليها الا فى القوارب فاذا قل الماء دخل اليها الناس وداخلها مسجد وفى أكثر الاوقات يقيم بها الفقراء المنقطعون الى الله المتوكلون عليه واذا جف الماء فى جوانب هـذا الحوض زرع فيها قصب السكر والخيار والقثاء والبطيخ الاخضر والاصفر وهو شديد الحلاوة صغير الجرم وفيما بين دهلى ودار الخلافة حوض الخاص وهـو أكبر من حوض السلطان شمس الدين وعلى جوانبه نحو أربعين قبة ويسكن حوله أهـل الطرب وموضعهم يسمي طرب آباد ولهم سوق هنالك من أعظم الاسواق ومسجد جامع ومساجد سواه كثيرة وأخبرت أن النساء المغنيات الساكنات هنالك يصلين التراويح فى شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات ويؤمهن الائمة وعدد هن كثير وكذلك الرجال المغنون ولقد شاهدت الرجال أهل الطرب فى عرس الامير سيف الدين غدا بن مهنى لكل واحد منهم مصلى تحت ركبته فاذا سمع الاذان قام فتوضا وصلى

— ذكر بعض مزاراتها —

فمنها قبر الشيخ الصالح قطب الدين بختيار الكعكى وهـو ظاهر البركة كثير التعظيم وسبب تسمية هـذا الشيخ بالكعكى أنه كان اذا أتاه الذين عليهم الديون شاكين من الفقر أو القلة أو الذين لهم البنات ولا يجدون ما يجهزونهن به الى أزواجهن يعطى من أتاه منهم كعكة من الذهب أو من الفضة حتي عرف من أجل ذلك بالكعكى رحمه الله ومنها قبر الفقيه الفاضل نور الدين الكرلانى (بضم الكاف وسكون الراء والنون) ومنها قبر الفقيه علاء الدين الكرمانى نسبة الى كرمان وهـو ظاهر البركة ساطع النور ومكانه يظهر قبلة المصلي وبذلك الموضع قبور رجال صالحين كثير نفع الله تعالى بهم

— ذكر بعض علمائها وصلحائها —

فمنهم الشيخ الصالح العالم محمود الكبا (بالباء الموحدة) وهو من كبار الصالحين والنـاس يزعمون انه ينفق من الكون لانه لا مال له ظاهر وهـو يطعم الوارد والصادر ويعطى الذهب والدراهم والاثواب وظهرت له كرامات كثيرة واشتهـر بها رأيته مرات كثيرة وحصلت لى بركته ومنهم الشيخ الصالح العالم علاء الدين النيلى كانه منسوب الى نيل مصر والله اعلم كان من اصحاب الشيخ العالم الصالح نظام الدين البزوانى وهـو يعظ النـاس فى كل يوم جمعة فيتوب كثير منهم بين يديه ويحلقون رؤسهم ويتواجدون ويغشى على بعضهم

— حكاية —

شاهدته فى بعض الايام وهـو يعظ فقرأ القارىء بين يديه (يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة

الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وتري الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) ثم كررها الفقيه علاء الدين فصاح أحد الفقراء من ناحية المسجد صيحة عظيمة فاعاد الشيخ الآية فصاح الفقير ثانية ووقع ميتا وكنت فيمن صلى عليه وحضر جنازته ومنهم الشيخ الصالح العابد صدر الدين الكهراني (بضم الكاف وسكون الهاء وراء ونون) وكان يصوم الدهر ويقوم الليل وتجرد عن الدنيا جميعا ونبذها ولباسه عباءة ويزوره السلطان وأهل الدولة وربما احتجب عنهم فرغب السلطان منه أن يقطعه قرى يطعم منها الفقراء والواردين فابى ذلك وزاره يوما وأتي اليه بعشرة آلاف دينار فلم يقبلها وذكروا انه لا يفطر الا بعد ثلاث وانه قيل له في ذلك فقال لا أفطر حتى أضطر فتحل لى الميتة ومنهم الامام الصالح العالم العابد الورع الخاشع فريد دهره ووحيد عصره كمال الدين عبد الله الغارى (بالغين المعجم والراء) نسبة الى غار كان يسكنه خارج دهلى بمقربة من زاوية الشيخ نظام الدين البذاوني زرته بهذا الغار ثلاث مرات

— كرامة له —

كان لى غلام فابق مني وألفيته بيد رجل من الترك فذهبت الى انتزاعه من يده فقال لى الشيخ ان هذا الغلام لا يصلح لك فلا تأخذه وكان التركى راغبا فى المصالحة فصالحته بمائة دينار أخذتها منه وتركته له فلما كان بعد ستة أشهر قتل سيده وأتى به الى السلطان فامر بتسليمه لاولاد سيده فقتلوه ولما شاهدت لهذا الشيخ هذه الكرامة انقطعت اليه ولازمته وتركت الدنيا ووهبت جميع ما كان عندي للفقراء والمساكين وأقمت عنده مدة فكنت أراه يواصل عشرة أيام وعشرين يوما ويقوم أكثر الليل ولم أزل معه حتي بعث عني السلطان ونشبت فى الدنيا ثانية والله تعالى يختم بالخير وسأذكر ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى وكيفية رجوعي الى الدنيا

— ذكر فتح دهلى ومن تداولها من الملوك —

حدثني الفقيه الامام العلامة قاضي القضاة بالهند والسند كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوى الملقب بصدر الجهان ان مدينة دهلى افتتحت من أيدى الكفار فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة وقد قرأت أنا ذلك مكتوبا على محراب الجامع الاعظم بها وأخبرني أيضا انها افتتحت على يد الامير قطب الدين ايبك (واسمه بفتح الهمزة وسكون الياء آخر الحروف وفتح الباء الموحدة وكان يلقب سياه (سالار) ومعناه مقدم الجيوش وهو أحد مماليك السلطان المعظم شهاب الدين محمد بن سنام الغوري ملك غزنة وخراسان المتغلب على ملك

ابراهيم ابن السلطان الغازي محمود بن سبكتكين الذى ابتدأ فتح الهند وكان السلطان شهاب الدين المذكور بعث الامير قطب الدين بعسكر عظيم ففتح الله عليه مدينة لاهور وسكنها وعظم شانه وسعي به الى السلطان والقي اليه جلساؤه انه يريد الانفراد بملك الهند وانه قد عصي وخالف وبلغ هذا الخبر الى قطب الدين فبادر بنفسه وقدم على غزنة ليلا ودخل على السلطان ولا علم عند الذين وشوا به اليه فلما كان بالغد قعد السلطان على سريره وأقعد ايبك تحت السرير بحيث لا يظهر وجاء الندماء والخواص الذين سعوا به فلما استقر بهم الجلوس سالهم السلطان عن شان ايبك فذكروا له انه عصى وخالف وقالوا قد صح عندنا انه ادعي الملك لنفسه فضرب السلطان سريره برجله فصفق بيديه وقال يا ايبك قال لبيك وخرج عليهم فسقط فى أيديهم وفزعوا الى تقبيل الارض فقال لهم السلطان قد غفرت لكم هذه الزلة واياكم والعودة الى الكلام في ايبك وأمره ان يعود الى بلاد الهند فعاد اليها وفتح مدينة دهلي وسواها واستقر بها الاسلام الى هذا العهد وأقام قطب الدين بها الى ان توفى

— ذكر السلطان شمس الدين للمش —

(وضبط اسمه بفتح اللام الاولى وسكون الثانية وكسر الميم وشين معجم) وهو أول من ولى الملك بمدينة دهلي مستقلا به وكان قبل تملكه مملوكا للامير قطب الدين أيبك وصاحب عسكره نائبا عنه فلما مات قطب الدين استبد بالملك وأخذ الناس بالبيعة فاتاه الفقهاء يقدمهم قاضي القضاة اذذاك وجيه الدين الكاساني فدخلوا عليه وقعدوا بين يديه وقعد القاضى الى جانبه على العادة وفهم السلطان عنهم ما ارادوا أن يكلموه به فرفع طرف البساط الذي هو قاعد عليه وأخرج لهم عقدا يتضمن عتقه فقرأه القاضى والفقهاء. وبايعوه جميعا واستقل بالملك وكانت مدته عشرين سنة وكان عادلا صالحا فاضلا ومن مآثره انه اشتد فى رد المظالم وانصاف المظلومين وامران يلبس كل مظلوم ثوبا مصبوغا وأهل الهند جميعا يلبسون البياض فكان متي قعد للناس اوركب فرأى احدا عليه ثوب مصبوغ نظر فى قضيته وانصفاه ممن ظلمه ثم انه أعيا في ذلك فقال ان بعض الناس تجري عليهم المظالم بالليل واريد تعجيل انصافهم فجعل على باب قصره أسدين مصورين من الرخام موضوعين على برجين هنالك وفي أعناقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير فكان المظلوم ياتي ليلا فيحرك الجرس فيسمعه السلطان و ينظر فى أمره للحين و ينصفه ولما توفى السلطان شمس الدين خلف من الاولاد الذكور ثلاثة وهم ركن الدين الوالى بعده ومعز الدين وناصر الدين وبنتا تسمي رضية هي شقيقة معز الدين منهم فتولى بعده ركن الدين كما ذكرناه٭

— ذكر السلطان ركن الدين ابن السلطان شمس الدين —

ولما بويع ركن الدين بعد موت أبيه افتتح أمره بالتعدي على أخيه معز الدين فقتله وكانت رضية شقيقته فانكرت ذلك عليه فاراد قتلها فلما كان في بعض أيام الجمع خرج ركن الدين الى الصلاة فصعدت رضية على سطح القصر القديم المجاور للجامع الاعظم وهو يسمى دولة خانة ولبست عليها ثياب المظلومين وتعرضت للناس وكلمتهم من أعلى السطح وقالت لهم ان أخي قتل أخاه وهو يريد قتلي معه وذكرتهم أيام أبيها وفعله الخير واحسانه اليهم فثاروا عند ذلك الى السلطان ركن الدين وهو في المسجد فقبضوا عليه وأتوا به اليها فقالت لهم القاتل يقتل فقتلوه قصاصا باخيه وكان أخوها ناصر الدين صغيرا فاتفق الناس على تولية رضية

— ذكر السلطانة رضية —

ولما قتل ركن الدين اجتمعت العساكر على تولية أخته رضية الملك فولوها واستقلت بالملك أربع سنين وكانت تركب بالقوس والتركش والقربان كما يركب الرجال ولا تستر وجهها ثم انها اتهمت بعبد لها من الحبشة فاتفق الناس على خلعها وتزويجها فخلعت وزوجت من بعض أقاربها وولي الملك أخوها ناصر الدين

— ذكر السلطان ناصر الدين ابن السلطان شمس الدين —

ولما خلعت رضية ولي ناصر الدين اخوها الاصغر واستقل بالملك مده ثم ان رضيه وزوجها خالفا عليه وركبا في مماليكهما ومن تبعهما من أهل الفساد وتهيا لقتاله وخرج ناصر الدين ومعه مملوكه النائب عنه غياث الدين بلبن متولي الملك بعده فوقع اللقاء وانهزم عسكر رضية وفرت بنفسها فادركها الجوع واجهدها الاعياء فقصدت حراثا رأته يحرث الارض فطلبت منه ما تاكله فاعطاها كسرة خبز فاكلتها وغلب عليها النوم وكانت في زي الرجال فلما نامت نظر اليها الحراث وهي نائمة فرأى تحت ثيابها قباء مرصعا فعلم انها امراة فقتلها وسلبها وطرد فرسها ودفنها في فدانه وأخذ بعض ثيابها فذهب الى السوق بيبعها فانكر أهل السوق شانه وأتوا به الشحنة وهو الحاكم فضربه فاقر بقتلها ودلهم على مدفنها فاستخرجوها وغسلوها وكفنوها ودفنت هنالك وبني عليها قبة وقبرها الآن يزار ويتبرك به وهو على شاطيء النهر الكبير المعروف بنهر الجون على مسافة فرسخ واحد من المدينة واستقل ناصر الدين بالملك بعدها واستقام له الامر عشرين سنة وكان ملكا صالحا ينسخ نسخا من الكتاب العزيز ويبيعها فيقتات بثمنها وقد وقفني القاضي كمال الدين على مصحف بخطه متقن محكم الكتابة ثم ان نائبه غياث الدين بلبن قتله وملك بعده ولبلبن هذا خبر ظريف نذكره

(وضبط اسمه بباء بن موحدتين بينهما لام والجميع مفتوحات وآخره نون) ولما قتل بلبن مولاه السلطان ناصر الدين استقل بالملك بعده عشرين سنة وقد كان قبلها نائباً له عشرين سنة أخرى وكان من خيار السلاطين عادلا حليما فاضلا ومن مكارمه أنه بنى دارا وسماها دار الأمن فمن دخلها من أهل الديون قضى دينه ومن دخلها خائفا أمن ومن دخلها وقد قتل أحدا أرضى عنه أولياء المقتول ومن دخلها من ذوى الجنايات أرضي أيضا من يطلبه وبتلك الدار دفن لما مات وقد زرت قبره

— حكاية —

يذكر ان أحد الفقراء ببخاري رأى بها بلبن هذا وكان قصيرا حقيرا دميما فقال له يا تركك وهي لفظة تعرب عن الاحتقار فقال له لبيك ياخوند فاعجبه كلامه فقال له اشتر لى من هذا الرمان وأشار الى رمان يباع بالسوق فقال نعم وأخرج فليسات لم يكن عنده سواها واشتري له من ذلك الرمان فلما أخذها الفقير قال له وهبنا لك ملك الهند فقبل بلبن يد نفسه وقال قبلت ورضيت واستقر ذلك في ضميره واتفق ان بعث السلطان شمس الدين للمش تاجرا يشترى له المماليك بسمرقند وبخارى وترمذ فاشترى مائة مملوك كان من جملتهم بلبن فلما دخل بالمماليك على السلطان أعجبه جميعهم الا بلبن لما ذكرناه من دمامته فقال لا أقبل هذا فقال له بلبن ياخوند عالم لمن اشتريت هؤلاء المماليك فضحك منه وقال اشتريتهم لنفسي فقال له اشترني أنا لله عزوجل فقال نعم وقبله وجعله في جملة المماليك فاحتقر شانه وجعل في السقائين وكان أهل المعرفة بعلم النجوم يقولون للسلطان شمس الدين ان أحد مماليكك يأخذ الملك من يد ابنك ويستولى عليه ولا يزالون يلقون له ذلك وهو لا يلتفت الى أقوالهم لصلاحه وعدله الى أن ذكروا ذلك للخاتون الكبرى أم أولاده فذكرت له ذلك واثر في نفسه وبعث على المنجمين فقال اتعرفون المملوك الذى يأخذ ملك ابني اذا رأيتموه فقالوا له نعم عندنا علامة نعرفه بها فامر السلطان بعرض مماليكه وجلس لذلك فعرضوا بين يديه طبقة طبقة والمنجمون ينظرون اليهم ويقولون لم نره بعد وحان وقت الزوال فقال السقاؤون بعضهم لبعض انا قد جعنا فلنجمع شيئا من الدراهم ونبعث أحدنا الى السوق ليشتري لنا ما ناكله فجمعوا الدراهم وبعثوا بها بلبن اذ لم يكن فيهم أحقر منه فلم يجد بالسوق ما أرادوه فتوجه الى سوق أخرى وأبطا وجاءت نوبة السقائين في العرض وهو لم يات بعد فاخذوا زقه وماعونه وجعلوه على كاهل صبي وعرضوه على انه بلبن فلما نودى باسمه جاز الصبي بين أيديهم وانقضى العرض ولم ير المنجمون الصورة التى تطلبوها

وجاء بلبن بعد تمام العرض لما أراد الله من انفاذ قضائه ثم انه ظهرت نجابته فجعل أمير السقائين ثم صار من جملة الاجناد ثم من الامراء ثم تزوج السلطان ناصر الدين بنته قبل ان يلي الملك فلما ولي الملك جعله نائبا عنه مدة عشرين سنة ثم قتله بلبن واستولى على ملكه عشرين سنة أخرى كما تقدم ذكر ذلك وكان للسلطان بلبن ولدان أحدهما الخان الشهيد ولي عهده وكان والياً لابيه ببلاد السند ساكنا بمدينة ملتان وقتل في حرب له مع التتر وترك ولدين كي قباد وكي خسرو والولد السلطان بلبن الثاني يسمى ناصر الدين وكان والياً لابيه ببلاد اللكنوتي وبنجالة فلما استشهد الخان الشهيد جعل السلطان بلبن العهد الى ولده كي خسرو وعدل به عن ابن نفسه ناصر الدين وكان لناصر الدين أيضا ولد ساكن بحضرة دهلي مع جده يسمى معز الدين وهو الذي تولى الملك بعد جده في خبر عجيب نذكره وأبوه اذ ذاك حي كما ذكرناه

— ذكر السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن —

ولما توفي السلطان غياث الدين ليلا وابنه ناصر الدين غائب ببلاد اللكنوتي وجعل العهد لابن ابنه الشهيد كي خسرو وحسبما قصصناه كان ملك الامراء نائب السلطان غياث الدين عدوا لكي خسرو فادار عليه حيلة تمت له وهي انه كتب بيعة دلس فيها على خطوط الامراء الكبار بانهم بايعوا معز الدين حفيد السلطان بلبن ودخل على كي خسرو كالمتنصح له فقال له ان الامراء قد بايعوا ابن عمك وأخاف عليك منهم فقال له كي خسرو فما الحيلة قال أنج بنفسك هاربا الى بلاد السند فقال وكيف الخروج والابواب مسدودة فقال له ان المفاتيح بيدي وأنا أفتح لك فشكره على ذلك وقبل يده فقال اركب الآن فركب في خاصته ومماليكه وفتح له الباب وأخرجه وسد في أثره واستاذن على معز الدين فبايعه فقال كيف لي بذلك وولاية العهد لابن عمي فاعلمه بما أدار عليه من الحيلة وباخراجه فشكره على ذلك ومضى به الى دار الملك وبعث الى الامراء والخواص فبايعوا ليلا فلما أصبح بايعه سائر الناس واستقام له الملك وكان أبوه حيا ببلاد بنجالة واللكنوتي فاتصل به الخبر فقال أنا وارث الملك وكيف يلي ابني الملك ويستقل به وأنا بقيد الحياة فتجهز في جيوشه قاصدا حضرة دهلي وتجهز ولده في جيوشه أيضا قاصدا المدافعة عنها فتوافيا معا بمدينة كرا وهي على ساحل نهر الكنك الذي تحج الهنود اليه فنزل ناصر الدين على شاطئه مما يلي كرا ونزل ولده السلطان معز الدين مما يلي الجهة الاخري والنهر بينهما وعزما على القتال ثم ان الله تعالى أراد حقن دماء المسلمين فالقى في قلب ناصر الدين الرحمة لابنه وقال اذا ملك ولدي فذلك شرف وأنا أحق أن أرغب في ذلك والقى في قلب السلطان معز الدين الضراعة لابيه

فركب كل واحد منهما في مركب منفردا عن جيوشه والتقيا في وسط النهر فقبل السلطان رجل أبيه واعتذر له فقال له أبوه قد وهبتك ملكي ووليتك وبايعه وأراد الرجوع لبلاده فقال له ابنه لا بد لك من الوصول الى بلادي فمضى معه الى دهلي ودخل القصر وأقعده أبوه على سرير الملك ووقف بين يديه وسمي ذلك اللقاء الذي كان بينهما بالنهر لقاء السعدين لما كان فيه من حقن الدماء وتواهب الملك والتجافي عن المنازعة واكثرت الشعراء في ذلك وعاد ناصر الدين الى بلاده فمات بها بعد سنين وترك بها ذرية منهم غياث الدين بهادور الذي أسره السلطان تغلق وأطلقه ابنه محمد بعد وفاته واستقام الملك لمعز الدين أربعة أعوام بعد ذلك وكانت كالاعياد رأيت بعض من أدركها يصف خيراتها ورخص أسعارها وجود معز الدين وكرمه وهو الذي بنى الصومعة بالصحن الشمالي من جامع دهلي ولا نظير لها في البلاد وحكى لي بعض أهل الهند ان معز الدين كان يكثر النكاح والشرب فاعترته علة أعجز الاطباء دواؤها ويبس احد شقيه فقام عليه نائبه جلال الدين فيروز شاه الخلجي (بفتح الخاء المعجم واللام والجيم)

— ذكر السلطان جلال الدين —

ولما اعترى السلطان معز الدين ماذكرناه من يبس أحد شقيه خالف عليه نائبه جلال الدين وخرج الى ظاهر المدينة فوقف على تل هنالك بجانب قبة تعرف بقبة الجيشاني فبعث معز الدين الامراء لقتاله فكان كل من يبعثه منهم يبايع جلال الدين ويدخل في جملته ثم دخل المدينة وحصره في القصر ثلاثة أيام وحدثني من شاهد ذلك ان السلطان معز الدين أصابه الجوع في تلك الايام فلم يجد ما يأكله فبعث اليه احد الشرفاء من جيرانه ما أقام أوده ودخل عليه القصر فقتل وولي بعده جلال الدين وكان حليما فاضلا وحلمه اداه الي القتل كما سنذكره واستقام له الملك سنين وبنى القصر المعروف باسمه وهو الذي أعطاه السلطان محمد لصهره الامير غدا ابن مهنى لما زوجه باخته وسيذكر ذلك فكان للسلطان جلال الدين ولد اسمه ركن الدين وابن أخ اسمه علاء الدين زوجه بابنته وولاه مدينة كرا ومانكبور ونواحيها وهي من أخصب بلاد الهند كثيرة القمح والارز والسكر وتصنع بها الثياب الرفيعه ومنها تجلب الى دهلي وبينهما مسيرة ثمانية عشر يوما وكانت زوجة علاء الدين تؤذيه فلا يزال يشكوها الى عمه السلطان جلال الدين حتى وقعت الوحشة بينهما بسببها وكان علاء الدين شهما شجاعا مظفرا منصورا وحب الملك ثابت في نفسه الا انه لم يكن له مال الا ما يستفيده بسيفه من غنائم الكفار فاتفق انه ذهب مرة الى

الغزو ببلاد الدويقير وتسمى بلاد الكتكة أيضا وسنذكرها وهي كرسي بلاد المالوة والمرهتة وكان سلطانها أكبر سلاطين الكفار فعثرت بعلاء الدين في تلك الغزوة دابة له عند حجر فسمع له طنينا فامر بالحفر هنالك فوجد تحته كنزا عظيما ففرقه في أصحابه ووصل الى الدويقير فاذعن له سلطانها بالطاعة ومكنه من المدينة من غير حرب وأهدى له هدايا عظيمة فرجع الى مدينة كرا ولم يبعث الى عمه شيا من الغنائم فاغرى الناس عمه به فبعث اليه فامتنع من الوصول اليه فقال السلطان جلال الدين أنا أذهب اليه وآتي به فانه محل ولدى فتجهز في عساكره وطوى المراحل حتى حل بساحل مدينة كرا حيث نزل السلطان معز الدين لما خرج الي لقاء ابيه ناصر الدين وركب النهر برسم الوصول الى ابن أخيه وركب ابن أخيه أيضا في مركب ثان عازما علي الفتك به وقال لاصحابه اذا أنا عانقته فاقتلوه فلما التقيا وسط النهر عانقه ابن أخيه وقتله أصحابه كما وعدهم واحتوى على ملكه وعساكره

— ذكر السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجي —

ولما قتل عمه استقل بالملك وفر اليه اكثر عساكر عمه وعاد بعضهم الى دهلي واجتمعوا على ركن الدين وخرج الى دفاعه فهربوا جميعا الى السلطان علاء الدين وفر ركن الدين الى السند ودخل علاء الدين دار الملك واستقام له الامر عشرين سنة وكان من خيار السلاطين وأهل الهند يثنون عليه كثيرا وكان يتفقد امور الرعية بنفسه ويسال عن اسعارهم ويحضر المحتسب وهم يسمونه الرئيس في كل يوم برسم ذلك ويذكر انه ساله يوما عن سبب غلاء اللحم فاخبره ان ذلك لكثرة المغرم على البقر في الرتب فامر برفع ذلك وامر باحضار التجار واعطاهم الاموال وقال لهم اشتروا بها البقر والغنم وبيعوها ويرتفع ثمنها لبيت المال ويكون لكم أجرة على بيعها ففعلوا ذلك وفعل مثل هذا في الاثواب التي يؤتي بها من دولة اباد وكان اذا غلا ثمن الزرع فتح المخازن وباع الزرع حتى يرخص السعر ويذكران السعر ارتفع ذات مرة فامر ببيع الزرع بثمن عينه فامتنع الناس من بيعه بذلك الثمن فامر أن لا يبيع أحد زرعا غير زرع المخزن وباع للناس ستة أشهر فخاف المحتكرون فساد زرعهم بالسوس فرغبوا أن يؤذن لهم في البيع فاذن لهم على أن يبيعوه باقل من القيمة الاولى التى امتنعوا من بيعه بها وكان لا يركب لجمعة ولا لعيد ولا سواهما وسبب ذلك انه كان له ابن اخ يسمى سليمان شاه وكان يحبه ويعظمه فركب يوما الى الصيد وهو معه وأضمر في نفسه ان يفعل به مافعل هو بعمه جلال الدين من الفتك فلما نزل

للغداء رماه بنشابة فصرعه وغطاه بعض عبيده بترس وأتى ابن أخيه ليجهز عليه فقال له العبيد انه قد مات فصدقهم وركب فدخل القصر على الحرم وأفاق السلطان علاء الدين من غشيته وركب واجتمعت العساكر عليه وفر ابن اخيه فادرك وأتي به اليه فقتله وكان بعد ذلك لا يركب وكان له من الاولاد خضر خان وشادى خان وأبو بكر خان ومبارك خان وهو قطب الدين الذي ولى الملك وشهاب الدين وكان قطب الدين مهتضما عنده ناقص الحظ قليل الحظوة وأعطى جميع اخوته المراتب وهي الاعلام والاطبال ولم يعطه شيئا وقال له يوما لا بد أن أعطيك مثل ما اعطيت اخوتك فقال له الله هو الذي يعطيني فهال أباه هذا الكلام وفزع منه ثم ان السلطان أصابه المرض الذي مات منه وكانت زوجته أم ولده خضر خان وتسمى ماه حق والماه القمر بلسانهم لها أخ يسمي سنجر فعاهدت أخاها على تمليك ولدها خضر خان وعلم بذلك ملك نائب أكبر أمراء السلطان وكان يسمي الالفى لان السلطان اشتراه بالف تنكة وهي الفان وخمسمائة من دنانير المغرب فوشى الى السلطان بما اتفقوا عليه فقال لخواصه اذا دخل على سنجر فاني معطيه ثوبا فاذا لبسه فامسكوا باكمامه واضربوا به الارض واذبحوه فلما دخل عليه فعلوا ذلك وقتلوه وكان خضر خان غائبا بموضع يقال له سندبت على مسيرة يوم من دهلى توجه لزيارة شهداء مدفونين به لنذر كان عليه ان يمشي تلك المسافة راجلا ويدعو لوالده بالراحة فلما بلغه ان أباه قتل خاله حزن عليه حزنا شديدا ومزق جيبه وتلك عادة لاهل الهند يفعلونها اذا مات لهم من يعز عليهم فبلغ والده مافعله فكره ذلك فلما دخل عليه عنفه ولامه وأمر به فقيدت يداه ورجلاه وسلمه لملك نائب المذكور وأمره أن يذهب به الى حصن كاليور وضبطه (بفتح الكاف المعقودة وكسر اللام وضم الياء آخر الحروف وآخره راء) ويقال له أيضا كيالير بزيادة ياء ثانية وهو حصن منقطع بين كفار الهنود منيع على مسيرة عشر من دهلى وقد سكنته أنا مدة فلما أوصله الى هذا الحصن سلمه للكتوال وهو أمير الحصن وللمفردين وهم الزماميون وقال لهم لا تقولوا هذا ابن السلطان فتكرموه انما هو اعدي عدوله فاحفظوه كما يحفظ العدو ثم ان المرض اشتد بالسلطان فقال لملك نائب ابعث من ياتى بابني خضر خان لا وليه العهد فقال له نعم وماطله بذلك فمتي ساله عنه قال هو ذا يصل الى أن توفى السلطان رحمه الله

ـــ ذكر ابنه السلطان شهاب الدين ـــ

ولما توفى السلطان علاء الدين أقعد ملك نائب ابنه الاصغر شهاب الدين على سرير الملك وبايعه الناس وتغلب ملك نائب عليه وسمل أعين أبي بكر خان وشادى خان وبعث بهما

الى كاليور وأمر بسمل عيني أخيهما خضرخان المسجون هنالك وسجنوا وسجن قطب الدين لكنه لم تسمل عينيه وكان للسلطان علاء الدين مملوكان من خواصه يسمي أحدهما بشيرا والآخر ببشر فبعثت اليهما الخاتون الكبرى زوجة علاء الدين وهي بنت السلطان معز الدين فذكرتهما بنعمة مولاهما وقالت ان هذا الفتى نائب ملك قد فعل في أولادي ما تعلمانه وأنه يريد ان يقتل قطب الدين فقال لها سترين ما نفعل وكانت عادتهما ان يبيتا عند نائب ملك ويدخلا عليه بالسلاح فدخلا عليه تلك الليلة وهو في بيت من الخشب مكسو بالملف يسمونه الخرمقة ينام فيه أيام المطر فوق سطح القصر فاتفق انه أخذ السيف من يد أحدهما فقلبه ورده اليه فضربه به المملوك وثنى عليه صاحبه واحتزا رأسه واتيا به الى مجلس قطب الدين فرمياه بين يديه وأخرجاه فدخل على أخيه شهاب الدين وأقام بين يديه أياما كانه نائب له ثم عزم على خلعه فخلعه

—— ذكر السلطان قطب الدين بن السلطان علاء الدين ——

وخلع قطب الدين أخاه شهاب الدين وقطع أصبعه وبعث به الى كاليور فحبس مع اخوته واستقام الملك لقطب الدين ثم انه بعد ذلك خرج من حضرة دهلي الى دولة اباد وهي على مسيرة اربعين يوما منها والطريق بينهما تكنفه الاشجار من الصفصاف وسواه فكان الماشي به في بستان وفي كل ميل منه ثلاث داوات وهي البريد وقد ذكرنا ترتيبه وفي كل داوة جميع ما يحتاج المسافر اليه فكانه يمشي في سوق مسيرة الاربعين يوما وكذلك يتصل الطريق الى بلاد التلنك والمعبر مسيرة ستة أشهر وفي كل منزلة قصر للسلطان وزاوية للوارد والصادر فلا يفتقر الفقير الى حمل زاد في ذلك الطريق ولما خرج السلطان قطب الدين في هذه الحركة اتفق بعض الامراء على الخلاف عليه وتولية ولد أخيه خضر خان المسجون وسنه نحو عشرة أعوام وكان مع السلطان فبلغ السلطان ذلك فاخذ ابن أخيه المذكور وأمسك برجليه وضرب برأسه الى الحجارة حتى نثر دماغه وبعث احد الامراء ويسمي ملك شاه الى كاليور حيث أبو هذا الولد وأعمامه وأمره بقتلهم جميعا فحدثني القاضي زين الدين مبارك قاضي هذا الحصن قال قدم علينا ملك شاه ضحوة يوم وكنت عند خضر خان بمحبسه فلما سمع بقدومه خاف وتغير لونه ودخل عليه الامير فقال له فيما جئت قال في حاجة خوندعالم فقال له نفسي سالمة فقال نعم وخرج عنه واستحضر الكتوال وهو صاحب الحصن والمفردين وهم الزماميون وكانوا ثلاثمائة رجل وبعث عني وعن العدول واستظهر بامر السلطان فقرؤه واتوا الى شهاب الدين المخلوع فضربوا عنقه

وهومتثبت غير جزع ثم ضربوا عنق أبي بكر خان وشادي خان ولما أتوا ليضربوا عنق خضر خان فزع وذهل وكانت أمه معه فسدوا الباب دونها وقتلوه وسحبوهم جميعا فى حفرة بدون تكفين ولا غسل وأخرجوا بعد سنين فدفنوا بمقابر آبائهم وعاشت أم خضر خان مدة ورأيتها بمكة سنة ثمان وعشرين وحصن كاليور هذا في رأس شاهق كأنه منحوت من الصخر لا يحاذيه جبل وبداخله جباب الماء ونحو عشرين بئرا عليها الاسوار مضافة الى الحصن منصوبا عليها المجانيق والرعادات ويصعد الى الحصن في طريق متسعة يصعدها الفيل والفرس وعند باب الحصن صورة فيل منحوت من الحجر وعليه صورة فيال واذا رآه الانسان على البعد لم يشك انه فيل حقيقة وأسفل الحصن مدينة حسنة مبنية كلها بالحجارة البيض المنحوتة مساجدها ودورها ولا خشب فيها ماعدا الابواب وكذلك دار الملك بها والقباب والمجالس وأكثر سوقتها كفار وفيها ستمائة فارس من جيش السلطان لا يزالون في جهاد لانها بين الكفار ولما قتل قطب الدين اخوته واستقل بالملك فلم يبق من ينازعه ولا من يخالف عليه بعث الله تعالى عليه خاصته الحظي لديه أكبر أمرائه وأعظمهم منزلة عنده ناصر الدين خسروخان ففتك به وقتله واستقل بملكه الاان مدته لم تطل فى الملك فبعث الله عليه أيضا من قتله بعد خلعه وهو السلطان تغلق حسبما يشرح ذلك كله مستوفى ان شاء الله تعالى أثر هذا ونسطره

— ذكر السلطان خسروخان ناصر الدين —

وكان خسروخان من أكبر أمراء قطب الدين وهو شجاع حسن الصورة وكان فتح بلاد جنديرى وبلاد المعبر وهي من أخصب بلاد الهند وبينهما وبين دهلى مسيرة ستة أشهر وكان قطب الدين يحبه حبا شديدا ويؤثره فجر ذلك حتفه على يديه وكان لقطب الدين معلم يسمى قاضى خان صدر الجهان وهو أكبر أمرائه وكليت (كليد) دار وهو صاحب مفاتيح القصر وعادته ان يبيت كل ليلة على باب السلطان ومعه أهل النوبة وهم الف رجل يبيتون مناوبة بين أربع ليال ويكونون صفين فيما بين ابواب القصر وسلاح كل واحد منهم بين يديه فلا يدخل أحد الا فيما بين سماطيهم واذا تم الليل أتى أهل نوبة النهار ولاهل النوبة أمراء وكتاب يطوفون عليهم ويكتبون من غاب منهم أو حضر وكان معلم السلطان قاضى خان يكره أفعال خسروخان ويسوءه مايراه من ايثاره لكفار الهنود وميله اليهم وأصله منهم ولا يزال يلقى ذلك الى السلطان فلا يسمع منه ويقول له دعه ومايريد لما اراد الله من قتله على يديه فلما كان فى بعض الايام قال خسروخان للسلطان ان جماعة

من الهنود يريدون ان يسلموا ومن عادتهم بتلك البلاد ان الهندي اذا اراد الاسلام أدخل الى السلطان فيكسوه كسوة حسنة ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره فقال له السلطان ائتني بهم فقال انهم يستحيون ان يدخلوا اليك نهارا لاجل اقربائهم وأهل ملتهم فقال له ائتني بهم ليلا فجمع خسروخان جماعة من شجعان الهنود وكبرائهم فيهم أخوه خان خانان وذلك أوان الحر والسلطان ينام فوق سطح القصر ولا يكون عنده فى ذلك الوقت الا بعض الفتيان فلما دخلوا الابواب الاربعة وهم شاكون فى السلاح ووصلوا الى الباب الخامس وعليه قاضى خان أنكر شانهم وأحس بالشر فمنعهم من الدخول وقال لا بد أن أسمع من خوند عالم بنفسى الاذن في دخولهم وحينئذ يدخلون فلما منعهم من الدخول هجموا عليه فقتلوه وعلت الضجة بالباب فقال السلطان ماهذا فقال خسروخان هم الهنود الذين أتوا ليسلموا فمنعهم قاضى خان من الدخول وزاد الضجيج فخاف السلطان وقام يريد الدخول الى القصر وكان بابه مسدودا والفتيان عنده فقرع الباب واحتضنه خسرو خان من خلفه وكان السلطان أقوى منه فصرعه ودخل الهنود فقال لهم خسروخان هو ذا فوقى فاقتلوه فقتلوه وقطعوا رأسه ورموا به من سطح القصر الى صحنه وبعث خسرو خان من حينه عن الامراء والملوك وهم لا يعلمون بما اتفق فكلما دخلت طائفة وجدوه على سرير الملك فبايعوه ولما أصبح أعلن بامره وكتب المراسم وهى الاوامر الى جميع البلاد وبعث لكل أمير خلعة فطاعوا له جميعا واذعنوا الا تغلق شاه والد السلطان محمد شاه وكان اذ ذاك أميرا بديبالبور من بلاد السند فلما وصلته خلعة خسروخان طرحها بالارض وجلس فوقها وبعث اليه اخاه خان خانان فهزمه ثم آل أمره الى ان قتله كما سنشرحه فى اخبار تغلق ولما ملك خسروخان آثر الهنود وأظهر امورا منكرة منها النهي عن ذبح البقر على قاعدة كفار الهنود فانهم لا يجيزون ذبحها وجزاء من ذبحها عندهم ان يخاط فى جلدها ويحرق وهم يعظمون البقر ويشربون ابوالها للبركة وللاستشفاء اذا مرضوا ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بارواثها وكان ذلك مما بغض خسروخان الى المسلمين وأمالهم عنه الى تغلق فلم تطل مدة ولايته ولا امتدت ايام ملكه كما سنذكره

— ذكر السلطان غياث الدين تغلق شاه —

(وضبط اسمه بضم التاء المعلوة وسكون الغين المعجم وضم اللام وآخره قاف) حدثني الشيخ الامام الصالح العالم العامل العابد ركن الدين بن الشيخ الصالح شمس الدين أبي عبدالله ابن الولى الامام العالم العابد بهاء الدين زكريا القرشى الملتاني بزاويته منها ان السلطان تغلق كان

من الاتراك المعروفين بالقرونة (بفتح القاف والراء وسكون الواو وفتح النون) وهم قاطنون بالجبال التي بين بلاد السند والترك وكان ضعيف الحال فقدم بلاد السند في خدمة بعض التجار وكان كلوانياله والكلواني (بضم الكاف المعقودة) هو راعي الخيل (جلوبان) وذلك على أيام السلطان علاء الدين وأمير السند اذذاك أخوه أولوخان (بضم الهمزة واللام) نخدمه تغلق وتعلق بجانبه فرتبه في البياة (بكسر الباء الموحدة وفتح الياء آخر الحروف) وهم الرجالة ثم ظهرت نجابته فاثبت في الفرسان ثم كان من الامراء الصغار وجعله أولوخان أمير خيله ثم كان بعد من الامراء الكبار وسمي بالملك الغزي ورأيت مكتوبا على مقصورة الجامع بملتان وهو الذي أمر بعملها اني قاتلت التتر تسعا وعشرين مرة فهزمتهم فحينئذ سميت بالملك الغازي ولما ولي قطب الدين ولاه مدينة دبال بور وعمالاتها (وهي بكسر الدال المهمل وفتح الباء الموحدة) وجعل ولده الذي هو الآن سلطان الهند أمير خيله وكان يسمى جونة (بفتح الجيم والنون) ولما ملك تسمي بمحمد شاه ثم لما اقتل قطب الدين وولي خسروخان أبقاه على امارة الخيل فلما أراد تغلق الخلاف كان له ثلاثمائة من أصحابه الذين يعتمد عليهم في القتال وكتب الى كشلوخان وهو يومئذ بملتان وبينهما وبين دبال بور ثلاثة أيام يطلب منه القيام بنصرته ويذكره نعمة قطب الدين ويحرضه على طلب ثاره وكان ولد كشلوخان بدهلي فكتب الى تغلق انه لوكان ولدي عندي لاعنتك على ماتريد فكتب تغلق الى ولده محمد شاه يعلمه بما عزم عليه ويامره أن يفر اليه ويستصحب معه ولد كشلوخان دار ولده الحيلة على خسروخان وتمت له كما أراد فقال له ان الخيل قد سمنت وتبدنت وهي تحتاج البراق وهو التضمير فاذن له في تضميرها فكان يركب كل يوم في أصحابه فيسير بها الساعة والساعتين والثلاث واستمر الى اربع ساعات الى أن غاب يوما الى وقت الزوال وذلك وقت طعامهم فامر السلطان بالركوب في طلبه فلم يوجد له خبر ولحق بابيه واستصحب معه ولد كشلوخان وحينئذ أظهر تغلق الخلاف وجمع العساكر وخرج معه كشلوخان في أصحابه وبعث السلطان أخاه خان خانان لقتالهما فهزماه شر هزيمة وفر عسكره اليهما ورجع خان خانان الى أخيه وقتل أصحابه وأخذت خزائنه وأمواله وقصد تغلق حضرة دهلي وخرج اليه خسروخان في عساكره ونزل بخارج دهلي بموضع يعرف باصيا اباد (آسيا باد) ومعنى ذلك رحي الريح وأمر بالخزائن ففتحت وأعطي الاموال بالبدر لا بوزن ولا عد ووقع اللقاء بينه وبين تغلق وقاتلت الهنود أشد قتال وانهزمت عساكر تغلق ونهبت محلته وانفرد في أصحابه الاقدمين الثلاثمائة فقال لهم الى أين الفرار حيثما أدركنا قتلنا

واشتغلت عساكر خسروخان بالنهب وتفرقوا عنه ولم يبق معه الا قليل فقصد تغلق وأصحابه موقفه والسلطان هنالك يعرف بالشطر (جتر) الذي يرفع فوق رأسه وهو الذي يسمى بديار مصر القبة والطير ويرفع بها في الاعياد وأما بالهند والصين فلا يفارق السلطان في سفرولا حضر فلما قصده تغلق وأصحابه حمي القتال بينهم وبين الهنود وانهزم أصحاب السلطان ولم يبق معه أحد وهرب فنزل عن فرسه ورمى بثيابه وسلاحه وبقي في قميص واحد وارسل شعره بين كتفيه كما يفعل فقراء الهند ودخل بستانا هنالك واجتمع الناس على تغلق وقصد المدينة فاتاه الكتوال بالمفاتيح ودخل القصر ونزل بناحية منه وقال لكشلوخان أنت تكون السلطان فقال كشلوخان بل أنت تكون السلطان وتنازعا فقال له كشلوخان فان أبيت أن تكون سلطانا فيتولى ولدك فكره هذا وقبل حينئذ وقعد على سرير الملك وبايعه الخاص والعام ولما كان بعد ثلاث اشتد الجوع بخسروخان وهو مختف بالبستان فخرج وطاف به فوجد القيم فساله طعاما فلم يكن عنده فاعطاه خاتمه وقال اذهب فارهنه في طعام فلما ذهب بالخاتم الى السوق أنكر الناس أمره ورفعوه الى الشحنة وهو الحاكم فادخله على السلطان تغلق فاعلمه بمن دفع اليه الخاتم فبعث ولده محمدا لياتي به فقبض عليه وأتاه به راكبا على تتو (بتائين مثناتين أولاهما مفتوحة والثانية مضمومة) وهو البرذون فلما مثل بين يديه قال له اني جائع فاتني بالطعام فامر له بالشربة ثم بالطعام ثم بالفقاع ثم بالتنبول فلما أكل قام قائما وقال ياتغلق افعل معي فعل الملوك ولا تفضحني فقال له ذلك وأمر به فضربت رقبته وذلك في الموضع الذى قتل هو به قطب الدين ورمى برأسه وجسده من أعلى السطح كما فعل هو برأس قطب الدين وبعد ذلك أمر بغسله وتكفينه ودفن في مقبرته واستقام الملك لتغلق أربعة أعوام وكان عادلا فاضلا

— ذكر مارامه ولده من القيام عليه فلم يتم له ذلك —

ولما استقر تغلق بدار الملك بعث ولده ليفتح بلاد التلنك (وضبطها بكسر التاء المعلوة واللام وسكون النون وكاف معقودة) وهي على مسيرة ثلاثة اشهر من مدينة دهلى وبعث معه عسكرا عظيما فيه كبار الامراء مثل الملك تمور (بفتح التاء المعلوة وضم الميم وآخره راء) ومثل الملك تكين (بكسر التاء المعلوة والكاف وآخره نون) ومثل ملك كافور المهردار (بضم الميم) ومثل ملك بيرم (بالباء الموحدة مفتوحة والياء آخر الحروف والراء مفتوحة) وسواهم فلما بلغ الى أرض التلنك اراد المخالفة وكان له نديم من الفقهاء الشعراء يعرف بعبيد فامره أن يلقي الى النـاس ان السلطان تغلق توفي وظنه أن الناس يبايعونه مسرعين

اذا سمعوا ذلك فلما التى ذلك الى الناس أنكره الامراء وضرب كل واحد منهم طبله وخالف فلم يبق معه من أحد وأرادوا قتله فمنعهم منه ملك تمور وقام دونه ففر الى أبيه فى عشرة من الفرسان سماهم ياران موافق معناه الاصحاب الموافقون فاعطاه أبوه الاموال والعساكر وأمره بالعود الى تلنك فعاد اليها وعلم أبوه بما كان أراد فقتل الفقيه عبيدا وأمر بملك كافور المهردار فضرب له عمود في الارض محدود الطرف وركز فى عنقه حتى خرج من جنبه طرفه ورأسه الى أسفل وترك على تلك الحال وفر من بقي من الامراء الى السلطان شمس الدين ابن السلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن واستقروا عنده

ذكر مسير تغلق الى بلاد اللكنوتى وما اتصل بذلك الى وفاته

وأقام الامراء الفار بون عند السلطان شمس الدين ثم ان شمس الدين توفى وعهد لولده شهاب الدين فجلس مجلس أبيه ثم غلب عليه أخوه الاصغر غياث الدين بهادور بورة ومعناه بالهندية الاسود واستولى على الملك وقتل أخاه قطلوخان وسائر إخوته وفر شهاب الدين وناصر الدين منهم الى تغلق فتجهز معهما بنفسه لقتال أخيهما وخلف ولده محمدا نائبا عنه فى ملكه وجد السير الى بلاد اللكنوتى فتغلب عليها واسر سلطانها غياث الدين بهادور وقدم به أسيرا الى حضرته وكان بمدينة دهلي الولى نظام الدين البذاوني ولا يزال محمد شاه ابن السلطان يتردد اليه ويعظم خدامه ويساله الدعاء وكان ياخذ الشيخ حال تغلب عليه فقال ابن السلطان لخدامه اذا كان الشيخ في حاله التي تغلب عليه فاعلموني بذلك فلما أخذته الحال أعلموه فدخل عليه فلما رآه الشيخ قال وهبنا لك الملك ثم توفى الشيخ فى أيام غيبة السلطان فحمل ابنه محمد نعشه على كاهله فبلغ ذلك اباه فانكره وتوعده وكان قد رابته منه أمور ونقم عليه استكثاره من شراء المماليك واجزاله العطايا واستجلابه قلوب الناس فزاد حنقه عليه وبلغه ان المنجمين زعموا انه لا يدخل مدينة دهلى بعد سفره ذلك فيتوعدهم ولما عاد من سفره وقرب من الحضرة أمر ولده أن يبني له قصرا وهم يسمونه الكشك (بضم الكاف وشين معجم مسكن) على واد هنالك يسمي أفغان بور فبناه فى ثلاثة أيام وجعل أكثر بنائه بالخشب مرتفعا على الارض قائما على سواري خشب وأحكمه بهندسة تولى النظر فيها الملك زاده المعروف بعد ذلك بخواجة جهان واسمه أحمد بن اياس كبير وزراء السلطان محمد وكان اذ ذاك شحنة العمارة وكانت الحكمة التى اخترعوها فيه انه متي وطئت الفيلة جهة منه وقع ذلك القصر وسقط ونزل السلطان بالقصر وأطعم الناس وتفرقوا واستاذنه ولده فى أن يعرض الفيلة بين يديه وهى مزينة فاذن له وحدثني الشيخ ركن الدين

انه كان يومئذ مع السلطان ومعهما ولد السلطان المؤثر لديه محمود فجاء محمد ابن السلطان فقال للشيخ ياخوند هذا وقت العصر انزل فصل قال لي الشيخ فنزلت وأتي بالافيال من جهة واحدة حسبما دبروه فلما وطئتها سقط الكشك على السلطان وولده محمود قال الشيخ فسمعت الضجة فعدت ولم أصل فوجدت الكشك قد سقط فامر ابنه أن يؤتي بالفوس والمساحي للحفر عنه وأشار بالابطاء فلم يؤت بهما الا وقد غربت الشمس فحفروا ووجدوا السلطان قد حنا ظهره على ولده ليقيه الموت فزعم بعضهم انه أخرج ميتا وزعم بعضهم أنه أخرج حيا فاجهز عليه وحمل ليلا الى مقبرته التي بناها بخارج البلدة المسماة باسمه تغلق أباد فدفن بها وقد ذكرنا السبب في بنائه لهذه المدينة وبها كانت خزائن تغلق وقصوره وبها القصر الاعظم الذي جعل قراميده مذهبة فاذا طلعت الشمس كان لها نور عظيم وبصيص يمنع البصر من ادامة النظر اليها واختزن بها الاموال الكثيرة ويذكر انه بنى صهريجا وأفرغ فيه الذهب افراغا فكان قطعة واحدة فصرف جميع ذلك ولده محمد شاه لما ولي وبسبب ماذكرناه من هندسة الوزير خواجة جهان في بناء الكشك الذي سقط على تغلق كانت حظوته عند ولده محمد شاه وإيثاره اديه فلم يكن أحد يدانيه في المنزلة لديه ولا يبلغ مرتبته عنده من الوزراء ولا غيرهم

— ذكر السلطان أبي المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند الذي قدمنا عليه —

ولما مات السلطان تغلق استولى ابنه محمد على الملك من غير منازع له ولا مخالف عليه وقد قدمنا انه كان اسمه جونة فلما ملك تسمي بمحمد واكتني بابي المجاهد وكل ماذكرت من شان سلاطين الهند فهو مما أخبرت به وتلقيته أو معظمه من الشيخ كمال الدين بن البرهان الغزنوى قاضي القضاة وأما أخبار هذا الملك فمعظمها مما شاهدته أيام كوني ببلاده — ذكر وصفه — وهذا الملك أحب الناس في إسداء العطايا وإراقة الدماء فلايخلو بابه عن فقير يغني أوحي يقتل وقد شهرت في الناس حكاياته في الكرم والشجاعة وحكاياته في الفتك والبطش بذوى الجنايات وهو أشد الناس مع ذلك تواضعا وأكثرهم اظهارا للعدل والحق وشعائر الدين عنده محفوظة وله اشتداد في أمر الصلاة والعقوبة على تركها وهو من الملوك الذين اطردت سعادتهم وخرق المعتاد يمن نقيبتهم ولكن الاغلب عليه الكرم وسنذكر من أخباره في عجائب لم يسمع بمثلها عمن تقدمه وأنا اشهد بالله وملائكته ورسله ان جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين وكفى بالله شهيدا واعلم ان بعض ما آثره من ذلك لا يسع في عقل كثير من الناس ويعدونه من قبيل المستحيل عادة ولكنه شيء عاينته وعرفت

صحته واخذت بحظ وافر منه لا يسعني الا قول الحق فيه واكثر ذلك ثابت بالتواتر فى بلاد المشرق

ـــ ذكر ابوابه ومشوره وترتيب ذلك ـــ

ودار السلطان بدهلى تسمي دار سرى (بفتح السين المهمل والراء) ولها ابواب كثيرة فاما الباب الاول فعليه جملة من الرجال موكلون به ويقعد به أهل الانفار والابواق والصرنايات فاذا جاء أمير او كبير ضربوها ويقولون فى ضربهم جاء فلان جاء فلان وكذلك ايضا فى البابين الثانى والثالث وبخارج الباب الاول دكاكين يقعد عليها الجلادون وهم الذين يقتلون الناس فان العادة عندهم انه متى أمر السلطان بقتل أحد قتل على باب المشور ويبقى هنالك ثلاثا وبين البابين الاول والثاني دهليز كبير فيه دكاكين مبنية من جهتيه يقعد عليها أهل النوبة من حفاظ الابواب واما الباب الثانى فيقعد عليه البوابون الموكلون به وبينه وبين الباب الثالث دكانة كبيرة يقعد عليها نقيب النقباء وبين يديه عمود ذهب يمسكه بيده وعلى رأسه كلاة من الذهب مجوهرة فى أعلاها ريش الطواويس والنقباء بين يديه على رأس كل واحد منهم شاشية مذهبة وفى وسطه منطقة وبيده سوط نصابه من ذهب او فضة ويفضى هذا الباب الثانى الى مشور كبير متسع يقعد به الناس وأما الباب الثالث فعليه دكاكين يقعد فيها كتاب الباب ومن عوائدهم ان لا يدخل على هذا الباب أحد الا من عينه السلطان لذلك ويعين لكل انسان عددا من أصحابه وناسه يدخلون معه وكل من ياتى الى هذا الباب يكتب الكتاب ان فلانا جاء فى الساعة الاولى او الثانية اوما بعدها من الساعات الى آخر النهار ويطالع السلطان بذلك بعد العشاء الآخرة ويكتبون آيضا بكل مايحدث بالباب من الامور وقد عين من أبناء الملوك من يوصل كل مايكتبونه الى السلطان ومن عوائدهم ايضا انه من غاب عن دار السلطان ثلاثة ايام فصاعدا لعذر او لغير عذر فلا يدخل هذا الباب بعدها الا باذن من السلطان فان كان له عذر من مرض اوغيره قدم بين يديه هدية مما يناسب اهداءها الى السلطان وكذلك أيضا القادمون من الاسفار فالفقيه يهدي المصحف والكتاب وشبهه الفقير يهدي المصلي والسبحة والمسواك ونحوها والامراء ومن أشبههم يهدون الخيل والجمال والسلاح وهذا الباب الثالث يفضى الى المشور الهائل الفسيح الساحة المسمي هزار اسطون (بفتح الهاء والزاى وألف وراء) ومعني ذلك ألف سارية وهو سوارى من خشب مدهونة عليها سقف خشب منقوشة أبدع نقش يجلس الناس تحتها وبهذا المشور يجلس السلطان الجلوس العام

ـــ ذكر ترتيب جلوسه للناس ـــ

واكثر جلوسه بعد العصر وربما جلس اول النهار وجلوسه على مصطبة مفروشة بالبياض

فوقها مرتبة ويجعل خلف ظهره مخدة كبيرة وعن يمينه متكا وعن يساره مثل ذلك وقعوده كجلوس الانسان للتشهد فى الصلاة وهو جلوس أهل الهند كلهم فاذا جلس وقف أمامه الوزير ووقف الكتاب خلف الوزير وخلفهم الحجاب وكبير الحجاب هو فيروز ملك ابن عم السلطان ونائبه وهو أدنى الحجاب من السلطان ثم يتلوه خاص حاجب ثم يتلوه نائب خاص حاجب ووكيل الدار ونائبه وشرف الحجاب وسيد الحجاب وجماعة تحت ايديهم ثم يتلوا الحجاب النقباء وهم نحو مائة وعند جلوس السلطان ينادى الحجاب والنقباء باعلى أصواتهم بسم الله ثم يقف على رأس السلطان الملك الكبير قبوله وبيده المذبة يشرد بها الذباب ويقف مائة من السلحدارية عن يمين السلطان ومثلهم عن يساره بايديهم الدرق والسيوف والقسى ويقف فى الميمنة والميسرة بطول المشور قاضي القضاة ويليه خطيب الخطباء ثم سائر القضاة ثم كبار الفقهاء ثم كبار الشرفاء المشايخ ثم اخوة السلطان واصهاره ثم الامراء الكبار ثم كبار الاعزة وهم الغرباء ثم القواد ثم يؤتى بستين فرسا مسرجة ملجمة بجهازات سلطانية فمنها ماهو بشعار الخلافة وهى التى لجمها ودوائرها من الحرير الاسود المذهب ومنها مايكون ذلك من الحرير الابيض المذهب ولا يركب بذلك غير السلطان فيوقف النصف من هذه الخيل عن اليمين والنصف عن الشمال بحيث يراها السلطان ثم يؤتى بخمسين فيلا مزينة بثياب الحرير والذهب مكسوة أنيابها بالحديد اعدادا لقتل اهل الجرائم وعلى عنق كل فيل فياله وبيده شبه الطبرزين من الحديد يؤدبه به ويقومه لما يراد منه وعلى ظهر كل فيل شبه الصندوق العظيم يسع عشرين من المقاتلة واكثر من ذلك ودونه على حسب ضخامة الفيل وعظم جرمه ويكون فى أركان ذلك الصندوق أربعة أعلام مركوزة وتلك الفيلة معلمة أن تخدم السلطان وتحط رؤسها فاذا خدمت قال الحجاب بسم الله باصوات عالية ويوقف ايضا نصفها عن اليمين ونصفها عن الشمال خلف الرجال الواقفين وكل من ياتي من الناس المعينين للوقوف فى الميمنة أو الميسرة يخدم عند موقف الحجاب ويقول الحجاب بسم الله ويكون ارتفاع أصواتهم بقدر ارتفاع صوت الذي يخدم فاذا خدم انصرف الى موقفه من الميمنة أو الميسرة لا يتعداه ابدا ومن كان من كفار الهنود يخدم ويقول له الحجاب والنقباء هداك الله ويقف عبيد السلطان من وراء الناس كلهم بايديهم الترسة والسيوف فلا يمكن احد الدخول بينهم الا بين يدى الحجاب القائمين بين يدى السلطان

ذكر دخول الغرباء وأصحاب الهدايا اليه

وان كان بالباب أحد ممن قدم على السلطان بهدية دخل الحجاب الى السلطان على ترتيبهم

يقدمهم أمير حاجب ونائبه خلفه ثم خاص حاجب ونائبه خلفه ثم وكيل الدار ونائبه خلفه ثم سيد الحجاب وشرف الحجاب ويخدمون فى ثلاثة مواضع ويعلمون السلطان بمن فى الباب فاذا أمرهم أن ياتوا به جعلوا الهدية التى ساقها بايدى الرجال يقومون بها امام الناس بحيث يراها السلطان ويستدعي صاحبها فيخدم قبل الوصول الى السلطان ثلاث مرات ثم يخدم عند موقف الحجاب فان كان رجلا كبيرا وقف فى صف أمير حاجب والا وقف خلفه ويخاطبه السلطان بنفسه ألطف خطاب ويرحب به وان كان ممن يستحق التعظيم فانه يصافحه أو يعانقه ويطلب بعض هديته فتحضر بين يديه فان كانت من السلاح أو الثياب قلبها بيده وأظهر استحسانها جبرا لخاطر مهديها وإيناسا له ورفقا به وخلع عليه وأمر له بمال لغسل رأسه على عادتهم فى ذلك بمقدار ما يستحقه المهدى

— ذكر دخول هدايا عماله اليه —

واذا أتى العمال بالهدايا والاموال المجتمعة من مجابى البلاد صنعوا الاوانى من الذهب والفضة مثل الطسوت والاباريق وسواها وصنعوا من الذهب والفضة قطعا شبه الآجر يسمونها الخشت (بكسر الخاء المعجمة وسكون الشين المعجم وتاء معلوة) ويقف الفراشون وهم عبيد السلطان صفا والهدية بايديهم كل واحد منهم ممسك قطعة ثم يقدم الفيلة ان كان فى الهدية شىء منها ثم الخيل المسرجة الملجمة ثم البغال ثم الجمال عليها الاموال ولقد رأيت الوزير خواجه جهان قدم هديته ذات يوم حين قدم السلطان من دولة آباد ولقيه بها فى ظاهر مدينة بيانة فادخلت الهدية اليه على هذا الترتيب ورأيت فى جملتها صينية مملوءة باحجار الياقوت وصينية مملوءة باحجار الزمرد وصينية مملوءة باللؤلؤ الفاخر وكان حاجى كاون ابن عم السلطان أبي سعيد ملك العراق حاضرا عنده حين ذلك فاعطاه حظا منها وسنذكر ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى

— ذكر خروجه للعيدين وما يتصل بذلك —

واذا كانت ليلة العيد بعث السلطان الى الملوك والخواص وأرباب الدولة والاعزة والكتاب والحجاب والنقباء والقواد والعبيد وأهل الاخبار الخلع التي تعمهم جميعا فاذا كانت صبيحة العيد زينت الفيلة كلها بالحرير والذهب والجواهر ويكون منها ستة عشر فيلا لا يركبها احد انما هي مختصة بركوب السلطان ويرفع عليها ستة عشر شطرا (جترا) من الحرير مرصعة بالجوهر قائمة كل شطر منها ذهب خالص وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجواهر ويركب السلطان فيلا منها وترفع امامه الغاشية وهي ستارة سرجه وتكون مرصعة بانفس الجواهر ويمشي بين يديه عبيده ومماليكه وكل واحد منهم تكون على رأسه شاشية ذهب وعلى وسطه

منطقة ذهب وبعضهم يرصعها بالجوهر ويمشي بين يديه أيضا النقباء وهم نحو ثلثمائة وعلى رأس كل واحد منهم أقروف ذهب وعلى وسطه منطقة ذهب وفي يده مقرعة نصابها ذهب ويركب قاضي القضاة صدر الجهان كمال الدين الغزنوي وقاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي وسائر القضاة وكبار الاعزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة كل واحد منهم على فيل وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين ويركب المؤذنون ايضا على الفيلة وهم يكبرون ويخرج السلطان من باب القصر على هذا الترتيب والعساكر تنتظره كل أمير بفوجه على حدة معه طبوله واعلامه فيقدم السلطان وامامه من ذكرناه من المشاة وأمامهم القضاة والمؤذنون يذكرون الله تعالى وخلف السلطان مراتبه وهي الاعلام والطبول والابواق والانفار والصرنايات وخلفهم جميع أهل دخلته ثم يتلوهم أخو السلطان مبارك خان بمراتبه وعساكره ثم يليه ابن أخ السلطان بهرام خان بمراتبه وعساكره ثم يليه ابن عمه ملك فيروز بمراتبه وعساكره ثم يليه الوزير بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك مجير ابن ذي الرجا بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك الكبير قبولة بمراتبه وعساكره وهذا الملك كبير القدر عنده عظيم الجاه كثير المال اخبرني صاحب ديوانه ثقة الملك علاء الدين علي المصري المعروف بابن الشرايشي ان نفقته ونفقة عبيده ومرتباتهم ستة وثلاثون الكا في السنة ثم يليه الملك نكبية بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك بغرة بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك مخلص بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك قطب الملك بمراتبه وعساكره وهؤلاء هم الامراء الكبار الذين لا يفارقون السلطان وهم الذين يركبون معه يوم العيد بالمراتب ويركب غيرهم من الامراء دون مراتب وجميع من يركب في ذلك اليوم يكون مدرعا هو وفرسه وأكثرهم مماليك السلطان فاذا وصل السلطان الى باب المصلى وقف على بابه وأمر بدخول القضاة وكبار الامراء وكبار الاعزة ثم نزل السلطان ويصلي الامام ويخطب فان كان عيد الاضحى أتي السلطان بجمل فنحره برمح يسمونه النيزة (بكسر النون وفتح الزاى) بعد أن يجعل على ثيابه فوطة حرير توقيا من الدم ثم يركب الفيل ويعود الى قصره

— ذكر جلوس يوم العيد وذكر السرير الاعظم والمبخرة العظمى —

ويفرش القصر يوم العيد ويزين بابدع الزينة وتضرب الباركة على المشور كله وهي شبه خيمة عظيمة تقوم على أعمدة ضخام كثيرة وتحفها القباب من كل ناحية ويصنع شبه أشجار من حرير ملون فيها شبه الازهار ويجعل منها ثلاثة صفوف بالمشور ويجعل بين كل شجرتين كرسي ذهب عليه مرتبة مغطاة وينصب السرير الاعظم في صدر المشور وهو

من الذهب الخالص كله مرصع القوائم بالجواهر وطوله ثلاثة وعشرون شبرا وعرضه نحو النصف من ذلك وهو منفصل وتجمع قطعه فتتصل وكل قطعة منها يحملها جملة رجال لثقل الذهب وتجعل فوق المرتبة ويرفع الشطر المرصع بالجواهر على رأس السلطان وعند مايصعد على السرير ينادى الحجاب والنقباء باصوات عالية بسم الله ثم يتقدم الناس للسلام فاولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء والمشايخ وإخوة السلطان وأقاربه واصهاره ثم الاعزة ثم الوزير ثم أمراء العساكر ثم شيوخ المماليك ثم كبار الاجناد يسلم واحد اثر واحد من غير تزاحم ولا تدافع ومن عوائدهم في يوم العيد ان كل من بيده قرية منعم بها عليه ياتى بدنانير ذهب مصرورة فى خرقة مكتوب عليها اسمه فيلقيها فى طست ذهب هنالك فيجتمع منها مال عظيم يعطيه السلطان لمن شاء فاذا فرغ الناس من السلام وضع لهم الطعام على حسب مراتبهم وينصب فى ذلك اليوم المبخرة العظمى وهي شبه برج من خالص الذهب منفصلة فاذا أرادوا اتصالها وصلوها وتحمل القطعة الواحدة منها جملة من الرجال وفى داخلها ثلاثة بيوت يدخل فيها المبخرون يوقدون العود القماري والقاقلي والعنبر الاشهب والجاوى حتي يعم دخانها المشور كله ويكون بايدى الفتيان براميل الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر يصبونه على الناس صبا وهذا السرير وهذه المبخرة لا يخرجان الا فى العيدين خاصة ويجلس السلطان فى بقية أيام العيد على سرير ذهب دون ذلك وتنصب باركة بعيدة لها ثلاثة أبواب يجلس السلطان في داخلها ويقف على الباب الاول منها عماد الملك سرتيز وعلى الباب الثانى الملك نكبية وعلى الباب الثالث يوسف بغرة ويقف على اليمين امراء المماليك السلحدارية وعن اليسار كذلك ويقف الناس على مراتبهم وشحنة الباركة ملك طغي بيده عصا ذهب وبيد نائبه عصا فضة يرتبان الناس ويسويان الصفوف ويقف الوزير والكتاب خلفه ويقف الحجاب والنقباء ثم ياتى أهل الطرب فاولهم بنات الملوك الكفار من الهنود المسبيات في تلك السنة فيغنين ويرقصن ويهبهن السلطان للامراء والاعزة ثم ياتى بعدهن سائر بنات الكفار فيغنين ويرقصن ويهبهن لاخوانه وأقاربه وأصهاره وأبناء الملوك ويكون جلوس السلطان لذلك بعد العصر ثم يجلس فى اليوم الذى بعده بعد العصر أيضا على ذلك الترتيب ويؤتي بالمغنيات فيغنين ويرقصن ويهبهن لامراء المماليك وفى اليوم الثالث يزوج أقاربه وينعم عليهم وفى اليوم الرابع يعتق العبيد وفى اليوم الخامس يعتق الجوارى وفى اليوم السادس يزوج العبيد بالجوارى وفى اليوم السابع يعطي الصدقات ويكثر منها

— ذكر ترتيبه اذا قدم من سفره —

واذا قدم السلطان من أسفاره زينت الفيلة ورفعت على ستة عشر فيلامنها ستة عشر شطرا منها مزركش ومنهـا مرصع وحملت امامه الغاشية وهي الستارة المرصعة بالجوهر النفيس وتصنع قباب الخشب مقسومة على طبقات وتكسى بثياب الحرير ويكون فى كل طبقة الجوارى المغنيات عليهن أجمل لباس وأحسن حليه ومنهن رواقص ويجعل في وسط كل قبة حوض كبير مصنوع من الجلود مملوء بماء الجلاب محلولا بالمـاء يشرب منه جميع الناس من وارد وصادر وبلدى أوغريب وكل من يشرب منه يعطي التنبـول والفـوفل ويكون ما بين القباب مفروشا بثياب الحرير يطأ عليها مركب السلطان وتزين حيطان الشارع الذى يمر به من باب المدينة الى باب القصر بثياب الحرير ويمشى امامه المشاة من عبيده وهم آلاف وتكون الافواج والعساكر خلفه ورأيته فى بعض قدماته على الحضرة وقد نصبت ثلاث أو أربع من الرعادات الصغار على الفيلة ترمى بالدنانير والدراهم على الناس فيلتقطونها من حين دخوله الى المدينة حتي وصل الى قصره

— ذكر ترتيب الطعام الخاص —

والطعام بدار السلطان على صنفين طعام الخاص وطعام العام فاما الخاص فهو طعام السلطان الذي يأكل منه وعادته أن يأكل فى مجلسه مع الحاضرين ويحضر لذلك الامراء الخواص وأمير حاجب ابن عم السلطان وعماد الملك سرتيز وأمير مجلس ومن شاء السلطان تشريفه أوتكريمه من الاعزة أوكبار الامراء دعاه فأكل معهم وربما أراد أيضا تشريف أحد من الحاضرين فأخذ احـدى الصحاف بيده وجعـل عليها خبزة ويعطيه اياها فيأخذها المعطى ويجعلها على كفه اليسري ويخدم بيده اليمنى الى الارض وربما بعث من ذلك الطعام الى من هو غائب عن المجلس فيخـدم كما يصنع الحاضر ويأكله مع من حضره وقد حضرت مرات لهـذا الطعام الخاص فرأيت جملة الذين يحضرون له نحو عشرين رجلا

— ذكر ترتيب الطعام العام —

وأما الطعام العام فيؤتى به من المطبخ وامامه النقباء يصيحون بسم الله ونقيب النقباء امامهم بيده عمـود ذهب ونائبه معه بيده عمود فضة فاذا دخلوا من الباب الرابع وسمع من بالمشور أصواتهم قاموا قيـاما أجمعين ولا يبقى أحد قاعدا الا السلطان وحده فاذا وضع الطعام بالارض اصطفت النقباء صفا ووقف أميرهم امامهم وتكلم بكلام يمدح فيه السلطان ويثنى عليه ثم يخدم ويخدم النقباء لخدمته ويخدم جميع من بالمشور من كبير وصغير وعادتهم انه من سمع كلام نقيب النقباء حين ذلك وقف ان كان ماشيـا ولزم موقفه ان كان واقفا ولا

يتحرك أحد ولا يتزحزح عن مقامه حتى يفرغ ذلك الكلام ثم يتكلم أيضا نائبه كلاما نحو ذلك ويخدم ويخدم النقباء وجميع الناس مرة ثانية وحينئذ يجلسون ويكتب كتاب الباب معرفين بحضور الطعام وان كان السلطان قد علم بحضوره ويعطى المكتوب لصبي من ابناء الملوك موكل بذلك فياتي به الى السلطان فاذا قرأه عين من شاء من كبار الامراء لترتيب الناس واطعامهم وطعامهم الرقاق والشواء والاقراص ذات الجوانب المملوءة بالحلواء والارز والدجاج والسمك وقد ذكرنا ذلك وفسرنا ترتيبهم وعادتهم ان يكون فى صدر سماط الطعام القضاة والخطباء والفقهاء والشرفاء والمشايخ ثم أقارب السلطان ثم الامراء الكبار ثم سائر الناس ولا يقعد أحد الا فى موضع معين له فلا يكون بينهم تزاحم البتة فاذا جلسوا أتى الشربدارية وهم السقاة بايديهم اوانى الذهب والفضة والنحاس والزجاج مملوءة بالنبات المحلول بالماء فيشربون ذلك قبل الطعام فاذا شربوا قال الحجاب بسم الله ثم يشرعون فى الاكل ويجعل امام كل انسان من جميع ما يحتوى عليه السماط ياكل منه وحده ولا ياكل أحد مع أحد فى صحفة واحدة فاذا فرغوا من الاكل أتوا بالفقاع فى اكواز القصدير فاذا أخذوه قال الحجاب بسم الله ثم يؤتي باطباق التنبول والفوفل فيعطى كل انسان غرفة من الفوفل المهشوم وخمس عشرة ورقة من التنبول مجموعة مربوطة بخيط حرير أحمر فاذا أخذ الناس التنبول قال الحجاب بسم الله فيقومون جميعا ويخدم الامير المعين للاطعام ويخدمون لخدمته ثم ينصرفون وطعامهم مرتان فى اليوم احداهما قبل الظهر والاخرى بعد العصر

—— ذكر بعض اخباره فى الجود والكرم ——

وانما أذكر منها ما حضرته وشاهدته وعاينته ويعلم الله تعالى صدق ما أقول وكفى به شهيدا مع ان الذي احكيه مستفيض متواتر والبلاد التى تقرب من أرض الهند كاليمن وخراسان وفارس مملوءة باخباره يعلمونها حقيقة ولا سيما جوده على الغرباء فانه يفضلهم على اهل الهند ويؤثرهم ويجزل لهم الاحسان ويسبغ عليهم الانعام ويوليهم الخطط الرفيعة ويوليهم المواهب العظيمة ومن إحسانه اليهم أن سماهم الاعزة ومنع من ان يدعوا الغرباء وقال ان الانسان اذا دعى غريبا انكسر خاطره وتغير حاله وساذكر بعضا مما لا يحصى من عطاياه الجزيلة ومواهبه ان شاء الله تعالى

—— ذكر عطائه لشهاب الدين الكازروني التاجر وحكايته ——

كان شهاب الدين هذا صديقا لملك التجار الكازروني الملقب ببرويز وكان السلطان قد أقطع ملك التجار مدينة كنباية ووعده ان يوليه الوزارة فبعث الى صديقه شهاب الدين ليقدم

عليه فاتاه وأعد هدية للسلطان وهي سراجة من الملف المقطوع المزين بورقة الذهب وصيوان مما يناسبها وخباء وتابع وخباء راحة كل ذلك من الملف المزين وبغال كثيرة فلما قدم شهاب الدين بهذه الهدية على صاحبه ملك التجار وجده آخذا في القدوم على الحضرة بما اجتمع عنده من جبابي بلاده وبهدية للسلطان وعلم الوزير خواجه جهان بما وعده به السلطان من ولاية الوزارة فغار من ذلك وقلق بسببه وكانت بلاد كنباية والجزرات قبل تلك المدة في ولاية الوزير ولاهلها تعلق بجانبه وانقطاع اليه وتخدم له واكثرهم كفار وبعضهم عصاة يمتنعون بالجبال فدس الوزير اليهم ان يضربوا على ملك التجار اذا خرج الى الحضرة فلما خرج بالخزائن والاموال ومعه شهاب الدين بهديته نزلوا يوما عند الضحى على عادتهم وتفرقت العساكر وناما كثرهم فضرب عليهم الكفار في جمع عظيم فقتلوا ملك التجار وسلبوا الاموال والخزائن وهدية شهاب الدين ونجا هو بنفسه وكتب المخبرون الى السلطان بذلك فامر ان يعطي شهاب الدين من مجبى بلاد نهروالة ثلاثين ألف دينار ويعود الى بلاده فعرض عليه ذلك فابى من قبوله وقال ماقصدى الارؤية السلطان وتقبيل الارض بين يديه فكتبوا الى السلطان بذلك فاعجبه قوله وامر بوصوله الى الحضرة مكرما وصادف يوم دخوله على السلطان يوم دخولنا نحن عليه فخلع علينا جميعا وأمر بانزالنا وأعطى شهاب الدين عطاء جزلا فلما كان بعد ذلك أمر لى السلطان بستة آلاف تنكه كما سنذكره وسال في ذلك اليوم عن شهاب الدين اين هو فقال له بهاء الدين ابن الفلكي ياخوند عالم نميدانم معناه ما ندري ثم قال له شنيدم زحمت دارد (دار) معناه سمعت ان به مرضا فقال له السلطان بروهمين زمان در خزانة يك لك تنكه زر بكرى أوبيش أو بيرى تادل أوخش (خوش) شود معناه امش الساعة الى الخزانة وخذ منها مائة الف تنكه من الذهب واحملها اليه حتى يبقى خاطره طيبا ففعل ذلك فاعطاه اياها وامر السلطان ان يشترى بها ما أحب من السلع الهندية ولا يشترى أحد من الناس شيئا حتى يتجهز هو وأمر له بثلاثة مراكب مجهزة من آلاتها ومن مرتب البحرية وزادهم ليسافر فيها فسافر ونزل بجزيرة هرمز وبنى بها دارا عظيمة رأيتها بعد ذلك ورأيت أيضا شهاب الدين وقد فني جميع ما كان عنده وهو بشيراز يستجدى سلطانها أبا اسحاق وهكذا مال هذه البلاد الهندية فلما يخرج أحد به منها الا النادر واذا خرج به ووصل الى غيرها من البلاد بعث الله عليه آفة تفني ما بيده كمثل ما اتفق لشهاب الدين هذا فانه أخذ له في الفتنة التي كانت بين ملك هرمز وابني أخيه جميع ما عنده وخرج سليبا من ماله

— ذكر عطائه لشيخ الشيوخ ركن الدين —

وكان السلطان قد بعث هدية الى الخليفة بديار مصر أبى العباس وطلب منه أن يبعث له أمر التقدمة على بلاد الهند والسند اعتقادا منه فى الخلافة فبعث اليه الخليفة أبو العباس ماطلبه مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين فلما قدم عليه بالغ فى اكرامه وأعطاه عطاء جزلا وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه ثم صرفه وأعطاه أموالا طائلة وفى جملة ما أعطاه جملة من صفائح الخيل ومساميرها كل ذلك من الذهب الخالص وقال له اذا نزلت من البحر فانعل افراسك بها فتوجه الى كنباية ليركب البحر منها الى بلاد اليمن فوقعت قضية خروج القاضى جلال الدين وأخذه مال ابن الكولمى فاخذ أيضا ما كان لشيخ الشيوخ وفر بنفسه مع ابن الكولمي الى السلطان فلما رآه السلطان قال له ممازحا مدى كزر (كه زر) برى باد كري (دلرباى) صنم خرى زر نيري وسر نهي معناه جئت لتحمل الذهب تأكله مع الصور الحسان فلا تحمل ذهبا ورأسك تخليه هاهنا قال له ذلك على معنى الانبساط ثم قال له اجمع خاطرك فها أنا سائر الى المخالفين وأعطيك اضعاف ما اخذوه لك وبلغني بعد الانفصال عن بلاد الهند انه وفى له بما وعده وأخلف له جميع ماضاع منه وانه وصل بذلك الى ديار مصر

— ذكر عطائه للواعظ الترمذي ناصر الدين —

وكان هذا الفقيه الواعظ قدم على السلطان وأقام تحت احسانه مدة عام ثم أحب الرجوع الى وطنه فاذن له فى ذلك ولم يكن سمع كلامه ووعظه فلما خرج السلطان يقصد بلاد المعبر أحب سماعه قبل انصرافه فامر أن يهيا له منبر من الصندل الابيض المقاصرى وجعلت مساميره وصفائحه من الذهب وألصق باعلاه حجر ياقوت عظيم وخلع على ناصر الدين خلعة عباسية سوداء مذهبة مرصعة بالجوهر وعمامة مثلها ونصب له المنبر بداخل السراجة وهي افراج وقعد السلطان على سريره والخواص عن يمينه ويساره وأخذ القضاة والفقهاء والامراء مجالسهم فخطب خطبة بليغة ووعظ وذكر ولم يكن فيما فعله طائل لكن سعادته ساعدته فلما نزل عن المنبر قام السلطان اليه وعانقه واركبه على فيل وأمر جميع من حضر أن يمشوا بين يديه وكنت فى جملتهم الى سراجة ضربت له مقابلة سراجة السلطان جميعها من الحرير الملون وصيوانها من الحرير وخباؤها أيضا كذلك فجلس وجلسنا معه وكان بجانب من السراجة أواني الذهب التى أعطاه السلطان إياها وذلك تنور كبير بحيث يسع فى جوفه الرجل القاعد وقدران اثنان وصحاف لا أذكر عددها وجملة كواز وركوة وتميسندة ومائدة لها أربعة أرجل ومحمل للكتب كل ذلك من ذهب خالص ورفع

عماد الدين السمناوي وتدين من أوتاد السراجة أحدهما نحاس والآخر مقصدر يوهم بذلك انهما من ذهب وفضة ولم يكونا الا كما ذكرنا وقد كان اعطاه حين قدومه مائة ألف دينار دراهم ومئين من العبيد سرح بعضهم وحمل بعضهم

— ذكر عطائه لعبد العزيز الاردويلي —

وكان عبد العزيز هذا فقيها محدثا قرأ بدمشق على تقي الدين بن تيمية وبرهان الدين بن البركح وجمال الدين المزي وشمس الدين الذهبي وغيرهم ثم قدم على السلطان فاحسن اليه واكرمه واتفق يوما انه سرد عليه أحاديث في فضل العباس وابنه رضى الله عنهما وشيئا من مآثر الخلفاء أولادهما فاعجب ذلك السلطان لحبه في بني العباس وقبل قدمي الفقيه وأمر أن يؤتي بصينية ذهب فيها الفا تنكه فصبها عليه بيده وقال هي لك مع الصينية وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم

— ذكر عطائه لشمس الدين الاندكاني —

وكان الفقيه شمس الدين الاندكاني حكيما شاعرا مطبوعا فمدح السلطان بقصيدة باللسان الفارسي وكان عدد أبياتها سبعة وعشرين بيتا فاعطاه لكل بيت منها الف دينار دراهم وهذا اعظم مما يحكي عن المتقدمين الذين كانوا يعطون على بيت شعر الف درهم وهو عشر عطاء السلطان

— ذكر عطائه لعضد الدين الشونكاري —

وكان عضد الدين فقيها اماما فاضلا كبير القدر عظيم الصيت شهير الذكر ببلاده فبلغت السلطان أخباره وسمع بمآثره فبعث اليه الى بلده شونكارة عشرة آلاف دينار دراهم ولم يره قط ولا وفد عليه

— ذكر عطائه للقاضي مجد الدين —

ولما بلغه ايضا خبر القاضي العالم الصالح ذي الكرامة الشهيرة مجد الدين قاضي شيراز الذي سطرنا أخباره في السفر الاول وسيمر بعض خبره بعد هذا أيضا بعث اليه الى مدينة شيراز صحبة الشيخ زاده الدمشقي عشرة آلاف دينار دراهم

— ذكر عطائه لبرهان الدين الصاغرجي —

وكان برهان الدين أحد الوعاظ الائمة كثير الايثار باذلا لما يملكه حتى أنه كثيرا ما ياخذ الديون ويؤثر على الناس فبلغ خبره الى السلطان فبعث اليه أربعين ألف دينار وطلب منه أن يصل الى حضرته فقبل الدنانير وقضي دينه منها وتوجه الى بلاد الخطا وأبي أن يصل اليه وقال لا أمضي الى سلطان يقف العلماء بين يديه

— ذكر عطائه لحاجي كاون وحكايته —

وكان حاجي كاون ابن عم السلطان أبي سعيد ملك العراق وكان أخوه موسى ملكا ببعض

بلاد العراق فوفد حاجي كاون على السلطان فاكرم مثواه وأعطاه العطاء الجزل ورأيته يوما وقد أتى الوزير خواجه جهان بهديته وكان منها ثلاث صينيات احداها مملوءة يواقيت والاخرى مملوءة زمردا والاخري مملوءة جواهر وكان حاجي كاون حاضرا فأعطاه من ذلك حظا جزيلا ثم انه أعطاه أيضا مالا عريضا ومضى يريد العراق فوجد أخاه قد توفى وولى مكانه سليمان خان فطلب ارث أخيه وادعى الملك وبايعه العساكر وقصد بلاد فارس ونزل بمدينة شونكارة التي بها الامام عضد الدين الذى تقدم ذكره آنفا فلما نزل بخارجها تأخر شيوخها عن الخروج اليه ساعة ثم خرجوا فقال لهم ما منعكم عن تعجيل الخروج الى مبايعتنا فاعتذروا له فلم يقبل منهم وقال لاهل سلاحه قلابج تخار (جقار) معناه جردوا السيوف فجردوها وضربوا أعناقهم وكانوا جماعة كبيرة فسمع من يجاور هذه المدينة من الامراء بما فعله فغضبوا لذلك وكتبوا الى شمس الدين السمناني وهو من الامراء الفقهاء الكبار فاعلموه بما جري على أهل شونكارة وطلبوا منه الاعانة على قتاله فتجرد في عساكره واجتمع أهل البلاد طالبين بثار من قتله حاجي كاون من المشايخ وضربوا على عسكره ليلا فهزموه وكان هو بقصر المدينة فأحاطوا به فاختفى في بيت الطهارة فعثروا عليه وقطعوا رأسه وبعثوا به الى سليمان خان وفرقوا اعضاءه على البلاد تشفيا منه

ذكر قدوم ابن الخليفة عليه واخباره

وكان الامير غياث الدين محمد بن عبد القاهر بن يوسف بن عبد العزيز بن الخليفة المستنصر بالله العباسي البغدادي قد وفد على السلطان علاء الدين طرمشيرين ملك ماوراء النهر فأكرمه وأعطاه الزاوية التي على قبر قثم بن العباس رضى الله عنهما واستوطن بها أعواما ثم لما سمع بمحبة السلطان في بني العباس وقيامه بدعوتهم أحب القدوم عليه وبعث له برسولين أحدهما صاحبه القديم محمد بن أبي الشرقى الحرباوى والثاني محمد الهمدانى الصوفى فقدما على السلطان وكان ناصر الدين الترمذى الذي تقدم ذكره قد لقي غياث الدين ببغداد وشهد له به البغداديون بصحة نسبه فشهد هو عند السلطان بذلك فلما وصل رسولاه الى السلطان أعطاهما خمسة آلاف دينار وبعث معهما ثلاثين ألف دينار الى غياث الدين ليتزود بها اليه وكتب له كتابا بخط يده يعظمه فيه ويسأل منه القدوم عليه فلما وصله الكتاب رحل اليه فلما وصل الى بلاد السند وكتب المخبرون بقدومه بعث السلطان من يستقبله على العادة ثم لما وصل الى سرستى بعث أيضا لاستقباله صدر الجهان قاضي القضاة كمال الدين الغزنوى وجماعة من الفقهاء ثم بعث الامراء لاستقباله فلما نزل

بمسعود آباد خارج الحضرة خرج السلطان بنفسه لاستقباله فلما التقيا ترجل غياث الدين فترجل له السلطان وخدم فخدم له السلطان وكان قد استصحب هدية في جملتها ثياب فأخذ السلطان أحد الاثواب وجعله على كتفه وخدم كما يفعل الناس معه ثم قدمت الخيل فاخذ السلطان أحدها بيده وقدمه له وحلف أن يركب وأمسك بركابه حتى ركب ثم ركب السلطان وسايره والشطر يظلهما معا وأخذ التنبول بيده وأعطاه اياه وهذا أعظم ما أكرمه به فانه لا يفعله مع أحد وقال له لولا اني بايعت الخليفة أبا العباس لبايعتك فقال له غياث الدين وأنا أيضا على تلك البيعة وقال له غياث الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحيا أرضا مواتا فهي له وأنت احييتنا فجاوبه السلطان بألطف جواب وأبره ولما وصلا الى السراجة المعدة لنزول السلطان انزله فيها وضرب للسلطان غيرها وباتا تلك الليلة بخارج الحضرة فلما كان بالغد دخلا الى دار الملك وانزله بالمدينة المعروفة بسيري وبدار الخلافة ايضا في القصر الذي بناه علاء الدين الخلجي وابنه قطب الدين وأمر السلطان جميع الامراء أن يمضوا معه اليه وأعد له فيه جميع ما يحتاج اليه من أواني الذهب والفضة حتى كان من جملتها مغتسل يغتسل فيه من ذهب وبعث له بأربعمائة ألف دينار لغسل رأسه على العادة وبعث له جملة من الفتيان والخدم والجواري وعين له عن نفقته في كل يوم ثلاثمائة دينار وبعث له زيادة اليها عدداً من الموائد بالطعام الخاص وأعطاه جميع مدينة سيري اقطاعا وجميع ما احتوت عليه من الدور وما يتصل بها من بساتين المخزن وأرضه واعطاه مائة قرية وأعطاه حكم البلاد الشرقية المضافة لدهلي واعطاه ثلاثين بغلة بالسروج المذهبة ويكون علفها من المخزن وأمره ان لا ينزل عن دابته اذا أتى دار السلطان الا في موضع خاص لا يدخله احد راكبا سوى السلطان وأمر الناس جميعا من كبير وصغير أن يخدموا له كما يخدمون للسلطان واذا دخل على السلطان ينزل له عن سريره وان كان على الكرسي قام قائما وخدم كل واحد منهما لصاحبه ويجلس مع السلطان على بساط واحد واذا قام قام السلطان لقيامه وخدم كل واحد منهما لصاحبه واذا انصرف الى خارج المجلس جعل له بساط يقعد عليه ما شاء ثم ينصرف يفعل هذا مرتين في اليوم

— حكاية من تعظيمه إياه —

وفي اثناء مقامه بدهلي قدم الوزير من بلاد بنجالة فأمر السلطان كبار الامراء ان يخرجوا الى استقباله ثم خرج بنفسه الى استقباله وعظمه تعظيما كثيراً وصنعت القباب بالمدينة كما تصنع للسلطان اذا قدم وخرج ابن الخليفة للقائه ايضا والفقهاء والقضاة والاعيان فلما

عادالسلطان لقصره قال للوزير امض الى دار المخدوم زاده وبذلك يدعوه ومعنى ذلك ابن المخدوم فسار الوزير اليه واهدى له الفى تنكة من الذهب وأثوابا كثيرة وحضر الامير قبولة وغيره من كبار الامراء وحضرت انا كذلك

— حكاية نحوها —

وفد على السلطان ملك غزنة المسمى ببهرام وكان بينه وبين ابن الخليفة عداوة قديمة فامر السلطان بانزاله ببعض دور مدينة سيري التي لابن الخليفة وأمر أن يبني له بها دار فبلغ ذلك ابن الخليفة فغضب منه ومضى الى دار السلطان فجلس على البساط الذي عادته الجلوس عليه وبعث الى الوزير فقال له سلم على خوندعالم وقل له ان جميع ما أعطانيه هو بمنزلي لم أتصرف في شيء منه بل زاد عندي ونما وأنا لا أقيم معكم وقام وانصرف فسأل الوزير بعض أصحابه عن سبب هذا فاعلمه ان سببه أمر السلطان ببناء الدار لملك غزنة في مدينة سيري فدخل الوزير على السلطان فاعلمه بذلك فركب من حينه في عشرة من ناسه وأتى منزل ابن الخليفة فاستاذن له ونزل عن فرسه خارج القصر حيث ينزل الناس فتلقاه واعتذر له فقبل عذره وقال له السلطان والله ما أعلم انك راض عني حتي تضع قدمك على عنقي فقال له هذا مالا أفعله ولو قتلت فقال له السلطان وحق رأسي لا بد لك من ذلك ثم وضع رأسه فى الارض وأخذ الملك الكبير قبولة رجل ابن الخليفة بيده فوضعها علي عنق السلطان ثم قام وقال الآن علمت انك راض علي وطاب قلبي وهذه حكاية غريبة لم يسمع بمثلها عن ملك ولقد حضرته يوم عيد وقد جاءه الملك الكبير بثلاث خلع من عند السلطان مفرجة قد جعل مكان عقد الحرير التي تعلق بها حبات جوهر قدر البندق الكبير وقام الملك الكبير ببابه حتي نزل من قصره فكساه اياها والذى أعطاه هو مالا يحصره العد ولا يحيط به الحد وابن الخليفة مع ذلك كله أبخل خلق الله تعالى وله في البخل أخبار عجيبة يعجب منها سامعها وكانه كان من البخل بمنزلة السلطان من الكرم ولنذكر بعض أخباره فى ذلك

— حكاية من بخل ابن الخليفة —

وكانت بيني وبينه مودة وكنت كثير التردد الى منزله وعنده تركت ولدا لى سميته أحمد لما سافرت ولا أدري ما فعل الله بهما فقلت له يوما لم تاكل وحدك ولا تجمع أصحابك على الطعام فقال لى لا أستطيع أن أنظر اليهم على كثرتهم وهم ياكلون طعامى فكان ياكل وحده ويعطي صاحبه محمد بن أبي الشرفى من الطعام لمن أحب ويتصرف فى باقيه وكنت أتردد اليه فاري دهليز قصره الذى يسكن به مظلما لا سراج به ورأيته مرارا يجمع الاعواد الصغار من الحطب بداخل بستانه وقد ملأ منها مخازن فكلمته فى ذلك فقال

في يحتاج اليها وكان يخدم أصحابه ومماليكه وفتيانه في خدمة البستان وبنائه ويقول لا أرضى أن يأكلوا طعامي وهم لا يخدمون وكان على مرة دين فطلبت به فقال لي في بعض الايام والله لقد هممت أن أؤدي عنك دينك فلم تسمح نفسي بذلك ولا ساعدتني عليه — حكاية — حدثني مرة قال خرجت عن بغداد وأنا رابع أربعة أحدهم محمد بن أبي الشرفي صاحبه ونحن على أقدامنا ولا زاد عندنا فنزلنا على عين ماء ببعض القرى فوجد أحدنا في العين درهما فقلنا وما نصنع بدرهم فاتفقنا على أن نشتري به خبزا فبعثنا أحدنا لشرائه فأبى الخباز بتلك القرية أن يبيع الخبز وحده وانما يبيع خبزا بقيراط وتبنا بقيراط فاشترى منه الخبز والتبن فطرحنا التبن اذ لا دابة لنا تأكله وقسمنا الخبز لقمة لقمة وقد انتهى حالي اليوم الى ما تراه فقلت له ينبغي لك أن تحمد الله على ما أولاك وتؤثر الفقراء والمساكين بالتصدق فقال لا أستطيع ذلك ولم أره قط يجود بشيء ولا يفعل معروفا ونعوذ بالله من الشح — حكاية — كنت يوما ببغداد بعد عودتي من بلاد الهند وأنا قاعد على باب المدرسة المستنصرية التي بناها جده أمير المؤمنين المستنصر رضي الله عنه فرأيت شابا ضعيف الحال يشتد خلف رجل خارج عن المدرسة فقال لي بعض الطلبة هذا الشاب الذي تراه هو ابن الامير محمد حفيد الخليفة المستنصر الذي ببلاد الهند فدعوته فقلت له اني قدمت من بلاد الهند واني أعرفك بخبر أبيك فقال قد جاءني خبره في هذه الايام ومضى يشتد خلف الرجل فسألت عن الرجل فقيل لي هو الناظر في الحبس وهذا الشاب هو امام ببعض المساجد وله على ذلك أجرة درهم واحد في اليوم وهو يطلب اجرته من الرجل فطال عجبي منه والله لو بعث اليه جوهرة من الجواهر التي في الخلع الواصلة اليه من السلطان لأغناه بها ونعوذ بالله من مثل هذه الحال

— ذكر ما أعطاه السلطان للامير سيف الدين غدا بن هبة الله بن مهنى أمير عرب الشام —

ولما قدم هذا الامير على السلطان أكرم مثواه وانزله بقصر السلطان جلال الدين داخل مدينة دهلي ويعرف بكشك لعل معناه القصر الاحمر وهو قصر عظيم فيه مشور كبير جدا ودهليز هائل على بابه قبة تشرف على هذا المشور وعلى المشور الثاني الذي يدخل منه الى القصر وكان السلطان جلال الدين يقعد بها وتلعب الكرة بين يديه في هذا المشور وقد دخلت هذا القصر عند نزوله به فرأيته مملوءا أثاثا وفرشا وبسطا وغيرها وذلك كله متمزق لا منتفع فيه فان عادتهم بالهند أن يتركوا قصر السلطان اذا مات بجميع ما فيه لا يتعرضون له ويبني المتولي بعده قصرا لنفسه ولما دخلته طفت به وصعدت الى أعلاه فكانت لي فيه عبرة نشأت عنها عبرة وكان معي الفقيه الطبيب الاديب جمال الدين المغربي الغرناطي الاصل البجائي

المولد مستوطن بلاد الهند قد مهامع أبيه وله بها أولاد فانشدني عندما عاينناه (خفيف)

وسلاطينهم سل الطين عنهم * فالرؤوس العظام صارت عظاما

وبهذا القصر كانت وليمة عرسه كما نذكره وكان السلطان شديد المحبة في العرب مؤثرا لهم معترفا بفضائلهم فلما وصله هذا الامير أجزل له العطاء وأحسن اليه احسانا عظيما واعطاه مرة وقد قدمت عليه هدية أعظم ملك البايزيدي من بلاد منكبور أحد عشر فرسا من عتاق الخيل وأعطاه مرة أخرى عشرة من الخيل مسرجة بالسروج المذهبة عليها اللجم المذهبة ثم زوجه بعد ذلك باخته فيروزخوندة

— ذكر تزويج الامير سيف الدين باخت السلطان —

ولما أمر السلطان بتزويج اخته للامير غداعين للقيام بشان الوليمة ونفقاتها الملك فتح الله المعروف بشونويس (بشين معجم مفتوح وواوين أولهما مسكن والآخر مكسور بينهما نون آخره سين مهمل) وعينني لملازمة الامير غدا والكون معه في تلك الايام فاتى الملك فتح الله بالصيوانات فظلل بها المشورين بالقصر الاحمر المذكور وضرب في كل واحد منهما قبة ضخمة جدا وفرش ذلك بالفرش الحسان وأتى شمس الدين التبريزى أمير المطربين ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والرواقص وكلهن مما ليك السلطان واحضر الطباخين والخبازين والشوائين والحلوانيين والشربدارية والتنبول داران وذبحت الانعام والطيور وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوما ويحضر الامراء الكبار والاعزة ليلا ونهارا فلما كان قبل ليلة الزفاف بليلتين جاء الخواتين من دار السلطان ليلا الى هذا القصر فزينه وفرشته باحسن الفرش واستحضر الامير سيف الدين وكان عربيا غريبا لا قرابة له فحففن به واجلسنه على مرتبة معينة له وكان السلطان قد أمر ان تكون ربيبته أم أخيه مبارك خان مقام أم الامير غدا وان تكون امرأة أخرى من الخواتين مقام أخته وأخرى مقام عمته وأخرى مقام خالته حتى يكون كانه بين أهله ولما أجلسنه على المرتبة جعلن له الحناء في يديه ورجليه وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن وانصرفن الى قصر الزفاف وأقام هو مع خواص أصحابه وعين السلطان جماعة من الامراء يكونون من جهته وجماعة يكونون من جهة الزوجة وعادتهم ان تقف الجماعة التي من جهة الزوجة على باب الموضع الذى تكون به جلوتها على زوجها ويأتى الزوج بجماعته فلا يدخلون إلا ان غلبوا أصحاب الزوجة أو يعطونهم الآلاف من الدنانير ان لم يقدروا عليهم ولما كان بعد المغرب أتي اليه بخلعة حرير زرقاء مزركشة مرصعة قد غلبت الجواهر عليها فلا يظهر لونها مما عليها من الجوهر وبشاشية مثل

ذلك ولم أر قط خلعة اجمل من هذه الخلعة وقد رأيت ما خلعه السلطان على سائر اصهاره مثل ابن ملك الملوك عماد الدين السمناني وابن ملك العلماء وابن شيخ الاسلام وابن صدر جهان البخاري فلم يكن فيها مثل هذه ثم ركب الامير سيف الدين في اصحابه وعبيده وفي يد كل واحد منهم عصى قد اعدها وصنعوا شبه اكليل من الياسمين والنسرين وريبول وله رفرف يغطي وجه المتكلل به وصدره واتوا به الامير ليجعله على رأسه فابى من ذلك وكان من عرب البادية لاعهد له بامور الملك والحضر فحاولته وحلفت عليه حتي جعله على رأسه واتي باب الصرف ويسمونه باب الحرم وعليه جماعة الزوجة فحمل عليهم باصحابه حملة عربية وصرعوا كل من عارضهم فغلبوا عليهم ولم يكن لجماعة الزوجة من ثبات وبلغ ذلك السلطان فاعجبه فعله ودخل الى المشور وقد جعلت العروس فوق منبر عال مزين بالديباج مرصع بالجوهر والمشور ملآن بالنساء والمطربات قد أحضرن أنواع الآلات المطربة وكلهن وقوف على قدم إجلالا له وتعظيما فدخل بفرسه حتي قرب من المنبر فنزل وخدم عند أول درجة منه وقامت العروس قائمة حتي صعد فاعطته التنبول بيدها فاخذه وجلس تحت الدرجة التي وقفت بها ونثرت دنانير الذهب على رؤوس الحاضرين من أصحابه ولقطتها النساء والمغنيات يغنين حينئذ والاطبال والابواق والانفار تضرب خارج الباب ثم قام الامير وأخذ بيد زوجته ونزل وهي تتبعه فركب فرسه يطا به الفرش والبسط ونثرت الدنانير عليه وعلي أصحابه وجعلت العروس في محفة وحملها العبيد على أعناقهم الى قصره والخواتين بين يديها راكبات وغيرهن من النساء ماشيات واذا مروا بدار أمير أو كبير خرج اليهم ونثر عليهم الدنانير والدراهم على قدر همته حتي أوصلوها الى قصره ولما كان بالغد بعثت العروس الى جميع اصحاب زوجها الثياب والدنانير والدراهم واعطي السلطان لكل واحد منهم فرسا مسرجا ملجما وبدرة دراهم من الف دينار الى مائتي دينار واعطي الملك فتح الله للخواتين ثياب الحرير المنوعة والبدر وكذلك لاهل الطرب وعادتهم ببلاد الهند أن لا يعطي أحد شيئا لاهل الطرب انما يعطيهم صاحب العرس واطعم الناس جميعا ذلك اليوم وانقضي العرس وأمر السلطان أن يعطى للامير غدا بلاد المالوة والجزات وكنباية ونهروالة وجعل فتح الله المذكور نائباً عنه عليها وعظمه تعظيما شديدا وكان عربيا جافياً فلم يقدر قدر ذلك وغلب عليه جفاء البادية فاداه ذلك الى النكبة بعد عشرين ليلة من زفافه

ــــ ذكر سجن الامير غدا ــــ

ولما كان بعد عشرين يوما من زفافه اتفق انه وصل الى دار السلطان فاراد الدخول فمنعه

أميرالبرد (البرده) دارية وهم الخواص من البوابين فلم يسمع منه وأراد التقحم فامسك البواب بد بوقته وهي الضفيرة ورده فضربه الامير بعصى كانت هنالك حتى أدماه وكان هذا المضروب من كبار الامراء يعرف أبوه بقاضي غزنة وهو من ذرية السلطان محمود بن سبكتكين والسلطان يخاطبه بالادب ويخاطب ابنه هذا بالاخ فدخل على السلطان والدم على ثيابه فاخبره بما صنع الامير غدا ففكر السلطان هنيهة ثم قال له القاضي يفصل بينكما وتلك جريمة لا يغفرها السلطان لاحد من ناسه ولا بد من الموت عليها وانما احتمله لغربته وكان القاضي كمال الدين بالمشور فامر السلطان الملك تتر أن يقف معهما عند القاضي وكان تتر حاجا مجاورا يحسن العربية فحضر معهما وقال للامير انت ضربته او قل لا لقصد أن يعلمه الحجة وكان سيف الدين جاهلا مغترا فقال نعم انا ضربته واتى والد المضروب فرام الاصلاح بينهما فلم يقبل سيف الدين فامر القاضي بسجنه تلك الليلة فوالله ما بعثت له زوجته فراشا ينام عليه ولا سالت عنه خوفا من السلطان وخاف اصحابه فودعوا أموالهم واردت زيارته بالسجن فلقيني بعض الامراء وفهم عني اني أريد زيارته فقال لي او نسيت وذكرني بقضية اتفقت لي في زيارة الشيخ شهاب الدين بن شيخ الجام وكيف أراد السلطان قتلي على ذلك حسبما يقع ذكره فرجعت ولم ازره وتخلص الامير غدا عند الظهر من سجنه فاظهر السلطان اهماله وأضرب عما كان أمر له بولايته وأراد نفيه وكان للسلطان صهر يسمى بمغيث بن ملك الملوك وكانت اخت السلطان تشكوه لاخيها الى ان ماتت فذكر جواريها انها ماتت بسبب قهره لها وكان في نسبه مغمز فكتب السلطان بخطه يجلى اللقيط يعنيه ثم كتب ويجلى موش خوار معناه آكل الفيران يعني بذلك الامير غدا لان عرب البادية ياكلون اليربوع وهو شبه الفار وأمر باخراجهما فجاءه النقباء ليخرجوه فاراد دخول داره ووداع اهله فترادف النقباء في طلبه فخرج باكيا وتوجهت حين ذلك الى دار السلطان فبت بها فسالني عن مبيتي بعض الامراء فقلت له جئت لاتكلم في الامير سيف الدين حتى يرد ولا ينفى فقال لا يكون ذلك فقلت له والله لا بيتن بدار السلطان ولو بلغ مبيتي مائة ليلة حتى يرد فبلغ ذلك السلطان فامر برده وامره ان يكون في خدمة الامير ملك قبولة اللاهوري فاقام أربعة اعوام في خدمته يركب لركوبه ويسافر لسفره حتى تادب وتهذب ثم أعاده السلطان الى ما كان عليه اولا واقطعه البلاد وقدمه على العساكر ورفع قدره

﴿ ذكر تزويج السلطان بنت وزيره لابن خداوندزاده قوام الدين الذي قدم معنا عليه ﴾

ولما قدم خداوندزاده أعطاه السلطان عطاء جزلا واحسن اليه احسانا عظيما وبالغ في

اكرامه ثم زوج ولديه في بنتي الوزير خواجه جهان وكان الوزير اذذاك غائبا فاتي السلطان الي داره ليلا وحضر عقد النكاح كانه نائب عن الوزير ووقف حتي قرأ قاضي القضاة الصداق والقضاة والامراء والمشايخ قعود واخذ السلطان بيده الاثواب والبدر فجعلها بين يدي القاضي وولدي خداوندزاده وقام الامراء وابوا ان يجعل السلطان ذلك بين ايديهم بنفسه فامرهم بالجلوس وامر بعض كبار الامراء ان يقوم مقامه وانصرف

— حكاية في تواضع السلطان وانصافه —

ادعى عليه رجل من كبار الهنود انه قتل اخاه من غير موجب ودعاه الى القاضي فمضى على قدميه ولا سلاح معه الى مجلس القاضي فسلم وخدم وكان قد امر القاضي قبل ذلك انه اذا جاءه الى مجلسه فلا يقوم له ولا يتحرك فصعد الى المجلس ووقف بين يدي القاضي فحكم عليه ان يرضي خصمه من دم أخيه فارضاه — حكاية مثلها —

وادعى على السلطان مرة رجل من المسلمين انه له قبله حقا ماليا فتخاصما في ذلك عند القاضي فتوجه الحكم على السلطان باعطاء المال فاعطاه — حكاية مثلها —

وادعى عليه صبي من أبناء الملوك انه ضربه من غير موجب ورفعه الي القاضي فتوجه الحكم عليه أن يرضيه بالمال ان قبل ذلك والا امكنه من القصاص فشاهدته يومئذ وقد عاد لمجلسه واستحضر الصبي وأعطاه عصا وقال له وحق رأسي لتضربني كما ضربتك فاخذ الصبي العصا وضربه بها احدي وعشرين ضربة حتى رأيت الكلاه (الكلاه) قد طارت عن رأسه — ذكر اشتداده في اقامة الصلاة —

وكان السلطان شديدا في اقامة الصلاة آمرا بملازمتها في الجماعات يعاقب على تركها أشد العقاب ولقد قتل في يوم واحد تسعة نفر على تركها كان أحدهم مغنيا وكان يبعث الرجال الموكلين بذلك الى الاسواق فمن وجد بها عند اقامة الصلاة عوقب حتى انتهي الى عقاب الستائريين الذين يمسكون دواب الخدام علي باب المشور اذا ضيعوا الصلاة وأمر ان يطلب الناس بعلم فرائض الوضوء والصلاة وشروط الاسلام فكانوا يسالون عن ذلك فمن لم يحسنه عوقب وصار الناس يتدارسون ذلك بالمشور والاسواق ويكتبونه

— ذكر اشتداده في اقامة أحكام الشرع —

وكان شديدا في أقامة الشرع ومما فعل في ذلك ان أمر اخاه مبارك خان أن يكون قعوده بالمشور مع قاضي القضاة كمال الدين في قبة مرتفعة هنالك مفروشة بالبسط وللقاضي بها مرتبة تحف بها المخاد كمرتبة السلطان ويقعد اخو السلطان عن يمينه فمن كان عليه حق من

كبارالامراء وامتنع من اداائه لصاحبه يحضره رجال أخي السلطان عند القاضي لينصف منه

— ذكر رفعه للمغارم والمظالم وقعوده لانصاف المظلومين —

ولما كان في سنة احدي وأربعين أمر السلطان برفع المكوس عن بلاده وأن لا يؤخذ من الناس الا الزكاة والعشر خاصة وصار يجلس بنفسه للنظر في المظالم في كل يوم اثنين وخميس برحبة امام المشور ولا يقف بين يديه في ذلك اليوم الا أمير حاجب وخاص حاجب وسيد الحجاب وشرف الحجاب لا غير ولا يمنع أحد ممن أراد الشكوى من الوقوف بين يديه وعين أربعة من كبار الامراء يجلسون في الابواب الاربعة من المشور لاخذ القصص من المشتكين والرابع منهم هو ابن عمه ملك فيروز فان أخذ صاحب الباب الاول الرفع من الشاكي فحسن والا أخذه الثاني أو الثالث أو الرابع وان لم يأخذوه منه مضى به الى صدر الجهان قاضي المماليك فان أخذه منه والا شكى الى السلطان فان صح عنده أنه مضى به الى أحد منهم فلم يأخذه منه ادبه وكل ما يجتمع من القصص في سائر الايام يطالع به السلطان بعد العشاء الآخرة

— ذكر اطعامه في الغلاء —

ولما استولى القحط على بلاد الهند والسند واشتد الغلاء حتي بلغ من القمح الي ستة دنانير أمر السلطان أن يعطى لجميع أهل دهلي نفقة ستة أشهر من المخزن بحساب رطل ونصف من ارطال المغرب لكل انسان في اليوم صغير أو كبير حر أو عبد وخرج الفقهاء والقضاة يكتبون الازمة باهل الحارات ويحضرون الناس ويعطى لكل واحد عولة ستة أشهر يقتات بها

— ذكر فتكات هذا السلطان وما نقم من افعاله —

وكان على ما قدمنا من تواضعه وانصافه ورفقه بالمساكين وكرمه الخارق للعادة كثير التجاسر على اراقة الدماء لا يخلو بابه عن مقتول الا في النادر وكنت كثيرا ما أرى الناس يقتلون على بابه ويطرحون هنالك ولقد جئت يوما فنفر بي الفرس ونظرت الى قطعة بيضاء في الارض فقلت ما هذه فقال بعض أصحابي هي صدر رجل قطع ثلاث قطع وكان يعاقب على الصغيرة والكبيرة ولا يحترم أحدا من أهل العلم والصلاح والشرف وفي كل يوم يرد على المشور من المسلسلين والمغلولين والمقيدين مؤون فمن كان للقتل قتل أو للعذاب عذب أو للضرب ضرب وعادته أن يؤتى كل يوم بجميع من في سجنه من الناس الى المشور ماعدا يوم الجمعة فانهم لا يخرجون فيه وهو يوم راحتهم يتنظفون فيه ويستريحون أعاذنا الله من البلاء

— ذكر قتله لاخيه —

وكان له أخ اسمه مسعود خان وأمه بنت السلطان علاء الدين وكان من أجمل صورة رأيتها

في الدنيا فاتهمه بالقيام عليه وساله عن ذلك فاقر خوفا من العذاب فانه من أنكر ما يدعيه عليه السلطان من مثل ذلك يعذب فيرى الناس ان القتل أهون عليهم من العذاب فامر به فضربت عنقه في وسط السوق وبقي مطروحا هنالك ثلاثة أيام على عادتهم وكانت أم هذا المقتول قد رجمت في ذلك الموضع قبل ذلك بسنتين لاعترافها بالزنا فرجمها القاضي كمال الدين

— ذكر قتله لثلاثمائة وخمسين رجلا في ساعة واحدة —

وكان مرة عين حصة من العسكر تتوجه مع الملك يوسف بغرة الى قتال الكفار ببعض الجبال المتصلة بحوز دهلي فخرج يوسف وخرج معه معظم العسكر وتخلف قوم منهم فكتب يوسف الى السلطان يعلمه بذلك فامر أن يطاف بالمدينة ويقبض على من وجد من أولائك المتخلفين ففعل ذلك وقبض على ثلاثمائة وخمسين منهم فامر بقتلهم أجمعين فقتلوا

— ذكر تعذيبه للشيخ شهاب الدين وقتله —

وكان الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام الخراساني الذي تنسب مدينة الجام بخراسان الى جده حسبما قصصنا ذلك من كبار المشايخ الصلحاء الفضلاء وكان يواصل أربعة عشر يوما وكان السلطانان قطب الدين وتغلق يعظمانه ويزورانه ويتبركان به فلما ولي السلطان محمد أراد أن يخدم الشيخ في بعض خدمته فان عادته أن يخدم الفقهاء والمشايخ والصلحاء محتجا ان الصدر الاول رضي الله عنهم لم يكونوا يستعملون إلا أهل العلم والصلاح فامتنع الشيخ شهاب الدين من الخدمة وشافهه السلطان بذلك في مجلسه العام فاظهر الاباية والامتناع فغضب السلطان من ذلك وأمر الشيخ الفقيه المعظم ضياء الدين السمناني أن ينتف لحيته فابى ضياء الدين من ذلك وقال لا أفعل هذا فامر السلطان بنتف لحية كل واحد منهما فنتفت ونفى ضياء الدين الى بلاد التلنك ثم ولاه بعد مدة قضاء ورنكل فمات بها ونفى شهاب الدين الى دولة آباد فاقام بها سبعة أعوام ثم بعث عنه فاكرمه وعظمه وجعله على ديوان المستخرج وهو ديوان بقايا العمال يستخرجها منهم بالضرب والتنكيل ثم زاد في تعظيمه وأمر الامراء أن ياتوا للسلام عليه ويمتثلوا أقواله ولم يكن أحد في دار السلطان فوقه ولما انتقل السلطان الى السكنى على نهر الكنك وبنى هنالك القصر المعروف بسرك دوار معناه شبه الجنة وأمر الناس بالبناء هنالك طلب منه الشيخ شهاب الدين أن ياذن له في الاقامة بالحضرة فاذن له الى أرض موات على مسافة ستة أميال من دهلي فحفر بها كهفا كبيرا صنع في جوفه البيوت والمخازن والفرن والحمام وجلب الماء من نهر جون وعمر تلك الارض وجمع مالا كثيرا من مستغلها لانها كانت السنون قاحطة وأقام هنالك عامين ونصف عام مدة مغيب السلطان وكان عبيده يخدمون تلك

الارض نهارا ويدخلون الغار ليلا ويستدونه على انفسهم وانعامهم خوف سراق الكفار لانهم فى جبل منيع هنالك ولما عاد السلطان الى حضرته استقبله الشيخ ولقيه على سبعة أميال منها فعظمه السلطان وعانقه عند لقائه وعاد الى غاره ثم بعث عنه بعد ايام فامتنع من اتيانه فبعث اليه مخلص الملك النذربارى وكان من كبراء الملوك فتلطف له فى القول وحذره بطش السلطان فقال له لا أخدم ظالما ابدا فعاد مخلص الملك الى السلطان فاخبره بذلك فامر ان ياتى به فاتي به فقال له انت القائل انى ظالم فقال نعم انت ظالم ومن ظلمك كذا وكذا وعدد أمورا منها تخريبه لمدينة دهلى واخراجه اهلها فاخذ السلطان سيفه ودفعه لصدر الجهان وقال يثبت هذا انى ظالم واقطع عنقى بهذا السيف فقال له شهاب الدين ومن يريد ان يشهد بذلك فيقتل ولكن انت تعرف ظلم نفسك وامر بتسليمه للملك نكبية رأس الدويدارية فقيده باربعة قيود وغل يديه وأقام كذلك اربعة عشر يوما مواصلا لا ياكل ولا يشرب وفى كل يوم منها يؤتى به الى المشور ويجمع الفقهاء والمشايخ ويقولون له ارجع عن قولك فيقول لا أرجع عنه واريد ان اكون فى زمرة الشهداء فلما كان اليوم الرابع عشر بعث اليه السلطان بطعام مع مخلص الملك فابى ان ياكل وقال قد رفع رزقى من الارض ارجع بطعامك اليه فلما اخبر بذلك السلطان امر عند ذلك ان يطعم الشيخ خمسة استار (اساتير) من العذرة وهى رطلان ونصف من ارطال المغرب فاخذ ذلك الموكلون بمثل هذه الامور وهم طائفة من كفار الهنود فمدوه على ظهر وفتحوا فمه بالكلبتين وحلوا العذرة بالماء وسقوه ذلك وفى اليوم بعده اتى به الى دار القاضى صدر الجهان وجمع الفقهاء والمشايخ ووجوه الاعزة فوعظوه وطلبوا منه ان يرجع عن قوله فابى ذلك فضربت عنقه رحمه الله تعالى

— ذكر قتله للفقيه المدرسى عفيف الدين الكاسانى وفقيهين معه —

وكان السلطان فى سنى القحط قد أمر بحفر آبار خارج دار الملك وان يزرع هنالك زرع وأعطى الناس البذر وما يلزم على الزراعة من النفقة وكلفهم زرع ذلك للمخزن فبلغ ذلك الفقيه عفيف الدين فقال هذا الزرع لا يحصل المراد منه فوشي به الى السلطان فسجنه وقال له لاى شيء تدخل نفسك فى أمور الملك ثم انه سرحه بعد مدة فذهب الى داره ولقيه فى طريقه اليها صاحبان له من الفقهاء فقالا له الحمد لله على خلاصك فقال الفقيه الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين وتفرقوا فلم يصلوا الى دورهم حتى بلغ ذلك السلطان فامر بهم فاحضر ثلاثتهم بين يديه فقال اذهبوا بهذا يعنى عفيف الدين فاضربوا عنقه حمائل وهو

ان يقطع الرأس مع الذراع وبعض الصدر واضربوا أعناق الآخرين فقال له أما هو فيستحق العقاب بقوله وأما نحن فباى جريمة تقتلنا فقال لها انكما سمعتما كلامه فلم تنكراه فكانكما وافقتما عليه فقتلوا جميعا رحمهم الله تعالى

— ذكر قتله أيضا لفقيهين من أهل السند كانا في خدمته —

وأمر السلطان هذين الفقيهين السنديين ان يمضيا مع أمير عينه الى بعض البلاد وقال لهما انما سلمت أحوال البلاد والرعية لكما ويكون هذا الامير معكما يتصرف بما تامرانه به فقالا له انما نكون كالشاهدين عليه ونبين له وجه الحق ليتبعه فقال لهما انما قصدكما أن تاكلا أموالى وتضيعاها وتنسبا ذلك الى هذا التركى الذي لا معرفة له فقالا له حاشا الله يا خوند عالم ماقصدنا هذا فقال لهما لم تقصدا غير هذا اذهبوا بهما الى الشيخ زاده النهاوندى وهو الموكل بالعذاب فذهب بهما اليه فقال لهما السلطان يريد قتلكما فاقرا بما قولكما اياه ولا تعذبا أنفسكما فقالا والله ماقصدنا الا ماذكرنا فقال لزبانيته ذوقهما بعض شيء يعني من العذاب فبطحا على أقفائهما وجعل على صدر كل واحد منهما صفيحة حديد محماة ثم قلعت بعد هنيهة فذهب بلحم صدورهما ثم اخذ البول والرماد فجعل على تلك الجراحات فاقرا على أنفسهما انهما لم يقصدا الا ماقاله السلطان وانهما مجرمان مستحقان للقتل فلا حق لهما ولا دعوى في دمائهما دنيا ولا أخرى وكتبا خطهما بذلك واعترفا به عند القاضي فسجل على العقد وكتب فيه ان اعترافهما كان عن غير اكراه ولا اجبار ولو قالا اكرهنا لعذبا اشد العذاب ورأيا ان تعجيل ضرب العنق خير لهما من الموت بالعذاب الاليم فقتلا رحمهما الله تعالى

— ذكر قتله للشيخ هود —

وكان الشيخ زاده المسمى بهود حفيد الشيخ الصالح الولى ركن الدين بن بهاء الدين بن أبي زكرياء الملتاني وجده الشيخ ركن الدين معظما عند السلطان وكذلك أخوه عماد الدين الذى كان شبيها بالسلطان وقتل قوم وقيعة كشلوخان وسنذكره ولما قتل عماد الدين اعطى السلطان لاخيه ركن الدين مائة قرية ليأكل منها ويطعم الصادر والوارد بزاويته فتوفى الشيخ ركن الدين واوصى بمكانه من الزاوية لحفيده الشيخ هود ونازعه في ذلك ابن اخي الشيخ ركن الدين وقال أنا أحق بميراث عمى فقدما على السلطان وهو بدولة آباد وبينها وبين ملتان ثمانون يوما فاعطى السلطان المشيخة لهود حسبما اوصى له الشيخ وكان كهلا وكان ابن اخى الشيخ فتى واكرامه السلطان وامر بتضييفه في كل منزل يحله وان يخرج الى لقائه اهل كل بلد يمر به الى ملتان وتصنع له فيه دعوة فلما وصل الامر للحضرة خرج الفقهاء والقضاة والمشايخ

والاعيان للقائه وكنت فيمن خرج اليه فتلقيناه وهو راكب في دولة يحملها الرجال وخيله مجنوبة فسلمنا عليه وانكرت انا ما كان من فعله في ركوبه الدولة وقلت انما كان ينبغي له ان يركب الفرس ويساير من خرج للقائه من القضاة والمشايخ فبلغه كلامي فركب الفرس واعتذر بان فعله اولا كان بسبب الم منعه من ركوب الفرس ودخل الحضرة وصنعت له بها دعوة انفق فيها من مال السلطان عدد كثير وحضر القضاة والمشايخ والفقهاء والاعزة ومد السماط واتوا بالطعام على العادة ثم أعطيت الدراهم لكل من حضر على قدر استحقاقه فاعطى قاضي القضاة خمسمائة دينار وأعطيت انا مائتين وخمسين دينارا وهذه عادة لهم في الدعوة السلطانية ثم انصرف الشيخ هود الى بلده ومعه الشيخ نور الدين الشيرازي بعثه السلطان ليجلسه على سجادة جده بزاويته ويصنع له الدعوة من مال السلطان هنالك واستقر بزاويته وأقام بها أعواما ثم ان عماد الملك أمير بلاد السند كتب الى السلطان يذكر ان الشيخ وقرابته يشتغلون بجمع الاموال وانفاقها في الشهوات ولا يطعمون أحدا بالزاوية فنفذ الامر بمطالبتهم بالاموال فطلبهم عماد الملك بها وسجن بعضهم وضرب بعضا وصار ياخذ منهم كل يوم عشرين ألف دينار مدة أيام حتى استخلص ما كان عندهم ووجد لهم كثير من الاموال والذخائر من جملتها نعلان مرصعان بالجوهر والياقوت بيعا بسبعة آلاف دينار قيل انهما كانا لبنت الشيخ هود وقيل لسرية له فلما اشتد الحال على الشيخ هرب يريد بلاد الاتراك فقبض عليه وكتب عماد الملك بذلك الى السلطان فامره أن يبعثه ويبعث الذي قبض عليه كلاهما في حكم الثقاف فلما وصلا اليه سرح الذي قبض عليه وقال للشيخ هود أين أردت ان تفر فاعتذر بعذر فقال له السلطان انما أردت ان تذهب الى الاتراك فتقول انا ابن الشيخ بهاء الدين زكرياء وقد فعل السلطان معي كذا وتاتي بهم لقتالنا اضربوا عنقه فضربت عنقه رحمه الله تعالى — ذكر سجنه لابن تاج العارفين وقتله لاولاده —

وكان الشيخ الصالح شمس الدين ابن تاج العارفين ساكنا بمدينة كول منقطعا للعبادة كبير القدر ودخل السلطان الى مدينة كول فبعث عنه فلم ياته فذهب السلطان اليه ثم لما قارب منزله انصرف ولم يره واتفق بعد ذلك أن أميرا من الامراء خالف على السلطان ببعض الجهات وبايعه الناس فنقل للسلطان انه وقع ذكر هذا الامير بمجلس الشيخ شمس الدين فاثنى عليه وقال انه يصلح للملك فبعث السلطان بعض الامراء الى الشيخ فقيده وقيد أولاده وقيد قاضي كول ومحتسبها لانه ذكر انهما كانا حاضرين للمجلس الذي وقع فيه ثناء الشيخ على الامير المخالف وأمر بهم فسجنوا جميعا بعد ان سمل عيني القاضي وعيني

المحتسب ومات الشيخ بالسجن وكان القاضي والمحتسب يخرجان مع بعض السجانين فيسألان الناس ثم يردان الى السجن وكان قد بلغ السلطان ان اولاد الشيخ كانوا يخالطون كفار الهنود وعصاتهم ويصحبونهم فلما مات أبوهم أخرجهم من السجن وقال لهم لا تعودوا الى ما كنتم تفعلون فقالوا واله وما فعلنا فاغتاظ من ذلك وأمر بقتلهم جميعا فقتلوا ثم استحضر القاضي المذكور فقال أخبرني بمن كان يرى رأى هؤلاء الذين قتلوا ويفعل مثل أفعالهم فاملى أسماء رجال كثيرين من كفار البلد فلما عرض ما أملاه على السلطان قال هذا يحب أن يخرب البلد اضربوا عنقه فضربت عنقه رحمه الله تعالى

— ذكر قتله للشيخ الحيدرى —

وكان الشيخ على الحيدرى ساكنا بمدينة كنباية من ساحل الهند وهو عظيم القدر شهير الذكر بعيد الصيت ينذر له التجار بالبحر النذور الكثيرة واذا قدموا بدؤا بالسلام عليه وكان يكاشف باحوالهم وربما نذر أحدهم النذر وندم عليه فاذا أتى الشيخ للسلام عليه أعلمه بما نذر له وأمر بالوفاء به واتفق له ذلك مرات واشتهر به فلما خالف القاضى جلال الافغاني وقبيلته بتلك الجهات بلغ السلطان ان الشيخ الحيدري دعا للقاضى جلال الدين واعطاه شاشيته من رأسه وذكر أيضا انه بايعه فلما خرج السلطان اليهم بنفسه وانهزم القاضى جلال خلف السلطان شرف الملك أمير بخت احد الوافدين معنا عليه بكنباية وامره بالبحث عن أهل الخلاف وجعل معه فقهاء يحكم بقولهم فاحضر الشيخ على الحيدرى بين يديه وثبت انه اعطى للقائم شاشيته ودعا له فحكموا بقتله فلما ضربه السياف لم يفعل شيئا وعجب الناس لذلك وظنوا أنه يعفى عنه بسبب ذلك فامر سيافا آخر بضرب عنقه فضربها رحمه الله تعالى

— ذكر قتله لطوغان وأخيه —

وكان طوغان الفرغاني وأخوه من كبار أهل مدينة فرغانة فوفدا على السلطان فاحسن اليهما وأعطاهما عطاء جزيلا وأقاما عنده مدة فلما طال مقامهما أرادا الرجوع الى بلادهما وحاولا الفرار فوشى بهما احد اصحابهما الى السلطان فامر بتوسيطهما فوسطا واعطى للذي وشى بهما جميع مالهما وكذلك عادتهم بتلك البلاد اذا وشى احد باحد وثبت ماوشى به فقتل اعطي ماله

— ذكر قتله لابن ملك التجار —

وكان ابن ملك التجار شابا صغير الانبات بعارضيه فلما وقع خلاف عين الملك وقيامه وقتاله للسلطان كما سنذكره غلب على ابن ملك التجار هذا فكان فى جملته مقهورا فلما هزم عين الملك وقبض عليه وعلى أصحابه كان من جملتهم ابن ملك التجار وصهره ابن قطب الملك فامر

بهما فعلقا من أيديهما في خشب وأمر أبناء الملوك فرموهما بالنشاب حتى ماتا ولما ماتا قال الحاجب خواجه أمير على التبريزى لقاضي القضاة كمال الدين ذلك الشاب لم يجب عليه القتل فبلغ ذلك السلطان فقال هلا قلت هذا قبل موته وأمر به فضرب مائتي مقرعة أو نحوها وسجن وأعطي جميع ماله لامير السيافين فرأيته في ثاني ذلك اليوم قد لبس ثيابه وجعل قلنسوته على رأسه وركب فرسه فظننت انه هو وأقام بالسجن شهورا ثم سرحه ورده الى ما كان عليه ثم غضب عليه ثانية ونفاه الى خراسان فاستقر بهراة وكتب اليه يستعطفه فوقع له على ظهر كتابه اكربار آمدى باز (أى) معناه ان كنت تبت فارجع فرجع اليه

— ذكر ضربه لخطيب الخطباء حتى مات —

وكان قد ولى خطيب الخطباء بدهلى النظر في خزانة الجواهر في السفر فاتفق ان جاء سراق الكفار ليلا فضربوا على تلك الخزانة وذهبوا بشيء منها فامر بضرب الخطيب حتى مات رحمة الله تعالى

— ذكر تخريبه لدهلى ونفى أهلها وقتل الاعمي والمقعد —

ومن أعظم ما كان ينقم على السلطان اجلاؤه لاهل دهلى عنها وسبب ذلك انهم كانوا يكتبون بطائق فيها شتمه وسبه ويختمون عليها ويكتبون عليها وحق رأس خوند عالم مايقرؤها غيره ويرمونها بالمشور ليلا فاذا فضها وجد فيها شتمه وسبه فعزم على تخريب دهلى واشترى من أهلها جميعا دورهم ومنازلهم ودفع لهم ثمنها وأمرهم بالانتقال عنها الى دولة آباد فابوا ذلك فنادى مناديه ان لا يبقي بها أحد بعد ثلاث فانتقل معظمهم واختفى بعضهم في الدور فامر بالبحث عمن بقي بها فوجد عبيده بازقتها رجلين أحدهما مقعد والآخر اعمي فاتوا بهما فامر بالمقعد فرمى به في المنجنيق وأمر أن يجر الاعمى من دهلى الى دولة آباد مسيرة أربعين يوما فتمزق في الطريق ووصل منه رجله ولما فعل ذلك خرج أهلها جميعا وتركوا أثقالهم وامتعتهم وبقيت المدينة خاوية على عروشها فحدثنى من اثق به قال صعد السلطان ليله الى سطح قصره فنظر الى دهلى وليس بها نار ولا دخان ولا سراج فقال الآن طاب قلبي وتهدن خاطرى ثم كتب الى أهل البلاد أن ينتقلوا الى دهلى ليعمروها فخربت بلادهم ولم تعمر دهلى لاتساعها وضخامتها وهى من أعظم مدن الدنيا وكذلك وجدناها لما دخلنا اليها خالية ليس بها الا قليل عمارة وقد ذكرنا كثيرا من مآثر هذا السلطان ومما نقم عليه أيضا فلنذكر جملا من الوقائع والحوادث الكائنة في أيامه

— ذكر ما افتتح به أمره أول ولايته من منه على بهادور بوره —

ولما ولى السلطان الملك بعد أبيه وبايعه الناس أحضر السلطان غياث الدين بهادور بوره

الذى كان أسره السلطان تغلق فمن عليه وفك قيوده وأجزله العطاء من الاموال والخيل والفيلة وصرفه الى مملكته وبعث معه ابن أخيه ابراهيم خان وعاهده على ان تكون تلك المملكة مشاطرة بينهما وتكتب أسماؤهما معا فى السكة ويخطب لهما وعلى أن يصرف غياث الدين ابنه محمد المعروف ببرباط يكون رهينة عند السلطان فانصرف غياث الدين الى مملكته والتزم ماشرط عليه الا انه لم يبعث ابنه وادعى انه امتنع وأساء الادب فى كلامه فبعث السلطان العساكر الى ابن أخيه ابراهيم خان وأميرهم دلجلى التترى فقاتلوا غياث الدين فقتلوه وسلخوا جلده وحشي بالتبن وطيف به علي البلاد

— ذكر ثورة ابن عمته وما اتصل بذلك —

وكان للسلطان تغلق ابن أخت يسمي بهاء الدين كشت اسب (بضم الكاف وسكون الشين المعجم وتاء معلوة) واسب (بالسين المهمل والباء الموحدة مسكنين) فجعله أميرا ببعض النواحى فلما مات خاله امتنع من بيعة ابنه وكان شجاعا بطلا فبعث السلطان اليه العساكر فيهم الامراء الكبار مثل الملك مجير والوزير خواجه جهان أمير علي الجمع فالتقى الفرسان واشتد القتال وصبر كلا العسكرين ثم كانت الكرة لعسكر السلطان ففر بهاء الدين الى ملك من ملوك الكفار يعرف بالراي كنبيلة والراى عندهم كمثل ماهو بلسان الروم عبارة عن السلطان وكنبيلة اسم الاقليم الذى هو به وهو (بفتح الكاف وسكون النون وكسر الباء الموحدة وياء ولام مفتوح) وهذا الراى له بلاد فى جبال منيعة وهو من أكابر سلاطين الكفار فلما هرب اليه بهاء الدين اتبعته عساكر السلطان وحصروا تلك البلاد واشتد الامر على الكافر ونفد ماعنده من الزرع وخاف أن يؤخذ باليد فقال لبهاء الدين ان الحال قد بلغت لما تراه وأنا عازم علي هلاك نفسى وعيالى ومن تبعني فاذهب أنت الى السلطان فلان اسلطان من الكفار سماه له فاقم عنده فانه سيمنعك وبعث معه من أوصله اليه وأمر راى كنبيلة بنار عظيمة فاججت وأحرق فيها أمتعته وقال لنسائه وبناته اني أريد قتل نفسى فمن أرادت موافقتي فلتفعل فكانت المرأة منهن تغتسل وتدهن بالصندل والمقاصرى وتقبل الارض بين يديه وترمى بنفسها فى النار حتى هلكن جميعا وفعل مثل ذلك نساء امرائه ووزرائه وأرباب دولته ومن أراد من سائر النساء ثم اغتسل الراي وادهن بالصندل ولبس السلاح ماعدا الدرع وفعل كفعله من أراد الموت معه من ناسه وخرجوا الى عسكر السلطان فقاتلوا حتى قتلوا جميعا ودخلت المدينة فاسر أهلها وأسر من أولادي راى كنبيلة أحد عشر ولدا فاتى بهم السلطان فاسلموا جميعا وجعلهم السلطان امراء وعظمهم لاصالتهم ولفعل أبيهم

ثم رأيت عنده منهم نصرا وبختيار والمهردار وهو صاحب الخاتم الذى يختم به على الماء الذى يشرب السلطان منه وكنيته أبو مسلم وكانت بيني وبينه صحبة ومودة ولما قتل رأى كنبيلة توجهت عساكر السلطان الى بلد الكفار الذى لجا اليه بهاء الدين وأحاطوا به فقال ذلك السلطان أنا لا أقدر على أن أفعل مافعله راي كنبيلة فقبض على بهاء الدين وأسلمه الى عسكر السلطان فقيدوه وغلوه وأتوا به فلما أتي به اليه أمر بادخاله الى قرابته من النساء فشتمنه وبصقن فى وجهه وأمر بسلخه وهو بقيد الحياة فسلخ وطبخ لحمه مع الارز وبعث لاولاده وأهله وجعل باقيه على صحفة وطرح للفيلة لتاكله فابت أكله وأمر بجلده فحشي بالتبن وقرن بجلد بهادور بوره وطيف بهما على البلاد فلما وصلا الى بلاد السند وأمير أمرائها يومئذ كشلوخان صاحب السلطان تغلق ومعينه على أخذ الملك وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالعم ويخرج لاستقباله اذا وفد من بلاده أمر كشلوخان بدفن الجلدين فبلغ ذلك السلطان فشق عليه فعله وأراد الفتك به

— ذكر ثورة كشلوخان وقتله —

ولما اتصل بالسلطان ما كان من فعله فى دفن الجلدين بعث عنه وعلم كشلوخان انه يريد عقابه فامتنع وخالف وأعطى الاموال وجمع العساكر وبعث الى الترك والافغان وأهل خراسان فاتاه منهم العدد الجم حتي كافأ عسكره عسكر السلطان أو أربي عليه كثرة وخرج السلطان بنفسه لقتاله فكان اللقاء على مسيرة يومين من ملتان بصحراء أبوهر وأخذ السلطان بالحزم عند لقائه فجعل تحت الشطر عوضا منه الشيخ عماد الدين شقيق الشيخ ركن الدين الملتاني وهو حدثني هذا وكان شبيها به فلما حمى القتال انفرد السلطان فى أربعة آلاف من عسكره وقصد عسكر كشلوخان قصد الشطر معتقدين أن السلطان تحته فقتلوا عماد الدين وشاع في العسكر ان السلطان قتل فاشتغلت عساكر كشلوخان بالنهب وتفرقوا عنه ولم يبق معه الا القليل فقصده السلطان بمن معه فقتله وجز رأسه وعلم بذلك جيشه ففروا ودخل السلطان مدينة ملتان وقبض على قاضيها كريم الدين وأمر بسلخه فسلخ وأمر برأس كشلوخان فعلق على بابه وقد رأيته معلقا لما وصلت الى ملتان وأعطى السلطان للشيخ ركن الدين أخى عماد الدين ولابنه صدر الدين مائة قرية انعاما عليهم لياكلوا منها ويطعموا بزاويتهم المنسوبة لجدهم بهاء الدين زكريا وأمر السلطان وزيره خواجه جهان أن يذهب الى مدينة كمال بور وهي مدينة كبيرة على ساحل البحر وكان أهلها قد خالفوا فاخبرني بعض الفقهاء انه حضر دخول الوزير اياها قال واحضر بين

يديه القاضي بها والخطيب فامر بسلخ جلودهما فقال له أقتلنا بغير ذلك فقال لهما بما استوجبتما القتل فقال بمخالفتنا أمر السلطان فقال لهما فيكيف أخالف انا أمره وقد أمرني ان أقتلكما بهذه القتلة وقال للمتولين لسلخهما احفروا لهما حفرا تحت وجوههما يتنفسان فيها فانهم اذا سلخوا والعياذ بالله يطرحون على وجوههم ولما فعل ذلك تمهدت بلاد السند وعاد السلطان الى حضرته

— ذكر الوقيعة بجبل قراجيل على جيش السلطان —

(وأول اسمه قاف وجيم معقودة) وجبل قراجيل هذا جبل كبير يتصل مسيرة ثلاثة أشهر وبينه وبين دهلي مسيرة عشر وسلطانه من أكبر سلاطين الكفار وكان السلطان بعث ملك نكبية رأس الدويدارية الى حرب هذا الجبل ومعه مائة الف فارس ورجالة سواهم كثير فملك مدينة جديدة (وضبطها بكسر الجيم وسكون الدال المهمل وفتح الياء آخر الحروف) وهي أسفل الجبل وملك ما يليها وسبى وخرب وأحرق وفر الكفار الى أعلى الجبل وتركوا بلادهم وأموالهم وخزائن ملكهم وللجبل طريق واحد وعن أسفل منه واد وفوقه الجبل فلا يجوز فيه الا فارس منفرد خلفه آخر فصعدت عساكر المسلمين على ذلك الطريق وتملكوا مدينة ورنكل التي باعلى الجبل (وضبطها) بفتح الواو والراء (وسكون النون وفتح الكاف) واحتووا على ما فيها وكتبوا الى السلطان بالفتح فبعث اليهم قاضيا وخطيبا وامرهم بالاقامة فلما كان وقت نزول المطر غلب المرض على العسكر وضعفوا وماتت الخيل وانحلت القسى فكتب الامراء الى السلطان واستاذنوه في الخروج عن الجبل والنزول الى اسفله بخلال ما ينصرم فصل نزول المطر فيعودون فاذن لهم في ذلك فاخذ الامير نكبية الاموال التي استولى عليها من الخزائن والمعادن وفرقها على الناس ليرفعوها ويوصلوها الى أسفل الجبل فعند ما علم الكفار بخروجهم قعدوا لهم بتلك المهاوي وأخذوا عليهم المضيق وصاروا يقطعون الاشجار العادية قطعا ويطرحونها من أعلى الجبل فلا تمر باحد الا اهلكته فهلك الكثير من الناس وأسر الباقون منهم وأخذ الكفار الاموال والامتعة والخيل والسلاح ولم يفلت من العسكر الا ثلاثة من الامراء كبيرهم نكبية وبدر الدين الملك دولة شاة وثالث لهما لا اذكره وهذه الوقيعة اثرت في جيش الهند اثرا كبيرا وأضعفته ضعفا بينا وصالح السلطان بعدها اهل الجبل على مال يؤدونه اليه لان لهم البلاد اسفل الجبل ولا قدرة لهم على عمارتها الا باذنه

— ذكر ثورة الشريف جلال الدين ببلاد المعبر وما اتصل بذلك من قتل ابن أخت الوزير —

وكان السلطان قد أمر على بلاد المعبر وبينها وبين دهلي مسيرة ستة أشهر الشريف جلال

الدين أحسن شاه نخالف وادعي الملك لنفسه وقتل نواب السلطان وعماله وضرب الدنانير والدراهم باسمه وكان يكتب في احدى صفحتي الدينار سلالة طه ويس أبو الفقراء والمساكين جلال الدنيا والدين وفي الصحفة الاخرى الواثق بتاييد الرحمن أحسن شاه السلطان وخرج السلطان لما سمع بثورته يريد قتاله فنزل بموضع يقال له كشك زر معناه قصر الذهب وأقام به ثمانية أيام لقضاء حوائج الناس وفي تلك الايام ياتي أخت الوزير خواجه جهان وأربعة من الامراء أو ثلاثة وهم مقيدون مغلولون وكان السلطان قد بعث وزيره المذكور في مقدمته فوصل الى مدينة ظهار وهي على مسيرة أربع وعشرين من دهلي وأقام بها أياما وكان ابن اخته شجاعا بطلا فاتفق مع الامراء الذين أتي بهم على قتل خاله والهروب بما عنده من الخزائن والاموال الى الشريف القائم ببلاد المعبر وعزموا على الفتك بالوزير عند خروجه الى صلاة الجمعة فوشى بهم أحد من أدخلوه في أمرهم الى الوزير وكان يسمي الملك نصرة الحاجب وأخبر الوزير أن آية مايرومونه لبسهم الدروع تحت ثيابهم فبعث الوزير عنهم فوجدهم كذلك فبعث بهم الى السلطان وكنت بين يدي السلطان حين وصولهم فرأيت احدهم وكان طوال اللحى وهو يرعد ويتلو سورة يس فامر بهم فطرحوا للفيلة المعلمة لقتل الناس وامر بابن اخت الوزير فرد الى خاله ليقتله فقتله وسنذكر ذلك وتلك الفيلة التي تقتل الناس تكسى انيابها حدائد مسنونة شبه سكك الحرث لها أطراف كالسكاكين ويركب الفيال على الفيل فاذا رمى بالرجل بين يديه لف عليه خرطومه ورمى به الى الهواء ثم يتلقفه بنابيه ويطرحه بعد ذلك بين يديه ويجعل يده على صدره ويفعل به مايامره الفيال على حسب ما أمره السلطان فان امره بتقطيعه قطعه الفيل قطعا بتلك الحدائد وان امر بتركه تركه مطروحا فسلخ وكذلك فعل بهؤلاء وخرجت من دار السلطان بعد المغرب فرأيت الكلاب تاكل لحومهم وقد ملئت جلودهم بالتبن والعياذ بالله ولما تجهز السلطان لهذه الحركة أمرني بالاقامة بالحضرة كما سنذكره ومضي في سفره الى أن بلغ دولة آباد فثار الامير هلاجون ببلاده وخرج ذلك وكان الوزير خواجه جها قد بقي أيضا بالحضرة لحشد الحشود وجمع العساكر

— ذكر ثورة هلاجون —

ولما بلغ السلطان الى دولة آباد وبعد عن بلاده ثار الامير هلاجون بمدينة الاهوار وادعى الملك وساعده الامير قلجند على ذلك وصيره وزيرا له واتصل ذلك بالوزير خواجه جهان وهو بدهلي فحشد الناس وجمع العساكر وجمع الخراسانيين وكل من كان مقيما من الخدام بدهلي أخذ اصحابه وأخذ في الجملة اصحابي لاني كنت بها مقيما وأعانه السلطان باميرين كبيرين

احدهما قيران ملك صفدار ومعناه مرتب العساكر والثاني الملك تمور الشربدار وهو الساقى وخرج هلاجون بعساكره فكان اللقاء على ضفة احد الاودية الكبار فانهزم هلاجون وهرب وغرق كثير من عساكره فى النهر ودخل الوزير المدينة فسلخ بعض أهلها وقتل آخرين بغير ذلك من انواع القتل وكان الذى تولى قتلهم محمد بن النجيب نائب الوزير وهو المعروف باجدر ملك ويسمي أيضا صك (سك) السلطان والصك عندهم الكلب وكان ظالما قاسى القلب ويسميه السلطان أسد الاسواق وكان ربما عض ارباب الجنايات باسنانه شرها وعدوانا وبعث الوزير من نساء الخالفين نحو ثلاثمائة الى حصن كاليور فسجن به ورايت بعضهن هنالك وكان احد الفقهاء له فيهن زوجة فكان يدخل اليها حتى ولدت منه فى السجن

ذكر وقوع الوباء فى عسكر السلطان

ولما وصل السلطان الى بلاد التلنك وهو قاصد الى قتال الشريف ببلاد المعبر نزل مدينة بدركوت (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وسكون الدال وفتح الراء وضم الكاف وواو وتاء معلوة) وهى قاعدة بلاد التلنك (وضبطها بكسر التاء المعلوة واللام وسكون النون وكاف معقودة) وبينها وبين بلاد المعبر مسيرة ثلاثة اشهر ووقع الوباء اذ ذاك فى عسكره فهلك معظمهم ومات العبيد والمماليك وكبار الامراء مثل ملك دولة شاه الذى كان السلطان يخاطبه بالعم ومثل أمير عبد الله الهورى وقد تقدمت حكايته فى السفر الاول وهو الذى أمره السلطان ان يرفع من الخزانة ما استطاع من المال فربط ثلاث عشرة خريطة باعضاده ورفعها ولما رأى السلطان ما حل بالعسكر عاد الى دولة آباد وخالفت البلاد وانتقضت الاطراف وكاد الملك يخرج عن يده لولا ما سبق به القدر من استحكام سعادته

ذكر الارجاف بموته وفرار الملك هوشنج

ولما عاد السلطان الى دولة آباد مرض فى طريقه فارجف الناس بموته وشاع ذلك فنشات عنه فتن عريضة وكان الملك هوشنج ابن الملك كمال الدين كرك بدولة آباد وكان بينه وبين السلطان عهد ان لا يبايع غيره ابدا لا فى حياته ولا بعد موته فلما ارجف بموت السلطان هرب الى سلطان كافر يسمي بربرة يسكن بجبال مانعة بين دولة آباد وكوكن تانه فعلم السلطان بفراره وخاف وقوع الفتنة فجد السير الى دولة آباد واقتفى أثر هوشنج وحصره بالخيل وأرسل الكافر ان يسلمه اليه فابى وقال لا أسلم دخيلى ولو آل بى الامر الى ما آل براى كنيلة وخاف هوشنج على نفسه فراسل السلطان وعاهد على ان يرحل السلطان الى دولة آباد ويبقى ههنا لك قطلوخان معلم السلطان ليستوثق منه هوشنج وينزل اليه على الامان فرحل السلطان

و نزل هو شنج الى قطلوخان وعاهده أن لا يقتله السلطان ولا يحط منزلته وخرج بماله وعياله واصحابه وقدم على السلطان فسر بقدومه وارضاه وخلع عليه وكان قطلوخان صاحب عهد يستنيم الناس اليه ويقولون فى الوفاء عليه ومنزلته عند السلطان عليه وتعظيمه له شديد ومتى دخل عليه قام له اجلالا فكان بسبب ذلك لا يدخل عليه حتى يكون هو الذى يدعوه لئلا يتعبه بالقيام له وهو محب فى الصدقات كثير الايثار مولع بالاحسان للفقراء والمساكين

— ذكر ماهم به الشريف ابراهيم من الثورة ومآل حاله —

وكان الشريف ابراهيم المعروف بالخريطة دار وهو صاحب الكاغد والاقلام بدار السلطان واليا على بلاد حانسي وسرستي لما تحرك السلطان الى بلاد المعبر وأبوه هو القائم ببلاد المعبر الشريف أحسن شاه فلما أرجف بموت السلطان طمع ابراهيم فى السلطنة وكان شجاعا كريما حسن الصورة وكنت متزوجا باخته حور نسب وكانت صالحة تتهجد بالليل ولها أوراد من ذكر الله عز وجل وولدت منى بنتا ولا أدري ما فعل الله فيهما وكانت تقرأ لكنها لا تكتب فلما هم ابراهيم بالثورة اجتاز به أمير من أمراء السند معه الاموال يحملها الى دهلى فقال له ابراهيم ان الطريق مخوف وفيه القطع فاقم عندى حتى يصلح الطريق وأوصلك الى المامن وكان قصده ان يتحقق موت السلطان فيستولى على تلك الاموال فلما تحقق حياته سرح ذلك الامير وكان يسمى ضياء الملك بن شمس الملك ولما وصل السلطان الى الحضرة بعد غيبته سنتين ونصف وصل الشريف ابراهيم اليه فوشي به بعض غلمانه واعلم السلطان بما كان هم به فاراد السلطان أن يعجل بقتله ثم تانى لمحبته فيه فاتفق ان أتى يوما الى السلطان بغزال مذبوح ينظر الى ذبحته فقال ليس بجيد الذكاة اطرحوه فرآه ابراهيم فقال ان ذكاته جيدة وأنا آكله فاخبر السلطان بقوله فانكر ذلك وجعله ذريعة الى أخذه فامر به فقيد وغل ثم قرره على ما رمى به من انه أراد أخذ الاموال التى مر بها ضياء الملك وعلم ابراهيم انه انما يريد قتله بسبب أبيه وانه لا تنفعه معذرة وخاف ان يعذب فرأي الموت خيرا له فاقر بذلك فامر به فوسط وترك هنالك وعادتهم انه متى قتل السلطان أحدا أقام مطروحا بموضع قتله ثلاثا فاذا كان بعد الثلاث أخذه طائفة من الكفار موكلون بذلك فحملوه الى خندق خارج المدينة يطرحونه به وهم يسكنون حول الخندق لئلا يأتي أهل المقتول فيعرفونه وربما أعطي بعضهم لهؤلاء الكفار مالا فتجافوا عن قتيله حتى يدفنه وكذلك فعل بالشريف ابراهيم رحمه الله تعالى

— ذكر خلاف نائب السلطان ببلاد التلنك —

ولما عاد السلطان من التلنك وشاع خبر موته وكان ترك تاج الملك نصرة خان نائبا عنه
ببلاد التلنك وهو من قدماء خواصه بلغه ذلك فعمل عزاء السلطان ودعا لنفسه
وبايعه الناس بحضرة بدركوت فبلغ خبره الى السلطان فبعث معلمه قطلوخان فى عساكر
عظيمة فحصره بعد قتال شديد هلك فيه أمم من الناس واشتد الحصار على أهل بدركوت
وهي منيعة وأخذ قطلوخان فى نقبها فخرج اليه نصرة خان على الامان فى نفسه فامنه وبعث
به الى السلطان وأمن أهل المدينة والعسكر

— ذكر انتقال السلطان لنهر الكنك وقيام عين الملك —

ولما استولى القحط على البلاد انتقل السلطان بعساكره الى نهر الكنك الذى تحج اليه
الهنود على مسيرة عشر من دهلي وأمر الناس بالبناء وكانوا قبل ذلك صنعوا خياما من
حشيش الارض فكانت النار كثيرا ما تقع فيها وتؤذى الناس حتي كانوا يصنعون كهوفا
تحت الارض فاذا وقعت النار رموا أمتعتهم بها وسدوا عليها بالتراب ووصلت أنا فى تلك
الايام لمحلة السلطان وكانت البلاد التى بغربي النهر حيث السلطان شديدة القحط والبلاد
التى بشرقيه خصبة وأميرها عين الملك بن ماهر ومنها مدينة عوض ومدينة ظفر آباد
ومدينة اللكنو وغيرها وكان الامير عين الملك كل يوم يحضر خمسين الف من منها قمح
وأرز وحمص لعلف الدواب فامر السلطان أن تحمل الفيلة ومعظم الخيل والبغال الى الجهة
الشرقية المخصبة لترعى هنالك وأوصى عين الملك بحفظها وكان لعين الملك أربعة اخوة
وهم شهر الله ونصر الله وفضل الله ولا أذكر اسم الآخر فاتفقوا مع أخيهم عين الملك
على أن ياخذوا فيلة السلطان ودوابه ويبايعوا عين الملك ويقوموا على السلطان وهرب
اليهم عين الملك بالليل وكاد الامر يتم لهم ومن عادة ملك الهند انه يجعل مع كل أمير كبير
أو صغير مملوكا له يكون عينا عليه ويعرفه بجميع حاله ويجعل أيضا جوارى فى الدور يكن
عيونا له على أمرائه ونسوة يسميهن الكناسات يدخلن الدور بلا استئذان ويخبرهن الجواري
بما عندهن فيخبر الكناسات بذلك المخبرين فيخبر بذلك السلطان ويذكرون ان بعض
الامراء كان فى فراشه مع زوجته فاراد مماستها فحلفته برأس السلطان ان لا يفعل فلم يسمع
منها فبعث عنه السلطان صباحا وأخبره بذلك وكان سبب هلاكه وكان للسلطان مملوك
يعرف بابن ملك شاه هو عين على عين الملك المذكور فاخبر السلطان بفراره وجوازه النهر
فسقط فى يده وظن انها القاضية عليه لان الخيل والفيلة والزرع كل ذلك عند عين الملك
وعساكر السلطان مفترقة فاراد ان يقصد حضرته ويجمع العساكر وحينئذ ياتى لقتاله وشاور

ارباب الدولة في ذلك وكان امراء خراسان والغرباء اشد الناس خوفا من هذا القائم لانه هندي وأهل الهند مبغضون في الغرباء لاظهار السلطان لهم فنكرهوا ما ظهر له وقالوا يا خوند عالم ان فعلت ذلك بلغه الخبر فاشتد امره ورتب العساكر وانثال عليه طلاب الشر ودعاة الفتن والاولى معاجلته قبل استحكام قوته وكان أول من تكلم بهذا ناصر الدين مطهر الاوهري ووافقه جميعهم فعمل السلطان باشارتهم وكتب تلك الليلة الى من قرب منه من الامراء والعساكر فاتوا من حينهم وأدار في ذلك حيلة حسنة فكان اذا قدم على محلته مثلا مائة فارس بعث الآلاف من عنده للقائهم ليلا ودخلوا معهم الى المحلة كان جميعهم مدد له وتحرك السلطان مع ساحل النهر ليجعل مدينة قنوج وراء ظهره ويتحصن بها لمنعتها وحصانتها وبينها وبين الموضع الذي كان به ثلاثة أيام فرحل اول مرحلة وقد عبا جيشه للحرب وجعلهم صفا واحدا عند نزولهم كل واحد منهم بين يديه سلاحه وفرسه الى جانبه ومعه خباء صغير يأكل به ويتوضأ ويعود الى مجلسه والمحلة الكبرى على بعد منهم ولم يدخل السلطان في تلك الايام الثلاثة خباء ولا استظل بظل وكنت في يوم منها بخبائي فصاح بي فتي من فتياني اسمه سنبل واستعجلني وكان معي الجواري فخرجت اليه فقال ان السلطان أمر الساعة أن يقتل كل من معه امرأته أوجاريته فشفع عنده الامراء فامر ان لا تبقى الساعة بالمحلة امرأة وان يحملن الى حصن هنالك على ثلاثة اميال يقال له كنبيل فلم تبق امرأة بالمحلة ولا مع السلطان وبتنا تلك الليلة على تعبئة فلما كان في اليوم الثاني رتب السلطان عسكره افواجا وجعل مع كل فوج الفيلة المدرعة عليها الابراج فوقها المقاتلة وتدرع العسكر وتهيؤا للحرب وباتوا تلك الليلة على أهبة ولما كان اليوم الثالث بلغ الخبر بان عين الملك الثائر اجاز النهر فخاف السلطان من ذلك وتوقع انه لم يفعله الا بعد مراسلة الامراء الباقين مع السلطان فامر في الحين بقسم الخيل العتاق على خواصه وبعث لي حظا منها وكان لي صاحب يسمى أمير اميران الكرماني من الشجعان فاعطيته فرسا منها اشهب اللون فلما حركه جمح به فلم يستطع امساكه ورماه عن ظهره فمات رحمه الله تعالى وجد السلطان ذلك اليوم في مسيرة فوصل بعد العصر الى مدينة قنوج وكان يخاف ان يسبقه القائم اليها وبات ليلته تلك يرتب الناس بنفسه ووقف علينا ونحن في المقدمة مع ابن عمه ملك فيروز ومعنا الامير غدا ابن مهني والسيد ناصر الدين مطهر وامراء خراسان فاضافنا الى خواصه وقال انتم أعزة على ماينبغي ان تفارقوني وكان في عاقبة ذلك الخير فان القائم ضرب في آخر الليل على المقدمة وفيها الوزير خواجه جهان فقامت ضجة في الناس كبيرة فحينئذ أمر

السلطان ان لا يبرح احد من مكانه ولا يقاتل الناس الا بالسيوف فاستل العسكر سيوفهم ونهضوا الى أصحابهم وحمى القتال وأمر السلطان ان يكون شعار جيشه دهلي وغزنة فاذا لقي احدهم فارسا قال له دهلي فان اجابه بغزنة علم انه من أصحابه والا قاتله وكان القائم انما قصد ان يضرب على موضع السلطان فاخطا به الدليل فقصد موضع الوزير فضرب عنق الدليل وكان في عسكر الوزير الاعاجم والترك والخراسانيون وهم اعداء الهنود فصدقوا القتال وكان جيش القائم نحو الخمسين ألفا فانهزموا عند طلوع الفجر وكان الملك ابراهيم المعروف بالبنجي (بفتح الباء الموحدة وسكون النون وجيم) التتري قد أقطعه السلطان بلاد سندبلة وهي قرية من بلاد عين الملك فاتفق معه على الخلاف وجعله نائبه وكان داود بن قطب الملك وابن ملك التجار على فيله السلطان وخيله فوافقاه أيضا وجعل داود حاجبه وكان دواد هذا لما ضربوا على محلة الوزير يجهر بسب السلطان ويشتمه أقبح شتم والسلطان يسمع ذاك ويعرف كلامه فلما وقعت الهزيمة قال عين الملك لنائبه ابراهيم التتري ماذا ترى ياملك ابراهيم قد فر اكثر العسكروذ والنجدة منهم فهل لك ان ننجوا بانفسنا فقال ابراهيم لاصحابه بلسانهم اذا أراد عين الملك ان يفر فاني ساقبض على دبوقته فاذا فعلت ذلك فاضربوا أنتم فرسه ليسقط الى الارض فنقبض عليه ونأتي به السلطان ليكون ذلك كفارة لذنبي في الخلاف معه وسببا لخلاصي فلما أراد عين الملك الفرار قال له ابراهيم الى اين ياسلطان علاء الدين وكان يسمى بذلك وأمسك بدبوقته وضرب اصحابه فرسه فسقط الى الارض ورمى ابراهيم بنفسه عليه فقبضه وجاء اصحاب الوزير لياخذوه فمنعهم وقال لا أتركه حتى اوصله للوزير أو أموت دون ذلك فتركوه فاوصله الى الوزير وكنت أنظر عند الصبح الى الفيلة والاعلام يؤتى بها الى السلطان ثم جاءني بعض العراقيين فقال قد قبض على عين الملك واتى به الوزير فلم أصدقه فلم يمر الا يسير وجاءني الملك تمور الشربدار فاخذ بيدي وقال ابشر فقد قبض على عين الملك وهو عند الوزير فتحرك السلطان عند ذاك ونحن معه الى محلة عين الملك على نهر الكنك فنهبت العساكر ما فيها واقتحم كثير من عسكر عين الملك النهر فغرقوا وأخذ داود بن قطب الملك وابن ملك التجار وخلق كثير معهم ونهبت الاموال والخيل والامتعة ونزل السلطان على المجاز وجاء الوزير بعين الملك وقد أركب على ثور وهو عريان مستور العورة بخرقة مربوطة بحبل وباقيه في عنقه فوقف على باب السراجة ودخل الوزير الى السلطان فاعطاه الشربة عناية به وجاء ابناء الملوك الى عين الملك فجعلوا يسبونه ويبصقون في وجهه ويصفعون

أصحابه اليه وبعث السلطان الملك الكبير فقال له ماهذا الذى فعلت فلم يجد جوابا فامر به السلطان ان يكسى ثوبا من ثياب الزمالة وقيد باربعة كبول وغلت يداه الى عنقه وسلم للوزير ليحفظه وجاز اخوته النهر هاربين ووصلوا مدينة عوض فاخذوا أهلهم وأولادهم وما قدروا عليه من المال وقالوا لزوجة اخيهم عين الملك اخلصى بنفسك وبنيك معنا فقالت افلا أكون كنساء الكفار اللائي يحرقن انفسهن مع ازواجهن فانا أيضا أموت لموت زوجي واعيش لعيشه فتركوها وبلغ ذلك السلطان فكان سبب خيرها وادركته لها رقة وادرك الفتي سهيل نصر الله من أولائك الاخوة فقتله واتى السلطان برأسه وأتى بام عين الملك وأخته وامرأته فسلمن الى الوزير وجعلن فى خباء بقرب خباء عين الملك فكان يدخل اليهن ويجلس معهن ويعود الى محبسه ولما كان بعد العصر من يوم الهزيمة أمر السلطان بسراح لفيف الناس الذين مع عين الملك من الزمالة والسوقة والعبيد ومن لا يعبا به وأتى بملك ابراهيم البنجي الذي ذكرناه فقال ملك العسكر الملك نوايا خوند عالم اقتل هذا فانه من المخالفين فقال الوزير انه قد فدي نفسه باقائم فعفا عنه السلطان وسرحه الى بلاده ولما كان بعد المغرب جلس السلطان ببرج الخشب وأتي باثنين وستين رجلا من كبار أصحاب القائم وأتى بالفيلة فطرحوا بين أيديها فجعلت تقطعهم بالحدائد الموضوعة على انيابها وترمي ببعضهم الى الهواء وتتلقفه والابواق والانفار والطبول تضرب عند ذلك وعين الملك واقف يعاين مقتلهم ويطرح منهم عليه ثم أعيد الى محبسه وأقام السلطان على جواز النهر أياما لكثرة الناس وقلة القوارب وأجاز أمتعته وخزائنه على الفيلة وفرق الفيلة على خواصه ليجيزوا امتعتهم وبعث الى بفيل منها أجزت عليه رحلي وقصد السلطان ونحن معه الى مدينة بهرايج (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وها مسكن وراء وألف وياء آخر الحروف مكسورة وجيم) وهى مدينة حسنة فى عدوة نهر السرو وهو واد كبير شديد الانحدار واجازه السلطان برسم زيارة قبر الشيخ الصالح البطل سالار عود الذى فتح أكثر تلك البلاد وله أخبار عجيبة وغزوات شهيرة وتكاثر الناس للجواز وتزاحموا حتى غرق مركب كبير كان فيه نحو ثلاثمائة نفس لم ينج منهم الا عربي من أصحاب الامير غدا وكنا ركبنا نحن فى مركب صغير فسلمنا الله تعالى وكان العربي الذي سلم من الغرق يسمي بسالم وذلك اتفاق عجيب وكان أراد ان يصعد معنا فى مركبنا فوجدنا قد ركبنا النهر فركب فى المركب الذى غرق فلما خرج ظن الناس انه كان معنا فقامت ضجة في أصحابنا وفى سائر الناس وتوهموا انا غرقنا ثم لما رأونا بعد استبشروا بسلامتنا وزرنا قبر الصالح المذكور وهو فى قبة لم نجد سبيلا الى

دخولها الكثيرة الزحام وفي ثلاثة الوجهة دخلنا غيضة قصب فخرج علينا منها الكركدن فقتل وأتي الناس برأسه وهو دون الفيل ورأسه أكبر من رأس الفيل باضعاف وقد ذكرناه

— ذكر عودة السلطان لحضرته ومخالفة علي شاه كر —

ولما ظفر السلطان بعين الملك كما ذكرنا عاد الى حضرته بعد مغيب عامين ونصف وعفا عن عين الملك وعفا أيضا عن نصرة خان القائم ببلاد التلنك وجعلهما معا على عمل واحد وهو النظر على بساتين السلطان وكساهما واركبهما وعين لهما نفقة من الدقيق واللحم في كل يوم و بلغ الخبر بعد ذلك ان أحد أصحاب قطلوخان وهو علي شاه كر ومعنى كر الاطرش خالف على السلطان وكان شجاعا حسن الصورة والسيرة فغلب على بدركوت وجعلها مدينة ملكه وخرجت العساكر اليه وأمر السلطان معلمه ان يخرج الى قتاله فخرج في عساكر عظيمة وحصره ببدركوت ونقبت ابراجها واشتدت به الحال فطلب الامان فامنه قطلوخان وبعث به الى السلطان مقيدا فعفا عنه ونفاه الى مدينة غزنة من طرف خراسان فاقام بها مدة ثم اشتاق الى وطنه فاراد العودة اليه لما اقضاه الله من حينه فقبض عليه ببلاد السند واتى به السلطان فقال له انما جئت لتثير الفساد ثانية وأمر به فضربت عنقه

— ذكر فرار أمير بخت وأخذه —

وكان السلطان قد وجد على أمير بخت الملقب بشرف الملك أحد الذين وفدوا معنا على السلطان فحط مرتبه من أربعين ألفا الى ألف واحد وبعثه في خدمة الوزير الى دهلي واتفق ان مات أمير عبد الله الهروى في الوباء في التلنك وكان ماله عند اصحابه بدهلي فاتفقوا مع أمير بخت على الهروب فلما خرج الوزير من دهلي الى لقاء السلطان هربوا مع أمير بخت وأصحابه ووصلوا الى أرض السند في سبعة ايام وهو مسيرة اربعين يوما وكان معهم الخيل مجنوبة وعزموا على ان يقطعوا نهر السند عوما ويركب أمير بخت وولده ومن لا يحسن العوم في معدية قصب يصنعونها وكانوا قد أعدوا حبالا من الحرير برسم ذلك فلما وصلوا الى النهر خافوا من عبوره بالعوم فبعثوا رجلين منهم الى جلال الدين صاحب مدينة أوجة فقالا له ان هاهنا تجارا أرادوا أن يعبروا النهر وقد بعثوا اليك بهذا السرج لتبيح لهم الجواز فانكر الامير ان يعطي التجار مثل ذلك السرج وأمر بالقبض على الرجلين ففر احدهما ولحق بشرف الملك واصحابه وهم نيام لما لحقهم من الاعياء ومواصلة السهر فاخبرهم الخبر فركبوا مذعورين وفروا وامر جلال الدين بضرب الرجل الذى قبض عليه فاعترف بقضية شرف الملك فامر جلال الدين نائبه فركب في العسكر وقصدوا نحوهم فوجدوهم قد ركبوا فاقتفوا اثرهم

فادركوهم فرموا العسكر بالنشاب ورمى طاهر بن شرف الملك نائب الامير جلال الدين بسهم فاثبته في ذراعه وغلب عليهم فاتي بهم الى جلال الدين فقيدهم وغل أيديهم وكتب الى الوزير في شانهم فامره الوزير ان يبعثهم الى الحضرة فبعثهم اليها وسجنوا بها فمات طاهر في السجن فامر السلطان ان يضرب شرف الملك مائة مقرعة في كل يوم فبقي على ذلك مده ثم عفا عنه وبعث مع الامير نظام الدين أمير نجلة الى بلاد جنديري فانتهت حاله الى ان كان يركب البقر ولم يكن له فرس يركبه وأقام على ذلك مدة ثم وفد ذلك الامير على السلطان وهو معه فجعله السلطان شاشنكيرة (جا شنكير) وهو الذي يقطع اللحم بين يدي السلطان ويمشي مع الطعام ثم انه بعد ذلك نوه به ورفع مقداره وانتهت حاله الى ان مرض فزاره السلطان وأمر بوزنه بالذهب وأعطاه ذلك وقد قدمنا هذه الحكاية في السفر الاول وبعد ذلك زوجه باخته واعطاه بلاد جنديري التي كان بها البقر في خدمة الامير نظام الدين فسبحان مقلب القلوب ومحول الاحوال

— ذكر خلاف شاه أفغان بارض السند —

وكان شاه أفغان خالف على السلطان بارض ملتان من بلاد السند وقتل الامير بها وكان يسمى بهزاد وادعى السلطنة لنفسه وتجهز السلطان لقتاله فعلم انه لا يقاومه فهرب ولحق لقومه الافغان وهم ساكنون بجبال منيعة لا يقدر عليها فاغتاظ السلطان مما فعله وكتب الى عماله ان يقبضوا على من وجدوه من الافغان ببلاده فكان ذلك سببا لخلاف القاضي جلال

— ذكر خلاف القاضي جلال —

وكان القاضي جلال وجماعة من الافغانيين قاطنين بقربة من مدينة كنباية ومدينة بلوذرة فلما كتب السلطان الى عماله بالقبض على الافغانيين كتب الى ملك مقبل نائب الوزير ببلاد الجزرات ونهروالة أن يحتال في القبض على القاضي جلال ومن معه وكانت بلاد بلوذرة اقطاعا لملك الحكماء وكان ملك الحكماء متزوجا بربيبة السلطان زوجة أبيه تغلق ولها بنت من تغلق هي التي تزوجها الامير غدا وملك الحكماء اذذاك في صحبة مقبل لان بلاده تحت نظره فلما وصلوا الى بلاد الجزرات أمر مقبل ملك الحكماء ان ياتي بالقاضي جلال وأصحابه فلما وصل ملك الحكماء الى بلاده حذرهم في خفية لانهم كانوا من أهل بلاده وقال ان مقبلا طلبكم ليقبض عليكم فلا تدخلوا عليه الا بالسلاح فركبوا في نحو ثلاثمائة مدرع وأتوه وقالوا لا ندخل الا جملة فظهر له انه لا يمكن القبض عليهم وهم مجتمعون وخاف منهم فامرهم بالرجوع واظهر تامينهم فخالفوا عليه ودخلوا مدينة كنباية ونهبوا خزانة السلطان بها وأموال الناس ونهبوا مال ابن الكولمي التاجر وهو

الذي عمر المدرسة الحسنة باسكندرية وسنذكره اثر هذا وجاء ملك مقبل لقتالهم فهزموه هزيمة شنيعة وجاء الملك عزيز الخمار والملك جهان بنبل لقتالهم في سبعة آلاف من الفرسان فهزموهم أيضا وتسامع بهم أهل الفساد والجرائم فانثالوا عليهم وادعى القاضي جلال السلطنة وبايعه أصحابه وبعث السلطان اليه العساكر فهزمها وكان بدولة آباد جماعة من الافغان فخالفوا أيضا

— ذكر خلاف ابن الملك مل —

وكان ابن الملك مل ساكنا بدولة آباد في جماعة من الافغان فكتب السلطان الى نائبه بها وهو نظام الدين أخو معلمه قطلوخان ان يقبض عليهم وبعث اليه باحمال كثيرة من القيود والسلاسل وبعث بخلع الشتاء وعادة ملك الهند أن يبعث لكل أمير على مدينة ولوجوه عسكره خلعتين في السنة خلعة الشتاء وخلعة الصيف واذا جاءت الخلع يخرج الامير والعسكر للقائها فاذا وصلوا الى الآتي بها نزلوا عن دوابهم وأخذ كل واحد خلعته وحملها على كتفه وخدم لجهة السلطان وكتب السلطان لنظام الدين اذا خرج الافغان ونزلوا عن دوابهم لاخذ الخلع فاقبض عليهم عند ذلك وأتى أحد الفرسان الذين أوصلوا الخلع الى الافغان فاخبرهم بما يراد بهم فكان نظام الدين ممن احتال فانعكست عليه فركب وركب الافغان معه حتى اذا لقوا الخلع ونزل نظام الدين عن فرسه حملوا عليه وعلى أصحابه فقبضوا عليه وقتلوا كثيرا من أصحابه ودخلوا المدينة فاخذوا الخزائن وقدموا على أنفسهم ناصر الدين ابن ملك مل وانثال عليهم المفسدون فقويت شوكتهم

— ذكر خروج السلطان بنفسه الى كنباية —

ولما بلغ السلطان مافعله الافغان بكنباية ودولة آباد خرج بنفسه وعزم على ان يبدأ بكنباية ثم يعود الى دولة آباد وبعث أعظم ملك البايزيدي صهره في أربعة آلاف مقدمة فاستقبلته عساكر القاضي جلال فهزموه وحصروه ببلوذرة وقاتلوه بها وكان في عسكر القاضي جلال شيخ يسمى جلول وهو أحد الشجعان فلا يزال يفتك في العساكر ويقتل ويطلب المبارزة فلا يتجاسر أحد على مبارزته واتفق يوما انه دفع فرسه فكبا به في حفرة فسقط عنه وقتل ووجدوا عليه درعين فبعثوا برأسه الى السلطان وصلبوا جسده بسور بلوذرة وبعثوا يديه ورجليه الى البلاد ثم وصل السلطان بعساكره فلم يكن للقاضي جلال من ثبات ففر في أصحابه وتركوا أموالهم وأولادهم فنهب ذلك كله ودخلت المدينة وأقام بها السلطان أياما ثم رحل عنها وترك بها صهره شرف الملك أمير بخت الذي قدمنا ذكره وقضية فراره وأخذه بالسند وسجنه وماجري عليه من الذل ثم من العز وأمره بالبحث عمن كان في طاعة

جلال الدين وترك معه الفقهاء ليحكم باقوالهم فادي ذلك الى قتل الشيخ على الحيدرى حسبما قدمناه ولما هرب القاضي جلال لحق بناصر الدين بن ملك مل بدولة آباد ودخل فى جملته فاتى السلطان بنفسه اليهم واجتمعوا فى نحو أربعين الفا من الافغان والترك والهنود والعبيد وتحالفوا على ان لا يفروا وان يقاتلوا السلطان وأتى السلطان لقتالهم ولم يرفع الشطر الذى هو علامة عليه فلما استحر القتال رفع الشطر فلما عاينوه دهشوا وانهزموا اقبح هزيمة ولجا ابن ملك مل والقاضي جلال فى نحو أربعمائة من خواصهما الى قلعة الدويقير وسنذكرها وهي من امنع قلعة فى الدنيا واستقر السلطان بمدينة دولة آباد الدويقير وهي قلعتها وبعث لهم ان ينزلوا على حكمه فابوا ان ينزلوا الا على الامان فابي السلطان ان يؤمنهم وبعث لهم الاطعمة تهاونا بهم وأقام هنالك وعلى ذلك آخر عهدي بهم

—— ذكر قتال مقبل وابن الكولمى ——

وكان ذلك قبل خروج القاضى جلال وخلافه وكان تاج الدين بن الكولمى من كبار التجار فوفد علي السلطان من أرض الترك بهدايا جليلة منها المماليك والجمال والمتاع والسلاح والثياب فاعجب السلطان فعله واعطاه اثني عشر الكا يذكر انه لم تكن قيمة هديته الا لكا واحدا وولاه مدينة كنباية وكانت اظر الملك المقبل نائب الوزير فوصل اليها وبعث المراكب الى بلاد المليبار وجزيرة سيلان وغيرها وجاءته التحف والهدايا فى المراكب وضخمت حاله ولما لم يبعث أموال تلك الجهات الى الحضرة بعث الملك مقبل الى ابن الكولمي ان يبعث ما عنده من الهدايا والاموال مع هدايا تلك الجهات على العادة فامتنع ابن الكولمى من ذلك وقال أنا أحملها بنفسي أو أبعثها مع خدامي ولا حكم لنائب الوزير علي ولا للوزير وأغتر بما أولاه السلطان من الكرامة والعطية فكتب مقبل الى الوزير بذلك فوقع له الوزير على ظهر كتابه ان كنت عاجزا عن بلادنا فاتركها وارجع الينا فلما بلغه الجواب تجهز فى عسكره ومماليكه والتقيا بظاهر كنباية فانهزم ابن الكولمى وقتل جماعة من الفريقين واستخفى ابن الكولمى فى دار الناخودة (الناخذا) الياس أحد كبراء التجار ودخل مقبل المدينة فضرب رقاب أمراء عسكر ابن الكولمى وبعث له الامان على ان ياخذ ماله المختص به ويترك مال السلطان وهديته ومجبي البلد وبعث مقبل بذلك كله مع خدامه الى السلطان وكتب شاكيا من ابن الكولمى وكتب ابن الكولمى شاكيا منه فبعث السلطان ملك الحكماء لينصف بينهما وباثر ذلك كان خروج القاضي جلال الدين فنهب مال ابن الكولمى وفر ابن الكولمى فى بعض مماليكه ولحق بالسلطان

ـــ ذكر الغلاء الواقع بارض الهند ـــ

وفي مدة مغيب السلطان عن حضرته اذ خرج بقصد بلاد المعبر وقع الغلاء واشتد الامر وانتهى المن الى ستين درهما ثم زاد على ذلك وضاقت الاحوال وعظم الخطب ولقد خرجت مرة الى لقاء الوزير فرأيت ثلاث نسوة يقطعن قطعا من جلد فرس مات منذ أشهر ويا كلنه وكانت الجلود تطبخ وتباع في الاسواق وكان الناس اذا ذبحت البقر أخذوا دماءها فاكلوها وحدثني بعض طلبة خراسان انهم دخلوا بلدة تسمى اكروهة بين حانسي وسرستي فوجدوها خالية فقصدوا بعض المنازل ليبيتوا به فوجدوا في بعض بيوته رجلا قد أضرم نارا وبيده رجل آدمي وهو يشويها في النار ويا كل منها والعياذ بالله ولما اشتد الحال أمر السلطان ان يعطى لجميع أهل دهلى نفقة ستة أشهر فكانت القضاة والكتاب والامراء يطوفون بالازقة والحارات ويكتبون الناس ويعطون لكل أحد نفقة ستة اشهر بحساب رطل ونصف من ارطال المغرب في اليوم لكل واحد وكنت في تلك المدة أطعم الناس من الطعام الذى أصنعه بمقبرة السلطان قطب الدين حسبما يذكر فكان الناس ينتعشون بذلك والله تعالى ينفع بالقصد فيه واذ قد ذكرنا من أخبار السلطان وما كان في أيامه من الحوادث ما فيه الكفاية فلنعد الى ما يخصنا من ذلك ونذكر كيفية وصولنا أولا الى حضرته وتنقل الحال الى خروجنا عن الخدمة ثم خروجنا عن السلطان في الرسالة الى الصين وعودنا منها الى بلادنا ان شاء الله تعالى

ـــ ذكر وصولنا الى دار السلطان عند قدومنا وهو غائب ـــ

ولما دخلنا حضرة دهلى قصدنا باب السلطان ودخلنا الباب الاول ثم الثانى ثم الثالث ووجدنا عليه النقباء وقد تقدم ذكرهم فلما وصلنا اليهم تقدم بنا نقيبهم الى مشور عظيم متسع فوجدنا به الوزير خواجه جهان ينتظرنا فتقدم ضياء الدين خداوندزاده ثم تلاه أخوه قوام الدين ثم أخوهما عماد الدين ثم تلوتهم ثم تلانى أخوهم برهان الدين ثم الامير مبارك السمرقندى ثم ارن بغا التركى ثم ملك زاده ابن أخت خداوندزاده ثم بدر الدين الفصال ولما دخلنا من الباب الثالث ظهر لنا المشور الكبير المسمى هزار اسطون (استون) ومعنى ذلك ألف سارية وبه يجلس السلطان الجلوس العام فخدم الوزير عند ذلك حتى قرب رأسه من الارض وخدمنا نحن بالركوع وأوصلنا أصابعنا الى الارض وخدمتنا لناحية سرير السلطان وخدم جميع من معنا فلما فرغنا من الخدمة صاح النقباء باصوات عالية بسم الله وخرجنا

ـــ ذكر وصولنا لدار أم السلطان وذكر فضائلها ـــ

وأم السلطان تدعى المخدومة جهان وهي من أفضل النساء كثيرة الصدقات عمرت زوايا كثيرة وجعلت فيها الطعام للوارد والصادر وهي مكفوفة البصر وسبب ذلك انه لما ملك ابنها جاء اليها جميع الخواتين وبنات الملوك والامراء في أحسن زي وهي على سرير الذهب المرصع بالجوهر فخدمن بين يديها جميعا فذهب بصرها للحين وعولجت بانواع العلاج فلم ينفع وولدها أشد الناس برابها ومن بره انها سافرت معه مرة فقدم السلطان قبلها بمدة فلما قدمت خرج لاستقبالها وترجل عن فرسه وقبل رجلها وهي فى المحفة بمرأى من الناس أجمعين ولنعد لما قصدناه فنقول ولما انصرفنا عن دار السلطان خرج الوزير ونحن معه الى باب الصرف وهم يسمونه باب الحرم وهنالك سكنى المخدومة جهان فلما وصلنا ابها نزلنا عن الدواب وكل واحد منا قد أتي بهدية على قدر حاله ودخل معنا قاضي قضاة المماليك كمال الدين بن البرهان فخدم الوزير والقاضي عند بابها وخدمنا كخدمتهم وكتب كاتب بابها هدايانا ثم خرج من الفتيان جماعة وتقدم كبارهم الى الوزير فكلموه سرا ثم عادوا الى القصر ثم رجعوا الى الوزير ثم عادوا الى القصر ونحن وقوف ثم أمرنا بالجلوس فى سقيف هنالك ثم أتوا بالطعام وأتوا بقلال من الذهب يسمونها السين (بضم السين والياء آخر الحروف) وهي مثل القدور ولها مرافع من الذهب تجلس عليها يسمونها السبك (بضم السين وبضم الباء الموحدة) وأتوا باقداح وطسوت وأباريق كلها ذهب وجعلوا الطعام سماطين وعلى كل سماط صفان ويكون فى رأس الصف كبير القوم الواردين ولما تقدمنا للطعام خدم الحجاب والنقباء وخدمنا لخدمتهم ثم أتوا بالشربة فشربنا وقال الحجاب بسم الله ثم أكلنا وأتوا بالفقاع ثم بالتنبول ثم قال الحجاب بسم الله فخدمنا جميعا ثم دعينا الى موضع هنالك فخلع علينا خلع الحرير المذهبة ثم أتوا بنا الى باب القصر فخدمنا عنده وقال الحجاب بسم الله ووقف الوزير ووقفنا معه ثم أخرج من داخل القصر تخت ثياب غير مخيطة من حرير وكتان وقطن فاعطى كل واحد منا نصيبه منها ثم أتوا بطيفور ذهب فيه الفاكهة اليابسة وبطيفور مثله فيه الجلاب وطيفور ثالث فيه التنبول ومن عادتهم ان الذي يخرج له ذلك يأخذ الطيفور بيده ويجعله على كاهله ثم يخدم بيده الاخرى الى الارض فاخذ الوزير الطيفور بيده قصد أن يعلمني كيف أفعل ايناسا منه وتواضعا ومبرة جزاه الله خيرا ففعلت كفعله ثم انصرفنا الى الدار المعدة لنزولنا بمدينة دهلى وبمقربة من دروازة بالم منها وبعثت لنا الضيافة

ـــ ذكر الضيافة ـــ

ولما وصلت الى الدار التي أعددت لنزولى وجدت فيها ما يحتاج اليه من فرش وبسط وحصر واوان وسرير الرقاد وأسرتهم بالهند خفيفة الحمل يحمل السرير منها الرجل الواحد ولا بد لكل أحد أن يستصحب السرير فى السفر يحمله غلامه على رأسه وهو أربع قوائم مخروطة يعرض عليها أربعة أعواد وتنسج عليها ضفائر من الحرير أو القطن فاذا نام الانسان عليه لم يحتج الى ما يرطبه به لانه يعطى الرطوبة من ذاته وجاؤا مع السرير بمضربتين ومخدتين ولحاف كل ذلك من الحرير وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللحوف (واللحف) وجوها تغشيها من كتان أو قطن بيضا فتي توسخت غسلوا الوجوه المذكورة وبقي ما في داخلها مصونا وأتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحوني ويسمونه الخراص والآخر الجزار ويسمونه القصاب فقالوا لنا خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق ومن هذا كذا وكذا من اللحم لاوزان لا أذكرها الآن وعادتهم أن يكون اللحم الذى يعطون بقدر وزن الدقيق وهذا الذى ذكرناه ضيافة أم السلطان وبعد ذلك وصلتنا ضيافة السلطان وسنذكرها ولما كان من غد ذلك اليوم ركبنا الى دار السلطان وسلمنا على الوزير فاعطاني بدرتين كل بدرة من ألف دينار دراهم وقال لى هذه سرششتي (شستي) ومعناه لغسل رأسك وأعطاني خلعة من المرعز وكتب جميع أصحابي وخدامي وغلماني فجعلوا أربعة أصناف فالصنف الاول منها أعطي كل واحد منهم مائتي دينار والصنف الثانى أعطى كل واحد منهم مائة وخمسين دينارا والصنف الثالث أعطي كل واحد مائة دينار والصنف الرابع أعطي كل واحد خمسة وسبعين دينارا وكانوا نحو أربعين وكان جملة ما اعطوه أربعة آلاف دينار ونيفا وبعد ذلك عينت ضيافة السلطان وهي الف رطل هندية من الدقيق ثلثها من الميرا وهو الدرمك وثلثاها من الخشكار وهو المدهون والف رطل من اللحم ومن السكر والسمن والسليف والفوفل ارطال كثيرة لا اذكر عددها والالاف من ورق التنبول والرطل الهندى عشرون رطلا من ارطال المغرب وخمسة وعشرون من ارطال مصر وكانت ضيافة خداوند زاده اربعة آلاف رطل من الدقيق ومثلها من اللحم مع ما يناسبها مما ذكرناه

— ذكر وفاة بنتي وما فعلوا فى ذلك —

ولما كان بعد شهر ونصف من مقدمنا توفيت بنت لى سنها دون السنة فاتصل خبر وفاتها بالوزير فامر ان تدفن فى زاوية بناها خارج دروازة بالم بقرب مقبرة هنالك لشيخنا ابراهيم القونوي فدفناها بها وكتب بخبرها الى السلطان فاتاه الجواب فى عشى اليوم الثانى وكان بين متصيد السلطان وبين الحضرة مسيرة عشرة ايام وعادتهم ان يخرجوا الى قبر الميت

صبيحة الثالث من دفنه ويفرشون جوانب القبر بالبسط وثياب الحرير ويجعلون على القبر الازاهير وهى لا تنقطع هنالك فى فصل من الفصول كالياسمين وقل شبه (كل شبو) وهى زهر أصفر وريبول وهو أبيض والنسرين وهو على صنفين أبيض وأصفر ويجعلون اغصان النارنج والليمون بثمارها وان لم يكن فيها ثمار علقوا منها حبات بالخيوط ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجوز النارجيل ويجتمع الناس ويؤتي بالمصاحف فيقرؤن القرآن فاذا ختموه أتوا بماء الجلاب فسقوه الناس ثم يصب عليهم ماء الورد صبا ويعطون التنبول وينصرفون ولما كان صبيحة الثالث من دفن هذه البنت خرجت عند الصبح على العادة واعددت ماتيسر من ذلك كله فوجدت الوزير قد أمر بترتيب ذلك وامر بسراجة فضربت على القبر وجاء الحاجب شمس الدين القوشنجي الذي تلقانا بالسند والقاضى نظام الدين الكروانى وجملة من كبار أهل المدينة ولم آت الا والقوم المذكورون وقد أخذوا مجالسهم والحاجب بين أيديهم وهم يقرؤن القرآن فقعدت مع أصحابي بقربة من القبر فلما فرغوا من القراءة قرأ القراء باصوات حسان ثم قام القاضى فقرأ رثاء فى البنت المتوفاة وثناء على السلطان وعند ذكر اسمه قام الناس جميعا قياما فخدموا ثم جلسوا ودعا القاضى دعاء حسنا ثم أخذ الحاجب وأصحابه براميل ماء الورد فصبوا على الناس ثم داروا عليهم باقداح شربة النبات ثم فرقوا عليهم التنبول ثم أتي باحدى عشرة خلعة لى ولاصحابى ثم ركب الحاجب وركبنا معه الى دار السلطان فخدمنا للسرير على العادة وانصرفت الى منزلى فما وصلت الا وقد جاء الطعام من دار المخدومة جهان ماملا الدار ودور أصحابى واكلوا جميعا وأكل المساكين وفضلت الاقراص والحلواء والنبات فاقامت بقاياها أياما وكان فعل ذلك كله بامر السلطان وبعد أيام جاء الفتيان من دار المخدومة جهان بالدولة وهي المحفة التى يحمل فيها النساء ويركبها الرجال أيضا وهي شبه السرير سطحها من ضفائر الحرير او القطن وعليها عود شبه الذي على البوجات عندنا معوج من القصب الهندى المغلوق ويحملها ثمانية رجال فى نوبتين يستريح أربعة ويحمل أربعة وهذه الدول بالهند كالحمير بديار مصر عليها يتصرف اكثر الناس فمن كان له عبيد حملوه ومن لم يكن له عبيدا كترى رجالا يحملونه وبالبلد منهم جماعة يسيرة يقفون فى الاسواق وعند باب السلطان وعند ابواب الناس للكرى وتكون دول النساء مغشاة بغشاة حرير وكذلك كانت هذه الدولة التي أتى الفتيان بها من دار ام السلطان فحملوا فيها جاريتي التى هي أم البنت المتوفاة وبعثت انا معها عن هدية جارية تركية فاقامت الجارية أم البنت عندهم ليلة وجاءت في اليوم الثانى وقد أعطوها الف

دينار دراهم وأساور ذهب مرصعة وتهليلا من الذهب مرصعا ايضا وقيص كتان مزركشا بالذهب وخلعة حرير مذهبة وتختا باثواب ولما جاءت بذلك كله اعطيته لاصحابي وللتجار الذين لهم على الدين محافظة على نفسي وصونا لعرضي لان المخبرين يكتبون الى السلطان بجميع أحوالي

— ذكر احسان السلطان والوزير الي في أيام غيبة السلطان عن الحضرة —

وفي أثناء مقامي أمر السلطان ان يعين لي من القرى مايكون فائدة خمسة آلاف دينار في السنة فعينها لي الوزير وأهل الديوان وخرجت اليها فمنها قرية تسمى بدلي (بفتح الباء الموحدة وفتح الدال المهملة وكسر اللام) وقرية تسمى بسهي (بفتح الباء الموحدة والسين المهمل وكسر الهاء) ونصف قرية تسمى بالرة (بفتح الباء الموحدة واللام والراء) وهذه القرى على مسافة ستة عشر كروها وهو الميل بصدى يعرف بصدى هندبت والصدى عندهم مجموع مائة قرية وأحواز المدينة مقسومة اصداء كل صدى له جوطرى وهو شيخ من كفار تلك البلاد ومتصرف وهو الذي يضم مجابيها وكان قد وصل في ذلك الوقت سبي من الكفار فبعث الوزير الي عشر جوار منه فاعطيت للذي جاء بهن واحدة منهن فما رضي بذلك وأخذ أصحابي ثلاثا صغارا منهن وباقيهن لا أعرف ما اتفق لهن والسبي هنالك رخيص الثمن لانهن قذرات لا يعرفن مصالح الحضر والمعلمات رخيصات الاثمان فلا يفتقر أحد الى شراء السبي والكفار ببلاد الهند في بر متصل وبلاد متصلة مع المسلمين والمسلمون غالبون عليهم وانما يمتنع الكفار بالجبال والاوعار ولهم غيضات من القصب وقصبهم غير مجوف ويعظم ويلتف بعضه على بعض ولا تؤثر فيه النار وله قوة عظيمة فيسكنون تلك الغياض وهي لهم مثل السور وبداخلها تكون مواشيهم وزروعهم ولهم فيها المياه مما يجتمع من ماء المطر فلا يقدر عليهم الا بالعساكر القوية من الرجال الذين يدخلون تلك الغياض ويقطعون تلك القصب بالآت معدة لذلك

— ذكر العيد الذي شهدته أيام غيبة السلطان —

وأظل عيد الفطر والسلطان لم يعد بعد الى الحضرة فلما كان يوم العيد ركب الخطيب على الفيل وقد مهد له على ظهره شبه السرير وركزت أربعة أعلام في أركانه الاربعة ولبس الخطيب ثياب السواد وركب المؤذنون على الفيلة يكبرون امامه وركب فقهاء المدينة وقضاتها وكل واحد منهم يستصحب صدقة يتصدق بها حين الخروج الى المصلى ونصب على المصلى صيوان قطن وفرش ببسط واجتمع الناس ذاكرين لله تعالى ثم صلى بهم الخطيب

وخطب وانصرف الناس الى منازلهم وانصرفنا الى دار السلطان وجعل الطعام فحضره الملوك والامراء والاعزة وهم الغرباء وأكلوا وانصرفوا

— ذكر قدوم السلطان ولقائنا له —

ولما كان فى رابع شوال نزل السلطان بقصر يسمى تلبت (بكسر التاء المعلوة الاولى وسكون اللام وفتح الباء الموحدة ثم تاء كالاولى) وهي على مسافة سبعة أميال من الحضرة فامرنا الوزير بالخروج اليه فخرجنا ومع كل انسان هديته من الخيل والجمال والفواكه الخراسانية والسيوف المصرية والمماليك والغنم المجلوبة من بلاد الاتراك فوصلنا الى باب القصر وقد اجتمع جميع القادمين فكانوا يدخلون الى السلطان على قدر مراتبهم ويخلع عليهم ثياب الكتان المزركشة بالذهب ولما وصلت النوبة الى دخلت فوجدت السلطان قاعدا على كرسي فظننته أحد الحجاب حتي رأيت معه ملك الندماء ناصر الدين الكافى الهروي وكنت عرفته أيام غيبة السلطان فخدم الحاجب فخدمت واستقبلني أمير حاجب وهو ابن عم السلطان المسمى بفيروز وخدمت ثانية لخدمته ثم قال لى ملك الندماء بسم الله مولانا بدر الدين وكانوا يدعونني بارض الهند بدر الدين وكل من كان من أهل الطلب انما يقال له مولانا فقربت من السلطان حتى أخذ بيدى وصافحنى وأمسك يدي وجعل يخاطبني باحسن خطاب ويقول لي باللسان الفارسى حلت البركة قدومك مبارك اجمع خاطرك اعمل معك من المراحم وأعطيك من الانعام ما يسمع به أهل بلادك فيأتون اليك ثم سالنى عن بلادى فقلت له بلاد المغرب فقال لى بلاد عبد المؤمن فقلت له نعم وكان كلما قال لى كلاما جيدا قبلت يده حتي قبلتها سبع مرات وخلع على وانصرفت واجتمع الواردون فمد لهم سماط ووقف على رؤوسهم قاضى القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي وكان من كبار الفقهاء وقاضي قضاة المماليك صدر الجهان كمال الدين الغزنوى وعماد الملك عرض المماليك والملك جلال الدين الكيجى وجماعة من الحجاب والامراء وحضر لذلك خداوندزاده غياث الدين بن عم خداوندزاده قوام الدين قاضى الترمذ الذى قدم معنا وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالاخ وتردد اليه مرارا من بلاده والواردون الذين خلع عليهم فى ذلك هم خداوندزاده قوام الدين واخوته ضياء الدين وعماد الدين وبرهان الدين وابن أخته أمير بخت ابن السيد تاج الدين وكان جده وجيه الدين وزير خراسان وكان خاله علاء الدين أمير هند ووزيرا أيضا والامير هبة الله بن الفلكى التبريزى وكان أبوه نائب الوزير بالعراق وهو الذى بني المدرسة الفلكية بتبريز وملك كراى من أولاد بهرام جور (جوبين)

صاحب كسرى وهو من أهل جبل بدخشان الذى منه يجلب الياقوت البلخش واللازورد والامير مبارك شاه السمرقندى وأرون بغا البخاري وملك زاده الترمذى وشهاب الدين الكازرونى التاجر الذى قدم من تبريز بالهدية الى السلطان فسلب فى طريقه

— ذكر دخول السلطان الى حضرته وما أمر لنا به من المراكب —

وفى الغد من يوم خروجنا الى السلطان أعطي كل واحدمنا فرسا من مراكب السلطان عليه سرج ولجام محليان وركب السلطان لدخول حضرته وركبنا فى مقدمته مع صدر الجهان وزينت الفيلة امام السلطان وجعلت عليها الاعلام ورفعت عليها ستة عشر اشطرا منها مزركشة ومنها مرصعة ورفع فوق رأس السلطان شطرا منها وحملت امامه الغاشية وهي ستارة مرصعة وجعل على بعض الفيلة رعادات صغار فلما وصل السلطان الى قرب المدينة رمى فى تلك الرعادات بالدنانير والدراهم مختلطة والمشاة بين يدى السلطان وسواهم ممن حضر يلتقطون ذلك ولم يزالوا ينثرونها الى أن وصلوا الى القصر وكان بين يديه آلاف من المشاة على الاقدام وصنعت قباب الخشب المكسوة بثياب الحرير وفيها المغنيات حسبما ذكرنا ذلك

— ذكر دخولنا اليه وما أنعم به من الاحسان والولاية —

ولما كان يوم الجمعة ثانى يوم دخول السلطان أتينا باب المشور فجلسنا فى سقائف الباب الثالث ولم يكن الاذن حصل لنا بالدخول وخرج الحاجب شمس الدين الفوشنجى فامر الكتاب ان يكتبوا أسماءنا وأذن لهم في دخولنا ودخول بعض أصحابنا وعين للدخول معى ثمانية فدخلنا ودخلوا معنا ثم جاؤا بالبدر والقبان وهو الميزان وقعد قاضى القضاة والكتاب ودعوا من الباب من الاعزة وهم الغرباء فعينوا لكل انسان نصيبه من تلك البدر فحصل لى منها خمسة آلاف دينار وكان مبلغ المال مائة الف دينار تصدقت به ام السلطان لما قدم ابنها وانصرفنا ذلك اليوم وكان السلطان بعد ذلك يستدعينا للطعام بين يديه ويسال عن أحوالنا ويخاطبنا باجمل كلام ولقد قال لنا فى بعض الايام أنتم شرفتمونا بقدومكم فما نقدر على مكافاتكم فالكبير منكم مقام والدي والكهل مقام أخي والصغير مقام ولدى وما فى ملكى أعظم من مدينتى هذه أعطيكم اياها فشكرناه ودعونا له ثم بعد ذلك امر لنا بالمرتبات فعين لى اثنى عشر ألف دينار فى السنة وزادني قريتين على الثلاث التى أمر لى بها قبل احداها قرية جوزة والثانية قرية ملك بور وفى بعض الايام بعث لنا خداوندزاده غياث الدين وقطب الملك صاحب السند فقالا لنا ان خوندعالم يقول لكم من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الامارة أو القضاء أو التدريس أو المشيخة أعطيته ذلك فسكت الجميع لانهم كانوا يريدون

تحصيل الاموال والانصراف الى بلادهم وتكلم اميربخت ابن السيد تاج الدين الذي تقدم ذكره فقال أما الوزارة فميراثي وأما الكتابة فشغلي وغيرذلك لا اعرفه وتكلم هبة الله بن الفلكي فقال مثل ذلك وقال لي خداوندزاده بالعربي ماتقول انت ياسيدى وأهل تلك البلاد مايدعون العربي الا بالتسويد وبذلك يخاطبه السلطان تعظيما للعرب فقلت له أما الوزارة والكتابة فليست شغلي وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي وأما الامارة فتعلمون ان الاعاجم ماأسلمت الا باسياف العرب فلما بلغ ذلك الى السلطان أعجبه كلامي وكان بهزار اسطون ياكل الطعام فبعث عنا فاكلنا بين يديه وهو ياكل ثم انصرفنا الى خارج هزار اسطون فقعد أصحابي وانصرفت بسبب دمل كان يمنعني الجلوس فاستدعانا السلطان ثانية فحضر أصحابي واعتذروا له عني وجئت بعد صلاة العصر فصليت بالمشور المغرب والعشاء الآخرة ثم خرج الحاجب فاستدعانا فدخل خداوندزاده ضياء الدين وهو أكبر الاخوة المذكورين فجعله السلطان أميرداد وهو من الامراء الكبار فجلس بمجلس القاضى فمن كان له حق على أمير او كبير احضره بين يديه وجعل مرتبه على هذه الخطة خمسين ألف دينار فى السنة عين له مجاشر فائدها ذلك المقدار فامرله بخمسين ألفا عن يد وخلع عليه خلعة حرير مزركشة تسمى صورة الشير ومعناه صورة السبع لانه يكون فى صدرها وظهرها صورة سبع وقد خيط فى باطن الخلعة بطاقة بمقدار مازركش فيهامن الذهب وأمرله بفرس من الجنس الاول والخيل عندهم أربعة اجناس وسروجهم كسروج أهل مصر ويكسون أعظمها بالفضة المذهبة ثم دخل أميربخت فامره أن يجلس مع الوزير فى مشده ويقف على محاسبات الدواوين وعين له مرتبا اربعين ألف دينار فى السنة أعطي مجاشر فائدها بمقدار ذلك واعطي اربعين ألفا عن يد وأعطي فرسا مجهزا وخلع عليه كخلعة الذى قبله ولقب شرف الملك ثم دخل هبة الله ابن الفلكي فجعله رسول دار ومعناه حاجب الارسال وعين له مرتبا اربعين ألف دينار فى السنة أعطي مجاشر يكون فائدها بمقدار ذلك وأعطي أربعة وعشرين ألفا عن يد وأعطى فرسا مجهزا وخلعة وجعل لقبه بهاء الملك ثم دخلت فوجدت السلطان على سطح القصر مستندا الى السرير والوزير خواجه جهان بين يديه والملك الكبير قبولة واقف بين يديه فلما سلمت عليه قال لي الملك الكبير اخدم فقد جعلك خوند عالم قاضي دار الملك دهلي وجعل مرتبك اثنى عشر ألف دينار فى السنة وعين لك مجاشر بمقدارها وأمرلك باثني عشر ألفا نقدا تاخذها من الخزانة غدا ان شاء الله واعطاك فرسا بسرجه ولجامه وأمرلك بخلعة محاربين وهي التي يكون فى صدرها وظهرها شكل محراب فخدمت

وأخذ بيدى فتقدم بي الى السلطان فقال لى السلطان لاتحسب قضاء دهلى من اصغر الاشغال هو أكبر الاشغال عندنا وكنت أفهم قوله ولا أحسن الجواب عنه وكان السلطان يفهم العربي ولا يحسن الجواب عنه فقلت له يامولانا أنا على مذهب مالك وهؤلاء حنفية وأنا لا أعرف اللسان فقال لى قد عينت بهاء الدين الملتاني وكمال الدين البجنوري ينوبان عنك ويشاورانك وتكون أنت تسجل على العقود وأنت عندنا بمقام الولد فقلت له بل عبدكم وخديمكم فقال لى باللسان العربي بل انت سيدنا ومخدومنا تواضعا منه وفضلا وإيناسا ثم قال لشرف الملك أمير بخت ان كان الذي ترتب له لا يكفيه لانه كثير الانفاق فانا أعطيه زاوية ان قدر على اقامة حال الفقراء وقال قل له هذا بالعربي وكان يظن انه يحسن العربي ولم يكن كذلك وفهم السلطان ذلك فقال له برو ويكجا بخصبي (بخسپی) وان حكاية براو بكوي وتفهيم كني (بكني) تا فردا ان شاء الله ييش من بيايى (و) جواب او بكرى (بكوى) معناه امشوا الليلة فارقدوا فى موضع واحد وفهمه هذه الحكاية فاذا كان بالغد ان شاء الله يجيء الى وتعلمنى بكلامه فانصرفنا وذلك فى ثلث الليل وقد ضربت النوبة والعادة عندهم اذا ضربت لا يخرج أحد فانتظرنا الوزير حتى خرج وخرجنا معه ووجدنا أبواب دهلى مسدودة فبتنا عند السيد أبى الحسن العبادي العراقي بزقاق يعرف بسرا بورخان وكان هذا الشيخ يتجر بمال السلطان ويشترى له الاسلحة والامتعة بالعراق وخراسان ولما كان بالغد بعث عنا فقبضنا الاموال والخيل والخلع وأخذ كل واحد منا البدرة بالمال فجعلها على كاهله ودخلنا كذلك على السلطان فخدمنا وأتينا بالافراس فقبلنا حوافرها بعد ان جعلت عليها الخرق وقدناها بانفسنا الى باب دار السلطان فركبناها وذلك كله عادة عندهم ثم انصرفنا وامر السلطان لاصحابي بالفى دينار وعشر خلع ولم يعط لاصحابي أحد سواى شيئا وكان أصحابي لهم رواء ومنظر فاعجبوا السلطان وخدموا بين يديه وشكرهم

—— ذكر عطاء ثان أمر لى به وتوقفه مدة ——

وكنت يوما بالمشور بعد أيام من توليتى القضاء والاحسان الى وانا قاعد تحت شجرة هنالك والى جانبي مولانا ناصر الدين الترمذى العالم الواعظ فاتي بعض الحجاب فدعي مولانا ناصر الدين فدخل الى السلطان فخلع عليه واعطاه مصحفا مكللا بالجوهر ثم اتانى بعض الحجاب فقال اعطنى شيئا وآخذ لك خط خرد باثنى عشر ألفا امر لك بها خوند عالم فلم اصدقه وظننته يريد الحيلة على وهو يجد فى كلامه فقال بعض الاصحاب انا اعطيه فاعطاه دينارين او ثلاثة وجاء بخط خرد ومعناه الخط الاصغر مكتوبا بتعريف الحاجب ومعناه امر خوند عالم ان

يعطي من الخزانة المو فورة كذا لفلان بتبليغ فلان أى بتعريفه و يكتب المبلغ اسمه ثم يكتب على تلك البراءة ثلاثة من الامراء وهم الخان الاعظم قطلوخان معلم السلطان والخريطة دار وهو صاحب خريطة الكاغد والاقلام والامير نكبية الدوادار صاحب الدوات فاذا كتب كل واحد منهم خطه يذهب بالبراءة الى ديوان الوزارة فينسخها كتاب الديوان عندهم ثم تثبت في ديوان الاشراف ثم تثبت في ديوان النظر ثم تكتب البروانة وهى الحكم من الوزير للخازن بالعطاء ثم يثبتها الخازن في ديوانه و يكتب تلخيصا فى كل يوم بمبلغ ما أمر به السلطان ذلك اليوم من المال و يعرضه عليه فمن أراد التعجيل بعطائه امر بتعجيله ومن أراد التوقيف وقف له ولكن لا بد من عطاء ذلك ونوطات المدة فقد توقفت هذه الاثناء عشر الفاستة اشهر ثم اخذتها مع غيرها حسبما ياتى وعادتهم اذا أمر السلطان باحسان لاحد يحط منه العشرة فمن أمر له مثلا بمائة الف اعطي تسعين ألفا أو بعشرة آلاف اعطى تسعة آلاف

ذكر طلب الغرماء مالهم قبلي ومدحي للسلطان وامره بخلاص ديني و توقف ذلك مدة

وكنت حسبما ذكرته قد استدنت من التجار مالا انفقته فى طريقي وما صنعت به الهدية للسلطان وما انفقته في اقامتي فلما أرادوا السفر الى بلادهم ألحوا على فى طلب ديونهم فمدحت السلطان بقصيدة طويلة اولها (طويل)

اليك أمير المؤمنين المبجلا * أتينا نجد السير نحوك فى الفلا

فجئت محلا من علائك زائرا * ومغناك كهف للزيارة أهلا

فلوان فوق الشمس للمجد رتبة * لكنت لاعلاها اماما مؤهلا

فانت الامام الماجد الاوحد الذي * سجاياه حتما أن يقول ويفعلا

ولى حاجة من فيض جودك ارتجي * قضاها وقصدى عند مجدك سهلا

أأذكرها أم قد كفانى حياؤكم * فان حياكم ذكره كان اجملا

فعجل لمن وافى محلك زائرا * قضاء دينه ان الغريم تعجلا

فقدمتها بين يديه وهو قاعد على كرسي فجعلها على ركبته وامسك طرفها بيده وطرفها الثاني بيدى وكنت اذا أكملت بيتا منها أقول لقاضى القضاة كمال الدين الغزنوى بين معناه لخوند عالم فيبينه ويعجب السلطان وهم يحبون الشعر العربى فلما بلغت الى قولى فعجل لمن وافى البيت قال مرحمة ومعناه ترحمت عليك فاخذ الحجاب حينئذ بيدي ليذهبوا بى الى موقفهم وأخدم على العادة فقال السلطان اتركوه حتى يكملها فاكملتها وخدمت وهنانى الناس بذلك وأقمت مدة وكتبت رفعا وهم يسمونه عرض داشت فدفعته الى قطب الملك

صاحب السند فدفعه للسلطان فقال له امض الى خواجه جهان فقل له يعطي دينه فمضى اليه وأعلمه فقال نعم وابطأ ذلك اياما وأمره السلطان في خلالها بالسفر الى دولة آباد وفي اثناء ذلك خرج السلطان الى الصيد وسافر الوزير فلم آخذ شيئاً منها الا بعد مدة والسبب الذي توقف به عطاؤها اذكره مستوفي وهو انه لما عزم الذين كان لهم على الدين الى السفر قلت لهم اذا أنا آتيت دار السلطان فدرهوني على العادة في تلك البلاد لعلمي ان السلطان متي يعلم بذلك خلصهم وعادتهم انه متى كان لاحد دين على رجل من ذوي العناية وأعوزه خلاصه وقف له بباب دار السلطان فاذا أراد الدخول قال له درو هي السلطان وحق رأس السلطان ما تدخل حتى تخلصني فلا يمكنه ان يبرح من مكانه حتي يخلصه أو يرغب اليه في تاخيره فاتفق يوما ان خرج السلطان الى زيارة قبر أبيه ونزل بقصر هنالك فقلت لهم هذا وقتكم فلما أردت الدخول وقفوا الى باب القصر فقالوا لي درو هي السلطان ما تدخل حتى تخلصنا وكتب كتاب الباب بذلك الى السلطان فخرج حاجب قصة شمس الدين وكان من كبار الفقهاء فسالهم لاى شيء درهمتموه فقالوا لنا عليه الدين فرجع الى السلطان فاعلمه بذلك فقال له اسالهم كم مبلغ الدين فسالهم فقالوا له خمسة وخمسون الف دينار فعاد اليه فاعلمه فامره ان يعود اليهم ويقول لهم ان خوندعالم يقول لكم المال عندى وأنا أنصفكم منه فلا تطلبوه به وامر عماد الدين السمناني وخداوند زاده غياث الدين ان يقعدوا بهزار اسطون ويأتي اهل الدين بعقودهم وينظروا اليها ويتحققوها ففعلا ذلك وأتى الغرماء بعقودهم فدخلا الى السلطان واعلماه بثبوت العقود فضحك وقال ممازحا أنا أعلم انه قاض جهز شغله فيها ثم أمر خداوندزاده ان يعطيني ذلك من الخزانة فطمع في الرشوة على ذلك وامتنع أن يكتب خط خرد فبعث اليه مائتى تنكة فردها ولم ياخذها وقال لي عنه بعض خدامه انه طلب خمسمائة تنكة فامتنعت من ذلك واعلمت عميد الملك بن عماد الدين السمناني بذلك فاعلم به أباه وعلمه الوزير وكانت بينه وبين خداوندزاده عداوة فاعلم السلطان بذلك وذكر له كثيرا من أفعال خداوندزاده فغير خاطر السلطان عليه فامر بحبسه في المدينة وقال لاي شيء أعطاه فلان ما أعطاه ووقفوا ذلك حتي يعلم هل يعطى خداوندزاده شيئا اذا منعته أو يمنعه اذا أعطيته فبهذا السبب توقف عطاء ديني

— ذكر خروج السلطان الى الصيد وخروجي معه وماصنعت في ذلك —

ولما خرج السلطان الى الصيد خرجت معه من غير تربص وكنت قد أعددت ما يحتاج اليه وعملت ترتيب أهل الهند فاشتريت سراجة وهي أفراج وضربها هنا لك مباح ولا بد منها لكبار

الناس وتمتاز سراجة السلطان بكونها حمراء وسواها بيضاء منقوشة بالازرق واشتريت الصيوان وهو الذى يظلل به داخل السراجة ويرفع على عمودين كبيرين ويجعل ذلك الرجال على أعناقهم ويقال لهم اليكوانية والعادة هنالك ان يكترى المسافر اليكوانية وقد ذكرناهم ويكتري من يسوق له العشب لعلف الدواب لانهم لا يطعمونها التبن ويكترى الكهارين وهم الذين يحملون أوانى المطبخ ويكترى من يحمله فى الدولة وقد ذكرناها ويحملها فارغة ويكترى الفراشين وهم الذين يضربون السراجة ويفرشونها ويرفعون الاحمال على الجمال ويكتري الدوادوية وهم الذين يمشون بين يديه ويحملون المشاعل بالليل فاكتريت انا جميع من احتجت له منهم واظهرت القوة والهمة وخرجت يوم خروج السلطان وغيرى اقام بعده اليومين والثلاثة فلما كان بعد العصر من يوم خروجه ركب الفيل وقصده أن يتطلع على أحوال النـاس ويعرف من تسارع الى الخروج ومن أبطا وجلس خارج السراجة على كرسى فجئت وسلمت ووقفت فى موقفى بالميمنة فبعث الى الملك الكبير قبولة سرجا مدار وهوالذي يشرد الذباب عنه فامرنى بالجلوس عناية بي ولم يجلس فى ذلك اليوم سوائي ثم أتى بالفيل والصق به سلم فركب عليه ورفع الشطر فوق رأسه وركب معه الخواص وجال ساعة ثم عاد الى السراجة وعادته اذا ركب أن يركب الامراء أفواجا كل أمير بفوجه وعلاماته وطبوله وانفاره وصرناياته ويسمون ذلك المراتب ولا يركب امام السلطان الا الحجاب وأهل الطرق والطبالة الذين يتقلدون الاطبال الصغار والذين يضربون الصرنايات ويكون عن يمين السلطان نحو خمسة عشر رجلا وعن يساره مثل ذلك منهم قضاة القضاة والوزير وبعض الامراء الكبار وبعض الاعزة وكنت أنا من أهل ميمنته ويكون بين يديه المشاؤون والادلاء ويكون خلفه علاماته وهي من الحرير المذهب والاطبال على الجمال وخلف ذلك مماليكه وأهل دخلته وخلفهم الامراء وجميع الناس ولا يعلم أحد أين يكون النزول فاذا أمر السلطان بمكان يعجبه النزول به أمر بالنزول ولا تضرب سراجة أحد حتى تضرب سراجته ثم ياتى الموكلون بالنزول فينزلون كل أحد فى منزله وفي خلال ذلك ينزل السلطان على نهر او بين أشجار وتقدم بين يديه لحوم الاغنام والدجاج المسمنة والكراكى وغيرها من أنواع الصيد ويحضر ابناء الملوك وفي يد كل واحد منهم سفود ويوقدون النار ويشترون ذلك ويؤتي بسراجة صغيرة فتضرب للسلطان ويجلس من معه من الخواص خارجها ويؤتى بالطعام ويستدعى من شاء فياكل معه وكان فى بعض تلك الايام وهو بداخل السراجة يسال عمن بخارجها فقال له السيد ناصر الدين مطهر الاوهرى أحد ندمائه ثم فلان المغربي وهو متغير فقال لماذا فقال

بسبب الدين الذي عليه وغرماؤه يلحون في الطلب وكان خوند عالم قد أمر الوزير باعطائه فسافر قبل ذلك فان أمر مولانا ان يصبر أهل الدين حتي يقدم الوزير أو أمر بانصافهم وحضر لهذا الملك دولة شاه وكان السلطان يخاطبه بالعم فقال ياخوند عالم كل يوم هو يكلمني بالعربية ولا أدري مايقول ياسيدي ناصر الدين ماذا وقصدا ان يكرر ذلك الكلام فقال يتكلم لاجل الدين الذي عليه فقال السلطان اذا دخلنا دار الملك فامض أنت ياأومارو ومعناه ياعم الى الخزانة فاعطه ذلك المال وكان خداوندزاده حاضرا فقال ياخوند عالم انه كثير الانفاق وقد رأيته ببلادنا عند السلطان طرمشيرين وبعد هذا الكلام استحضرني السلطان للطعام ولا علم عندي بما جري فلما خرجت قال لى السيد ناصر الدين اشكر للملك دولة شاه وقال لى الملك دولة شاه اشكر لخداوندزاده وفي بعض تلك الايام ونحن مع السلطان في الصيد ركب في المحلة وكان طريقه على منزلي وأنا معه في الميمنة وأصحابي في الساقة وكان لى خباء عند السراجة فوقف أصحابي عندها وسلموا على السلطان فبعث عماد الملك وملك دولة شاه ليسألا لمن تلك الاخبية والسراجة فقيل لهما لفلان فاخبراه بذلك فتبسم فلما كان بالغد نفذ الامر ان اعود انا وناصر الدين مطهر الاوهري وابن قاضي مصر وملك صبيح الى البلد فخلع علينا وعدنا الى الحضرة

— ذكر الجمل الذى أهديته للسلطان —

وكان السلطان في تلك الايام سالني عن الملك الناصر هل يركب الجمل فقلت له نعم يركب المهاري في أيام الحج فيسير الى مكة من مصر في عشرة أيام ولكن تلك الجمال ليست كجمال هذه البلاد وأخبرته أن عندي جملا منها فلما عدت الى الحضرة بعثت عن بعض عرب مصر فصور لى صورة الكور الذى تركب المهاري به من القير وأريتها بعض النجارين فعمل الكور وتفقنه وكسوته بالملف وصنعت له ركابا وجعلت على الجمل عباءة حسنة وجعلت له خطام حرير وكان عندي رجل من أهل اليمن يحسن عمل الحلواء فصنع منها مايشبه التمر وغيره وبعثت الجمل والحلواء الى السلطان وأمرت الذى حملها أن يدفعها على يد ملك دولة شاه وبعثت له بفرس وجملين فلما وصله ذلك دخل على السلطان وقال ياخوند عالم رأيت العجب قال وماذلك قال فلان بعث جملا عليه سرج فقال ائتوا به فادخل الجمل داخل السراجة وأعجب به السلطان وقال لراجلى اركبه فركبه ومشاه بين يديه وأمر له بمائتي دينار دراهم وخلعة وعاد الرجل الى فاعلمني فسرني ذلك واهديت له جملين بعد عودته الى الحضرة

— ذكر الجملين اللذين اهديتهما اليه والحلواء وأمره بخلاص ديني وماتعلق بذلك —

ولما عادالى راجلي الذي بعثته بالجمل فاخبرني بما كان من شانه صنعت كورين اثنين وجعلت مقدم كل واحد ومؤخره مكسوا بصفائح الفضة المذهبة وكسوتهما بالملف وصنعت رسنا مصفحا بصفائح الفضة وجعلت لهما جلين من زردخانة مبطنين بالكمخا وجعلت للجملين الخلاخيل من الفضة المذهبة وصنعت احد عشر اطيفورا وملأتها بالحلواء وغطيت كل طيفور بمنديل حرير فلما قدم السلطان من الصيد وقعد ثاني يوم قدومه بموضع جلوسه العام غدوت عليه بالجمال فامربها فحركت بين يديه وهرولت فطار خلخال أحدها فقال لبهاء الدين بن الفلكى بايل وردارى معني ذلك ارفع الخلخال فرفعه ثم نظر الى الطيافير فقال جدارى (جه دارى) درآن طبقها احلوا اسث معنى ذلك ما معك فى تلك الاطباق حلواء هي فقلت له نعم فقال للفقيه ناصر الدين الترمذى الواعظ ما أكلت قط ولا رأيت مثل الحلواء التى بعثها الينا ونحن بالمعسكر ثم أمر بتلك الطيافير ان ترفع لموضع جلوسه الخاص فرفعت وقام الى مجلسه واستدعاني وأمر بالطعام فاكلت ثم سالني عن نوع من الحلواء الذى بعثت له قبل فقلت له ياخوند عالم تلك الحلواء أنواعها كثيرة ولا أدرى عن أى نوع تسالون منها فقال إيتوا بتلك الاطباق وهم يسمون الطيفور طبقا فاتوا بها وقدموها بين يديه وكشفوا عنها فقال عن هذا سالتك وأخذ الصحن الذي هي فيه فقلت له هذه يقال لها المقرصة ثم أخذ نوعا آخر فقال وما اسم هذه فقلت له هي لقيمات القاضي وكان بين يديه تاجر من شيوخ بغداد يعرف بالسامري وينتسب الى آل العباس رضى الله تعالى عنه وهو كثير المال ويقول له السلطان والدي فحسدني واراد ان يخجلني فقال ليست هذه لقيمات القاضي بل هي هذه واخذ قطعة من التي تسمى جلد الفرس وكان بازائه ملك الندماء ناصر الدين الكافى الهروى وكان كثيرا ما يمازح هذا الشيخ بين يدى السلطان فقال له ياخواجه انت تكذب والقاضى يقول الحق فقال له السلطان وكيف ذلك فقال ياخوند عالم هو القاضى وهى لقيماته فانه أتى بها فضحك السلطان وقال صدقت فلما فرغنا من الطعام أكل الحلواء ثم شرب الفقاع بعد ذلك واخذنا التنبول وانصرفنا فلم يكن غير هنية واتاني الخازن فقال ابعث أصحابك يقبضون المال فبعثتهم وعدت الى دارى بعد المغرب فوجدت المال بها وهو ثلاث بدر فيها ستة آلاف ومائتان وثلاث وثلاثون تنكة وذلك صرف الخمسة والخمسين ألفا التى هى دين على وصرف الاثنى عشر الفا التي أمرلى بها فيما تقدم بعد حط العشر على عادتهم وصرف التنكة ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب

ــــ ذكر خروج السلطان وامره لى بالاقامة بالحضرة ــــ

وفى تاسع جمادى الاولى خرج السلطان برسم قصد بلاد المعبر وقتال القائم بها وكنت قد خلصت أصحاب الدين وعزمت على السفر وأعطيت مرتب تسعة أشهر للكهارين والفراشين والكيوانية والدوادرية وقد تقدم ذكرهم فخرج الامر باقامتي فى جملة ناس وأخذ الحاجب خطوطنا بذلك لتكون حجة له وتلك عادتهم خوفا من أن ينكر المبلغ وأمر لى بستة آلاف دينار دراهم وأمر لابن قاضى مصر بعشرة آلاف وكذلك كل من أقام من الاعزة وأما البلديون فلم يعطوا شيئا وأمر لى السلطان أن أتولى النظر فى مقبرة السلطان قطب الدين الذي تقدم ذكره وكان السلطان يعظم تربته تعظيما شديدا لانه كان خديما له ولقد رأيته اذا أتي قبره يأخذ نعله فيقبله ويجعله فوق رأسه وعادتهم أن يجعلوا نعل الميت عند قبره فوق متكاة وكان اذا وصل القبر خدم له كما كان يخدم أيام حياته وكان يعظم زوجته ويدعوها بالاخت وجعلها مع حرمه وزوجها بعد ذلك لابن قاضى مصر واعتني به من اجلها وكان يمضى لزيارتها فى كل جمعة ولما اخرج السلطان بعث عنا للوداع فقام ابن قاضي مصر فقال أنا لا أودع ولا أفارق خوند عالم فكان له فى ذلك الخير فقال له السلطان امض فتجهز للسفر وقدمت بعده للوداع وكنت أحب الاقامة ولم تكن عاقبتها محمودة فقال مالك من حاجة فاخرجت بطاقة فيها ست مسائل فقال لي تكلم بلسانك فقلت له إن خوند عالم أمرلى بالقضاء وما قعدت لذلك بعد وليس مرادي من القضاء الاحرمته فامرنى بالقعود للقضاء وقعود النائبين معي ثم قال لى إيه فقلت وروضة السلطان قطب الدين ماذا أفعل بها فيها فانى رتبت فيها اربعمائة وستين شخصا ومحصول أوقافها لا يفى بمرتبا تهم وطعامهم فقال للوزير پنجاه هزار ومعناه خمسون ألفا ثم قال لا بدلك من غلة بدية يعنى أعطه مائة الف من المغلة وهي القمح والارز ينفقها فى هذه السنة حتي تاتى غلة الروضة والمن عشرون رطلا مغربية ثم قال لى وماذا أيضا فقلت ان أصحابى سجنوا بسبب القرى التي أعطيتمونى فانى عوضتها بغيرها فطلب أهل الديوان ماوصلني منها أو الاستظهار بامر خوند عالم ان يرفع عني ذلك فقال كم وصلك منها فقلت خمسة آلاف دينار فقال هي انعام عليك فقلت له وداري التى أمرتم لى بها مفتقرة الي البناء فقال للوزير عمارة كنيد أى معناه عمروها ثم قال لى ديكر نماند فقلت له معناه هل بقي لك كلام فقال لى وصية ديكر هست معناه أوصيك أن لا تاخذ الدين لئلا تطلب فلاتجد من يبلغ خبرك الى انفق على قدر ما أعطيتك قال الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وكلوا واشربوا ولا تسرفوا والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما

فاردت ان أقبل قدمه فمنعني وأمسك رأسي بيده فقبلتها وانصرفت وعدت الى الحضرة فاشتغلت بعمارة داري وأنفقت فيها أربعة آلاف دينار أعطيت منها من الديوان ستمائة دينار وزدت عليها الباقي وبنيت بازائها مسجدا واشتغلت بترتيب مقبرة السلطان قطب الدين وكان السلطان قد أمر ان تبنى عليه قبة يكون ارتفاعها في الهواء مائة ذراع بزيادة عشرين ذراعا على ارتفاع القبة المبنية على قازان ملك العراق وأمر أن تشترى ثلاثون قرية تكون وقفا عليها وجعلها بيدى على ان يكون لي العشر من فائدها على العادة

— ذكر مافعلته في ترتيب المقبرة —

وعادة أهل الهند أن يرتبوا لاموانهم ترتيبا كترتيبهم بقيد الحياة ويؤتى بالفيلة والخيل فتربط عند باب التربة وهي مزينة فرتبت انا في هذه التربة بحسب ذلك ورتبت من قراء القرآن مائة وخمسين وهم يسمونهم الختميين ورتبت من الطلبة ثمانين ومن المعيدين ويسمونهم المكررين ثمانية ورتبت لها مدرسا ورتبت من الصوفية ثمانين ورتبت الامام والمؤذنين والقراء بالاصوات الحسان والمداحين وكتاب الغيبة والمعرفين وجميع هؤلاء يعرفون عندهم بالارباب ورتبت صنفا آخر يعرفون بالحاشية وهم الفراشون والطباخون والدوادوية والابدارية وهم السقاؤون والشربدارية الذين يسقون الشربة والتنبول دارية الذين يعطون التنبول والسلحدارية والنيزدارية والشطرداوية والطشت دارية والحجاب والنقباء فكان جميعهم أربعمائة وستين وكان السلطان أمر أن يكون الطعام بها كل يوم اثني عشر منا من الدقيق ومثلها من اللحم فرأيت ان ذلك قليل والزرع الذى أمر به كثير فكنت أنفق كل يوم خمسة وثلاثين منا من الدقيق ومثلها من اللحم مع مايتبع ذلك من السكر والنبات والسمن والتنبول وكنت أطعم المرتبين وغيرهم من صادر ووارد وكان الغلاء شديدا فارتفق الناس بهذا الطعام وشاع خبره وسافر الملك صبيح الى السلطان بدولة آباد فسأله عن حال الناس فقال له لو كان بدهلي اثنان مثل فلان لما شكا الجهد فاعجب ذلك السلطان وبعث الي بخلعة من ثيابه وكنت أصنع في المواسم وهي العيدان والمولد الكريم ويوم عاشوراء وليلة النصف من شعبان ويوم وفاة السلطان قطب الدين مائة من من الدقيق ومثلها لحما فيا كل منها الفقراء والمساكين وأما أهل الوظيفة فيجعل امام كل انسان منهم مايخصه ولنذكر عادتهم في ذلك

— ذكر عادتهم في اطعام الناس في الولائم —

وعادتهم ببلاد الهند وببلاد السرا انه اذا فرغ من أكل الطعام في الوليمة جعل أمام كل انسان من الشرفاء والفقهاء والمشايخ والقضاة وعاء شبه المهد له أربع قوائم منسوج سطحه

من الخوص وجعل عليه الرقاق وراس غنم مشوى وأربعة أقراص معجونة بالسمن مملوءة بالحلواء الصابونية مغطاة باربع قطع من الحلواء كانها الآجر وطبقا صغيرا مصنوعا من الجلد فيه الحلواء والسموسك ويغطى ذلك الوعاء بثوب قطن جديد ومن كان دون من ذكرناه جعل أمامه نصف رأس غنم ويسمونه الزلة ومقدار النصف مما ذكرناه ومن كان دون هؤلاء أيضا جعل أمامه مثل الربع من ذلك ويرفع رجال كل أحد ما جعل أمامه وأول ما رأيتهم يصنعون هذا بمدينة السرا حضرة السلطان أوزبك فامتنعت أن يرفع رجالي ذلك اذ لم يكن لي به عهد وكذلك يبعثون أيضا الدار كبراء الناس من طعام الولائم

ذكر خروجي الى هزار أمروها

وكان الوزير قد أعطاني من الغلة المامور بها للزاوية عشرة آلاف من ونفذ لي الباقي في هزار أمروها وكان والي الخراج بها عزيز الخمار وأميرها شمس الدين البذخشاني فبعثت رجالي فاخذوا بعض الاحالة وتشكوا من تعسف عزيز الخمار فخرجت بنفسي لاستخلاص ذلك وبين دهلي وهذه العمالة ثلاثة أيام وكان ذلك اوان نزول المطر فخرجت في نحو ثلاثين من اصحابي واستصحبت معي اخوين من المغنيين المحسنين يغنيان لي في الطريق فوصلنا الى بلدة بجنور وضبط اسمها (بكسر الباء الموحدة وسكون الجيم وفتح النون وآخره راء) فوجدت بها ايضا ثلاثة إخوة من المغنيين فاستصحبتهم فكانوا يغنون لي نوبة والآخران نوبة ثم وصلنا الى امروها وهي بلدة صغيرة حسنة فخرج عمالها للقائي وجاء قاضيها الشريف أمير علي وشيخ زاويتها وأضافاني معا ضيافة حسنة وكان عزيز الخمار بموضع يقال افغانبور على نهر السرو وبيننا وبينه النهر ولا معدية فيه فاخذنا الاثقال في معدية صنعناها من الخشب والنبات وجزنا في اليوم الثاني وجاء نجيب أخو عزيز في جماعة من اصحابه وضرب لنا سراجة ثم جاء اخوه الى الوالي وكان معروفا بالظلم وكانت القرى التي في عمالته الفا وخمسمائة قرية وجباها ستون لكا في السنة له فيها نصف العشر ومن عجائب النهر الذي نزلنا عليه انه لا يشرب منه احد في ايام نزول المطر ولا تسقى منه دابة ولقد اقمنا عليه ثلاثا فما غرف منه احد غرفة ولا كدنا نقرب منه لانه ينزل من جبل قراجيل التي بها معادن الذهب ويمر على الخشاش المسمومة فمن شرب منه مات وهذا الجبل متصل مسيرة ثلاثة اشهر و ينزل منه الى بلاد تبت حيث غزلان المسك وقد ذكرنا ما اتفق على جيش المسلمين بهذا الجبل و بهذا الموضع جاء الى جماعة من الفقراء الحيدرية وعملوا السماع وأوقدوا النيران فدخلوها ولم تضرهم وقد ذكرنا ذلك وكانت قد نشات بين امير هذه

البلاد شمس الدين البذخشاني وبين واليها عزيز الخمار منازعة وجاء شمس الدين لقتاله فامتنع منه بداره وبلغت شكاية أحدهما الوزير بدهلي فبعث الى الوزير والى الملك شاه أمير المماليك بامر وهما وهم أربعة آلاف مملوك للسلطان والى شهاب الدين الرومي أن ننظر في قضيتهما فمن كان على الباطل بعثاه مثقفا الى الحضرة فاجتمعوا جميعا بمنزلي وادعى عزيز على شمس الدين دعاوى منها أن خديماله يعرف بالرضي الملتاني نزل بدار خازن عزيز المذكور فشرب بها الخمر وسرق خمسة آلاف دينار من المال الذى عند الخازن فاستفهمت الرضى عن ذلك فقال لى ماشربت الخمر منذ خروجى من ملتان وذلك ثمانية أعوام فقلت له أو شربتها بملتان قال نعم فامرت بجلده ثمانين وسجنته بسبب الدعوى للوث ظهر عليه وانصرفت عن أمروها فكانت غيبتى نحو شهرين وكنت فى كل يوم أذبح لاصحابي بقرة وتركت أصحابي ليأتوا بالزرع المنفذ على عزيز وحمله عليه فوزع على أهل القري التى لنظره ثلاثين ألف من يحملونها على ثلاثة آلاف بقرة وأهل الهند لايحملون الا على البقر وعليه يرفعون اثقالهم فى الاسفار وركوب الحمير عندهم عيب كبير وحميرهم صغار الاجرام يسمونها اللاشة واذا أرادوا إشهار أحد بعد ضربه اركبوه الحمار

— ذكر مكرمة لبعض الاصحاب —

وكان السيد ناصر الدين الاوهرى قد ترك عندي لما سافر ألفا وستين تنكة فتصرفت فيها فلما عدت الى دهلي وجدته قد أحال فى ذلك المال خداوندزاده قوام الدين وكان قدم نائبا عن الوزير فاستقبحت ان أقول له تصرفت فى المال فاعطيته نحو ثلثه واقمت بداري أياما وشاع أني مرضت فاتى ناصر الدين الخوارزمى صدر الجهان لزيارتى فلما رآنى قال ماأرى بك مرضا فقلت له انى مريض القلب فقال لى عرفنى بذلك فقلت له ابعث الى نائبك شيخ الاسلام أعرفه به فبعثه الى فاعلمته فعاد اليه فاعلمه فبعث الى بالف دينار دراهم وكان له عندى قبل ذلك ألفا ثانيا ثم طلب منى بقية المال فقلت فى نفسي مايخلصنى منه الا صدر الجهان المذكور لانه كثير المال فبعثت اليه بفرس مسرج قيمته وقيمة سرجه ألف وستمائة دينار وبفرس ثان قيمته وقيمة سرجه ثمانمائة دينار وببغلتين قيمتهما الف ومائتا دينار وبتركش فضة وبسيفين غمداهما مغشيان بالفضة وقلت له انظر قيمة الجميع وابعث الى ذلك فاخذ ذلك وعمل لجميعه قيمة ثلاثة آلاف دينار فبعث الى ألفا واقتطع الالفين فتغير خاطري ومرضت بالحمى وقلت فى نفسى ان شكوت به الى الوزير افتضحت فاخذت خمسة افراس وجاريتين ومملوكين وبعثت الجميع للملك مغيث الدين محمد بن ملك الملوك عماد الدين السمنانى

وهوفتي مسن فرد على ذلك وبعث الى مائتي تنكة واغزر وخلصت من ذلك المال فشتا ن بين فعل محمد ومحمد

— ذكر خروجي الى محلة السلطان —

وكان السلطان لما توجه الى بلاد المعبر وصل الى التلنك ووقع الوباء بعسكره فعاد الى دولة آباد ثم وصل الى نهر الكنك فنزل عليه وأمر الناس بالبناء وخرجت فى تلك الايام الى محلته واتفق ما سرد ناه من مخالفة عين الملك ولازمت السلطان فى تلك الايام واعطاني من عتاق الخيل لما قسمها على خواصه وجعلني فيهم وحضرت معه الوقيعة على عين الملك والقبض عليه وجزت معه نهر الكنك و نهر السرو ولزيارة قبر الصالح البطل سالار عود (مسعود) وقد استوفيت ذلك كله وعدت معه الى حضرة دهلى لما عاد اليها

— ذكر ماهم به السلطان من عقابى وما تدار كني من لطف الله تعالى —

وكان سبب ذلك انى ذهبت يوما لزيارة الشيخ شهاب الدين ابن الشيخ الجام بالغار الذي احتفره خارج دهلى وكان قصدى رؤية ذلك الغار فلما أخذه السلطان سال أولاده عمن كان يزوره فذكروا ناسا أنا من جملتهم فامر السلطان أربعة من عبيده بملازمتى بالمشور وعادته انه متي فعل ذلك مع أحد قلما يتخلص فكان أول يوم من ملازمتهم لى يوم الجمعة فالهمني الله تعالى الى تلاوة قوله حسبنا الله ونعم الوكيل فقرأتها ذلك اليوم ثلاثة وثلاثين الف مرة وبت بالمشور وواصلت الى خمسة أيام فى كل يوم منها اختم القرآن وافطر على الماء خاصة ثم افطرت بعد خمس وواصلت اربعا وتخلصت بعد قتل الشيخ والحمد لله تعالى

— ذكر انقباضي عن الخدمة وخروجي عن الدنيا —

ولما كان بعد مدة انقبضت عن الخدمة ولازمت الشيخ الامام العالم العابد الزاهد الخاشع الورع فريد الدهر ووحيد العصر كمال الدين عبد الله الغارى وكان من الاولياء وله كرامات كثيرة قد ذكرت منها ما شاهدته عند ذكر اسمه وانقطعت الى خدمة هذا الشيخ ووهبت ما عندي للفقراء والمساكين وكان الشيخ يواصل عشرة أيام وربما واصل عشرين فكنت أحب أن أواصل فكان ينهانى ويامرني بالرفق على نفسى فى العبادة ويقول لى ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى وظهر لى من نفسى تكاسل بسبب شيء بقي معي فخرجت عن جميع ما عندي من قليل وكثير واعطيت ثياب ظهرى افقير ولبست ثيابه ولزمت هذا الشيخ خمسة أشهر والسلطان اذ ذاك غائب ببلاد السند

— ذكر بعث السلطان عني وابايتي عن الرجوع الى الخدمة واجتهادى فى العبادة —

ولما بلغ السلطان خبر خروجي عن الدنيا استدعاني وهو يومئذ بسيوستان فدخلت عليه فى

ذى الفقراء فكلمني أحسن كلام وألطفه واراد مني الرجوع الى الخدمة فابيت وطلبت منه الاذن في السفر الى الحجاز فاذن لى فيه وانصرفت عنه ونزلت بزاوية تعرف بالنسبة الى الملك بشير وذلك فى اواخر جمادى الثانية سنة ثنتين واربعين فاعتكفت بها شهر رجب وعشرة من شعبان وانتهيت الى مواصلة خمسة أيام وافطرت بعدها على قليل أرز دون إدام وكنت أقرأ القرآن كل يوم واتهجد بما شاء الله وكنت اذا أكلت الطعام أذاني فاذا طرحته وجدت الراحة وأقمت كذلك اربعين يوما ثم بعث عي ثانية

— ذكر ما أمرني به من التوجه الى الصين فى الرسالة —

ولما كملت لى اربعون يوما بعث الى السلطان خيلا مسرجة وجوارى وغلمانا وثيابا ونفقة فلبست ثيابه وقصدته وكانت لي جبة قطن زرقاء مبطنة لبستها ايام اعتكافى فلما جردتها ولبست ثياب السلطان انكرت نفسي وكنت متى نظرت الى تلك الجبة اجد نورا فى باطني ولم تزل عندي الى ان سلبني الكفار فى البحر ولما وصلت الى السلطان زاد فى اكرامى على ما كنت أعهده وقال لى انما بعثت اليك لتتوجه عني رسولا الى ملك الصين فانى أعلم حبك فى الاسفار والجولان فجهزني بما احتاج له وعين للسفر معي من يذكر بعد

— ذكر سبب بعث الهدية للصين وذكر من بعث معى وذكر الهدية —

وكان ملك الصين قد بعث الى السلطان مائة مملوك وجارية وخمسمائة ثوب من الكمخا منها مائة من التى تصنع بمدينة الزيتون ومائة من التى تصنع بمدينة الخنسا وخمسة أمنان من المسك وخمسة اثواب مرصعة بالجوهر وخمسة من التراكش مزركشة وخمسة سيوف وطلب من السلطان أن يأذن له فى بناء بيت الاصنام الذى بناحية جبل قراجيل المتقدم ذكره ويعرف الموضع الذى هو به بسمهل (بفتح السين المهمل وسكون الميم وفتح الهاء) واليه يحج أهل الصين وتغلب عليه جيش الاسلام بالهند فخربوه وسلبوه فلما وصلت هذه الهدية الى السلطان كتب اليه بان هذا المطلب لا يجوز فى ملة الاسلام اسعافه ولا يباح بناء كنيسة بارض المسلمين الا لمن يعطى الجزية فان رضيت باعطائها أبحنا لك بناءه والسلام على من اتبع الهدي وكافاه عن هديته بخير منها وذلك مائة فرس من الجياد مسرجة ملجمة ومائة مملوك ومائة جارية من كفار الهند مغنيات ورواقص ومائة ثوب بيرمية وهى من القطن ولا نظير لها فى الحسن قيمة الثوب منها مائة دينار ومائة شقة من ثياب الحرير المعروفة بالجز (بضم الجيم وزاى) وهي التى يكون حرير احداها مصبوغا بخمسة الوان واربعة ومائة ثوب من الثياب المعروفة بالصلاحية ومائة ثوب من الشيرين باف ومائة ثوب من الشان باف وخمسمائة ثوب من

المرعزمائة منها سود ومائة بيض ومائة حمر ومائة خضر ومائة زرق ومائة شقة من الكتان الرومي ومائة فضلة من الملف وسراجة وست من القباب واربع حسك من ذهب وست حسك من فضة منيلة واربع طسوت من الذهب ذات اباريق كمثلها وستة طسوت من الفضة وعشر خلع من ثياب السلطان مزركشة وعشر شواش من لباسه إحداها مرصعة بالجوهر وعشرة تراكش مزركشة وأحدها مرصع بالجوهر وعشرة من السيوف احدها مرصع الغمد بالجوهر ودشت بان (دستبان) وهو قفاز مرصع بالجوهر وخمسة عشر من الفتيان وعين السلطان للسفر معي بهذه الهدية الامير ظهير الدين الزنجاني وهو من فضلاء أهل العلم والفتي كافور الشربدار واليه سلمت الهدية وبعث معنا الامير محمدا الهروي في الف فارس ليوصلنا الى الموضع الذي نركب منه البحر وتوجه صحبتنا ارسال ملك الصين وهم خمسة عشر رجلا يسمي كبيرهم ترسي وخدامهم نحو مائة رجل وانفصلنا في جمع كبير ومحلة عظيمة وامر لنا السلطان بالضيافة مدة سفرنا ببلاده وكان سفرنا في السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث واربعين وهو اليوم الذي اختاروه للسفر لانهم يختارون للسفر من ايام الشهر ثانيه اوسابعه اوالثاني عشر اوالسابع عشر اوالثاني والعشرين أوالسابع والعشرين فكان نزولنا في اول مرحلة بمنزل تلبت على مسافة فرسخين وثلث من حضرة دهلي ورحلنا منها الى منزل أو ورحلنا منه الى منزل هيلو ورحلنا منه الى مدينة بيانة (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وفتح الياء آخر الحروف مع تخفيفها وفتح النون) مدينة كبيرة حسنة البناء مليحة الاسواق ومسجدها الجامع من ابدع المساجد وحيطانه وسقفه حجارة والاميربها مظفر بن الداية وأمه هي داية للسلطان وكان بها قبله الملك مجير بن أبي الرجاء احد كبار الملوك وقد تقدم ذكره وهو ينتسب في قريش وفيه تجبر وله ظلم كثير قتل من اهل هذه المدينة جملة ومثل بكثير منهم ولقد رأيت من أهلها رجلا حسن الهيئة قاعدا في اسطوان منزله وهو مقطوع اليدين والرجلين وقدم السلطان مرة على هذه المدينة فتشكى الناس من الملك مجير المذكور فامر السلطان بالقبض عليه وجعلت في عنقه الجامعة وكان يقعد بالديوان بين يدي الوزير وأهل البلد يكتبون عليه المظالم فامره السلطان بارضائهم فارضاهم بالاموال ثم قتله بعد ذلك ومن كبار اهل هذه المدينة الامام العالم عز الدين الزبيري من ذرية الزبير بن العوام رضي الله عنه أحد كبار الفقهاء الصلحاء لقيته بكاليور عند الملك عز الدين البنتاني المعروف باعظم ملك ثم رحلنا من بيانة فوصلنا الى مدينة كول (وضبط اسمها بضم الكاف) مدينة حسنة ذات بساتين واكثر أشجارها العنبا ونزلنا بخارجها في بسيط

أفيح ولقينا بها الشيخ الصالح العابد شمس الدين المعروف بابن تاج العارفين وهو مكفوف البصر معمر وبعد ذلك سجنه السلطان ومات في سجنه وقد ذكرنا حديثه

— ذكر غزوة شهدناها بكول —

ولما بلغنا الى مدينة كول بلغنا أن بعض كفار الهنود حاصروا بلدة الجلالى واحاطوا بها وهي على مسافة سبعة من كول فقصدناها والكفار يقاتلون أهلها وقد أشرفوا على التلف ولم يعلم الكفار بنا حتى صدقنا الحملة عليهم وهم في نحو الف فارس وثلاثة آلاف راجل فقتلناهم عن آخرهم واحتوينا على خيلهم واسلحتهم واستشهد من أصحابنا ثلاثة وعشرون فارسا وخمسة وخمسون راجلا واستشهد الفتى كافور الساقى الذى كانت الهدية مسلمة بيده فكتبنا الى السلطان بخبره وأقمنا في انتظار الجواب وكان الكفار في أثناء ذلك ينزلون من جبل هنالك منيع فيغيرون على نواحي بلدة الجلالى وكان اصحابنا يركبون كل يوم مع أمير تلك الناحية ليعينوه على مدافعتهم

— ذكر محنتي بالاسر وخلاصى منه وخلاصى من شدة بعده على يد ولى من أولياء الله تعالى —

وفى بعض تلك الايام ركبت في جماعة من أصحابي ودخلنا بستانا نقيل فيه وذلك فصل القيظ فسمعنا الصياح فركبنا ولحقنا كفارا أغاروا على قرية من قرى الجلالى فاتبعناهم فتفرقوا وتفرق أصحابنا في طلبهم وانفردت في خمسة من أصحابنا فخرج علينا جملة من الفرسان والرجال من غيضة هنالك ففررنا منهم لكثرتهم واتبعني نحو عشرة منهم ثم انقطعوا عني الا ثلاثة منهم ولا طريق بين يدي وتلك الارض كثيرة الحجارة فنشبت يدا فرسى بين الحجارة فنزلت عنه واقتلعت يده وعدت الى ركوبه والعادة بالهند ان يكون مع الانسان سيفان أحدهما معلق بالسرج ويسمي الركابي والآخر في التركش فسقط سيفي الركابي من غمده وكانت حليته ذهبا فنزلت فاخذته وتقلدته وركبت وهم في أثري ثم وصلت الى خندق عظيم فنزلت ودخلت في جوفه فكان آخر عهدى بهم ثم خرجت الى وادفي وسط شعراء ملتفة في وسطها طريق فمشيت عليه ولا اعرف منهاه فبينا أنا في ذلك خرج على نحو أربعين رجلا من الكفار بايديهم القسي فاحدقوا بي وخفت أن يرموني رمية رجل واحد ان فررت منهم وكنت غير متدرع فالقيت بنفسي الى الارض واستاسرت وهم لا يقتلون من فعل ذلك فاخذوني وسلبوني جميع ما علي غير جبة وقميص وسروال ودخلوا بي الى تلك الغابة فانتهوا بي الى موضع جلوسهم منها على حوض ماء بين تلك الاشجار وأتوني بخبز ماش وهو الجلبان فاكلت منه وشربت من الماء وكان معهم مسلمان كلماني بالفارسية وسالاني عن شاني فاخبرتهما ببعضه

وكتمتهما اني من جهة السلطان فقالا لي لا بد ان يقتلك هؤلاء او غيرهم ولكن هذا مقدمهم واشاروا الى رجل منهم فكلمته بترجمة المسلمين وتلطفت له فوكل بي ثلاثة منهم احدهم شيخ ومعه ابنه والآخر أسود خبيث وكلمني اولئك الثلاثة ففهمت منهم انهم أمروا بقتلي واحتملوني عشي النهار الى كهف وسلط الله على الاسود منهم حمى مرعدة فوضع رجليه علي ونام الشيخ وابنه فلما أصبح تكلموا فيما بينهم واشاروا الي بالنزول معهم الى الحوض وفهمت انهم يريدون قتلي فكلمت الشيخ وتلطفت اليه فرق لي وقطعت كمي قميصي واعطيته اياهما لكي لا يأخذه اصحابه في ان فررت ولما كان عند الظهر سمعنا كلاما عند الحوض فظنوا انهم اصحابهم فاشاروا الي بالنزول معهم فنزلنا ووجدنا قوما آخرين فاشاروا عليهم ان يذهبوا في صحبتهم فابوا وجلس ثلاثتهم امامي وانا مواجه لهم ووضعوا حبل قنب كان معهم بالارض وانا أنظر اليهم وأقول في نفسي بهذا الحبل يربطونني عند القتل وأقمت كذلك ساعة ثم جاء ثلاثة من أصحابهم الذين أخذوني فتكلموا معهم وفهمت انهم قالوا لهم لاي شيء ما قتلتموه فاشار الشيخ الى الاسود كأنه اعتذر بمرضه وكان أحد هؤلاء الثلاثة شابا حسن الوجه فقال لي أتريد ان اسرحك فقلت نعم فقال اذهب فاخذت الجبة التي كانت علي فاعطيته اياها واعطاني منيرة بالية عنده واراني الطريق فذهبت وخفت ان يبدو لهم فيدركونني فدخلت غيضة قصب واختفيت فيها الى ان غابت الشمس ثم خرجت وسلكت الطريق التي أرانيها الشاب فافضت بي الى ماء فشربت منه وسرت الى ثلث الليل فوصلت الى جبل فنمت تحته فلما أصبحت سلكت الطريق فوصلت ضحى الى جبل من الصخر عال فيه شجر أم غيلان والسدر فكنت أجني النبق فآكله حتى أثر الشوك في ذراعي آثارا هي باقية به حتى الآن ثم نزلت من ذلك الجبل الى أرض مزدرعة قطنا وبها أشجار الخروع وهنالك باين والباين عندهم بئر متسعة جدا مطوية بالحجارة لها درج ينزل عليها الى ورد الماء وبعضها يكون في وسطه وجوانبه القباب من الحجر والسقائف والمجالس ويتفاخر ملوك البلاد وامراؤها بعمارتها في الطرقات التي لا ماء بها وسنذكر بعض ما رأيناه منها فيما بعد ولما وصلت الى الباين شربت منه ووجدت عليه شيئا من عسالیج الخردل قد سقطت لمن غسلها فاكلت منها وادخرت باقيها ونمت تحت شجرة خروع فبينما انا كذلك اذ ورد الباين نحو أربعين فارسا مدرعين فدخل بعضهم الى المزرعة ثم ذهبوا وطمس الله ابصارهم دوني ثم جاء بعدهم نحو خمسين في السلاح ونزلوا الى الباين واتى أحدهم الى شجرة ازاء الشجرة التي كنت تحتها فلم يشعر بي ودخلت اذ ذاك في مزرعة القطن وأقمت بها بقية نهاري وأقاموا على الباين

يغسلون ثيابهم و يلعبون فلما كان الليل هدأت أصواتهم فعلمت انهم قدمروا أوناموا
فخرجت حينئذ واتبعت أثر الخيل والليل مقمر وسرت حتى انتهيت الى باين آخر عليه قبة
فنزلت اليه وشربت من مائه وأكلت من عساليج الخردل التي كانت عندى ودخلت القبة
فوجدتها مملوءة بالعشب مما يجمعه الطير فنمت بها وكنت أحس حركة حيوان فى تلك العشب
أظنه حية فلا أبالى بها لما بى من الجهد فلما أصبحت سلكت طريقا واسعة تفضي الى قرية
خربة وسلكت سواها فكانت كمثلها وأقمت كذلك أياما وفى بعضها وصلت الى أشجار ملتفة
بينها حوض ماء وداخلها شبه بيت وعلى جوانب الحوض نبات الارض كالنجيل وغيره
فاردت ان أقعد هنالك حتى يبعث الله من يوصلني الى العمارة ثم اني وجدت يسير قوة فنهضت
على طريق وجدت بها أثر البقر ووجدت ثورا عليه بردعة ومنجل فاذا تلك الطريق
تفضى الى قرى الكفار فاتبعت طريقا أخرى فافضت بي الى قرية خربة ورأيت بها أسودين
عريانين فخفتهما وأقمت تحت أشجار هنالك فلما كان الليل دخلت القرية ووجدت دارا فى
بيت من بيوتها شبه خابية كبيرة يصنعونها لاختزان الزرع وفى أسفلها نقب يسع منه الرجل
فدخلتها ووجدت داخلها مفروشا بالتبن وفيه حجر جعلت رأسى عليه ونمت وكان فوقها
طائر يرفرف بجناحيه أكثر الليل وأظنه كان يخاف فاجتمعنا خائفين وأقمت على تلك الحال
سبعة أيام من يوم اسرت وهو يوم السبت وفى السابع منها وصلت الى قرية للكفار عامرة
وفيها حوض ماء ومنابت خضر فسألتهم الطعام فأبوا أن يعطونى فوجدت حول بئر بها
أوراق فجل فاكلته وجئت القرية فوجدت جماعة كفار لهم طليعة فدعاني طليعتهم فلم أجبه
وقعدت الى الارض فاتى أحدهم بسيف مسلول ورفعه ليضربنى به فلم ألتفت اليه لعظيم ما بى
من الجهد ففتشني فلم يجد عندى شيئا فاخذ القميص الذى كنت أعطيت كميه للشيخ الموكل
بى ولما كان فى اليوم الثامن اشتدبي العطش وعدمت الماء ووصلت الى قرية خراب فلم
أجد بها حوضا وعادتهم بتلك القرى ان يصنعوا أحواضا يجتمع بها ماء المطر فيشربون منه
جميع السنة فاتبعت طريقا فأفضت بي الى بئر غير مطوية عليها حبل مصنوع من نبات
الارض وليس فيه آنية يستقي بها فربطت خرقة كانت على رأسى فى الحبل وامتصصت
ما تعلق بها من الماء فلم يروني فربطت خفي واستقيت به فلم يرونى فاستقيت به ثانيا فانقطع
الحبل ووقع الخف فى البئر فربطت الخف الآخر وشربت حتى رويت ثم قطعته فربطت
أعلاه على رجلى بحبل البئر وبخرق وجدتها هنالك فبينا أنا أربطها وأفكر فى حالى اذ لاح لى
شخص فنظرت اليه فاذا رجل أسود اللون بيده ابريق وعكاز وعلى كاهله جراب فقال لى سلام

عليكم فقلت له عليكم السلام ورحمة الله وبركاته فقال لى بالفارسية جيكس (جه كسي)
معناه من أنت فقلت له أنا تائه فقال لى وأنا كذلك ثم ربط إبريقه بحبل كان معه واستقى ماء
فأردت ان أشرب فقال لى اصبر ثم فتح جرابه فاخرج منه غرفة حمص أسود مقلو مع قليل
أرز فأكلت منه وشربت وتوضأ وصلى ركعتين وتوضأت انا وصليت وسألنى عن اسمي
فقلت محمد وسألته عن اسمه فقال لى القلب الفارح فتفاءلت بذلك وسررت به ثم قال لى بسم الله
ترافقني فقلت نعم فمشيت معه قليلا ثم وجدت فتورا فى أعضائى ولم استطع النهوض فقعدت
فقال ماشأنك فقلت له كنت قادرا على المشي قبل ان ألقاك فلما لقيتك عجزت فقال سبحان
الله اركب فوق عنقي فقلت له انك ضعيف ولا تستطيع ذلك فقال يقوينى الله لا بد لك من
ذلك فركبت على عنقه وقال لى أكثر من قراءة حسبنا الله ونعم الوكيل فأكثرت من ذلك
وغلبتني عيني فلم افق الا لسقوطى على الارض فاستيقظت ولم أر للرجل أثرا واذا أنا فى قرية
عامرة فدخلتها فوجدتها الرعية الهنود وحاكمها من المسلمين فاعلموه بى فجاء الي فقلت له
مااسم هذه القرية فقال لى تاج بوره وبينها وبين مدينة كول حيث أصحابنا فرسخان وحملنى
ذلك الحاكم الى بيته فاطعمنى طعاما سخنا واغتسلت وقال لى عندى ثوب وعمامة أودعهما
عندي رجل عربى مصرى من أهل المحلة التي بكول فقلت له هاتهما ألبسهما الى ان أصل الى
المحلة فأتي بهما فوجدتهما من ثيابي كنت قد وهبتهما لذلك العربى لما قدمنا كول فطال تعجبي
من ذلك وافكرت فى الرجل الذى حملني على عنقه فتذكرت ما اخبرنى به ولى الله تعالى أبو
عبد الله المرشدى حسبما ذكرناه فى السفر الاول اذ قال لى ستدخل ارض الهند وتلقى بها
أخى ويخلصك من شدة تقع فيها وتذكرت قوله لما سألته عن اسمه فقال القلب الفارح
وتفسيره بالفارسية دلشاد فعلمت انه هو الذى اخبرني بلقائه وانه من الاولياء ولم يحصل لى
من صحبته الا المقدار الذي ذكر واتيت تلك الليلة الى أصحابي بكول معلما لهم بسلامتي
فجاؤا الى بفرس وثياب واستبشروا بى ووجدت جواب السلطان قد وصلهم وبعث بفتي
يسمي بسنبل الجامدار عوضا من كافور المستشهد وأمرنا ان نتمادي على سفرنا ووجدتهم
أيضا قد كتبوا للسلطان بما كان من أمرى وتشاءموا بهذه السفرة لما جري فيها على وعلى
كافور وهم يريدون ان يرجعوا فلما رأيت تأكيد السلطان في السفر أكدت عليهم وقوى
عزمى فقالوا ألا ترى ما اتفق فى بداية هذه السفرة والسلطان يعذرك فلنرجع اليه أو نقيم
حتي يصل جوابه فقلت لهم لا يمكن المقام وحيث ما كنا ادركنا الجواب فرحلنا من كول
ونزلنا برج بوره وبه زاوية حسنة فيها شيخ حسن الصورة والسيرة يسمي بمحمد العريان

لانه لا يلبس عليه الا ثوبا من سرته الى أسفل وباقي جسده مكشوف وهو تلميذ الصالح الولي محمد العريان القاطن بقرافة مصر نفع الله به

— حكاية هذا الشيخ —

وكان من أولياء الله تعالى قائما على قدم التجرد يلبس تنورة وهو ثوب يستر من سرته الى اسفل ويذكر أنه كان اذا صلى العشاء الآخرة أخرج كل ما بقي بالزاوية من طعام وادام وماء وفرق ذلك على المساكين ورمى بفتيلة السراج واصبح على غير معلوم وكانت عادته ان يطعم اصحابه عند الصباح خبزا وفولا فكان الخبازون والفوالون يستبقون الى زاويته فيأخذ منهم مقدار ما يكفي الفقراء ويقول لمن أخذ منه ذلك اقعد حتى ياخذ أول ما يفتح به عليه في ذلك اليوم قليلا أو كثيرا ومن حكاياته انه لما وصل قازان ملك التتر الى الشام بعساكره وملك دمشق ما عدا قلعتها وخرج الملك الناصر الى مدافعته ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق بموضع يقال له قشحب والملك الناصر اذ ذاك حديث السن لم يعهد الوقائع وكان الشيخ العريان في صحبته فنزل وأخذ قيدا فقيد به فرس الملك الناصر لئلا يتزحزح عند اللقاء لحداثة سنه فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين فثبت الملك الناصر وهزم التتر هزيمة شنعاء قتل منهم فيها كثير وغرق كثير بما أرسل عليه من المياه ولم يعد التتر الى قصد بلاد الاسلام بعدها وأخبرني الشيخ محمد العريان المذكور تلميذ هذا الشيخ انه حضر هذه الوقيعة وهو حديث السن ورحلنا من برج بوره ونزلنا على الماء المعروف بآب سياه ثم رحلنا الى مدينة قنوج (وضبط اسمها بكسر القاف وفتح النون وواو ساكن وجيم) مدينة كبيرة حسنة العمارة حصينة رخيصة الاسعار كثيرة السكر ومنها يحمل الى دهلي وعليها سور عظيم وقد تقدم ذكرها وكان بها الشيخ معين الدين الباخرزي أضافنا بها وأميرها فيروز البدخشاني من ذرية بهرام جور (جوبين) صاحب كسري ويسكن بها جماعة من الصلحاء الفضلاء المعروفين بمكارم الاخلاق يعرفون باولاد شرف جهان وكان جدهم قاضي القضاة بدولة آباد وهو من المحسنين المتصدقين وانتهت الرياسة ببلاد الهند اليه

— حكاية له —

يذكر انه عزل مرة عن القضاء وكان له أعداء فادعي أحدهم عند القاضي الذي ولي بعده ان له عشرة آلاف دينار قبله ولم تكن له بينة وكان قصده ان يحلفه فبعث القاضي له فقال لرسوله بم ادعى علي فقال بعشرة آلاف دينار فبعث الى مجلس القاضي عشرة آلاف وسلمت للمدعي وبلغ خبره السلطان علاء الدين وصح عنده بطلان تلك الدعوى فاعاده الى القضاء وأعطاه عشرة آلاف وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا ووصلنا فيها جواب السلطان في شاني بانه ان لم يظهر لفلان أثر فيتوجه وجيه الملك قاضي دولة آباد عوضا منه ثم رحلنا من هذه المدينة

فنزلنا بمنزل هنول ثم بمنزل وزير بور ثم بمنزل البجا لصة ثم وصلنا الى مدينة موري (وضبط اسمها بفتح الميم وواو وراء) وهي صغيرة ولها أسواق حسنة ولقيت بها الشيخ الصالح المعمر قطب الدين المسمى بحيدر الفرغاني وكان بحال مرض فدعا لي وزودني رغيف شعير واخبرني ان عمره يذيف على مائة وخمسين وذكر لي أصحابه انه يصوم الدهر ويواصل كثيرا ويكثر الاعتكاف وربما أقام في خلوته أربعين يوما يقتات فيها باربعين تمرة في كل يوم واحدة وقد رأيت بدهلي الشيخ المسمي برجب البرقعي دخل الخلوة باربعين تمرة فاقام بها أربعين يوما ثم خرج وفضل معه منها ثلاث عشرة تمرة ثم رحلنا ووصلنا الى مدينة مرة وضبط اسمها (بفتح الميم وسكون الراء وهاء) وهي مدينة كبيرة أكثر سكانها كفار تحت الذمة وهي حصينة وبها القمح الطيب الذي ليس مثله بسواها ومنها يحمل الى دهلي وحبوبه طوال شديدة الصفرة ضخمة ولم أر قمحا مثله الا بارض الصين وتنسب هذه المدينة الى المألوة (بفتح اللام) وهي قبيلة من قبائل الهنود ضخام الاجسام عظام الخلق حسان الصور لنسائهم الجمال الفائق وهن مشهورات بطيب الخلوة ووفور الحظ من اللذة وكذلك نساء المرهتة ونساء جزيرة ذيبة المهل ثم سافرنا الى مدينة علابور (وضبط سمها بفتح العين ولام والف وباء موحدة مضمومة وواو وراء) مدينة صغيرة اكثر سكانها الكفار تحت الذمة وعلى مسيرة يوم منها سلطان كافر اسمه قتم (بفتح القاف والتاء المعلوة) وهو سلطان جنبيل (بفتح الجيم وسكون النون وكسر الباء الموحدة وياء مد ولام) الذى حاصر مدينة كيالير وقتل بعد ذلك

—— حكاية ——

كان هذا السلطان الكافر قد حاصر مدينة رابري وهي على نهر اللجون كثيرة القرى والمزارع وكان أميرها خطاب الافغان وهو أحد الشجعان واستعان السلطان الكافر بسلطان كافر مثله يسمى رجو (بفتح الراء وضم الجيم) وبلده يسمي سلطان بور وحاصر مدينة رابرى فبعث خطابا الى السلطان يطلب منه الاعانة فابطأ عليه المدد وهو على مسيرة اربعين من الحضرة فخاف ان يتغلب الكفار عليه فجمع من قبيلة الافغان نحو ثلاثمائة رمثلهم من المماليك ونحو أربعمائة من سائر الناس وجعلوا العمائم في أعناق خيلهم وهي عادة أهل الهند اذا أرادوا الموت وباعوا نفوسهم من الله تعالى وتقدم خطاب وقبيلته وتبعهم سائر الناس وفتحوا الباب عند الصبح وحملوا على الكفار حملة واحدة وكانوا نحو خمسة عشر ألفا فهزموهم باذن الله وقتلوا سلطانيهم قتم ورجو وبعثوا برأسيهما الى السلطان ولم ينج من الكفار الا الشريد

—— ذكر أمير علابور واستشهاده ——

وكان أمير علابور بدر الحبشي من عبيد السلطان وهو من الا بطال الذين تضرب بهم الامثال وكان لا يزال يغير على الكفار منفردا بنفسه فيقتل ويسبي حتى شاع خبره واشتهر أمره وهابه الكفار وكان طويلا ضخما يأكل الشاة عن آخرها في أكلة وأخبرت انه كان يشرب نحو رطل ونصف من السمن بعد غدائه على عادة الحبشة ببلادهم وكان له ابن يدانيه في الشجاعة فاتفق انه أغار مرة في جماعة من عبيده على قرية للكفار فوقع به الفرس في مطمورة واجتمع عليه أهل القرية فضربه أحدهم بقتارة والقتارة (بقاف معقود وتاء معلوة) حديدة شبه سكة الحرث يدخل الرجل يده فيها فتكسو ذراعه ويفضل منها مقدار ذراعين وضربتها لا تبقي فقتله بتلك الضربة ومات فيها وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وقاتل عبيده أشد القتال فتغلبوا على القرية وأخرجوا الفرس من المطمورة سالما فاتوا به ولده فكان من الاتفاق الغريب انه ركب الفرس وتوجه الى دهلي فخرج عليه الكفار فقاتلهم حتى قتل وعاد الفرس الى أصحابه فدفعوه الى أهله فركبه صهر له فقتله الكفار عليه أيضا ثم سافرنا الى مدينة كاليور (وضبط اسمها بفتح الكاف المعقود وكسر اللام وضم الياء آخر الحروف وواو وراء) ويقال فيه أيضا كيالير وهي مدينة كبيرة لها حصن منيع منقطع في رأس شاهق على بابه صورة فيل وفيال من الحجارة وقد مر ذكره في اسم السلطان قطب الدين وأمير هذه المدينة احمد بن سير خان فاضل كان يكرمني ايام اقامتي عنده قبل هذه السفرة ودخلت عليه يوما وهو يريد توسيط رجل من الكفار فقلت له بالله لا تفعل ذلك فاني ما رأيت أحدا قط يقتل بمحضري فامر بسجنه وكان ذلك سبب خلاصه ثم رحلنا من مدينة كاليور الى مدينة برون (وضبط اسمها بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخره نون) مدينة صغيرة للمسلمين بين بلاد الكفار أميرها محمد بن بيرم التركي الاصل والسباع بها كثيرة وذكر لي بعض أهلها ان السبع كان يدخل اليها ليلا وأبوابها مغلقة فيفترس الناس حتى قتل من أهلها كثيرا وكانوا يعجبون في شان دخوله واخبرني محمد التوفيري من أهلها وكان جارا لي بها انه دخل داره ليلا وافترس صبيا من فوق السرير واخبرني غيره انه كان مع جماعة في دار عرس فخرج أحدهم لحاجة فافترسه اسد فخرج اصحابه في طلبه فوجدوه مطرحا بالسوق وقد شرب دمه ولم يأكل لحمه وذكروا انه كذلك فعله بالناس ومن العجب ان بعض الناس اخبرني ان الذي يفعل ذلك ليس بسبع وانما هو آدمي من السحرة المعروفين بالجوكية يتصور في صورة سبع ولما اخبرت بذلك أنكرته واخبرني به جماعة ولنذكر بعضا من أخبار هؤلاء السحرة

— ذكر السحرة الجوكية —

وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب منها ان احدهم يقيم الاشهر لا ياكل ولا يشرب وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الارض وتبنى عليه فلا يترك له الا موضع يدخل منه الهواء ويقيم بها الشهور وسمعت ان بعضهم يقيم كذلك سنة ورأيت بمدينة منجرور رجلا من المسلمين ممن يتعلم منهم قد رفعت له طبلة وأقام باعلاها لا ياكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوما وتركته كذلك فلا ادرى كم أقام بعدي والناس يذكرون انهم يركبون حبوبا ياكلون الحبة منها لأيام معلومة او أشهر فلا يحتاج فى تلك المدة الى طعام ولا شراب ويخبرون بامور مغيبة والسلطان يعظمهم ويجالسهم ومنهم من يقتصر فى اكله على البقل ومنهم من لا ياكل اللحم وهم الاكثرون والظاهر من حالهم انهم عودوا أنفسهم الرياضة ولا حاجة لهم في الدنيا وزينتها ومنهم من ينظر الى الانسان فيقع ميتا من نظرته وتقول العامة انه اذا قتل بالنظر وشق عن صدر الميت وجد دون قلب ويقولون اكل قلبه واكثر ما يكون هذا فى النساء والمرأة التي تفعل ذلك تسمي كفتار — حكاية —

لما وقعت المجاعة العظمي ببلاد الهند بسبب القحط والسلطان ببلاد التلنك نفذ امره ان يعطى لاهل دهلى ما يقوتهم بحساب رطل ونصف للواحد فى اليوم فجمعهم الوزير ووزع المساكين منهم على الامراء والقضاة ليتولوا اطعامهم فكان عندى منهم خمسمائة نفس فعمرت لهم سقائف فى داري واسكنتهم بها وكنت اعطيهم نفقة خمسة ايام فى خمسة ايام فلما كان فى بعض الايام اتونى بمرأة منهم وقالوا انها كفتارة وقد اكلت قلب صبي كان الى جانبها واتوا بالصبي ميتاً فامرتهم ان يذهبوا بها الى نائب السلطان فامر باختبارها وذلك بان ملوا اربع جرات بالماء وربطوها بيديها ورجليها وطرحوها فى نهر الجون فلم تغرق فعلم انها كفتار ولو لم تطف على الماء لم تكن بكفتار فامر باحراقها بالنار واتوا باهل البلد رجالا ونساء فاخذوا رمادها وزعموا انه من تنجز به امن فى تلك السنة من سحر كفتار — حكاية —

بعث الى السلطان يوما وانا عنده بالحضرة فدخلت عليه وهو فى خلوة وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية وهم يلتحفون بالملاحف ويغطون رؤسهم لانهم ينتفونها بالرماد كما ينتف الناس آباطهم فامرني بالجلوس فجلست فقال لهما ان هذا العزيز من بلاد بعيدة فارياه مالم يره فقالا نعم فتربع أحدهما ثم ارتفع عن الارض حتى صار فى الهواء فوقنا متربعا فعجبت منه وادركني الوهم فسقطت الى الارض فامر السلطان ان أسقى دواء عنده فافقت وقعدت وهو على حاله متربع فاخذ صاحبه نعلا له من شكارة كانت معه فضرب بها الارض

كالمغتاظ فصعدت الى أن علت فوق عنق المتربع وجعلت تضرب فى عنقه وهو ينزل قليلا قليلا حتى جلس معنا فقال لى السلطان ان المتربع هو تلميذ صاحب النعل ثم قال لولا انى أخاف على عقلك لامرتهم ان ياتوا باعظم مما رأيت فانصرفت عنه واصابني الخفقان ومرضت حتي امر لى بشربة أذهبت ذلك عني ولنعد لما كنا بسبيله فنقول سافرنا من مدينة برون الى منزل أموارى ثم الى منزل كجراو به حوض عظيم طوله نحو ميل وعليه الكنائس فيها الاصنام قد مثل بها المسلمون وفى وسطه ثلاث قباب من الحجارة الحمر على ثلاث طباق وعلى أركانه الاربع قباب ويسكن هنالك جماعة من الجوكية وقد لبدوا شعورهم وطالت حتى صارت فى طولهم وغلبت عليهم صفرة الالوان من الرياضة وكثير من المسلمين يتبعونهم ليتعلموا منهم ويذكرون ان من كانت به عاهة من برص أو جذام ياوى اليهم مدة طويلة فيبرأ باذن الله تعالى وأول مارأيت هذه الطائفة بمحلة السلطان طرمشيرين ملك تركستان وكانوا نحوا الخمسين فحفر لهم غار تحت الارض وكانوا مقيمين به لا يخرجون الا لقضاء حاجة ولهم شبه القرن يضربونه أول النهار وآخره وبعد العتمة وشانهم كله عجب ومنهم الرجل الذى صنع للسلطان غياث الدين الدمغانى سلطان بلاد المعبر حبوبا ياكلها تقويه على الجماع وكان من اخلاطها برادة الحديد فاعجبه فعلها فاكل منها از يد من مقدار الحاجة فمات وولى ابن أخيه ناصر الدين فاكرم هذا الجوكى ورفع قدره ثم سافرنا الى مدينة جنديري (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقود وسكون النون وكسر الدال المهمل وياء مد وراء) مدينة عظيمة لها اسواق حافلة يسكنها أمير أمراء تلك البلاد عز الدين البنتانى (بالباء الموحدة ثم النون ثم التاء المثناة مفتوحات ثم ألف ونون) وهو المدعو باعظم ملك وكان خيرا فاضلا يجالس أهل العلم وممن كان يجالسه الفقيه عز الدين الزبيري والفقيه العالم وجيه الدين البيانى نسبة الى مدينة بيانه التى تقدم ذكرها والفقيه القاضى المعروف بقاضي خاصة وامامهم شمس الدين وكان النائب عنه على أمور المخزن يسمي قمر الدين ونائبه على أمور العسكر سعادة التلنكى من كبار الشجعان وبين يديه تعرض العساكر وأعظم ملك لا يظهر الا فى يوم الجمعة أوفى غيرها نادرا ثم سرنا من جنديرى الي مدينة ظهار (وضبط اسمها بكسر الظاء المعجم) وهي مدينة المالوة أكبر عمالة تلك البلاد وزرعها كثير خصوصا القمح ومن هذه المدينة تحمل أوراق التنبول الى دهلى وبينهما أربعة وعشرون يوما وعلى الطريق بينهما أعمدة منقوش عليها عدد الاميال فيما بين كل عمودين فاذا أراد المسافر أن يعلم عدد ماسار فى يومه ومابقي له الى المنزل

والى المدينة التى يقصدها قرأ النقش الذى فى الاعمدة فعرفه ومدينة ظهار إقطاع للشيخ ابراهيم الذى من أهل ذيبة المهل — حكاية —

كان هذا الشيخ ابراهيم قدم على هذه المدينة ونزل بخارجها فاحيا أرضا مواتا هنالك وصار يزدرعها بطيخا فتاتى فى الغاية من الحلاوة ليس بتلك الارض مثلها ويزرع الناس بطيخا فيما يجاوره فلا يكون مثله وكان يطعم الفقراء والمساكين فلما قصد السلطان الى بلاد المعبر أهدي اليه هذا الشيخ بطيخا فقبله واستطا به واقطعه مدينة ظهار وأمره أن يعمر زاوية بربوة تشرف عليها فعمرها أحسن عمارة وكان يطعم بها الوارد والصادر وأقام على ذلك أعواما ثم قدم على السلطان وحمل اليه ثلاثة عشر لكا فقال هذا افضل مما كنت اطعمه الناس وبيت المال أحق به فقبضه منه ولم يعجب السلطان فعله لكونه جمع المال ولم ينفق جميعه فى اطعام الطعام وبهذه المدينة أراد ابن أخت الوزير خواجه جهان ان يفتك بخاله ويستولى على أمواله ويسيرا الى القائم ببلاد المعبر فنمى خبره الى خاله فقبض عليه وعلى جماعة من الامراء وبعثهم الى السلطان فقتل الامراء ورد ابن أخته اليه فقتله الوزير — حكاية —

ولما رد ابن أخت الوزير اليه أمر به أن يقتل كما قتل أصحابه وكانت له جارية يحبها فاستحضرها واطعمها التنبول واطعمته وعانقها مودعا ثم طرح للفيلة وسلخ جلده وملىء تبنا فلما كان من الليل خرجت الجارية من الدار فرمت بنفسها فى بئر هنالك تقرب من الموضع الذى قتل فيه فوجدت ميتة من الغد فاخرجت ودفن لحمه معها فى قبر واحد وسمى ذلك قبور (كور) عاشقا وتفسير ذلك بلسانهم قبر العاشقين ثم سافرنا من مدينة ظهار الى مدينة أجين (وضبط اسمها بضم الهمزة وفتح الجيم وياء ونون) مدينة حسنة كثيرة العمارة وكان يسكنها الملك ناصر الدين بن عين الملك من الفضلاء الكرماء العلماء استشهد بجزيرة سندابور حين افتتاحها وقد زرت قبره هنالك وسنذكره وبهذه المدينة كان سكنى الفقيه الطبيب جمال الدين المغربي الغرناطي الاصل ثم سافرنا من مدينة أجين الى مدينة دولة آباد وهى المدينة الضخمة العظيمة الشان الموازية لحضرة دهلى فى رفعة قدرها واتساع خطتها وهى منقسمة ثلاثة أقسام أحدها دولة آباد وهو مختص بسكني السلطان وعساكره والقسم الثاني يسمى الكتكة (بفتح الكافين والتاء المعلوة التي بينهما) والقسم الثالث قلعتها التي لا مثل لها ولا نظير فى الحصانة وتسمي الدويقير (بضم الدال المهمل وفتح الواو وسكون الياء وقاف معقود مكسور وياء مد وراء) وبهذه المدينة سكنى الخان الاعظم قطلوخان معلم السلطان بها وببلاد صاغر وبلاد التلنك وما أضيف الى ذلك وعمالتها مسيرة ثلاثة أشهر عامرة كلها لحكمه ونوابه فيها

وقلعة الدويقير التي ذكرناها في قطعة حجر في بسيط من الارض قد نحتت وبني باعلاها قلعة يصعد اليها بسلم مصنوع من جلود ويرفع ليلا ويسكن بها المفردون وهم الزماميون باولادهم وفيها سجن أهل الجرائم العظيمة في جبوب بها وبها فيران ضخام اعظم من القطوط والقطوط تهرب منها ولا تطيق مدافعتها لانها تغلبها ولا تصاد الا بحيل تدار عليها وقد رأيتها هنالك فعجبت منها

— حكاية —

أخبرني الملك خطاب الافغاني انه سجن مرة في جب بهذه القلعة يسمى جب الفيران قال فكانت تجتمع على ليلا لتاكلني فاقاتلها والقى من ذلك جهدا ثم أني رأيت في النوم قائلا يقول لي اقرأ سورة الاخلاص مائة ألف مرة ويفرج الله عنك قال فقرأتها فلما أتممتها أخرجت وكان سبب خروجي ان ملك مل كان مسجونا في جب يجاورني فمرض وأكلت الفيران أصابعه وعينيه فمات فبلغ ذلك السلطان فقال اخرجوا خطابا لئلا يتفق له مثل ذلك والى هذه القلعة لجأ ناصر الدين بن ملك مل المذكور والقاضي جلال حين هزمهما السلطان وأهل بلاد دولة آباد هم قبيل المرهتة الذين خص الله نساءهم بالحسن وخصوصا في الانوف والحواجب ولهن من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ما ليس لغيرهن وكفار هذه المدينة أصحاب تجارات وأكثر تجاراتهم في الجوهر وأموالهم طائلة وهم يسمون الساهة واحدهم ساه باهمال السين وهم مثل الاكارم بديار مصر وبدولة آباد العنب والرمان ويثمران مرتين في السنة وهي من أعظم البلاد جبي وأكبرها خراجا لكثرة عمارتها واتساع عمالتها وأخبرت ان بعض الهنود التزم مغارمها وعمالتها جميعا وهي كما ذكرناها مسيرة ثلاثة أشهر بسبعة عشر كرورا والكرور مائة لك واللك مائة ألف دينار ولكنه لم يف بذلك فبقي عليه بقية وأخذ ماله وسلخ جلده

— ذكر سوق المغنيين —

وبمدينة دولة آباد سوق المغنيين والمغنيات تسمى سوق طرب آباد من أجمل الاسواق وأكبرها فيه الدكاكين الكثيرة كل دكان له باب يفضي الى دار صاحبه وللدار باب سوى ذلك والحانوت مزين بالفرش وفي وسطه شكل مهد كبير تجلس فيه المغنية أو ترقد وهي متزينة بانواع الحلي وجواريها يحركن مهدها وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من يوم كل خميس وبين يديه خدامه ومماليكه وتاتي المغنيات طائفة بعد أخرى فيغنين بين يديه ويرقصن الى وقت المغرب ثم ينصرف وفي تلك السوق المساجد للصلاة ويصلي الائمة فيها التراويح في شهر رمضان وكان بعض سلاطين الكفار بالهند اذا مر بهذه السوق ينزل بقبتها ويغني المغنيات بين يديه وقد فعل

كذلك بعض سلاطين المسلمين أيضاثم سافرنا الى مدينة ندربار (وضبط اسمها بنون وبدال معجم مفتوحتين وراء مسكن وباء موحدة مفتوحة وألف وراء) مدينة صغيرة يسكنها المرهتة وهم أهل الاتقان فى الصنائع والاطباء والمنجمون وشرفاء المرهتة هم البراهمة وهم الكتريون أيضا وأكلهم الارز والخضر ودهن السمسم ولا يرون بتعذيب الحيوان ولا ذبحه ويغتسلون للاكل كغسل الجنابة ولا ينكحون فى أقاربهم الا فيمن كان بينهم وبينه سبعة أجداد لا يشربون الخمر وهى عندهم أعظم المعائب وكذلك هي ببلاد الهند عند المسلمين ومن شربها من مسلم حد ثمانين جلدة وسجن فى مطمورة ثلاثة أشهر لا تفتح عليه الا حين طعامه ثم سافرنا من هذه المدينة الى مدينة صاغر (وضبط اسمها بفتح الصاد المهمل وفتح الغين المعجم وآخره راء) وهي مدينة كبيرة على نهر كبير يسمى أيضا صاغر كاسمها وعليه النواعير والبساتين فيها العنب والموز وقصب السكر وأهل هذه المدينة أهل صلاح ودين وأمانة وأحوالهم كلها مرضية ولهم بساتين فيها الزوايا للوارد والصادر وكل من يبني زاوية يحبس البستان عليها ويجعل النظر فيه لاولاده فان انقرضوا عاد النظر للقضاة والعمارة بها كثيرة والناس يقصدونها للتبرك بأهلها ولكونها محررة من المغارم والوظائف ثم سافرنا من صاغر المذكورة الى مدينة كنباية (وضبط اسمها بكسر الكاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة وألف وياء آخر الحروف مفتوحة) وهى على خور من البحر وهو شبه الوادى تدخله المراكب وبه المد والجزر وعاينت المراكب به مرساة فى الوحل حين الجزر فاذا كان المد عامت فى الماء وهذه المدينة من احسن المدن فى اتقان البناء وعمارة المساجد وسبب ذلك ان اكثر سكانها التجار الغرباء فهم ابدا يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة ويتنافسون فى ذلك ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامري الذى اتفقت لي معه قضية الحلواء وكذبه ملك الندماء ولم أر قط أضخم من الخشب الذي رأيته بهذه الدار وبابها كأنه باب مدينة والى جانبها مسجد عظيم يعرف باسمه ومنها دار ملك التجار الكازروني والى جانبها مسجده ومنها دار التاجر شمس الدين كلاه دوز ومعناه خياط الشواشي

— حكاية —

ولما وقع ما قدمناه من مخالفة القاضى جلال الافغانى اراد شمس الدين المذكور والناخودة الياس وكان من كفار أهل هذه المدينة وملك الحكماء الذى تقدم ذكره على ان يمتنعوا منه بهذه المدينة وشرعوا فى حفر خندق عليها اذ لا سور لها فتغلب عليهم ودخلها واختفى الثلاثة المذكورون فى دار واحدة وخافوا ان يتطلع عليهم فاتفقوا على ان يقتلوا أنفسهم

فضرب كل واحد منهم صاحبه بقتارة وقد ذكرنا صفتها فمات اثنان منهم ولم يمت مالك الحكاء وكان من كبار التجار أيضا بها نجم الدين الجيلاني وكان حسن الصورة كثير المال وبني بها دارا عظيمة ومسجدا ثم بعث السلطان عنه وأمره عليها واعطاه المراتب فكان ذلك سبب تلف نفسه وماله وكان أمير كنباية حين وصلنا اليها مقبل التلنكي وهو كبير المنزلة عند السلطان وكان في صحبته الشيخ زاده الاصبهاني نائبا عنه في جميع اموره وهذا الشيخ له أموال عظيمة وعنده معرفة بامور السلطنة ولا يزال يبعث الاموال الى بلاده ويتحيل في الفرار وبلغ خبره الى السلطان وذكر عنه انه يروم الهروب فكتب الى مقبل ان يبعثه فبعثه على البريد واحضر بين يدى السلطان ووكل به والعادة عندها انه متى وكل بأحد فقلما ينجو فاتفق هذا الشيخ مع الموكل به على مال يعطيه اياه وهربا جميعا وذكر لى أحد الثقات انه رآه في ركن مسجد بمدينة قلهات وانه وصل بعد ذلك الى بلادهم فحصل على أمواله وآمن مما كان يخافه

— حكاية —

واضافنا الملك مقبل يوما بداره فكان من النادران جلس قاضي المدينة وهو اعور العين اليمنى وفي مقابلته شريف بغدادي شديد الشبه به في صورته وعوره الا انه أعور اليسرى فجعل الشريف ينظر الى القاضي ويضحك فزجره القاضي فقال له لا تزجرني فاني أحسن منك قال كيف ذلك قال لانك أعور اليمني وأنا اعور اليسري فضحك الامير والحاضرون وخجل القاضي ولم يستطع ان يرد عليه لان الشرفاء ببلاد الهند معظمون أشد التعظيم وكان بهذه المدينة من الصالحين الحاج ناصر من أهل ديار بكر وسكناه بقبة من قباب الجامع دخلنا اليه وأكلنا من طعامه واتفق له لما دخل القاضي جلال مدينة كنباية حين خلافه انه اتاه وذكر للسلطان انه دعا له فهرب لئلا يقتل كما قتل الحيدري وكان بها أيضا من الصالحين التاجر خواجه اسحاق وله زاوية يطعم فيها الوارد والصادر وينفق على الفقراء والمساكين وماله على هذا ينمي ويزيد كثرة وسافرنا من هذه المدينة الى بلدة كاوي وهي على خور فيه المد والجزر من بلاد الرى جالنسي الكافر وسنذكره وسافرنا منها الى مدينة قندهار (وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح الدال المهمل وهاء وألف وراء) وهي مدينة كبيرة للكفار على خور من البحر

— ذكر سلطانها —

وسلطان قندهار كافر اسمه جالنسي (بفتح الجيم واللام وسكون النون وكسر السين المهمل) وهو تحت حكم الاسلام ويعطى لملك الهند هدية كل عام ولما وصلنا الى قندهار خرج الى استقبالنا وعظمنا أشد التعظيم وخرج عن قصره فانزلنا به وجاء الينا من عنده من كبار

المسلمين كاولاد خواجه بهره ومنهم الناخوده ابراهيم له ستة من المراكب مختصة له ومن هذه المدينة ركبنا البحر

ذكر ركوبنا البحر

وركبنا في مركب لابراهيم المذكور تسمى الجاكر (بفتح الجيم والكاف المعقودة) وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرسا وجعلنا باقيها مع خيل أصحابنا في مركب لاخي ابراهيم المذكور يسمى منورت (بفتح الميم ونون وواو مدوراء مسكن وتاء معلوة) واعطانا جالنسي مركبا جعلنا فيه خيل ظهير الدين وسنبل وأصحابهما وجهزه لنا بالماء والزاد والعلف وبعث معنا ولده في مركب يسمى العكيرى (بضم العين المهمل وفتح الكاف وسكون الياء وراء) وهو شبه الغراب الا انه أوسع منه وفيه ستون مجذافا ويسقف حين القتال حتى لا ينال الجذافين شيء من السهم ولا الحجارة وكان ركوبي انا في الجاكر وكان فيه خمسون راميا وخمسون من المقاتلة الحبشة وهم زعماء هذا البحر واذا كان بالمركب أحد منهم تحاماه لصوص الهنود وكفارهم ووصلنا بعد يومين الى جزيرة بيرم (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وسكون الياء وفتح الراء) وهي خالية وبينها وبين البر أربعة أميال فنزلنا بها واستقينا الماء من حوض بها وسبب خرابها ان المسلمين دخلوها على الكفار فلم تعمر بعد وكان ملك التجار الذي تقدم ذكره أراد عمارتها وبني سورها وجعل بها المجانيق واسكن بها بعض المسلمين ثم سافرنا منها ووصلنا في اليوم الثاني الى مدينة قوقة وهي (بضم القاف الاولى وفتح الثانية) وهي مدينة كبيرة عظيمة الاسواق ارسينا على أربعة أميال منها بسبب الجزر ونزلت في عشاري مع بعض اصحابي حين الجزر لادخل اليها فوحل العشاري في الطين وبقي بيننا وبين البلد نحو ميل فكنت لما نزلنا في الوحل اتوكأ على رجلين من أصحابي وخوفني الناس من وصول المد قبل وصولي اليها وانا لا أحسن السباحة ثم وصلت اليها وطفت باسواقها ورأيت بها مسجدا ينسب للخضر والياس عليهما السلام صليت به المغرب ووجدت به جماعة من الفقراء الحيدرية مع شيخ لهم ثم عدت الي المركب

ذكر سلطانها

وسلطانها كافر يسمى دنكول (بضم الدال المهمل وسكون النون وضم الكاف وواو ولام) وكان يظهر الطاعة لملك الهند وهو في الحقيقة عاص ولما اقلعنا عن هذه المدينة ووصلنا بعد ثلاثة أيام الى جزيرة سندابور (وضبط اسمها بفتح السين المهمل وسكون النون وفتح الدال المهمل والف وباء موحدة وواو ومدوراء) وهي جزيرة في وسطها ست وثلاثون قرية ويدور بها خور واذا كان الجزر فماؤها عذب طيب واذا كان المد فهو ملح اجاج وفي وسطها مدينتان احداها قديمة من بناء الكفار والثانية بناها المسلمون عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح

الاول وفيها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد عمره الناخودة حسن والد السلطان جمال الدين محمد الهنوري وسياتى ذكره وذكر حضوري معه لفتح هذه الجزيرة الفتح الثاني ان شاء الله وتجاوزنا هذه الجزيرة لما مررنا بها ورسينا على جزيرة صغيرة قريبة من البر فيها كنيسة وبستان وحوض ماء ووجدنا بها أحد الجوكية — حكاية هذا الجوكى —

ولما نزلنا بهذه الجزيرة الصغرى وجدنا بها جوكيا مستندا الى حائط بدخانة وهي بيت الاصنام وهو فيما بين صنمين منها وعليه أثر المجاهدة فكلمناه فلم يتكلم ونظرنا هل معه طعام فلم نر معه طعاما وفى حين نظرنا صاح صيحة عظيمة فسقطت عند صياحه جوزة من جوز النارجيل بين يديه ودفعها لنا فعجبنا من ذلك ودفعنا له دنانير ودراهم فلم يقبلها واتيناه بزاد فرده وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة فقلبتها بيدي فدفعها لى وكانت بيدى سبحة زيلع فقلبها فى يدى فاعطيته اياها ففركها بيده وشمها وقبلها واشار الى السماء ثم الى سمت القبلة فلم يفهم أصحابي اشارته فهمت أنا عنه انه اشار انه مسلم يخفى اسلامه من اهل تلك الجزيرة ويتعيش من تلك الجوز ولما ودعناه قبلت يده فانكر أصحابى ذلك ففهم انكارهم فاخذ يدي وقبلها وتبسم واشار لنا بالانصراف فانصرفنا وكنت آخر أصحابى خروجا فجذب ثوبي فرددت رأسي اليه فاعطانى عشرة دنانير فلما خرجنا عنه قال لى اصحابي لم جذبك فقلت لهم أعطانى هذه الدنانير واعطيت لظهير الدين ثلاثة منها ولسنبل ثلاثة وقلت لهما الرجل مسلم ألا ترون كيف أشار الى السماء يشير الى انه يعرف الله تعالى وأشار الى القبلة يشير الى معرفة الرسول عليه السلام وأخذه السبحة يصدق ذلك فرجعا لما قلت لهما ذلك اليه فلم يجداه وسافرنا تلك الساعة وبالغدو وصلنا الى مدينة هنور (وضبط اسمها بكسر الهاء وفتح النون وسكون الواو وراء) وهي على خور كبير تدخله المراكب الكبار والمدينة على نصف ميل من البحر وفى ايام البشكال وهو المطر يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه فيبقى مدة اربعة اشهر لا يستطيع أحد ركوبه الا للتصيد فيه وفى يوم وصولنا اليها جاءني أحد الجوكية من الهنود فى خلوة وأعطانى ستة دنانير وقال لى البرهمن بعثها اليك يعنى الجوكى الذي أعطيته السبحة وأعطانى الدنانير فاخذتها منه وأعطيته دينارا منها فلم يقبله وانصرف واخبرت أصحابى بالقضية وقلت لهما ان شئتما فخذا نصيبكما منها فابيا وجعلا يعجبان من شانه وقالا لى ان الدنانير الستة التي أعطيتنا اياها جعلنا معها مثلها وتركنا بين الصنمين حيث وجدناها فطال عجبي من أمره واحتفظت بتلك الدنانير التى أعطانيها وأهل مدينة هنور شافعية المذهب لهم صلاح ودين وجهاد فى البحر وقوة وبذلك عرفوا حتى أذلهم الزمان بعد فتحهم سندابور

وسندكر ذلك ولقيت من المتعبدين بهذه المدينة الشيخ محمد الناقوري اضافني بزاويته وكان يطبخ الطعام بيده استقذارا للجارية والغلام واقيت بها الفقيه اسماعيل معلم كتاب الله تعالى وهو ورع حسن الخلق كريم النفس والقاضي بها نور الدين عليا والخطيب لااذكر اسمه ونساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد الساحلية لا يلبس المخيط انما يلبس ثيابا غير مخيطة تحتزم إحداهن باحد طرفي الثوب وتجعل باقيه على رأسها وصدرها ولهن جمال وعفاف وتجعل احداهن خرص ذهب في انفها ومن خصائصهن انهن جميعا يحفظن القرآن العظيم ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات وثلاثة وعشرين لتعليم الاولاد ولم أر ذلك في سواها ومعاش أهلها من التجار في البحر ولا زرع لهم وأهل بلاد المليبار يعطون للسلطان جمال الدين في كل عام شيئا معلوما خوفا منه لقوته في البحر وعسكره نحو ستة آلاف بين فرسان ورجالة

— ذكر سلطان هنور —

وهو السلطان جمال الدين محمد بن حسن من خيار السلاطين وكبارهم وهو تحت حكم سلطان كافر يسمى هريب سنذكره والسلطان جمال الدين مواظب للصلاة في الجماعة وعادته أن ياتي الى المسجد قبل الصبح فيتلو في المصحف حتى يطلع الفجر فيصلي أول الوقت ثم يركب الى خارج المدينة وياتي عند الضحى فيبدأ بالمسجد فيركع فيه ثم يدخل الى قصره وهو يصوم الايام البيض وكان أيام اقامتي عنده يدعوني للافطار معه فاحضر لذلك ويحضر الفقيه علي والفقيه اسماعيل فتوضع أربع كراسي صغار على الارض فيقعد على احداها ويقعد كل واحد منا على كرسي

— ذكر ترتيب طعامه —

وترتيبه أن يؤتي بمائدة نحاس يسمونها خونجة ويجعل عليها طبق نحاس يسمونه الطالم (بفتح الطاء المهمل وفتح اللام) وتاتي جارية حسنة ملتحفة بثوب حرير فتقدم قدور الطعام بين يديه ومعها مغرفة نحاس كبيرة فتغرف بها من الارز مغرفة واحدة وتجعلها في الطالم وتصب فوقها السمن وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح والزنجبيل الاخضر والليمون المملوح والعنبا فيأكل الانسان لقمة ويتبعها بشيء من تلك الموالح فاذا تمت الغرفة التي جعلتها في الطالم غرفت غرفة أخرى من الارز وافرغت دجاجة مطبوخة في سكرجة فيؤكل بها الارز أيضا فاذا تمت الغرفة الثانية غرفت وأفرغت لونا آخر من الدجاج تؤكل به فاذا تمت ألوان الدجاج اتوا بالوان من السمك فيأكلون بها الارز أيضا فاذا فرغت الوان السمك اتوا بالخضر مطبوخة بالسمن والالباب فيأكلون بها الارز فاذا فرغ ذلك كله اتوا بالكوشان وهو اللبن الرائب وبه يختمون طعامهم فاذا وضع علم انه لم يبق شيء

يؤكل بعده ثم يشربون على ذلك الماء السخن لان الماء البارد يضر بهم فى فصل نزول المطر
و لقد أقمت عند هذا السلطان فى كرة أخرى أحد عشر شهرا لم آكل خبزا انما طعامهم
الارز و بقيت أيضا بجزائر المهل و سيلان و بلاد المعبر والمليبار ثلاث سنين لا آكل فيها
الا الارز حتى كنت لا استسيغه الا بالماء و لباس هذا السلطان ملاحف الحرير والكتان
الرقاق يشد فى وسطه فوطة و يلتحف ملحفتين احداها فوق الاخرى و يعقص شعره
و يلف عليه عمامة صغيرة و اذا ركب لبس قباء والتحف بملحفتين فوقه و تضرب بين يديه طبول
وابواق يحملها الرجال و كانت اقامتنا عنده فى هذه المرة ثلاثة ايام و زودنا و سافرنا عنه و بعد
ثلاثة ايام وصلنا الى بلاد المليبار (بضم الميم وفتح اللام وسكون الياء آخر الحروف وفتح
الباء الموحدة والف وراء) وهى بلاد الفلفل وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من
سندابور الى كولم والطريق فى جميعها بين ظلال الاشجار وفى كل نصف ميل بيت من
الخشب فيه دكاكين يقعد عليها كل وارد و صادر من مسلم أو كافر و عند كل بيت منها بئر يشرب
منها ورجل كافر موكل بها فمن كان كافرا سقاه فى الاواني ومن كان مسلما سقاه فى يديه ولا
يزال يصب له حتي يشير له أو يكف وعادة الكفار ببلاد المليبار ان لا يدخل المسلم دورهم
ولا يطعم فى أوانيهم فان طعم فيها كسروها وأعطوها للمسلمين واذا دخل المسلم موضعا منها
لا يكون فيه دار للمسلمين طبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق الموز وصبوا عليه الادام
وما فضل عنه ياكلونه الكلاب والطير و فى جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزل
عندهم المسلمون فيبيعون منهم جميع ما يحتاجون اليه و يطبخون لهم الطعام ولولاهم لما
سافر فيه مسلم وهذا الطريق الذى ذكرنا انه مسيرة شهرين ليس فيه موضع شبر فما فوقه
دون عمارة وكل انسان بستانه على حدة وداره فى وسطه وعلى الجميع حائط خشب
والطريق يمر في البساتين فاذا انتهى الى حائط بستان كان هنالك درج خشب يصعد عليها
ودرج آخر ينزل عليها الى البستان الآخر هكذا مسيرة الشهرين ولا يسافر أحد فى تلك البلاد
بدابة ولا تكون الخيل الا عند السلطان وأكثر ركوب أهلها فى دولة على رقاب العبيد
أو المستاجرين ومن لم يركب فى دولة مشى على قدميه كائنا من كان ومن كان له رحل
أو متاع من تجارة وسواها اكترى رجالا يحملونه على ظهورهم فتري هنالك التاجر ومعه
المائة فما دونها اوفوقها يحملون أمتعته وبيد كل واحد منهم عود غليظ له زج حديد وفى اعلاه
مخطاف حديد فاذا اعيا ولم يجد دكانة يستريح عليها ركز عوده بالارض وعلق حمله منه فاذا
استراح اخذ حمله من غير معين ومضى به ولم أر طريقا آمن من هذا الطريق وهم يقتلون السارق

على الجوزة الواحد فاذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه أحد حتى يأخذه صاحبه وأخبرت ان بعض الهنود مروا على الطريق فالتقط أحدهم جوزة وبلغ خبره الى الحاكم فامر بعود فركز في الارض وبرى طرفه الاعلى وأدخل في لوح خشب حتى برز منه ومد الرجل على اللوح وركز في العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره وترك عبرة للناظرين ومن هذه العيدان على هذه الصورة بتلك الطرق كثيرا ليراها الناس فيتعظوا ولقد كنا نلقى الكفار بالليل في هذه الطريق فاذا رأونا تنحوا عن الطريق حتى نجوز والمسلمون اعز الناس بها غير انهم كما ذكرنا لا يواكلونهم ولا يدخلونهم دورهم وفي بلاد المليبار اثناعشر سلطانا من الكفار منهم القوي الذي يبلغ عسكره خمسين الفا ومنهم الضعيف الذي عسكره ثلاثة آلاف ولا فتنة بينهم البتة ولا يطمع القوي منهم في انتزاع ما بيد الضعيف وبين بلاد أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذي هو مبدأ عمالته ويسمونه باب امان فلان واذا فر مسلم أو كافر بسبب جناية من بلاد احدهم ووصل باب امان الآخر أمن على نفسه ولم يستطع الذي هرب عنه اخذه وان كان القوي صاحب العدد والجيوش وسلاطين تلك البلاد يورثون ابن الاخت ملكهم دون أولادهم ولم أر من يفعل ذلك الا مسوفة أهل اللثم (الالثام) وسنذكرهم فيما بعد فاذا أراد السلطان من أهل بلاد المليبار منع الناس من البيع والشراء امر بعض غلمانه فعلق على الحوانيت بعض اغصان الاشجار باوراقها فلا يبيع أحد ولا يشترى مادامت عليها تلك الاغصان

— ذكر الفلفل —

وشجرات الفلفل شبيهة بدوالى العنب وهم يغرسونها ازاء النارجيل فتصعد فيها كصعود الدوالى ليس لها عسلوج وهو الغزل كما للدوالى واوراق شجره تشبه آذان الخيل وبعضها يشبه أوراق العليق ويثمر عناقيد صغارا حبها كحب أبي قنينة اذا كانت خضراء واذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحصر في الشمس كما يصنع بالعنب عند تزبيبه ولا يزالون يقلبونه حتى يستحكم يبسه ثم يبيعونه من التجار والعامة ببلادنا يزعمون انهم يقلونه بالنار وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش وليس كذلك وانما يحدث ذلك فيه بالشمس ولقد رأيته بمدينة قالقوط يصب للكيل كالذرة ببلادنا وأول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة أبي سرور (بفتح السين) وهي صغيرة على خور كبير كثيرة أشجار النارجيل وكبير المسلمين بها الشيخ جمعة المعروف بابي ستة احد الكرماء انفق امواله على الفقراء والمساكين حتى نفدت وبعد يومين منها وصلنا الى مدينة فاكنور (وضبط اسمها بفتح الفاء والكاف والنون وآخره راء) مدينة كبيرة على خور بها قصب السكر الكثير الطيب الذي لا مثل له بتلك

البلاد وبها جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم بحسين السلاط وبها قاض وخطيب وعمر بها حسين المذكور مسجد الاقامة الجمعة

— ذكر سلطانها —

وسلطان فاكنور كافر اسمه باسدو (بفتح الباء الموحدة والسين المهمل والدال المهمل وسكون الواو وله نحو ثلاثين مركبا حربية قائدها مسلم يسمي لولا وكان من المفسدين يقطع بالبحر ويسلب التجار ولما أرسينا على فاكنور بعث سلطانها الينا ولده فاقام بالمركب كالرهينة ونزلنا اليه فاضافنا ثلاثا باحسن ضيافة تعظيما لسلطان الهند وقياما بحقه ورغبة فيما يستفيده في التجارة مع أهل مراكبنا ومن عادتهم هنالك ان كل مركب يمر ببلد فلا بد من ارسائه بها وأعطائه هدية لصاحب البلد يسمونها حق البندر ومن لم يفعل ذلك خرجوا في اتباعه بمراكبهم وأدخلوه المرسى قهرا وضاعفوا عليه المغرم ومنعوه عن السفر ماشاؤا وسافرنا منها فوصلنا بعد ثلاثة أيام الى مدينة منجرور (وضبط اسمها بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وضم الراء وواو وراء ثانية) مدينة كبيرة على خور يسمي خور الدنب (بضم الدال المهمل وسكون النون وباء موحدة) وهو أكبر خور ببلاد المليبار وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن والفلفل والزنجبيل بها كثير جدا

— ذكر سلطانها —

وهو أكبر سلاطين تلك البلاد واسمه رام دو (بفتح الراء والميم والدال المهمل وسكون الواو) وبها نحو اربعة آلاف من المسلمين يسكنون ربضا بناحية المدينة وربما وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة فيصلح السلطان بينهم لحاجته الى التجار وبها قاض من الفضلاء الكرماء شافعي المذهب يسمي بدر الدين المعبرى وهو يقرئ العلم صعد الينا الى المركب ورغب منا في النزول الى بلده فقلنا حتي يبعث السلطان ولده يقيم بالمركب فقال انما فعل ذلك سلطان فاكنور لانه لاقوة للمسلمين في بلده وأما نحن فالسلطان يخافنا فابينا عليه الا ان بعث السلطان ولده فبعث ولده كما فعل الآخر ونزلنا اليهم وأكرمونا اكراما عظيما وأقمنا عندهم ثلاثة أيام ثم سافرنا الى مدينة هيلي فوصلناها بعد يومين (وضبط اسمها بهاء مكسور وياء مد ولام مكسور) وهي كبيرة حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار والى هذه المدينة تنتهى مراكب الصين ولا تدخل الا مرساها ومرسى كولم وقالقوط ومدينة هيلي معظمة عند المسلمين والكفار بسبب مسجدها الجامع فانه عظيم البركة مشرق النور وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين وحسن الوزان كبير المسلمين وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم ولهم مرتبات من مال المسجد وله مطبخة يصنع فيها الطعام للوارد والصادر ولاطعام الفقراء من المسلمين بها ولقيت بهذا

المسجد فقيها صالحا من أهل مقدشو يسمي سعيد احسن اللقاء والخلق يسرد الصوم وذكرلى انه جاور بمكة اربع عشرة سنة ومثلها بالمدينة وأدرك الامير بمكة ابا نمي والامير بالمدينة منصور ابن جماز وسافر فى بلاد الهند والصين ثم سافرنا من هيلى الى مدينة جرفتن (وضبط اسمها بضم الجيم وسكون الراء وفتح الفاء وفتح التاء المعلوة وتشديدها وآخره نون) وبينها وبين هيلي ثلاثة فراسخ ولقيت بها فقيها من أهل بغداد كبير القدر يعرف بالصرصري نسبة الى بلدة على مسافة عشرة أميال من بغداد فى طريق الكوفة واسمها كاسم صرصر التى عندنا بالمغرب وكان له أخ بهذه المدينة كثير المال له اولاد صغار اوصي اليه بهم وتركته آخذا فى حملهم الى بغداد وعادة أهل الهند كعادة السودان لا يتعرضون لمال الميت ولو ترك الآلاف انما يبقي ماله بيد كبير المسلمين حتي ياخذه مستحقه شرعا

— ذكر سلطانها —

وهو يسمى بكويل (بضم الكاف على لفظ التصغير وهو من اكبر سلاطين المليبار وله مراكب كثيرة تسافر الى عمان وفارس واليمن ومن بلاده ده فتن وبد فتن وسنذكرهما وسرنا من جرفتن الى مدينة ده فتن (بفتح الدال المهمل وسكون الهاء) وقد ذكرنا ضبط فتن وهي مدينة كبيرة على خور كثيرة البساتين وبها النارجيل والفلفل والفوفل والتنبول وبها القلقاص الكثير ويطبخون به اللحم وأما الموز فلم ار فى البلاد أكثر منه بها ولا ارخص ثمنا وفيها الباين الاعظم طوله خمسمائة خطوة وعرضه ثلاثمائة خطوة وهو مطوى بالحجارة الحمر المنحوتة وعلى جوانبه ثمان وعشرون قبة من الحجر فى كل قبة أربع مجالس من الحجر وكل قبة يصعد اليها على درج حجارة وفى وسطه قبة كبيرة من ثلاث طبقات فى كل طبقة أربع مجالس وذكرلى ان والد هذا السلطان كويل هو الذى عمر هذا الباين وبازائه مسجد جامع المسلمين وله أدراج ينزل منها اليه فيتوضأ منه الناس ويغتسلون وحدثني الفقيه حسين ان الذى عمر المسجد والباين أيضا هو أحد أجداد كويل وانه كان مسلما ولاسلامه خبر عجيب نذكره

— ذكر الشجرة العجيبة الشان التى بازاء الجامع —

ورأيت انا بازاء الجامع شجرة خضراء ناعمة تشبه اوراقها أوراق التين الا انها لينة وعليها حائط يطيف بها وعندها محراب صليت فيه ركعتين واسم هذه الشجرة عندهم درخت الشهادة ودرخت (بفتح الدال المهمل والراء وسكون الخاء المعجم وتاء معلوة) وأخبرت هنالك انه اذا كان زمان الخريف من كل سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة بعد ان يستحيل لونها الى الصفرة ثم الى الحمرة ويكون فيها مكتوبا بقلم القدرة لا اله الا الله محمد

رسول الله وأخبرني الفقيه حسين وجماعة من الثقات انهم عاينوا هذه الورقة وقرؤا المكتوب الذى فيها وأخبرني انه اذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار فاذا سقطت أخذ المسلمون نصفها وجعل نصفها في خزانة السلطان الكافر وهم يستشفون بها المرضى وهذه الشجرة كانت سبب اسلام جدكويل الذى عمر المسجد والباين فانه كان يقرأ الخط العربي فلما قرأها وفهم مافيها أسلم وحسن اسلامه وحكايته عندهم متواترة وحدثني الفقيه حسين ان أحد أولاده كفر بعد أبيه وطغى وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها فاقتلعت ولم يترك لها أثر ثم انها نبتت بعد ذلك وعادت كأحسن ما كانت عليه وهلك الكافر سريعا ثم سافرنا الى مدينة بدفتن وهي مدينة كبيرة على خور كبير وبخارجها مسجد بمقربة من البحر يأوى اليه غرباء المسلمين لانه لا مسلم بهذه المدينة ومرساها من أحسن المراسي وماؤها عذب والفوفل بها كثير ومنها يحمل للهند والصين وأكثر أهلها براهمة وهم معظمون عند الكفار مبغضون فى المسلمين ولذلك ليس بينهم مسلم

— حكاية — أخبرت ان سبب تركهم هذا المسجد غير مهدوم ان أحد البراهمة خرب سقفه ليصنع منه سقفا لبيته فاشتعلت النار فى بيته فاحترق هو وأولاده ومتاعه فاحترموا هذا المسجد ولم يتعرضوا له بسوء بعدها وخدموه وجعلوا بخارجه الماء يشرب منه الصادر والوارد وجعلوا على بابه شبكة لئلا يدخله الطير ثم سافرنا من مدينة بدفتن الى مدينة فندرينا (وضبط اسمها بفاء مفتوح ونون ساكن ودال مهمل وراء مفتوحين وياء آخر الحروف) مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأسواق وبها للمسلمين ثلاث محلات فى كل محلة مسجد والجامع بها على الساحل وهو عجيب له مناظر ومجالس على البحر وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عمان وله أخ فاضل وبهذه البلدة تشتو مراكب الصين ثم سافرنا منها الى مدينة قالقوط (وضبط اسمها بقافين وكسر اللام وضم القاف الثانى وآخره طاء مهمل) وهي احدى البنادر العظام ببلاد المليبار يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل وأهل اليمن وفارس ويجتمع بها تجار الآفاق ومرساها من أعظم مراسي الدنيا

— ذكر سلطانها —

وسلطانها كافر يعرف بالسامرى شيخ السن يحلق لحيته كما يفعل طائفة من الروم رأيته بها وسنذكره ان شاء الله وأمير التجار بها ابراهيم شاه بندر من أهل البحرين فاضل ذو مكارم يجتمع اليه التجار ويأكلون فى سماطه وقاضيها فخر الدين عثمان فاضل كريم وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازروني وله تعطى النذور التى ينذر بها أهل الهند والصين

للشيخ أبي اسحاق الكازروني نفع الله به وبهذه المدينة الناخودة مثقال الشهير الاسم صاحب الاموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس ولما وصلنا الى هذه المدينة خرج الينا ابراهيم شاه بندر والقاضي والشيخ شهاب الدين وكبار التجار ونائب السلطان الكافر المسمى بقلاج (بضم القاف وآخره جيم) ومعهم الاطبال والانفار والابواق والاعلام في مراكبهم ودخلنا المرسي في بروز عظيم ما رأيت مثله بتلك البلاد فكانت فرحة تتبعها ترحة وأقمنا بمرساها وبه يومئذ ثلاثة عشر من مراكب الصين ونزلنا بالمدينة وجعل كل واحد منا في دار وأقمنا ننتظر زمان السفر الى الصين ثلاثة أشهر ونحن في ضيافة الكافر وبحر الصين لا يسافر فيه الا بمراكب الصين ولنذكر ترتيبها

— ذكر مراكب الصين —

ومراكب الصين ثلاثة أصناف الكبار منها تسمى الجنوك واحدها جنك (بجيم معقود مضموم ونون ساكن) والمتوسطة تسمى الزو (بفتح الزاى وواو) والصغار يسمى أحدها الككم (بكافين مفتوحين) ويكون في المركب الكبير منها اثنا عشر قلعا فما دونها الى ثلاثة وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر لا تحط أبدا ويديرونها بحسب دوران الريح واذا أرسوا تركوها واقفة في مهب الريح ويخدم في المركب منها ألف رجل منهم البحرية ستمائة ومنهم أربعمائة من المقاتلة تكون فيهم الرماة واصحاب الدرق والجرخية وهم الذين يرمون بالنفط ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة النصفي والثلثي والربعي ولا تصنع هذه المراكب الا بمدينة الزيتون من الصين أو بصين كلان وهي صين الصين وكيفية انشائها انهم يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخام جدا موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام طول المسمار منها ثلاثة اذرع فاذا التأم الحائطان بهذه الخشب صنعوا على اعلاها فرش المركب الاسفل ودفعوها في البحر واتموا عمله وتبقى تلك الخشب والحائطان موالية للماء ينزلون اليها فيغتسلون ويقضون حاجتهم وعلى جوانب تلك الخشب يكون مجاذيفهم وهي كبار كالصوارى يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلا ويجذفون وقوفا على اقدامهم ويجعلون للمركب أربعة ظهور ويكون فيه البيوت والمصارى والغرف للتجار والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس وعليها المفتاح يسدها صاحبها ويحمل معه الجواري والنساء وربما كان الرجل في مصريته فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب حتى يتلاقيا اذا وصلا الى بعض البلاد والبحرية يسكنون فيها أولادهم ويزدرعون الخضر والبقول والزنجبيل في احواض خشب ووكيل المركب كانه أمير كبير واذا نزل الى البر مشت الرماة والحبشة بالحراب

والسيوف والاطبال والابواق والانفار امامه واذا وصل الى المنزل الذى يقيم به ركزوا رماحهم عن جانبي بابه ولا يزالون كذلك مدة اقامته ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة يبعث بها وكلاءه الى البلاد وليس فى الدنيا أكثر أموالا من أهل الصين

— ذكر أخذنا فى السفر الى الصين ومنتهي ذلك —

ولما حان وقت السفر الى الصين جهز لنا السلطان السامرى جنكا من الجنوك الثلاث عشر التي بمرسى قالقوط وكان وكيل الجنك يسمي بسليمان الصفدى الشامى وبيني وبينه معرفة فقلت له أريد مصرية لا يشاركني فيها أحد لاجل الجوارى ومن عادتى ان لا أسافر الا بهن فقال لى ان تجار الصين قد أكتروا المصارى ذاهبين وراجعين ولصهرى مصرية أعطيتها لكنها لا سنداس فيها وعسي ان تمكن معاوضتها فامرت أصحابى فاوسقوا ما عندى من المتاع وصعد العبيد والجوارى الى الجنك وذلك فى يوم الخميس وأقمت لاصلي الجمعة والحق بهم وصعد الملك سنبل وظهير الدين مع الهدية ثم ان فتى لى يسمى بهلال أتانى غدوة الجمعة فقال ان المصرية التي أخذناها بالجنك ضيقة لا تصلح فذكرت ذلك للناخودة فقال ليست فى ذلك حيلة فان أحببت ان تكون فى الككم ففيه المصارى على اختيارك فقلت نعم وأمرت أصحابى فنقلوا الجوارى والمتاع الى الككم واستقروا به قبل صلاة الجمعة وعادة هذا البحر ان يشتد هيجانه كل يوم بعد العصر فلا يستطيع احد ركوبه وكانت الجنوك قد سافرت ولم يبق منها الا الذي فيه الهدية وجنك عزم أصحابه على ان يشتوا بفندرينا والككم المذكور فبتنا ليلة السبت على الساحل لا نستطيع الصعود الى الككم ولا يستطيع من فيه النزول الينا ولم يكن بقى معي الا بساط افترشه وأصبح الجنك والككم يوم السبت على بعد من المرسى ورمى البحر بالجنك الذى كان اهله يريدون فندرينا فتكسر ومات بعض أهله وسلم بعضهم وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة عليه فرغب فى أعطاء عشرة دنانير ذهبا لمن يخرجها وكانت قد التزمت خشبة فى مؤخر الجنك فانتدب لذلك بعض البحرية الهرمزيين فاخرجها وأبي ان ياخذ الدنانير وقال انما فعلت ذلك لله تعالى ولما كان الليل رمي البحر بالجنك الذى كانت فيه الهدية فمات جميع من فيه ونظرنا عند الصباح الى مصارعهم ورايت ظهير الدين قد انشق رأسه وتناثر دماغه والملك سنبل قد ضرب مسمار فى أحد صدغيه ونفذ من الآخر وصلينا عليهما ودفناهما ورأيت الكافر سلطان قالقوط وفى وسطه شقة بيضاء كبيرة قد لفها من سرته الى ركبته وفى رأسه عمامة صغيرة وهو حافى القدمين والشطر بيد غلام فوق رأسه والنار توقد بين يديه فى الساحل وزبانيته

يضربون الناس لئلا ينتهبوا ما يرمي البحر وعادة بلاد المليبار ان كل ما انكسر من مركب يرجع ما يخرج منه للمخزن الا في هذا البلد خاصة فان ذلك يأخذه أربابه ولذلك عمرت وكثر تردد الناس اليها ولما رأى اهل الككم ما حدث على الجنك رفعوا قلعهم وذهبوا ومعهم جميع متاعي وغلماني وجواري وبقيت منفردا على الساحل ليس معي الا فتى كنت أعتقته فلما رأى ما حل بي ذهب عني ولم يبق عندي الا العشرة الدنانير التي اعطانيها الجوكي والبساط التي كنت افترشه واخبرني الناس ان ذلك الككم لا بد له ان يدخل مرسى كولم فعزمت على السفر اليها وبينهما مسيرة عشر في البر او في النهر ايضا لمن أراد ذلك فسافرت في النهر واكتريت رجلا من المسلمين يحمل لي البساط وعادتهم اذا سافروا في ذلك النهر أن ينزلوا بالعشي فيبيتوا بالقرى التي على حافتيه ثم يعودوا الى المركب بالغدو فكنا نفعل ذلك ولم يكن بالمركب مسلم الا الذي اكتريته وكان يشرب الخمر عند الكفار اذا نزلنا ويعربد علي فيزيد تغيير خاطري ووصلنا في اليوم الخامس من سفرنا الى كنجي كري (وضبط اسمها بكاف مضموم ونون ساكن وجيم وياء مد وكاف مفتوح وراء مكسور وياء) وهي باعلى جبل هنالك يسكنها اليهود ولهم أمير منهم ويؤدون الجزية لسلطان كولم

— ذكر القرفة والبقم —

وجميع الاشجار التي على هذا النهر أشجار القرفة والبقم وهي حطبهم هنالك ومنها كنا نقد النار لطبخ طعامنا في ذلك الطريق وفي اليوم العاشر وصلنا الى مدينة كولم (وضبط اسمها بفتح الكاف واللام وبينهما واو) وهي من احسن بلاد المليبار واسواقها حسان وتجارها يعرفون بالصوليين (بضم الصاد) لهم اموال عريضة يشتري احدهم المركب بما فيه ويوسقه من داره بالسلع وبها من التجار المسلمين جماعة كبيرهم علاء الدين الاوجي من اهل آواة من بلاد العراق وهو رافضي ومعه اصحاب له على مذهبه وهم يظهرون ذلك وقاضيها فاضل من اهل قزوين وكبير المسلمين بها محمد شاه بندر وله اخ فاضل كريم اسمه تقي الدين والمسجد الجامع بها عجيب عمره التاجر خواجه مهزب وهذه المدينة اول ما يوالي الصين من بلاد المليبار واليها يسافر اكثرهم والمسلمون بها اعزة محترمون

— ذكر سلطانها —

وهو كافر يعرف بالتيروري (بكسر التاء المعلوة وياء مد وراء وواو مفتوحين وراء مكسور وياء) وهو معظم للمسلمين وله احكام شديدة على السراق والدعار

— حكاية —

ومما شاهدت بكولم ان بعض الرماة العراقيين قتل آخر منهم وفر الى دار الاوجي وكان له مال كثير واراد المسلمون دفن المقتول فمنعهم نواب السلطان من ذلك وقالوا لا يدفن حتي تدفعوا

لنا قاتله فيقتل به و تركوه فى تابوته على باب الأوجى حتى أنتن وتغير فمكنهم الأوجى من القاتل ورغب منهم ان يعطيهم امواله ويتركوه حيا فابوا ذلك وقتلوه وحينئذ دفن المقتول ﴿ حكاية ﴾ اخبرت ان سلطان كولم ركب يوما الى خارجها وكان طريقه فيما بين البساتين ومعه صهره زوج بنته وهو من ابناء الملوك فاخذ حبة واحدة من العنبة سقطت من بعض البساتين وكان السلطان ينظر اليه فامر به عند ذلك فوسط وقسم نصفين وصلب نصفه عن يمين الطريق ونصفه الآخر عن يساره وقسمت حبة العنبة نصفين فوضع على كل نصف منه نصف منها وترك هنالك عبرة للناظرين

— حكاية —

ومما اتفق نحو ذلك بقالقوط ان ابن أخي النائب عن سلطانها غصب سيفا لبعض تجار المسلمين فشكا بذلك الى عمه فوعده بالنظر في امره وقعد على باب داره فاذا بابن أخيه متقلد ذلك السيف فدعاه فقال هذا سيف المسلم قال نعم قال اشتريته منه قال لا فقال لاعوانه امسكوه ثم امر به فضربت عنقه بذلك السيف وأقمت بكولم مدة بزاوية الشيخ فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازروني شيخ زاوية قالقوط فلم أتعرف للككم خبرا وفى أثناء مقامى بها دخل اليها ارسال ملك الصين الذين كانوا معنا وكانوا مع أحد تلك الجنوك فانكسر أيضا فكساهم تجار الصين وعادوا الى بلادهم ولقيتهم بها بعد واردت أن أعود من كولم الى السلطان لاعلمه بما اتفق على الهدية ثم خفت ان يتعقب فعلى ويقول لم فارقت الهدية فعزمت على العودة الى السلطان جمال الدين الهنورى وأقيم عنده حتى أتعرف خبر الككم فعدت الى قالقوط ووجدت بها بعض مراكب السلطان فبعث فيها أميرا من العرب يعرف بالسيد أبي الحسن وهو من البردارية وهم خواص البوابين بعثه السلطان باموال يستجلب بها من قدر عليه من العرب من أرض هرمز والقطيف لمحبته فى العرب فتوجهت الى هذا الامير ورأيته عازما على ان يشتو بقالقوط وحينئذ يسافر الى بلاد العرب فشاورته في العودة الى السلطان فلم يوافق على ذلك فسافرت بالبحر من قالقوط وذلك آخر فصل السفر فيه فكنا نسير نصف النهار الاول ثم نرسو الى الغدو لقينا فى طريقنا أربعة أجفان غزوية فخفنا منها ثم لم يتعرضوا لنا بشر ووصلنا الى مدينة هنور فنزلت الى السلطان وسلمت عليه فانزلني بدار ولم يكن لى خديم وطلب منى ان أصلى معه الصلوات فكان أكثر جلوسي في مسجده وكنت أختم القرآن كل يوم ثم كنت أختم مرتين فى اليوم أبتدىء القراءة بعد صلاة الصبح فاختم عند الزوال وأجدد الوضوء وأبتدىء القراءة فاختم الختمة الثانية عند الغروب ولم أزل كذلك مدة ثلاثة اشهر واعتكفت فيها أربعين يوما

— ذكر توجهنا الى الغزو وفتح سندابور —

وكان السلطان جمال الدين قدجهز اثنين وخمسين مركبا وسفرته برسم غزو سندابور وكان وقع بين سلطانها وولده خلاف فكتب ولده الى السلطان جمال الدين ان يتوجه لفتح سندابور ويسلم الولد المذكور ويزوجه السلطان اخته فلما تجهزت المراكب ظهر لى ان أتوجه فيها الى الجهاد ففتحت المصحف انظر فيه فكان فى أول الصفح يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره فاستبشرت بذلك وأتي السلطان الى صلاة العصر فقلت له إني أريد السفر فقال فانت اذا تكون أميرهم فاخبرته بما خرج لى فى أول الصفح فاعجبه ذلك وعزم على السفر بنفسه ولم يكن ظهر له ذلك قبل فركب مركبا منها وانا معه وذلك فى يوم السبت فوصلنا عشي الاثنين الى سندابور ودخلنا خورها فوجدنا أهلها مستعدين للحرب وقد نصبوا المجانيق فبتنا عليها تلك الليلة فلما أصبح ضربت الطبول والانفار والابواق وزحفت المراكب ورمته عليها بالمجانيق فلقد رأيت حجرا أصاب بعض الواقفين بمقربة من السلطان ورمى أهل المراكب أنفسهم فى المـاء وبايديهم الترسة والسيوف ونزل السلطان الى العكيري وهو شبه الشلير ورميت بنفسي فى الماء فى جملة الناس وكان عندنا طريدتان مفتوحتي المواخر فيها الخيل وهي بحيث يركب الفارس فرسه فى جوفها ويتدرع ويخرج ففعلوا ذلك واذن الله فى فتحها وانزل النصر على المسلمين فدخلنا بالسيف ودخل معظم الكفار فى قصر سلطانها فرمينا النار فيه فخرجوا وقبضنا عليهم ثم ان السلطان أمنهم وردلهم نساءهم وأولادهم وكانوا نحو عشرة آلاف وأسكنهم بربض المدينة وسكن السلطان القصر وأعطى الديار بمقربة منه لاهل دولته وأعطانى جارية منهن تسمي لمكى فسميتها مباركة وأرادزوجها فداءها فابيت وكساني فرجية مصرية وجدت فى خزائن الكافر وأقمت عنده بسندابور من يوم فتحها وهو الثالث عشر لجمادى الاولى الى منتصف شعبان وطلبت منه الاذن فى السفر فاخذ على العهد فى العودة اليه وسافرت فى البحر الى هنور ثم الى فاكنور ثم الى منجرور ثم الى هيلى ثم الى جرفتن وده فتن وبدفتن وفندرينا وقالقوط وقد تقدم ذكر جميعها ثم الى مدينة الشاليات (وهى بالشين المعجم وألف ولام وياء آخر الحروف وألف وتاء معلوة) مدينة من حسان المدن تصنع بها الثياب المنسوبة لها وأقمت بها فطال مقامى فعدت الى قالقوط ووصل اليها غلامان كانا لى بالكم فاخبراني ان الجارية التى كانت حاملا وبسببها كان تغير خاطرى توفيت وأخذ صاحب الجاوة سائر الجوارى واستولت الايدي على المتاع وتفرق أصحابى الى الصين والجاوة وبنجالة فعدت لمـا تعرفت هذا الى هنور ثم الى سندابور فوصلتها فى آخر المحرم وأقمت بها

الى الثاني من شهر ربيع الآخر وقدم سلطانهم الكافر الذى دخلنا عليه برسم أخذها وهرب اليه الكفار كلهم وكانت عساكر السلطان متفرقة فى القرى فانقطعوا عنا وحصرنا الكفار وضيقوا علينا ولما اشتد الحال خرجت عنها وتركتها محصورة وعدت الى قالقوط وعزمت على السفر الى ذيبة المهل وكنت أسمع باخبارها فبعد عشرة أيام من ركوبنا البحر بقالقوط وصلنا جزائر ذيبة المهل وذيبة على لفظ مؤنث الذيب والمهل (بفتح الميم والهاء) وهذه الجزائر احدى عجائب الدنيا وهي نحو ألفى جزيرة ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب الا منه واذا وصل المركب الى احداها فلا بد له من دليل من أهلها يسير به الى سائر الجزائر وهى من التقارب بحيث تظهر رؤس النخل التي باحداها عند الخروج من الاخرى فان أخطا المركب سمتها لم يمكنه دخولها وحملته الريح الى المعبر او سيلان وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح وهى منقسمة الى أقاليم على كل إقليم وال يسمونه الكردوبي ومن أقاليمها اقليم بالبور (وهو بباءين معقودتين وكسر اللام وآخره راء) ومنها كنلوس (بفتح الكاف والنون مع تشديدها وضم اللام وواو وسين مهمل) ومنها اقليم المهل وبه تعرف الجزائر كلها وبها يسكن سلاطينها ومنها اقليم تلاديب (بفتح التاء المعلوة واللام وألف ودال مهمل وياء مد وباء موحدة) ومنها اقليم كرايدو (بفتح الكاف والراء وسكون الياء المسفولة وضم الدال المهمل وواو) ومنها اقليم التيم (بفتح التاء المعلوة وسكون الياء المسفولة) ومنها اقليم تلدمتى (بفتح التاء المعلوة الاولى واللام وضم الدال المهمل وفتح الميم وتشديدها وكسر التاء الاخري وياء ومنها اقليم هلدمتى وهو مثل لفظ الذى قبله الا أن الهاء أوله ومنها اقليم بريدو (بفتح الباء الموحدة والراء وسكون الياء وضم الدال المهمل وواو) ومنها اقليم كندكل (بفتح الكافين والدال المهمل وواو) ومنها اقليم ملوك (بضم الميم) ومنها اقليم السويد (بالسين المهمل) وهو أقصاها وهذه الجزائر كلها لا زرع بها الا أن فى اقليم السويد منها زرعا يشبه انلي ويجلب منه الى المهل وانما أكل أهلها سمك يشبه الليرون يسمونه قلب الماس (بضم القاف) ولحمه أحمر ولا زفر له انما ريحه كريح لحم الانعام واذا اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع وطبخوه يسيرا ثم جعلوه فى مكاتيل من سعف النخل وعلقوه للدخان فاذا استحكم يبسه أكلوه ويحمل منها الى الهند والصين واليمن ويسمونه قلب الماس (بضم القاف)

ذكر أشجارها

ومعظم أشجار هذه الجزائر النارجيل وهو من أقواتهم مع السمك وقد تقدم ذكره

وأشجار النارجيل شأنها عجيب وتثمر النخل منها اثني عشر عذقا فى السنة يخرج فى كل شهر عذق فيكون بعضها صغيرا وبعضها كبيرا وبعضها يابسا وبعضها أخضر هكذا أبدا ويصنعون منها الحليب والزيت والعسل حسبما ذكرنا لك فى السفر الاول ويصنعون من عسله الحلواء فيأكلونها مع الجوز اليابس منه ولذلك كله وللسمك الذى يغتذون به قوة عجيبة فى الباءة لا نظير لها ولاهل هذه الجزائر عجب فى ذلك ولقد كان لى بها أربع نسوة وجوار سواهن فكنت أطوف على جميعهن كل يوم وأبيت عند من تكون ليلتها وأقمت بها سنة ونصف أخرى على ذلك ومن أشجارها الجموح والاترج والليمون والقلقاص وهم يصنعون من أصوله دقيقا يعملون منه شبه الاطرية ويطبخونها بحليب النارجيل وهى من أطيب طعام كنت أستحسنها كثيرا وآكلها

— ذكر أهل هذه الجزائر وبعض عوائدهم وذكر مساكنهم —

وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة وايمان صحيح ونية صادقة أكلهم حلال ودعاؤهم مجاب واذا رأى الانسان أحدهم قال له الله ربى ومحمد نبي وأنا أمى مسكين وأبدانهم ضعيفة ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة وسلاحهم الدعاء ولقد أمرت مرة بقطع يد سارق بها فغشى على جماعة منهم كانوا بالمجلس ولا تطرقهم لصوص الهند ولا تذعرهم لانهم جربوا ان من أخذ لهم شيئا أصابته مصيبة عاجلة واذا أتت أجفان العدو الى ناحيتهم أخذوا من وجدوا من غيرهم ولم يتعرضوا الاحد منهم بسوء وان أخذ أحد الكفار ولو ليمونة عاقبه أمير الكفار وضربه الضرب المبرح خوفا من عاقبة ذلك ولولا هذا لكانوا أهون الناس على قاصدهم بالقتال لضعف بنيتهم وفى كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة وأكثر عمارتهم بالخشب وهم أهل نظافة وتنزه عن الاقذار وأكثرهم يغتسلون مرتين فى اليوم تنظفا لشدة الحر بها وكثرة العرق ويكثرون من الادهان العطرية كالصندلية وغيرها ويتلطخون بالغالية المجلوبة من مقدشو ومن عادتهم انهم اذا صلوا الصبح أتت كل امرأة الى زوجها أو ابنها بالمكحلة وبماء الورد ودهن الغالية فيكحل عينيه ويدهن بماء الورد ودهن الغالية فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه ولباسهم فوط يشدون الفوطة منها على أوساطهم عوض السراويل ويجعلون على ظهورهم ثياب الوليان (بكسر الواو وسكون اللام وياء آخر الحروف) وهي شبه الاحاريم وبعضهم يجعل عمامة وبعضهم منديلا صغيرا عوضا منها واذا لقي أحدهم القاضى أو الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه وكشف ظهره ومضى معه كذلك حتى يصل الى منزله ومن عوائدهم انه اذا تزوج الرجل منهم ومضى الى دار زوجته بسطت له ثياب

القطن من باب دارهـا الى باب البيت وجعل عليها غرفات من الودع عن يمين طريقـه الى البيت وشماله وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره فاذا وصل اليها رمت على رجليه ثوبا ياخذه خدامه وان كانت المرأة هي التي تاتي الى منزل الرجل بسطت داره وجعل فيها الودع ورمت المرأة عند الوصول اليه الثوب على رجليه وكذلك عادتهم في السلام على السلطان عندهم لا بد من ثوب يرمى عند ذلك وسنذكره وبنيانهم بالخشب ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الارض توقيا من الرطوبات لان أرضهم ندية وكيفية ذلك ان ينحتوا حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين او ثلاثة ويجعلونها صفوفا ويعرضون عليها خشب النارجيل ثم يصنعون الحيطان من الخشب ولهم صناعة عجيبة في ذلك ويبنون في اسطوان الدار بيتا يسمونه المالم (بفتح اللام) يجلس الرجل به مع أصحابه ويكون له بابان أحدهما الى جهة الاسطوان يدخل منه الناس والآخر الى جهة الدار يدخل منه صاحبها ويكون عند هذا البيت خابية مملوءة ماء ولها مستقي يسمونه الولج (بفتح الواو واللام وسكون النون وجيم) هو من قشر جوز النارجيل وله نصاب طوله ذراعان وبه يسقون الماء من الآبار لقربها وجميعهم حفاة الاقدام من رفيع ووضيع وازقتهم مكنوسة نقية تظللها الاشجار فالماشي بها كأنه في بستان ومع ذلك لا بد لكل داخل الى الدار ان يغسل رجليه بالماء الذي في الخابية بالمالم ويمسحها بحصير غليظ من الليف يكون هنالك ثم يدخل بيته وكذلك يفعل كل داخل الى المسجد ومن عوائدهم اذا قدم عليهم مركب أن تخرج اليه الكنادر وهي القوارب الصغار واحدها كندرة (بضم الكاف والدال) وفيها أهل الجزيرة معهم التنبول والكزنبه وهي جوز النارجيل الاخضر فيعطي الانسان منهم ذلك لمن شاء من أهل المركب ويكون نزيله ويحمل أمتعته الى داره كأنه بعض أقربائه ومن اراد التزوج من القادمين عليهم تزوج فاذا حان سفره طلق المرأة لانهن لا يخرجن عن بلادهن ومن لم يتزوج فالمرأة التي ينزل بدارها تطبخ له وتخدمه وتزوده اذا سافر وترضى منه في مقابلة ذلك بايسر شيء من الاحسان وفائدة المخزن ويسمونه البندر أن يشتري من كل سلعة بالمركب حظا بسوم معلوم سواء كانت السلعة تساوي ذلك أو اكثر منه ويسمونه شرع البندر ويكون للبندر بيت في كل جزيرة من الخشب يسمونه البجنصار (بفتح الباء الموحدة والجيم وسكون النون وفتح الصاد المهمل وآخره راء) يجمع به الوالي وهو الكردوري جميع سلعه ويبيع بها ويشرى وهم يشترون الفخار اذا جلب اليهم بالدجاج فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذي ذكرناه وجوز النارجيل والفوط والوليان والعمائم وهي

من القطن ويحملون منها أواني النحاس فانها عندهم كثيرة ويحملون الودع ويحملون القنبر (بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة والراء) وهو ليف جوز النارجيل وهم يدبغونه في حفر على الساحل ثم يضربونه بالمرازب ثم يغزله النساء وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب وتحمل الى الصين والهند واليمن وهو خير من القنب وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن لان ذلك البحر كثير الحجارة فان كان المركب مسمرا بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر واذا كان مخيطا بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر وصرف أهل هذه الجزائر الودع وهو حيوان يلتقطونه في البحر ويضعونه فى حفر هنالك فيذهب لحمه ويبقى عظمه أبيض ويسمون المائة منه سياه (بسين مهمل وياء آخر الحروف) ويسمون السبعمائة منه الفال (بالفاء) ويسمون الاثني عشر ألفا منه الكتى (بضم الكاف وتشديد التاء المعلوة) ويسمون المائة ألف منه بستو (بضم الباء الموحدة والتاء المعلوة وبينهما سين مهمل) ويباع بها بقيمة اربعة بساتي بدينار من الذهب وربما رخص حتي يباع عشر بساتى منه بدينار ويبيعونه من أهل بنجالة بالارز وهو أيضا صرف أهل بلاد بنجالة ويبيعونه من أهل اليمن فيجعلونه عوض الرمل فى مراكبهم وهذا الودع ايضا هو صرف السودان فى بلادهم رأيته يباع بمالى وجوجو بحساب ألف ومائة وخمسين للدينار الذهبي

— ذكر نسائها —

ونساؤها لا يغطين رؤسهن ولا سلطانتهم تغطى رأسها ويمشطن شعورهن ويجمعنها الى جهة واحدة ولا يلبس أكثرهن الا فوطة واحدة تسترها من السرة الى أسفل وسائر أجسادهن مكشوفة وكذلك يمشين فى الاسواق وغيرها ولقد جهدت لما وليت القضاء بها ان أقطع تلك العادة وآمرهن باللباس فلم أستطع ذلك فكنت لا تدخل الي منهن امرأة فى خصومة الا مستترة الجسد وماعدا ذلك لم تكن لى عليه قدرة ولباس بعضهن قمص زائدة على الفوطة وقمصهن قصار الاكمام عراضها وكان لى جوار كسوتهن لباس أهل دهلي يغطين رؤسهن فعابهن ذلك أكثر مما زانهن اذ لم يتعودنه وحليهن الاساور تجعل المرأة منها جملة فى ذراعيها بحيث تملا مابين الكوع والمرفق وهي من الفضة ولا يجعل أساور الذهب الا نساء السلطان وأقاربه ولهن الخلاخيل ويسمونها البايل (بباء موحدة وألف وياء آخر الحروف مكسورة) وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن ويسمونها البسدر (بالباء الموحدة وسكون السين المهمل وفتح الدال المهمل والراء) ومن عجيب أفعالهن انهن يؤجرن أنفسهن للخدمة بالديار على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها على مستاجرهن نفقتهن ولا يرين ذلك عيبا ويفعله أكثر

بينا تهم فتجد فى دار الانسان الغني منهن العشرة والعشرين وكل ما تكسره من الأواني يحسب عليها قيمته واذا أرادت الخروج من دار الى دار أعطاها أهل الدار التي تخرج اليها العدد الذى هى مرتهنة فيه فتدفعه لاهل الدار التي خرجت منها و يبقي عليها للآخرين وأكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل القنبر والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء وأكثر الناس لا يسمي صداقا انما تقع الشهادة ويعطى صداق مثلها واذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء فاذا أرادوا السفر طلقوهن وذلك نوع من نكاح المتعة وهن لا يخرجن عن بلادهن أبدا ولم أر في الدنيا أحسن معاشرة منهن ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها الى سواها بل هى تأتيه بالطعام و ترفعه من بين يديه وتغسل يده وتأتيه بالماء للوضوء وتغمز رجليه عند النوم ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة ولقد تزوجت بها نسوة فأكل معي بعضهن بعد محاولة و بعضهن لم تأكل معي ولا استطعت ان أراها تأكل ولا نفعتني حيلة فى ذلك

— ذكر السبب في إسلام أهل هذه الجزائر —

— وذكر العفاريت من الجن التي تضر بها فى كل شهر —

حدثني الثقات من أهلها كالفقيه عيسى اليمني والفقيه المعلم على والقاضى عبد الله وجماعة سواهم أن هذه الجزائر كانوا كفاراً وكان يظهر لهم فى كل شهر عفريت من الجن يأتى من ناحية البحر كانه مركب مملوء بالقناديل وكانت عادتهم اذا رأوه أخذوا جارية بكرا فزينوها وادخلوها الى بدخانة وهى بيت الاصنام وكان مبنيا على ضفة البحر وله طاق ينظر اليه منه و يتركونها هنالك ليلة ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتضة ميتة ولا يزالون فى كل شهر يقترعون بينهم فمن أصابته القرعة أعطي بنته ثم انه قدم عليهم مغربى يسمى بابى البركات البربري وكان حافظا للقرآن العظيم فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهل فدخل عليها يوما وقد جمعت أهلها وهن يبكين كانهن فى مأتم فاستفهمهن عن شأنهن فلم يفهمنه فاتى ترجمان فاخبره أن العجوز كانت القرعة عليها و ليس لها الا بنت واحدة يقتلها العفريت فقال لها أبو البركات أنا أتوجه عوضا من بنتك بالليل وكان سناطا لا لحية له فاحتملوه تلك الليلة وأدخلوه الى بدخانة وهو متوضئ واقام يتلو القرآن ثم ظهر له العفريت من الطاق فداوم التلاوة فلما كان منه بحيث يسمع القراءة غاص فى البحر وأصبح المغربى وهو يتلو على حاله فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ليستخرجوا البنت على عادتهم فيحرقوها فوجدوا المغربى يتلو فمضوا به الى ملكهم وكان يسمى شنورازة (بفتح الشين المعجم

وضم النون وواو وراء والف وزاى وهاء) واعلموه بخبره فعجب منه وعرض المغربي عليه الاسلام ورغبه فيه فقال له أقم عندنا الى الشهر الآخر فان فعلت كفعلك ونجوت من العفريت أسلمت فأقام عندهم وشرح الله صدر الملك للاسلام فأسلم قبل تمام الشهر وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته ثم حمل المغربي لما دخل الشهر الى بدخانة ولم يأت العفريت فجعل يتلو حتى الصباح وجاء السلطان والناس معه فوجدوه على حاله من التلاوة فكسروا الاصنام وهدموا بدخانة وأسلم أهل الجزيرة وبعثوا الى سائر الجزائر فأسلم أهلها وأقام المغربي عندهم معظما وتمذهبوا بمذهبه مذهب الامام مالك رضي الله عنه وهم الى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه وبني مسجدا هو معروف باسمه وقرأت على مقصورة الجامع منقوشا في الخشب أسلم السلطان أحمد شنورازة على يد أبي البركات البربري المغربي وجعل ذلك السلطان ثلث مجابي الجزائر صدقة على أبناء السبيل إذ كان إسلامه بسببهم فسمى على ذلك حتي الآن وبسبب هذا العفريت خرب من هذه الجزائر كثير قبل الاسلام ولما دخلناها لم يكن لي علم بشأنه فبينا أنا ليلة في بعض شأني اذ سمعت الناس يجهرون بالتهليل والتكبير ورأيت الاولاد وعلى رؤسهم المصاحف والنساء يضربون في الطسوت واواني النحاس فعجبت من فعلهم وقلت ماشأنكم فقالوا ألا تنظر الى البحر فنظرت فاذا مثل المركب الكبير وكأنه مملوسرجا ومشاعل فقالوا ذلك العفريت وعادته أن يظهر مرة في الشهر فاذا فعلنا مارأيت انصرف عنا ولم يضرنا

—— ذكر سلطانة هذه الجزائر ——

ومن عجائبها إن سلطانتها امرأة وهي خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين صالح البنجالي وكان الملك لجدها ثم لابيها فلما مات أبوها ولى أخوها شهاب الدين وهو صغير السن فتزوج الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي أمه وغلب عليه وهو الذي تزوج أيضا هذه السلطانة خديجة بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين كما سنذكره فلما بلغ شهاب الدين مبلغ الرجال أخرج ربيبه الوزير عبد الله ونفاه الى جزائر السويد واستقل بالملك واستوزر أحد مواليه ويسمي علي كلكي ثم عزله بعد ثلاثة أعوام ونفاه الى السويد وكان يذكر عن السلطان شهاب الدين المذكور انه يختلف الى حرم أهل دولته وخواصه بالليل فخلعوه لذلك ونفوه الى اقليم هلدتني وبعثوا من قتله بها ولم يكن بقي من بيت الملك الا اخواته خديجة الكبري ومريم وفاطمة فقدموا خديجة سلطانة وكانت متزوجة لخطيبهم جمال الدين فصار وزيرا وغالبا على الامر وقدم ولده محمد للخطابة عوضا منه ولكن الاوامر

انما تنفذ باسم خديجة وهم يكتبون الاوامر فى سعف النخل بحديدة معوجة شبه السكين ولا يكتبون فى الكاغد الا المصاحف وكتب العلم ويذكرها الخطيب يوم الجمعة وغيرها فيقول اللهم انصر أمتك التى اخترتها على علم على العالمين وجعلتها رحمة لكافة المسلمين ألا وهى السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين ابن السلطان صلاح الدين ومن عادتهم اذا قدم الغريب عليهم ومضى الى المشور وهم يسمونه الدار فلا بدله ان يستصحب ثوبين فيخدم لجهة هذه السلطانة ويرمى باحدهما ثم يخدم لوزيرها وهو زوجها جمال الدين ويرمى بالثانى وعسكرها نحو ألف انسان من الغرباء وبعضهم بلديون ويأتون كل يوم الى الدار فيخدمون وينصرفون ومرتبهم الارز يعطاهم من البندر فى كل شهر فاذا تم الشهر أتوا الدار وخدموا وقالوا للوزير بلغ عنا الخدمة واعلم بانا أتينا نطلب مرتبنا فيؤمر لهم بها عند ذلك ويأتى أيضا الى الدار كل يوم القاضى وأرباب الخطط وهم الوزراء عندهم فيخدمون ويبلغ خدمتهم الفتيان وينصرفون

— ذكر أرباب الخطط وسيرهم —

وهم يسمون الوزير الاكبر النائب عن السلطانة كلكي (بفتح الكاف الاولى واللام) ويسمون القاضى فنديارقالوا (وضبط ذلك بفاء مفتوح ونون مسكن ودال مهمل مفتوح وياء آخر الحروف والف وراء وقاف والف ولام مضموم) واحكامهم كلها راجعة الى القاضى وهو أعظم عندهم من الناس أجمعين وأمره ممتثل كامر السلطان وأشد ويجلس على بساط فى الدار وله ثلاثة جزائر يأخذ مجباها لنفسه عادة قديمة أجراها السلطان أحمد شنورازة ويسمون الخطيب هنديجرى (وضبط ذلك بفتح الهاء وسكون النون وكسر الدال وياء مد وجيم مفتوح وراء وياء) ويسمون صاحب الديوان الفاملداري (بفتح الفاء والميم والدال المهمل) ويسمون صاحب الاشغال مافاكلوا (بفتح الميم والكاف وضم اللام) ويسمون الحاكم فتنايك (بكسر الفاء وسكون التاء المثلثة وفتح النون والف وياء آخر الحروف مفتوحة أيضا وكاف) ويسمون قائد البحر مانايك (بفتح الميم والنون والياء) وكل هؤلاء يسمى وزيرا ولا سجن عندهم بتلك الجزائر انما يحبس ارباب الجرائم فى بيوت خشب هى معدة لامتعة التجار ويجعل أحدهم فى خشبة كما يفعل عندنا بأسارى الروم

— ذكر وصولى الى هذه الجزائر وتنقل حالى بها —

ولما وصلت اليها نزلت منها بجزيرة كنلوس وهى جزيرة حسنة فيها المساجد الكثيرة ونزلت بدار رجل من صلحائها وأضافنى بها الفقيه على وكان فاضلا له أولاد من طلبة العلم ولقيت بها

رجلا اسمه محمد من أهل ظفار الحموض فاضافني وقال لى إن دخلت جزيرة المهل أمسكك الوزير بها فانهم لا قاضى عندهم وكان غرضي أن أسافر منها الى المعبر وسرنديب وبنجالة ثم الى الصين وكان قدومي عليها فى مركب الناخوذة عمر الهنورى وهو من الحجاج الفضلاء ولما وصلنا كنلوس أقام بها عشرا ثم اكترى كندرة يسافر فيها الى المهل بهدية للسلطانة وزوجها فاردت السفر معه فقال لا تسعك الكندرة أنت وأصحابك فان شئت السفر منفردا عنهم فدونك فابيت ذلك وسافر فلعبت به الريح وعاد الينا بعد أربعة أيام وقد لقى شدائد فاعتذر لى وعزم على فى السفر معه باصحابى فكنا نرحل غدوة فننزل فى وسط النهار لبعض الجزائر ونرحل فنبيت باخرى ووصلنا بعد أربعة أيام الى اقليم التيم وكان الكردوى يسمى بها هلالا فسلم على واضافني وجاء الى ومعه أربعة رجال وقد جعل اثنان عليهم عودا على أكتافهما وعلقا منه أربع دجاجات وجعل الآخران عودا مثله وعلقا منه نحو عشر من جوز النارجيل فعجبت من تعظيمهم لهذا الشيء الحقير فاخبرت انهم صنعوه على جهة الكرامة والاجلال ورحلنا عنهم فنزلنا فى اليوم السادس بجزيرة عثمان وهو رجل فاضل من خيار الناس فاكرمنا وأضافنا وفى اليوم الثامن نزلنا بجزيرة لوزير يقال له التلمذى وفى اليوم العاشر وصلنا الى جزيرة المهل حيث السلطانة وزوجها وارسينا بمرساها وعادتهم أن لا ينزل أحد عن المرسى الا باذنهم فاذنوا لنا بالنزول وأردت التوجه الى بعض المساجد فمنعني الخدام الذين بالساحل وقالوا لا بد من الدخول الى الوزير وكنت أوصيت الناخوذة ان يقول اذا سئل عني لا اعرفه خوفا من امساكهم إياي ولم أعلم ان بعض أهل الفضول قد كتب اليهم معرفا بخبرى واني كنت قاضيا بدهلى فلما وصلنا الى الدار وهو المشور نزلنا فى سقائف على الباب الثالث منه وجاء القاضى عيسى اليمني فسلم على وسلمت على الوزير وجاء الناخوذة ابراهيم بعشرة أثواب فخدم لجهة السلطانة ورمي بثوب منها ثم خدم للوزير ورمي بثوب آخر كذلك ورمي بجميعها وسئل عني فقال لا أعرفه ثم اخرجوا التنبول وماء الورد وذلك هو الكرامة عندهم وأنزلنا بدار وبعث الينا الطعام وهو قصعة كبيرة فيها الارز وتدور بها صحاف فيها اللحم الخليع والدجاج والسمن والسمك ولما كان بالغد مضيت مع الناخودة والقاضي عيسى اليمني لزيارة زاوية فى طرف الجزيرة عمرها الشيخ الصالح نجيب وعدنا ليلا وبعث الوزير الى صبيحة تلك الليلة كسوة وضيافة فيها الارز والسمن والخليع وجوز النارجيل والعسل المصنوع منها وهم يسمونه القربانى (بضم القاف وسكون الراء وفتح الباء الموحدة والف ونون وياء) ومعنى ذلك ماء السكر واتوا بمائة الف ودعة للنفقة وبعد عشرة أيام قدم مركب من سيلان فيه فقراء

من العرب والعجم يعرفوني فعرفوا خدام الوزير بامري فزاد اغتباطا بي وبعث عني عند استهلال رمضان فوجدت الامراء والوزراء وأحضر الطعام في موائد يجتمع على المائدة طائفة فاجلسني الوزير الى جانبه ومعه القاضي عيسى والوزير الفاملدارى والوزير عمر دهرى ومعناه مقدم العسكر وطعامهم الارز والدجاج والسمن والسمك والخليع والموز المطبوخ ويشربون بعده عسل النارجيل مخلوطا بالافاوية وهو يهضم الطعام وفي التاسع من شهر رمضان مات صهر الوزير زوج بنته وكانت قبله عند السلطان شهاب الدين ولم يدخل بها أحد منهما لصغرها فردها أبوها لداره واعطاني دارها وهي من أجمل الدور واستأذنته في ضيافة الفقراء القادمين من زيارة القدم فاذن لي في ذلك وبعث الى خمسا من الغنم وهي عزيزة عندهم لانها مجلوبة من المعبر والمليبار ومقدشو وبعث الارز والدجاج والسمن والابازير فبعثت ذلك كله الى دار الوزير سليمان ما نايك فطبخ لي بها فاحسن في طبخه وزاد فيه وبعث الفرش وأواني النحاس وأفطرنا على العادة بدار السلطانة مع الوزير واستأذنته في حضور بعض الوزراء بتلك الضيافة فقال لي وأنا أحضر أيضا فشكرته وانصرفت الى داري فاذا به قد جاء ومعه الوزراء وأرباب الدولة فجلس قبة في خشب مرتفعة وكان كل من يأتي من الامراء والوزراء يسلم على الوزير ويرمي بثوب غير مخيط حتى اجتمع مائة ثوب أو نحوها فاخذها الفقراء وقدم الطعام فاكلوا ثم قرأ القراء بالاصوات الحسان ثم أخذوا في السماع والرقص وأعددت النار فكان الفقراء يدخلونها ويطؤنها بالاقدام ومنهم من يأكلها كما تؤكل الحلواء الى ان خمدت

— ذكر بعض احسان الوزير الى —

ولما تمت الليلة انصرف الوزير ومضيت معه فمررنا ببستان للمخزن فقال لي الوزير هذا البستان لك وسأعمر لك فيه دارا لسكناك فشكرت فعله ودعوت له ثم بعث لي من الغد بجارية وقال لي خديمه يقول لك الوزير ان اعجبتك هذه هي لك والا بعثت لك جارية مرهتية وكانت الجواري المرهتيات تعجبني فقلت له انما أريد المرهتية فبعثها الى وكان اسمها قل استان ومعناه زهر البستان وكانت تعرف اللسان الفارسي فاعجبتني وأهل تلك الجزائر لهم لسان لم أكن اعرفه ثم بعث الى في غد ذلك بجارية معبرية تسمي عنبرى ولما كانت الليلة بعدها جاء الوزير الى بعد العشاء الاخيرة في نفر من أصحابه فدخل الدار ومعه غلامان صغيران فسلمت عليه وسالني عن حالي فدعوت له وشكرته فالقي أحد الغلامين بين يديه لقشة (بقشة) وهي شبه السبنية وأخرج منها ثياب حرير وحقا فيه جوهر

فاعطاني ذلك وقال لي لو بعثته لك مع الجارية لقالت هو مالي جئت به من دار مولاي والان هو مالك فاعطه اياه فدعوت له وشكرته وكان أهلا للشكر رحمه الله

— ذكر تغيره وما أردته من الخروج ومقامي بعد ذلك —

وكان الوزير سليمان مانايك قد بعث الى ان أتزوج بنته فبعثت الى الوزير جمال الدين مستاذنا في ذلك فعاد الى الرسول وقال لم يعجبه ذلك وهو يحب أن يزوجك بنته اذا انقضت عدتها فابيت أنا ذلك وخفت من شؤمها لانه مات تحتها زوجان قبل الدخول وأصابتني أثناء ذلك حمى مرضت بها ولا بد لكل من يدخل تلك الجزيرة ان يحم فقوي عزمي على الرحلة عنها فبعت بعض الحلي بالودع واكتريت مركبا أسافر فيه لبنجالة فلما ذهبت لوداع الوزير خرج الى القاضي فقال الوزير يقول لك ان شئت السفر فاعطنا ما أعطيناك وسافر فقلت له ان بعض الحلي اشتريت به الودع فشانكم واياه فعاد الى فقال يقول انما أعطيناك الذهب ولم نعطك الودع فقلت له أنا أبيعه وآتيكم بالذهب فبعثت الى التجار ليشتروه مني فامرهم الوزير ان لا يفعلوا وقصده بذلك كله ان لا أسافر عنه ثم بعث الى أحد خواصه وقال الوزير يقول لك أقم عندنا ولك كل ما أحببت فقلت في نفسي أنا تحت حكمهم وان لم أقم مختارا أقمت مضطرا فالاقامة باختياري اولى وقلت لرسوله نعم انا اقيم معه فعاد اليه ففرح بذلك واستدعاني فلما دخلت اليه قام الي وعانقني وقال نحن نريد قربك وأنت تريد البعد عنا فاعتذرت له فقبل عذري وقلت له ان اردتم مقامي فانا اشترط عليكم شروطا فقال نقبلها فاشترط فقلت له انا لا أستطيع المشي على قدمي ومن عادتهم أن لا يركب أحد هنالك الا الوزير ولقد كنت لما أعطوني الفرس فركبته يتبعني الناس رجالا وصبيانا يعجبون مني حتى شكوت له فضربت الدنقرة وبرح في الناس ان لا يتبعني أحد والدنقرة (بضم الدال المهمل وسكون النون وضم القاف وفتح الراء) شبه الطست من النحاس تضرب بحديدة فيسمع لها صوت على البعد فاذا ضربوها حينئذ يبرح في الناس بما يراد فقال لي الوزير ان أردت ان تركب الدولة والا فعندنا حصان ورمكة فاختر أيهما شئت فاخترت الرمكة فاتوني بها في تلك الساعة وأتوني بكسوة فقلت له وكيف أصنع بالودع الذي اشتريته فقال ابعث أحد أصحابك ليبيعه لك ببنجالة فقلت له على ان تبعث أنت من يعينه على ذلك فقال نعم فبعثت حينئذ رفيقي أبا محمد بن فرحان وبعثوا معه رجلا يسمى الحاج عليا فاتفق ان هال البحر فرموا بكل ما عندهم حتى الزاد والماء والصاري والقرية وأقاموا ست عشرة ليلة لا قلع لهم ولا سكان ولا غيره ثم خرجوا الى جزيرة سيلان بعد جوع وعطش وشدائد

وقدم على صاحبي ابو محمد بعد سنة وقد زار القدم وزارها مرة ثانية معى

— ذكر العيد الذي شاهدته معهم —

ولما تم شهر رمضان بعث الوزير الى بكسوة وخرجنا الى المصلى وقد زينت الطريق التي يمر الوزير عليها من داره الى المصلى وفرشت الثياب فيها وجعلت كتائب الودع يمنة ويسرة وكل من له على طريقه دار من الامراء والكبار قد غرس عندها النخل الصغار من النارجيل واشجار الفوفل والموز ومد من شجر الى أخري شرائط وعلق منها الجوز الاخضر ويقف صاحب الدار عند بابها فاذا مر الوزير رمي على رجليه ثوبا من الحرير أو القطن فيأخذها عبيده مع الودع الذي يجعل على طريقه أيضا والوزير ماش على قدميه وعليه فرجية مصرية من المرعز وعمامة كبيرة وهو متقلد فوطة حرير وفوق رأسه أربعة شطور وفي رجليه النعل وجميع الناس سواه حفاة والابواق والانفار والاطبال بين يديه والعساكر امامه وخلفه وجميعهم يكبرون حتي أتوا المصلى فخطب ولده بعد الصلاة ثم أتى بمحفة فركب فيها الوزير وخدم له الامراء والوزراء ورموا بالثياب على العادة ولم يكن ركب فى المحفة قبل ذلك لان ذلك لا يفعله الا الملوك ثم رفعه الرجال وركبت فرسي ودخلنا القصر فجلس بموضع مرتفع وعنده الوزراء والامراء ووقف العبيد بالترسة والسيوف والعصي ثم أتى بالطعام ثم الفوفل والتنبول ثم اتى بصحفة صغيرة فيها الصندل المقاصرى فاذا أكلت جماعة من الناس تلطخوا بالصندل ورأيت على بعض طعامهم يومئذ حوتا من السردين مملوحا غير مطبوخ أهدي لهم من كولم وهو من بلاد المليبار كثير فاخذ الوزير سردينة وجعل يأكلها وقال لى كل منه فانه ليس ببلادنا فقلت كيف آكله وهو غير مطبوخ فقال انه مطبوخ فقلت انا اعرف به فانه ببلادى كثير

— ذكر تزوجى وولايتي القضاء —

وفى الثانى من شوال اتفقت مع الوزير سليمان ماناايك على تزوج بنته فبعثت الى الوزير جمال الدين أن يكون عقد النكاح بين يديه بالقصر فاجاب الى ذلك واحضر التنبول على العادة والصندل وحضر الناس وأبطأ الوزير سليمان فاستدعي فلم يأت ثم استدعى ثانية فاعتذر بمرض البنت فقال لى الوزير سرا أن بنته امتنعت وهى مالكة أمر نفسها والناس قد اجتمعوا فهل لك ان تتزوج بربيبة السلطان زوجة أبيها وهي التي ولده متزوج بنتها فقلت له نعم فاستدعى القاضي والشهود ووقعت الشهادة ودفع الوزير الصداق ورفعت الى بعد ايام فكانت من خيار النساء وبلغ حسن معاشرتها انها كانت اذا تزوجت عليها تطيبنى

وتبخر اثوابي وهي ضاحكة لا يظهر عليها تغير ولما تزوجتها اكرهني الوزير على القضاء وسبب ذلك اعتراضي على القاضي لكونه كان يأخذ العشر من التركات اذا قسمها على أربابها فقلت له انما لك اجرة تتفق بها مع الورثة ولم يكن يحسن شيئا فلما وليت اجتهدت جهدي في اقامة رسوم الشرع وليست هنالك خصومات كما هي ببلادنا فاول ما غيرت من عوائد السوء مكث المطلقات في ديار المطلقين وكانت احداهن لا تزال في دار المطلق حتى تتزوج غيره فحسمت علة ذلك وأتي الي بنحو خمسة وعشرين رجلا ممن فعل ذلك فضربتهم وشهرتهم بالاسواق وأخرجت النساء عنهم ثم اشتددت في اقامة الصلوات وأمرت الرجال بالمبادرة الى الازقة والاسواق أثر صلاة الجمعة فمن وجدوه لم يصل ضربته وشهرته والزمت الائمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على ماهم بسبيله وكتبت الى جميع الجزائر بنحو ذلك وجهدت أن أكسو النساء فلم أقدر على ذلك

— ذكر قدوم الوزير عبدالله بن محمد الحضرمي الذي نفاه السلطان شهاب الدين الى السويدو ماوقع بيني وبينه —

وكنت قد تزوجت ربيبته بنت زوجته وأحببتها حبا شديداً ولما بعث الوزير عنه ورده الى جزيرة المهل بعث له التحف وتلقيته ومضيت معه الى القصر فسلم على الوزير وأنزله في دار جيدة فكنت أزوره بها واتفق ان اعتكفت في رمضان فزارني جميع الناس الا هو وزارني الوزير جمال الدين فدخل هو معه بحكم الموافقة فوقعت بيننا الوحشة فلما خرجت من الاعتكاف شكا الي اخوال زوجتي ربيبته أولاد الوزير جمال الدين السنجري فان أباهم أوصى عليهم الوزير عبدالله وأن مالهم باق بيده وقد خرجوا عن حجره بحكم الشرع وطلبوا احضاره بمجلس الحكم وكانت عادتي اذا بعثت عن خصم من الخصوم ابعث له قطعة كاغد مكتوبة فعند ما يقف عليها يبادر الى مجلس الحكم الشرعي والا عاقبته فبعثت اليه على العادة فاغضبه ذلك وحقدها لي واضمر عداوتي ووكل من يتكلم عنه وبلغني عنه كلام قبيح وكانت عادة الناس من صغير وكبير ان يخدموا له كما يخدمون للوزير جمال الدين وخدمتهم أن يوصلوا السبابة الى الارض ثم يقبلونها ويضعونها على رؤسهم فامرت المنادي فنادى بدار السلطان على رؤس الاشهاد أنه من خدم للوزير عبدالله كما يخدم للوزير الكبير لزمه العقاب الشديد وأخذت عليه أن لا يترك الناس لذلك فزادت عداوته وتزوجت أيضا زوجة اخرى بنت وزير معظم عندهم كان جده السلطان داود حفيد السلطان أحمد شنورازة ثم تزوجت زوجة كانت تحت السلطان شهاب الدين وعمرت

ثلاث ديار بالبستان الذي أعطانيه الوزير وكانت الرابعة وهي ربيبة الوزير عبد الله تسكن في دارها وهي احبهن الى فلما صاهرت من ذكرتهها بنى الوزير واهل الجزيرة وتخوفوا مني لاجل ضعفهم وسعوا بيني وبين الوزير بالنمائم وتولى الوزير عبد الله كبر ذلك حتي تمكنت الوحشة

— ذكر انفصالى عنهم وسبب ذلك —

واتفق فى بعض الايام ان عبدا من عبيد السلطان جلال الدين شكته زوجته الى الوزير واعلمته انه عند سرية من سرارى السلطان يزني بها فبعث الوزير الشهود دخلوا دار السرية فوجدوا الغلام نائما معها فى فراش واحد وحبسوها فلما أصبحت وعلمت بالخبر توجهت الى المشور وجلست فى موضع جلوسى ولم اتكلم فى شيء من امرها فخرج الى بعض الخواص فقال يقول لك الوزير ألك حاجة فقلت لا وكان قصده ان أتكلم في شان السرية والغلام اذا كانت عادتى ان لا تقطع قضية الا حكمت فيها فلما وقع التغير والوحشة قصرت فى ذلك فانصرفت الى دارى بعد ذلك وجلست بموضع الاحكام فاذا ببعض الوزراء فقال لى الوزير يقول لك انه وقع البارحة كيت وكيت لقضية السرية والغلام فاحكم فيهما بالشرع فقلت له هذه قضية لا ينبغي ان يكون الحكم فيها الا بدار السلطان فعدت اليها واجتمع الناس واحضرت السرية والغلام فامرت بضربهما للخلوة واطلقت سراح المرأة وحبست الغلام وانصرفت الى دارى فبعث الوزير الى جماعة من كبراء ناسه في شان تسريح الغلام فقلت لهم اتشفعون فى غلام زنجى يهتك حرمة مولاه وانتم بالامس خلعتم السلطان شهاب الدين وقتلتموه بسبب دخوله لدار غلام له وامرت بالغلام عند ذلك فضرب بقضبان الخيزران وهى أشد وقعا من السياط وشهرته بالجزيرة وفى عنقه حبل فذهبوا الى الوزير فاعلموه فقام وقعد واستشاط غضبا وجمع الوزراء ووجوه العسكر وبعث عني فجئته وكانت عادتى ان اخدم له فلم أخدم وقلت سلام عليكم ثم قلت للحاضرين اشهدوا على انى قد عزلت نفسى عن القضاء لعجزي عنه فكلمني الوزير فصعدت وجلست بموضع اقابله فيه وجاوبته أغلظ جواب واذن مؤذن المغرب فدخل الى داره وهو يقول ويقولون اني سلطان وها انا ذا طلبته لاغضب عليه فغضب على وانما كان اعتزازي عليهم بسبب سلطان الهند لانهم تحققوا امكانتى عنده وان كانوا اعلى بعد منه فخوفه فى قلوبهم متمكن فلما دخل الى داره بعث الى القاضي المعزول وكان جرىء اللسان فقال لى ان مولانا يقول لك كيف هتكت حرمته على رؤس الاشهاد ولم تخدم له فقلت له انما كنت اخدم له حين كان قلبي طيبا عليه فلما وقع التغير تركت ذلك وتحية المسلمين انما هي السلام وقد سلمت فبعثه الى ثانية فقال انما غرضك السفر عنا فاعط صدقات النساء وديون الناس وانصرف اذا

شئت فخدمت له على هذا القول وذهبت الى وارى فخلصت مما على من الدين وكان قد اعطاني في تلك الايام فرش دار وجهازها من أواني نحاس وسواها وكان يعطيني كل ما أطلبه ويحبني ويكرمني ولكنه غير خاطره وخوف مني فلما عرف اني قد خلصت الدين وعزمت على السفر ندم على ماقاله وتلكأ في الاذن لي في السفر فحلفت بالايمان المغلظة ان لا بد من سفري ونقلت ماعندي الى مسجد على البحر وطلقت احدي الزوجات وكانت احداهن حاملا فجعلت لها اجلا تسعة اشهر ان عدت فيها والا فامرها بيدها وحملت معي زوجتي التي كانت امرأة السلطان شهاب الدين لاسلمها لابيها بجزيرة ملوك وزوجتي الاولى التي بنتها أخت السلطانة وتوافقت مع الوزيرة عمر دهرد والوزير حسن قائد البحر على ان أمضي الى بلاد المعبر وكان ملكها سلفي فابي منها بالعساكر لترجع الجزائر الى حكمه وانوب انا عنه فيها وجعلت بيني وبينهم علامة رفع أعلام بيض في المراكب فاذا رأوها ثاروا في البر ولم اكن حدثت نفسي بهذا قط حتى وقع ما وقع من التغير وكان الوزير خائفا مني يقول للناس لا بد لهذا ان يأخذ الوزارة اما في حياتي او بعد موتي ويكثر السؤال عن حالي ويقول سمعت ان ملك الهند بعث اليه الاموال ليثور بها علي وكان يخاف من سفري لئلا آتي بالجيوش من بلاد المعبر فبعث الى ان أقيم حتى يجهز لي مركبا فابيت وشكت اخت السلطانة اليها بسفر امها معي فارادت منعها فلم تقدر على ذلك فلما رأت عزمها على السفر قالت لها ان جميع ما عندك من الحلى هو من مال البندر فان كان لك شهود بان جلال الدين وهبه لك والا فرديه وكان حليا له خطر فردته اليهم واتاني الوزراء والوجوه وأنا بالمسجد وطلبوا مني الرجوع فقلت لهم لولا أني حلفت لعدت فقالوا تذهب الى بعض الجزائر ليبر قسمك وتعود فقلت لهم نعم أرضاه لهم فلما كانت الليلة التي سافرت فيها اتيت لوداع الوزير فعانقني وبكى حتي قطرت دموعه على قدمي وبات تلك الليلة يحترس الجزيرة بنفسه خوفا ان يثور عليه اصهاري وأصحابي ثم سافرت ووصلت الى جزيرة الوزير علي فاصابت زوجتي اوجاع عظيمة واحبت الرجوع فطلقتها وتركتها هنالك وكتبت للوزير بذلك لانها أم زوجة ولده وطلقت التي كنت ضربت لها الاجل وبعثت عن جارية كنت احبها وسرنا في تلك الجزائر من اقليم الى اقليم

— ذكر النساء ذوات الثدي الواحد —

وفي بعض تلك الجزائر رأيت امرأة لها ثدي واحد في صدرها ولها ابنتان احداهما كمثلها ذات ثدي واحد والاخرى ذات ثديين الا ان أحدهما كبير فيه اللبن والآخر صغير لا لبن فيه عجبت من شانهن ووصلنا الى جزيرة من تلك الجزائر صغيرة ليس بها الا دار واحدة فيها

رجل حائك له زوجة واولاد ونخيلات نارجيل وقارب صغير يصطاد فيه السمك ويسير به الى حيث اراد من الجزائر وفي جزيرته ايضا شجيرات موز ولم نر فيها من طيور البر غير غرابين خرجا الينا لما وصلنا الجزيرة وطافا بمركبنا فغبطت والله ذلك الرجل ووددت ان لو كانت تلك الجزيرة لي فانقطعت فيها الى ان ياتيني اليقين ثم وصلت الى جزيرة ملوك حيث المركب الذى للناخوذة ابراهيم وهو الذى عزمت على السفر فيه الي المعبر فجاء الي ومعه أصحابه وآضافوني ضيافة حسنة وكان الوزير قد كتب لي أن أعطى بهذه الجزيرة مائة وعشرين بستوا من الكودة وهي الودع وعشرين قدحا من الاطوان وهو عسل النارجيل وعددا معلوما من التنبول والفوفل والسمك فى كل يوم وأقمت بهذه الجزيرة سبعين يوما وتزوجت بها امرأتين وهي من أحسن الجزائر خضرة نضرة رأيت من عجائبها ان الغصن يقتطع من شجرها ويركز فى الارض أو الحائط فيورق ويصير شجرة ورأيت الرمان بها لا ينقطع له ثمر بطول السنة وخاف أهل هذه الجزيرة من الناخوذة ابراهيم ان ينبهم عند سفره فارادوا امساك مافي مركبه من السلاح حتى يوم سفره فوقعت المشاجرة بسبب ذلك وعدنا الى المهل ولم ندخلها وكتبت الى الوزير معلما بذلك فكتب ان لا سبيل لاخذ السلاح وعدنا الى ملوك وسافرنا منها فى نصف ربيع الثاني عام خمسة وأربعين وفى شعبان من هذه السنة توفى الوزير جمال الدين رحمه الله وكانت السلطانة حاملا منه فولدت اثر وفاته وتزوجها الوزير عبد الله وسافرنا ولم يكن معنا رئيس عارف ومسافة ما بين الجزائر والمعبر ثلاثة أيام فسرنا نحو تسعة أيام وفى التاسع منها خرجنا الى جزيرة سيلان ورأينا جبل سرنديب فيها ذاهبا فى السماء كانه عمود دخان ولما وصلناها قال البحرية ان هذا المرسى ليس فى بلاد السلطان الذي يدخل التجار الى بلاده آمنين انما هذا مرسى فى بلاد السلطان ايري شكروتي وهو من العتاة المفسدين وله مراكب تقطع فى البحر فخفنا ان ننزل بمرساه ثم اشتدت الريح فخفنا الغرق فقلت للناخودة انزلني الى الساحل وأنا آخذ لك الامان من هذا السلطان ففعل ذلك وانزلني بالساحل فاتانا الكفار فقالوا ما أنتم فاخبرتهم اني سلف سلطان المعبر وصاحبه جئت لزيارته وان الذى في المركب هدية له فذهبوا الى سلطانهم فاعلموه بذلك فاستدعاني فذهبت له الى مدينة بطالة (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة والطاء المهمل وتشديدها) وهي حضرته مدينة صغيرة حسنة عليها سور خشب وابراج خشب وجميع سواحلها مملوءة باعواد القرفة تاتي بها السيول فتجتمع بالساحل كانها الروابي ويحملها أهل المعبر والمليبار دون ثمن الا انهم يهدون للسلطان فى مقابلة ذلك الثوب ونحوه وبين بلاد المعبر وهذه الجزيرة مسيرة يوم وليلة وبها أيضا من

خشب البقم كثير ومن العود الهندي المعروف بالكلخي الا انه ليس كالقماري والقاقلي وسنذكره

— ذكر سلطان سيلان —

واسمه ايري شكروتي (بفتح الهمزة وسكون الياء وكسر الراء ثم ياء وشين معجم مفتوح وكاف مثله وراء مسكنة وواو مفتوح وتاء معلوة مكسورة وياء) وهو سلطان قوي في البحر رأيته مرة وأنا بالمعبر مائة مركب من مراكبه بين صغار وكبار وصلت الى هنالك وكانت بالمرسي ثمانية مراكب للسلطان برسم السفر الى اليمن فامر السلطان بالاستعداد وحشد الناس لحماية اجفانه فلما يئسوا من انتهاز الفرصة فيها قالوا انما جئنا في حماية مراكب لنا تسير أيضا الى اليمن ولما دخلت على هذا السلطان الكافر قام الي وأجلسني الى جانبه وكلمني باحسن كلام وقال ينزل أصحابك على الامان ويكونون في ضيافتي الى أن يسافروا فان سلطان المعبر بيني وبينه الصحبة ثم أمر بانزالي فاقمت عنده ثلاثة أيام في إكرام عظيم متزايد في كل يوم وكان يفهم اللسان الفارسي ويعجبه ما احدثه به عن الملوك والبلاد ودخلت عليه يوما وعنده جواهر كثيرة أتي بها من مغاص الجوهر الذي ببلاده وأصحابه يميزون النفيس منها من غيره فقال لي هل رأيت مغاص الجوهر في البلاد التي جئت منها فقلت له نعم رأيته بجزيرة قيس وجزيرة كش التي لابن السواملي فقال سمعت بها ثم أخذ حبات منه فقال أيكون في تلك الجزيرة مثل هذه فقلت له رأيت ماهو دونها فاعجبه ذلك وقال هي لك وقال لي لا تستحي واطلب مني ما شئت فقلت له ليس مرادي منذ وصلت هذه الجزيرة الا زيارة القدم الكريمة قدم آدم عليه السلام وهم يسمونه (بابا) ويسمون حواء (ماما) فقال هذا هين نبعث معك من يوصلك فقلت ذلك أريد ثم قلت له وهذا المركب الذي جئت فيه يسافر آمنا الى المعبر واذا عدت انا بعثتني في مراكبك فقال نعم فلما ذكرت ذلك لصاحب المركب قال لي لا اسافر حتى تعود ولو اقمت سنة بسببك فاخبرت السلطان بذلك فقال يقيم في ضيافتي حتى تعود فاعطاني دولة يحملها عبيده على اعناقهم وبعث معي اربعة من الجوكية الذين عادتهم السفر كل عام الى زيارة القدم وثلاثة من البراهمة وعشرة من سائر أصحابه وخمسة عشر رجلا يحملون الزاد وأما الماء فهو بتلك الطريق كثير ونزلنا ذلك اليوم على واد جزناه في معدية مصنوعة من قصب الخيزران ثم رحلنا من هنالك الى منار مندلي (وضبط ذلك بفتح الميم والنون والف وراء مسكنة وميم مفتوح ونون مسكن ودال مهمل مفتوح ولام مكسور وياء) مدينة حسنة هي آخر عمالة السلطان أضافنا اهلها ضيافة حسنة وضيافتهم عجول الجواميس يصطادونها بغابة هنالك ويأتون بها احياء ويأتون بالارز والسمن والحوت والدجاج واللبن ولم

المدينة مسلما غير رجل خراساني انقطع بسبب مرضه فسافر معنا ورحلنا الى بندرسلاوات
(وضبطه بفتح الباء الموحدة وسكون النون وفتح الدال المهمل وسكون الراء وفتح السين
المهمل واللام والواو والف وتاء معلوة) بلدة صغيرة وسافرنا منها في أوعار كثيرة المياه وبها
الفيلة الكثيرة الا انها لا تؤذي الزوار والغرباء وذلك ببركة الشيخ ابي عبد الله بن خفيف رحمه
الله وهو أول من فتح هذا الطريق الى زيارة القدم وكان هؤلاء الكفار يمنعون المسلمين من ذلك
ويؤذونهم ولا يؤاكلونهم ولا يبايعونهم فلما اتفق للشيخ أبي عبد الله ما ذكرناه في السفر الاول
من قتل الفيلة لاصحابه وسلامته من بينهم وحمل الفيل له على ظهره صار الكفار من ذلك العهد
يعظمون المسلمين ويدخلونهم دورهم ويطعمون معهم ويطمئنون لهم باهليهم وأولادهم وهم الى
الآن يعظمون الشيخ المذكور أشد تعظيم ويسمونه الشيخ الكبير ثم وصلنا بعد ذلك الى
مدينة كنكار (وضبط اسمها بضم الكاف الاولى وفتح النون والكاف الثانية وآخره راء)
وهي حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد وبناؤها في خندق بين جبلين على خور كبير يسمى
خور الياقوت لان الياقوت يوجد به وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازي
المعروف بشاوش (بشينين معجمين بينهما واو مضموم) وسلطان هذه المدينة وأهلها
يزورونه ويعظمونه وهو كان الدليل الى القدم فلما قطعت يده ورجله صار الادلاء أولاده
وغلمانه وسبب قطعه أنه ذبح بقرة وحكم كفار الهنود انه من ذبح بقرة ذبح كمثلها أو جعل في
جلدها وحرق وكان الشيخ عثمان معظما فقطعوا يده ورجله واعطوه مجبي بعض الاسواق

ذكر سلطانها

وهو يعرف بالكنار (بضم الكاف وفتح النون وألف وراء) وعنده الفيل الابيض لم أر في
الدنيا فيلا أبيض سواه يركبه في الاعياد ويجعل على جبهته أحجار الياقوت العظيمة واتفق له
ان قام عليه أهل دولته وسملوا عينيه وولوا ولده وهو هنالك أعمى

ذكر الياقوت

والياقوت العجيب البهرمان انما يكون بهذه البلدة فمنه ما يخرج من الخور وهو عزيز عندهم
ومنه ما يحفر عنه وجزيرة سيلان يوجد الياقوت في جميع مواضعها وهي متملكة فيشترى
الانسان القطعة منها ويحفر عن الياقوت فيجد احجارا بيضاء مشعبة وهي التي يتكون
الياقوت في أجوافها فيعطيها الحكاكين فيحكونها حتى تنفلق عن أحجار الياقوت فمنه
الاحمر ومنه الاصفر ومنه الازرق ويسمونه النيلم (بفتح النون واللام وسكون الياء آخر
الحروف وعادتهم ان ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت الى مائة فنم (بفتح الفاء والنون)

فهو للسلطان يعطى ثمنه وياخذه وما نقص عن تلك القيمة فهو لاصحابه وصرف مائة فنم ستة دنانير من الذهب وجميع النساء بجزيرة سيلان لهن القلائد من الياقوت الملون ويجعلنه فى أيديهن وأرجلهن عوضا من الاسورة والخلاخيل وجوارى السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رؤسهن ولقد رأيت على جبهة الفيل الابيض سبعة أحجار منه كل حجر أعظم من بيضة الدجاج ورأيت عند السلطان ايرى شكروتي سكرجة على مقدار الكف من الياقوت فيها دهن العود فجعلت أعجب منها فقال ان عندنا ماهو أضخم من ذلك ثم سافرنا من كنكار فنزلنا بمغارة تعرف باسم اسطا محمود اللورى (بضم اللام) وكان من الصالحين واحتفر تلك المغارة فى سفح جبل عند خور صغير هنالك ثم رحلنا عنها ونزلنا بالخور المعروف بخور بوزنه (بالباء الموحدة وواو وزاى ونون وهاء) وبوزنه هي القرود

— ذكر القرود —

والقرود بتلك الجبال كثيرة جدا وهى سود الالوان لها أذناب طوال ولذكورها لحي كما هي للآدميين وأخبرنى الشيخ عثمان وولده وسواهما ان هذه القرود لها مقدم تتبعه كانه سلطان يشد على رأسه عصابة من اوراق الاشجار ويتوكأ على عصى ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القرود لها عصى بايديها وانه اذا جلس القرد المقدم تقف القرود الاربعة على رأسه وتاتى أنثاه واولاده فتقعد بين يديه كل يوم وتاتى القرود فتقعد على بعد منه ثم يكلمها أحد القرود الاربعة فتنصرف القرود كلها ثم ياتي كل قرد منها بموزة أو ليمونة أو شبه ذلك فيأكل القرد المقدم واولاده والقرود الاربعة وأخبرنى بعض الجوكية انه رأي القرود الاربعة بين يدى مقدمها وهى تضرب بعض القرود بالعصى ثم نتفت وبره بعد ضربه وذكر لى الثقات انه اذا ظفر قرد من هذه القرود بصبية لا تستطيع الدفاع عن نفسها جامعها وأخبرنى بعض اهل هذه الجزيرة انه كان بداره قرد منها فدخلت بنت له بعض البيوت فدخل عليها فصاحت به فغلبها قال ودخلنا عليها وهو بين رجليها فقتلناه ثم كان رحيلنا الى خور الخيزران ومن هذا الخور اخرج أبو عبد الله بن خفيف الياقوتين اللتين اعطاهما لسلطان هذه الجزيرة حسبما ذكرناه فى السفر الاول ثم رحلنا الى موضع يعرف ببيت العجوز وهو آخر العمارة ثم رحلنا الى مغارة باباطاهر وكان من الصالحين ثم رحلنا الى مغارة السبيك (بفتح السين المهمل وكسر الباء الموحدة وياء مدوكاف) وكان السبيك من سلاطين الكفار وانقطع للعبادة هنالك

— ذكر العلق الطيار —

وبهذا الموضع رأينا العلق الطيار ويسمونه الزلو (بضم الزاى واللام) ويكون بالاشجار والحشائش التى تقرب من الماء فاذا قرب الانسان منه وثب عليه فحيثما وقع من جسده خرج منه الدم الكثير والناس يستعدون له الليمون يعصرونه عليه فيسقط عنهم ويجردون الموضع الذى يقع عليه بسكين خشب معد لذلك ويذكران بعض الزوار مر بذلك الموضع فتعلقت به العلق فأظهر الجلد ولم يعصر عليها الليمون فنزف دمه ومات وكان اسمه باباخوزى (بالخاء المعجم المضموم والزاى) وهنالك مغارة تنسب اليه ثم رحلنا الى السبع مغارات ثم الى عقبة اسكندر ثم مغارة الاصفهانى وعين ماء وقلعة غير عامرة تحتها خور يعرف بغوطة كاه عارفان وهنالك مغارة النارنج ومغارة السلطان وعندها دروازة الجبل أي بابه

— ذكر جبل سرنديب —

وهو من اعلى جبال الدنيا رأيناه من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسع ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا قد حال بيننا وبين رؤية أسفله وفيه كثير من الاشجار التي لا يسقط لها ورق والازاهير الملونة والورد الاحمر على قدر الكف ويزعمون ان فى ذلك الورد كتابة يقرأ منها اسم الله تعالى واسم رسوله عليه الصلاة والسلام وفى الجبل طريقان الى القدم أحدهما يعرف بطريق (بابا) والآخر بطريق (ماما) يعنون آدم وحواء عليهما السلام فاما طريق ماما طريق سهل عليه يرجع الزوار اذا رجعوا ومن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر وأما طريق بابا فصعب وعر المرتقي وفى أسفل الجبل حيث دروازته مغارة تنسب أيضا للاسكندر وعين ماء ونحت الاولون فى الجبل شبه درج يصعد عليها وغرزوا فيها أوتاد الحديد وعلقوا منها السلاسل ليتمسك بها من يصعده وهي عشر سلاسل اثنتان فى أسفل الجبل حيث الدروازة وسبع متوالية بعدها والعاشرة هي سلسلة الشهادة لان الانسان اذا وصل اليها ونظر الى أسفل الجبل ادركه الوهم فيتشهد خوف السقوط ثم اذا جاوزت هذه السلسلة وجدت طريقا مهملا ومن السلسلة العاشرة الى مغارة الخضر سبعة أميال وهى فى موضع فسيح عندها عين ماء تنسب اليه أيضا ملآى بالحوت ولا يصطاده احد وبالقرب منها حوضان منحوتان فى الحجارة عن جنبتي الطريق وبمغارة الخضر يترك الزوار ماعندهم ويصعدون منها ميلين الى أعلى الجبل حيث القدم

— ذكر القدم —

واثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم صلى الله عليه وسلم فى صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح وقد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة حتي عاد موضعها منخفضا وطولها احد عشر

شبرا وأتى اليها أهل الصين قديما فقطعوا من الصخرة موضع الابهام وما يليه وجعلوه فى كنيسة بمدينة الزيتون يقصدونها من اقصى البلاد وفى الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة يجعل الزاور من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر فترى الفقراء اذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون منها لاخذ ما بالحفر ولم نجد نحن بها الا يسير حجيرات وذهب أعطيناها الدليل والعادة أن يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها الى القدم غدوة وعشيا وكذلك فعلنا ولما تمت الايام الثلاثة عدنا على طريق ماما فنزلنا بمغارة شيم وهو شيث ابن آدم عليهما السلام ثم الى خور السمك ثم الى قرية كرمله (بضم الكاف وسكون الراء وضم الميم) ثم الى قرية جبركاوان (بفتح الجيم والباء الموحدة وسكون الراء وفتح الكاف والواو وآخره نون) ثم الى قرية دلدينوة (بدالين مهملين مكسورين بينهما لام مسكن وياء مد ونون مفتوح وواو مفتوح وتاء تأنيث) ثم الى قرية آت قلنجة (بهمزة مفتوحة وتاء مثناة مسكنة وقاف ولام مفتوحين ونون مسكن وجيم مفتوح وهنالك (كان) يشتي الشيخ أبو عبد الله بن خفيف وكل هذه القري والمنازل هى بالجبل وعند أصل الجبل فى هذا الطريق درخت روان ودرخت هى (بفتح الدال المهمل والراء وسكون الخاء المعجم وتاء معلوة) وروان (بفتح الراء والواو والف ونون) وهى شجرة عادية لا يسقط لها ورق ولم أر من رآي ورقها ويعرفونها أيضاً بالماشية لان الناظر اليها من أعلى الجبل يراها بعيدة منه قريبة من أسفل الجبل والناظر اليها من أسفل الجبل يراه بعكس ذلك ورأيت هنالك جملة من الجوكيين ملازمين أسفل الجبل ينتظرون سقوط ورقها وهى بحيث لا يمكن التوصل اليها البتة ولهم أكاذيب في شأنها من جملتها ان من أكل من أوراقها عاد له الشباب ان كان شيخا وذلك باطل وتحت هذا الجبل الخور العظيم الذى يخرج منه الياقوت وماؤه يظهر فى رأى العين شديد الزرقة ورحلنا من هنالك يومين الى مدينة دينور (وضبط اسمها بدال مهمل مكسور وياء مد ونون وواو مفتوحين وراء) مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجار وبها الصنم المعروف بدينور فى كنيسة عظيمة فيها نحو الالف من البراهمة والجوكية ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود يغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن والمدينة ومجابيها وقف على الصنم وكل من بالكنيسة ومن يرد عليها يأكلون من ذلك والصنم من ذهب على قدر الآدمى وفى موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان أخبرت انهما تضيئان بالليل كالقنديلين ثم رحلنا الى مدينة قالى (بالقاف وكسر اللام) وهى صغيرة على ستة فراسخ من دينور وبها رجل من المسلمين يعرف بالناخودة ابراهيم أضافنا بموضعه

ورحلنا الى مدينة كلنبو (وضبط اسمها بفتح الكاف واللام وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو) وهي من أحسن بلاد سرنديب واكبرها وبها يسكن الوزير حاكم البحر جالستي ومعه نحو خمسمائة من الحبشة ثم رحلنا فوصلنا بعد ثلاثة أيام الى بطالة وقد تقدم ذكرها ودخلنا الى سلطانها الذى تقدم ذكره ووجدت الناخودة ابراهيم فى انتظاري فسافرنا بقصد بلاد المعبر وقويت الريح وكاد الماء يدخل فى المركب ولم يكن لنا رئيس عارف ثم وصلنا الي حجارة كاد المركب ينكسر فيها ثم دخلنا بحرا قصيرا فتجلس المركب ورأينا الموت عيانا ورمي الناس بما معهم وتوادعوا وقطعنا صارى المركب فرمينا به وصنع البحرية معدية من الخشب وكان بيننا وبين البر فرسخان فاردت أن انزل فى المعدية وكان لى جاريتان وصاحبان من أصحابي فقال اتنزل وتتركنا فآثرتهما على نفسي وقلت أنزلا انتما والجارية التي احبها فقالت الجارية انى أحسن السباحة فاتعلق بحبل من حبال المعدية وأعوم معهم فنزل رفيقاى واحدهما محمد بن فرحان التوزرى والآخر رجل مصري والجارية معهم والاخرى تسبح وربط البحرية فى المعدية حبالا وسبحوا بها وجعلت معهم ماعز على من المتاع والجواهر والعنبر فوصلوا الى البر سالمين لان الريح كانت تساعدهم وأقمت بالمركب ونزل صاحبه الى البر على الدقة وشرع البحرية فى عمل اربع من المعادي فجاء الليل قبل تمامها ودخل معنا الماء فصعدت الى المؤخر وأقمت به حتى الصباح وحينئذ جاء الينا نفر من الكفار فى قارب لهم ونزلنا معهم الى الساحل ببلاد المعبر فاعلمناهم انا من اصحاب سلطانهم وهم تحت ذمته فكتبوا اليه بذلك وهو على مسيرة يومين فى الغزو وكتبت أنا اليه أعلمه بما اتفق علي وادخلنا اولئك الكفار الى غيضة عظيمة فاتونا بفاكهة تشبه البطيخ يثمرها شجرة المقل وفى داخلها شبه قطن فيه عسلية يستخرجونها ويصنعون منها حلواء يسمونها التل وهي تشبه السكر واتوا بسمك طيب واقمنا ثلاثة أيام ثم وصل من جهة السلطان امير يعرف بقمر الدين معه جماعة فرسان ورجال وجاؤا بالدولة وبعشرة أفراس فركبت وركب أصحابي وصاحب المركب واحدى الجاريتين وحملت الاخرى فى الدولة ووصلنا الى حصن هركاتو (وضبط اسمه بفتح الهاء وسكون الراء وفتح الكاف وألف وتاء معلوة مضمومة وواو) وبتنا به وتركت فيه الجوارى وبعض الغلمان والاصحاب ووصلنا فى اليوم الثانى الى محلة السلطان

ذكر سلطان بلاد المعبر

هو غياث الدين الدامغانى وكان فى أول أمره فارسا من فرسان الملك مجير بن أبي الرجا أحد خدام السلطان محمد ثم خدم الامير حاجى بن السيد السلطان جلال الدين ثم ولى

الملك وكان يدعي سراج الدين قبله فلما ولى تسمى غياث الدين وكانت بلاد المعبر تحت حكم السلطان محمد ملك دهلى ثم ثار بها صهرى الشريف جلال الدين احسن شاه وملك بها خمسة أعوام ثم قتل وولى أحد أمرائه وهو علاء الدين أدبجى (بضم الهمزة وفتح الدال المهمل وسكون الياء آخر الحروف وكسر الجيم) فملك سنة ثم خرج الى غزو الكفار فاخذ لهم اموالا كثيرة وغنائم واسعة وعاد الى بلاده وغزاهم فى السنة الثانية فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة واتفق يوم قتله لهم ان رفع المغفر عن رأسه ليشرب فاصابه سهم غرب فمات من حينه فولوا صهره قطب الدين ثم لم يحمدوا سيرته فقتلوه بعد أربعين يوما وولى بعده السلطان غياث الدين وتزوج بنت السلطان الشريف جلال الدين التى كنت متزوجا اختها بدهلى

ذكر وصولى الى السلطان غياث الدين

ولما وصلنا الى قرب من منزله بعث بعض الحجاب لتلقينا وكان قاعدا فى برج خشب وعادتهم بالهند كلها أن لا يدخل أحد على السلطان دون خف ولم يكن عندي خف فاعطانى بعض الكفار خفا وكان هنالك من المسلمين جماعة فعجبت من كون الكافر كان أتم مروءة منهم ودخلت على السلطان فامرنى بالجلوس ودعا القاضي الحاج صدر الزمان بهاء الدين وأنزلنى فى جواره فى ثلاثة من أخبية وهم يسمونها الخيام وبعث بالفرش وبطعامهم وهو الارز واللحم وعادتهم هنالك أن يسقوا اللبن الرائب على الطعام كما يفعل ببلادنا ثم اجتمعت به بعد ذلك والقيت له أمر جزائر ذيبة لمهل وان يبعث الجيش اليها فاخذ فى ذلك بالعزم وعين المراكب لذلك وعين الهدية لسلطانتها والخلع للوزراء والامراء والعطايا لهم وفوض الى فى عقد نكاحه مع أخت السلطانة وأمر بوسق ثلاثة مراكب بالصدقة لفقراء الجزائر وقال لى يكون رجوعك بعد خمسة أيام فقال له قائد البحر خواجة سرلك لا يمكن السفر الى الجزائر الا بعد ثلاثة أشهر من الآن فقال لى السلطان اما اذا كان الامر هكذا فامض الى فتن حتى تقضي هذه الحركة وتعود الى حضرتنا مترة ومنها تكون الحركة فقمت معه فى خلال ما بعثت عن الجوارى والاصحاب

ذكر ترتيب رحيله وشنيع فعله فى قتل النساء والولدان

وكانت الارض التي نسلكها غيضة واحدة من الاشجار والقصب بحيث لا يسلكها أحد فامر السلطان أن يكون مع كل واحد ممن فى الجيش من كبير وصغير قادوم لقطع ذلك فاذا نزلت المحلة ركب الى الغابة والناس معه فقطعوا تلك الاشجار من غدوة النهار الى الزوال ثم يؤتى بالطعام فيأكل جميع الناس طائفة بعد أخري ثم يعودون الى قطع الاشجار الى العشى وكل من وجدوه من الكفار فى الغيضة أسروه وصنعوا خشبة محددة الطرفين فحملوها على كتفيه

يحملها ومعه امرأته وأولاده ويؤتى بهم الى المحلة وعادتهم ان يصنعوا على المحلة سورا من خشب يكون له أربعة أبواب ويسمونه الكتكر (بفتح الكافين وسكون التاء المعلوة وآخره راء) ويصنعون على دار السلطان كتكرا ثانيا ويصنعون خارج الكتكر الاكبر مصاطب ارتفاعها نحو نصف قامة ويوقدون عليها النار بالليل ويبيت عندها العبيد والمشاؤن ومع كل واحد منهم حزمة من رقيق القصب فاذا أتى أحد من الكفار ليضربوا على المحلة ليلا أوقد كل واحد منهم الحزمة التي بيده فعاد الليل شبه النهار لكثرة الضياء وخرجت الفرسان في اتباع الكفار فاذا كان عند الصباح قسم الكفار الماسورون بالامس أربعة اقسام وأتى الى كل باب من أبواب الكتكر بقسم منهم فركزت بالخشب التي كانوا يحملونها بالامس عنده ثم ركزوا فيها حتى تنفذهم ثم تذبح نساؤهم ويربطن بشعورهن الى تلك الخشبات ويذبح الاولاد الصغار في حجورهن ويتركون هنالك وتنزل المحلة ويشتغلون بقطع غيضة أخرى ويصنعون بمن أسروه كذلك وذلك أمر شنيع ما علمته لاحد من الملوك وبسببه عجل الله حينه ولقد رأيته يوما والقاضي عن يمينه وأنا عن شماله وهو يأكل معنا وقد أتى بكافر معه امرأته وولد سنه سبع فاشار الى السيافين بيده ان يقطعوا رأسه ثم قال لهم وزن أوو بسرا ومعناه وابنه وزوجته فقطعت رقابهم وصرفت بصري عنهم فلما قمت وجدت رؤسهم مطروحة بالارض وحضرته عنده يوما وقد أتى برجل من الكفار فتكلم بما لم أفهمه فاذا بجماعة من الزبانية قد استلوا سكاكينهم فبادرت القيام فقال لى الى أين فقلت أصلى العصر ففهم عني وضحك وأمر بقطع يديه ورجليه فلما عدت وجدته متشحطا في دمائه

— ذكر هزيمته للكفار وهي من اعظم فتوحات الاسلام —

وكان فيما يجاور بلاده سلطان كافر يسمى بلاديو (بفتح الباء الموحدة ولام والف ولام ثانية ودال مهمل مكسور وياء آخر الحروف مفتوحة وواو مسكن) وهو من كبار سلاطين الكفار يزيد عسكره على مائة الف ومعه نحو عشرين الفا من المسلمين اهل الذعارة وذوى الجنايات والعبيد الفارين فطمع في الاستيلاء على بلاد المعبر وكان عسكر المسلمين ستة آلاف منهم النصف من الجياد والنصف الثاني لا خير فيهم ولا غناء عندهم فلقوه بظاهر مدينة كبان فهزمهم ورجعوا الى حضرة مترة ونزل الكافر على كبان وهي من أكبر مدنهم وأحصنها وحاصرها عشرة أشهر ولم يبق لهم من الطعام الا قوت أربعة عشر يوما فبعث لهم الكافر ان يخرجوا على الامان ويتركوا له البلد فقالوا له لا بد من مطالعة سلطاننا بذلك فوعدهم الى تمام أربعة عشر يوما فكتب الى السلطان غياث الدين بامرهم فقرأ كتابهم

على النـاس يوم الجمعـة فبكوا وقالوا نبيع أنفسنا من الله فان الكافران أخـذ تلك المـدينة لا نتقل الى حصارنا فالموت تحت السيوف أولى بنا فتعاهدوا على المـوت وخرجوا من الغد ونزعوا العمائم عن رؤسهم وجعلوها فى اعناق الخيل وهى علامة من يريد الموت وجعلوا ذوى النجدة والابطال منهم في المقدمة وكانوا ثلاثمائة وجعلوا على الميمنة سيف الدين بهادور وكان فقيها ورعا شجاعا وعلى الميسرة الملك محمد السلحدار وركب السلطان فى القلب ومعه ثلاثة آلاف وجعل الثلاثة الآلاف الباقين ساقة لهم وعليهم أسد الدين كيخسرو الفارسي وقصدوا محلة الكافر عند القايلة واهلها على غرة وخيلهم فى المرعى فاغاروا عليهـا وظن الكفار انهم سراق فخرجوا اليهم على غير تعبية وقاتلوهم فوصل السلطـان غياث الدين فانهزم الكفار شر هزيمة واراد سلطانها ان يركب وكان ابن ثمانين سنة فادركه ناصر الدين بن اخى السلطان الذى ولى الملك بعده فاراد قتله ولم يعرفه فقال له أحد غلمانه هو السلطان فاسره وحمله الى عمه فاكرمه فى الظاهر حتى جبي منه الاموال والفيلة والخيـل وكان يعده السراح فلمـا استصفى ماعنـده ذبحه وسلخه وملأ جلده بالتبن فعلق على سور مترة ورأيتـه بها معلقا ولنعد الى كلامنا فنقـول ورحلت عن المحلة فوصلت الى مدينـة فتن (بفتح الفاء والتاء المثناة المشددة ونون) وهى كبيرة حسنة على الساحل ومرساها عجيب قد صنعت فيه قبة خشب كبيرة قائمة على الخشب الضخام يصعد اليها على طريق خشب مسقف فاذا جاء العدو ضموا اليها الاجفان التي تكون بالمرسى وصعدها الرجال والرماة فلا يصيب العدو فرصة وبهذه المدينة مسجد حسن مبني بالحجارة وبها العنب الكثير والرمان الطيب ولقيت الشيخ الصالح محمد النيسابوري أحد الفقراء المولهين الذين يسدلون شعورهم على اكتافهم ومعه سبع رباه ياكل مع الفقراء ويقعد معهم وكان معه نحو ثلاثين فقيرا لاحدهم غزالة تكون مع الاسد فى موضع واحد فلا يعرض لهـا وأقمت بمدينة فتن وكان السلطان غياث الدين قد صنع له أحد الجوكية حبوبا للقوة على الجماع وذكروا ان من جملة اخلاطها برادة الحديد فاكل منها فوق الحاجة فمرض ووصل الى فتن فخرجت الى لقائه وأهديت له هدية فلما استقربها بعث عن قائد البحر خواجة سرور فقال له لا تشتغل بسوى المراكب المعينة للسفر الى الجزائر وأراد ان يعطيني قيمة الهدية فابيت ثم ندمت لانه مات فلم آخذ شيئا واقام بفتن نصف شهر ثم رحل الى حضرته واقمت انا بعده نصف شهر ثم رحلت الى حضرته وهى مدينة مترة (بضم الميم وسكون التاء المعلوة وفتح الراء) مدينة كبيرة متسعة الشوارع واول من اتخذها حضرة صهرى السلطان الشريف جلال الدين

أحسن شاه وجعلها شبيهة بدهلي وأحسن بناءها ولما قدمتها وجدت بها وباء يموت منه الناس موتا ذريعا فمن مرض مات من ثاني يوم مرضه او ثالثه وان ابطا موته فالى الرابع فكنت اذا خرجت لا أري الا مريضا او ميتا واشتريت بها جارية على انها صحيحة فماتت في يوم آخر ولقد جاءت الى في بعض الايام امراة كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه ومعها ابن لها سنه ثمانية أعوام نبيل كيس فطن فشكت ضعف حالها فاعطيتهما نفقة وهما صحيحان سويان فلما كان من الغد جاءت تطلب لولدها المذكور كفنا واذا به قد توفى من حينه وكنت أرى بمشور السلطان حين مات المئين من الخدم اللاتي أتي بهن لدق الارز المعمول منه الطعام لغير السلطان وهن مريضات قد طرحن انفسهن في الشمس ولما دخل السلطان مترة وجد أمه وامرأته وولده مرضي فاقام بالمدينة ثلاثة أيام ثم خرج الى نهر على فرسخ منها كانت عليه كنيسة للكفار وخرجت اليه في يوم خمس فامر بانزالي الى جانب القاضي ولما ضربت لي الاخبية رأيت الناس يسرعون ويموج بعضهم في بعض فمن قائل ان السلطان مات ومن قائل ان ولده هو الميت ثم تحقق ذلك فكان الولد هو الميت ولم يكن له سواه فكان موته مما زاد في مرضه وفي الخميس بعده توفيت أم السلطان

— ذكر وفاة السلطان وولاية بن اخيه وانصرافي عنه —

وفي الخميس الثالث توفى السلطان غياث الدين وشعرت بذلك فبادرت الدخول الى المدينة خوف الفتنة ولقيت ناصر الدين ابن أخيه الوالى بعده خارجا الى المحلة قد وجه عنه اذ ليس للسلطان ولد فطلبني في الرجوع معه فابيت وأثر ذلك في قلبه وكان ناصر الدين هذا خديما بدهلي قبل ان يملك عمه فلما ملك عمه هرب في زي الفقراء اليه فكان من القدر ملكه بعده ولما بويع مدحته الشعراء فاجزل لهم العطاء واول من قام منشدا القاضي صدر الزمان فاعطاه خمسمائة دينار وخلعة ثم الوزير المسمي بالقاضي فاعطاه الفي دينار دراهم واعطاني انا ثلاثمائة دينار وخلعة وبث الصدقات في الفقراء والمساكين ولما خطب الخطيب اول خطبة خطبها باسمه نثرت عليه الدنانير والدراهم في أطباق الذهب والفضة وعمل عزاء السلطان غياث الدين فكانوا يجتمعون القرآن على قبره كل يوم ثم يقرأ العشارون ثم يؤتى بالطعام فيأكل الناس ثم يعطون الدراهم كل انسان على قدره واقاموا على ذلك اربعين يوما ثم يفعلون ذلك في مثل يوم وفاته من كل سنة واول ما بدأ به السلطان ناصر الدين ان عزل وزير عمه وطلبه بالاموال وولى الوزارة الملك بدر الدين الذي بعثه عمه الى وانا بفتن ليتلقاني فتوفى سريعا فولى الوزارة خواجه سرور قائد البحر وامر ان يخاطب بخواجه

جهان كما يخاطب الوزير بدهلى ومن خاطبه بغير ذلك غرم دنانير معلومة ثم ان السلطان
ناصر الدين قتل ابن عمته المتزوج بنت السلطان غياث الدين وتزوجها بعده وبلغه ان الملك
مسعود ازاره فى محبسه قبل موته فقتله أيضا وقتل الملك بهادور وكان من الشجعان الكرماء
الفضلاء وامر لى بجميع ما كان عينه عمه من المراكب برسم الجزائر ثم أصابتنى الحمى القاتلة
هنالك فظننت انها القاضية والهمني الله الى التمر الهندى وهو هنالك كثير فاخذت نحو
رطل منه وجعلته فى الماء ثم شربته فاسهلنى ثلاثة ايام وعافانى الله من مرضي فكرهت تلك
المدينة وطلبت الاذن فى السفر فقال لى السلطان كيف تسافر ولم يبق لايام السفر الى
الجزائر غير شهر واحد أقم حتي نعطيك جميع ما أمر لك به خوند عالم فابيت وكتب لى الى فتن
لاسافر فى أى مركب أردت وعدت الى فتن فوجدت ثمانية من المراكب تسافر الى اليمن
فسافرت فى أحدها واقينا اربعة اجفان فقاتلتنا يسيرا ثم انصرفت ووصلنا الى كولم
وكان فى بقية مرض فاقمت بها ثلاثة اشهر ثم ركبت فى مركب بقصد السلطان جمال الدين
الهنورى فخرج علينا الكفار بين هنور وفاكنور

—— ذكر سلب الكفار لنا ——

ولما وصلنا الى الجزيرة الصغرى بين هنور وفاكنور خرج علينا الكفار فى اثني عشر مركبا
حربية وقاتلونا قتالا شديدا وتغلبوا علينا فاخذوا جميع ماعندى مما كنت ادخره للشدائد
واخذوا الجواهر واليواقيت التى أعطانيها ملك سيلان واخذوا ثيابي والزرادات التي كانت
عندى مما اعطانيه الصالحون والاولياء ولم يتركوا لى ساترا خلا السراويل وأخذوا ما كان
لجميع الناس وانزلونا بالساحل فرجعت الى قالقوط فدخلت بعض المساجد فبعث الى أحد
الفقهاء بثوب وبعث القاضى بعمامة وبعث بعض التجار بثوب آخر وتعرفت هنالك بزوج
الوزير عبد الله بالسلطانة خديجة بعد موت الوزير جمال الدين وبان زوجتى التي تركتها
حاملا ولدت ولدا ذكرا فخطر لى السفر الى الجزائر وتذكرت العداوة التي بيني وبين الوزير
عبد الله ففتحت المصحف فخرج لى تتنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا فاستخرت
الله وسافرت فوصلت بعد عشرة أيام الى جزائر ذيبة المهل ونزلت منها بكنلوس فاكرمني
واليها عبد العزيز المقدشاوى وأضافني وجهز لى كندرة ووصلت بعد ذلك الى هللى وهي
الجزيرة التي تخرج السلطانة واخوتها اليها برسم التفرج والسياحة ويسمون ذلك التتجر ويلعبون
فى المراكب ويبعث لها الوزراء والامراء بالهدايا والتحف متى كانت بها ووجدت بها أخت
السلطانة وزوجها الخطيب محمد بن الوزير جمال الدين وامها التى كانت زوجتي فجاء الخطيب

الى وأتوا بالطعام ومر بعض أهل الجزيرة الى الوزير عبد الله فاعلموه بقدومى فسال عن حالى وعمن قدم معى وأخبر أنى جئت برسم حمل ولدى وكان سنه نحو عامين واتته امه تشكو من ذلك فقال لها أنا لا أمنعه من حمل ولده وصادرنى في دخول الجزيرة وأنزلنى بدار تقابل برج قصره ليتطلع على حالى وبعث الى بكسوة كاملة وبالتنبول وماء الورد على عادتهم وجئت بثوبي حرير للرمى عند السلام فاخذوهما ولم يخرج الوزير الى ذلك اليوم وأتى الى بولدى فظهر لى ان اقامته معهم خير له فرددته اليهم واقمت خمسة أيام وظهر لى ان تعجيل السفر أولى فطلبت الاذن فى ذلك فاستدعانى الوزير ودخلت عليه واتونى بالثوبين اللذين أخذوهما فى رميتهما عند السلام على العادة واجلسني الى جانبه وسألني عن حالى وأكلت معه الطعام وغسلت يدي معه فى الطست وذلك شىء لا يفعله مع أحد وأتوا بالتنبول وانصرفت وبعث الى باثواب وبساتى من الودع وأحسن أفعاله وأجمل وسافرت فقمنا على ظهر البحر ثلاثا واربعين ليلة ثم وصلنا الى بلاد بنجالة (وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون النون وجيم معقود وألف ولام مفتوح) وهى بلاد متسعة كثيرة الارز ولم أر فى الدنيا أرخص أسعارا منها لكنها مظلمة وأهل خراسان يسمونها دوز خست (دوز خ) بور (بر) نعمة معناه جهنم ملآى بالنعم رأيت الارز يباع في أسواقها خمسة وعشرين رطلا دهلية بدينار فضي والدينار الفضي هو ثمانية دراهم ودرهمهم كالدرهم النقرة سواء والرطل الدهلى عشرون رطلا مغربية وسمعتهم يقولون ان ذلك غلاء عندهم وحدثني محمد المصمودى المغربي وكان من الصالحين وسكن هذا البلد قديما ومات عندى بدهلى انه كانت له زوجة وخادم فكان يشترى قوت ثلاثتهم فى السنة بثمانية دراهم وانه كان يشترى الارز فى قشره بحساب ثمانين رطلا دهلية بثمانية دراهم فاذا دقه خرج منه خمسون رطلا صافية وهى عشرة قناطير ورأيت البقرة تباع بها للحلب بثلاثة دنانير فضة وبقرهم الجواميس ورأيت الدجاج السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد وفراخ الحمام يباع خمسة عشر منها بدرهم ورأيت الكبش السمين يباع بدرهمين ورطل السكر باربعة دراهم وهو رطل دهلى ورطل الجلاب بثمانية دراهم ورطل السمن باربعة دراهم ورطل السيرج بدرهمين ورأيت ثوب القطن الرقيق الجيد الذى ذرعه ثلاثون ذراعا يباع بدينارين ورأيت الجارية المليحة للفراش تباع بدينار من الذهب واحد وهو ديناران ونصف دينار من الذهب المغربى واشتريت بنحو هذه القيمة جارية تسمى عاشورة وكان لها جمال رائع واشترى بعض أصحابي غلاما صغير السن حسنا اسمه لؤلؤ بدينارين من الذهب وأول مدينة دخلناها من بلاد بنجالة مدينة سدكاوان

(وضبط اسمها بضم السين وسكون الدال المهملين وفتح الكاف والواو وآخره نون) وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر الاعظم ويجتمع بها نهر الكنك الذي يحج اليه الهنود ونهر الجون ويصبان في البحر ولهم في النهر مراكب كثيرة يقاتلون بها أهل بلاد اللكنوتي

ذكر سلطان بنجالة

وهو السلطان فخر الدين الملقب بفخره (بالفاء والخاء المعجم والراء) سلطان فاضل محب في الغرباء وخصوصا الفقراء والمتصوفة وكانت مملكة هذه البلاد للسلطان ناصر الدين بن السلطان غياث الدين بلبن وهو الذي ولي ولده معز الدين الملك بدهلي فتوجه لقتاله والتقيا بالنهر وسمي لقاؤهما لقاء السعدين وقد ذكرنا ذلك وانه ترك الملك لولده وعاد الى بنجالة فاقام بها الى أن توفي وولي ابنه شمس الدين الى أن توفي فولي ابنه شهاب الدين الى أن غلب عليه اخوه غياث الدين بهادور بور فاستنصر شهاب الدين بالسلطان غياث الدين تغلق فنصره وأخذ بهادور بور أسيرا ثم اطلقه ابنه محمد لما ملك على ان يقاسمه ملكه فنكث عليه فقاتله حتى قتل وولى على هذه البلاد صهرا له فقتله العسكر واستولى على ملكها على شاه وهو اذذاك ببلاد اللكنوتي فلما رأى فخر الدين ان الملك قد خرج عن أولاد السلطان ناصر الدين وهو مولى لهم خالف بسدكاوان وبلاد بنجالة واستقل بالملك واشتدت الفتنة بينه وبين على شاه فاذا كانت أيام الشتاء والوحل أغار فخر الدين على بلاد اللكنوتي في البحر لقوته فيه واذا عادت الايام التي لا مطر فيها اغار على شاه على بنجالة في البر لقوته فيه ﴿حكاية﴾ وانتهي حب الفقراء بالسلطان فخر الدين الى ان جعل أحدهم نائبا عنه في الملك بسدكاوان وكان يسمي شيدا (بفتح السين المعجم والدال المهمل بينهما ياء آخر الحروف) وخرج الى قتال عدو له فخالف عليه شيدا وأراد الاستبداد بالملك وقتل ولدا للسلطان فخر الدين ولم يكن له ولد غيره فعلم بذلك فكر عائدا الى حضرته ففر شيدا ومن اتبعه الى مدينة ستركاوان وهي متيمة فبعث السلطان بالعساكر الى حصاره فخاف أهلها على انفسهم فقبضوا على شيدا وبعثوه الى عسكر السلطان فكتبوا اليه بامره فامرهم أن يبعثوا له رأسه فبعثوه وقتل بسببه جماعة كبيرة من الفقراء ولما دخلت سدكاوان لم أر سلطانها ولا لقيته لانه مخالف على ملك الهند فخفت عاقبة ذلك وسافرت من سدكاوان بقصد جبال كامرو وهي (بفتح الكاف والميم وضم الراء) وبينها وبين سدكاوان مسيرة شهر وهي جبال متسعة متصلة بالصين وتتصل أيضا ببلاد التبت حيث غزلان المسك وأهل هذا الجبل يشبهون الترك ولهم قوة على الخدمة والغلام منهم يساوي أضعاف مايساويه الغلام من غيرهم وهم مشهورون بمعاناة السحر

والاشتغال به وكان قصدى بالمسير الى هذه الجبال لقاء ولى من الاولياء بها وهو الشيخ جلال الدين التبريزى

— ذكر الشيخ جلال الدين —

وهذا الشيخ من كبار الاولياء وافراد الرجال له الكرامات الشهيرة والمآثر العظيمة وهو من المعمرين أخبرنى رحمه الله انه ادرك الخليفة المستعصم بالله العباسي ببغداد وكان بها حين قتله وأخبرنى أصحابه بعد هذه المدة انه مات وهو ابن مائة وخمسين وانه كان له نحو أربعين سنة يسرد الصوم ولا يفطر الا بعد مواصلة عشر وكانت له بقرة يفطر على حليبها ويقوم الليل كله وكان نحيف الجسم طوالا خفيف العارضين وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال ولذلك أقام بينهم

— كرامة له —

أخبرنى بعض أصحابه انه استدعاهم قبل موته بيوم واحد واوصاهم بتقوى الله وقال لهم انى أسافر عنكم غدا ان شاء الله وخليفتي عليكم الله الذي لا إله الا هو فلما صلى الظهر من الغد قبضه الله في آخر سجدة منها ووجدوا فى جانب الغار الذي كان يسكنه قبرا محفورا عليه الكفن والحنوط فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه به رحمه الله — كرامة له أيضا —

ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقينى أربعة من أصحابه على مسيرة يومين من موضع سكناه فاخبروني ان الشيخ قال للفقراء الذين معه قد جاءكم سائح المغرب فاستقبلوه وانهم أتوا لذلك بامر الشيخ ولم يكن عنده علم بشيء من أمرى وانما كوشف به وسرت معهم الى الشيخ فوصلت الى زاويته خارج الغار ولا عمارة عندها وأهل تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته ويأتون بالهدايا والتحف فيأكل منها الفقراء والواردون وأما الشيخ فقد اقتصر على بقرة يفطر على حليبها بعد عشر كما قدمناه ولما دخلت عليه قام الى وعانقني وسألني عن بلادي وأسفارى فاخبرته فقال لى أنت مسافر العرب فقال له من حضر من أصحابه والعجم ياسيدنا فقال والعجم فاكرموه فاحتملونى الى الزاوية وأضافونى ثلاثة أيام

— حكاية عجيبة فى ضمنها كرامات له —

ولما كان يوم دخولى الى الشيخ رأيت عليه فرجية مرعز فاعجبتني وقلت فى نفسى ليت الشيخ اعطانيها فلما دخلت عليه للوداع قام الى جانب الغار وجرد الفرجية وألبسنيها مع طاقية من رأسه ولبس مرقعة فاخبرونى الفقراء ان الشيخ لم تكن عادته ان يلبس تلك الفرجية وانما لبسها عند قدومي وانه قال لهم هذه الفرجية يطلبها المغربي ويأخذها منه سلطان كافر ويعطيها لاخينا برهان الدين الصاغرجي وهى له وبرسمه كانت فلما أخبرنى الفقراء بذلك قلت لهم قد حصلت لى بركة الشيخ بأن كساني لباسه وانا لا أدخل بهذه

الفرجية على سلطان كافر ولا مسلم وانصرفت عن الشيخ فاتفق لي بعد مدة طويلة اني دخلت بلاد الصين وانتهيت الى مدينة الخنسا فافترق مني أصحابي لكثرة الزحام وكانت الفرجية علي فبينا أنا في بعض الطرق اذا بالوزير في موكب عظيم فوقع بصره علي فاستدعاني واخذ بيدي وسألني عن مقدمي ولم يفارقني حتى وصلت الى دار السلطان معه فاردت الانفصال فمنعني وادخلني على السلطان فسألني عن سلاطين الاسلام فاجبته ونظر الى الفرجية فاستحسنها فقال لي الوزير جردها فلم يمكنني خلاف ذلك فاخذها وامر لي بعشر خلع وفرس مجهز ونفقة وتغير خاطري لذلك ثم تذكرت قول الشيخ انه يأخذها سلطان كافر فطال عجبي من ذلك ولما كان في السنة الاخرى دخلت دار ملك الصين بخان بالق فقصدت زاوية الشيخ برهان الدين الصاغرجي فوجدته يقرأ والفرجية عليه بعينها فعجبت من ذلك وقلبتها بيدي فقال لي لم تقلبها وانت تعرفها فقلت له نعم هي التي أخذها لي سلطان الخنسا فقال لي هذه الفرجية صنعها اخي جلال الدين برسمي وكتب الي أن الفرجية تصلك على يد فلان ثم أخرج لي الكتاب فقرأته وعجبت من صدق يقين الشيخ واعلمته باول الحكاية فقال لي أخي جلال الدين اكبر من ذلك كله هو يتصرف في الكون وقد انتقل الى رحمة الله ثم قال لي بلغني انه كان يصلي الصبح كل يوم بمكة وانه يحج كل عام لانه كان يغيب عن الناس يومي عرفة والعيد فلا يعرف أين ذهب ولما ودعت الشيخ جلال الدين سافرت الى مدينة حبنق (وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة وسكون النون وقاف) وهي من أكبر المدن واحسنها يشقها النهر الذي ينزل من جبال كامرو يسمى النهر الازرق ويسافر فيه الى بنجالة وبلاد اللكنوتي وعليه النواعير والبساتين والقري يمنة ويسرة كما هي على نيل مصر واهلها كفار تحت الذمة يؤخذ منهم نصف ما يزدرعون ووظائف سوى ذلك وسافرنا في هذا النهر خمسة عشر يوما بين القرى والبساتين فكانا نمشي في سوق من الاسواق وفيه من المراكب ما لا يحصى كثرة وفي كل مركب منها طبل فاذا التقى المركبان ضرب كل واحد طبله وسلم بعضهم على بعض وأمر السلطان فخر الدين المذكور أن لا يؤخذ بذلك النهر من الفقراء نول وان يعطى الزاد لمن لا زاد له منهم واذا وصل الفقير الى مدينة أعطى نصف دينار وبعد خمسة عشر يوما من سفرنا في النهر كما ذكرناه وصلنا الى مدينة سنركاوان وسنر (بضم السين المهمل والنون وسكون الراء) وهي المدينة التي قبض أهلها على الفقير شيدا عندما لجأ اليها ولما وصلناها وجدنا بها جنكا يريد السفر الى بلاد الجاوة وبينهما أربعون يوما فركبنا فيه ووصلنا بعد

خمسة عشريوما الى بلاد البرهنكار الذين أفواههم كافواه الكلاب (وضبطها بفتح الباء الموحدة والراء والنون والكاف وسكون الهاء) وهذه الطائفة من الهمج لا يرجعون الى دين الهنود ولا الى غيره وسكناهم فى بيوت قصب مسقفة بحشيش الارض على شاطئ البحر وعندهم من أشجار الموز والفوفل والتنبول كثير ورجالهم على مثل صورتنا الا ان افواههم كافواه الكلاب وأما نساؤهم فلسن كذلك ولهن جمال بارع ورجالهم عرايا لا يستترون الا ان الواحد منهم يجعل ذكره وأنثييه فى جعبة من القصب منقوشة معلقة فى بطنه ويستتر نساؤهم باوراق الشجر ومعهم جماعة من المسلمين من أهل بنجالة والجاوة ساكنون فى حارة على حدة أخبرونا انهم يتناكحون كالبهائم لا يستترون بذلك ويكون للرجل منهم ثلاثون امرأة فما دون ذلك اوفوقه وانهم لا يزنون واذا زنا أحد منهم فحد الرجل ان يصلب حتى يموت او يؤتى صاحبه اوعبده فيصلب عوضا منه ويسرح هو وحد المرأة ان يامر السلطان جميع خدامه فينكحونها واحدا بعد واحد بحضرته حتى تموت ويرمون بها فى البحر ولاجل ذلك لا يتركون أحدا من أهل المراكب ينزل اليهم الا ان كان من المقيمين عندهم وانما يبايعون الناس ويشاورونهم على الساحل ويسوقون اليهم الماء على الفيلة لانه بعيد من الساحل ولا يتركونهم لاستقائه خوفا على نسائهم لانهن يطمحن الى الرجال الحسان والفيلة كثيرة عندهم ولا يبيعها احد غير سلطانهم ثم تشترى منهم بالاثواب ولهم كلام غريب لا يفقهه الا من ساكنهم واكثر التردد اليهم ولما وصلنا الى ساحلهم أتوا الينا فى قوارب صغار كل قارب من خشبة واحدة منحوتة وجاؤا بالموز والارز والتنبول والفوفل والسمك

ذكر سلطانهم

وأتى الينا سلطانهم راكبا على فيل عليه شبه بردعة من الجلود ولباس السلطان ثوب من جلود المعز وقد جعل الوبر الى خارج وفوق رأسه ثلاث عصائب من الحرير ملونات وفى يده حربة من القصب ومعه نحو عشرين من أقاربه على الفيلة فبعثنا اليه هدية من الفلفل والزنجبيل والقرفة والحوت الذي يكون بجزائر ذيبة المهل وأثوابا بنجالية وهم لا يلبسونها انما يكسونها الفيلة فى أيام عيدهم ولهذا السلطان على كل مركب ينزل ببلاده جارية ومملوك وثياب لكسوة الفيل وحلى ذهب تجعله زوجته فى محزمها وأصابع رجليها ومن لم يعط هذه الوظيفة صنعوا له سحرا يهيج به البحر فيهلك أو يقارب الهلاك

حكاية

واتفق فى ليلة من ليالى إقامتنا بمرساهم ان غلاما لصاحب المركب ممن تردد الى هؤلاء الطائفة نزل من المركب ليلا وتواعد مع امرأة أحد كبرائهم الى موضع شبه الغار على

الساحل وعلم بذلك زوجها فجاء في جمع من أصحابه الى الغار فوجدها به فحملا الى سلطانهم فامر بالغلام فقطعت انثياه وصلب وأمر بالمرأة فجامعها الناس حتى ماتت ثم جاء السلطان الى الساحل فاعتذر عما جرى وقال انا لانجد بدا من امضاء أحكامنا ووهب لصاحب المركب غلاما عوض الغلام المطلوب ثم سافرنا عن هؤلاء وبعد خمسة وعشرين يوما وصلنا الى جزيرة الجاوة (بالجيم) وهي التي ينسب اليها اللبان الجاوى رأيناها على مسيرة نصف يوم وهي خضرة نضرة وأكثر أشجارها النارجيل والفوفل والقرنفل والعود الهندي والشكى والبركى والعنبة والجمون والنارنج الحلو وقصب الكافور وبيع أهلها وشراؤهم بقطع قصدير وبالذهب الصيني التبر غير المسبوك والكثير من أفاويه الطيب التى ببلاد الكفار إنما هو منها وأما ببلاد المسلمين فهو أقل من ذلك ولما وصلنا المرسي خرج الينا أهلها فى مراكب صغار ومعهم جوز النارجيل والموز والعنبة والسمك وعادتهم ان يهدوا ذلك للتجار فيكافئهم كل انسان على قدره وصعد الينا أيضا نائب صاحب البحر وشاهد من معنا من التجار وأذن لنا فى النزول الى البر فنزلنا الى البندر وهي قرية كبيرة على ساحل البحر بها دور يسمونها السرحي (بفتح السين المهمل وسكون الراء وفتح الحاء المهمل) وبينها وبين البلد أربعة أميال ثم كتب بهروز نائب صاحب البحر الى السلطان فعرفه بقدومي فامر الامير دولسة بلقائي والقاضي الشريف أمير سيد الشيرازى وتاج الدين الاصبهاني وسواهم من الفقهاء فخرجوا لذلك وجاؤا بفرس من مراكب السلطان وأفراس سواه فركبت وركب أصحابى ودخلنا الى حضرة السلطان وهي مدينة سمطرة (بضم السين المهمل والميم وسكون الطاء وفتح الراء) مدينة حسنة كبيرة عليها سور خشب وأبراج خشب

— ذكر سلطان الجاوة —

وهو السلطان الملك الظاهر من فضلاء الملوك وكرمائهم شافعى المذهب محب فى الفقهاء يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة وهو كثير الجهاد والغزو ومتواضع ياتي الى صلاة الجمعة ماشيا على قدميه وأهل بلاده شافعية يحبون فى الجهاد يخرجون معه تطوعا وهم غالبون على من يليهم من الكفار والكفار يعطونهم الجزية على الصلح

— ذكر دخولنا الى داره واحسانه الينا —

ولما قصدنا الى دار السلطان وجدنا بالقرب منه رماحا مركوزة عن جانبي الطريق وهي علامة على نزول الناس فلا يتجاوزها من كان راكبا فنزلنا عندها ودخلنا المشور فوجدنا نائب السلطان وهو يسمي عمدة الملك فقام الينا وسلم علينا وسلامهم بالمصافحة وقعدنا معه وكتب

بطاقة الى السلطان يعلمه بذلك وختمها ودفعها لبعض الفتيان فاتاه الجواب على ظهرها ثم جاء أحد ببقشة والبقشة (بضم الباء الموحدة وسكون القاف وفتح الشين المعجم) هي السبنية فاخذها النائب بيده واخذ بيدي وأدخلني الى دويرة يسمونها فردخانة على وزن زردخانة (الا أن أولها فاء) وهي موضع راحته بالنهار فان العادة ان يأتي السلطان الى المشور بعد الصبح ولا ينصرف الا بعد العشاء الآخرة وكذلك الوزراء والامراء الكبار وأخرج من البقشة ثلاث فوط احداها من خالص الحرير والاخرى حرير وقطن واخرى حرير وكتان وأخرج ثلاث أثواب يسمونها التحتانيات من جنس الفوط وأخرج ثلاثة من الثياب مختلفة الاجناس تسمي الوسطانيات وأخرج ثلاثة أثواب من الارمك أحدها أبيض وأخرج ثلاث عمائم فلبست فوطة منها عوض السراويل على عادتهم وثوبا من كل جنس وأخذ أصحابي ما بقي منها ثم جاؤا بالطعام أكثره الارز ثم أتوا بنوع من الفقاع ثم أتوا بالتنبول وهو علامة الانصراف فاخذناه وقمنا وقام النائب لقيامنا وخرجنا عن المشور فركبنا وركب النائب معنا وأتوا بنا الى بستان عليه حائط خشب وفي وسطه دار بناؤها بالخشب مفروشة بقطائف قطن يسمونها المخملات (بالميم والخاء المعجم) ومنها مصبوغ وغير مصبوغ وفي البيت أسرة من الخيزران فوقها مضربات من الحرير ولحف خفاف ومخاد يسمونها البوالشت فجلسنا بالدار ومعنا النائب ثم جاء الامير دولسة بجاريتين وخادمين وقال لي يقول لك السلطان هذه على قدرنا لا على قدر السلطان محمد ثم خرج النائب وبقي الامير دولسة عندي وكانت بيني وبينه معرفة لانه كان ورد رسولا على السلطان بدهلي فقلت له متى تكون رؤية السلطان فقال لي ان العادة عندنا ان لا يسلم القادم على السلطان الا بعد ثلاثة ليذهب عنه تعب السفر ويثوب اليه ذهنه فاقمنا ثلاثة أيام ياتي الينا الطعام ثلاث مرات في اليوم وتاتينا الفواكه والطرف مساء وصباحا فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة أتاني الامير دولسة فقال لي يكون سلامك على السلطان بمقصورة الجامع بعد الصلاة فاتيت المسجد وصليت به الجمعة مع حاجبه قيران (بفتح القاف وسكون الياء آخر الحروف وفتح الراء) ثم دخلت الى السلطان فوجدت القاضي أمير سيد والطلبة عن يمينه وشماله فصافحني وسلمت عليه وأجلسني عن يساره وسالني عن السلطان محمد وعن أسفاري فاجبته وعاد الى المذاكرة في الفقه على مذهب الشافعي ولم يزل كذلك الى صلاة العصر فلما صلاها دخل بيتا هنالك فنزع الثياب التي كانت عليه وهي ثياب الفقهاء وبها ياتي المسجد يوم الجمعة ماشيا ثم لبس ثياب الملك وهي الاقبية من الحرير والقطن

— ذكر انصرافه الى داره وترتيب السلام عليه —

ولما خرج من المسجد وجد الفيلة والخيل على بابه والعادة عندهم انه اذا ركب السلطان الفيل ركب من معه الخيل واذا ركب الفرس ركبوا الفيلة ويكون أهل العلم عن يمينه فركب ذلك اليوم على الفيل وركبنا الخيل وسرنا معه الى المشور فنزلنا حيث العادة ودخل السلطان راكبا وقد اصطف في المشور الوزراء والامراء والكتاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفا فاول الصفوف صف الوزراء والكتاب ووزراؤه أربعة فسلموا عليه وانصرفوا الى موضع وقوفهم ثم صف الامراء فسلموا ومضوا الى مواقفهم وكذلك تفعل كل طائفة ثم صف الشرفاء والفقهاء ثم صف الندماء والحكماء والشعراء ثم صف وجوه العسكر ثم صف الفتيان والمماليك ووقف السلطان على فيله ازاء قبة الجلوس ورفع فوق رأسه شطر مرصع وجعل عن يمينه خمسون فيلا مزينة وعن شماله مثلها وعن يمينه أيضا مائة فرس وعن شماله مثلها وهي خيل النوبة ووقف بين يديه خواص الحجاب ثم أتى أهل الطرب من الرجال فغنوا بين يديه وأتي بخيل مجللة بالحرير لها خلاخيل ذهب وارسان حرير مزركشة فرقصت الخيل بين يديه فعجبت من شانها وكنت رأيت مثل ذلك عند ملك الهند ولما كان عند الغروب دخل السلطان الى داره وانصرف الناس الى منازلهم

— ذكر خلاف ابن أخيه وسبب ذلك —

وكان له ابن أخ متزوج بنته فولاه بعض البلاد وكان الفتى يتعشق بنتا لبعض الامراء ويريد تزوجها والعادة هنالك أنه اذا كانت لرجل من الناس أمير أو سوقي أو سواه بنت قد بلغت مبلغ النكاح فلا بد ان يستامر للسلطان في شانها ويبعث السلطان من النساء من تنظر اليها فان أعجبته صفتها تزوجها والا تركها يزوجها أولياؤها ممن يشاؤا والناس هنالك يرغبون في تزويج السلطان بناتهم لما يحوزن به من الجاه والشرف ولما استامروالد البنت التي تعشقها ابن أخي السلطان بعث السلطان من نظر اليها وتزوجها واشتد شغف الفتى بها ولم يجد سبيلا اليها ثم ان السلطان خرج الى الغزو وبينه وبين الكفار مسيرة شهر فخالفه ابن أخيه الى سمطرة ودخلها اذ لم يكن عليها سور حينئذ وادعى الملك وبايعه بعض الناس وامتنع آخرون وعلم عمه بذلك فقفل عائدا اليها فاخذ ابن أخيه ماقدر عليه من الاموال والذخائر وأخذ الجارية التي تعشقها وقصد بلاد الكفار بمل جاوة ولهذا بني عمه السور على سمطرة وكانت اقامتي عنده بسمطرة خمسة عشر يوما ثم طلبت منه السفر اذ كان أوانه ولا يتهيا السفر الى الصين في كل وقت فجهز لنا جنكا وزودنا وأحسن وأجمل جزاه الله خيرا وبعث

معنا من أصحابه من يأتي لنا بالضيافة الى الجنك وسافرنا بطول بلاده احدى وعشرين ليلة ثم وصلنا الى مل جاوة (بضم الميم) وهي بلاد الكفار وطولها مسيرة شهرين وبها الافاويه العطرة والعود الطيب القاقلي والقماري وقاقلة وقمارة من بعض بلادها وليس ببلاد السلطان الظاهر بالجاوة الا اللبان والكافور وشيء من القرنفل وشيء من العود الهندي وانما معظم ذلك بمل جاوة ولنذكر ماشاهدناه منها ووقفنا على اعيانه وحققناه

— ذكر اللبان —

وشجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الانسان الى مادون ذلك وأغصانها كاغصان الخرشف وأوراقها صغار رقاق وربما سقطت فبقيت الشجرة منها دون ورقة واللبان صمغية تكون في أغصانها وهي في بلاد المسلمين أكثر منها في بلاد الكفار

— ذكر الكافور —

واما شجر الكافور فهي قصب كقصب بلادنا الا ان الانابيب منها اطول وأغلظ ويكون الكافور في داخل الانابيب فاذا كسرت القصبة وجد في داخل الانبوب مثل شكله من الكافور والسر العجيب فيه انه لا يتكون في تلك القصب حتى يذبح عند أصولها شيء من الحيوان والالم يتكون شيء منه والطيب المتناهي في البرودة الذي يقتل منه وزن الدرهم بتجميد الروح وهو المسمي عندهم بالحردالة هو الذي يذبح عند قصبه الآدمي ويقوم مقام الآدمي في ذلك الفيلة الصغار

— ذكر العود الهندي —

واما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط الا ان قشره رقيق وأوراقه كاوراق البلوط سواء ولا ثمر له وشجرته لا تعظم كل العظم وعرقه طويلة ممتدة وفيها الرائحة العطرة وأما عيدان شجرته وورقها فلا عطرية فيها وكل ما ببلاد المسلمين من شجره فهو متملك واما الذي في بلاد الكفار فاكثره غير متملك والمتملك منه ماكان بقاقلة وهو أطيب العود وكذلك القماري هو أطيب أنواع العود ويبيعونه لاهل الجاوة بالاثواب ومن القماري صنف يطبع عليه كالشمع وأما العطاس فانه يقطع العرق منه ويدفن في التراب أشهرا فتبقي فيه قوته وهو من أعجب أنواعه

— ذكر القرنفل —

واما أشجار القرنفل فهي عادية ضخمة وهي ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الاسلام وليست متملكة لكثرتها والمجلوب الى بلادنا منها هو العيدان والذي يسميه أهل بلادنا نور القرنفل هو الذي يسقط من زهره وهو شبيه بزهر النارنج وثمر القرنفل هو جوزبوا المعروفة في بلادنا بجوزة الطيب والزهر المتكون فيها هو البسباسة رأيت ذلك كله وشاهدته ووصلنا

الى مرسى قاقلة فوجدنا به جملة من الجنوك معدة للسرقة ولمن يستعصى عليهم من الجنوك فان لهم على كل جنك وظيفة ثم نزلنا من الجنك الى مدينة قاقلة وهي بقافين آخرهما مضموم ولامها مفتوح وهي مدينة حسنة عليها سور من حجارة منحوتة عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة وأول ما رأيت بخارجها الفيلة عليها الاحمال من العود الهندي يوقدوه فى بيوتهم وهو بقيمة الحطب عندنا أو أرخص ثمنا هذا اذا ابتاعوا فيما بينهم واما للتجار فيبيعون الحمل منه بثوب من ثياب القطن وهى اغلى عندهم من ثياب الحرير والفيلة بها كثيرة جدا عليها يركبون ويحملون وكل انسان يربط فيلته على بابه وكل صاحب حانوت يربط فيله عنده يركبه الى داره ويحمل وكذلك جميع أهل الصين والخطا على مثل هذا الترتيب

— ذكر سلطان مل جاوه —

وهو كافر رأيته خارج قصره جالسا على قبة ليس بينه وبين الارض بساط ومعه ارباب دولته والعساكر يعرضون عليه مشاة ولا خيل هنالك الا عند السلطان وانما يركبون الفيلة وعليها يقاتلون فعرف شانى فاستدعانى فجئت وقلت السلام على من اتبع الهدى فلم يفقهوا الا لفظ السلام فرحب بي وأمر أن يفرش لى ثوب أقعد عليه فقلت للترجمان كيف أجلس على الثوب والسلطان قاعد على الارض فقال هكذا عادته يقعد على الارض تواضعا وانت ضيف وجئت من سلطان كبير فيجب اكرامك فجلست وسالني عن السلطان فاوجز فى سؤاله وقال لى تقيم عندنا فى الضيافة ثلاثة أيام وحينئذ يكون انصرافك

— ذكر عجيبة رأيتها بمجلسه —

ورأيت فى مجلس هذا السلطان رجلا بيده سكين شبه سكين المسفر قد وضعه على رقبة نفسه وتكلم بكلام كثير لم أفهمه ثم أمسك السكين بيديه معا وقطع عنق نفسه فوقع رأسه لحدة السكين وشدة امساكه بالارض فعجبت من شانه وقال لى السلطان أيفعل احد هذا عندكم فقلت له ما رأيت هذا قط فضحك وقال هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم فى محبتنا وامر به فرفع واحرق وخرج لاحراقه النواب وارباب الدولة والعساكر والرعايا واجرى الرزق الواسع على أولاده واهله واخوانه وعظموا لاجل فعله واخبرنى من كان حاضرا فى ذلك المجلس ان الكلام الذي تكلم به كان تقرير المحبته فى السلطان وانه يقتل نفسه فى حبه كما قتل ابوه نفسه فى حب ابيه وجده نفسه فى حب جده ثم انصرفت عن المجلس وبعث الى بضيافة ثلاثة أيام وسافرنا فى البحر فوصلنا بعد أربعة وثلاثين يوما الى البحر الكاهل وهو الراكد وفيه حمرة زعموا انها من تربة ارض تجاوره ولا ريح فيه ولا موج

ولا حركة مع اتساعه ولا بحل هذا البحر تتبع كل جنك من جنوك الصين ثلاثة مراكب كاذكرناه تجذف به فتجره ويكون في الجنك مع ذلك نحو عشرين مجذافا كبارا كالصوارى يجتمع على المجذاف منها ثلاثون رجلا او نحوها ويقومون قياما صفين كل صف يقابل الآخر وفي المجذاف حبلان عظيمان كالطوابيس فتجذف احدى الطائفتين الحبل ثم تتركه وتجذف الطائفة الاخري وهم يغنون عند ذلك باصوا تهم الحسان واكثر ما يقولون لعلى لعلى وأقمنا على ظهر هذا البحر سبعة وثلاثين يوما وعجبت البحرية من التسهيل فيه فانهم يقيمون فيه خمسين يوما الى أربعين وهي انهى ما يكون من التيسير عليهم ثم وصلنا الى بلاد طوالسي وهي (بفتح الطاء المهمل والواو وكسر السين المهمل) وملكها هو المسمي بطوالسى وهي بلاد عريضة وملكها يضاهي ملك الصين وله الجنوك الكثيرة يقاتل بها اهل الصين حتى يصالحوه على شيء وأهل هذه البلاد عبدة اوثان حسان الصور أشبه الناس بالترك في صورهم والغالب على ألوانهم الحمرة ولهم شجاعة ونجدة ونساؤهم يركبن الخيل ويحسن الرماية ويقاتلن كالرجال سواء وأرسينا من مراسيهم بمدينة كيلوكري (وضبطها بكاف مفتوح وياء آخر الحروف مسكنة ولام مضموم وكاف مفتوح وراء مكسور) وهي من أحسن مدنهم واكبرها وكان يسكن بها ابن ملكهم فلما ارسينا بالمرسي جاءت عساكرهم ونزل الناخودة اليهم ومعه هدية لابن الملك فسالهم عنه فاخبروه ان أباه ولاه بلدا غيرهم وولى بنته بتلك المدينة (واسمها أردجا بضم الهمزة وسكون الراء وضم الدال المهمل وجيم)

— ذكر هذه الملكة —

ولما كان في اليوم الثاني من حلولنا بمرسى كيلوكرى استدعت هذه الملكة الناخودة صاحب المركب والكواني وهو الكاتب والتجار والرؤساء والتنديل وهو مقدم الرجال وسباه سالار وهو مقدم الرماة لضيافة صنعتها لهم على عادتها ورغب الناخودة مني ان احضر معهم فابيت لانهم كفار لا يجوز اكل طعامهم فلما حضروا عندها قالت لهم هل بقي احد منكم لم يحضر فقال لها الناخودة لم يبق الا رجل واحد بخشي وهو القاضي بلسانهم وبخشى (بفتح الباء الموحدة وسكون الخاء وكسر الشين المعجمين) وهو لا ياكل طعامكم فقالت ادعوه فجاء جنادرتها واصحاب الناخودة فقالوا أجب الملكة فاتيتها وهي بمجلسها الاعظم وبين يديها نسوة بايديهن الازمة يعرضن ذلك عليها وحولها النساء القواعد وهن وزيراتها وقد جلسها تحت السرير على كراسى الصندل وبين يديها الرجال ومجلسها مفروش بالحرير وعليه ستور حرير وخشبة من الصندل وعليه صفائح الذهب وبالمجلس مساطب خشب منقوش

عليها أوانى ذهب كثيرة من كبار وصغار كالخوابي والقلال والبواقيل أخبرني الناخودة انها مملوة بشراب مصنوع من السكر مخلوط بالافاويه يشربونه بعد الطعام وانه عطر الرائحة حلو المطعم يفرح ويطيب النكهة ويهضم ويعين على الباءة فلما سلمت على الملكة قالت لى بالتركية حسن مسن يخشي مسن (خوشميسن يخشميسن) معناه كيف حالك كيف انت واجلستني على قرب منها وكانت تحسن الكتاب العربى فقالت لبعض خدامها دواة وبتك كاتور (كتور) معناه الدواة والكاغد فاتي بذلك فكتبت فيه بسم الله الرحمن الرحيم فقالت ما هذا فقلت لها تنضرى (تنكرى) نام وتنضرى (بفتح التاء المعلوة وسكون النون وفتح الضاد وراء وياء) ونام (بنون والف وميم) ومعنى ذلك اسم الله فقالت خشن (خوش) ومعناه جيد ثم سالتني من أي البلاد قدمت فقلت لها من بلاد الهند فقالت بلاد الفلفل فقلت نعم فسالتني عن تلك البلاد واخبارها فاجبتها فقالت لا بد ان أغزوها وآخذها لنفسى فانى يعجبني كثرة مالها وعساكرها فقلت لها افعلى وامرت لى باثواب وحمل فيلين من الارز بجاموستين وعشرة من الضان وأربعة أرطال جلاب وأربعة مرطبانات وهى ضخمة مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون والعنبا كل ذلك مملوح مما يستعد للبحر واخبرني الناخودة ان هذه الملكة لها فى عسكرها نسوة وخدم وجواريقاتلن كالرجال وانها تخرج في العساكر من رجال ونساء فتغير على عدوها وتشاهد القتال وتبارز الابطال واخبرنى انها وقع بينها وبين بعض أعدائها قتال شديد وقتل كثير من عسكرها وكادوا ينهزمون فدفعت بنفسها وخرقت الجيوش حتى وصلت الى الملك الذى كانت تقاتله فطعنته طعنة كان فيها حتفه فمات وانهزمت عساكره وجاءت برأسه على رمح فافتكه أهله منها بمال كثير فلما عادت الى أبيها ملكها تلك المدينة التى كانت بيد أخيها واخبرنى ان ابناء الملوك يخطبونها فتقول لا اتزوج الا من يبارزني فيغلبني فيتحامون مبارزتها خوف المعرة ان غلبتهم ثم سافرنا عن بلاد طوالسى فوصلنا بعد سبعة عشر يوما والريح مساعدة لنا ونحن نسير بها أشد السير واحسنه الى بلاد الصين واقليم الصين متسع كثيرا الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة لا يضاهيه فى ذلك اقليم من اقاليم الارض ويخترقه النهر المعروف بآب حيات معنى ذلك ماء الحياة ويسمى ايضا نهر السبر (السرو) كاسم النهر الذى بالهند ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان باق تسمي كوه بوزنه معناه جبل القرود ويمر في وسط الصين مسيرة ستة اشهر الى ان ينتهى الى صين الصين وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والاسواق كنيل مصر الا ان هذا أكثر عمارة وعليه النواعير الكثيرة وببلاد الصين السكر الكثير مما

يضاهي المصري بل يفضله والاعناب والاجاص وكنت أظن ان الاجاص العثماني الذى بدمشق لا نظير له حتي رأيت الاجاص الذى بالصين وبها البطيخ العجيب يشبه بطيخ خوارزم واصفهان وكل ما ببلادنا من الفواكه فان بها ما هو مثله واحسن منه والقمح بها كثير جداً ولم أر قمحاً أطيب منه وكذلك العدس والحمص

— ذكر الفخار الصينى —

وأما الفخار الصيني فلا يصنع منه الا بمدينة الزيتون وبصين كلان وهو من تراب جبال هنالك تقد فيه النار كالفحم وسنذكر ذلك ويضيفون اليه حجارة عندهم ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام ثم يصبون عليها الماء فيعود الجميع ترابا ثم يخمرونه فالجيد منه ماخمر شهراً كاملا ولا يزاد على ذلك والدون ماخمر عشرة أيام وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا او أرخص ثمنا ويحمل الى الهند وسائر الاقاليم حتي يصل الى بلادنا بالمغرب وهو أبدع أنواع الفخار

— ذكر دجاج الصين —

ودجاج الصين وديوكها ضخمة جداً أضخم من الاوز عندنا وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الاوز عندنا وأما الاوز عندهم فلا ضخامة لها ولقد اشترينا دجاجة فاردنا طبخها فلم يسع لحمها فى برمة واحدة فجعلناها فى برمتين ويكون الديك بها على قدر النعامة وربما انتتف ريشها فيبقى بضعة حمراء وأول ما رأيت الديك الصيني بمدينة كولم فظننته نعامة وعجبت منه فقال لى صاحبه ان ببلاد الصين ماهو أعظم منه فلما وصلت الى الصين رأيت مصداق ما أخبرني به من ذلك

— ذكر بعض من أحوال أهل الصين —

وأهل الصين كفار يعبدون الاصنام ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود وملك الصين تترى من ذرية تنكيز خان وفى كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها وهم معظمون محترمون وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها فى أسواقهم وهم أهل رفاهية وسعة عيش الا انهم لا يحتفلون فى مطعم ولا ملبس وترى التاجر الكبير منهم الذى لا تحصى أمواله كثرة وعليه جبة قطن خشنة وجميع أهل الصين انما يحتفلون فى أوانى الذهب والفضة ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه فى المشي ويقولون هو الرجل الثالثة والحرير عندهم كثير جدا لان الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج الى كثير مؤنة ولذلك كثر وهو لباس الفقراء والمساكين بها ولولا التجار لما كانت له قيمة ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالاثواب الكثيرة من الحرير وعادتهم ان يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعا تكون

القطعة منها من قنطار فا فوقه وما دونه ويجعل ذلك على باب داره ومن كان له خمس قطع منها جعل فى أصبعه خاتما ومن كانت له عشر جعل خاتمين ومن كان له خمس عشرة سموه الستى (بفتح السين المهمل وكسر التاء المعلوة) وهو بمعني الكارمى بمصر ويسمون القطعة الواحدة منها بركالة (بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الكاف واللام)

— ذكر دراهم الكاغد التي بها يبيعون ويشترون —

واهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعا كما ذكرناه وانما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان وتسمي الخمس والعشرون قطعة منها بالشت (بباء موحدة والف ولام مكسور وشين معجم مسكن وتاء معلوة) وهي بمعني الدينار عندنا واذا تمزقت تلك الكواغد في يد انسان حملها الى دار كدار السكة عندنا فأخذ عوضها جددا ودفع تلك ولا يعطي على ذلك أجرة ولا سواها الان الذين يتولون عملها لهم الارزاق الجارية من قبل السلطان وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الامراء واذا مضى الانسان الى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء لم يأخذ منه ولا يلتفت عليه حتى يصرفه بالبالشت ويشترى به ما أراد

— ذكر التراب الذى يوقدونه مكان الفحم —

وجميع أهل الصين والخطا انما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا ولونه لون الطفل تأتى الفيلة بالاحمال منه فيقطعونه قطعا على قدر قطع الفحم عندنا ويشعلون النار فيه فيقد كالفحم وهو أشد حرارة من نار الفحم واذا صار رمادا عجنوه بالماء ويبسوه وطبخوا به ثانية ولا يزالون يفعلون به كذلك الى ان يتلاشى ومن هذا التراب يصنعون أوانى الفخار الصيني ويضيفون اليه حجارة سواه كما ذكرناه

— ذكر ماخصوا به من احكام الصناعات —

وأهل الصين أعظم الامم احكاما للصناعات وأشدهم اتقانا فيها وذلك مشهور من حالهم قد وصفه الناس فى تصانيفهم فاطنبوا فيه وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى احكامه من الروم ولا من سواهم فان لهم فيه اقتدارا عظيما ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك اني مادخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت اليها الا ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة فى الحيطان والكواغد موضوعة في الاسواق ولقد دخلت الى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين ووصلت الى قصر السلطان مع أصحابى ونحن على زى العراقيين فلما عدت من القصر عشيا مررت بالسوق المذكورة فرأيت صورتي وصورة أصحابى منقوشة فى كاغد

قد الصقوه بالحائط فجعل كل واحد منا ينظر الى صورة صاحبه لا تخطىء شيا من شبهه وذكر لى ان السلطان أمرهم بذلك وانهم أتوا الى قصر ونحن به فجعلوا ينظرون الينا ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك وتلك عادة لهم فى تصوير كل من يمر بهم وتنتهى حالهم فى ذلك الى ان الغريب اذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثوا صورته الى البلاد وبحث عنه فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ قال ابن جزى هذا مثل ما حكاه أهل التاريخ من قضية سابور ذى الاكتاف ملك الفرس حين دخل الى بلاد الروم متنكرا وحضر وليمة صنعها ملكهم وكانت صورته على بعض الاوانى فنظر اليها بعض خدام قيصر فانطبعت على صورة سابور فقال للملك ان هذه الصورة تخبرنى ان كسري معنا فى هذا المجلس فكان الامر على ماقاله وجري فيه ماهو مسطور فى الكتب

— ذكر عادتهم فى تقييد مافى المراكب —

وعادة أهل الصين اذا أراد جنك من جنوكهم السفر صعد اليه صاحب البحر وكتابه وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدام والبحرية وحينئذ يباح لهم السفر فاذا عاد الجنك الى الصين صعدوا اليه أيضا وقابلوا ما كتبوه باشخاص الناس فان فقدوا أحدا ممن قيدوه طلبوا صاحب الجنك به فاما ان ياتى ببرهان على موته اوفراره اوغير ذلك مما يحدث عليه والا أخذ فيه فاذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب ان يملي عليهم تفصيلا بجميع مافيه من السلع قليلها وكثيرها ثم ينزل من فيه ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم فان عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنك بجميع ما فيه مالا للمخزن وذلك نوع من الظلم ما رأيته ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين الا بالصين اللهم الا انه كان بالهند مايقرب منه وهو ان من عثر على سلعة له قد غاب على مغرمها أغرم أحد عشر مغرما ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم

— ذكر عادتهم فى منع التجار عن الفساد —

واذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين خير فى النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معين اوفى الفندق فان احب النزول عند التاجر حصر ماله وضمنه التاجر المستوطن وانفق عليه منه بالمعروف فاذا أراد السفر بحث عن ماله فان وجد شيء منه قد ضاع أغرمه التاجر المستوطن الذي ضمنه وان أراد النزول بالفندق سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه وهو يشتري له ما أحب ويحاسبه فان أراد التسري اشترى له جارية واسكنه بدار يكون بابها فى الفندق وانفق عليهما والجواري رخيصات الاثمان لان أهل الصين أجمعين

يبيعون أولادهم وبناتهم و ليس ذلك عيبا عندهم غيرانهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم ولا يمنعون أيضا منه ان اختاروه وكذلك ان اراد التزوج تزوج وأما انفاق ماله فى الفساد فشيء لا سبيل له اليه ويقولون لا نريد ان يسمع فى بلاد المسلمين انهم يخسرون أموالهم فى بلادنا فانها أرض فساد وحسن فائت

— ذكر حفظهم المسافرين فى الطرق —

وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافرين فان الانسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر و تكون معه الاموال الطائلة فلا يخاف عليها وترتيب ذلك ان لهم فى كل منزل ببلادهم فندقا عليه حاكم يسكن به فى جماعة من الفرسان والرجال فاذا كان بعد المغرب أو العشاء الآخرة جاء الحاكم الى الفندق ومعه كاتبه فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم عليها وأقفل باب الفندق عليهم فاذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل انسان باسمه وكتب بها تفصيلا وبعث معهم من يوصلهم الى المنزل الثانى له ويأتيه ببراءة من حاكمه ان الجميع قد وصلوا اليه وان لم يفعل طلبه بهم وهكذا العمل فى كل منزل ببلادهم من صين الصين الى خان بالق وفى هذه الفنادق جميع ما يحتاج اليه المسافر من الازواد وخصوصا الدجاج والاوز وأما الغنم فهى قليلة عندهم * ولنعد الى ذكر سفرنا فنقول لما قطعنا البحر كانت أول مدينة وصلنا اليها مدينة الزيتون وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد أهل الصين والهند ولكنه اسم وضع عليها وهي مدينة عظيمة كبيرة تصنع بها ثياب الكمخا والاطلس وتعرف بالنسبة اليها وتفضل على الثياب الخنساوية والخنبالقية ومرساها من أعظم مراسى الدنيا أو هو أعظمها رأيت به نحو مائة جنك كبار وأما الصغار فلا تحصي كثرة وهو خور كبير من البحر يدخل فى البرحتي يختلط بالنهر الاعظم وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والارض وداره فى وسطها كمثل ما هي ببلدة سجلماسة ببلادنا وبهذا عظمت بلادهم والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة وفى يوم وصولى اليها رأيت بها الامير الذى توجه الى الهند رسولا بالهدية ومضي فى صحبتنا وغرق به الجنك فسلم على وعرف صاحب الديوان بى فأنزلني في منزل حسن وجاء الى قاضي المسلمين تاج الدين الاردويلي وهو من الافاضل الكرماء وشيخ الاسلام كمال الدين عبد الله الاصفهاني وهو من الصلحاء وجاء الى كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزى أحد التجار الذين استدنت منهم حين قدومي على الهند وأحسنهم معاملة حافظ القرآن مكثر للتلاوة وهؤلاء التجار لسكناهم في بلاد الكفار اذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح

وقالوا جاء من أرض الاسلام وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنيا كواحد منهم وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازروني له زاوية خارج البلد واليه يدفع التجار النذور التي ينذرونها للشيخ أبي اسحق الكازروني ولما عرف صاحب الديوان اخباري كتب الي القان وهو ملكهم الاعظم يخبره بقدومي من جهة ملك الهند فطلبت منه أن يبعث معي من يوصلني الى بلاد الصين (صين الصين) وهم يسمونه صين كلان لاشاهد تلك البلاد وهي في عمالته بخلال مايعود جواب القان فاجاب الى ذلك وبعث معي من أصحابه من يوصلني وركبت في النهر في مركب يشبه أجفان بلادنا الغزوية الا أن الجذافين يجذفون فيه قياما وجميعهم في وسط المركب والركاب في المقدم والمؤخر ويظللون على المركب ثياب تصنع من نبات بلادهم يشبه الكتان وليس به وهو أرق من القنب وسافرنا في هذا النهر سبعة وعشرين يوما وفي كل يوم نرسو عند الزوال بقرية نشتري بها مانحتاج اليه ونصلي الظهر ثم ننزل بالعشي الى أخرى هكذا الى أن وصلنا الى مدينة صين كلان (بفتح الكاف) وهي مدينة صين الصين وبها يصنع الفخار وبالزيتون أيضا وهنالك يصب نهر آب حياة في البحر ويسمونه مجمع البحرين وهي من أكبر المدن وأحسنها أسواقا ومن أعظم أسواقها سوق الفخار ومنها يحمل الى سائر بلاد الصين والى الهند واليمن وفي وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة لها تسعة أبواب داخل كل باب اسطوان ومصاطب يقعد عليها الساكنون بها وبين البابين الثاني والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان وأهل الزمانات ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة وكذلك فيما بين الابواب كلها وفي داخلها المارستان للمرضى والمطبخة لطبخ الاغذية وفيها الاطباء والخدام وذكر لي أن الشيوخ الذين لاقدرة لهم على التكسب لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة وكذلك الايتام والارامل ممن لامال لهم وعمر هذه الكنيسة بعض ملوكهم وجعل هذه المدينة وماو ليها من القرى والبساتين وقفا عليها وصورة ذلك الملك مصورة بالكنيسة المذكورة وهم يعبدونها وفي بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ولهم قاض وشيخ ولابد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الاسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة اليه وقاض يقضي بينهم وكان نزولي عند أوحد الدين السنجاري وهو أحد الفضلاء الاكابر ذوالاموال الطائلة وأقمت عنده أربعة عشر يوما وتحف القاضي وسائر المسلمين تتوالى علي وكل يوم يصنعون دعوة جديدة ويأتون اليها بالعشارين الحسان والمغنين وليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين وبينها وبين سد ياجوج وماجوج ستون

يوما فيما ذكر لي يسكنها كفار رحالة يأكلون بني آدم اذا ظفروا بهم ولذلك لا تسلك بلادهم ولا يسافر اليها ولم أر بتلك البلاد من رأى السد ولا من رأي من رآه

—— حكاية عجيبة ——

ولما كنت بصين كلان سمعت أن بها شيخا كبيرا قد أناف على مائتي سنة وانه لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ولا يباشر النساء مع قوته التامة وانه ساكن في غار بخارجها يتعبد فيه فتوجهت الى الغار فرأيته على بابه وهو نحيف شديد الحمرة عليه أثر العبادة ولا لحية له فسلمت عليه فامسك يدي وشمها وقال للترجمان هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر ثم قال لي لقد رأيت عجبا أتذكر يوم قدومك الجزيرة التي فيها الكنيسة والرجل الذي كان جالسا بين الاصنام واعطاك عشرة دنانير من الذهب فقلت نعم فقال أنا هو فقبلت يده وفكر ساعة ثم دخل الغار فلم يخرج الينا وكأنه ظهر منه الندم على ما تكلم به فتهجمنا ودخلنا الغار عليه فلم نجده ووجدنا بعض أصحابه ومعه جملة بوالشت من الكاغد فقال هذه ضيافتكم فانصرفوا فقلنا له ننتظر الرجل فقال لو أقمتم عشر سنين لم تروه فان عادته اذا اطلع أحد على سر من أسراره لا يراه بعده ولا تحسب انه غاب عنك بل هو حاضر معك فعجبت من ذلك وانصرفت فاعلمت القاضي وشيخ الاسلام وأوحد الدين السنجاري بقضيته فقالوا كذلك عادته مع من يأتي اليه من الغرباء ولا يعلم احد ما ينتحله من الاديان والذي ظننتموه احد اصحابه هو هو واخبروني انه كان غاب عن هذه البلاد نحو خمسين سنة ثم قدم عليها منذ سنة وكان السلاطين والامراء والكبراء يأتونه زائرين فيعطيهم التحف على اقدارهم ويأتيه الفقراء كل يوم فيعطي لكل احد على قدره وليس في الغار الذي هو به ما يقع عليه البصر وانه يحدث عن السنين الماضية ويذكر النبي صلى الله عليه وسلم ويقول لو كنت معه لنصرته ويذكر الخليفتين عمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب باحسن الذكر ويثني عليهما ويلعن يزيد بن معاوية ويقع في معاوية وحدثوني عنه بامور كثيرة وأخبرني أوحد الدين السنجاري قال دخلت عليه بالغار فاخذ بيدي فخيل لي أني في قصر عظيم وانه قاعد فيه على سرير وفوق راسه تاج وعن جانبيه الوصائف الحسان والفواكه تتساقط في انهار هنالك وتخيلت اني اخذت تفاحة لآكلها فاذا انا بالغار وبين يديه وهو يضحك مني واصابني مرض شديد لازمني شهورا فلم اعد اليه واهل تلك البلاد يعتقدون انه مسلم لكن لم يره احد يصلي واما الصيام فهو صائم أبدا وقال لي القاضي ذكرت له الصلاة في بعض الايام فقال لي اتدري أنت ما أصنع ان صلاتي غير صلاتك واخباره كلها غريبة وفي اليوم الثاني من لقائه سافرت

راجعا الى مدينة الزيتون وبعد وصولى اليها بايام جاء أمر القان بوصولى الى حضرته على البر والكرامة ان شئت فى النهر والا ففى البر فاخترت السفر فى النهر فجهزوا لى مركبا حسنا من المراكب المعدة لركوب الامراء وبعث الامير معنا أصحابه ووجه لنا الامير والقاضى والتجار المسلمون أزوادا كثيرة وسرنا فى الضيافة نتغدى بقرية ونتعشى باخرى فوصلنا بعد سفر عشرة أيام الى مدينة قنجنفو (وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح الجيم وسكون النون الآخر وضم الفاء وواو) مدينة كبيرة حسنة فى بسيط أفيح والبساتين محدقة بها فكأنها غوطة دمشق وعند وصولنا خرج الينا القاضي وشيخ الاسلام والتجار ومعهم الاعلام والطبول والابواق والانفار وأهل الطرب وأتوا بالخيل فركبنا ومشوا بين أيدينا لم يركب معنا غير القاضي والشيخ وخرج أمير البلد وخدامه وضيف السلطان عندهم معظم أشد التعظيم ودخلنا المدينة ولها أربعة أسوار يسكن ما بين السور الاول والثاني عبيد السلطان من حراس المدينة وسمارها ويسمون البصوانان (الباسوانان) (بفتح الباء الموحدة وسكون الصاد المهمل وواو وألف ونون وألف ونون) ويسكن ما بين السور الثانى والثالث الجنود المركبون والامير الحاكم على البلد ويسكن داخل السور الثالث المسلمون وهنالك نزلنا عند شيخهم ظهير الدين القرلانى (بضم القاف وسكون الراء) ويسكن داخل السور الرابع الصينيون وهو أعظم المدن الاربعة ومقدار ما بين كل باب منها والذى يليه ثلاثة أميال وأربعة ولكل انسان كما ذكرناه بستانه وداره وأرضه

— حكاية —

وبينا أنا يوما فى دار ظهير الدين القرلانى اذا بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم فاستؤذن له علي وقالوا مولانا قوام الدين السبتى فعجبت من اسمه ودخل الى فلما حصلت المؤانسة بعد السلام سنح لي اني أعرفه فاطلت النظر اليه فقال أراك تنظر الى نظر من يعرفني فقلت له من أي البلاد أنت فقال من سبتة فقلت له وأنا من طنجة فجدد السلام على وبكى حتى بكيت لبكائه فقلت له هل دخلت بلاد الهند فقال لى نعم دخلت حضرة دهلى فلما قال لى ذلك تذكرت له وقلت أأنت البشرى قال نعم وكان وصل الى دهلى مع خاله أبى قاسم المرسى وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه من حذاق الطلبة يحفظ الموطأ وكنت أعلمت سلطان الهند بامره فاعطاه ثلاثة آلاف دينار وطلب منه الاقامة عنده فابي وكان قصده فى بلاد الصين فعظم شانه بها واكتسب الاموال الطائلة أخبرني ان له نحو خمسين غلاما ومثلهم من الجوارى واهدي الى منهم غلامين وجاريتين وتحفا كثيرة ولقيت اخاه بعد ذلك ببلاد السودان فيا بعد ما بينهما وكانت اقامتى بقنجنفو خمسة عشر يوما وسافرت منها وبلاد

الصين على مافيها من الحسن لم تكن تعجبني بل كان خاطري شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها فمتى خرجت عن منزلي رأيت المناكير الكثيرة فاقلقني ذلك حتى كنت ألازم المنزل فلا اخرج الا لضرورة وكنت اذا رأيت المسلمين بها فكانى لقيت أهلي وأقاربي ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البشري ان سافر معي لما رحلت عن قنجنفو أربعة أيام حتى وصلت الى مدينة بيوم قطلو (وهي بباء موحدة مفتوحة وياء آخر الحروف ساكنة وواو مفتوحة وميم وقاف مضموم وطاء مسكنة ولام مضموم وواو) مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من جند وسوقة وليس بها للمسلمين الا أربعة من الدور أهلها من جهة الفقيه المذكور نزلنا بدار احدهم واقمنا عنده ثلاثة ايام ثم ودعت الفقيه وانصرفت فركبت النهر على العادة نتغدى بقرية ونتعشي باخرى الى ان وصلنا بعد سبعة عشر يوما منها الى مدينة الخنساء واسمها على نحو اسم الخنساء الشاعرة ولا ادرى اعربي هو ام وافق العربي وهذه المدينة اكبر مدينة رأيتها على وجه الارض طولها مسيرة ثلاثة أيام يرحل المسافر فيها وينزل وهي على ماذكرناه من ترتيب عمارة الصين كل أحد له بستانه وداره وهي منقسمة الى ست مدن سنذكرها وعند وصولنا اليها خرج الينا قاضيها فخر الدين وشيخ الاسلام بها واولاد عثمان بن عفان المصري وهم كبراء المسلمين بها ومعهم علم ابيض والاطبال والانفار والابواق وخرج اميرها فى موكبه ودخلنا المدينة وهي ست مدن على كل مدينة سور ويحدق بالجميع سور واحد فاول مدينة منها يسكنها حراس المدينة وأميرهم حدثني القاضي وسواه انهم اثنا عشر ألفا في زمام العسكرية وبتنا ليلة دخولنا فى دار أميرهم وفى اليوم الثاني دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود ويسكن بها اليهود والنصاري والترك عبدة الشمس وهم كثير واميرهذه المدينة من اهل الصين وبتنا عنده الليلة الثانية وفي اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة ويسكنها المسلمون ومدينتهم حسنة واسواقهم مرتبة كترتيبها فى بلاد الاسلام وبها المساجد والمؤذنون سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا ونزلنا منها بدار اولاد عثمان بن عفان المصري وكان احد التجار الكبار استحسن هذه المدينة فاستوطنها وعرفت بالنسبة اليه واورث عقبه به الجاه والحرمة وهم على ما كان عليه ابوهم من الايثار على الفقراء والاعانة للمحتاجين ولهم زاوية تعرف بالعثمانية حسنة العمارة لها اوقاف كثيرة وبها طائفة من الصوفية وبني عثمان المذكور المسجد الجامع بهذه المدينة ووقف عليه وعلى الزاوية اوقافا عظيمة وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير وكانت اقامتنا عندهم خمسة عشر يوما فكنا كل يوم وليلة فى دعوة جديدة ولا يزالون يحتلفون فى اطعمتهم ويركبون معنا كل يوم للنزهة فى اقطار المدينة

وركبوا معي يومافدخلنا الى المدينة الرابعة وهي دار الامارة وبهاسكني الامير الكبير قرطي ولما دخلنا من بابهاذهب عني أصحابي ولقيني الوزير وذهب بي الى دار الامير الكبير قرطي فكان من أخذه الفرجية التي أعطانيها ولي الله جلال الدين الشيرازي ماقد ذكرته وهذه المدينة منفردة لسكنى عبيد السلطان وخدامه وهي من أحسن المدن الست ويشقها انهار ثلاثة أحدها خليج يخرج من النهر الاعظم وتأتي فيه القوارب الصغار الى هذه المدينة بالمرافق من الطعام وأحجار الوقد وفيه السفن للنزهة والمشور في وسط هذه المدينة وهو كبير جداودار الامارة في وسطه وهو يحف بها من جميع الجهات وفيه سقائف فيها الصناع يصنعون الثياب النفيسة وآلات الحرب اخبرني الامير قرطي ان عددهم ألف وستمائة معلم كل واحد منهم يتبعه الثلاثة والاربعة من المتعلمين وهم اجمعون عبيد القان وفي ارجلهم القيود ومساكنهم خارج القصر ويباح لهم الخروج الى اسواق المدينة دون الخروج على بابها ويعرضون كل يوم على الامير مائة مائة فان نقص احدهم طلب به اميره وعادتهم انه اذا خدم أحدهم عشر سنين فك عنه قيده وكان يخير في النظرين اما ان يقيم في الخدمة غير مقيد واما ان يسير حيث شاء من بلاد القان ولا يخرج عنها واذا بلغ سنه خمسين عاما أعتق من الاشغال وانفق عليه وكذلك ينفق على من بلغ هذه السن أو نحوها من سواهم ومن بلغ ستين سنة عدوه كالصبي فلم تجر عليه الاحكام والشيوخ بالصين يعظمون تعظيما كثيرا ويسمي احدهم آطا ومعناه الوالد

— ذكر الامير الكبير قرطي —

وضبط اسمه (بضم القاف وسكون الراء وفتح الطاء المهمل وسكون الياء) وهو أمير أمراء الصين اضافنا بداره وصنع الدعوة ويسمونها الطوي (بضم الطاء المهمل وفتح الواو) وحضرها كبار المدينة وأتي بالطباخين المسلمين فذبحوا وطبخوا الطعام وكان هذا الامير على عظمته ينا ولنا الطعام بيده ويقطع اللحم بيده وأقمنا في ضيافته ثلاثة أيام وبعث ولده معنا الى الخليج فركبنا في سفينة تشبه الحراقة وركب ابن الامير في أخري ومعه أهل الطرب واهل الموسيقى وكانوا يغنون بالصيني وبالعربي وبالفارسي وكان ابن الامير معجبا بالغناء الفارسي فغنوا شعرا منه وأمرهم بتكريره مرارا حتى حفظته من أفواههم وله تلحين عجيب وهو (رجز)

تادل بمحنت داديم * در بحر فكرا فتاديم

جن (جون) در نماز استاديم * قوى بمحراب اندرى (اندريم

واجتمعت بذلك الخليج من السفن طائفة كبيرة لهم القلاع الملونة ومظلات الحرير وسفنهم منقوشة أبدع نقش وجعلوا يتحاملون ويترامون بالنارنج والليمون وعدنا بالعشى الى دار الامير فبتنا بها وحضر أهل الطرب فغنوا بانواع من الغناء العجيب — حكاية المشعوذ — وفى تلك الليلة حضر أحد المشعوذة وهو من عبيد القان فقال له الامير أرنا من عجائبك فاخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال فرمى بها الى الهواء فارتفعت حتى غابت عن الابصار ونحن فى وسط المشور أيام الحر الشديد فلما لم يبق من السير فى يده الا يسير أمر متعلما له فتعلق به وصعد فى الهواء الى ان غاب عن ابصارنا فدعاه فلم يجبه ثلاثا فاخذ سكينا بيده كالمغتاظ وتعلق بالسير الى ان غاب أيضا ثم رمى بيد الصبي الى الارض ثم رمى برجله ثم بيده الاخري ثم برجله الاخرى ثم بجسده ثم برأسه ثم هبط وهو ينفخ وثيابه ملطخة بالدم فقبل الارض بين يدى الامير وكلمه بالصيني وأمر له الامير بشيء ثم انه أخذ أعضاء الصبي فالصق بعضها ببعض وركضه برجله فقام سويا فعجبت منه وأصابني خفقان القلب كمثل ما كان أصابني عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك فسقونى دواء أذهب عني ماوجدت وكان القاضى أفخر الدين الى جانبي فقال لى والله ما كان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو وانما ذلك شعوذة وفى غد تلك الليلة دخلنا من باب المدينة الخامسة وهى من أكبر المدن يسكنها عامة الناس وأسواقها حسان وبها الحذاق بالصنائع وبها تصنع الثياب الخنساوية ومن عجيب ما يصنعون بها أطباق يسمونها الدست وهي من القصب وقد الصقت قطعه أبدع الصاق ودهنت بصبغ أحمر مشرق وتكون هذه الاطباق عشرة واحدا فى جوف آخر لطورفتها تظهر لرائيها كأنها طبق واحد ويصنعون غطاء يغطي جميعها ويصنعون من هذا القصب صحافا ومن عجائبها ان تقع من العلو فلا تنكسر ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغير صباغها ولا يحول وتجلب من هنالك الى الهند وخراسان وسواها ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلة فى ضيافة أميرها وبالغد دخلنا من باب يسمى كشتي وانان الى المدينة السادسة ويسكنها البحرية والصيادون والجلافطة والنجارون ويدعون دودكاران (درودكران) والأصباهية وهم الرماة والبيادة وهم الرجالة وجميعهم عبيد السلطان ولا يسكن معهم سواهم وعددهم كثير وهذه المدينة على ساحل النهر الاعظم بتنا بها ليلة فى ضيافة أميرها وجهز لنا الامير قرطى مركبا بما يحتاج اليه من زاد وسواه وبعث معنا أصحابه برسم التضييف وسافرنا من هذه المدينة وهي آخر أعمال الصين ودخلنا الى بلاد الخطا (بكسر الخاء المعجم وطاء مهمل) وهي أحسن بلاد الدنيا عمارة ولا يكون فى جميعها موضع غير معمور فانه ان بقى موضع غير معمور طلب

أهله أو من يواليهم بخراجه والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانبي هذا النهر من مدينة الخنسا الى مدينة خان بالق وذلك مسيرة أربعة وستين يوما وليس بها أحد من المسلمين الا من كان حاضرا غير مقيم لانها ليست بدار مقام وليس بها مدينة مجتمعة انما هي قرى وبسائط فيها الزرع والفواكه والسكر ولم أرفي الدنيا مثلها غير مسيرة أربعة ايام من الانبار الى عانة وكنا كل ليلة ننزل بالقري لاجل الضيافة حتي وصلنا الى مدينة خان بالق (وضبط اسمها بخاء معجم وألف ونون مسكن وباء معقود وألف ولام مكسور وقاف) وتسمي أيضا خانقو (بخاء معجم ونون مكسور وقاف وواو) وهي حضرة القان والقان هو سلطانهم الاعظم الذى مملكته بلاد الصين والخطا ولما وصلنا اليها أرسينا على عشرة أميال منها على العادة عندهم وكتب الى أمراء البحر بخبرنا فاذنوا لنا في دخول مرساها فدخلناه ثم نزلنا الى المدينة وهى من اعظم مدن الدنيا وليست على ترتيب بلاد الصين فى كون البساتين داخلها انما هى كسائر البلاد والبساتين بخارجها ومدينة السلطان فى وسطها كالقصبة حسبما نذكره ونزلت عند الشيخ برهان الدين الصاغرجي وهو الذى بعث اليه ملك الهند باربعين ألف دينار واستدعاه فاخذ الدنانير وقضى بها دينه وأبي ان يسير اليه وقدم على بلاد الصين فقدمه القان على جميع المسلمين الذين ببلاده وخاطبه بصدر الجهان

— ذكر سلطان الصين والخطا الملقب بالقان —

والقان عندهم سمة لكل من يلى الملك ملك الاقطار كمثل ما يسمي كل من ملك بلاد اللور باتابك واسمه باشاى (بفتح الباء المعقودة والشين المعجمة وسكون الياء) وليس للكفار على وجه الارض مملكة أعظم من مملكته

— ذكر قصره —

وقصره فى وسط المدينة المختصة بسكناه وأكثر عمارته بالخشب المنقوش وله ترتيب عجيب وعليه سبعة أبواب فالباب الاول منها يجلس به الكتوال وهو أمير البوابين وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب ويساره فيها المماليك البرددارية وهم حفاظ باب القصر وعددهم خمسمائة رجل وأخبرت انهم كانوا فيما تقدم ألف رجل والباب الثانى يجلس عليه الاصباهية وهم الرماة وعددهم خمسمائة والباب الثالث يجلس عليه النزارية (بالنون والزاي) وهم أصحاب الرماح وعددهم خمسمائة والباب الرابع يجلس عليه التغدارية (بالتاء المثناة والغين المعجم) وهم أصحاب السيوف والترسة والباب الخامس فيه ديوان الوزارة وبه سقائف كثيرة فالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة ويسمون ذلك الموضع المسند وبين يدى الوزير دواة عظيمة من الذهب وتقابل هذه السقيفة سقيفة كاتب السر وعن

يمينها سقيفة كتاب الرسائل وعن يمين سقيفة الوزير سقيفة كتاب الاشغال وتقابل هذه السقائف سقائف أربع احداها تسمي ديوان الاشراف يقعد بها المشرف والثانية سقيفة ديوان المستخرج وأميرها من كبار الامراء والمستخرج هو ما يبقى قبل العمال وقبل الامراء من إقطاعاتهم والثالثة ديوان الغوث ويجلس فيها أحد الامراء الكبار ومعه الفقهاء والكتاب فمن لحقه مظلمة استغاث بهم والرابعة ديوان البريد يجلس فيها أمير الاخباريين والباب السادس من أبواب القصر يجلس عليه الجندارية وأميرهم الاعظم والباب السابع يجلس عليه الفتيان ولهم ثلاثة سقائف احداها سقيفة الحبشان منهم والثانية سقيفة الهنود والثالثة سقيفة الصينيين ولكل طائفة منهم أمير من الصينيين

ذكر خروج القان لقتال ابن عمه وقتله

ولما وصلنا حضرة خان باليق وجدنا القان غائبا عنها اذذاك وخرج للقاء ابن عمه فيروز القائم عليه بناحية قراقرم وبش باليغ من بلاد الخطا وبينها وبين الحضرة مسيرة ثلاثة أشهر عامرة واخبرني صدر الجهان برهان الدين الصاغرجي ان القان لما جمع الجيوش وحشد الحشود اجتمع عليه من الفرسان مائة فوج كل فوج منها من عشرة آلاف فارس وأميرهم يسمى امير طومان وكان خواص السلطان واهل دخلته خمسين ألفا زائدا الى ذلك وكانت الرجالة خمسمائة الف ولما خرج خالف عليه اكثر الامراء واتفقوا على خلعه لانه كان قد غير احكام اليساق وهي الاحكام التي وضعها تنكيز خان جدهم الذى خرب بلاد الاسلام فمضوا الى ابن عمه القائم وكتبوا الى القان ان يخلع نفسه وتكون مدينة الخنساء اقطاعا له فابى ذلك وقاتلهم فانهزم وقتل وبعد ايام من وصولنا الى حضرته ورد الخبر بذلك فزينت المدينة وضربت الطبول والابواق والانفار واستعمل اللعب والطرب مدة شهر ثم جيء بالقان المقتول وبنحو مائة من المقتولين بني عمه واقاربه وخواصه فحفر للقان ناووس عظيم وهو بيت تحت الارض وفرش باحسن الفرش وجعل فيه القان بسلاحه وجعل معه ما كان فى داره من اوانى الذهب والفضة وجعل معه اربع من الجوارى وستة من خواص المماليك معهم اوانى الشراب وبني باب البيت وجعل فوقه التراب حتى صار كالتل العظيم ثم جاؤا باربعة افراس فاجروها عند قبره حتي وقفت ونصبوا خشبا على القبر وعلقوها عليه بعد ان ادخلوا فى دبر كل فرس خشبة حتى خرجت من فمه وجعل اقارب القان المذكورون فى نواويس ومعهم سلاحهم واوانى دورهم وصلبوا على قبور كبارهم وكانوا عشرة ثلاثة من الخيل على كل قبر وعلى قبور الباقين فرسا فرسا وكان هذا اليوم يوما مشهودا لم يتخلف عنه احد من الرجال ولا

النساء المسلمين والكفار وقد لبسوا أجمعون ثياب العزاء وهي الطيالسة البيض للكفار والثياب البيض المسلمين وأقام خواتين القان وخواصه في الاخبية على قبره أربعين يوما وبعضهم يزيد على ذلك الى سنة وصنعت هنالك سوق يباع فيه ما يحتاجون اليه من طعام وسواه وهذه الافعال لا أذكر ان أمة تفعلها سواهم في هذا القصر فاما الكفار من الهنود وأهل الصين فيحرقون موتاهم وسواهم من الامم يدفنون الميت ولا يجعلون معه أحدا لكن أخبرني الثقات ببلاد السودان ان الكفار منهم اذا مات ملكهم صنعوا له ناووسا وادخلوا معه بعض خواصه وخدامه وثلاثين من أبناء كبارهم وبناتهم بعد أن يكسروا أيديهم وأرجلهم ويجعلون معهم أواني الشراب وأخبرني بعض كبار مسوفة ممن يسكن بلاد كوبرمع السودان واختصه سلطانهم انه كان له ولد فلما مات سلطانهم أرادوا أن يدخلوا ولده مع من أدخلوه من أولادهم قال فقلت لهم كيف تفعلون ذلك وليس على دينكم ولا من ولدكم وفديته منهم بمال عريض ولما قتل القان كما ذكرناه واستولى ابن عمه فيروز على الملك اختار ان تكون حضرته مدينة قراقرم (وضبطها بفتح القاف الاولى والراء وضم الثانية وضم الراء الثانيه) لقربها من بلاد بني عمه ملوك تركستان وماوراء النهر ثم خالفت عليه الامراء ممن لم يحضر لقتل القان وقطعوا الطرق وعظمت الفتن

ذكر رجوعي الى الصين ثم الى الهند

ولما وقع الخلاف وتسعرت الفتن أشار على الشيخ برهان الدين وسواه ان أعود الى الصين قبل تمكن الفتن ووقفوا معي الى نائب السلطان فيروز فبعث معي ثلاثة من أصحابه وكتب لي بالضيافة وسرنا منحدرين في النهر الى الخنساء ثم الى قنجنفو ثم الى الزيتون فلما وصلتها وجدت الجنوك على السفر الى الهند وفي جملتها جنك للملك الظاهر صاحب الجاوة أهله مسلمون وعرفني وكيله وسر بقدومي وصادفنا الريح الطيبة عشرة أيام فلما قاربنا بلاد طوالسي تغيرت الريح وأظلم الجو وكثر المطر وأقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس ثم دخلنا بحرا لا نعرفه وخاف أهل الجنك فارادوا الرجوع الى الصين فلم يتمكن ذلك وأقمنا اثنين وأربعين يوما لا نعرف في أي البحار نحن

ذكر الرخ

ولما كان في اليوم الثالث والاربعين ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل في البحر بيننا وبينه نحو عشرين ميلا والريح تحملنا الى صوبه فعجب البحرية وقالوا لسنا بقرب من البر ولا يعهد في البحر جبل وان اضطرتنا الريح اليه هلكنا فلجأ الناس الى التضرع والاخلاص وجددوا التوبة وابتهلنا الى الله بالدعاء وتوسلنا بنبيه صلى الله عليه وسلم ونذر التجار التصدقات

الكثيرة وكتبتها لهم فى زمام بخطى وسكنت الريح بعض سكون ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر فعجبنا من ذلك ورأيت البحرية يبكون ويودع بعضهم بعضا فقلت ماشأنكم فقالوا ان الذى تخيلناه جبلا هو الرخ وان رآنا أهلكنا وبيننا إذ ذاك وبينه اقل من عشرة اميال ثم ان الله تعالى من علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا الى الجاوة ونزلنا الى سمطرة فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قد قدم من غزاة له وجاء بسبي كثير فبعث لى جاريتين وغلامين وانزلني على العادة وحضرت اعراس ولده مع بنت اخيه

—— ذكر اعراس ولد الملك الظاهر ——

وشاهدت يوم الجلوة فرأيتهم قد نصبوا فى وسط المشور منبرا كبيرا وكسوه بثياب الحرير وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه ومعها نحو أربعين من الخواتين يرفعن اذيالها من نساء السلطان وأمرائه ووزرائه وكلهن باديات الوجوه ينظر اليهن كل من حضر من رفيع أو وضيع وليست تلك بعادة لهن الا فى الاعراس خاصة وصعدت العروس المنبر وبين يديها أهل الطرب رجالا ونساء يلعبون ويغنون ثم جاء الزوج على فيل مزين على ظهره سرير وفوقه قبة شبيه البوجة والتاج علي رأس العروس المذكور عن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك وامراء قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزينة وعلى رؤوسهم الشواشي المرصعة وهم أتراب العروس ليس فيهم ذو لحية ونثرت الدنانير والدراهم على الناس عند دخوله وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك ونزل ابنه فقبل رجله وصعد المنبر الى العروس فقامت اليه وقبلت يده وجلس الى جانبها والخواتين يروحن عليها وجاؤا بالفوفل والتنبول فاخذه الزوج بيده وجعل منه فى فمها ثم اخذت هى بيديها وجعلت فى فمه ثم اخذ الزوج بفمه ورقة تنبول وجعلها فى فمها وذلك كله على اعين الناس ثم فعلت هي كفعله ثم وضع عليها الستر ورفع المنبر وهما فيه الى داخل القصر وأكل الناس وانصرفوا ثم لما كان من الغد جمع الناس وأجرى له أبوه ولاية العهد وبايعه الناس وأعطاهم العطاء الجزل من الثياب والذهب وأقمت بهذه الجزيرة شهرين ثم ركبت فى بعض الجنوك وأعطاني السلطان كثيرا من العود والكافور والقرنفل والصندل وردنى وسافرت عنه فوصلت بعد اربعين يوما الى كولم فنزلت بها فى جوار القزويني قاضى المسلمين وذلك فى رمضان وحضرت بها صلاة العيد فى مسجدها الجامع وعادتهم أن يأتوا المسجد ليلا فلا يزالون يذكرون الله الى الصبح ثم يذكرون الى حين صلاة العيد ثم يصلون ويخطب الخطيب وينصرفون ثم سافرنا من كولم الى

قالقوط واقمنا بها أياما وأردت العودة الى دهلى ثم خفت من ذلك فركبت البحر فوصلت بعد ثمان وعشرين ليلة الى ظفار وذلك فى محرم سنة ثمان وأربعين ونزلت بدار خطيبها عيسى بن طاطا

— ذكر سلطانها —

ووجدت سلطانها فى هذه الكرة الملك الناصر ابن الملك المغيث الذى كان ملكا بها حين وصولى اليها فيما تقدم ونائبه سيف الدين عمر أمير جندر التركى الاصل وانزلني هذا السلطان واكرمنى ثم ركبت البحر فوصلت الى مسقط (بفتح الميم) وهي بلدة صغيرة بها السمك الكثير المعروف بقلب الماس ثم سافرنا الى مرسى القريات (وضبطها بضم القاف وفتح الراء والياء آخر الحروف والف وتاء مثناة) ثم سافرنا الى مرسي شبة (وضبط اسمها بفتح الشين المعجم وفتح الباء الموحدة وتشديدها) ثم الى مرسى كلبة ولفظها على لفظ مؤنثة الكلب ثم الى قلهات وقد تقدم ذكرها وهذه البلاد كلها من عمالة هرمز وهي محسوبة من بلاد عمان ثم سافرنا الى هرمز واقمنا بها ثلاثا وسافرنا فى البر الى كورستان ثم الى اللار ثم الى خنج بال وقد تقدم ذكر جميعها ثم سافرنا الى كارزى (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الراء وكسر الزاى) وأقمنا بها ثلاثا ثم سافرنا الي جمكان (وضبط اسمها بفتح الجيم والميم والكاف وآخره نون) ثم سافرنا منها الى ميمن (وضبط اسمها بفتح الميمين وبينها ياء آخر الحروف مسكنه واخره نون) ثم سافرنا الى بسا (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة والسين المهمل مع تشديدها) ثم الى مدينة شيراز فوجدنا سلطانها أبا اسحاق على ملكه الا أنه كان غائبا عنها ولقيت بها شيخنا الصالح العالم مجد الدين قاضي القضاة وهو قد كف بصره نفعه الله ونفع به ثم سافرت الى ماين ثم الى يزدخاص ثم الى كايل ثم الي كشك زر ثم الى اصبهان ثم الى تستر ثم الى الحويزا ثم الى البصرة وقد تقدم ذكر جميعها وزرت بالبصرة القبور الكريمة التي بها وهى قبر الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وحليمة السعدية وابى بكرة وأنس بن مالك والحسن البصري وثابت البناني ومحمد بن سيرين ومالك بن دينار ومحمد بن واسع وحبيب العجمي وسهل بن عبد الله التسترى رضى الله تعالى عنهم أجمعين ثم سافرنا من البصرة فوصلنا الى مشهد على بن أبى طالب رضى الله عنه وزرناه ثم توجهنا الى الكوفة فزرنا مسجدها المبارك ثم الى الحلة حيث مشهد صاحب الزمان واتفق فى بعض تلك الايام ان ولیها بعض الامراء فمنع أهلها من التوجه على عادتهم الى مسجد صاحب الزمان وانتظاره هنالك ومنع عنهم الدابة التي كانوا يأخذونها كل ليلة من الامير فاصابت ذلك الوالى علة مات منها سريعا فزاد ذلك فى فتنة الرافضة وقالوا انما أصابه ذلك لاجل منعه الدابة فلم تمنع بعد ثم سافرت الى صرصر ثم الى مدينة بغداد

وصلتها في شوال سنة ثمان واربعين و لقيت بها بعض المغاربة فعرفني بكائنة طريف واستيلاء الروم على الخضراء جبر الله صدع الاسلام في ذلك

ذكر سلطانها

وكان سلطان بغداد والعراق في عهد دخولي اليها في التاريخ المذكور الشيخ حسن ابن عمة السلطان أبي سعيد رحمه الله ولما مات ابو سعيد استولى على ملكه بالعراق وتزوج زوجته دلشاد بنت دمشق خواجة ابن الامير الجوبان حسبما كان فعله السلطان ابو سعيد من تزوج زوجة الشيخ حسن وكان السلطان حسن غائبا عن بغداد في هذه المدة متوجها لقتال السلطان أتابك افراسياب صاحب بلاد اللور ثم رحلت من بغداد فوصلت الى مدينة الانبار ثم الى هيت ثم الى الحديثة ثم الى عانة وهذه البلاد من أحسن البلاد وأخصبها والطريق فيما بينها كثير العمارة كان الماشي في سوق من الاسواق وقد ذكرنا انا لم نر ما يشبه البلاد التي على نهر الصين الا هذه البلاد ثم وصلت الى مدينة الرحبة وهي التي تنسب الى مالك بن طوق ومدينة الرحبة أحسن بلاد العراق وأول بلاد الشام ثم سافرنا منها الى السخنة وهي بلدة حسنة اكثر سكانها الكفار من النصارى وانما سميت السخنة لحرارة مائها وفيها بيوت للرجال وبيوت للنساء يستحمون فيها ويستقون الماء ليلا ويجعلونه في السطوح ليبرد ثم سافرنا الى تدمر مدينة نبي الله سليمان عليه السلام التي بنتها له الجن كما قال النابغة (بسيط) * يبنون تدمر بالصفاح والعمد ثم سافرنا منها الى مدينة دمشق الشام وكانت مدة مغيبي عنها عشرين سنة كاملة وكنت تركت بها زوجة لي حاملا وتعرفت وأنا ببلاد الهند انها ولدت ولدا ذكرا فبعثت حينئذ الى جده للام وكان من أهل مكناسة المغرب أربعين دينارا ذهبا هنديا فحين وصولي الى دمشق في هذه الكرة لم يكن لي هم الا السؤال عن ولدي فدخلت المسجد فوفق لي نور الدين السخاوي امام المالكية وكبيرهم فسلمت عليه فلم يعرفني فعرفته بنفسي وسالته عن الولد فقال مات منذ ثنتي عشرة سنة واخبرني ان فقيها من أهل طنجة يسكن بالمدرسة الظاهرية فسرت اليه لاساله عن والدي وأهلي فوجدته شيخا كبيرا فسلمت عليه وانتسبت له فاخبرني ان والدي توفي منذ خمس عشرة سنة وان الوالدة بقيد الحياة وأقمت بدمشق الشام بقية السنة والغلاء شديد والخبز قد انتهى الى قيمة سبع اواقي بدرهم نقرة واوقيتهم اربع أواقي مغربية وكان قاضي قضاة المالكية اذ ذاك جمال الدين المسلاتي وكان من اصحاب الشيخ علاء الدين القونوي وقدم معه دمشق فعرف بها ثم ولي القضاء وقاضي قضاة الشافعية تقي الدين بن السبكي وامير دمشق ملك الامراء ارغون شاه

حكاية

ومات في تلك الايام بعض كبراء دمشق واوصى بمال للمساكين فكان المتولي لانفاذ الوصية

يشترى الخبز ويفرقه عليهم كل يوم بعد العصر فاجتمعوا فى بعض الليالى وتزاحموا واختطفوا الخبز الذي يفرق عليهم ومدوا ايديهم الى خبز الخبازين وبلغ ذلك الامير أرغون شاه فاخرج زبانيته فكانوا حيث مالقوا أحدا من المساكين قالوا له تعال تاخذ الخبز فاجتمع منهم عدد كثير فحبستهم تلك الليلة وركب من الغدو أحضرهم تحت القلعة وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وكان أكثرهم برآء عن ذلك وأخرج طائفة الحرافيش عن دمشق فانتقلوا الى حمص وحماه وحلب وذكرلى انه لم يعش بعد ذلك الاقليلا وقتل ثم سافرت من دمشق الى حمص ثم حماة ثم المعرة ثم سرمين ثم الى حلب وكان أمير حلب فى هذا العهد الحاج رغطى (بضم الراء وسكون الغين المعجم وفتح الطاء المهمل وياء آخر الحروف مسكنة)

﴿ حكاية ﴾ واتفق فى تلك الايام ان فقيرا يعرف بشيخ المشايخ وهو ساكن فى جبل خارج مدينة عنتاب والناس يقصدونه ويتبركون به وله تلميذ ملازم له وكان متجردا عزبا لا زوجة له قال فى بعض كلامه ان النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يصبر عن النساء وأنا أصبر عنهن فشهد عليه بذلك وثبت عند القاضى ورفع امره الى ملك الامراء وأتي به وبتلميذه الموافق له على قوله فافتى القضاة الاربعة وهم شهاب الدين المالكي وناصر الدين العديم الحنفى وتقى الدين ابن الصائغ الشافعى وعز الدين الدمشقي الحنبلى بقتلهما معا فقتلا وفى أوائل شهر ربيع الاول عام تسعة وأربعين بلغني الخبر فى حلب ان الوباء وقع بغزة وانه انتهى عدد الموتى فيها الى زائد على الالف فى يوم واحد فسافرت الى حمص فوجدت الوباء قد وقع بها ومات يوم دخولى اليها نحو ثلثمائة انسان ثم سافرت الى دمشق ووصلتها يوم الخميس وكان أهلها قد صاموا ثلاثة أيام وخرجوا يوم الجمعة الى مسجد الاقدام حسبما ذكرناه فى السفر الاول فخفف الله الوباء عنهم فانتهى عدد الموتي عندهم الى ألفين واربعمائة في اليوم ثم سافرت الى عجلون ثم الى بيت المقدس ووجدت الوباء قد ارتفع عنه ولقيت خطيبه عز الدين بن جماعة ابن عم عز الدين قاضى القضاة بمصر وهو من الفضلاء الكرماء ومرتبه على الخطابة ألف درهم فى الشهر

— حكاية —

وصنع الخطيب عز الدين يوما دعوة ودعانى فيمن دعاه اليها فسالته عن سببها فاخبرني انه نذر أيام الوباء انه ان ارتفع ذلك ومر عليه يوم لا يصلى فيه على ميت صنع الدعوة ثم قال لى ولما كان بالامس لم اصل على ميت فصنعت الدعوة التي نذرت ووجدت من كنت اعهده من جميع الاشياخ بالقدس قد انتقلوا الى جوار الله تعالى رحمهم الله فلم يبق منهم الا القليل مثل المحدث العالم الامام صلاح الدين خليل بن كيكلدى العلائي ومثل الصالح شرف الدين الخشى شيخ

زاوية المسجد الاقصى ولقيت الشيخ سليمان الشيرازى فاضا فى ولم الق باشام ومصر من وصل الى قدم آدم عليه السلام سواه ثم سافرت عن القدس ورافقني الواعظ المحدث شرف الدين سليمان المليانى وشيخ المغاربة بالقدس الصوفى الفاضل طلحة العبدالوادى فوصلنا الى مدينة الخليل عليه السلام وزرناه ومن معه من الانبياء عليهم السلام ثم سرنا الى غزة فوجدنا معظمها خاليا من كثرة من مات بها فى الوباء وأخبرنا قاضيها ان العدول بها كانوا ثمانين فبقي منهم الربع وان عدد الموتى بها انتهي الى الف ومائة فى اليوم ثم سافرنا فى البر فوصلت الى دمياط ولقيت بها قطب الدين النفشوانى وهو صائم الدهر ورافقني منها الى فارسكور وسمنود ثم الى أبي صير (بكسر الصاد المهمل وياء وراء) ونزلنا فى زاوية لبعض المصريين بها ﴿ حكاية ﴾ وبينما نحن بتلك الزاوية اذ دخل علينا أحد الفقراء فسلم وعرضنا عليه الطعام فابى وقال انما قصدت زيارتكم ولم يزل ليلته تلك ساجدا وراكعا ثم صلينا الصبح واشتغلنا بالذكر والفقير بركن الزاوية فجاء الشيخ بالطعام ودعاه فلم يجبه فمضى اليه فوجده ميتا فصلينا عليه ودفناه رحمة الله عليه ثم سافرت الى المحلة الكبيرة ثم إلى نحرارية ثم الى ابيار ثم الى دمنهور ثم الى الاسكندرية فوجدت الوباء قد خف بها بعد ان بلغ عدد الموتى الى الف وثمانين فى اليوم ثم سافرت الى القاهرة وبلغني ان عدد الموتى ايام الوباء انتهي فيها الى أحد وعشرين الفا فى اليوم ووجدت جميع من كان بها من المشايخ الذين أعرفهم قد ماتوا رحمهم الله تعالى

— ذكر سلطانها —

وكان ملك ديار مصر فى هذا العهد الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون وبعد ذلك خلع عن الملك وولى أخوه الملك الصالح ولما وصلت القاهرة وجدت قاضي القضاة عز الدين ابن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة قد توجه الى مكة فى ركب عظيم يسمونه الرجبي لسفرهم فى شهر رجب واخبرت ان الوباء لم يزل معهم حتى وصلوا عقبة أيلة فارتفع عنهم ثم سافرت من القاهرة الى بلاد الصعيد وقد تقدم ذكرها الى عيذاب وركبت منها البحر فوصلت الى جدة ثم سافرت منها الى مكة شرفها الله تعالى وكرمها فوصلتها فى الثانى والعشرين لشعبان سنة تسع واربعين ونزلت فى جوار امام المالكية الصالح الولى الفاضل أبي عبدالله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل فصمت شهر رمضان بمكة وكنت أعتمر كل يوم على مذهب الشافعي ولقيت ممن اعهده من اشياخها شهاب الدين الحنفى وشهاب الدين الطبرى وابا محمد اليافعي ونجم الدين الاصفوني والحرازى وحججت فى تلك السنة ثم سافرت مع الركب الشامى الى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزرت

قبره المكرم المطيب زاده الله طيبا وتشريفا وصليت في المسجد الكريم طهره الله وزاده تعظيما وزرت من بالبقيع من اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم ولقيت من الاشياخ أبا محمد بن فرحون ثم سافرنا من المدينة الشريفة الى العلا وتبوك ثم الى بيت المقدس ثم الى مدينة الخليل صلى الله عليه وسلم ثم الى غزة ثم الى منازل الرمل وقد تقدم ذكر ذلك كله ثم الى القاهرة وهنالك تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين أباعنان أيده الله تعالى قد ضم الله به نشر الدولة المرينية وشفى ببركته بعد اشفائها البلاد المغربية وأفاض الاحسان على الخاص والعام وغمر جميع الناس بسابغ الانعام فتشوفت النفوس الى المثول ببابه وأملت لثم ركابه فعند ذلك قصدت القدوم على حضرته العلية مع ماشقني من تذكار الاوطان والحنين الى الاهل والخلان والمحبة الى بلادى التي لها الفضل عندى على البلدان بلاد بها نيطت على تمائمي * وأول أرض مس جلدي ترابها

فركبت البحر في قرقورة لبعض التونسيين صغيرة وذلك في صفر سنة خمسين وسرت حتي نزلت بجربة وسافر المركب المذكور الى تونس فاستولى العدو عليه ثم سافرت في مركب صغير الى قابس فنزلت في ضيافة الاخوين الفاضلين أبي مروان وأبي العباس ابنى مكى أميرى جربة وقابس وحضرت عندهما مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ركبت في مركب الى سفاقس ثم توجهت في البحر الى بليانة ومنها سرت في البر مع العرب فوصلت بعد مشقات الي مدينة تونس والعرب محاصرون لها

— ذكر سلطانها —

وكانت تونس في ايالة مولانا أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين علم الاعلام وأوحد الملوك الكرام أسد الآساد وجواد الاجواد القانت الاواب الخاشع العادل أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ناصر دين الاسلام الذى سارت الامثال بجوده وشاع في الاقطار أثر كرمه وفضله ذى المناقب والمفاخر والفضائل والمآثر الملك العادل الفاضل أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين قاهر الكفار ومبيدها ومبدى آثار الجهاد ومعيدها ناصر الايمان الشديد السطوة في ذات الرحمان . العابد الزاهد الراكع الساجد الخاشع الصالح أبي يوسف ابن عبد الحق رضى الله عنهم أجمعين وأبقي الملك في عقبهم الى يوم الدين ولما وصلت تونس قصدت الحاج أبا الحسن النامسى لما بيني وبينه من مودات القرابة والبلدية فانزلني بداره وتوجه معى الى المشور فدخلت المشور الكريم وقبلت يد مولانا أبي الحسن رضى الله عنه

وأمرني بالقعود فقعدت وسالني عن الحجاز الشريف وسلطان مصر فاجبته وسالني عن ابن تيفراجين فاخبرته بما فعلت المغاربة معه وإرادتهم قتله بالاسكندرية وما لقي من اذايتهم انتصارا منهم لمولانا أبي الحسن رضي الله عنه وكان في مجلسه من الفقهاء الامام أبو عبدالله السطي والامام أبو عبد الله محمد بن الصباغ ومن اهل تونس قاضيها أبو علي عمر بن عبد الرفيع وابو عبدالله بن هارون وانصرفت عن المجلس الكريم فلما كان بعد العصر استدعاني مولانا ابو الحسن وهو ببرج يشرف علي موضع القتال ومعه الشيوخ الجلة أبو عمر وعثمان بن عبدالواحد التنالفتي وابو حسون زيان بن أمريون العلوي وابو زكرياء يحيي بن سليمان العسكري والحاج ابو الحسن النامیسی فسالني عن ملك الهند فاجبته عما سال ولم أزل اترددالى مجلسه الكريم ايام اقامتي بتونس وكانت ستة وثلاثين يوما ولقيت بتونس اذذاك الشيخ الامام خاتمة العلماء وكبيرهم ابا عبدالله الابلي وكان في فراش المرض وباحثني عن كثير من امور رحلتي ثم سافرت من تونس في البحر مع القطلانيين فوصلنا الى جزيرة سردانية من جزر الروم ولها مرسى عجيب عليه خشب كبار دائرة به وله مدخل كانه باب لا يفتح الا باذن منهم وفيها حصون دخلنا أحدها وبه اسواق كثيرة ونذرت لله تعالى ان خلصنا الله منها صوم شهرين متتابعين لاننا تعرفنا ان اهلها عازمون على اتباعنا اذا خرجنا عنها ليأسرونا ثم خرجنا عنها فوصلنا بعد عشر الى مدينة تنس ثم الى مازونة ثم الى مستغانم ثم الى تلمسان فقصدت العباد وزرت الشيخ ابامدين رضي الله عنه ونفع به ثم خرجت عنها علي طريق مدرومة وسلكت طريق اخندقان وبت بزاوية الشيخ أبراهيم ثم سافرنا منها فبينما نحن بقرب ازغنغان اذ خرج علينا خمسون راجلا وفارسان وكان معي الحاج ابن قريعات الطنجي واخوه محمد المستشهد بعد ذلك في البحر فعزمنا على قتالهم ورفعنا علما ثم سالمونا وسالمناهم والحمد لله ووصلت الى مدينة تازي وبها تعرفت خبرموت والدتي بالوباء رحمها الله تعالى ثم سافرت عن تازي فوصلت يوم الجمعة في اواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة الى حضرة فاس فمثلت بين يدي مولانا الاعظم. الامام الاكرم. أمير المؤمنين. المتوكل علي رب العالمين. ابي عنان وصل الله علوه. وكبت عدوه. فانستني هيبته هيبة سلطان العراق وحسنه حسن ملك الهند وحسن اخلاقه حسن خلق ملك اليمن وشجاعته شجاعة ملك الترك وحلمه حلم ملك الروم وديانته ديانة ملك تركستان وعلمه علم ملك الجاوة وكان بين يديه وزيره الفاضل ذو المكارم الشهيرة والمآثر الكثيرة ابو زيان ابن ودرار فسالني عن الديار المصرية اذ كان قد وصل اليها فاجبته عما سال وغمرني من احسان مولانا ايده الله تعالى بما

أعجزني شكره والله ولي مكافاته وألقيت عصى التسيار ببلاده الشريفة بعد أن تحققت بفضل الانصاف انها أحسن البلدان لان الفواكه بها متيسرة والمياه والاقوات غير متعذرة وقل إقليم يجمع ذلك ولقد احسن من قال (مجتث)

الغرب أحسن ارض * ولى دليل عليه
البدر يرقب منه * والشمس تسعى اليه

ودراهم الغرب صغيرة وفوائدها كثيرة واذا تاملت أسعاره مع اسعار ديار مصر والشام ظهر لك الحق في ذلك ولاح فضل بلاد المغرب فاقول ان لحوم الاغنام بديار مصر تباع بحساب ثمان عشرة أوقية بدرهم نقرة والدرهم النقرة ستة دراهم من دراهم المغرب وبالمغرب يباع اللحم اذا غلا سعره ثمان عشرة أوقية بدرهمين وهما ثلث النقرة وأما السمن فلا يوجد بمصر في أكثر الاوقات والذى يستعمله أهل مصر من انواع الادام لا يلتفت اليه بالمغرب ولان أكثر ذلك العدس والحمص يطبخونه في قدور راسيات ويجعلون عليه السيرج والبسلا وهو صنف من الجلبان يطبخونه ويجعلون عليه الزيت والقرع يطبخونه ويخلطونه باللبن والبقلة الحمقاء يطبخونها كذلك وأعلا أغصان اللوز يطبخونها ويجعلون عليها اللبن والقلقاس يطبخونه وهذا كله متيسر بالمغرب لكن أغنى الله عنه بكثرة اللحم والسمن والزبد والعسل وسوى ذلك وأما الخضر فهي أقل الاشياء ببلاد مصر وأما الفواكه فاكثرها مجلوبة من الشام وأما العنب فاذا كان رخيصا بيع عندهم ثلاثة ارطال من أرطالهم بدرهم نقرة ورطلهم ثنتا عشرة أوقية وأما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة الا انها ببلاد الغرب ارخص منها ثمنا فان العنب يباع بها بحساب رطل من أرطالهم بدرهم نقرة ورطلهم ثلاثة أرطال مغربية واذا رخص ثمنه بيع بحساب رطلين بدرهم نقرة والاجاص يباع بحساب عشر أواق بدرهم نقرة وأما الرمان والسفرجل فتباع الحبة منه بثمانية فلوس وهي درهم من درهم المغرب وأما الخضر فيباع بالدرهم النقرة منها أقل مما يباع في بلادنا بالدرهم الصغير وأما اللحم فيباع فيها الرطل منه من أرطالهم بدرهمين ونصف درهم نقرة فاذا تاملت ذلك كله تبين لك ان بلاد المغرب أرخص البلاد أسعارا وأكثرها خيرات وأعظمها مرافق وفوائد ولقد زاد الله بلاد المغرب شرفا الى شرفها وفضلا الى فضلها بامامة مولانا أمير المؤمنين الذى مد ظلال الامن في اقطارها وأطلع شمس العدل في أرجائها وأفاض سحاب الاحسان في باديتها وحاضرتها وطهرها من المفسدين وأقام بها رسوم الدنيا والدين وأنا أذكر ما عاينته وتحققته من عدله وحلمه وشجاعته واشتغاله بالعلم وتفقهه وصدقته الجارية ورفع المظالم

— ذكر بعض فضائل مولانا أيده الله —

أما عدله فاشهر من أن يسطر في كتاب فمن ذلك جلوسه للمشتكين من رعيته وتخصيصه يوم الجمعة للمساكين منهم وتقسيمه ذلك اليوم بين الرجال والنساء وتقديمه النساء لضعفهن فتقرأ قصصهن بعد صلاة الجمعة الى العصر ومن وصلت نوبتها نودي باسمها ووقفت بين يديه الكريمتين يكلمها دون واسطة فان كانت متظلمة عجل انصافها او طالبة احسان وقع اسعافها ثم اذا صليت العصر قرئت قصص الرجال وفعل مثل ذلك فيها ويحضر المجلس الفقهاء والقضاة فيرد اليهم ما تعلق بالاحكام الشرعية وهذا شيء لم أر في الملوك من يفعله على هذا التمام ويظهر فيه مثل هذا العدل فان ملك الهند عين بعض امرائه لاخذ القصص من الناس وتلخيصها ورفعها اليه دون حضور أربابها بين يديه وأما حلمه فقد شاهدت منه العجائب فانه أيده الله عفا عن الكثير ممن تعرض لقتال عساكره والمخالفة عليه وعن أهل الجرائم الكبار التي لا يعفو عن جرائمهم الا من وثق بربه وعلم علم اليقين معنى قوله تعالى والعافين عن الناس قال ابن جزي من أعجب ما شاهدته من حلم مولاه أيده الله اني منذ قدومي على بابه الكريم في آخر عام ثلاثة وخمسين الى هذا العهد وهو أوائل عام سبعة وخمسين لم أشاهد أحدا أمر بقتله الا من قتله الشرع في حد من حدود الله تعالى قصاص او حرابة هذا على اتساع المملكة وانفساح البلاد واختلاف الطوائف ولم يسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الاعصار ولا فيما تباعد من الاقطار وأما شجاعته فقد علم ما كان منه في المواطن الكريمة من الثبات والاقدام مثل يوم قتال بني عبد الوادي وغيرهم ولقد سمعت خبر ذلك اليوم ببلاد السودان وذكر ذلك عند سلطانهم فقال هكذا والا فلا قال ابن جزي لم يزل الملوك الاقدمون تتفاخر بقتل الآساد وهزائم الاعادي ومولانا ايده الله كان قتل الاسد عليه أهون من قتل الشاة على الاسد فانه لما خرج الاسد على الجيش بوادي النجارين من المعمورة بحوز سلا وتحامته الابطال وفرت امامه الفرسان والرجال برز اليه مولانا ايده الله غير محتفل به ولا متهيب منه فطعنه بالرمح ما بين عينيه طعنة خر بها صريعا لليدين وللفم واما هزائم الاعادي فانها اتفقت للملوك بثبوت جيوشهم وإقدام فرسانهم فيكون حظ الملوك الثبوت والتحريض على القتال وأما مولانا ايده الله فانه اقدم على عدوه منفردا بنفسه الكريمة بعد علمه بفرار الناس وتحققه انه لم يبق معه من يقاتل فعند ذلك وقع الرعب في قلوب الاعداء وانهزموا أمامه فكان من العجائب فرار الامم امام واحد وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والعاقبة للمتقين وما هو الا ثمرة ما يمتن به أعلى مقامه من التوكل على الله والتفويض اليه وأما اشتغاله بالعلم فها هو أيده الله تعالى يعقد

مجالس العلم فى كل يوم بعد صلاة الصبح ويحضر لذلك أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وفروع مذهب مالك رضى الله عنه وكتب المتصوفة وفى كل علم منها له القدح المعلى يجلو مشكلاته بنور فهمه ويلقي نكته الرائقة من حفظه وهذا شأن الائمة المهتدين والخلفاء الراشدين ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم الى هذه النهاية فقد رأيت ملك الهند يتذاكر بين يديه بعد صلاة الصبح فى العلوم المعقولات خاصة ورأيت ملك الجاوة يتذاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة فى الفروع على مذهب الشافعي خاصة وكنت أعجب من ملازمة ملك تركستان لصلاتي العشاء الآخرة والصبح فى الجماعة حتى رأيت ملازمة مولانا أيده الله فى الصلوات كلها فى الجماعة ولقيام رمضان والله يختص برحمته من يشاء قال ابن جزى لو ان عالما ليس له شغل الا بالعلم ليلا ونهارا لم يكن يصل الى أدنى مراتب مولانا أيده الله فى العلوم مع اشتغاله بأمور الامة وتدبيره لسياسة الاقاليم النائية . ومباشرته من حال ملكه مالم يباشره أحد من الملوك ونظره بنفسه فى شكايات المظلومين ومع ذلك كله فلا تقع بمجلسه الكريم مسألة علم فى أى علم كان إلا جلا مشكلها وباحث فى دقائقها واستخرج غوامضها واستدرك على علماء مجلسه مافاتهم من مغلقاتها ثم سما أيده الله الى العلم الشريف التصوفى ففهم اشارات القوم وتخلق بأخلاقهم وظهرت آثار ذلك فى تواضعه مع رفعته وشفقته على رعيته ورفقه فى أمره كله واعطي للآداب حظا جزيلا من نفسه فاستعمل أحسنها منزعا وأعظمها موقعا وصارت عنه الرسالة الكريمة والقصيدة اللتان بعثهما الى الروضة الشريفة المقدسة الطاهرة روضة سيد المرسلين وشفيع المذنبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتبهما بخط يده الذى يخجل الروض حسنا وذلك شيء لم يتعاط أحد من ملوك الزمان إنشاءه ولا رام إدراكه ومن تأمل التوقيعات الصادرة عنه أيده الله تعالى وأحاط علما بمحصولها لاح له فضل ماوهب الله لمولانا من البلاغة التي فطره عليها وجمع له بين الطبيعي والمكتسب منها وأما صدقاته الجارية وما أمر به من عمارة الزوايا بجميع بلاده لاطعام الطعام للوارد والصادر فذلك مالم يفعله أحد من الملوك غير السلطان أتابك أحمد وقد زاد عليه مولانا أيده الله بالتصدق على المساكين بالطعام كل يوم والتصدق بالزرع على المتسترين من أهل البيوت قال ابن جزى اخترع مولانا أيده الله فى الكرم والصدقات امورا لم تخطر فى الاوهام ولا اهتدت اليها السلاطين فمنها اجراء الصدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام ومنها تعيين الصدقة الوافرة للمسجونين فى جميع البلاد أيضا ومنها

كون تلك الصدقات خبزا مخبوزا متيسرا الانتفاع به ومنها كسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ والملازمين للمساجد بجميع بلاده ومنها تعيين الضحايا لهؤلاء الاصناف فى عيد الاضحى ومنها التصدق بما يجتمع فى مجابى ابواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان اكراما لذلك اليوم الكريم وقياما بحقه ومنها اطعام الناس فى جميع البلاد ليلة المولد الكريم واجتماعهم لاقامة رسمه ومنها اعذار اليتامى من الصبيان وكسوتهم يوم عاشوراء ومنها صدقته على الزمنى والضعفاء بأزواج الحرث يقيمون بها أودهم ومنها صدقته على المساكين بحضرته بالطنافس الوثيرة والقطائف الجياد يفترشونها عند رقادهم وتلك مكرمة لا يعلم لها نظير ومنها بناء المرستانات فى كل بلد من بلاده وتعيين الأوقاف الكثيرة لمؤن المرضى وتعيين الاطباء لمعالجتهم والتصرف فى طبهم الى غير ذلك مما ابدع فيه من انواع المكارم وضروب المآثر كافا الله أياديه وشكر نعمه وأما رفعه للمظالم عن الرعية فمنها الرتب التى كانت تؤخذ بالطرقات أمر ايده الله بمحو رسمها وكان لها مجبى عظيم فلم يلتفت اليه وما عند الله خير وأبقى وأما كفه أيدى الظلام فأمر مشهور وقد سمعته أيده الله يقول لعماله لا تظلموا الرعية ويؤكد عليهم فى تلك الوصية قال ابن جزى ولو لم يكن من رفق مولانا ايده الله برعيته الا رفعه التضييف الذى كانت عمال الزكاة وولاة البلاد تأخذه من الرعايا لكفى ذلك اثرا فى العدل ظاهرا ونورا فى الرفق باهرا فكيف وقد رفع من المظالم وبسط من المرافق مالا يحيط به الحصر وقد صدر فى أيام تصنيف هذا من أمره الكريم فى الرفق بالمسجونين ورفع الوظائف الثقيلة التى كانت تؤخذ منهم ماهو اللائق باحسانه والمعهود من رافته وشمل الامر بذلك جميع الاقطار وكذلك صدر من التنكيل بمن ثبت جوره من القضاة والحكام مافيه زجر الظلمة وردع المعتدين واما فعله فى معاونة أهل الاندلس على الجهاد ومحافظته على امداد الثغور بالاموال والاقوات والسلاح وفته فى عضد العدو باعداد العدد واظهار القوة فذلك امر شهير لم يغب علمه عن اهل المغرب والمشرق ولا سبق اليه احد من الملوك قال ابن جزى حسب المتشوف الى علم ماعند مولانا ايده الله من سداد القطر للمسلمين ودفاع القوم الكافرين مافعله فى فداء مدينة طرابلس افريقية فانها لما استولى العدو عليها ومد يد العدوان اليها ورأى أيده الله ان بعث الجيوش الى نصرتها لايتأتى لبعد الاقطار كتب الى خدامه ببلاد افريقية ان يفدوها بالمال ففديت بخمسين ألف دينار من الذهب العين فلما بلغه خبر ذلك قال الحمد لله الذى استرجعها من ايدي الكفار بهذا النزر اليسير وامر للحين ببعث ذلك العدد الى افريقية وعادت المدينة الى

الاسلام على يده ولم يخطر فى الاوهام ان أحدا تكون عنده خمسة قناطير من الذهب نزرا يسيرا حتى جاء بها مولانا ايده الله مكرمة بعيدة ومأثرة فائقة قل فى الملوك امثالها وعز عليهم مثالها ومما شاع من أفعال مولانا أيده الله في الجهاد انشاؤه الاجفان بجميع السواحل واستكثاره من عدد البحر وهذا في زمان الصلح والمهادنة اعدادا لأيام الغزاة وأخذ بالحزم فى قطع اطماع الكفار وأكد ذلك بتوجهه أيده الله بنفسه الى جبال جاناته فى العام الفارط ليباشر قطع الخشب للانشاء ويظهر قدر ماله بذلك من الاعتناء ويتولى بذاته اعمال الجهاد مترجيا ثواب الله تعالى وموقنا بحسن الجزاء (رجع) ومن أعظم حسناته ايده الله عمارة المسجد الجديد بالمدينة البيضاء دار ملكه العلى وهو الذى امتاز بالحسن واتقان البناء واشراق النور وبديع الترتيب وعمارة المدرسة الكبرى بالموضع المعروف بالقصر مما يجاور قصبة فاس ولا نظير لها فى المعمورة اتساعا وحسنا وابداعا وكثرة ماء وحسن وضع ولم أر في مدارس الشام ومصر والعراق وخراسان ما يشبهها وعمارة الزاوية العظمي على غدير الحمص خارج المدينة البيضاء فلا مثل لها أيضا فى عجب وضعها وبديع صنعها وأبدع زاوية رأيتها بالشرق زاوية سرياقص (سرياقوس) التي بناها الملك الناصر وهذه أبدع منها وأشد إحكاما واتقانا والله سبحانه ينفع مولانا أيده الله بمقاصده الشريفة ويكافى فضائله المنيفة ويديم للاسلام والمسلمين ايامه وينصر ألويته المظفرة واعلامه ولنعد الى ذكر الرحلة فنقول ولما حصلت لى مشاهدة هذا المقام الكريم وعمني فضل احسانه العميم قصدت زيارة قبر الوالدة فوصلت الى بلدة طنجة وزرتها وتوجهت الى مدينة سبتة فاقمت بها اشهرا واصابني بها المرض ثلاثة أشهر ثم عافانى الله فاردت ان يكون لى حظ من الجهاد والرباط فركبت البحر من سبتة فى شطى لأهل اصيلا فوصلت الى بلاد الاندلس حرسها الله تعالى حيث الاجر موفور للساكن والثواب مذخور للمقيم والظاعن وكان ذلك إثر موت طاغية الروم الفونس وحصاره الجبل عشرة أشهر وظنه انه يستولى على ما بقي من بلاد الاندلس للمسلمين فاخذه الله من حيث لم يحتسب ومات بالوباء الذى كان أشد الناس خوفا منه واول بلد شاهدته من البلاد الاندلسية جبل الفتح فلقيت به خطيبه الفاضل أبا زكريا يحيى بن السراج الرندى وقاضيه عيسى البربرى وعنده نزلت وتطوفت معه على الجبل فرأيت عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن رضي الله عنه وأعد فيه من العدد ومازاد على ذلك مولانا أيده الله ووددت أن لو كنت ممن رابط به الى نهاية العمر قال ابن جزى جبل الفتح هو معقل الاسلام المعترض شجي فى حلوق

عبدة الاصنام حسنة مولانا ابي الحسن رضي الله عنه المنسوبة اليه وقربته التى قدمها
نورا بين يديه محل عدد الجهاد ومقر آساد الاجناد والثغر الذى افترعن نصر الايمان
واذاق أهل الاندلس بعد مرارة الخوف حلاوة الأمان ومنه كان مبدأ الفتح الاكبر وبه
نزل طارق بن زياد مولى موسي بن نصير عند جوازه فنسب اليه فيقال له جبل طارق
وجبل الفتح لان مبدأه كان منه وبقايا السور الذى بناه ومن معه باقية الى الآن تسمي
بسور العرب شاهدتها ايام اقامتى به عند حصار الجزيرة اعادها الله ثم فتحه مولانا أبو
الحسن رضوان الله عليه واسترجعه من أيدي الروم بعد تملكهم له عشرين سنة ونيفا
وبعث الى حصاره ولده الامير الجليل أبا مالك وأيده بالاموال الطائلة والعساكر الجرارة
وكان فتحه بعد حصار ستة أشهر وذلك فى عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ولم يكن حينئذ
على ماهو الآن عليه فبني به مولانا أبو الحسن رحمة الله عليه المأثرة العظمي باعلى الحصن
وكانت قبل ذلك برجا صغيرا تهدم باحجار المجانيق فبناها مكانه وبني به دار الصناعة ولم
يكن به دار صنعة وبني السور الاعظم المحيط بالتربة الحمراء الآخذ من دار الصنعة الى
القرمدة ثم جدد مولانا أمير المؤمنين أبو عنان أيده الله عهد تحصينه وتحسينه وزاد بها
بناء السور بطرف الفتح وهو أعظم أسواره غناء وأعمها نفعا وبعث اليه العدد الوافرة
والاقوات والمرافق العامة وعامل الله تعالى فيه بحسن النية وصدق الاخلاص ولما كان فى
الاشهر الاخيرة من عام ستة وخمسين وقع بجبل الفتح ماظهر فيه أثر يقين مولانا أيده الله
وثمرة توكله في أموره على الله وبان مصداق مااطرد له من السعادة الكافية وذلك ان عامل الجبل
الخائن الذي ختم له بالشقاء عيسى بن الحسن بن أبي منديل نزع يده المغلولة عن
الطاعة وفارق عصمة الجماعة وأظهر النفاق وجمح فى الغدر والشقاق وتعاطى ماليس
من رجاله وعمى عن مبدأ حاله السيء ومآله وتوهم الناس ان ذلك مبدأ فتنة تنفق على
اطفائها كرائم الاموال ويستعد لاتقائها بالفرسان والرجال فحكمت سعادة مولانا ايده الله
ببطلان هذا التوهم وقضى صدق يقينه بانخراق العادة فى هذه الفتنة فلم تكن الا أيام يسيرة
وراجع أهل الجبل بصائرهم وثاروا على الثائر وخالفوا الشقي المخالف وقاموا بالواجب من
الطاعة وقبضوا عليه وعلى ولده المساعد له فى النفاق وأتي بهما مصفدين الى الحضرة العلية
فنفذ فيهما حكم الله فى المحاربين وارا ح الله من شرهما ولما خمدت نار الفتنة اظهر مولانا
أيده الله من العناية ببلاد الاندلس مالم يكن فى حساب أهلها وبعث الى جبل الفتح ولده
الاسعد المبارك الارشد ابا بكر المدعو من السمات السلطانية بالسعيد اسعده الله تعالى وبعث معه

انجاد الفرسان ووجوه القبائل وكفاة الرجال وأدر عليهم الارزاق ووسع لهم الاقطاع وحرر بلادهم من المغارم وبذل لهم جزيل الاحسان وبلغ من اهتمامه بامور الجبل أن أمر أيده الله ببناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور فمثل فيه أشكال اسواره وابراجه وحصنه وابوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عدده وأهرية زرعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء فصنع ذلك بالمشور السعيد فكان شكلا عجيبا أتقنه الصناع اتقانا يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال وما ذلك الا لتشوقه أيده الى استطلاع أحواله وتهممه بتحصينه واعداده والله تعالى يجعل نصر الاسلام بالجزيرة الغربية على يديه ويحقق ما يؤمله في فتح بلاد الكفار وشت شمل عباد الصليب وتذكرت حين هذا التقييد قول الاديب البليغ المفلق أبي عبد الله محمد بن غالب الرصافي البلنسي رحمه الله في وصف هذا الجبل المبارك من قصيدته الشهيرة في مدح عبد المؤمن بن علي التي أولها (بسيط)

لو جئت نار الهدى من جانب الطور * قبست ما شئت من علم ومن نور

وفيها يقول في وصف الجبل وهو من البديع الذي لم يسبق اليه بعد وصفه السفن وجوازها

حتى رمت جبل الفتحين من جبل * معظم القدر في الاجبال مذ كور
من شامخ الانف في سحنائه طلس * له من الغيم جيب غير مزرور
تمسي النجوم على تكليل مفرقه * في الجو خاتمه مثل الدنانير
فربما مسحته من ذوائبها * بكل فضل على فوديه مجرور
وادرد من ثناياه بما أخذت * منه معاجم أعواد الدهارير
محنك حلب الايام أشطرها * وساقها سوق حادي العير للعير
مقيد الخطو جوال الخواطر في * عجيب امريه من ماض ومنظور
قد واصل الصمت والاطراق مفتكرا * بادى السكينة معفر الاسارير
كانه مكمد مما تعبده * خوف الوعيدين من دك وتسيير
اخلق به وجبال الارض راجفة * أن يطمئن غدا من كل محذور

ثم استمر في قصيدته على مدح عبد المؤمن بن علي قال ابن جزي ولنعد الى كلام الشيخ أبي عبد الله قال ثم خرجت من جبل الفتح الى مدينة رندة وهي من أمنع معاقل المسلمين وأجملها وضعا وكان قائدها اذ ذاك الشيخ ابو الربيع سليمان بن داود العسكري وقاضيها ابن عمي الفقيه ابو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطه ولقيت بها الفقيه القاضي الاديب أبا الحجاج يوسف بن موسى المنتشاقري واضافني بمنزله ولقيت بها أيضا خطيبها الصالح الحاج الفاضل أبا اسحاق

ابراهيم المعروف بالشندرخ المتوفى بعد ذلك بمدينة سلا من بلاد المغرب ولقيت بها جماعة من الصالحين منهم عبد الله الصفار وسواه واقمت بها خمسة ايام ثم سافرت منها الى مدينة مربلة والطريق فيما بينهما صعب شديد الوعورة ومربلة بليدة حسنة خصبة ووجدت بها جماعة من الفرسان متوجهين الى مالقة فاردت التوجه فى صحبتهم ثم ان الله تعالى عصمني بفضله فتوجهوا قبلي فاسروا فى الطريق كما سنذكره وخرجت فى اثرهم فلما جاوزت حوز مربلة ودخلت فى حوز سهيل مررت بفرس ميت فى بعض الخنادق ثم مررت بقفة حوت مطروحة بالارض فرابنى ذلك وكان امامى برج الناظور فقلت فى نفسى لو ظهر ها هنا عدو لانذر به صاحب البرج ثم تقدمت الى دار هنالك فوجدت عليه فرسا مقتولا فبينما انا هنالك اذ سمعت الصياح من خلفي وكنت قد تقدمت اصحابي فعدت اليهم فوجدت معهم قائد حصن سهيل فاعلمني ان اربعة اجفان للعدو ظهرت هنالك ونزل بعض عمارتها الى البر ولم يكن الناظور بالبرج فمر بهم الفرسان الخارجون من مربلة وكانوا اثني عشر فقتل النصاري أحدهم وفر واحد واسر العشرة وقتل معهم رجل حوات وهو الذى وجدت قفته مطروحة بالارض واشار على ذلك القائد بالمبيت معه فى موضعه ليوصلني منه الى مالقة فبت عنده بحصن الرابطة المنسوبة الى سهيل والاجفان المذكورة مرساة عليه وركب معي بالغد فوصلنا الى مدينة مالقة احدى قواعد الاندلس وبلادها الحسان جامعة بين مرافق البر والبحر كثيرة الخيرات والفواكه رايت العنب يباع في اسواقها بحساب ثمانية ارطال بدرهم صغير ورمانها المرسى الياقوتي لا نظير له فى الدنيا واما التين واللوز فيجلبان منها ومن احوازها الى بلاد المشرق والمغرب قال ابن جزى والى ذلك اشار الخطيب ابو محمد عبد الوهاب بن على المالقي فى قوله وهو من مليح التجنيس (سريع)

مالقة حييت يا تينها * فالفلك من اجلك ياتينها

نهى طبيبي عنك فى علة * ما لطبيبي عن حياتي نها

وذيلها قاضي الجماعة ابو عبد الله بن عبد الملك بقوله فى قصد المجانسة (سريع)

وحمص لا تنس لها تينها * واذكر مع التين زياتينها

(رجع) وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها الى أقاصي البلاد ومسجدها كبير الساحة شهير البركة وصحنه لا نظير له فى الحسن فيه اشجار النارنج البعيدة ولما دخلت مالقة وجدت قاضيها الخطيب الفاضل ابا عبد الله ابن خطيبها الفاضل ابي جعفر بن خطيبها ولى الله تعالى ابى عبد الله الطنجالى قاعدا بالجامع الاعظم ومعه الفقهاء ووجوه الناس يجمعون مالا

جرسم فداء الاساري الذى تقدم ذكرهم فقلت له الحمد لله الذي عافاني ولم يجعلني منهم وأخبرته بما اتفق لى بعدهم فعجب من ذلك وبعث الى بالضيافة رحمه الله وأضافنى أيضا خطيبها أبو عبدالله الساحلى المعروف بالمعمم ثم سافرت منها الى مدينة بلش وبينهما اربعة وعشرون ميلا وهي مدينة حسنة بها مسجد عجيب وفيها الاعناب والفواكه والتين كمثل ما بما لقة ثم سافرنا منها الى الحمة وهى بلدة صغيرة لها مسجد بديع الوضع عجيب البناء وبها العين الحارة على صفة واديها وبينها وبين البلد ميل أونحوه وهنالك بيت لاستحمام الرجال وبيت لاستحمام النساء ثم سافرت منها الى مدينة غرناطة قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها لا نظير له فى بلاد الدنيا وهو مسيرة اربعين ميلا يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الانهار الكثيرة والبساتين والجنان والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياض والبساتين لا مثل لها بسواها قال ابن جزى لولا خشيت ان أنسب الى العصبية لاطلت القول فى وصف غرناطة فقد وجدت مكانه ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معني لاطالة القول فيه ولله در شيخنا أبي بكر محمد بن أحمد بن شيرين البستى نزيل غرناطة حيث يقول (طويل)

رعي الله من غرناطة متبوأ * يسر حزينا أو يجير طريدا
تبرم منها صاحبي عندما رأى * مسارحها بالثلج عدن جليدا
هى الثغر صان الله من أهلت به * وما خير ثغر لا يكون برودا

— رجع ذكر سلطانها —

وكان ملك غرناطة فى عهد دخولى اليها السلطان أبو الحجاج يوسف بن السلطان أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر ولم القه بسبب مرض كان به وبعثت الى والدته الحرة الصالحة الفاضلة بدنانير ذهب ارتفقت بها واقيت بغرناطة جملة من فضلائها منهم قاضي الجماعة بها الشريف البليغ ابو القاسم محمد بن احمد بن محمد الحسيني السبتي ومنهم فقيهها المدرس الخطيب العالم ابو عبدالله محمد بن ابراهيم البيانى ومنهم عالمها ومقرئها الخطيب ابوسعيد فرج بن قاسم الشهير بابن لب ومنهم قاضي الجماعة نادرة العصر وطرفة الدهر ابو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم السلمى البلعبعى قدم عليها من المرية فى تلك الايام فوقع الاجتماع به فى بستان الفقيه ابو القاسم محمد ابن الفقيه الكاتب الجليل ابى عبدالله بن عاصم وأقمنا هنالك يومين وليلة قال ابن جزي كنت معهم فى ذلك البستان ومتعنا الشيخ ابو عبدالله باخبار رحلته وقيدت عنه اسماء الاعلام الذين لقيهم فيها واستفدنا منه الفوائد العجيبة وكان معنا جملة من

وجوه أهل غرناطة منهم الشاعر المجيد الغريب الشان أبو جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم الجذامي وهذا الفتى أمره عجيب فانه نشأ بالبادية ولم يطلب العلم ولا مارس الطلبة ثم انه نبغ بالشعر الجيد الذي يندر وقوعه من كبار البلغاء وصدور الطلبة مثل قوله (رمل)

يامن اختار فؤادي منزلا * بابه العين التي ترمقه

فتح الباب سهادي بعدكم * فابعثوا طيفكم يغلقه

(رجع) ولقيت بغرناطة شيخ الشيوخ والمتصوفين بها الفقيه أبا علي عمر بن الشيخ الصالح الولي ابي عبد الله محمد بن المحروق وأقمت أياما بزاويته التي بخارج غرناطة وأكرمني أشد الاكرام وتوجهت معه الى زيارة الزاوية الشهيرة البركة المعروفة برابطة العقاب والعقاب جبل مطل على خارج غرناطة وبينهما نحو ثمانية أميال وهو مجاور لمدينة التيرة الخربة ولقيت أيضا ابن اخيه الفقيه أبا الحسن على بن احمد بن المحروق بزاويته المنسوبة للجام باعلى ربض نجد من خارج غرناطة المتصل بجبل السبيكة وهو شيخ المتسببين من الفقراء و بغرناطة جملة من فقراء العجم استوطنوها لشبهها ببلادهم منهم الحاج ابو عبد الله السمرقندي والحاج احمد التبريزي والحاج ابراهيم القونوى والحاج حسين الخراسانى والحاجان على ورشيد الهنديان وسواهم ثم رحلت من غرناطة الى الحمة ثم الى باش ثم الى مالقة ثم الى حصن ذكوان وهو حصن حسن كثير المياه والاشجار والفواكه ثم سافرت منه الى رندة ثم الى قرية بني رياح فانزلني شيخنا ابو الحسن على سليمان الرياحي وهو احد كرماء الرجال وفضلاء الاعيان يطعم الصادر والوارد وأضافني ضيافة حسنة ثم سافرت الى جبل الفتح وركبت البحر فى الجفن الذي جزت فيه اولا وهو لاهل اصيلا فوصلت الى سبتة وكان قائدها اذ ذاك الشيخ ابو مهدى عيسى بن سليمان بن منصور وقاضيها الفقيه ابو محمد الزجندرى ثم سافرت منها الى اصيلا واقمت بها شهورا ثم سافرت منها الى مدينة سلا ثم سافرت من سلا فوصلت الى مدينة مراكش وهي من اجمل المدن فسيحة الارجاء متسعة الاقطار كثيرة الخيرات بها المساجد الضخمة كمسجدها الاعظم المعروف بمسجد الكتبيين وبها الصومعة الهائلة العجيبة صعدتها وظهر لي جميع البلد منها وقد استولى عليه الخراب فما شبهته الا ببغداد الا ان أسواق بغداد احسن وبمراكش المدرسة العجيبة التي تميزت بحسن الوضع واتقان الصنعة وهي من بناء الامام مولانا امير المسلمين ابي الحسن رضوان الله عليه قال ابن جزي فى مراكش يقول قاضيها التاريخي ابو عبد الله محمد بن عبد الملك الاوسي (بسيط)

لله مراكش الغراء من بلد * وحبذا اهلها السادات من سكن

ان حلها نازح الاوطان مغترب * أسلوه بالانس عن أهل وعن وطن
بين الحديث بها أو العيان لها * ينشا التحاسد بين العين والاذن

—— رجع —— ثم سافرنا من مراكش صحبة الركاب العلي ركاب مولانا أيده الله فوصلنا الى مدينة سلا ثم الى مدينة مكناسة العجيبة الخضر النضرة ذات البساتين والجنات المحيطة بها بحائر الزيتون من جميع نواحيها ثم وصلنا الى حضرة فاس حرسها الله تعالى فوادعت بها مولانا أيده الله وتوجهت برسم السفر الى بلاد السودان فوصلت الى مدينة سجلماسة وهي من أحسن المدن وبها التمر الكثير الطيب وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر لكن تمر سجلماسة أطيب وصنف ايرار منه لا نظير له في البلاد ونزلت منها عند الفقيه أبي محمد البشري وهو الذى لقيت أخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين فيا شذ ما تباعدا فأكرمني غاية الاكرام واشتريت بها الجمال وعلفتها أربعة أشهر ثم سافرت في غرة شهر الله المحرم سنة ثلاث وخمسين في رفقة مقدمها أبو محمد يندكان المسوفي رحمه الله وفيها جماعة من تجار سجلماسة وغيرهم فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوما الى تغازى وضبط اسمها (بفتح التاء المثناة والغين المعجم والف وزاي مفتوح) أيضا وهي قرية لا خير فيها ومن عجائبها ان بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولا شجر بها انما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الارض فيوجد منه الواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الارض يحمل الجمل منها لوحين ولا يسكنها الا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يجلب اليهم من تمر درعة وسجلماسة ومن لحوم الجمال ومن انلي المجلوب من بلاد السودان ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ويباع الحمل منه بايوالاتن بعشرة مثاقيل الى ثمانية وبمدينة مالى بثلاثين مثقالا الى عشرين وربما انتهى الى أربعين مثقالا وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعا ويتبايعون به وقرية تغازي على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر وأقمنا بها عشرة أيام في جهد لأن ماءها زعاق وهي أكثر المواضع ذبابا ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها وهي مسيرة عشرة لا ماء فيها الا في النادر ووجدنا نحن بها ماء كثيرا في غدران أبقاها المطر ولقد وجدنا في بعض الايام غديرا بين تلين من حجارة ماؤه عذب فترويا منه وغسلنا ثيابنا والكماة بتلك الصحراء كثير ويكثر القمل بها حتى يجعل الناس في اعناقهم خيوطا فيها الزئبق فيقتلها وكنا في تلك الايام نتقدم امام القافلة فاذا وجدنا مكانا يصلح للرعي رعينا الدواب به ولم نزل كذلك حتى ضاع في الصحراء رجل يعرف بابن زيرى فلم أتقدم بعد ذلك ولا تأخرت وكان ابن زيرى وقعت بينه وبين ابن خاله

و يعرف بابن عدى منازعة و مشاتمة فتأخر عن الرفقه فضل فلما نزل الناس لم يظهر له خبر فاشرت على ابن خاله بان يكترى من مسوفة من يقص أثره لعله يجده فابي وانتدب في اليوم الثانى رجل من مسوفة دون أجرة لطلبه فوجد أثره وهو يسلك الجادة طورا و يخرج عنها تارة ولم يقع له على خبر ولقد اقينا قافلة فى طريقنا فاخبرونا ان بعض رجال انقطعوا عنهم فوجدنا أحدهم ميتا تحت شجيرة من أشجار الرمل وعليه ثيابه وفى يده سوط وكان الماء على نحو ميل منه ثم وصلنا الى تاسرهلا (بفتح التاء المثناة والسين المهمل والراء وسكون الهاء) وهي احساء ماء تنزل القوافل عليها و يقيمون ثلاثة أيام فيستريحون و يصلحون سقيتهم ويملؤونها بالماء ويخيطون عليها التلاليس خوف الريح ومن هنالك يبعث التكشيف

— ذكر التكشيف —

والتكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه اهل القافلة فيتقدم الى ايوالاتن بكتب الناس الى اصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ويخرجون للقائهم بالماء مسيرة اربع ومن لم يكن له صاحب بايوالاتن كتب الى من شهر بالفضل من التجار بها فيشاركه فى ذلك وربما هلك التكشيف فى هذه الصحراء فلا يعلم اهل ايوالاتن بالقافلة فيهلك اهلها اوالكثير منهم وتلك الصحراء كثيرة الشياطين فان كان التكشيف منفردا لعبت به واستهوته حتى يضل عن قصده فيهلك اذلا طريق يظهر بها ولا أثر انما هي رمال تسفيها الريح فترى جبالا من الرمل فى مكان ثم تراها قد انتقلت الى سواه والدليل هنالك من كثر تردده وكان له قلب ذكى ورأيت من العجائب ان الدليل الذى كان لنا هو اعور العين الواحدة مريض الثانية وهو اعرف الناس بالطريق واكترينا التكشيف فى هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب وهو من مسوفة وفي ليلة اليوم السابع رأينا نيران الذين خرجوا للقائنا فاستبشرنا بذلك وهذه الصحراء منيرة مشرقة ينشرح الصدر فيها وتطيب النفس وهي آمنة من السراق والبقر الوحشية بها كثيرا تأتي القطيع منها حتى يقرب من الناس فيصطادونه بالكلاب والنشاب لكن لحمها يولد أكله العطش فيتحاماه كثير من الناس لذلك ومن العجائب ان هذه البقر اذا قتلت وجد فى كروشها الماء ولقد رأيت أهل مسوفة يعصرون الكرش منها و يشربون الماء الذى فيه والحيات أيضا بهذه الصحراء كثيرة

— حكاية —

وكان فى القافلة تاجر تلمساني يعرف بالحاج زيان ومن عادته ان يقبض على الحيات و يعبث بها وكنت أنهاه عن ذلك فلا ينتهي فلما كان ذات يوم أدخل يده فى جحر ضب ليخرجه فوجد مكانه حية فاخذها بيده واراد الركوب فلسعته فى سبابته اليمني واصابه وجع شديد فكويت

يده وزاد ألمه عشي النهار فنحر جملا وأدخل يده في كرشه وتركها كذلك ليلة ثم تناثر لحم أصبعه فقطعها من الاصل وأخبرنا أهل مسوفة ان تلك الحية كانت قد شربت الماء قبل لسعه ولو لم تكن شربت لقتلته ولما وصل الينا الذين استقبلونا بالماء شربت خيلنا ودخلنا صحراء شديدة الحر ليست كالتي عهدنا وكنا نرحل بعد صلاة العصر ونسري الليل كله وننزل عند الصباح وتاتي الرجال من مسوفة وبردامة وغيرهم باحمال الماء للبيع ثم وصلنا الى مدينة أيوالاتن في غرة شهر ربيع الاول بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة وهي أول عمالة السودان ونائب السلطان بها فربا حسين وفربا بفتح الفاء وسكون الراء وفتح الباء الموحدة ومعناه النائب ولما وصلناها جعل التجار امتعتهم في رحبة وتكفل السودان بحفظها وتوجهوا الى الفربا وهو جالس على بساط في سقيف واعوانه بين يديه بايديهم الرماح والقسي وكبراء مسوفة من ورائه ووقف التجار بين يديه وهو يكلمهم بترجمان على قربهم منه احتقارا لهم فعند ذلك ندمت على قدومي بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للابيض وقصدت دار ابن بداء وهو رجل فاضل من أهل سلا كنت كتبت له ان يكتري لي دارا ففعل ذلك ثم ان مشرف ايوالاتن ويسمي منشا جوا (بفتح الميم وسكون النون وفتح الشين المعجم والف وجيم مضموم وواو) استدعى من جاء في القافلة الى ضيافته فابيت من حضور ذلك فعزم الاصحاب على أشد العزم فتوجهت فيمن توجه ثم أتى بالضيافة وهي جريش انلي مخلوطا بيسير عسل واللبن قد وضعوه في نصف قرعة صيروه شبه الجفنة فشرب الحاضرون وانصرفوا فقلت لهم ألهذا دعانا الأسود قالوا نعم وهو الضيافة الكبيرة عندهم فايقنت حينئذ أن لا خير يرتجى منهم واردت ان أسافر مع حجاج ايوالاتن ثم ظهر لي ان اتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم وكانت اقامتي بايوالاتن نحو خمسين يوما واكرمني اهلها واضافوني منهم قاضيها محمد بن عبد الله بن ينومر واخوه الفقيه المدرس يحيى وبلدة ايوالاتن شديدة الحر وفيها يسير نخيلات يزدرعون في ظلالها البطيخ وماؤهم من احساء بها ولحم الضان كثير بها وثياب أهلها حسان مصرية وأكثر السكان بها من مسوفة ولنسائها الجمال الفائق وهي اعظم شانا من الرجال

ذكر مسوفة الساكنين بايوالاتن

وشان هؤلاء القوم عجيب وامرهم غريب فاما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب أحدهم الى أبيه بل ينتسب لخاله ولا يرث الرجل الا أبناء أخته دون بنيه وذلك شيء ما رأيته في الدنيا الا عند كفار بلاد المليبار من الهنود واما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات

وتعلم الفقه وحفظ القرآن واما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات ومن أراد التزوج منهن تزوج لكنهن لا يسافرن مع الزوج ولو أرادت احداهن ذلك لمنعها اهلها والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والاصحاب من الرجال الاجانب وكذلك للرجال صواحب من النساء الاجنبيات ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك

— حكاية —

دخلت يوما على القاضي بايوالاتن بعد اذنه في الدخول فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن فلما رأيتها ارتبت واردت الرجوع فضحكت مني ولم يدركها خجل وقال لي القاضي لم ترجع انها صاحبتي فعجبت من شانهما فانه من الفقهاء الحجاج واخبرت انه استاذن السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبته لا أدري أهي هذه أم لا فلم يأذن له

— حكاية نحوها —

دخلت يوما على ابي محمد يندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبته فوجدته قاعدا على بساط وفي وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معها رجل قاعد وهما يتحدثان فقلت له ماهذه المرأة فقال هي زوجتي فقلت وما الرجل الذي معها فقال هو صاحبها فقلت له أترضى بهذا وانت قد سكنت بلادنا وعرفت امور الشرع فقال لي مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة لا تهمة فيها ولسن كنساء بلادكم فعجبت من رعونته وانصرفت عنه فلم اعد اليه بعدها واستدعاني مرات فلم اجبه ولما عزمت على السفر الى مالي وبينها وبين ايوالاتن مسيرة اربعة وعشرين يوما للمجد اكتريت دليلا من مسوفة اذ لا حاجة الى السفر في رفقة لا من تلك الطريق وخرجت في ثلاثة من اصحابي وتلك الطريق كثيرة الاشجار وأشجارها عادية ضخمة تستظل القافلة بظل الشجرة منها وبعضها لا اغصان لها ولا ورق ولكن ظل جسدها بحيث يستظل به الانسان وبعض تلك الاشجار قد استاسن داخلها واستنقع فيه ماء المطر فكانها بئر ويشرب الناس من الماء الذي فيها ويكون في بعضها النحل والعسل فيشتاره الناس منها ولقد مررت بشجرة منها فوجدت في داخلها رجلا حائكا قد نصب بها مرمته وهو ينسج فعجبت منه قال ابن جزى ببلاد الاندلس شجرتين من شجر القسطل في جوف كل واحدة منهما حائك ينسج الثياب احداهما بسند وادي آش والاخرى ببشارة غرناطة (رجع) وفي أشجار هذه الغابة التي بين ايوالاتن ومالي ما يشبه ثمرة الاجاص والتفاح والخوخ والمشمش وليست بها وفيها اشجار تثمر شبه الفقوس فاذا طاب انفلق عن شيء شبه الدقيق فيطبخونه ويأكلونه ويباع بالاسواق ويستخرجون من هذه الارض حبات

كالفول فيقلونها ويأكلونها وطعمها كطعم الحمص المقلو وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الاسفنج وقلوه بالغرتي والغرتي (بفتح الغين المعجم وسكون الراء وكسر التاء المثناة) وهو ثمر كالاجاص شديد الحلاوة مضر بالبيضان اذا أكلوه ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع فمنها انهم يطبخون به ويسرجون السرج ويقلون به هذا الاسفنج ويدهنون به ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير وهو عندهم كثير متيسر ويحمل من بلد الى بلد في قرع كبار تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلة ببلادنا والقرع ببلاد السودان يعظم ومنه يصنعون الجفان يقطعون القرعة نصفين فيصنعون منها جفنتين وينقشونها نقشا حسنا واذا سافر احدهم يتبعه عبيده وجواريه يحملون فرشه وأوانيه التي يأكل ويشرب فيها وهي من القرع والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زادا ولا اداما ولا دينارا ولا درهما انما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج الذي يسميه الناس النظم وبعض السلع العطرية وأكثر ما يعجبهم. منها القرنفل والمصطكى وتاسرغنت وهو بخورهم فاذا وصل قرية جاء نساء السودان بانلي واللبن والدجاج ودقيق النبق والارز والفوني وهو كحب الخردل يصنع من الكسكسو والعصيدة ودقيق اللوبيا فيشتري منهن ما احب من ذلك الا ان الارز يضر أكله بالبيضان والفوني خير منه وبعد مسيرة عشرة ايام من ايوالاتن وصلنا الى قرية زاغرى (وضبطها بفتح الزاى والغين المعجم وكسر الراء) وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ويسمون ونجراتة (بفتح الواو وسكون النون وفتح الجيم والراء والف وتاء مثناة وتاء تانيث) ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الاباضية من الخوارج ويسمون صغنغو (بفتح الصاد المهمل والغين المعجم الاول والنون وضم الغين الثاني وواو) والسنيون المالكيون من البيض يسمون عندهم توري (بضم التاء المثناة وواو وراء مكسورة) ومن هذه القرية يجلب انلي الى ايوالاتن ثم سرنا من زاغري فوصلنا الى النهر الاعظم وهو النيل وعليه بلدة كارسخوا (بفتح الكاف وسكون الراء وفتح السين المهمل وضم الخاء المعجم وواو) والنيل ينحدر منها الى كابرة (بفتح الباء الموحدة والراء) ثم الى زاغة (بفتح الزاي والغين المعجم) ولكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالي وأهل زاغة قدماء في الاسلام لهم ديانة وطلب للعلم ثم ينحدر النيل من زاغة الى تنبكتو ثم الى كوكو وسنذكرها ثم الى بلدة مولي (بضم الميم وكسر اللام) من بلاد الليميين وهي آخر عمالة مالي ثم الى يوفي واسمها (بضم الياء آخر الحروف وواو وفاء مكسورة) وهي من اكبر بلاد السودان وسلطانها من اعظم سلاطينهم ولا يدخلها الابيض من الناس لانهم يقتلونه قبل الوصول اليها ثم ينحدر

الى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ثم الى دنقلة وهي اكبر بلادهم (وضبطها بضم الدال والقاف وسكون النون بينهما وفتح اللام) وسلطانها يدعى با بن كنز الدين اسلم على ايام الملك الناصر ثم ينحدر الى جنادل وهي آخر عمالة السودان واول عمالة اسوان من صعيد مصر ورايت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل كانه قارب صغير ولقد نزلت يوما الى النيل لقضاء حاجة فاذا باحد السودان قد جاء ووقف فيما بيني وبين النهر فعجبت من سوء ادبه وقلة حيائه وذكرت ذلك لبعض الناس فقال انما فعل ذلك خوفا عليك من التمساح فحال بينك وبينه ثم سرنا من كارسخو فوصلنا الى نهر صنصرة (بفتح الصادين المهملين والراء وسكون النون) وهو على نحو عشرة اميال من مالى وعادتهم ان يمنع الناس من دخولها الا باذن وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان وكبيرهم محمد بن الفقيه الجزولى وشمس الدين بن النقويش المصرى ليكتروا الى دارا فلما وصلت الى النهر المذكور جزت في المعدية ولم يمنعني احد فوصلت الى مدينة مالى حضرة ملك السودان فنزلت عند مقبرتها ووصلت الى محلة البيضان وقصدت محمد بن الفقيه فوجدته قد اكترى لى دارا ازاء داره فتوجهت اليها وجاء صهره الفقيه المقرى عبد الواحد بشمعة وطعام ثم جاء ابن الفقيه الى من الغد وشمس الدين بن النقويش وعلى الزودى المراكشي وهو من الطلبة ولقيت القاضى بمالى عبد الرحمن جاءنى وهو من السودان حاج فاضل له مكارم أخلاق بعث الى ببقرة فى ضيافته ولقيت الترجمان دوغا (بضم الدال واو وغين معجم) وهو من أفاضل السودان وكبارهم وبعث الى بثور وبعث الى الفقيه عبد الواحد غرارتين من الفونى وقرعة من الغرتى وبعث الى ابن الفقيه الارز والفونى وبعث الى شمس الدين بضيافة وقاموا بحقي أتم قيام شكر الله حسن افعالهم وكان ابن الفقيه متزوجا ببنت عم السلطان فكانت تتفقدنا بالطعام وغيره وا كلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عصيدة تصنع من شيء شبه القلقاس يسمى القافى (بقاف والف وفاء) وهي عندهم مفضلة على سائر الطعام فاصبحنا جميعا مرضى وكنا ستة فمات أحدنا وذهبت انا لصلاة الصبح فغشى على فيها وطلبت من بعض المصريين دواء مسهلا فاتى بشيء يسمى بيدر (بفتح الباء الموحدة وتسكين الياء) آخر الحروف وفتح الدال المهمل وراء وهو عروق نبات وخلطه بالانيسون والسكر ولته بالماء فشربته وتقيات ما أكلته مع صفراء كثيرة وعافاني الله من الهلاك ولكني مرضت شهرين

ذكر سلطان مالى

وهو السلطان منسى سليمان ومنسي (بفتح الميم وسكون النون وفتح السين المهمل) ومعناه

السلطان وسليمان اسمه وهو ملك بخيل لا يرجي منه كبير عطاء واتفق انى أقمت هذه المدة ولم أره بسبب مرضى ثم صنع طعاما برسم غداء مولانا ابي الحسن رضى الله عنه واستدعى الامراء والفقهاء والقاضي والخطيب وحضرت معهم فاتوا بالربعات وختم القرآن ودعوا لمولانا أبي الحسن رحمه الله ودعوا لمنسى سليمان ولما فرغ من ذلك تقدمت فسلمت على منسي سليمان واعلمه القاضي والخطيب وابن الفقيه بحالى فاجابهم بلسانهم فقالوا لي يقول لك السلطان اشكر الله فقلت الحمد لله والشكر على كل حال

— ذكر ضيافتهم التافهة وتعظيمهم لها —

ولما انصرفت بعث الى الضيافة فوجهت الى دار القاضي وبعث القاضي بها مع رجاله الى دار ابن الفقيه فخرج ابن الفقيه من داره مسرعا حافي القدمين فدخل على وقال قم قد جاءك قماش السلطان وهديته فقمت وظننت انها الخلع والاموال فاذا هي ثلاثة اقراص من الخبز وقطعة لحم بقري مقلوبا لغرتي وقرعة فيها ابن رائب فعند مارايتها ضحكت وطال تعجبي من ضعف عقولهم وتعظيمهم للشيء الحقير

— ذكر كلامي للسلطان بعد ذلك واحسانه الى —

واقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين لم يصل الى فيهما شيء من قبل السلطان ودخل شهر رمضان وكنت خلال ذلك اتردد الى المشور واسلم عليه وأقعد مع القاضي والخطيب فتكلمت مع دوغا الترجمان فقال تكلم عنده وانا أعبر عنك بما يجب فجلس في اوائل رمضان وقمت بين يديه وقلت له اني سافرت بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ولى ببلادك منذ اربعة آشهر ولم تضفني ولا أعطيتني شيا فماذا أقول عنك عند السلاطين فقال انى لم أرك ولا علمت بك فقام القاضي وابن الفقيه فردا عليه وقالا انه قد سلم عليك وبعثت اليه الطعام فامر لى عند ذلك بدار انزل بها ونفقة تجرى على ثم فرق على القاضي والخطيب والفقهاء مالا ليلة سبع وعشرين من رمضان يسمونه الزكاة وأعطاني معهم ثلاثة وثلاثين مثقالا وثلثا واحسن الى عند سفرى بمائة مثقال ذهبا

— ذكر جلوسه بقبته —

وله قبة مرتفعة بابها بداخل داره يقعد فيها أكثر الاوقات ولها من جهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مغشاة بصفائح الفضة وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب او هي فضة مذهبة وعليها ستور ملف فاذا كان يوم جلوسه بالقبة رفعت الستور فعلم انه يجلس فاذا جلس أخرج من شباك احدى الطاقات شرابة حرير قد ربط فيها منديل مصري مرقوم فاذا رأى الناس المنديل ضربت الاطبال والابواق ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد

فى أيدي بعضهم القسي وفى أيد بعضهم الرماح الصغار والدرق فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة ويجلس أصحاب القسي كذلك ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين ومعهما كبشان يذكرون أنهما ينفعان من العين وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين فيدعون نائبه قنجا موسى وتاتى الفرارية (بفتح الفاء) وهم الامراء ويأتى الخطيب والفقهاء فيقعدون امام السلحدارية يمنة ويسرة فى المشور ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة من الزردخانة وغيرها وعلى راسه عمامة ذات حواشي لهم في تعميمها صنعة بديعة وهو متقلد سيفا غمده من الذهب وفى رجليه الخف والمهاميز ولا يلبس أحد ذلك اليوم خفا غيره ويكون فى يده رمحان صغيران أحدهما من ذهب والآخر من فضة واسنتهما من الحديد ويجلس الاجناد والولاة والفتيان ومسوفة وغيرهم خارج المشور فى شارع هنالك متسع فيه أشجار وكل فرارى بين يديه أصحابه بالرماح والقسي والاطبال والابواق وبوقاتهم من أنياب الفيلة والآت الطرب المصنوعة من القصب والقرع وتضرب بالسطاعة ولها صوت عجيب وكل فرارى له كنانة قد علقها بين كتفيه وقوسه بيده وهو راكب فرسه واصحابه بين مشاة وركبان ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجل واقف فمن أراد ان يكلم السلطان كلم دوغا ويكلم دوغا لذلك الواقف ويكلم الواقف السلطان

ـــ ذكر جلوسه بالمشور ـــ

ويجلس أيضا فى بعض الايام بالمشور هنالك مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات يسمونها البنبي (بفتح الباء المعقودة الاولى وكسر الثانيــة وسكون النون بينهما) وتفرش بالحرير وتجعل المخاد عليها ويرفع الشطر وهو شبه قبة من الحرير وعليه طائر من ذهب على قــدر البازى ويخرج السلطان من باب فى ركن القصر وقوسه بيده وكنانته بين كتفيــه وعلى رأسه شاشية ذهب مشدودة بعصابة ذهب لها أطراف مثل السكاكين رقاق طولها أزيد من شبر واكثر لباسه جبة حمراء موبرة من الثياب الرومية التى تسمي المطنفس ويخرج بين يديه المغنون بايديهم قنابر الذهب والفضة وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح ويمشي مشيا رويدا ويكثر التانى وربما وقف ينظر فى الناس ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر وعند جلوسه تضرب الطبول والابواق والانفار ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين فيدعون النائب والفرارية فيدخلون ويجلسون ويؤتي بالفرسين والكبشــين معهما ويقف دوغا على الباب وسائر الناس فى الشارع تحت الاشجار

ـــ ذكر تذلل السودان لملكهم وتتريبهم له وغير ذلك من أحوالهم ـــ

والسودان اعظم الناس تواضعا لملكهم وأشدهم تذللا له ويحلفون باسمه فيقولون منسى سليمان كى فاذا دعا باحدهم عند جلوسه بالقبة التي ذكرناها نزع المدعو ثيابه ولبس ثيابا خلقة ونزع عمامته وجعل شاشية وسخة ودخل رافعا ثيابه وسراويله الى نصف ساقه وتقدم بذلة ومسكنة وضرب الارض بمرفقيه ضربا شديدا ووقف كالراكع يسمع كلامه واذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه كشف ثيابه عن ظهره ورمي بالتراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء وكنت أعجب منهم كيف لا تعمى أعينهم واذا تكلم السلطان في مجلسه بكلام وضع الحاضرون عمائمهم عن رؤسهم وانصتوا للكلام وربما قام أحدهم بين يديه فيذكر أفعاله في خدمته ويقول فعلت كذا يوم كذا وقتلت كذا يوم كذا فيصدقه من علم ذلك وتصديقهم ان ينزع احدهم في وتر قوسه ثم يرسلها كما يفعل اذا رمي فاذا قال له السلطان صدقت او شكره نزع ثيابه وترب وذلك عندهم من الادب قال ابن جزي واخبرني الصاحب العلامة الفقيه ابو القاسم بن رضوان اعزه الله انه لما قدم الحاج موسى الونجراتى رسولا عن منسى سليمان الى مولانا ابي الحسن رضى الله عنه كان اذا دخل المجلس الكريم حمل بعض ناسه معه قفة تراب فيترب مهما قال له مولانا كلاما حسنا كما يفعل ببلاده

— ذكر فعله فى صلاة العيد وايامه —

وحضرت بما لى عيد الاضحى والفطر فخرج الناس الى المصلى وهو بمقربة من قصر السلطان وعليهم الثياب البيض الحسان وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان والسودان لا يلبسون الطيلسان الا فى العيد ماعدا القاضى والخطيب والفقهاء فانهم يلبسونه فى سائر الايام وكانوا يوم العيد بين يدى السلطان وهم يهللون ويكبرون وبين يديه العلامات الحمر من الحرير ونصب عند المصلى خباء فدخل السلطان اليها واصلح من شأنه ثم خرج الى المصلى فقضيت الصلاة والخطبة ثم نزل الخطيب وقعد بين يدى السلطان وتكلم بكلام كثير وهنالك رجل بيده رمح يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب وذلك وعظ وتذكير وثناء على السلطان وتحريض على لزوم طاعته واداء حقه ويجلس السلطان فى ايام العيدين بعد العصر على البنبي وتأتي السلحدارية بالسلاح العجيب من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب واغمادها منه ورماح الذهب والفضة ودبابيس البلور ويقف على رأسه أربعة من الامراء يشردون الذباب وفى أيديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج ويجلس الفرارية والقاضي والخطيب على العادة ويأتي دوغا الترجمان بنسائه الاربع وجواريه وهن نحو مائة عليهن الملابس الحسان وعلى رأسهن عصائب الذهب والفضة فيها تفافيح ذهب

وفضة وينصب لدوغا كرسي يجلس عليه و يضرب الآلة التي هي من قصب وتحتها قريعات و يغني بشعر يمدح السلطان فيه ويذكر غزواته وأفعاله و يغني النساء والجواري معه و يلعبن بالقسي و يكون معهن نحو ثلاثين من غلمانه عليهم جباب الملف والحمر وفي رؤوسهم الشواشي البيض وكل واحد منهم متقلد طبله يضربه ثم يأتي أصحابه من الصبيان فيلعبون و يتقلبون في الهواء كما يفعل السندي ولهم في ذلك رشاقة وخفة بديعة و يلعبون بالسيوف اجمل لعب و يلعب دوغا بالسيف لعبا بديعا وعند ذلك يأمر السلطان له بالاحسان فيأتى بصرة فيها مائتا مثقال من التبر ويذكر له ما فيها على رؤوس الناس وتقوم الفرارية فينزعون في قسيهم شكرا للسلطان و بالغد يعطى كل واحد منهم لدوغا عطاء على قدره وفي كل يوم جمعة بعد العصر يفعل دوغا مثل هذا الترتيب الذي ذكرناه

— ذكر الأضحوكة في انشاد الشعراء للسلطان —

واذا كان يوم العيد وأتم دوغا لعبه جاء الشعراء و يسمون الجلا (بضم الجيم) وأحدهم جالي وقد دخل كل واحد منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق وجعل لها رأس من الخشب لها منقار أحمر كأنه رأس الشقشاق و يقفون بين يدي السلطان بتلك الهيئة المضحكة فينشدون أشعارهم وذكر لى ان شعرهم نوع من الوعظ يقولون فيه للسلطان ان هذا البنبي الذي عليه جلس فوقه من الملوك فلان وكان من أحسن أفعاله كذا وفلان وكان من افعاله كذا فافعل انت من الخير ما يذكر بعدك ثم يصعد كبير الشعراء على درج البنبي و يضع رأسه في حجر السلطان ثم يصعد الى أعلى البنبي فيضع رأسه على كتف السلطان الايمن ثم على كتفه الايسر وهو يتكلم بلسانهم ثم ينزل وأخبرت ان هـذا الفعل لم يزل قديما عندهم قبل الاسلام فاستمروا عليه

— حكاية —

وحضرت مجلس السلطان في بعض الايام فأتى أحد فقهائهم وكان قدم من بلاد بعيدة وقام بين يدي السلطان وتكلم كلاما كثيرا فقام القاضي فصدقه ثم صدقهما السلطان فوضع كل واحد منهما عمامته عن رأسه وترب بين يديه وكان الى جانبي رجل من البيضان فقال لى أتعرف ما قالوه فقلت لا أعرف فقال ان الفقيه أخبر ان الجراد وقع ببلادهم فخرج أحد صلحائهم الى موضع الجراد فهاله أمرها فقال هذا جراد كثير فأجابته جرادة منها وقالت ان البلاد التي يكثر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زرعها فصدقه القاضي والسلطان وقال عند ذلك للامراء اني بريء من الظلم ومن ظلم منكم عاقبته ومن علم بظالم ولم يعلمني به فذنوب ذلك الظالم في عنقه والله حسيبه وسائله ولما قال هذا الكلام وضع الفرارية عمائمهم عن رؤوسهم وتبرؤوا من الظلم

— حكاية —

وحضرت الجمعة يوما فقام أحد التجار من طلبة مسوفة ويسمي بابي حفص فقال يا أهل المسجد أشهدكم ان منسي سليمان في دعوتي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قال ذلك خرج اليه جماعة رجال من مقصورة السلطان فقالوا له من ظلمك من أخذ لك شيا فقال منشاجو ايوالاتن يعني مشرفها أخذ مني ماقيمته ستمائة مثقال واراد ان يعطيني في مقابلته مائة مثقال خاصة فبعث السلطان عنه للحين فحضر بعد ايام وصرفهما للقاضي فثبت للتاجر حقه فاخذه وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله

— حكاية —

واتفق في أيام اقامتي بمالي ان السلطان غضب على زوجته الكبري بنت عمه المدعوة بقاسا ومعني قاسا عندهم الملكة وهي شريكته في الملك على عادة السودان ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر وسجنها عند بعض الفرارية وولى في مكانها زوجته الاخرى بنجو ولم تكن من بنات الملوك فاكثر الناس الكلام في ذلك وانكروا فعله ودخل بنات عمه على بنجو يهنئنها بالملكة فجعلن الرماد على اذرعهن ولم يتربن رؤسهن ثم ان السلطان سرح قاسا من ثقافها فدخل عليها بنات عمه يهنئنها بالسراح وتربن علي العادة فشكت بنجو الي السلطان بذلك فغضب علي بنات عمه فخفن منه واستجرن بالجامع فعفا عنهن واستدعاهن وعادتهن اذا دخلن على السلطان ان يتجردن عن ثيابهن ويدخلن عرايا ففعلن ذلك ورضى عنهن وصرن ياتين باب السلطان غدوا وعشيا مدة سبعة أيام وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان وسارت قاسا تركب كل يوم في جواريها وعبيدها وعلى رؤسهم التراب وتقف عند المشور متنقبة لا يرى وجهها وأكثر الامراء الكلام في شانها فجمعهم السلطان في المشور وقال لهم دوغا على لسانه انكم قد أكثرتم الكلام في امر قاسا وانها أذنبت ذنبا كبيرا ثم أتى بجارية من جواريها مقيدة مغلولة فقيل لها تكلمي بما عندك فاخبرت ان قاسا بعثتها الى جاطل ابن عم السلطان الهارب عنه الى كنبرني واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه وقالت له أنا وجميع العساكر طوع أمرك فلما سمع الامراء ذلك قالوا ان هذا ذنب كبير وهي تستحق القتل عليه فخافت قاسا من ذلك واستجارت بدار الخطيب وعادتهم ان يستجيروا هنالك بالمسجد وان لم يتمكن فبدار الخطيب وكان السودان يكرهون منسى سليمان لبخله وكان قبله منسى مغا وقبل منسى مغا منسي موسي وكان كريما فاضلا يحب البيضان ويحسن اليهم وهو الذي اعطي لابي اسحاق الساحلي في يوم واحد أربعة آلاف مثقال واخبرني بعض الثقات انه أعطى لمدرك بن فقوص ثلاثة آلاف مثقال في يوم واحد وكان جده سارق جاطة أسلم على يدى جد مدرك هذا

— حكاية —

وأخبرني الفقيه مدرك هذا ان رجلا من أهل تلمسان يعرف بابن شيخ اللبن كان قد أحسن الى السلطان منسى موسى فى صغره بسبعة مثاقيل وثلث وهو يومئذ صبي غير معتبر ثم اتفق ان جاء اليه فى خصومة وهو سلطان فعرفه وأدعاه وأدناه منه حتي جلس معه على البنبي ثم قرره على فعله معه وقال للامراء ما جزاء من فعل ما فعله من الخير فقالوا له الحسنة بعشر امثالها فاعطه سبعين مثقالا فاعطاه عند ذلك سبعمائة مثقال وكسوة وعبيدا وخدما وامره ان لا ينقطع عنه وأخبرنى بهـذه الحكاية أيضا ولد ابن شيخ اللبن المذكور وهو من الطلبة يعلم القرآن بمالى

— ذكر ما استحسنته من افعال السودان وما استقبحته منها —

فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحدا فى شيء منه ومنها شمول الامن فى بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة انما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتي ياخذه مستحقه ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها فى الجماعات وضربهم أولادهم عليها واذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الانسان الى المسجد لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام ومن عادتهم ان يبعث كل انسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتي يذهب الى المسجد وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ولا ثمر له ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لاحدهم الا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يجعلون لاولادهم القيود اذا ظهر فى حقهم التقصير فى حفظـه فلا تفك عنهـم حتي يحفظوه ولقد دخلت على القاضى يوم العيـد واولاده مقيدون فقلت له ألا تسرحهم فقال لا أفعل حتى يحفظوا القرآن ومررت يوما بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفى رجله قيد ثقيل فقلت لمن كان معى ما فعل هذا أقتل ففهم عنى الشاب وضحك وقيل لى انما قيد حتي يحفظ القرآن ومن مساوى افعالهم كون الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات ولقد كنت أرى فى رمضان كثيرا منهن على تلك الصورة فان عادة الفرارية أن يفطروا بدار السلطان وياتى كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فما فوقهن من جواريه وهن عرايا ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات وتعري بناته ولقد رأيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤسهم تادبا ومنها ما ذكرته

من الاضحوكة في انشاد الشعراء ومنها ان كثيرا منهم يا كلون الجيف والكلاب والحمير

— ذكر سفري عن مالي —

وكان دخولي اليها في الرابع عشر لجمادى الاولى سنة ثلاث وخمسين وخروجي عنها في الثاني والعشرين لمحرم سنة اربع وخمسين ورافقني تاجر يعرف بابي بكر بن يعقوب وقصدنا طريق ميمة وكان لي جمل أركبه لان الخيل غالية الاثمان يساوي أحدها مائة مثقال فوصلنا الى خليج كبير يخرج من النيل لايجاز الا في المراكب وذلك الموضع كثير البعوض فلا يمر أحد به الا بالليل ووصلنا الخليج ثلث الليل والليل مقمر

— ذكر الخيل التي تكون بالنيل —

ولما وصلنا الخليج رأيت على ضفته ست عشر دابة ضخمة الخلقة فعجبت منها وظننتها فيلة لكثرتها هنالك ثم اني رأيتها دخلت في النهر فقلت لابي بكر بن يعقوب ماهذه الدواب فقال هي خيل البحر خرجت ترعي في البر وهي أغلظ من الخيل ولها أعراف وأذناب ورؤسها كرؤس الخيل وأرجلها كارجل الفيلة ورأيت هذه الخيل مرة أخري لما ركبنا النيل من تنبكتو إلى كوكو وهي تعوم في الماء وترفع رأسها وتنفخ وخاف منها أهل المركب فقربوا من البر لئلا تغرقهم ولهم حيلة في صيدها حسنة وذلك ان لهم رماحا مثقوبة قد جعل في ثقبها شرائط وثيقة فيضربون الفرس منها فان صادفت الضربة رجله أو عنقه انفذته وجذبوه بالحبل حتى يصل الى الساحل فيقتلونه ويا كلون لحمه ومن عظامها بالساحل كثير وكان نزولنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة عليها حاكم من السودان حاج فاضل يسمى فربامغا (بفتح الميم والغين المعجم) وهو ممن حج مع السلطان منسى موسى لما حج

— حكاية —

أخبرني فربامغا ان منسى موسى لما وصل الى هذا الخليج كان معه قاض من البيضان يكني بابي العباس ويعرف بالدكالي فاحسن اليه باربعة آلاف مثقال لنفقته فلما وصلوا الى ميمة شكا الى السلطان بان الاربعة آلاف مثقال سرقت له من داره فاستحضر السلطان امير ميمة وتوعده بالقتل ان لم يحضر من سرقها وطلب الامير السارق فلم يجد أحدا ولا سارق يكون بتلك البلاد فدخل دار القاضي واشتد على خدامه وهددهم فقالت له احدى جواريه ماضاع له شيء وانما دفنها بيده في ذلك الموضع وأشارت له الى الموضع فاخرجها الامير وأتى بها السلطان وعرفه الخبر فغضب على القاضي ونفاه الى بلاد الكفار الذين يا كلون بني آدم فاقام عندهم أربع سنين ثم رده الى بلده وانما لم يا كله الكفار لبياضه لانهم يقولون ان أكل الابيض مضر لانه لم ينضج والاسود هو النضج بزعمهم

— حكاية —

تقدمت على السلطان منسي سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم معهم أميرهم وعادتهم ان يجعلوا في آذانهم اقراطا كبارا وتكون فتحة القرط منها نصف شبر ويلتحفون في ملاحف الحرير وفي بلادهم يكون معدن الذهب فأكرمهم السلطان وأعطاهم في الضيافة خادما فذبحوها وأكلوها ولطخوا وجوهم وأيديهم بدمها وأتوا السلطان شاكرين وأخبرت ان عادتهم متي ما وفدوا عليه ان يفعلوا ذلك وذكر لي عنهم انهم يقولون ان أطيب ما في لحوم الآدميات الكف والثدي ثم رحلنا من هذه القرية التي عند الخليج فوصلنا الى بلدة قرى منسا وقرى (بضم القاف وكسر الراء) ومات لي بها الجمل الذي كنت أركبه فاخبرني راعيه بذلك فخرجت لانظر اليه فوجدت السودان قد أكلوه كعادتهم في أكل الجيف فبعثت غلامين كنت استاجرتهما على خدمتي ليشتريا لي جملا بزاغري وهي على مسيرة يومين وأقام معي بعض أصحاب ابي بكر بن يعقوب وتوجه هو لينتظرنا بميمة فأقمت سبعة أيام أضافني فيها بعض الحجاج بهذه البلدة حتى وصل الغلامان بالجمل

— حكاية —

وفي أيام أقامتي بهذه البلدة رأيت ليلة فيما يري النائم كان انسانا يقول لي محمد بن بطوطه لماذا لا يقرأ سورة يس في كل يوم فمن يومئذ ما تركت قراءتها كل يوم في سفر ولا حضر ثم رحلت الى بلدة ميمة (بكسر الميم الاول وفتح الثاني) فنزلنا على آبار بخارجها ثم سافرنا منها الى مدينة تنبكتو (وضبط اسمها بضم التاء المعلوة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسكون الكاف وضم التاء المعلوة الثانية وواو) وبينها وبين النيل أربعة اميال وأكثر سكانها مسوفة أهل اللثام وحاكمها يسمي فربا موسى حضرت عنده يوما وقد قدم أحد مسوفة أميرا على جماعة فجعل عليه ثوبا وعمامة وسروالا كلها مصبوغة وأجلسه على درقة ورفعه كبراء قبيلته على رؤوسهم وبهذه البلدة قبر الشاعر المفلق أبي اسحاق الساحلي الغرناطي المعروف ببلده بالطويجن وبها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من أهل الاسكندرية

— حكاية —

كان السلطان منسي موسي لما حج نزل بروض لسراج الدين هذا ببركة الحبش خارج مصر وبها ينزل السلطان واحتاج الى مال فتسلفه من سراج الدين وتسلف منه أمراؤه أيضا وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضي المال فاقام بمالي فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله ومعه ابن له فلما وصل تنبكتو أضافه ابو اسحق الساحلي فكان من القدر موته تلك الليلة فتكلم الناس في ذلك واتهموا انه سم فقال لهم ولده اني اكلت معه ذلك الطعام بعينه فلو كان فيه سم لقتلنا جميعا لكنه انقضي اجله ووصل الولد الى مالي واقتضى ماله وانصرف الى ديار مصر ومن تنبكتو ركبت النيل في مركب صغير منحوت من خشبة

واحدة وكنا ننزل كل ليلة بالقرى فنشترى ما نحتاج اليه من الطعام والسمن بالملح وبالعطريات وبحلى الزجاج ثم وصلت الى بلد أنسيت اسمه له أمير فاضل حاج يسمى فربا سليمان مشهور بالشجاعة والشدة لا يتعاطى أحد النزع فى قوسه ولم أرفى السودان أطول منه ولا أضخم جسما واحتجت بهذه البلدة الى شىء من الذرة فجئت اليه وذلك يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه وسألنى عن مقدمى وكان معه فقيه يكتب له فاخذت لوحا كان بين يديه وكتبت فيه يافقيه قل لهذا الامير انا نحتاج الى شىء من الذرة للزاد والسلام وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سرا ويكلم الامير فى ذلك بلسانه فقرأه جهرا وفهمه الامير فاخذ بيدى وادخلني الى مشوره وبه سلاح كثير من الدرق والقسى والرماح ووجدت عنده كتاب المدهش لابن الجوزي فجعلت اقرأ فيه ثم أتى بمشروب لهم يسمى الدقنو (بفتح الدال المهمل وسكون القاف وضم النون وواو) وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوط بيسير عسل او لبن وهم يشربونه عوض الماء لانهم ان شربوا الماء خالصا أضر بهم وان لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن ثم أتى ببطيخ أخضر فاكلنا منه ودخل غلام خماسى فدعاه وقال لى هذا ضيافتك واحفظه لئلا يفر فاخذته وأردت الانصراف فقال أقم حتى يأتي الطعام وجاءت الينا جارية له دمشقية عربية فكلمتنى بالعربي فبينما نحن فى ذلك اذ سمعنا صراخا بداره فوجه الجارية لتعرف خبر ذلك فعادت اليه فاعلمته ان بنتا له قد توفيت فقال انى لا أحب البكاء فتعال نمشي الى البحر يعني النيل وله على ساحله ديار فاتى بالفرس فقال لى اركب فقلت لا أركبه وأنت ماش فمشينا جميعا ووصلنا الى دياره على النيل وأتى بالطعام فاكلنا وودعته وانصرفت ولم أرفى السودان أكرم منه ولا أفضل والغلام الذى اعطانيه باق عندى الى الآن ثم سرت الى مدينة كوكو وهى مدينة كبيرة على النيل من أحسن مدن السودان وأكبرها واخصبها فيها الارز الكثير واللبن والدجاج والسمك وبها الفقوص العنانى الذى لا نظير له وتعامل اهلها فى البيع والشراء بالودع وكذلك أهل مالى واقمت بها نحو شهر وأضافنى بها محمد بن عمر من أهل مكناسة وكان ظريفا مزاحا فاضلا وتوفى بها بعد خروجى عنه واضافنى بها الحاج محمد الوجدى التازى وهو ممن دخل اليمن والفقيه محمد الفيلالى إمام مسجد البيضان ثم سافرت منها برسم تكدا فى البر مع قافلة كبيرة للغدامسيين دليلهم ومقدمهم الحاج وجين (بضم الواو وتشديد الجيم المعقودة) ومعناه الذئب بلسان السودان وكان لى جمل لركوبي وناقة لحمل الزاد فلما رحلنا أول مرحلة وقفت الناقة فاخذ الحاج وجين ما كان عليها وقسمه على أصحابه فتوزعوا حمله وكان فى الرفقة

مغربي من أهل تادلي فابي أن يرفع من ذلك شيئا كما فعل غيره وعطش غلامي يوما فطلبت منه الماء فلم يسمح به ثم وصلنا الى بلاد بردامة وهى قبيلة من البربر (وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الدال المهمل والف وميم مفتوح وتاء تأنيث) ولا تسير القوافل الا فى خفارتهم والمرأة عندهم فى ذلك أعظم شأنا من الرجل وهم رحالة لا يقيمون و بيوتهم غريبة الشكل يقيمون أعوادا من الخشب و يصنعون عليها الحصر وفوق ذلك أعواد مشتبكة وفوقها الجلود أو ثياب القطن و نساؤهم أتم النساء جمالا وابدعهن صورا مع البياض الناصع والسمن ولم أرفى البلاد من يبلغ مبلغهن فى السمن وطعامهن حليب البقر وجريش الذرة يشربنه مخلوطا بالماء غير مطبوخ عند المساء والصباح ومن أراد التزوج منهن سكن بهن فى أقرب البلاد اليهن ولا يتجاوز بهن كوكو ولا ايوالاتن وأصابنى المرض فى هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء واجتهدنا فى السير الى أن وصلنا الى مدينة تكدا (وضبطها بفتح التاء المعلوة والكاف المعقودة والدال المهمل مع تشديده) ونزلت بها فى جوار شيخ المغاربة سعيد بن على الجزولى واضافني قاضيها أبو ابراهيم اسحق الجاناتى وهو من الافاضل وأضافنى جعفر بن محمد المسوفى وديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر وماؤها يجرى على معادن النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك ولا زرع بها الا يسير من القمح يأكله التجار والغرباء و يباع بحساب عشرين مدا من امدادهم بمثقال ذهب ومدهم ثلث المد ببلادنا وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مدا بمثقال ذهب وهي كثيرة العقارب وعقاربها تقتل من كان صبيا لم يبلغ وأما الرجال فقلما تقتلهم ولقد لدغت يوما وانا بها ولد اللشيخ سعيد بن على عند الصبح فمات لحينه وحضرت جنازته ولا شغل لاهل تكدا غير التجارة يسافرون كل عام الى مصر و يجلبون من كل ما بها من حسان الثياب وسواها ولاهلها رفاهية وسعة حال و يتفاخرون بكثرة العبيد والخدم وكذلك أهل مالى وايوالاتن ولا يبيعون المعلمات منهن الا نادرا وبالثمن الكثير

— حكاية —

أردت لما دخلت تكدا شراء خادم معلمة فلم أجدها ثم بعث الى القاضى أبو ابراهيم بخادم لبعض أصحابه فاشتريتها بخمسة وعشرين مثقالا ثم إن صاحبها ندم ورغب فى الاقالة فقلت له ان دللتني على سواها أقلتك فدلنى على خادم لعلي اغيول وهو المغربي التادلى الذي أبي أن يرفع شيئا من أسبابى حين وقعت ناقتى وابي ان يسقى غلامى الماء حين عطش فاشتريتها منه وكانت خيرا من الاولى وأقلت صاحبي الاول ثم ندم هذا المغربى على بيع الخادم ورغب فى الاقالة وألح فى ذلك فابيت الا أن أجازيه بسوء فعله فكاد أن يجن أو يهلك

أسفاتم أقلته بعد — ذكر معدن النحاس —

ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه فى الارض وياتون به الى البلد فيسبكونه فى دورهم يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم فاذا سبكوه نحاسا أحمر صنعوا منه قضبانا فى طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمثقال ذهب وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمثقال وهى صرفهم يشترون برقاقها اللحم والحطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح ويحملون النحاس منها الى مدينة كوبر من بلاد الكفار والى زغاى والى بلاد برنو وهى على مسيرة أربعين يوما من تكدا وأهلها مسلمون لهم ملك اسمه ادريس لا يظهر للناس ولا يكلمهم الا من وراء حجاب ومن هذه البلاد يؤتى بالجوارى الحسان والفتيان وبالثياب المجسدة ويحمل النحاس ايضا منها الى جوجوة وبلاد المورتيين وسواها — ذكر سلطان تكدا —

وفى أيام اقامتي بها توجه القاضي أبو ابراهيم والخطيب محمد والمدرس ابو حفص والشيخ سعيد بن على الى سلطان تكدا وهو بربرى يسمي إزار (بكسر الهمزة وزاي والف وراء) وكان على مسيرة يوم منها ووقعت بينه وبين التكركرى وهو من سلاطين البربر أيضا منازعة فذهبوا الى الاصلاح بينهما فاردت ان القاه فاكتريت دليلا وتوجهت اليه وأعلمه المذكورون بقدومي فجاء الى راكبا فرسا دون سرج وتلك عادتهم وقد جعل عوض السرج طنفسة حمراء بديعة وعليه ملحفة وسراويل وعمامة كلها زرق ومعه أولاد اخته وهم الذين يرثون ملكه فقمنا اليه وصافحناه وسال عن حالى ومقدمى فاعلم بذلك وأنزلني ببيت من بيوت اليناطبين وهم كالوصفان عندنا وبعث برأس غنم مشوى فى السفود وقعب من حليب البقر وكان فى جوارنا بيت أمه واخته فجاءتا الينا وسلمتا علينا وكانت أمه تبعث لنا الحليب بعد العتمة وهو وقت حلبهم ويشربونه ذلك الوقت وبالغدو وأما الطعام فلا ياكلونه ولا يعرفونه وأقمت عندهم ستة أيام وفى كل يوم يبعث بكبشين مشويين عند الصباح والمساء واحسن الى بناقة وعشرة مثاقيل من الذهب وانصرفت عنه وعدت الى تكدا — ذكر وصول الامر الكريم الى —

ولما عدت الى تكدا وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسي بامر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمر الى بالوصول الى حضرته العلية فقبلته وامتثلته على الفور واشتريت جملين لركوبى بسبعة وثلاثين مثقالا وثلث وقصدت السفر الى توات ورفعت زاد سبعين ليلة اذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدا وتوات انما يوجد اللحم اللبن والسمن

يشترى بالاثواب وخرجت من تكدا يوم الخميس الحادى عشر لشعبان سنة أربع وخمسين فى رفقة كبيرة فيهم جعفر التواتي وهو من الفضلاء ومعنا الفقيه محمد بن عبدالله قاضي تكدا وفى الرفقة نحو ستمائة خادم فوصلنا الى كاهر من بلاد السلطان الكركرى وهي أرض كثيرة الاعشاب يشترى بها الناس من برابرها الغنم ويقددون لحمها ويحمله أهل توات الى بلادهم ودخلنا منها الى برية لا عمارة بها ولا ماء وهى مسيرة ثلاثة أيام ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوما فى برية لا عمارة بها الا ان بها الماء ووصلنا الى الموضع الذي يفترق به طريق غات الآخذ الى ديار مصر وطريق توات وهنالك احساء ماء يجرى على الحديد فاذا غسل به الثوب الابيض اسود لونه وسرنا من هنالك عشرة أيام ووصلنا الى بلاد هكار وهم طائفة من البربر ملثمون لا خير عندهم ولقينا أحد كبرائهم فحبس القافلة حتى غرموا له أثوابا وسواها وكان وصولنا الى بلادهم فى شهر رمضان وهم لا يغيرون فيه ولا يعترضون القوافل واذا وجد سراقها المتاع بالطريق فى رمضان لم يعرضوا له وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر وسرنا فى بلاد هكار شهرا وهي قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعر ووصلنا يوم عيد الفطر الى بلاد برابر أهل لثام كهؤلاء فاخبرونا باخبار بلادنا وأعلمونا أن أولاد خراج وابن يغمور خالفوا وسكنوا تسابيت من توات فخاف أهل القافلة من ذلك ثم وصلنا الى بوداء (بضم الباء الموحدة) وهي من أكبر قري توات وأرضها رمال وسباخ وتمرها كثير ليس بطيب لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسه ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت وانما يجلب هذا ذلك من بلاد المغرب وأكل أهلها التمر والجراد وهو كثير عندهم يختزنونه كما يختزن التمر ويقتاتون به ويخرجون الى صيده قبل طلوع الشمس فانه لا يطير اذ ذاك لاجل البرد وأقمنا ببوداء أياما ثم سافرنا فى قافلة ووصلنا فى أوسط ذى القعدة الى مدينة سجلماسة وخرجت منها في ثانى ذى الحجة وذلك أوان البرد الشديد ونزل بالطريق ثلج كثير ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير ببخاري وسمرقند وخراسان وبلاد الاتراك فلم أر أصعب من طريق أم جنيبة ووصلنا ليلة عيد الاضحى الى دار الطمع فاقمت هنالك يوم الاضحي ثم خرجت فوصلت الى حضرة فارس حضرة مولانا أمير المؤمنين أيده الله فقبلت يده الكريمة وتيمنت بمشاهدة وجهه المبارك واقمت فى كنف احسانه بعد طول الرحلة والله تعالى يشكر ما أولانيه من جزيل احسانه وسابغ امتنانه ويديم أيامه ويمتع المسلمين بطول بقائه وههنا انتهت الرحلة المسماه تحفة النظار. فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار. وكان الفراغ من تقييدها فى ثالث ذى الحجة عام ستة وخمسين وسبعمائة والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

﴿ قال ابن جزى ﴾

انتهي مالخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة أكرمه الله ولا يخفى على ذى عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة واتخذ حضرة فارس قرا ومستوطنا بعد طول جولانه الا لما تحقق ان مولانا أيده الله أعظم ملوكها شانا وأعمهم فضائل وأكرمهم احسانا وأشدهم بالواردين عليه عناية وأتمهم بمن ينتمي الى طلب العلم حماية فيجب على مثلى أن يحمد الله تعالى لأن وفقه فى أول حاله وترحاله لاستيطان هذه الحضرة التي اختارها هذا الشيخ بعد رحله خمسة وعشرين عاما انها انعمة لا يقدر قدرها ولا يوفى شكرها والله تعالى يرزقنا الاعانة على خدمة مولانا أمير المؤمنين و يبقى علينا ظل حرمته ورحمته ويجزيه عنا معشر الغرباء المنقطعين اليه أفضل جزاء المحسنين اللهم وكما فضلته على الملوك بفضيلتى العلم والدين . وخصصته بالحلم والعقل الرصين فمد لملكه أسباب التاييد والتمكين وعرفه عوارف النصر العزيز والفتح المبين . واجعل الملك فى عقبه الى يوم الدين . وأره قرة العين فى نفسه و بنيه و ملكه ورعيته ياارحم الراحمين .
وصلى الله على سيدنا و نبينا و مولانا
محمد خاتم النبيين . وامام
المرسلين والحمد لله
رب العالمين .

وكان الفراغ من تاليفها فى شهر صفر عام سبعة وخمسين وسبعمائة .

*

﴿ يقول مصححه الراجى عفو ربه الكريم * ابن الشيخ حسن الفيومى ابراهيم ﴾

حمدا لمن شرح صدور الاجلة الالباء * لاستكشاف ما فى الاصقاع من العادات وجميل الانباء * وصلاة وسلاما على من اطلعه الله على ما كان * وارسله الى الثقلين من انس وجان * وبعد فقد تم طبع هذا السفر المشتمل على معرفة عوائد الاقطار المسمي (تحفة النظار * فى غرائب الامصار * وعجائب الاسفار) تاليف الامام ابى عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بابن بطوطة رحمه الله وذلك ﴿ بالمطبعة الازهرية ﴾ الثابت محل ادارتها بشارع رقعة القمح رقم ٦ بجوار الرياض الازهرية وقد وافق التمام أوائل شهر جمادي الثانية من عام ١٣٤٧ هجرية عليه وعلى آله وأصحابه أتم صلاة وازكى تحية

آمين

المطبعة الازهرية بمصر

فهرست الجزء الاول من كتاب رحلة ابن بطوطه

صحيفه

صحيفه

﴿ تمت فهرست الجزء الاول ﴾

فهرست الجزء الثاني من كتاب رحلة ابن بطوطة

صحيفة

صحيفة

تمت فهرست الجزء الثاني